

الموسوعة المنبريّة في المجالس الرمضانيّة

الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

١٣٤٧ هـ - ١٤٢٤ هـ

دار المرتضى



الموسوعة المنبرية
في
المجالس الرمضانية

٣٥ محاضرة في أثناء الشهر المبارك


بسم الله الرحمن الرحيم

لأمير المنبر الحسيني

المغفور له الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

١٣٤٧هـ ١٤٢٤ هـ

الموسوعة المنبرية في المجالس الرمضانية

٣٥ محاضرة في أفياء الشهر المبارك

تأليفُ

عبد الحسين رضي عبد النبي شهاب البحراني

دار المرتضى

بيروت

دار المرتضى

طباعة، نشر، توزيع

بيروت لبنان، ص.ب ٢٥/١٥٥ الغبيـري

تلفاكس: ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢

مكتبـة: ٠٠٩٦١١٢٧٩٥٥٧

خليوي: ٠٠٩٦١٧٠٩٥٠٤١٢

E-mail:mortada14@hotmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing - publishing - Distributing

Lebanon - Beirut
PO Box: 155/25 Ghobiery

Tel-Fax: 009611840392

Mobile: 0096170950412

E-mail:mortada14@hotmail.com

Printed In Lebanon

يُطلب هذا الكتاب وبقية منشورات

الدار من مكتبة القائم

العراق - بغداد - الكاظمية المقدسة - باب المراد

تلفون: ٠٠٩٦٤٧٩٠١٩٩٢٧٢٠

الطبعة الجديدة

1431 هجريـة

2010 ميلادية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

إلى من كان صبره يوازي الجبال الرواسي، إلى من تجرع كاسات اللوعة، إلى من انبثق منه أريج الإحسان، إلى من جمع بين طرفي النبوة والإمامة.

إليك يا مصباح الدجى وكهف الورى يا أبا محمد أيها الزكي. أهدي هذه البضاعة المزجاة، راجياً منك قبولها لتحظى بقبول المولى جل وعلى، فاعتقادي أنك أحد الأبواب التي توصل أعمالنا إلى اللّه تعالى. سيدي يا من كانت سجيتك الكرم، تكرم واسأل اللّه أن يوف لنا الكيل وأن يتصدق علينا إنه يجزي المتصدقين.

محبكم

عبد الحسين رضي شهاب



مقدمة الكتاب

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ولي الحمد والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله أولي الكرم والمجد، الذين بهم أنقذنا من زيغ النفس واتباع الهوى، وهدانا بهم إلى طاعته وعبادته، وعرفنا بهم ما جاء في محكم كتابه.

وبعد... لقد انطلقت المجالس الحسينية لتقوم بأدوار بالغة الأهمية، وذلك في إبقاء واقعة كربلاء حية نابضة بالحياة، لتشكل مخزوناً عاطفياً هائلاً، يتناغم مع الجانب التثقيفي والتربوي والعقيدي، في الحفاظ على هوية الأمة وبقاء انشدادها إلى دينها العظيم والمبادئ التي ضحى من أجلها محمد وآله الميامين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وكانت تلك الانطلاقة بتوجيه ورعاية مباشرةً من الأئمة الطاهرين عليهم السلام [1]، ثم اتسعت دائرة هذه المجالس وراحت تمتد إلى أوقات أخرى، وأبرز تلك الأوقات هي ليالي شهر رمضان المبارك، فلقد كانت الحسينيات عامرة بذكر أهل البيت عليهم السلام بعد تلاوة القرآن الكريم، ومن ذلك اغتنم الخطباء على اختلاف طبقاتهم هذه الفرصة، بأن يتناولون طرحاً لتفسير بعض الآيات القرآنية، أو بعض الخطب والأحاديث التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام، وكانت رغبتي منذ سنوات عدة أن أوفق لإخراج كتاب في مجالس شهر رمضان المبارك، وفي هذا النمط الخاص من المجالس، فكان هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم، والذي أدعو الله تعالى أن أكون قد وفقت فيه لمساهمة - ولو

(١) قال الإمام الصادق عليه السلام: (رحم الله من أحيا أمرنا) - بحار الأنوار، ج٢، ص١٥١.

متواضعة - في هذا الجانب، والكتاب يقع في خمسة وثلاثين محاضرة، كما وأن الخطيب المتمكن يستطيع أن يجعل بعضها لأكثر من مجلس واحد، أو أن يختصرها في واحد، كما وإنني لم أتوسع كثيراً في أحداث كربلاء وجوانبها العاطفية، بل اختصرت على الخاتمة فقط، لأن ذلك يحتمه المكان والزمان بالنسبة للخطيب.

ومن ذلك فقد جاءت هذه المجالس بهذه الكيفية التي تراها أيها القارئ الكريم، والتي أرجوا من الإخوة أن يبدوا عليها ملاحظاتهم ونقدهم البناء لي مباشرة لكي أوفق إلى تصحيح ما نقص فيها في الطبعات اللاحقة، أو ما يجب وضعه في الحلقات القادمة، إذا وفقني الله إلى ذلك، ومنه تعالى أستمد التوفيق والمعونة، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

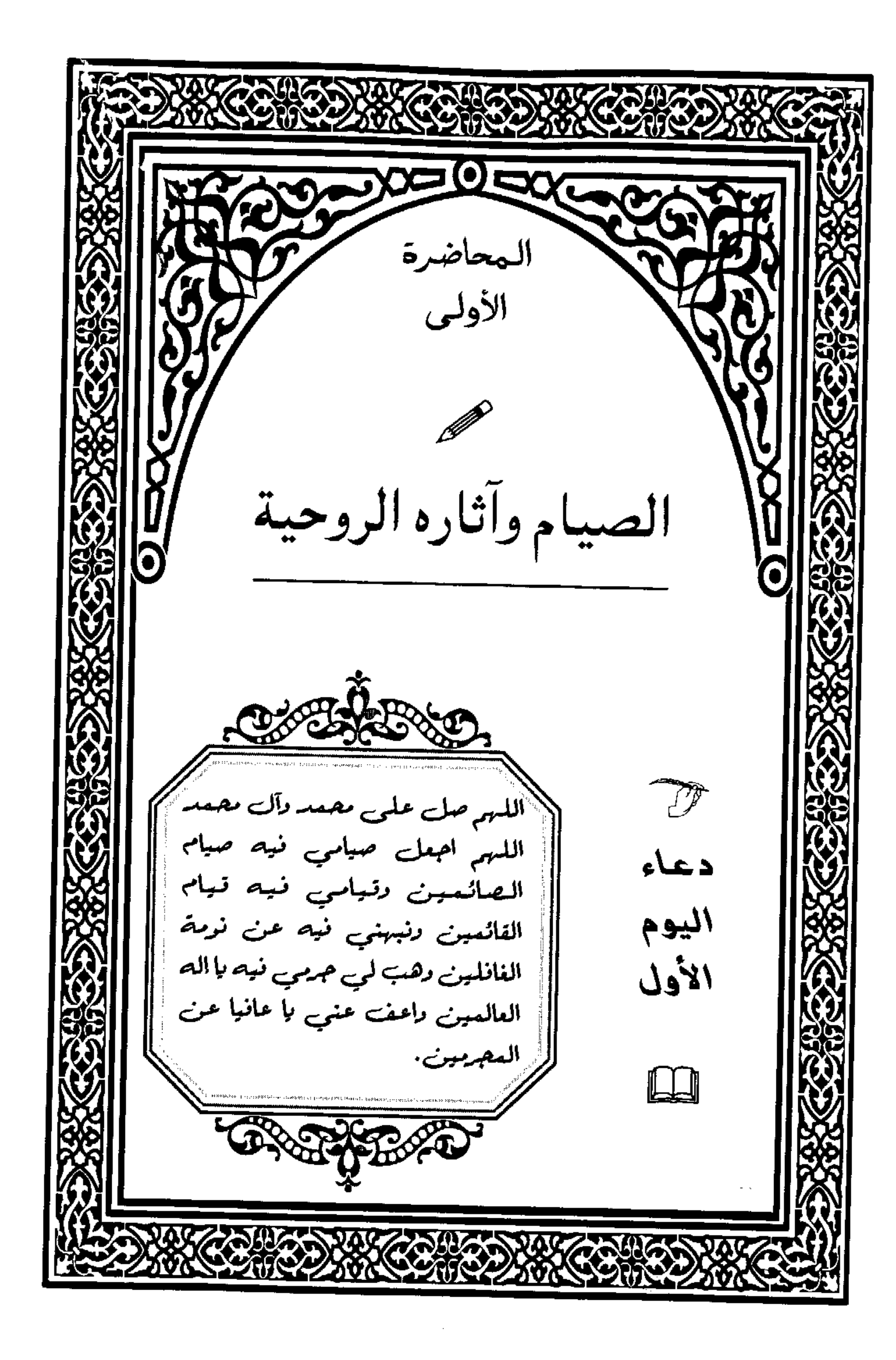
وكذلك اخص بالذكر والرحمة أستاذ المنبر الحسيني الراحل العلامة الدكتور الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله، الذي تظلّل أنفاسه العطرة الفوّاحة على هذا السِّفر؛ والله من وراء القصد.

المؤلف

عبد الحسين رضي عبد النبي شهاب

الدرازي - البحراني





المحاضرة
الأولى

الصيام وآثاره الروحية

دعاء
اليوم
الأول

اللهم صل على محمد وآل محمد اللهم اجعل صيامي فيه صيام الصائمين وقيامي فيه قيام القائمين ونبهني فيه عن نومة الغافلين وهب لي جرمي فيه يا اله العالمين واعف عني يا عافيا عن المجرمين.

١

الصيام وآثاره الروحية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(١).

❋❋❋

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾: اصطلح العلماء(٢) على أن لفظة الشهر هي المدة الزمنية التي تتحقق من بداية فترة إلى نهايتها، وهي التي تتراوح بين تسعة وعشرين يوماً إلى ثلاثين يوماً، وذلك بالنسبة إلى الأشهر القمرية، فالشهر القمري قد يكون تسعة وعشرون يوماً وقد يكون ثلاثون يوماً، حيث أنه لا يتجاوز هذا العدد ولا يقل عنه، هذا ما اصطلح عليه الفقهاء، وعبروا عنه بالشهر.

كما وأن القرآن الكريم عبر عن فترة الصيام بأنها شهر، وأما لفظ الشهر فهو مأخوذ من الشهرة، وذلك لاشتهاره بين الناس عندما يرونه. وأما لفظ - رمضان - فهو اسم كبقية الأسماء، إلا أن العلماء اختلفوا في هذه التسمية، هل أنها من الأسماء المشتقة، أم أنها من الأسماء الجامدة؟ فبعضهم قال: إن هذا الاسم من

---

(١) سورة البقرة مقطع من الآية: ١٨٥.
(٢) علماء الفقه.

الأسماء المشتقة، بدليل أن الصيام قد شُرع في شدة الحر، حيث كانت حرارة الرمضاء حينذاك بالغة، فاشتقاقاً له من هذا المعنى أطلق عليه رمضان[١].

البعض الآخر قال: كذلك، أي أنه من الأسماء المشتقة، إلا أنه اسم لنوع من أنواع المطر، الذي ينزل في أيام الخريف، فيرمض الأرض - أي ينظفها - فلذلك عُبر عن رمضان برمضان باعتباره ينظف الإنسان، أي يغسله من الذنوب، إلى غير ذلك من الآراء التي لا فائدة في إيرادها، إنما المهم هو الإشارة إلى أن العلماء لهم رأيان في معنى هذا الاسم، فالبعض يذهب إلى أن الاسم من الأسماء المشتقة، والبعض يذهب إلى أن الاسم من الأسماء الجامدة، فالذي يرى أن الاسم جامد يقول: لأن رمضان اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، ولهذا نهى أئمة أهل البيت عليهم السلام عن تسميته بدون الإضافة، فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: **(لا تقولوا جاء رمضان، وذهب رمضان، فإن رمضان أسم من أسماء الله)**[٢].

فبناءً على هذا المعنى تصبح إضافته للتعظيم، مثال ذلك أن نقول بيت الله، ونريد بذلك التعظيم لذلك المكان، كذلك إضافة الشهر لله تعظيماً للشهر، وإلا فالأشهر كلها لله، بل أن كل شيء لله تبارك وتعالى. قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وهنا يأتي السؤال متى نزل القرآن؟ حتى

---

(١) عن الخليل بن أحمد الفراهيدي، أن الرمض هو نوع مطر ينزل مع الخريف، فيهدأ الغبار ويطهر الأرض وينقي الجو... وهو أيضاً مما ينتظر من شهر رمضان، أن يطهر النفوس، وينقي الأرواح ويزيل الآثام، إضافة إلى تطهير الأبدان من الأوضار والأدران. وهذا النوع من المطر يأتي فيجد الأرض حارة محترقة فيلطفها ويبردها..

(٢) مواهب الرحمن ج٣، ص٣٧. كما ذكر العلامة الأجل السيد علي خان المدني «قدس سره» في ص ٤٣٠ من شرح الصحيفة روايتين في الكافي، أولهما عن أبي جعفر عليه السلام وثانيهما عن أبي عبد الله عليه السلام. وهناك ثالثة عن الكاظم عليه السلام يذكرها نقلاً عن الشهيد الأول قدس سره. كلها متحدة المضمون في أنه لا تقولوا هذا رمضان ولا ذهب رمضان ولا جاء رمضان فرمضان اسم من أسماء الله تعالى، وهو عز وجل لا يجيء ولا يذهب ولكن قولوا شهر رمضان. عن النبي صلى الله عليه وآله: **(لا تقولوا رمضان فإن رمضان أسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان)** [كنز العمال خ ٢٣٧٤٣].

تقول الآية: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾؟ واقعاً نحن نعلم من خلال كتب التاريخ الإسلامية، أن أول آية نزلت من القرآن هي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾(١) ...... إلخ. وذلك عندما كان النبي ﷺ يتعبد في غار حراء، في وقت كان مضجعاً وإلى جانبه علي وجعفر، جاءه جبرائيل بأول آية وهي الآنفة الذكر فبلغه إياها، وكان ذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب المرجب لعام البعثة الشريفة(٢)، فبهذا يعتبر أول نزول للقرآن الكريم هي هذه الآية الكريمة، كما أن المقصود هنا بالنزول هو النزول المعنوي وليس النزول المادي، ذلك لأننا نفهم من كلمة النزول هو أن يكون شيئاً ما في مكان مرتفع، ثم يؤتى به إلى مكان منخفض. بينما المقصود هنا بالنزول هو صدور الأوامر من العالي إلى الداني، بعبارة أخرى يعني صدور الأوامر من الجهة العليا إلى الجهة الدنيا. لأن النزول مكاني ومقامي، ولهذا قالوا: إن النزول لا يرمز إلى الحالة المكانية دوماً [أي النزول من مكان عال إلى أسفل]، بل يرمز إلى المقامي في بعض الموارد، فمثلاً في حال وصول نعمة من شخص ذي شأن إلى من هم أقل منه شأناً، فإنه يعبر عنها بالنزول.

وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن الكريم في مورد النعم الإلهية، سواءً كانت نازلة من السماء إلى الأرض كالمطر، أو ما يتوالد على الأرض كالحيوانات، وهذا ما نلاحظه في الآية السادسة من سورة الزمر: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ﴾(٣) وكذلك في الآية الخامسة والعشرين من سورة الحديد، بشأن الحديد: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٌ شَدِيدٌ﴾(٤). . . الخ.

إذاً ما المراد من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾؟ في الحقيقة أن هذا المقطع من الآية تتعدد فيه آراء المفسرين:

الرأي الأول: هو أن قسماً من القرآن الكريم نزل في شهر رمضان

---

(١) سورة العلق، الآية: ١.
(٢) المقنعة - الشيخ المفيد - ص ٢٢٦.
(٣) سورة الزمر، مقطع من الآية: رقم ٦.
(٤) سورة الحديد، مقطع من الآية: رقم ٢٥.

المبارك، والقرآن كما أنه يطلق على الكل منه، يطلق أيضاً على الجزء منه، وبعبارة أخرى إن القرآن بمجموعه يسمى قرآن، والآية من القرآن أيضاً تسمى قرآن، ففي واقع الأمر إن بعض الآيات نزلت في شهر رمضان المبارك، فعندما قالت الآية: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ فإنها تشير إلى أن قسماً من القرآن الكريم أنزل في شهر رمضان.

الرأي الثاني: أن معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يعني أنزل في مدحه القرآن، وهذا التعبير كان معروفاً عند علماء التفسير، بحيث يتردد في تعابيرهم، فيقال: فلان نزل فيه قرآن، وذلك إما لمدحه وإما لذمه، ولا إشكال من أن شهر رمضان نزل في مدحه قرآن، يعني قسماً من الآيات نزلت في فضل هذا الشهر العظيم.

الرأي الثالث: وهو الذي عليه الأغلب أن معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يعني أنزل القرآن فيه دفعة واحده، وذلك إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، أنزله الله عزّ وجلّ في شهر رمضان المبارك ليلة القدر دفعة واحدة، وبقي محفوظاً عند الملائكة، ثم نزلت كل آية من آياته بمناسبتها، إلى أن كمل القرآن في خلال ثلاث وعشرين سنة، فعندما تحدث حادثة تنزل الآية أو - الآيات - المخصصة لها. وإذا أردنا أن نتوسع في هذه النقطة، فإنه قد يقول قائل: وكيف يكون ذلك، وإن كثيراً من الحوادث حدثت بعد ذلك، فكيف يمكن نزول القرآن قبل وقوع الحادثة؟ وكمثال على ذلك واقعة بدر التي حدثت بعد نزول القرآن بأكثر من عشر سنين - كما ينص المفسرون - فكيف يتلاءم هذا القول مع هذا التفسير، من أن القرآن أنزل دفعة واحدة؟ وتوضيح هذا المعنى هو ما قاله العلماء: من أن الزمن بالنسبة إلى البشر يكون غائباً عن أذهانهم، لأن الزمن هو البعد الرابع، وذلك أن الجسم له ثلاثة أبعاد: طول وعرض وعمق، هذه هي الأبعاد الثلاثة. فالزمن هو البعد الرابع، كالطول، والعرض، والعمق، فلهذا إنما يكون الزمن غائباً بالنسبة إلى البشر، حيث أن البشر محدودون بالنسبة للزمن، فالإنسان لا يستطيع أن يرى - بدون واسطة - إلا الشيء الذي بين يديه، وكذلك لا

يستطيع أن يتحدث عن شيء ما أنه حدث إلا إذا حدث، ولهذا ماذا يحدث في الغد القريب أو البعيد فالإنسان لا يعرف عنه شيئاً إطلاقاً، أي لا يستطيع أن يعرف ماذا يأتي في الغد، ذلك لأن بينه وبين الغد فترة زمنية، وهذه الفترة الزمنية بالنسبة إلى الله منعدمة، لأن الله عزّ وجلّ محيط بكل الأشياء، فالكون بين يديه كالرملة بين يدي الإنسان - وهذا المثل أيضاً قد يكون غير صحيح - ولكن أوردناه لوجه التقريب فقط، فقد ورد عن عبد الله بن مسكان، قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الله تبارك وتعالى أكان يعلم المكان قبل أن يخلق المكان. أم علمه عندما خلقه وبعد ما خلقه؟ فقال: (تعالى الله، بل لم يزل عالماً بالمكان قبل تكوينه كعلمه به بعد ما كونه، وكذلك علمه بجميع الأشياء كعلمه بالمكان)[1] وبالسند المتصل عن علي بن عبد الله، قال: حدثنا الحسين بن بشار، عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، قال: سألته أيعلم الله الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون أو لا يعلم إلا ما يكون؟ فقال: إن الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] وقال لأهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[3] فقد علم الله عزّ وجلّ أنه لو ردهم لعادوا لما نهوا عنه، وقال للملائكة لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4] فلم يزل الله عزّ وجلّ علمه سابق للأشياء قديماً قبل أن يخلقها، فتبارك ربنا تعالى علواً كبيراً خلق الأشياء وعلمه بها سابق لها كما شاء، كذلك لم يزل ربنا عليماً سميعاً بصيراً[5] وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: (كان الله عزّ وجلّ ولا شيء غيره ولم يزل عالماً بما يكون، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه)[6]

---

(١) التوحيد - الشيخ الصدوق - ص ١٣٧.
(٢) سورة الجاثية مقطع من، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الأنعام مقطع من، الآية: ٢٨.
(٤) سورة البقرة مقطع من، الآية: ٣٠.
(٥) التوحيد - الشيخ الصدوق - ص ١٣٦ - ١٣٧.
(٦) الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ ص ١٠٧.

إذاً من خلال هذه الأحاديث أن الغيب بالنسبة إلى الله عزّوجلّ غير مُتصور، الله تبارك وتعالى يعلم الغيب، وكل شيء بين يديه، وهو عالمٌ بالأشياء قبل حدوثها ومكانها من موضع الزمن، لذلك أنزل لكل حدث آية من الآيات، أو مجموعة من الآيات، وذلك قبل حدوثها، فمجمل القول هو أن القرآن الكريم أنزل ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، وبعد ذلك مكثت الملائكة تنزل به آيةً آية، فكل مناسبة تحدث تنزل آيتها أو آياتها، المخصصة لها.

إذاً فالقرآن الكريم أنزل في شهر رمضان المبارك دفعةً واحده، ولهذا قال جل وعلا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وهذا هو الرأي المشهور.

كما أن هناك فرق في التعبير للآيات القرآنية يجب أن نلتفت إليه، وهو أن القرآن الكريم مرةً يقول: ﴿نَزَّلْنَا﴾ بعبارة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] ومرةً يقول: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. فقوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾ بعبارة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[2]. فقوله: ﴿نَزَّلْنَا﴾ أي أنه نزل بالتدريج، وقوله: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ أي أنه أنزل دفعة واحدة[3]، فالآية الكريمة عندما قالت: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أشارة إلى أن القرآن الكريم أنزل دفعةً واحدة ليلة القدر إلى سماء الدنيا، يعني أنزل ككل - بأجمعه -، ومن بعد ذلك بدأ يتجزأ آيةً بعد آية. ومن هذا المنطلق القرآن الكريم يريد أن يمدح هذا الشهر بأنه ظرفٌ لنزول القرآن.

فماذا نفهم من هذا المعنى؟ نفهم أن القرآن الكريم شرّف شهرَ رمضان، وهذا أمر لا إشكال فيه، حيث أنه يكون وعاءً للقرآن، فيأخذ الشرف من شرف القرآن، وقد ورد في الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: (لكل شيء ربيع وربيع القرآن شهر رمضان)[4].

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٣.
(٣) كما أن في القرآن الكريم آيات كثيرة جاءت بكلى التعبيرين.
(٤) الكافي ج٢، ص٤٦١.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ واقعاً إن القرآن الكريم أنزل ليكون هدىً للناس، ولكنه بأي معناً يكون هدىً؟ ملخص القول ذلك إذا أنزل للتطبيق في الواقع العملي، وهذه الكلمة يجب أن نقف عندها، لأنها تعني مسألة مهمة في حياة البشرية بمختلف أشكالها، فقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ الهدى هو عبارة عما يهدي من الضلال، فمثلاً عندما يسير الإنسان في طريقٍ مظلم، بطبيعة الحال يحتاج إلى الضياء، لأنه بدون الضياء لا يهتدي إلى بغيته، بينما الضياء يهديه إلى ذلك، معنى ذلك يجنبه العثار، فالقرآن الكريم أنزل ليكون بهذا المعنى، - هدىً للناس - وذلك لأن الإنسان يتخبط في السلوك العملي والسلوك النظري لولا بعثة الأنبياء.

ولتوضيح هذه الفكرة أكثر فأكثر، هو عندما نأتي إلى المجتمع، مثلاً، المجتمع الآن يعيش في (القرن العشرين)، وكل فرد من أفراده يبحث عن الطريق الاقتصادي الصحيح، الذي يوجهه التوجيه السليم، ولكن البشرية إلى الآن لم تصل إلى حل في مشكلتها الاقتصادية، فالبشرية إلى الآن لا زالت تتخبط في الطريق الاقتصادي، بالرغم من وجود كل التقنيات الحديثة، والسبب في ذلك - يوعزه علماء الاقتصاد في الإسلام - هو من جراء التباعد عن المنهج القرآني، فلو أن البشرية رجعت إلى القرآن الكريم لوجدت الحل في مشاكلها الاقتصادية، لأن القرآن عالجها بأدق التعابير، منها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[1]. فمن جملة الأسباب الذي أحدثت المشاكل في الحياة الاقتصادية هو الربا، عن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن علة تحريم الربا؟ قال: **انه لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارة وما يحتاجون إليه فحرم الله الربا لتنفر الناس عن الحرام إلى التجارات وإلى البيع والشراء فيتصل ذلك بينهم في القرض**[2].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) البحار ج١٠٣ ص ١١٩.

كذلك عندما نأتي إلى الطريق التربوي، البعض من الناس يقول: إن أفضل الطرق لتربية الأبناء، أن يُستعمل معهم القوة - القسوة - بالتعبير العامي العصا. البعض الآخر يقول: إن طريق القسوة طريق خاطئ، وليس من الصحيح ذلك، بل الحل الأفضل أن يُستعمل معهم اللين، والتهذيب الهادئ، آخر يقول: يُمزج بين هذا وذاك، آخر يقول: يجب علينا أن نتركه لوحده، فإن لديه طاقات وستتفجر تلك الطاقات في يوم من الأيام وبها يربي نفسه بنفسه. فتبقى الآراء والأفكار متشعبة، ولم يأتي الإنسان بطريقة تُحل من خلالها المشكلة التربوية أبداً، وإلى الآن مشاكل التربية قائمة على قدم وساق. بينما حل هذه المشكلة تكفل بها القرآن الكريم في كثير من الآيات، منها كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1]. بمعنى أن الأب عليه أن يوجه الابن إلى عمل الخير ويؤنبه على عمل الشر، وكذلك يرشده إلى الأماكن التي من خلال وجوده فيها قد يصاغ صياغة مهذبة، منها أن يرشده إلى الذهاب إلى دور العبادة ومجالس الذكر، وكل هذه أمور من شأنها أن تصلحه في الدارين؛ لأن الابن إذا استعمل معه القسوة تحصل عنده ردة الفعل، فيتمادى في الانحراف أكثر فأكثر، وإذا ترك تلقفته الأيدي الأثيمة فتجرفه عن جادة الصواب.

أيضاً عندما نأتي إلى السلوك العملي في تطبيق العدل مثلاً، البعض يقول: أريد أن أحكم بالعدل، فما هو العدل؟ قد يقول قائل: إن العدل لا يتحقق إلا أن أسير الناس على طريق الاكراه. آخر يقول: إن تحقيق العدل هو أن تترك الناس أحراراً، فهي تختار لنفسها ما تريد. فمنهم من يقول العدل هنا، ومنهم من يقول العدل هنا[2]. فتبقى المذاهب والآراء الفكرية مختلفة في التطبيق العملي وفي الرؤية النظرية، وإلى الآن لم تصل إلى الطريق الأمثل، بينما

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) بينما نجد الإمام علي عليه السلام يقول: (من طابق السر علانيته ووافق فعله مقالته فهو الذي أدى الأمانة وتحققت عدالته). [غرر الحكم].

منهج العدل نجده في القرآن الكريم في كثير من الآيات، منها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾(١). فكل أمانة يجب أن ترجع إلى أهلها في المفهوم القرآني، ولكن ما هي الأمانة؟ هل أن الأمانة هي الممتلكات فقط؟ كلا. واقعاً الأمانة لها معانٍ كثيرة، فلا تنحصر في الأموال، إنما الأموال منها، فالوقت أمانة، والمشاعر أمانة، والأعراض أمانة، والدم أمانة، و. . و. . . الخ. إذاً فالقرآن فيه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ يعني أنزل القرآن ليكون هدىً للناس، بعبارة أخرى القرآن الكريم يأمر الإنسان بأن يسير على الطريق الصحيح في الجانب النظري وفي التطبيق العملي.

وهكذا عندما يأتي الإنسان إلى القرآن الكريم يحصل على الهداية التامة في هذه الأمور التي تمت الأمثلة عليها، بل وفي غيرها، وفي جميع مجالات الحياة، فلو أن الإنسانية طبقت كل ما في القرآن الكريم لما انتابتها أي كبوة من الكبوات التي أصبحت الآن تتعثر فيها، فما نجده من تعثر في سير الأمة، هو من جراء تباعدها عن القرآن الكريم.

أيضاً ولتوضيح معنى (هدى) عند المفسرين قالوا: إن الله عزّ وجلّ يريد أن يؤدب عباده، والآداب قد تكون على قسمين: قسم من الآداب آداب نظرية، وقسم من الآداب آداب عملية، فلا الآداب النظرية تغني عن الآداب العملية، ولا الآداب العملية تغني عن الآداب النظرية، فكلاهما ضروريان بالنسبة إلى إصلاح هذا الإنسان، فالله عزّ وجلّ أنزل القرآن يجمع بين النظريتين، يجمع بين الجانب النظري والجانب العملي، فمثلاً عندما نأتي إلى شعيرة الصوم، الصوم من وجهة نظرية، الله تبارك وتعالى عدد لنا فضائله، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: الله تبارك وتعالى: كل عمل بن آدم هو له إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به(٢). فهو عملٌ لله تبارك وتعالى، ومعنى لله أي أنه يربي الإرادة

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٢) القواعد والفوائد للشهيد الأول ج ٢ هامش صفحة ٣٧، وقد جاء هذا الحديث في كتب المؤرخين بصيغ مختلفة منها قال: قال: الله تبارك وتعالى: (كل عمل بن آدم له إلا=

في نفس الإنسان، وبعبارة أخرى أنه أبعد عن الرياء بالمقارنة إلى بقية العبادات، بمعنى أن الإنسان بمقدوره أن يبقى في بيته ولا يتناول أي مفطر من المفطرات، ولا يتحدث للناس بأنه صائم. كما أنه يستطيع أن يأكل ويشرب ثم يخرج ويقول: إنني صائم، فلا يعلم بذلك إلا الله تبارك وتعالى، لأنه المطلع على العبد، بينما إذا خرج العبد صائماً بمحض إرادته، معنى ذلك أنه يمتلك في داخله إرادةً قوية، وقد سيطر بها على غرائزه، فالعبد في صيامه لم يكن ناظراً إلا لله، - هذا أولاً-.

وثانياً: يقول أحد العلماء عند قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[1]. إن الله عزّ وجلّ يوم القيامة يوعز إلى الملائكة فتحمل أطباقاً مملوءة بنعيم الجنة فإذا وفد الصائم تقول له الملائكة: هنيئاً لك وقد جعت قليلاً وستشبع كثيراً وتستقبله بشهواته من الجنة[2]. فهذا المعنى يعبر عنه بالجانب النظري، وقد أعطاه القرآن الكريم الأهمية، بمعنى أنه حث الناس على الصوم نظرياً، وذلك أنه بيّن لهم فضائله، هذه هي إحدى الطرق النظرية التي استعملها القرآن في تهذيب الغرائز.

= **الصوم فإنه لي وأنا أجزي به)** المصدر مشارق الشموس (ط.ق) المحقق الخوانساري... قال: يا رب وما ميراث الصوم؟ قال: **الصوم يورث الحكمة والحكمة تورث المعرفة والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر.** [البحار ج٧٧ ص ٢٧].

(١) سورة الحاقة، الآية: ٢٤.

(٢) قريب من هذه العبارة وردة على لسان الشيخ الوائلي، ولم أعثر عليها في كتب التفسير والحديث، وإنما عثرت على رواية وردت عن مجاهد أنه قال: أيام الصيام: أي كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله. وروى يقول الله عزّ وجلّ: **يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة وغارت أعينكم وخمصت بطونكم، فكونوا اليوم في نعيمكم وكلوا وأشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية** (المصدر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل الزمخشري ج ٤ ص١٥٣). وعن ابن عباس: **هي في الصائمين أي كلوا وشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله**، [المصدر تفسير النسفي ج ٤ ص٢٧٦].

وأما من الوجهة العملية فإن الله تبارك وتعالى عندما فرض الصيام على المسلمين كمفردة من الشعائر الإسلامية، لأنه عبارة عن تطبيقٍ عملي لإعطاء درسٍ أخلاقي يطبق في الحياة، لأن الفرد عندما يكون غنياً قد لا يشعر بمن حوله من الفقراء والمعوزين، بينما إذا كان مفروضاً عليه في كل عامٍ أنه يصوم شهراً كاملاً - كل يوم فيه من طلوع الفجر إلى ما بعد الغروب - فإنه بهذا المعنى قد يستشعر ألم الجوع، وإذا استشعر ألم الجوع، فقد يأتي عليه وقت يتحسس فيه إلى مَن حوله من المعوزين، وتكون الحجة عليه في ذلك إذا لم يعطف على المحتاجين، لأن الإنسان في المجتمع هو واحدة من لبناته، فلا بد وأن تكون لبناته صالحة، بمعنى أنه بعد ذلك إذا أمره القرآن وقال: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[١]. يستجيب إلى هذا الأمر فيقضي على ظاهرة الجوع في المجتمع، لأنه إذا لم يكن كذلك - أي إذا لم يكن صيام - لم يكن هناك شعور بالمسؤولية، فتحدث عند البعض حالات تهز المجتمع من الأعماق.

إذاً فالله تبارك وتعالى فرض الصوم لكي يقدر الغني للفقير حالته ويسد جوعته ويدأب على الإنفاق في سبيل الله، لذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام في جواب من سأله عن علة الصوم قال: (إنما فرض الله الصيام ليستوي به الغني والفقير، وذلك إن الغني لم يكن ليجد مس الجوع فيرحم الفقير، لأن الغني كلما أراد شيئاً قدر عليه فأراد الله تعالى أن يسوي بين خلقه، وأن يذيق الغني مس الجوع والألم ليرق على الضعيف ويرحم الجائع)[٢]. وهذه هي إحدى النقاط المهمة التي كثيراً ما ترد في القرآن الكريم، حيث أنه يضيف الأموال للمجموعة، منها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِالْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٧.

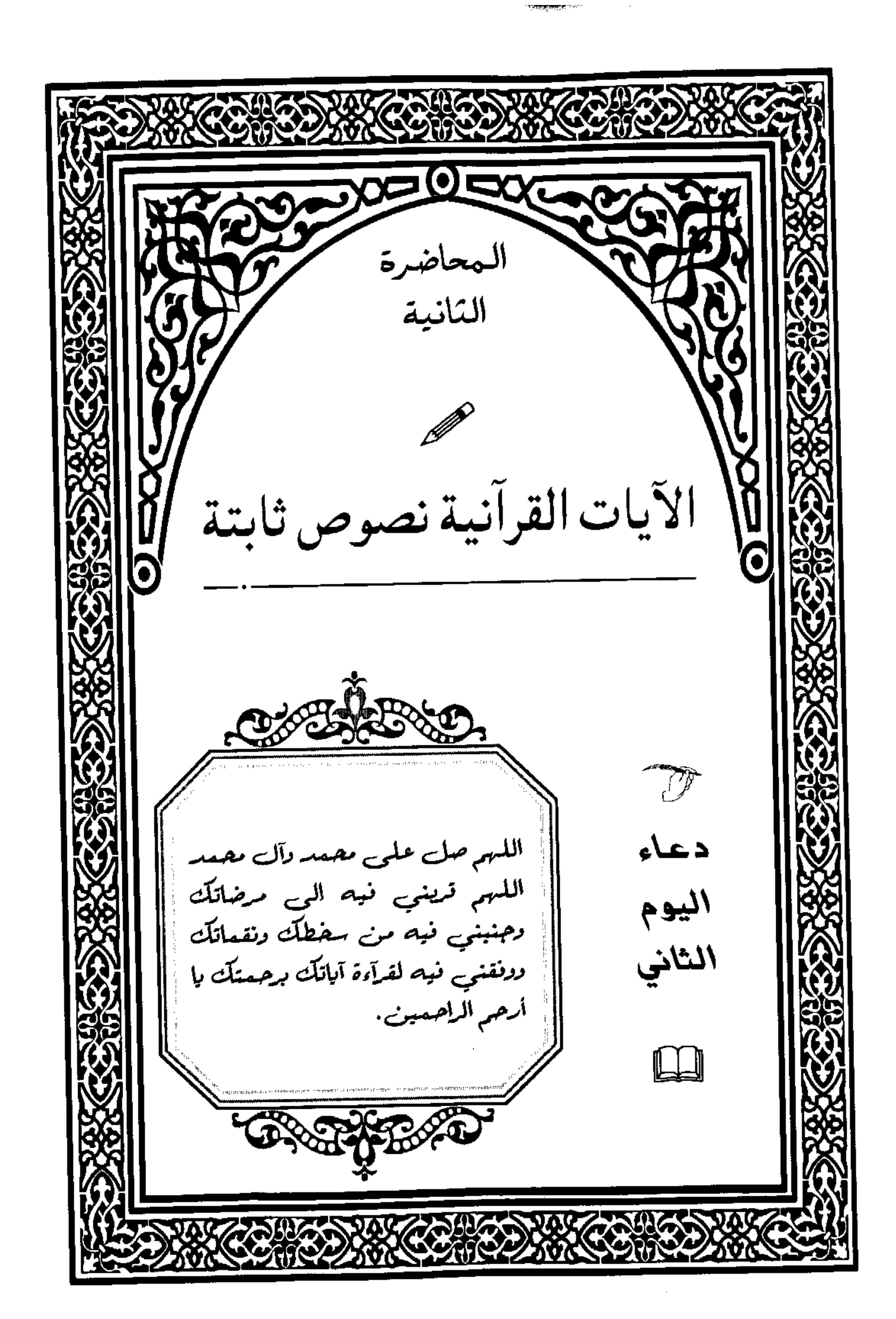
(٢) وسائل الشيعة، ج٧، أول كتاب الصوم، ص٣. وكما ورد عن حمزة بن محمد قال: كتبت إلى أبي محمد العسكري عليه السلام: لم فرض الله الصوم؟ فورد في الجواب: (ليجد الغني مس الجوع فَيَمُنَّ على الفقير). البحار ج - ٩٦ ص ٣٦.

تَعْلَمُونَ﴾[1]. فعموماً القرآن الكريم أنزل ليكون هدىً للناس. إلا أنه وللأسف هذا الجانب لم يعط الأهمية بمقدار ما يجب أن يعطى، وذلك إننا إذا أردنا أن نتلو القرآن الكريم، نتلوه فقط للبركة، بعبارة أخرى عندما تسأل أحدنا وهو يتلو القرآن، لماذا تتلوا القرآن؟ يقول: أتلوه للبركة، بينما البركة تأتي أمراً ثانوياً. ذلك لأن المهم من التلاوة هو أخذ المعلومات والقيام بتطبيقها في الواقع العملي، وبذلك تنصهر حركات الإنسان وسكناته بالقرآن، وعندها يكون القرآن (هدىً للناس)، وهذا هو الغرض الذي أنزل القرآن من أجله. فتنظيم مجالات الحياة لا تتم إلا بتفعيل القرآن الكريم لأنه تكفل بها. ومن هذا المنطلق يجب على الإنسان الرجوع إليه في كل كبيرة وصغيرة، وكذلك الرجوع إلى من جعلهم النبي في عدل القرآن، وهم أهل البيت - علي وأبناؤه الأحد عشر عليهم السلام - حيث أن النبي صلى الله عليه وآله أكد على ذلك في الحديث المتواتر عنه حيث أنه قال عليه السلام: إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً. ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض[2]. ولهذا يذكر المؤرخون أن النبي صلى الله عليه وآله يسألهم يوم القيامة عنهما كما ورد عنه صلى الله عليه وآله فأقول: (كيف خلفتموني من بعدي في أهل بيتي وعترتي وكتاب ربي؟) فيقولون: أما الكتاب فضيعناه، وأما العترة فحرصنا أن نبيدهم عن جديد الأرض[3]. وهذا ما حصل بالفعل لأهل البيت عليهم السلام حيث أنهم وكما قال الشاعر:

ما مات منهم سيد بفراشه ... بل مات مقتولاً بشر قتال
إما بسيف أو بسم قاطع ... والهفتاه لهم وعظم وبال[4]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.
(٢) المعجم الكبير٧: ٢٢ - ٢٣، نوادر الأصول [الحكيم الترمذي] ٣: ٦٣، ٦٦ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودة ١: ٧٢ / ٤، وانظر شواهد التنزيل ١: ١٨٩، ١٩١.
(٣) مثير الأحزان - ابن نما الحلي ص ١٠، بحر الأنوار ج ٤٤ ص ٢٤٩، شجرة طوبى الشيخ محمد مهدي الحائري ج ١ ص ١٢٠. العوالم الإمام الحسين عليه السلام الشيخ عبد الله البحراني ص ١١٨.
(٤) موسوعة المصطفى والعترة - الحاج حسين الشاكري ج ١١ ص ٤٧٦.



المحاضرة
الثانية

الآيات القرآنية نصوص ثابتة

دعاء
اليوم
الثاني

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم قربني فيه الى مرضاتك
وجنبني فيه من سخطك ونقماتك
ووفقني فيه لقرآءة آياتك برحمتك يا
أرحم الراحمين.



٢

الآيات القرآنية نصوص ثابتة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(١).

❊❊❊

لقد مر الكلام في المجلس المتقدم في بعض فقرات هذه الآية الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وحينئذٍ سيدور الحديث في ما تبقى من أبحاثها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ يقول العلماء: إن المقصود من قوله: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ هي آيات الأحكام، وبعبارة أوضح هي الآيات التي تتضمن الأحكام الشرعية، وذلك أن القرآن الكريم يحتوي على خمسمائة آية يعبر عنها بآيات الأحكام، وهي الآيات التي فيها بيان للحلال والحرام والمكروه والمستحب والواجب والمباح، مثلاً منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

هذه الآية هي من آيات الأحكام، فرض الله تعالى فيها الحج وذلك على المستطيع من عباده، كذلك من آيات الأحكام قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[1]. إلى غير ذلك من الآيات التي بين الله تبارك وتعالى فيها حكماً من الأحكام الشرعية للعباد، وعندما يقول: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ بمعنى أن مفهوم العلماء لهذه الآيات أوضح من الآيات الأخرى.

وهنا قد يتساءل البعض يقول: لماذا يعبر عن آيات الأحكام بأنها (بينات) بمعنى واضحات، والحال أننا نشاهد علماء المسلمين كثيراً ما يختلفون في مداليل تلك الآيات التي يعبر عنها واضحات؟

وتوضيح هذه المسألة عند العلماء، والتي هي في غاية الدقة، أنهم قالوا: إن القرآن الكريم اختلفت الأفهام في معناه، بينما النصوص القرآنية ثابتة، وكمثال على ذلك هو النص القانوني، النص القانوني في حد ذاته ثابت، إلا أننا نشاهد فقهاء القانون يختلفون في فهم مداليل المادة القانونية من النص القانوني، مع أن النص ثابت، فقد يكون فقيه من فقهاء القانون يفهم معنى من المادة القانونية يختلف عن فهم الفقيه الآخر مع أن النص ثابت، هنا أيضاً في الفقه الإسلامي نجد الاختلاف عند علماء المسلمين مع أن النص ثابت[2]، مثال ذلك هذه الآية وهي آية الوضوء قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3]. فالعلماء اختلفوا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٢) ونحن هنا لا نريد أن نقارن بين آيات القرآن الكريم والنص القانوني لأن النص القانوني وضعه البشر والبشر كثيراً ما يخطأ، ولكنه مثال لكي نقرب به المعنى إلى الأذهان.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦.

في فهم مدلول هذه الآية[1] فالبعض قال: نستفيد من هذا النص أن غسل اليد

---

(١) يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي [في كتابه التفسير الأمثل ج٣ ص ٥٤٤] في ذيل تفسيره لهذه الآية، وهي الآية السادسة من سورة المائدة، قال بعد ذكر الآية: لقد تناولت الآيات السابقة بحوثاً متعددة عن الطيبات الجسمانية والنعم المادية، أما الآية الأخيرة فهي تتحدث عن الطيبات الروحية وما يكون سبباً لطهارة الروح والنفس الإنسانية فقد بينت هذه الآية أحكاماً مثل الوضوء والغسل والتيمم، التى تكون سبباً في صفاء وطهارة الروح الإنسانية - فخاطبت المؤمنين في البداية موضحة أحكام الوضوء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾[المائدة: ٦]. لم توضح الآية مناطق الوجه التي يجب غسلها في الوضوء، لكن الروايات التي وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام قد بينت بصورة مفصلة طريقة الوضوء التي كان النبي صلى الله عليه وآله يعمل بها. ١ - إن حدود الوجه طولاً من منابت الشعر على الجبهة حتى منتهى الذقن، وعرضاً ما يقع من الوجه بين الأصبع الوسطى والإبهام - وهذا هو ما يسمى ويفهم من الوجه عرفاً، لأن الوجه هو ذلك الجزء من الجسم الذي يواجه الإنسان لدى التلاقي مع نظيره. ٢ - لقد ذكرت الآية حدود ما يجب غسله من اليدين في الوضوء، فأشارت إلى أن الغسل يكون حتى المرفقين - وقد جاء التصريح بالمرفقين في الآية لكي لا يتوهم بأن الغسل المطلوب هو للرسغين كما هو العادة في غسل الأيدي. ويتبين من هذا التوضيح أن كلمة إلى الواردة في الآية هي لمجرد بيان حد الغسل وليست لبيان اسلوبه كما التبس على البعض، حيث ضنوا أن المقصود في الآية هو غسل اليدين ابتداء من أطراف الأصابع حتى المرفقين؛ (وراج هذا الأسلوب لدى جماعات من أهل السنة). ولتوضيح هذا الأمر نقول: أنه حين يطلب إنسان من صباغ أن يصبغ جدار غرفة من حد أرضيتها لغاية متر واحد، فالمفهوم من ذلك أنه لا يطلب أن يبدأ الصباغ عمله من تحت إلى فوق، بل أن ذكر هذه الحدود هو فقط لبيان المساحة المراد صبغها لا أكثر ولا أقل، وعلى هذا الأساس فإن الآية أرادت من ذكر حدود اليد بيان المقدار الذي يجب غسله منها لا أسلوب وكيفية الغسل. وقد شرحت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أسلوب الغسل وفق سنة النبي صلى الله عليه وآله وهو غسل اليدين من المرفق حتى أطراف الأصابع. ويجب الانتباه إلى أن المرفق - أيضاً - يجب غسله أثناء الوضوء، لأن الغاية في مثل هذه الحالات تدخل ضمن المغيي، أي أن الحد يدخل في حكم المحدود. ٣ - إن حرف (ب) - الوارد مع عبارة «برؤوسكم» في الآية يعني التبعيض، كما صرحت به بعض الروايات وأيده البعض من علماء اللغة، والمراد بذلك بعض من الرأس، أي مسح بعض من الرأس حيث أكدت روايات الشيعة=

يبدأ من المرفق إلى نهاية الذراع، لأن ما بين الذراع والعضد هو المرفق، بلحاظ أن - إلى - تفيد الغاية، بعبارة أوضح إلى النتيجة، مثال ذلك كما يقول شخصٌ لآخر: سر إلى الباب، معنى ذلك سر إلى أن تصل إلى الباب، كأنما يحدد له المشي من مكان معين إلى أن يصل إلى الباب، كذلك حد الوضوء إلى هنا وهو المرفق، فالبعض فهم أن -إلى - للغاية، والمرفق هو ما بين الذراع والعضد، البعض فهم هذا المعنى بهذا الفهم. بينما الآخر كان فهمه للآية يختلف عن فهم الفقيه الأول، فقال: إن القرآن الكريم لم يحدد الغسل وإنما حدد المغسول، مثال ذلك أن يقول شخص لآخر أكنس الجامع إلى الباب، إلا أنه لم يبين له من أي مكان يبدأ، وإنما أراد أن يكنس المكان بالكامل، فمن أي جهة يبدأ لم يحدد له ذلك، هذا المعنى يسمى عندهم تحديد للغسل وليس تحديد للمغسول، فعندما يقول: إلى المرافق معنى ذلك أن تلك المنطقة لابد وأن تغسل، أما من أي جهة لم يكن هناك تحديد.

إذاً الآية بهذا الفهم مجمله، فلابد وأن يرجع فيها إلى بيان خارجي، والبيان الخارجي هو فعل النبي ﷺ حيث أنه قال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[1] فالذي فهم المعنى الأول إلى المرافق بمعنى الغاية، هو أنه سأل واحداً من أبناء النبي إما الحسن أو الحسين اللذان عاشا معه، قال: لأحدهما: كيف كان جدك يتوضأ؟ فقال: هكذا، فكان الفقيه الأول فهمه لتفسير الآية ممن له اتصال بالنبي مباشرةً وهو أحد أبنائه، - ابن من نزل

= أن هذا البعض هو ربع الرأس من مقدمته، فيجب مسح جزء من هذا الربع حتى لو كان قليلاً باليد، بينما الرائج بين البعض من طوائف السنة في مسح كل الرأس وحتى الأذنين لا يتلاءم مع ما يفهم من هذه الآية الكريمة. ٤ - إن اقتران عبارة «أرجلكم» بعبارة «رؤوسكم» دليل على أن الأرجل يجب أن تمسح هي - أيضا - لا أن تغسل، وما فتح اللام في «أرجلكم» إلا لأنها معطوفة محلاً على «رؤوسكم» وليست معطوفة على «وجوهكم». ٥ - تعني كلمة «كعب» في اللغة النتوء الظاهر خلف الرجل، كما تعني - أيضاً - المفصل الذي يربط مشط الرجل بالساق.

(١) الخلاف الشيخ الطوسي ج ١ ص ٣١٤، الرسائل التسع المحقق الحلي ص ١١٢، غنية النزوع ابن زهرة الحلبي ص ٧٩.

القرآن عليه-. والذي فهم المعنى الثاني للآية (المرافق) بمعنى النهاية، هو أنه أخذ ذلك من رجل عاش مع النبي ﷺ، فالاثنان استندا إلى دليل، وهذا الأمر لم يكن نقصان في الآية، وإنما هو نقصانٌ - عند البعض - في مفهوم الدليل. ثم بعد ذلك عندما قالت الآية: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ قال صاحب الرأي الأول: إن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، والعرب تعطف على أقرب المعطوفات عليه، فعندما قال: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ ينبغي أن يكون العطف على الممسوح وليس على المغسول. إذاً من هذا المنطلق لم يكن الاختلاف لنقصانٍ في مضمون الآية، وإنما لاختلاف الأفهام. فآيات الأحكام إذاً واضحة ولكن طبيعة الأفهام تختلف[1].

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ يعني أن القرآن الكريم إذا أنزل إلى التطبيق العملي يُفرق به بين الحق والباطل، فيعرف المؤمن الحق فيتبعه، ويعرف الباطل فينته عنه.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ يقول العلماء: إن المقصود من قوله تعالى: ﴿مَن شَهِدَ﴾ أي من حضر، وليس المقصود من ذلك من رآه، لأن المراد من المشاهدة هي الحضور، كما نقول نحن في مصطلحاتنا العامية فلانٌ شاهد أي أنه حاضر، كذلك هنا المراد به المقيم في بلده أو المكان الذي له فيه إقامة، فمن شهد أي من كان حاضراً وحصلت له الرؤيا وعدم المانع فليصم شهر رمضان، وهنا قد يتساءل البعض، بأن يقول: شهود الشهر كيف يتم، وذلك أن الشهر ثلاثون يوماً والإنسان لا يراه كله، لأنه ليس من الأشياء التي ترى، إنما الشهر هو عبارة عن معنى، أي أنه أمر معنوي، فكيف يكون هذا المعنى؟ قالوا: - أي العلماء - يعني حضر الفترة التي يعبر عنها بالشهر من أولها، لأن العرب قد تسمي الكل بأسم الجزء، وهو أن يكون

(١) لمزيد من الإطلاع على كيفية الوضوء عند الشيعة والسنة انظر رسائل ومقالات - الشيخ جعفر السبحاني - من صفحة ٤٠٨ إلى صفحة ٤١١. فإن له تحليلاً ممتعاً في هذا الباب.

الإنسان في أول لحظة من لحظات الشهر حاضراً في بلده، أو في مكان له فيه إقامة فعلاً، لهذا قال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ بمعنى أن من حضر أول رؤية هلال شهر رمضان فليصم - أي أنه مطلوب بالصيام-.

ثم بعد ذلك قالت الآية: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هذا المقطع من الآية يبين أن هناك ترخيص للعباد في بعض الحالات في هذه الشعيرة مع أهميتها، وهي الحالة التي يتعذر على الإنسان فيها الصيام، كما لو كان الإنسان في وقت من الأوقات في حالة مرض، فحينئذ يتعذر عليه الصيام، لأنه يحتاج في ذلك الوقت أن يتناول الدواء. أو أن يتنقل من بلدٍ لآخر، والصيام من خلال ذلك التنقل يضعفه، فالله تبارك وتعالى بلطفه ورحمته أسقط عن أمثال هؤلاء الصيام مؤقتاً، وذلك ليتسنى لهم القيام بما يحتاجون إليه، وبعد ذلك يقضون الصيام، وهذا مما يدل على أن القرآن الكريم يختلف عن الدساتير الوضعية التي تضعها البشر، فالبشر في دساتيرهم إذا أقروا شيئاً لا يمكن لأي فرد من الضعفاء أن يتعدى ذلك الشيء بحال من الأحوال، وإن كان ذلك يؤدي إلى هلاكه، بينما القرآن الكريم يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ وهنا لفتة يضعها الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حول هذا المقطع في كتابه - التفسير الأمثل - بأن يقول: وهذه الإشارة تدور طبعاً هنا حول موضوع الصوم وفوائده وحكم المسافر والمريض، ولكن أسلوبها العام يجعلها قاعدة تشمل كل الأحكام الإسلامية، ويصير منها سنداً لقاعدة - لا حرج - المعروفة. هذه القاعدة تقول لا تقوم قوانين الإسلام على المشقة، وإن أدى حكم إسلامي إلى حرج ومشقة فإنه يرفع عنه مؤقتاً ولذلك أجاز الفقهاء التيمم لمن يشق عليه الوضوء، والصلاة جلوساً لمن يشق عليه الوقوف. وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1] وعن رسول الله ﷺ قال: (**بعثت على الشريعة السمحة السهلة**)[2].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج١، ص٤٦١.

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ يقول المفسرون: أي أنه يتعين على كل إنسان سليم معافى أن يصوم شهراً كاملاً وهو شهر رمضان، وذلك ضروري لتربية جسمه(١) ونفسه(٢). لذلك وجب على المريض والمسافر أن يقضي ما فاته من شهر رمضان ليكمل العدة، وحتى الحائض - التي أعفيت من قضاء الصلاة - غير معفوة عن قضاء الصوم. والعبارة الأخيرة من الآية تقول: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٣) على ما وفر لكم من سبل الهداية، ولتشكروه على ما أنعم عليكم، الشكر في الآية مسبوق بكلمة (لعل) لكن التكبير مؤكد بشكل قاطع غير مسبوق بترج. وقد يعود الاختلاف في التعبير إلى أن عبادة - الصوم - هي على كل حال تكبير لله وتعظيم له سبحانه، أم الشكر - وهو إنفاق النعم في مواضعها والاستفادة من الآثار العملية للصوم - فله شروط وأهمها الإخلاص التام وفهم حقيقة الصوم، والإطلاع على أبعاده وأعماقه. إذا عرفنا هذا نرجع إلى معرفة الصوم عند العباد، واقعاً الصوم عند العباد ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن البعض معرفتهم للصوم هو أنه إذا صار النهار لا يأكلون ولا يشربون، وإذا جاءهم الليل عوضوا معدتهم بكثير عما توقفوا عنه أثناء النهار، فمثلاً إذا كان الفرد منهم في الأيام التي سبقت الشهر يأكل رغيفاً واحداً، إذا صام وصار وقت الإفطار يأكل ثلاثة أرغفة، يعني ما اعتاد عليه من قبل وزيادة، أي أنه يحتاط لنفسه بأن يعوضها.

القسم الثاني: أن البعض يفهم الصوم بأن يتوقف عن ملء المعدة بالطعام والشراب ليس إلا، كما ليس هناك شيء آخر يمتنع عنه، فإذا مضى الصائم إلى محل عمله أو إلى مكان آخر لا يضع في اعتباره أي محذور يمتنع عنه،

---

(١) قال رسول الله ﷺ: (لكلي شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام). [البحار ج٩٦ ص ٢٤٦]. وقال ﷺ: (صوموا تصحوا) [البحار ج٩٦ ص٢٥٥].

(٢) في حديث المعراج... قال يا رب وما ميراث الصوم؟ قال الصوم يورث الحكمة والحكمة تورث المعرفة والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد لا يبالي كيف أصبح بعسر أم بيسر. [البحار ج٧٧ ص٢٧]

(٣) سورة البقرة، مقطع من الآية: ١٨٥.

فيبقى على ممارساته الخاطئة التي كان يزاولها من قبل، فيبقى يمارس الكذب، والغش، والرياء، والنظرات المحرمة، وإلى آخره من الأمور التي هو منهيٌّ عنها حتى في حال الإفطار. يعني كأنما ليس لله على عمله رقيب، وهذا هو المعنى الذي يشير إليه الحديث الشريف: (**كم مِنْ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش**)[١]. فهناك شريحة من الناس تفهم الصوم بهذا المعنى، فهذا الصوم يعبر عنه بصوم عموم العموم.

القسم الثالث: أن البعض يفهم الصوم بأن يمتنع عن الطعام والشراب وعن باقي المفطرات وزيادةً على ذلك يمتنع عن الكذب وعن بعض الأعمال التي من شأنها تجرح الصوم، ولكنه في نفس الوقت يسيء خلقه، فإذا واجهته مشكلة من المشاكل ينسى تلك الأحاديث التي تنهاه عن ذلك، منها كما عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لمحمد بن مسلم: (**يا محمد إذا صمت فليصم سمعك، وبصرك، ولسانك، ولحمك، ودمك، وجلدك، وشعرك، ولا يكون يوم صومك كيوم فطرك**)[٢].

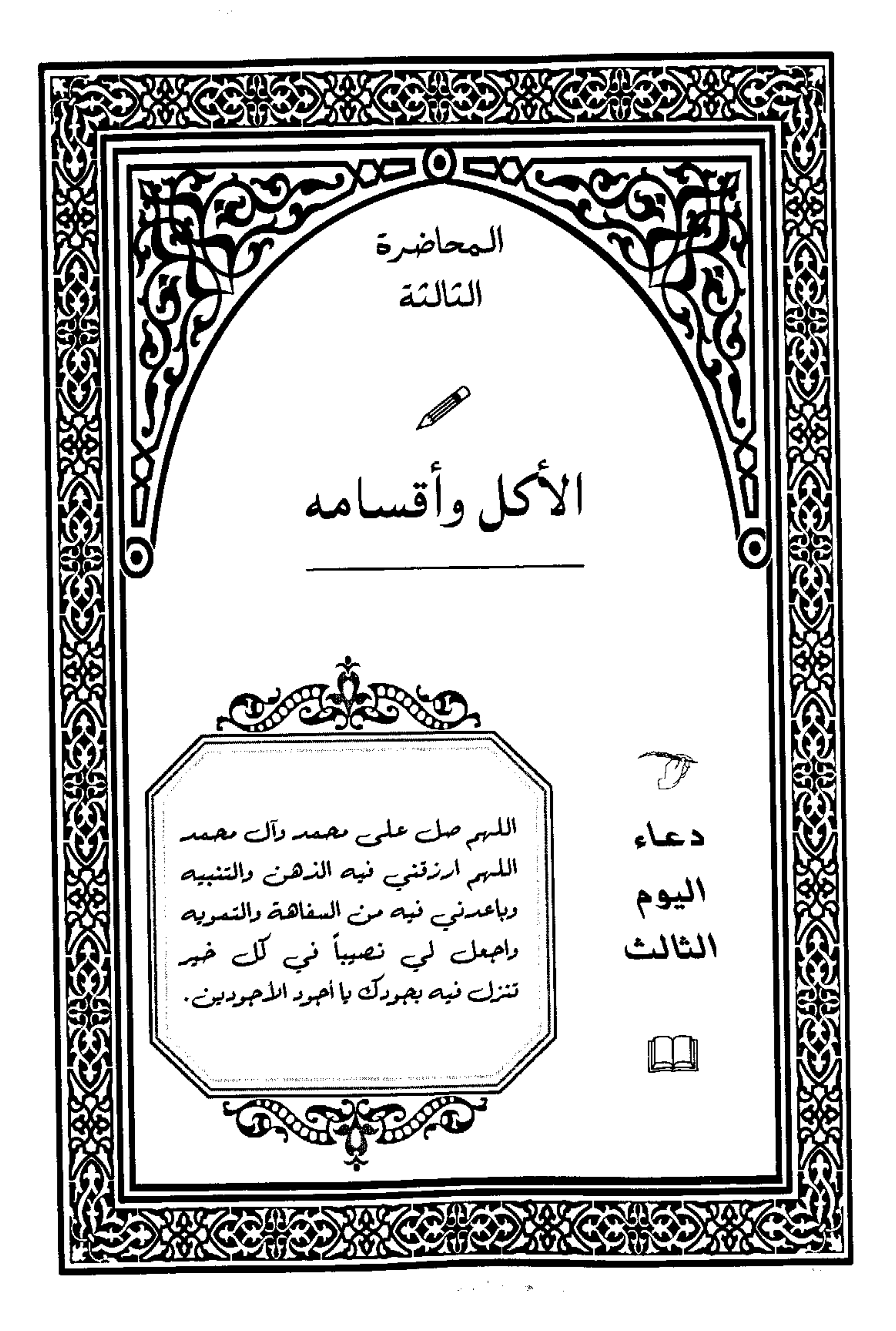
القسم الرابع: أن البعض يؤدي الصوم بالشكل الذي أمر الله تبارك وتعالى به، فيطبق كل التعاليم الإسلامية في الصوم، وهذا ما يعبر عنه عند العلماء بصوم خصوص الخصوص، وهو الصوم الذي يمنع الإنسان عن الأمور الدنيئة فيجعله بعد ذلك لا يشعر إلا بالله تعالى فينقطع إلى الله تبارك وتعالى. وهذا ما حدا بالإمام الحسين عليه السلام فإنه صام يوم العاشر من المحرم، ولكنه أفطر بعد الظهر، وذلك بطعنات السيوف وضربات الرماح. وهو المعنى الذي عناه السيد حيدر في هائيته إذ قال:

ما حال صائمة الجوارح أفطرت ... بدمٍ وهل تروي الدماء إضماءها
ما حال عاقرة الجسوم على الثرى ... نهبت سيوف أمية أعضاءها[٣]

❊❊❊

---

(١) بحار الأنوار ج ٩٣ ص ٢٩٤، كلمة التقوى ج ٢ ص ١٠٥.
(٢) المقنعة - الشيخ المفيد ص ٣٠٥.
(٣) ديوان السيد حيدر الحلي ج ١ ص ٢٥.



المحاضرة
الثالثة

الأكل وأقسامه

دعاء
اليوم
الثالث

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم ارزقني فيه الذهن والتنبيه
وباعدني فيه من السفاهة والتمويه
واجعل لي نصيباً في كل خير
تنزل فيه بجودك يا أجود الأجودين.



٣

الأكل وأقسامه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١﴾[(١)].

❋❋❋

الآية الكريمة تحدثت في موضوع من المواضيع المهمة، الذي يرتبط ارتباطاً مباشراً بحياة الإنسان المادية والمعنوية، ألا وهو موضوع - الطعام - الذي لا غنًى لأي كائنٍ عنه. ومن ثَم نجد العلماء قسموه إلى ستة أقسام:

القسم الأول: الأكل الواجب، **القسم الثاني:** الأكل المستحب، **القسم الثالث:** الأكل المباح، **القسم الرابع:** الأكل المكروه، **القسم الخامس:** الأكل الحلال، **القسم السادس:** الأكل الحرام، والحرام ينقسم إلى قسمين: حرام في حد ذاته وحرام من جهة اكتسابه، ولكل واحد ضوابط معينة ذكرها الفقهاء[(٢)] وعلماء الأخلاق في كتبهم، وأوضحوا ذلك بأحاديث وردت عن النبي الأكرم ﷺ وعن أهل البيت عليهم السلام[(٣)].

---

(١) سورة طه، الآية: ٨١.

(٢) منها كما في منهاج الصالحين السيستاني [كتاب الأطعمة والأشربة] من صفحة ٢٩١ إلى صفحة ٣١٢ تفصيل واسع في ذلك.

(٣) منها قال: الإمام علي عليه السلام: ضمنت لمن سمى على طعامه أن لا يشتكي منه. (المحجة البيضاء ج - ٣ص١٢).

وعنه عليه السلام: من ذكر اسم الله عند طعام أو شراب في أوله، وحمد الله في آخره لم يسأل عن نعيم ذلك أبداً. (الوسائل ج - ١٦ص٤٨٤).

=

القسم الأول: الأكل الواجب: نجد أن العلماء يقولون في تعريفه، هو ما يحفظ الإنسان به نفسه عن التلف[(١)]. وذلك أن الإنسان قد تمر عليه حالات إذا لم يأكل فيها الطعام يعرض نفسه إلى الموت، ففي مثل هذه الحالة يكون الطعام المحرم عليه أكله، واجب عليه أكله لا حلالاً فقط؛ لأنه يصبح بعد ذلك مقدمة لحفظ النفس، وحفظ النفس واجب، فالتالي مقدمة الواجب واجبة - كما يقول العلماء - فمثلاً الميتة التي حرمها الإسلام، حينئذٍ يجوز بل يجب أكلها، وذلك إذا لم يحصل الإنسان على غيرها أو بديل لها.

القسم الثاني: الطعام المستحب: هو أن الإنسان قد تمر عليه حالات يستحب له فيها أن يتناول الطعام؛ منها أن يعيش ابنٌ مع أبويه، ومن المعلوم أن الأبوان يأنسان إذا جلس الابن يأكل معهما، ففي مثل هذه الحالة يستحب للابن أن يأكل مع أبويه، ولكن بشرط أن لا تسبق يده يد أحدهما، بحيث لا يتسابق معهما بأكل اللقمة، وإنما يشعرهما بالاحترام والتقدير، لأنهما يكونان حينئذٍ مأنوسان بقربه منهما، وعليه يصبح هذا العمل نوعاً من أنواع البر، وكذلك بالنسبة إلى المُضيف مع ضيفه إذا جلسا على الطعام، يُستحب للمضيف أن يأكل مع ضيفه الطعام[(٢)]، وذلك ليرفع عنه الانكماش، ويرفع

= الإمام الحسن عليه السلام: في المائدة اثنتا عشر خصلة يجب على كل مسلم أن يعرفها، أربع منها فرض وأربع تأديب، فأما الفرض فالمعرفة، والرضا، والتسمية، والشكر، وأما السنة، فالوضوء قبل الطعام والجلوس على الجانب الأيسر والأكل بثلاث أصابع ولعق الأصابع، وأما التأديب، فالأكل مما يليك، وتصغير اللقمة، وتجويد المضغ، وقلة النظر في وجوه الناس. (الوسائل ج - ١٦ص٥٤٠).

الإمام الصادق عليه السلام: من غسل يده قبل الطعام وبعده بورك له في أوله وآخره وعاش ما عاش في سعة وعوفي من بلوى في جسده.) الوسائل ج١٦ ص٢٩٤) وعنه عليه السلام: أقروا الحار حتى يبرد. (الوسائل ج - ١٦ ص٥١٦) إلى غير ذلك من الأحاديث التي بهذا الصدد.

(١) ومن ثَم وردت مسألة في المسائل المنتخبة (السيستاني) تؤكد هذا المعنى وهي مسألة١٢٤٠ [إذا أشرفت نفس محترمة على الهلاك أو ما يدانيه لشدة الجوع أو العطش وجب على كل مسلم إنقاذها بأن يبذل لها من الطعام أو الشراب ما يسد به رمقها].

(٢) هكذا ورد في منهاج الصالحين السيستاني ص٣١٠ [أن يبدأ صاحب الطعام قبل الجميع ويمتنع بعد الجميع].

عنه الخجل، لأن ذلك من الأخلاق التي حث الإسلام عليها[١]. لأن الضيف إذا جلس لوحده على الطعام يتضايق من ذلك، فمظهر من مظاهر التكريم أن يكون صاحب البيت يأكل مع ضيفه.

وهذا هو المعنى الذي يشير إليه حاتم الطائي إذ يقول:

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب عندي والمكان جديب
وما الخصب للاضيف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب[٢]

إذاً فالضيف له حق على مضيفه، وذلك بأن يستقبله بوجه بشوش، ويتناول معه الطعام حتى ينبسط عنه الانقباض، وينصرف عنه التزمت. ففي مثل هذه الحالة يقول العلماء يكون الأكل مستحب، لأنه مظهر من مظاهر الأخلاق.

القسم الثالث: الأكل المباح: الأكل المباح طرقه متعددة وكثيرة، كما أن الأكل الحرام طرقه متعددة وكثيرة. فأولاً: ما يصدق عليه - حلالاً - هو ما لم يتعدى فيه الإنسان على أموال الغير، وثانياً ما لم يكن مما نهى الشارع المقدس عنه[٣]، فلهذا وسائل تحصيل المال الحلال واضحة في كتب الفقه، منها أن يعمل الإنسان عند الآخرين بأجر، أو أنه يتجر ببضاعة من شأنها أنها تفيد الغير وليس فيها ضرر، ولهذا استفاضت الأحاديث عن الرسول الأكرم ﷺ وعن الأئمة الهداة من أهل البيت عليهم السلام في الحث الشديد على طلب الرزق الحلال، وعلى التكسب بالطرق المباحة في الشريعة الإسلامية المطهرة، وفي الحث الشديد على التجارة بالخصوص. ففي الحديث عن

---

(١) عن النبي ﷺ أنه قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه). [البحار ج - ٦٢ص٢٩٢]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (ما من مؤمن يحب الضيف إلا ويقوم من قبره ووجهه كالقمر ليلة البدر فينظر أهل الجمع، فيقولون: ما هذا إلا نبي مرسل! فيقول ملك: هذا مؤمن يحب الضيف ويكرم الضيف، ولا سبيل له إلا أن يدخل الجنة). [جامع السعادات ج٢ ص ١٥٦].

(٢) أمالي السيد المرتضى٢: ١٢٣.

(٣) أنظر كتاب التجارة / **المكاسب المحرمة** [منهاج الصالحين ص٥] وغيره من كتب الفقه.

النبي ﷺ: (العبادة سبعون جزءا أفضلها طلب الحلال)[١]. وعن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً عن الناس وسعياً على أهله وتعطفاً على جاره، لقي الله عزوجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر[٢] وفي الحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: (تعرضوا للتجارة فإن لكم فيها غنى عما في أيدي الناس وان الله عزوجل يحب المحترف الأمين). وعنه عليه السلام أنه قال للموالي: (اتجروا بارك الله لكم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: الرزق عشرة أجزاء، تسعة أجزاء في التجارة، وواحد في غيرها)[٣].

القسم الرابع: الطعام المكروه: الطعام المكروه هو أن يأكل الإنسان وإلى جانبه ذو عينين فلا يعطيه من ذلك الطعام شيئاً أبدا، فمثلاً لو أن حيواناً قريباً من إنسانٍ ما، وكان ذلك الإنسان يأكل الطعام، ولا يعطيه من ذلك الطعام شيء، يقول العلماء: إن ذلك الأكل يصبح مكروهاً، فإما أن يعطيه شيئاً مما يأكل وإما أن يبتعد عنه.

ولهذا يقول أحد العلماء بالنسبة إلى قوله تعالى في الآية الكريمة القانع والمعتر، بأن القانع هو الكلب حيث أنه يقنع إذا أعطي، والمعتر هو القط - السنور - لأن القط حتى وإن أعطي كثيراً ما يلح[٤]. فالمهم أن ذو عينين المراد منه الحيوان، فما ينبغي له أن يُترك وهو ينظر إلى طعام يُؤكل، لأنه لا

---

(١) الكافي للشيخ الكليني ج٥ - ص٧٨، وفي تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج٦ - ص٣٢٤.

(٢) كلمة التقوى للشيخ محمد أمين زين الدين ج٤ - ص٧.

(٣) مجموعة الأحاديث من كلمة التقوى (كتاب التجارة) ص ٧، لزين الدين. وكذلك موجودة في كتب أخرى من كتب الحديث.

(٤) ورد هذا التعبير على لسان الدكتور الوائلي. بينما القول المشهور عند كثير من المفسرين يختلف عن ذلك، وهو أن القانع يطلق على مَن يقنع بما يعطى وتبدو عليه علائم الرضاء والارتياح ولا يعترض أو يغضب، أما المعتر فهو الفقير السائل الذي يطالبك بالمعونة ولا يقنع بما تعطيه بل يحتج أيضاً. هذا ما ذهب إليه الشيخ ناصر مكارم شيرازي في كتابه الأمثل في ذيل تفسير الآية ٣٦ من سورة الحج.

يستطيع أن يعبر للآخرين بأنه جائع. وهذه لفتة أخلاقية يحث الإسلام عليها، وهي في واقع الأمر تحتاج منا إلى تأمل، وذلك أن الإسلام راعى مشاعر الحيوان، وذلك في فجر الدعوة الإسلامية.

ومن ثَم نجد المؤرخين قد ذكروا حادثة لغلام كان يعمل في ضيعة للإمام الحسين عليه السلام وهذه الحادثة تنم عن مكارم الأخلاق، حيث أن الإمام الحسين عليه السلام اعتنى بتهذيب ذلك الغلام وتربيته:

والحادثة هي أن الإمام كانت له ضيعة، وفيها غلام يصلحها يسمى صافي، وذلك بتفويض من الإمام الحسين عليه السلام، وفي كل يوم يؤتى إليه بالطعام، وفي يوم من الأيام جيء إليه بطعامه على العادة، ووضع بين يديه، فجلس صافي يريد أن يأكل، وإذا بكلب ينظر إليه وإلى ذلك الطعام، وكان ذلك الطعام ثلاثة أرغفة وقطع من الحم، فالتفت إليه فرآه جالساً ينظر إليه، فوضع له قطعة من الحم فأكلها، ثم وضع له أخرى فأكلها، إلى أن أنهى ذلك الطعام، ثم قام وهو يقول: **اللهم لك الحمد، اللهم أشبعني واجز عني سيدي خيراً.** تقول الرواية: هذا والإمام الحسين عليه السلام ينظر إليه عن بعد، عندها أقبل إلى الضيعة وقبل أن يدخلها خاطبه قائلاً: (اجعلني في حل يا صافي، دخلت بستانك بغير إذنك) - حيث أنه قرر في نفسه أن يهب له ذلك البستان - ثم دخل الضيعة قائلاً: (إني رأيتك ترمي بنصف الرغيف إلى الكلب وتأكل نصفه، فما معنى ذلك؟) قال صافي: سيدي أبا عبد الله إن أرضنا لم نعهد فيها كلاب، وإن هذا الكلب يبدو لي أنه قد جاء من مكان بعيد، بل ويظهر من خلال وقوفه أنه في غاية السغب، إلا أنه لا يستطيع أن يعبر عن ذلك، وأنا يا سيدي أستطيع أن أعبر، فلهذا أعطيته ذلك الطعام. تقول الرواية: فبكى الحسين عليه السلام ثم قال: (إن كان كذلك فأنت عتيق الله). فقال صافي: سيدي إني لا أحب أن تعتقني، بل أحب أن أكون في خدمتك في هذه الضيعة، فقال له الإمام عليه السلام: (إن الكريم إذا تكلم بكلام ينبغي له أن يصدقه بالفعل، البستان أيضاً وهبته لك، وإني لما دخلت البستان، قلت: اجعلني في حل فإني قد دخلت بستانك بغير إذنك كنت قد وهبت البستان بما فيه، غير أن

هؤلاء أصحابي لأكلهم الثمار والرطب، فأجعلهم أضيافك وأكرمهم لأجلي أكرمك الله يوم القيامة، وبارك لك في حسن خلقك ورأيك). فقال الغلام: إن وهبت لي بستانك فاني قد سبلته لأصحابك[1]. فالمهم أن مورد من موارد الطعام المكروه هو ما ذكرناه وهذا نموذج واضح للتدليل.

القسم الخامس: الأكل الحلال: وهو الذي لا يرتبط بحالة من هذه الحالات أبداً، بحيث يلاحظ فيه الفرد المسلم رأي الشارع الإسلامي، وذلك أن الإسلام وضع ضوابط معينة للمال الحلال وقد ذكرها الفقهاء في الرسائل العملية، منها أن لا يكون المال مصدره من المعاملات الربوية، لأن الربا هو أحد الأضرار الاجتماعية التي من خلالها تحدث الشحناء في قلوب أفراد المجتمع، كما وأنه يهرق جهد العامل من جهة أخرى، وقد ورد في الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام: (لعن رسول الله صلى الله عليه وآله الربا وآكله وموكله وبائعه ومشتريه وكاتبه وشاهديه). وفيه عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: (أخبث المكاسب كسب الربا)[2]. وفي الصحيح عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: (درهم الربا أشد عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم)[3].

ومن تلك الضوابط أن لا يكون المال الذي يريد الفرد أن يشتري به الطعام قد حصل عليه من خلال مزاولته للكذب لأن الله حرم الكذب ولعن الكاذبين[4].

---

(١) قريب منه أنظر مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ٧ ص ١٩٢، جامع أحاديث الشيعة - السيد البروجردي - ج ٨ ص ٥١٧، نهج السعادة الشيخ المحمودي ج ٨ ص ٢٨٦.

(٢) الحدائق الناضرة - البحراني ج ١٩ ص ٢١٥.

(٣) كلمة التقوى ص١٣١ زين الدين.

(٤) عن أبي جعفر عليه السلام قال: [الكذب هو خراب الإيمان] أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الكذب، ح٤. وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله يكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، قيل ويكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل ويكون كذاباً؟ قال: لا. [وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب ١٣٨، باب تحريم الكذب].

ومن تلك الضوابط: أن لا تكون الأموال قد حصل عليها من الغش، فقد ورد عن النبي ﷺ: المسلم أخو المسلم، ولا يحل لمسلم إن باع من أخيه بيعاً فيه عيب أن لا يبينه له[١]. وقال ﷺ: (من غش المسلمين حشر مع اليهود يوم القيامة لأنهم أغش الناس للمسلمين)[٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: (شر الناس من يغش الناس)[٣]. كما وأن الفقهاء أكدوا على ذلك، فقد جاء في المسألة الثلاثون من كلمة التقوى للشيخ محمد أمين زين الدين قال: (لا ريب في حرمة الغش في المعاملة وقد تكثرت الأدلة الواردة في تحريمه وفي الوعيد على ارتكابه، ففي الحديث عن الرسول ﷺ: (ومن غش مسلماً في بيع أو في شراء فليس منا ويحشر مع اليهود يوم القيامة، لأنه من غش الناس فليس بمسلم) - إلى أن قال ﷺ - (ألا ومن غشنا فليس منا)، قالها ثلاث مرات، (ومن غش أخاه المسلم نزع الله بركة رزقه وأفسد عليه معيشته ووكله إلى نفسه)[٤] إلى آخره مما هو موضح في كتب الفقه.

القسم السادس: الطعام المحرم[٥]: الطعام المحرم هو ما اشتمل على ضرر في حد ذاته، أو من جهة اكتسابه، فنوع من أنواع الأطعمة تشتمل على ضرر ذاتي، مثال ذلك: الخمرة، فالخمرة فيها ضرر ذاتي، وذلك أنها تزيل العقل، حيث أنها تهجم على العقل وتفترسه، والعقل أثمن شيء عند الإنسان، كما وأنه ثبت لدى الأطباء أنها تنخر الجسم أيضاً. أضف إلى ذلك أن هناك أنواع أخرى من الأطعمة نص الشارع المقدس على تحريمها

---

(١) المستدرك الحاكم - النيسابوري - ج ٢ ص ٨، السنن الكبرى - البيهقي - ج ٥ ص ٣٢٠.
(٢) من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ١٧٣.
(٣) غرر الحكم.
(٤) كلمة التقوى ص ١٩ زين الدين.
(٥) قال رسول الله ﷺ: (إن لله ملكا على بيت المقدس، ينادي كل ليلة: من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل) أي لا نافلة ولا فريضة [جامع السعادات ج٢ ص ١٧٠].

واعتبرها من الخبائث، وذلك لأنها تشتمل على ضرر ذاتي، وقد أوضح الفقهاء ذلك في كتبهم[١].

القسم الأول من الأطعمة المحرمة: فمنها ما هو في الحيوانات البرية، ومنها ما هو في البحر، ومنها ما هو في الجو. فلهذا الفقهاء يضعون قاعدة ينصون عليها بالنسبة إلى الطيور، منها أن الطير الذي يكون صفيفه أكثر من دفيفه فإنه يحرم أكله - صفيف يعني يسير في الجو مبسوط الجناحين لا يحركهما غالباً -[٢] بينما الطير الذي يخفق بجناحيه أكثر فهو حلال، يسوغون أكله. وهذه القاعدة التي عند الفقهاء تتبع الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام فالمهم أن الطعام الذي يشتمل في حد ذاته على ضرر حرمه الإسلام.

القسم الثاني الأطعمة المحرمة: فهو الطعام الذي يشتمل على ضرر من جهة اكتسابه، - لأن الضرر تارة يكون مع النفس وتارة يكون مع المجتمع - ومن ذلك مثلاً أن يكون لحمٌ حلال، أي أنه مذكى، ولكن الأموال التي اشتري بها اللحم من سرقة.

أو أن تكون فاكهة مباحة، ولكن الأموال التي اشتريت بها الفاكهة من الربا، وهكذا كل ما اشتمل على ضرر من جهة اكتسابه فهو حرام، لأن ذلك ضرره ضررٌ اجتماعي، بأن تكون فيه سطوة على حقوق الآخرين، فبالتالي هو حرام، لأن الله تبارك وتعالى يريد من المسلمين أن يحفظوا بعضهم البعض في دمائهم وأموالهم وأعراضهم[٣].

---

(١) منها على سبيل المثال كما في منهاج الصالحين السيستاني مسألة ٨٧٧: [لا يحل من حيوان البحر إلا السمك، فيحرم غيره من أنواع حيوانه حتى المسمى باسم ما يؤكل من حيوان البرّ كبقره وفرسه، وكذا ما كان ذا حياتين كالضفدع والسرطان والسلحفاة على الاقوى، نعم الطيور المسماة بطيور البحر - من السابحة والغائصة وغيرهما - يحل منها ما يحل مثلها من طيور البر].

(٢) شرائع الإسلام كتاب الأطعمة والأشربة الحلي.

(٣) يقول الإمام الصادق عليه السلام: **(المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدةً فيخلفه). [البحار ج٧٤ ص٢٦٨].**

إلى غير ذلك من الأمور التي أوضحها الفقهاء وجاءت عن طريق أهل البيت عليهم السلام الذين أناروا لنا الطريق بأحاديثهم والتي جاءت مطابقة لأهداف القرآن الكريم وسنة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله فإنهم قد حرصوا على هدايتنا وإرشادنا، ولهذا يروى أن أعمالنا تعرض عليهم، فإذا رأوا في أعمال الفرد، وإذا رأوا سيئةً ساءتهم، كل ذلك شفقة علينا[(١)] ولذلك تجد أنهم ضحوا وبدلوا كل غالٍ ونفيس لأجلنا. فالإمام الحسين عليه السلام وهو أنشودة الدهر وقف يوم العاشر من المحرم وقدم تلك الفتية الأعزاء، وبعد ذلك قدم النفس حتى بقي على رمضاء كربلاء تطأه خيول الاعوجية بحوافرها.

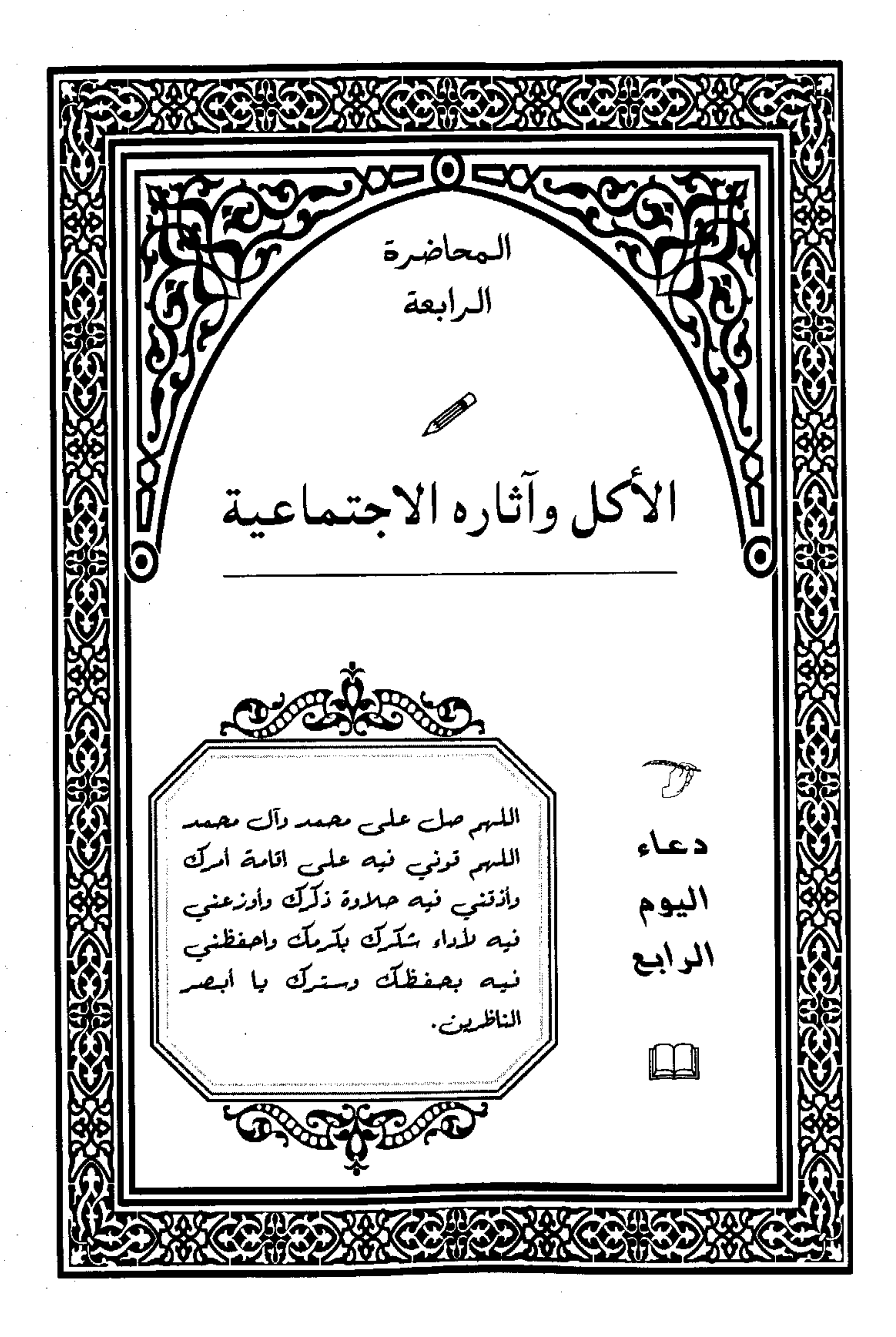
هيهات لا أنساب تنفع لا ولا
احساب تنجي في القيامة لا ولا
مال ولا ولد سوى حسن الولا
لمحمد ولآله خير الملا[(٢)]



(١) عن الحسن بن علي الوشاء عن أحمد بن عمير عن أبي الحسن عليه السلام قال: سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] قال: إن أعمال العباد تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله كل صباح أبرارها وفجارها فاحذروا. المصدر بصائر الدرجات ص٤٤٤. وأيضاً الشيعة في أحكام الشريعة الشهيد الأول ج ٢ ص ٩٠، وكتب أخرى.

(٢) للحاج الملا مهدي الشهابي البحراني في ديوانه «النصرة المهدية».





المحاضرة
الرابعة

الأكل وآثاره الاجتماعية

دعاء
اليوم
الرابع

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم قوني فيه على اقامة أمرك
وأذقني فيه حلاوة ذكرك وأوزعني
فيه لأداء شكرك بكرمك واحفظني
فيه بحفظك وسترك يا أبصر
الناظرين.

٤

الأكل وآثاره الاجتماعية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[١].

***

الآية الكريمة يمتزج فيها الفقه الاجتماعي بالفقه الاقتصادي، وذلك أنها تحدثت كما ذكرنا - في المجلس المتقدم - عن الأكل وما يترتب عليه من مردودات على الصعيدين الاجتماعي والفردي، وهذا المعنى سيتضح من خلال المرور بالأبحاث التي تتعلق بفقرات الآية الكريمة.

فأول شيء ذُكر في الآية الكريمة قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُوا۟﴾ وهذا الفعل كما يعبر عنه العلماء:[٢]. بأنه - أمر-. ولكن هل أن هذا الأمر يستفاد منه الوجوب؟ يعني كغيره من الأفعال الواردة في القرآن الكريم[٣]؟

من المؤكد أنه لا يستفاد منه الوجوب، وذلك لأن الأكل حاجة طبيعية، والحاجة الطبيعية فطر الله تبارك وتعالى الإنسان عليها، فالإنسان بلا اختيار يأكل، وذلك عندما يجوع، فليس هناك حاجة من أن الله عزوجل يأمره بذلك،

---

(١) سورة طه، الآية: ٨١.

(٢) كما في قطر الندى لابن هشام وغيره من كتب النحات.

(٣) لأن هناك من الأفعال وردت في القرآن الكريم يستفاد منها الوجوب كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] وكذلك وردت الكثير من هذا القبيل في القرآن الكريم.

الله تبارك وتعالى إنما يأمر عباده بالأمور الاختيارية، التي باستطاعتهم أن يأتون بها أولا يأتون، بينما هذا الأمر خارج عن نطاق ذلك.

إذاً ما هو المقصود من الأمر هنا؟ قالوا: إن المقصود منه الإباحة، يعني مباح لكم أن تأكلوا. كما يستفاد من لفظ كلوا أمران:

الأول: إن هذا الفعل دل على استحباب الكسب، لأن الإنسان من أي الطرق يأكل؟ وذلك أن الآية قالت: ﴿كُلُوا﴾؟ واقعاً إن الأعم الأغلب من الناس يأكل من كسب يده، فقد يُدعَ إلى وليمة، ولكن ذلك في أوقات نادرة، لا تحصل إلا في بعض الأحيان.

فإذاً القاعدة الأساسية أن الأكل لا يتوفر إلا بعد العمل، فإذا عمل الإنسان، وحصل على شيء من المال، بعد ذلك يشتري له الطعام.

إذاً فالآية تدل على استحباب العمل، من أن الإنسان يعمل حتى يأكل، إلا أن العمل قد يكون على أشكال مختلفة، فمرةً يكون العمل يدوياً، ومرةً يكون العمل فكرياً ومرةً يكون اجتماعياً، ولكن المهم من ذلك هو أن يعمل. بحيث يشعر الإنسان بأنه أعطى مقابل ما أخذ، يعني عندما أكل أعطى، وذلك قبل أن يأكل، وهذه هي الظاهرة التي يصورها أبو الطيب المتنبي في إحدى خاطراته الفكرية إذ يقول:

أبداً تسترد ما تهب الدنيا ... فياليت جودها كان بخلا
وهي معشوقة على الغدر ... لا تحفظ عهداً ولا تتمم وصلا
كل دمع يسيل منها عليها ... وبفك اليدين عنها تخلى[1]

كأنما الدنيا إذا أعطت الإنسان شيئاً ما، قد تسترده في يوم من الأيام، ففي الوقت الذي أعطته شيئاً من المال مثلاً، فإنها في المقابل أخذت من العمر المعد له، وهذا هو الشيء الأثمن من كل شيء، لأن تلك الساعات التي صرفها في العمل أُخذت من المدة الزمنية التي أعدت له في هذه الحياة، ومن

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ٣ ص ٣٣٦، أعيان الشيعة السيد محسن الأمين ج٢ ص ٥٤١، يتيمة الدهر الثعالبي ج ١ ص ٢٦٢.

الطاقة الجسدية المودعة لديه، لأن الإنسان له ساعات ودقائق معدودة في هذه الحياة، وله طاقة فكلما نقصت ساعة من الزمن، في المقابل نقص من العمر المُعد، وهذا هو المعنى الذي يقول عنه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **نفس المرء خطاه إلى أجله**[1]. وكذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام: **أكبر ما يكون الإنسان يوم ولادته، وأصغر ما يكون يوم يموت**[2] فهذا هو الأمر الأول.

الأمر الثاني: أن الآية بعد أن استفدنا منها استحباب العمل، نستفيد منها أيضاً أن الإنسان لا ينفك وجوده عن العمل، يعني لا يمكن لأي إنسانٍ أن يضع يداً على يد، وينتظر بأن السماء تغير له الأوضاع المعيشية ما لم يسع في تغييرها، بحيث أن الله تبارك وتعالى أجرى الأشياء بمسبباتها، ولو لم يكن كذلك لما عُمرت الأرض، بينما الأرض تحتاج لمن يعمرها؛ وذلك من قبيل فلاح يحرث الأرض ويصلح المزروعات، وطبيب يداوي المرضى، ومعلم يدرس الناشئة، وغير ذلك من مجالات الحياة، بحيث أن كل بعد من أبعاد الحياة يحتاج إلى من يملؤه؛ وإلا إذا لم يكن كذلك تصبح الحياة حظيرةً للكسالى، بينما الجليل جل وعلا استعمر الإنسان في الأرض بمعنى أمره بإعمارها، فلا سبيل لإعمارها إلا بالعمل، والعمل وحده هو الذي يصنع الحياة، لذلك يقال إن العامل صانع الحياة، وصحيحٌ هذا المعنى.

أضف إلى ذلك إن الكسب يجعل الإنسان يشعر بالكرامة الفعلية، فإذا لم يكتسب وهو قادر على الكسب لا يشعر بالكرامة أبداً[3]، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **(ما أكل العبد طعاماً أحب إلى الله تعالى من كد يده، ومن بات كالاً من عمله بات مغفوراً له)**[4]. هذا هو الأمر الثاني الذي نستفيده من الآية الكريمة عندما قالت: ﴿كُلُوا﴾ وأباحت لنا الأكل.

---

(١) بحار الأنوار ج ٧ ص ١٢٨، ميزان الحكمة ج ١ ص ٢٨، شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١٨ ص ٢٢١.

(٢) مستند الشيعة المحقق النراقي ج ١٩ ص ٢٢٥.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (**ما أكل أحد قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**) [الكنز ٩٢٢٣].

(٤) كنز العمال ج ٤ ص ٩، [illegible] ج ٣ ص ٢٦٩٩.

بعد ذلك جاءت تقيد ذلك الأكل بضوابط معينة، حيث أنها قالت: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وهنا قد يتساءل البعض: ما هو المقصود بالطيبات في الآية الكريمة؟ هل أن المقصود بالطيبات هو كل ما استطابه الإنسان على حد تعبير البعض؟ أو أن المراد غير ذلك؟

واقعاً هنالك آراء لعلماء الاقتصاد في الديانات الوضعية؛ فمثلاً الاقتصاد الماركسي والرأسمالي وغيرهما من المذاهب الأخرى، هؤلاء قد جردوا العملية الاقتصادية والإنتاجية عن العامل الأخلاقي تماماً، فيقال للفرد كن منتجاً بأي صورة من الصور، أي أنهم يطلبون من الفرد أن يجمع الأموال وبدون ملاحظة من أي طريق تجمع، وبالتالي ليس لديهم منافيات بأن يكون المال من غش، أومن سرقة، أو من ربا، أو من كذب، أو غير ذلك، إنما المهم تكديس الأموال بأي طريقة من الطرق.

بينما هذا الأمر لا يرضاه علماء الاقتصاد في الشريعة الإسلامية، وذلك أن الاقتصاد الإسلامي يضع العامل الأخلاقي عند بدء العملية الإنتاجية، فعندما يضع الفلاح الحبة في الأرض يضع الإسلام العامل الأخلاقي معها، إلى أن تصل إلى فم الإنسان فيأكلها، فالحبة عندما تنبت وتترعرع يتعلق بها الحق الشرعي، حق المجتمع، بحيث أن العامل الأخلاقي يتماشى معها دائماً، وهذه هي إحدى مميزات الاقتصاد الإسلامي، من أن العامل الأخلاقي لا ينفك عن العامل الاقتصادي، فمثلاً الشارع الإسلامي يتساءل عندما تُشق الأرض وتوضع فيها الحبة، هل أنها سقيت من الماء الحلال؟ هل أن الأسمدة التي وضعت فيها لأحد فيها متعلق؟ عندما ترعرعت وكبرت هل أخرج منها الحق الشرعي؟ هذه أمور يناقشها علماء الاقتصاد في الشريعة الإسلامية، كل ذلك مراعاةً للحقوق. ولهذا القرآن الكريم يؤكد على هذا المعنى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾[1] كذلك طريقة الأكل بأي صورة تتم[2]،

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٢٤.

(٢) للإطلاع بصورة مفصلة راجع صفحة ٣١٠ إلى ٣١٢ منهاج الصالحين القسم الثاني فتاوى السيد السيستاني.

كل هذه الأمور راعاها الإسلام، لأن هذه الأمور وأمثالها تحفظ كيان المجتمع، فلهذا قالت الآية: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ﴾ أي المحللات، فإذا كان الفرد في المجتمع يعرفها فيعمل على أساسها، وإذا كان لا يعرفها يرجع إلى المختصين في ذلك، ليتعرف عليها، لكي يتخلص من المحذورات الشرعية، كما أن المحرمات يرجع أسرار تحريمها إلى الله عزوجل ، فكل شيء يأتي التحريم فيه من الله، لا بد وأن يكون ذلك الشيء فيه ضرر، إما ضرر فردي، أو ضرر اجتماعي، أو ضرر صحي، لأنه من حكيم عليم. بينما البشر إذا أحلوا شيئاً أو حرموه، كثيراً ما يكون ذلك التحريم أو التحليل بلا ضوابط، وهذا ما نشاهده اليوم في كثير من الفتاوى التي ليس لها ارتباط بالقرآن الكريم؛ فمثلاً العرب كانت لديهم تحكمات عجيبة، منها أنهم يرون أن الشاة البيضاء تترك للعبادة، وإذا أُكلت من طريق ذئب أو غيره، يبحثون عن أخرى للغرض نفسه، بينما لو أراد باحث أن يبحث البياض بالنسبة إلى الشاة من أن تحمل لوناً آخر غير اللون الأبيض لما وجد هناك مسوغ لهذا الاختيار، يعني ما الفرق من أن يكون اللون بني، أو أصفر، أو غير ذلك من الألوان مثلاً؟ فواقعاً الألوان ليست لها حقيقة موضعية، وإنما هي موجات بين البصر والمُبصر. كذلك نجد لديهم تحريم الحامي والوصيلة، وكلها أمور ليست لها ضوابط، بينما الأمور التي يذكرها علماء المسلمين تنسجم مع فطرة الإنسان التي فطر الله الناس عليها، لأنهم قد أخذوا ذلك من القرآن الكريم، قال جل وعلا: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١). إذاً فالقيد الأول الذي ذكرته الآية الكريمة، هو أن يأكل الإنسان من الطيبات وهي المباحات.

القيد الثاني: هو أن يكون الأكل من رزق الله تبارك وتعالى، بحيث أن الآية وضعت هذا القيد وهو ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ورزق الله طُرقه كثيرة ليس لها عد. وهنا قد يتساءل البعض يقول: وهل هناك رزق يأتي من عند غير الله تبارك

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠/٣٠.

وتعالى؟ نعم هناك رزق الشيطان، وهو الذي يأتي من الطرق المخالفة لأوامر الله، مثال ذلك أن يعيش إنسانٌ والعياذ بالله على القمار، أو على الغش، بأن تكون جماعة من الناس يضعون لهم سلعة ويتزايدون عليها، وكل تلك الزيادة مفتعلة، والقصد من ذلك أن يأتي إنسان ما، ليس له علم، ويقع في ذلك الشباك فتذهب ثروته، فمن خلال هذا العمل ونحوه يصبح المال من رزق الشيطان، ولكن الله تبارك وتعالى يرزق عباده، - كما قدمنا -، قال: الإمام الباقر عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: (ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله عز وجل، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله، فإن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً، ولم يقسمه حراماً، فمن اتقى الله عز وجل وصبر أتاه الله برزقه من حله، ومن هتك حجاب الستر وعجل فأخذه من غير حله قص به من رزقه الحلال، وحوسب عليه يوم القيامة)[1]. فليجعل الفرد المسلم هذا الأمر نصب عينه ليتخلص من الحرام، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾. ثم انتقلت الآية الكريمة تبين الضابط الأخير فقالت: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ ما المراد من قوله: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾؟ واقعاً هنا معنيين في الآية عند العلماء.

المعنى الأول: في قوله: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ هو أنه إذا توفرت الطيبات لديكم لا يحملنكم وجودها عندكم على التعالي على الآخرين، مثلاً البعض قد يرى نفسه يأكل ما يشتهي، ويلبس ما يشتهي، فحينئذ يجب أن لا يحمله ذلك على الطغيان، فليكن دائماً خائفاً وراجيا، وذلك لكي لا يكون كبعض الأشخاص الذين تحدث عنهم التاريخ، ومنهم الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي يتحدث عنه أحد ندمائه يقول: دخلت على الرشيد في يوم من الأيام فلما استقر بي معه الجلوس، طلب الماء، فجاءه أحد غلمانه بالماء، فشرب منه قليلاً فوجده حاراً، فرمى بذلك الكأس في وجه ذلك الغلام حتى شجه، قائلاً له: لماذا جئتني بماء حار؟ يقول: نديمه - وهو يتحدث عنه - فأخذت

---

(١) تذكرة الفقهاء (ط.ج) العلامة الحلي ج ١٢ ص ١٢٧.

أتململ لفعله، فقال لي: لماذا تتململ؟ قلت: لفعلك هذا، حيث أنكم بالأمس كنتم تأكلون السخينة وكانت أحسن طعام لديكم، حتى عيرتم بها على لسان أحد الشعراء، فقال:

زعمت سُخينَةُ[١] أن ستغلب ربها وليغلبن مُغالبُ الغَلاب[٢]

فما هو الموجب حينئذ بأن تكسر هذا الجام المرصع بالذهب وبالأحجار الكريمة بوجه هذا المسكين، وأنت تعلم أنه قد كلف بيت المال عشرة آلاف دينار من الذهب؟ يقول: فكان جواب الرشيد لي، أن قال: لا تقل هكذا، أنا ألبس النعمة ما لبستني فإذا خلعتني خلعتها.

ففي واقع الأمر إن هذا المنطق لا يتناسب مع المفهوم الإسلامي، المفهوم الإسلامي هو أن يشكر الإنسان النعمة التي أنعم الله بها عليه، وأن يضعها في الوجه الصحيح، ولا يتعالى بها على الآخرين.

المعنى الثاني: عند العلماء في قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ بمعنى أن لا تسرفوا، مثلاً: إذا كانت وجبة الفرد بمقدار كمية معينة من الطعام، لا يهيىء ضعفها ثم تكون نهايتها إلى القمامة، لأنه بهذا العمل يسبب ضرراً لنفسه وللآخرين، أما ضرره على نفسه فهو بهذا العمل يقلل من رصيده الاقتصادي في المستقبل، وذلك ليجعل الإنسان في اعتباره أن الغد لا يدري ماذا يعطيه، أي أن الأموال الموجودة لديه حينئذ قد لا تبقى، وهذا ما شاهدناه بأعيننا، وقرأنا عنه في القضايا التاريخية.

يذكر المؤرخون: أن رجلاً من كتّاب العباسيين زار أمه في يوم من أيام عيد الأضحى، فعندما أراد الخروج من عندها نظر في الدار، فإذا بامرأة جالسة في زاوية من زوايا الدار وعليها ثياب دنسة، على حد تعبيره، مما دعاه إلى

---

(١) ويعني بسخينة: قريشاً؛ فقد كان من جوعهم يأكلون السخينة، ويعتبرونها من الأكلات الراقية عندهم، وهي أن يؤتى بالماء فيغلى ثم يلقى فيه شيء من طحين الحنطة إذا كان عندهم، ويضاف إليه شيء من الحلو. فهذه أكلتهم المفضلة.

(٢) غريب الحديث (ابن قتيبة) ٢: ١٤٠، لسان العرب ١٣: ٢٠٦ - سخن، طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢٢/ ٣٠٥

أن يسأل أمه عنها، - قال: يا أماه من هذه المرأة؟ فما أحبت أمه أن تخبره بها، فألح عليها فأخبرته، قائلةً له: يا بني إن هذه عباية أم جعفر بن يحيى البرمكي. تقول الرواية: فتعجب من ذلك، ثم التفت إليها وسلم عليها وطيب خاطرها، ودفع إليها شيئاً من المال، ثم قال لها: يا أم جعفر أخبريني بأعجب ما مر عليك؟ فقالت له: يا بني لقد مر علي عيد كهذا العيد وعلى رأسي أربعمائة وصيفة وأنا أعد ولدي عاقاً لي، وأنا اليوم أبحث عن جلد كبش أريد أن أفترشه لأنام عليه[١]. واقعاً هذه تقلبات الدنيا، فلهذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يحذرنا من عواقب مخالفة الله في هذه الدنيا فيقول عليه السلام: (يا ابن آدم، إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نِعَمَهُ وأنت تعصيه فاحذره)[٢].

كأنما يريد الإمام عليه السلام أن يقول بهذه العبارة إن العملية قد تكون في غاية الخطر. والواقع هكذا، لأن الله تعالى يملك كل شيء، بينما الإنسان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه أي شيء، فلا يدري الإنسان في أي ساعة من الساعات بمعصيةٍ ما، يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وذلك من خلال تماديه في طغيانه، لأن الطغيان حالة تدل على غباء الإنسان وعدم التنبه للحياة، ومن ثَم يقول الإمام علي عليه السلام: (إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تُنَفِّرُوا أقصاها بقلة الشكر)[٣] ويقول عليه السلام: (لا تبدين عن واضحة وقد عمتك الأعمال الفاضحة، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات)[٤]. الغرض كأنما الآية الكريمة تقول تمتعوا بنعم الله، ولكن بهذا القيد - لا تطغوا - لأنه من خلال الطغيان يحل غضب الله إما آجلاً وإما عاجلاً، فلهذا كثيراً ما نستعيذ به من غضبه، فنقول: نعوذ بالله من غضب الله، لأن الواقع غضبه لا تقوم له

---

(١) رياض السالكين شرح ص ٣٨٥، مستدرك سفينة البحار ج ١٠ ص ١٣٩، تاريخ بغداد ج٧ ص ١٦٨.

(٢) نهج البلاغة: ص ٥٥٤.

(٣) نهج البلاغة: ص٥٥٢.

(٤) جامع السعادات ج٣ ص٤٧. وقال الإمام الباقر عليه السلام: (إن الله قضى قضاء حتماً إلّا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة). [المصدر جامع السعادات ج٣ ص٤٧].

السماوات والأرض، فنسأله جل وعلا أن يرحمنا برحمته، ولهذا كثيراً في الدعاء ما نقول: (**اللهم إني أسألك الجنة ورضاك وأعوذ بك من النار وسخطك**) فكأن الرضا أحياناً أكبر من الجنة، لأن الجنة هي نفع مادي. مثال ذلك أن يكون الإنسان في بيت محترم، أو في نعيم مغدق، ولكن هذا الأمر لا يساوي لحظة من لحظات رضوان الله تعالى على المرء، فالجنة الصحيحة هي أن يكون الله عز وجل راضٍ عن العبد، فرضا الله، ورحمة الله هي الجنة، وهي التي ينشدها الإنسان الواعي المتعلق بالله عز وجل ، فإذا أحرزها الإنسان أولاً يهون عليه كل ألم، وثانياً ترخص عنده كل نعمة، لأن كل نعمة هي دون هذه النعمة وهي رضا الله، وفي نفس الوقت كل مصيبة إذا استشعر الإنسان أنها بعين الله، والله تبارك وتعالى راضٍ عنها، يهون عليه وقوع تلك المصيبة، لأن رضوان الله هي النعمة التي لا بعدها نعمة، أولا تعادلها نعمة أبداً.

ومن هنا رأينا الإمام الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرم عندما مرت عليه تلك المصائب، قابلها بقلب صابر محتسب، لأنه يعلم بأن ذلك في رضا الله، وكما يذكر المؤرخون: أن الحالة التي مر بها الحسين [سلام الله عليه] لم يصل إليها أحد، حيث أنه بين تلك المجموعة من الأخوة والأولاد، الذين كانت أشلائهم على وجه الأرض، وهو [سلام الله عليه] مثخن بتلك الجراحات وعيناه متجهة إلى السماء. لأنه كان متعلق بالله عز وجل يقول: هلال بن نافع أقبلت إليه فرأيته يحرك شفتيه، أصغيت لأسمع ماذا يقول وإذا به يقول: (لك العتبى يا رب، صبراً على قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخد حتى ترضى)(١) . فكأن الإمام الحسين عليه السلام يقول بهذا المعنى كل شيء يهون في سبيل رضا الله، الأموال يهون فقدها في سبيل الله، الأولاد يهون فقدهم في سبيل رضا الله، جميع الأشياء تهون في سبيل رضا الله، فرضي بما قسم الله له، فأرضاه الله وأعطاه؛ ماذا أعطاه؟ أعطاه هذا الخلود. ولهذا أحد الشعراء يخاطبه قائلاً:

---

(١) انظر: مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرم) ٣٥٧، ينابيع المودة ٣: ٨٣، شجرة طوبى ٢: ٤٠٩.

تمجد قوم بالخلود وأنني رأيت بمعناك الخلود مخلدا
حسين ورب اسم إذا ما ذكرته تردد فيه الدهر أن يترددا

※※※

لا تطلب قبر الحسين بشرق أرضٍ أو بغرب
ودعوا الجميع فعرجوا نحوي فمشهده بقلبي[1]

ويقول آخر:

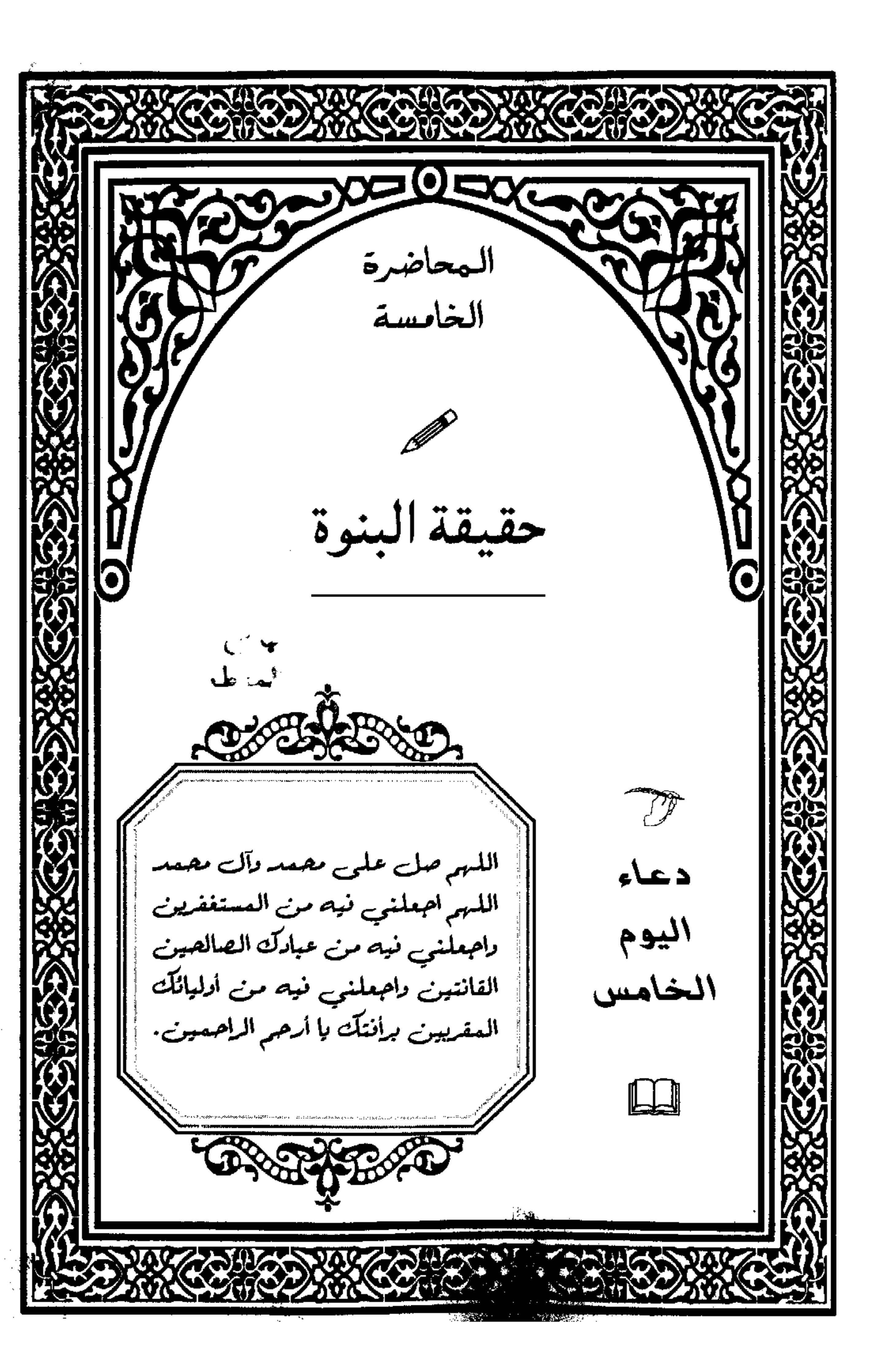
مولاً بتربته الشفاء وتحت قبته الدعاء من كل داع يرفع

وآخر يقول:

فزور ضريحي ما استطعت وأكثروا من الحمد والتقديس لله واشكروا
ونوحوا لأجلي دائماً وتصوروا ومهما شربتم بارد الماء فاذكروا
وفاتي عطشاناً بشط فراتِ[2]



(١) موسوعة شهداء المعصومين عليهم السلام لجنة العلوم في معهد باقر العلوم عليه السلام ج ٢ ص ٣٠٢.
(٢) ديوان الأستاذ منصور الشهابي (الصرخة المرحومة).


المحاضرة
الخامسة
حقيقة البنوة
دعاء
اليوم
الخامس
اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم اجعلني فيه من المستغفرين
واجعلني فيه من عبادك الصالحين
القانتين واجعلني فيه من أوليائك
المقربين برأفتك يا أرحم الراحمين.

٥

حقيقة البنوة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[١]

❋❋❋

هذه الآية الكريمة امتزج فيها الفقه العبادي مع الفقه الاقتصادي، - أو الفقه الصحي إذا صح التعبير - أما المقطع الأول وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ فإنه قد تحدث عن موضوع الستر والساتر أثناء الصلاة؛ فلهذا أدرجوه - أي العلماء - بالفقه العبادي؛ إلا أن السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان لماذا كان الخطاب لبني آدم عامة؟ علماً بأن أبناء آدم ليسوا كلهم مسلمين، فمنهم المسيحي، ومنهم البوذي، ومنهم غير ذلك، فلماذا يأتي الخطاب بهذا التعبير؟

من هنا نجد الاختلاف عند علماء المسلمين، فعلماء المذاهب الإسلامية الذين لا ينتمون إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام قالوا: لا يخاطب الفرد بالفروع إلا إذا أسلم، لأنه لا يكلف بها إلا بعد أن يسلم[٢]. وأما علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام فإنهم قالوا: يجوز خطابه بالفروع حتى قبل أن يسلم لأنه مكلف بها[٣]، وتعليل ذلك لديهم أنهم قالوا: لأن خطابه بالفرع يعني خطابه بالكل.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) تذكرة الفقهاء ٤: ٣٩/ المسألة: ٣٩٤، ٥: ٤٠ / المسألة: ٢٦، المهذب البارع ٤: ٢٩٧، جامع المقاصد ١: ٢٦٣، ٢: ٤١٦.

(٣) أنظر البحر الرائق ١: ١٢٠.

كما وأن الله عَزَّوَجَلَّ يريد من خلال هذا المعنى أن يعطي الصلاة بعداً عاماً، باعتبار أن الصلاة وسيلة تهذيبية فرضها الله عَزَّوَجَلَّ على العباد، وذلك لتهذيب سلوكهم في هذه الحياة؛ إضافةً إلى ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يبني المجتمع، وذلك من خلال بناء الفرد، حيث أن المجتمع هو مجموعة من الأفراد، فإذا بني الفرد بني المجتمع، ولهذا نلاحظ البعض إذا انغمس في الشهوات وعوتب تراه يتعلل بتعاليل غير ناهضة، كأن يقول ماذا أصنع، وأنا أعيش في مجتمع يسلك هذا المسلك، كل ذلك ليرفع عن نفسه العتاب والتوبيخ، والحال هذه مغالطة، فلو أن كل فرد صحح مساره في هذه الحياة لصلح الجميع بالتأكيد.

فإذاً الصلاة تبني الفرد وتصوغه صياغة متألقة قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ والمراد بالصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر هي الصلاة التي يأتي بها الإنسان بالشروط التي ذكرها الفقهاء، من طهارة الموضع، وطهارة الملبس، وحضور القلب، وما إلى ذلك، فإذا اجتمعت كل هذه الأمور كانت الصلاة بانية للفرد، لأن الإنسان المسلم من المفترض أن تسلم الناس من يده ولسانه، (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)(١).

فملخّص ما ذكرنا أن الصلاة محاولة لبناء الفرد والمجتمع - وهذا هو المبحث الأول -.

المبحث الثاني: للمقطع الأول من الآية: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ هو أن القرآن الكريم يَعتبر كل فرد من أفراد المجتمع هو إبنٌ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن السؤال كيف يكون هذا المعنى؟ هل أننا نتصل بآدم مباشرة؟ الواقع كلا، بل أن بيننا وبين آدم ظهور وظهور لا يعلمها إلا الله تعالى. ولكن من خلال التأمل إلى هذا المقطع في الآية الكريمة، يتبين أن

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٤، ص٣٢١.

أبناء الابن وإن نزلوا، وأبناء البنت وإن نزلوا، يعتبرون أبناء؛ كما وأن التعبير المتكرر في القرآن الكريم الذي جاء على هذا النسق نفهم منه بنوة الحسن والحسين للنبي ﷺ، وهذا المعنى يجب أن نتنبه إليه، وذلك إذا كان شخصٌ من الناس بينه وبين آدم آلاف من الآباء ومع ذلك يعتبره القرآن ابناً له، فلماذا البعض يتعلل بأمور غير ناهضه، يحاول أن ينفي بها بنوة الحسن والحسين للنبي ﷺ؟ في حين لم يكن بين النبي ﷺ والحسن والحسين عليهما السلام إلا فاطمة عليها السلام؟ واقعاً إن هذا الأمر يدل على أن التطرف الطائفي بلغ ذروته عند البعض، وبالأخص عند بني العباس ومن لف لفهم، حيث أنهم وقفوا يحاربون هذه الفكرة بكل شراسة، وفي مقدمتهم هارون الرشيد، الذي استدع الإمام الكاظم عليه السلام مراراً يحاججه في هذا الأمر، وكان الإمام عليه السلام يقحمه بآيات من القرآن الكريم، فمن ذلك ما رواه الصدوق عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: لما أدخلت على الرشيد قال لي: لما جوَّزتم للعامة والخاصة أن ينسبونكم إلى رسول الله ﷺ وأنتم بنو علي، وإنما ينسب المرء إلى أبيه، والنبي ﷺ جدكم من قبل أمكم، فقلت له: يا أمير المؤمنين لو أن النبي ﷺ نشر فخطب إليك كريمتك هل كنت تجيبه؟ فقال: سبحان الله، ولم لا أجيبه بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك. فقلت له: لكنه لا يخطب إلي ولا أزوجه. فقال: ولم يا أبا الحسن؟ فقلت: لأنه ولدني ولم يلدك، فقال: أحسنت يا موسى، ثم قال: كيف قلتم: إنا ذرية النبي، والنبي ﷺ لم يعقب وإنما العقب للذكر لا للأنثى وأنتم من ولد ابنته؟ فسألته بالقرابة وبحق القبر ومن فيه إلا ما أعفاني من الجواب، فقال: لا بد وأن تخبرني بحجتكم يا ولد علي وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم ولست أعفيك حتى تؤتيني بحجة من كتاب الله. فقرأ عليه الإمام الآية: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾[1]. وهنا سأله الإمام عليه السلام: (من أبو عيسى يا

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٨٤ – ٨٥.

أمير المؤمنين؟) فقال: ليس لعيسى أب، فقال الإمام: إنما ألحقناه بذراري الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام وكذلك ألحقنا بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قبل أمنا فاطمة عليها السلام (1).

كما وأن الحجّاج أيضاً كان ممن يتتبع من يقول بأن الحسن والحسين أبناء رسول الله بالأذى، حيث أنه أمر بأن يؤتى إليه بيحيى بن يعمر، وكان هذا الرجل من فقهاء الإمامية المتطلعين في العلم والمعرفة، فأدخل عليه وكان موثوقاً بسبعين رطلاً من الحديد، فقال له الحجاج: أتعلم بالسبب الذي جيء بك من أجله؟ قال: لا. قال: ذلك لمقولتك المفتعلة. قال: وما هي؟ قال: أولست القائل إن الحسن والحسين إبنا رسول الله؟ قال يحيى: نعم، ولكن إنما قلت ذلك استناداً لآية وردت في كتاب الله تعالى تثبت ذلك، قال: الحجاج: وما هي؟ أتريد أن تذكر لي آية المباهلة وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(2). إن هذه الآية سمعتها مراراً وتكراراً فلا أريد منك أن تستشهد لي بها، فهل عندك آية أخرى تستدل بها على ذلك؟ فقال يحيى: نعم، إقرأ قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(3). فابتدأ الحجاج يقرأ الآية إلى أن بلغ إلى قوله: (وعيسى) وهنا أوقفه يحيى قائلاً: إن القرآن الكريم جعل عيسى من ذرية إبراهيم الخليل، والحال أن عيسى ليس له أب، وإنما الحق بذراري الأنبياء من قبل أمه مريم عليها السلام أوَلم يكن بينه وبين إبراهيم ظهور، ومع ذلك نسبه القرآن إليه؟ قال الحجاج: نعم. فقال يحيى: إذاً لماذا

---

(1) قريب منه أنظر الأحتجاج٢: ص ١٦٣، عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٨٠، الحدائق الناضرة ج ١٢ ص ٤٠٠/ ج ٢٢ ص ٢٤٧، جواهر الكلام ج ١٦ ص ٩٥. لم يكن النص لأن نقل النص متعذر وذلك لاختلاف العبارات في كتب التأريخ.

(2) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(3) سورة الأنعام، الآية: ٨٤.

تستكثر أن نسمي الحسن والحسين أبناء رسول الله وليس بينهما إلا فاطمة عليها السلام ؟[١].

الغرض إن التطرف الطائفي كما ذكرنا آنفاً قد طغى على البعض مما دعاهم إلى تجاهل هذه الآيات الموجودة في القرآن الكريم، ومن جملتها هذه العبارات الواردة يا بني آدم، يا بني آدم، في كثير من السور القرآنية. والحال كما هو معلوم أن المخاطبين فيها، - أي في تلك الآيات - هم الذين مضوا من البشر، ومن ولدوا تواً، ومن سيولدون فيما بعد، وكما يقول العلماء: إن وجود الحي مع الميت لا يجعل الخطاب قبيحاً، وهذا الأمر من الأمور الذي نريد أن نصل إليه في هذا البحث، وهو أن المقطع من الآية يستدل منه على بنوة الحسن والحسين لرسول الله صلى الله عليه وآله. كما أن هناك أمر يجب أن ننتبه إليه، وهو أن الإمامية ليسوا حريصين كل الحرص في أن يعتبروا الحسن والحسين أبناء لرسول الله صلى الله عليه وآله من الناحية الدموية فقط، بدليل أن هناك من ينتمي إلى النبي من الناحية الدموية وهو بعيد عنه، وذلك من ناحية المبدأ والعقيدة، بعبارة أخرى أن هناك كمٌ هائل ممن يدّعون الانتماء إلى النبي صلى الله عليه وآله، ولكن النبي بريء منهم، وذلك لما يقومون به من سلوكيات بعيدة عن ما جاء به الإسلام[٢].

فإذاً الحسن والحسين عليهما السلام هما النموذج الممثل للنبي صلى الله عليه وآله وذلك بكل خصائص النبي، الفكرية والأخلاقية ومقومات الشخصية. وهذا هو الأمر الذي تريده علماء الإمامية في ذلك، استناداً لما يريده أهل البيت عليهم السلام فلهذا كانت هذه الفكرة محاربة من يومها الأول، إلا أن العقل السليم متنبه إليها، وقد كانت ردت الفعل متجسدة في عبارات الزيارة، فكل واقف على أضرحتهم تجده أول ما يوجه الخطاب بأن يقول: (السلام عليك يا بن رسول

---

(١) قريب منه أنظر مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ج ٢ ص ٢٢٤.

(٢) عن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول على المنبر: ما بال أقوام يقولون: إن رحم رسول الله لا ينفع يوم القيامة؟ بلى والله إن رحمي لموصولة في الدنيا والآخرة.

الله)[١] ثم بعد ذلك يقول: السلام عليك يا ابن أمير المؤمنين. السلام عليك يا بن فاطمة الزهراء. كما وأن الحسن والحسين عليهما السلام امتدادٌ طبيعيٌ لجميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام من لدن آدم عليه السلام إلى النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وزيارة وارث تعطينا هذا المعنى وهي: (السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله، السلام عليك يا وارث نوح نبي الله، السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله، السلام عليك يا وارث موسى كليم الله، السلام عليك يا وارث عيسى روح الله، السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله)[٢]. فالحسين إذاً ورث هؤلاء حيث أنه سار على الخط الذي جاؤوا به، فكانت حركته الإصلاحية منبثقة من القرآن الكريم، والسنة المحمدية، وهذا ما عناه النبي صلى الله عليه وآله بقوله في الحديث المتواتر: (حسين مني وأنا من حسين)[٣]، فالنبي صلى الله عليه وآله قال: لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك في طلبه[٤]. والحسين تبعاً لهذه الكلمة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **(لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد)**[٥] فوقف يوم العاشر من المحرم يدافع عن الدين الذي جاء به جده، إلى أن سقط على رمضاء كربلاء، ومكث مغشياً عليه ثلاث ساعات من

---

(١) (وإني أيها الناس فرطكم يوم القيامة على الحوض، فإذا جئتم قال الرجل: يا رسول الله أنا فلان بن فلان، فأقول: أما النسب فقد عرفته، لكنكم أخذتم بعدي ذات الشمال، وارتددتم على أعقابكم القهقرى). [المصدر الأمال - الشيخ المفيد ص ٣٢٨، الأمالي - الشيخ الطوسي - ص٩٤].

(٢) المقنعة الشيخ المفيد ص ٤٦٩.

(٣) ضياء الصالحين ص ٢٢٠ للحاج محمد صالح الجوهرجي وغيره من الكتب.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

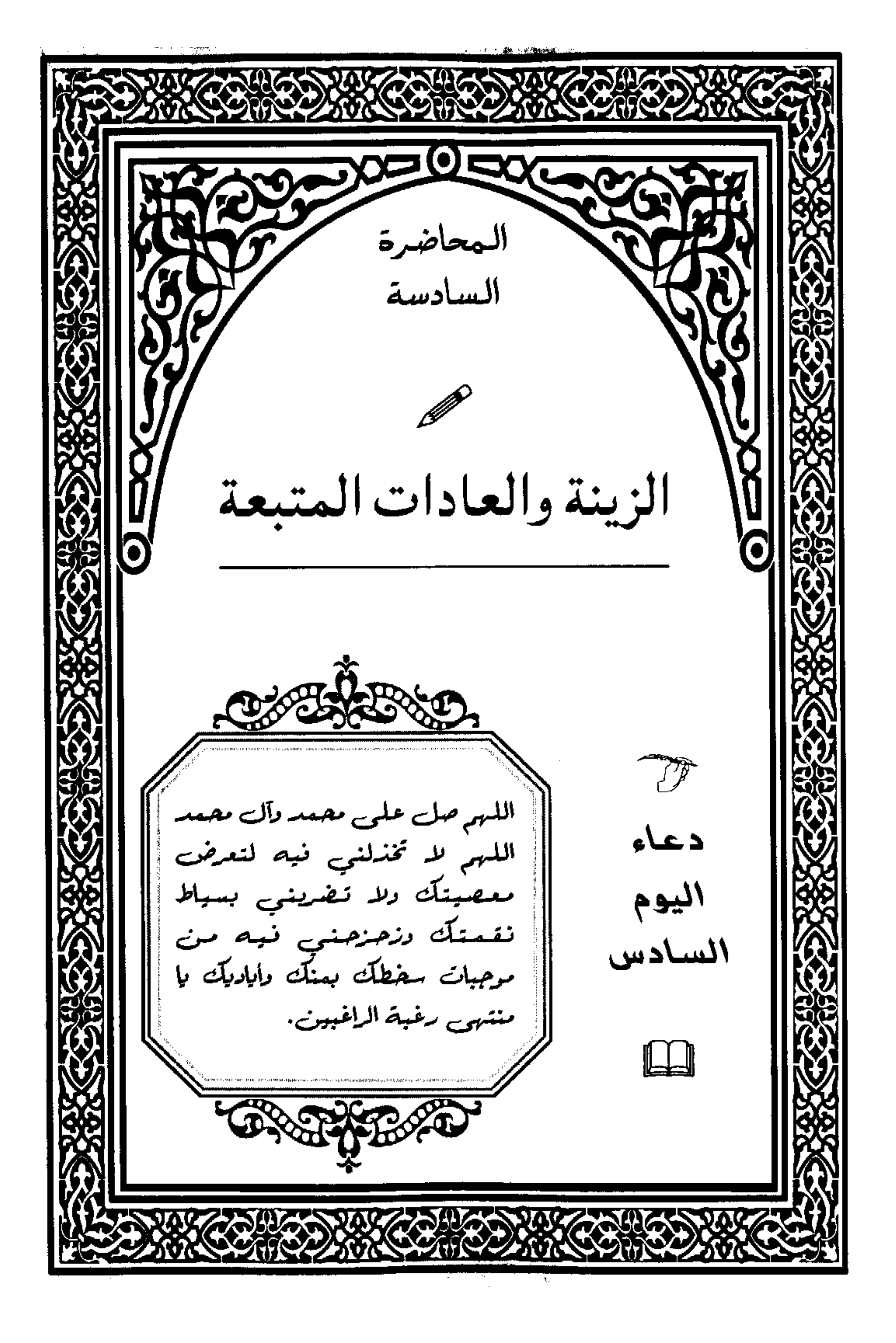
(٥) أخلاق أهل البيت ص ١٩٦، المؤلف السيد مهدي الصدر، كما أن المقولة وردة بصيغة أخرى قال: يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا القول حتى أنفذه (أو أقتل دونه). المصدر بحار الأنوار ج ٩ ص ١٤٣، تفسير جوامع الجامع ج ٣ ص١٨٦.
مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٢٢٤، لواعج الأشجان السيد محسن الأمين ص ١٢٨.

النهار، وقد تحير العسكر في أمره فبعضهم قال: إنه قتل، وبعضٌ قال: إنه عملها مكيدة، فقال بعضهم: اختبروه بأن اهجموا على مخيمه، فإن الرجل لغيور على عرضه.

تحير العسكر يوم طالت غشوة حسين
شافوه ثلث ساعات مرمي مغمض العين
ناس تقول حسين بِطَّل من ونينه
فارقت روحه وغمضت للموت عينه
وآخر يقول حسين كلكم تعرفونه
صاحب حمية على بناته والنساوين[1]



(١) الجمرات الودية، ص١٨٤.



المحاضرة
السادسة

الزينة والعادات المتبعة

دعاء
اليوم
السادس

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم لا تخذلني فيه لتعرض
معصيتك ولا تضربني بسياط
نقمتك وزحزحني فيه من
موجبات سخطك بمنك وأياديك يا
منتهى رغبة الراغبين.

٦

الزينة والعادات المتبعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(١).

❋❋❋

لقد كان الحديث في المجلس المتقدم في المقطع الأول من الآية الكريمة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾ وحينئذ سيكون الحديث في المقطع الثاني منها، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أولاً قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ يقول العلماء: يستفاد من هذين الفعلين الإباحة، ذلك لأنهما - أي الطعام والشراب - حاجتان أساسيتان ينشدهما كل إنسان في الوجود، بل كل كائن حي، ولكن يقيدهما الشارع المقدس بضوابط معينة، ومن هذه الضوابط هي أن يكون الطعام والشراب كلٌ منهما حلالاً بما للحلال من معنى، وقد أوضح الفقهاء الطرق المشروعة للحصول على المال الحلال، والطعام الحلال وكذلك نوعيته، فإذا أردنا أن نتحدث عن هذا المضمار فقد نحتاج إلى موسوعة مستقلة في ذلك، ولكن لكل من أراد المزيد من الإطلاع، عليه بمراجعة الكتب الفقهية المختصة في ذلك(٢). أما ما يخص سبب نزول الآية الكريمة، فهو أنه لما أن جاء الإسلام رأى

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) منها على سبيل المثال المسائل المنتخبة ص٤٣٧ (أحكام الأطعمة والأشربة). السيستاني.

الكعبة يُحج إليها، أي أن العرب كانت تحج إلى الكعبة، ولكن عندما تأتي للطواف حول الكعبة تنزع ما عليها من لباس، رجالاً كانوا أو نساء؛ وقد كانوا يجعلون النهار للرجال ويجعلون الليل للنساء، هكذا سولت لهم أنفسهم. ذلك لأنهم لم يكونوا ملتزمين بدين من الأديان السماوية، فأصبحوا عرضة للخرافات، وهذا شأن كل من لم يلتزم بعقيدة سماوية يرجع إليها، ومن ثَم نجد الشعوب التي ليست لها عقيدة تعيش في سلوكياتها عيشة بدائية، تتحكم فيها الطواطم والدجالين والمشعوذين، ومن خلال ذلك يوجهونهم توجيهاً خاطئاً، حيث يكون مخالفاً حتى للفطرة، بينما الذي ينتمي إلى عقيدة سماوية يصبح محصناً من كل هذه الآفات الآنفة الذكر. فالعرب قبل الإسلام - كما ذكرنا سابقاً - كانوا على هذه الهيئة المزرية، فعلى حد تعبير أحدهم عندما يُسأل عن مشروعية ذلك العمل، يقول: إن هذا البيت وهي الكعبة بيت شريف، ونحن قد لبسنا ثياباً ملوثة بجرائم ارتكبناها، وعندما نريد أن نحج فلا بد وأن نخلع هذه الملابس، إلى درجة أن أحدهم يقول: إن هذا الثوب قد لبسته في ظروف معصية، حيث أنني كذبت، وسرقت، وعملت المعصية الفلانية، فعلى هذا أصبح الثوب ملوث بجرائم، فلا يجوز لي أن أرتديه في حال الطواف(١). وهنا نستطيع أن نقول لأمثال هذه العقليات الساذجة، لماذا لا تخلع نفسك وأنت قد ألبستها المعصية؟ لماذا لا تخلع جسدك وقد ألبسته المعصية؟ الواقع إن هذه عقائد فاسدة لم ينزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان، لأن الله سبحانه وتعالى لم يكلف الناس بهذه التكاليف الموهومة، وإنما كلف الناس بأن يأخذوا اللباس وغيره من الطرق المشروعة، وبضوابط معينة أوضحها الرسول الأعظم ﷺ، ومن جملة تلك الضوابط، بأن لا يكون اللباس من جلد حيوان غير مذك، وبأن لا يكون حريراً بالنسبة للرجل(٢)... إلى غير ذلك من الأمور التي أوضحها الفقهاء في الرسائل

---

(١) قريب من هذا أنظر الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٨٩.

(٢) عن النبي ﷺ: (حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم). [كنز العمال خ ٤١٢١٠، ج١٥، ص٣١٩].

العملية، بالنسبة للرجل والمرأة حال التلبس في الصلاة، وفي حال الطواف فليراجع في محلة، [من كتب الفقه والحديث][(١)].

فإذاً من هذه الناحية كانوا يخلعون اللباس أثناء الطواف، ومن ناحية أخرى كانوا لا يأكلون إلا الطعام الجشب، وذلك حسب ما يعتقدون أن العبادة تحتاج إلى هذا الشكل من التزمت. وهذه النزعة إذا لاحظنا نجد أنها باقية إلى زماننا عند بعض الشعوب، - وللأسف الشديد - بحيث أن البعض من علماء الاجتماع يضعون شرائح اجتماعية معينة، وهذه الشرائح مهمتها تظليل الناس بهذه الأضاليل الموهومة، التي لا تنطبق مع مفاهيم القرآن الكريم والسنة الشريفة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[(٢)]. فإذاً لا يوجد في القرآن والسنة دليلاً على الحرمة فهو باقٍ على الإباحة، وذلك أن الإنسان ليس من حقه أن يشرع في مقام العبادة، لأن العبادة أمر توقيفي من الله عزّ وجلّ؛ فمثلاً الله عزّ وجلّ فرض الصيام وحدد له زمناً وعين ذلك الزمن، وهو من طلوع الفجر إلى ما بعد الغروب، فلو أن إنساناً ما، قال: إن الله فرض الصيام نهار يوم واحد، وأنا أصوم يومين متواصلين، فهل تعتبر هذه طاعة يتقرب بها إلى الله؟ يقول الفقهاء: كلا. إنما هي بدعة والبدعة هي وصاحبها في النار، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: شر الأمور محدثاتها ألا وان كل بدعة ضلالة ألا وكل ضلالة في النار[(٣)] وذلك لأن الإنسان لا يعرف الشيء الذي يصلحه جسدياً وروحياً؛ فالله تبارك وتعالى عندما فرض الصوم بهذا المقدار مثلاً فهو يعلم إيجابيات ذلك على جسد الإنسان وروحه.

كذلك بالنسبة للإنفاق في سبيل الله، الله عزّ وجلّ أمر المؤمنين بذلك في قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

---

(١) أنظر رياض المسائل ج ٣ ص ٢٦٧، مستند الشيعة ج ٤ ص ٣٥٦، وغيرهما كثير.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٣) أمال المفيد ص١١، ميزان الحكمة ج ١ ص ٢٣٦.

وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[١]. ولكن هل للإنسان أن ينفق كل ما يملك من أموال في سبيل الله؟ الجواب نجده في الرواية التي وردت عن الإمام الباقر عليه السلام فإنه قال: (من عدل في وصيته كان كمن تصدق بها في حياته، ومن جار في وصيته لقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة وهو عنه معرض)[٢]. كما أن موضوع العدالة في الوصية تبلغ درجة من الأهمية نراها في هذه الرواية أيضاً وهي: إن رجلاً من الأنصار توفي وله صبية صغار وله ستة من الرقيق فأعتقهم عند موته وليس له مال غيرهم، فلما علم النبي صلى الله عليه وآله سأل قومه ما صنعتم بصاحبكم قالوا: دفناه، قال: (أما إني لو علمته ما تركتكم تدفنونه مع أهل الإسلام، ترك ولده صغاراً يتكففون الناس)[٣]. والجور في الوصية هو الوصية بأكثر من الثلث، وحرمان الورثة من حقهم المشروع، أو التمييز بين الورثة بسبب عواطف شخصية سطحية. وأوصت النصوص الإسلامية أيضاً بعدم الوصية بالثلث إن كان الورثة فقراء محتاجين، وتقليل النسبة إلى الربع وإلى الخمس[٤]. إذاً فالله عزّ وجلّ أمر المؤمنين بالإنفاق ولكن في الأصول المعقولة، فعلى المؤمن أن يتبع تلك الأصول، لأن العبادة كما ذكرنا أمر ليس فوق طاقة البشر. فالنبي صلى الله عليه وآله عندما بعث بالإسلام، وأسلم من أسلم، كان البعض منهم يعملون مثلما كان العرب يعملون قبل الإسلام، وذلك أنهم يطوفون عراة رجالاً ونساءً، حيث أنهم تصوروا أن هذا العمل يقربهم إلى الله تبارك وتعالى، فنزلت الآية الكريمة تنهاهم عن ذلك، قالت: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ إذاً سبب النزول هو ما ذكرناه، ولكن لا ينحصر مفهوم الآية الكريمة بذلك، فهناك مفاهيم أخرى عند المفسرين في كلمة (الزينة) الواردة في الآية الكريمة.

الرأي الأول: قالوا: أن الآية تدل على وجوب الستر أثناء الصلاة، وذلك أن المصلي رجلاً كان أو امرأة عليه أن يلتزم بالستر المحدد له، بحيث أن

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٧.
(٢) وسائل الشيعة ج١٣ ص ٣٥٩.
(٣) سفينة البحار ج٢ ص ٦٩٥ مادة وصى.
(٤) وسائل الشيعة ج١٣ ص٣٦٠.

الرجل عليه أن يستر القبل والدبر وجوباً، ومن السرة إلى الركبة استحباباً، وأما بقية الجسد فهو أفضل؛ وأما بالنسبة إلى المرأة فكل جسدها يوجب الفقهاء ستره باستثناء الوجه والكفين، وبعض الروايات تستثني ظاهر القدمين(١). كما ينبغي أن تتوفر عدة شروط في لباسها، وقد ذكرها الفقهاء(٢) هذا في أثنا الصلاة، وفي خارج الصلاة أيضاً كذلك، لأن المرأة كل جسدها عورة، فلهذا أكد الإسلام على ذلك. إلا أن هناك بعض التيارات المعادية للإسلام تريد أن تجعل من المرأة سلعة تباع وتشترى، وذلك من خلال إبراز جسدها للآخرين، وهذا ما لا يرضاه لها الإسلام، لأن الإسلام يريد لها الحشمة والكرامة، والحشمة والكرامة لا تتم إلا بالستر، إضافة إلى ذلك فإنه - أي الإسلام - يريد للمجتمع الجيل الطاهر، والجيل الطاهر لا يحصل إلا من الحضن الطاهر، الذي يتأدب بآداب القرآن الكريم وبأخلاقه، ففي واقع الأمر إن المرأة إذا أبدت زينتها فهذا مدعاة لحمل الآخرين للنظر إليها.

النبي ﷺ يسأل ابنته فاطمة [سلام الله عليها] ما هو خير للمرأة؟ فقالت ؑ: (أن لا ترى الرجل ولا يراها)(٣).

والحقيقة إن هذا الأمر لا كما يدعي البعض أنه نوعاً من التزمت أو التحجر، كلا، إنما هو حرصٌ على أن تبقى المرأة وعاءً صالحاً ونظيفاً، وحرصاً على أن تبقى المرأة حجرٌ يربي الجيل النظيف.

---

(١) انظر الاقتصاد - الشيخ الطوسي - صفحة ٣٥٨ فصل (في ستر العورة) قال: العورة عورتان: مغلظة، ومخففة. فالمغلظة السوءتان، فمن شرط صحة الصلاة سترهما على الرجل. والمخففتان ما بين السرة إلى الركبة فإنه مستحب ستر جميع ذلك. وأما المرأة الحرة فإن جميع بدنها عورة يجب عليها ستره في الصلاة، ولا تكشف غير الوجه فقط.

(٢) انظر: المعتبر ٢: ١٠٣، ١٠٦، الجامع للشرائع: ٦٥.

(٣) مناقب آل أبي طالب٣: ١١٩. قريب من هذا في (حلية الأولياء) ج٢، ص٤٠، عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ما خير للنساء؟
فلم ندري ما نقول، فسار علي إلى فاطمة فأخبرها بذلك، فقالت: فهلاّ قلت له: خير لهن أن لا يرين الرجال ولا يرونهن. فرجع - علي إلى رسول الله - فأخبره بذلك. فقال النبي: صدقت إنها بضعة مني.

الرأي الثاني: عند بعض المفسرين هو أن المسلم إذا أراد الخروج إلى صلاة الجمعة[١] أو أراد الدخول إلى المسجد للصلاة مع المسلمين[٢] أن يكون على هيأة جيدة، ذلك لأنه ماض يقابل الله عزوجل ، فلا يدخل المسلم إلى المسجد إلا وهو طاهر الملابس وطاهر الجسد، فكما أن الإسلام يريد لنفس المسلم أن تكون طاهرة، كذلك يريد لجسده أن يكون طاهر، فلقد كان النبي صلى الله عليه وآله يُرى عند دخوله إلى المسجد وبيض المسك يلمع من مفارقة، حيث أنه كان يتطيب كما ورد[٣]. وثيابه دائماً في غاية النظافة، وقد رجل شعرة، وقد ورد أنه في يوم من الأيام رأى رجلٌ دخل إلى المسجد فبصق على أحد جدرانه، فقال عليه السلام: (إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلد من النار)[٤]. يعني كما أن الجلدة إذا أدنيتها من النار تتقلص، كذلك المسجد، وكأن هذا المعنى تعبير كنائي، ذلك لأن المسجد هو موضع خاص للعبادة. إلى غير ذلك من الروايات التي ذكرها المفسرون والمؤرخون، كما أن هناك روايات تفسر الزينة بالقادة الصالحين[٥]. وكل ذلك يدل على سعة مفهوم الآية الكريمة، فمنها ما يشمل جميع أنواع الزينة، المادية منها والمعنوية، والظاهرة والباطنة.

إضافة إلى ذلك فإن النبي صلى الله عليه وآله يقول: (إن الله يحب إذا أنعم على عبد أن

---

(١) قال الصادق عليه السلام : في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١] قال: (في العيدين والجمعه وقال عليه السلام: ليتزين أحدكم يوم الجمعة ويتطيب، ويسرح لحينه، ويلبس أنظف ثيابه، وليتهيأ للجمعة، ويكون عليه في ذلك اليوم السكينة والوقار) [المصدر تذكرة الفقهاء (ط.ج) العلامة الحلي ج ٤ ص ١٠٠].

(٢) وسئل الرضا عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ قال: (من ذلك التمشط عند كل صلاة) [المصدر تذكرة الفقهاء (ط.ج) ج ٢ ص ٢٥٥].

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي٢: ٨٨. وهناك أحاديث وردت عن أهل البيت عليهم السلام كذلك، كما في وسائل الشيعة ٢: ١٠٧/ ١٦٣٠، وفي كثير من صفحات هذا الكتاب.

(٤) وسائل الشيعة ٥: ٢٤٤/ ٦٢٩٥، المنصف (ابن أبي شيبة) ٢: ٢٦٠/٩.

(٥) للإطلاع على هذه الروايات راجع تفسير البرهان المجلد ٢، الصفحة الثانية ٩ و١٠ وتفسير نور الثقلين المجلد الثاني الصفحة ١٨و١٩.

يرى أثر نعمته عليه)[١] . فحينئذ ينبغي للمسلم حتى في خارج الصلاة أن يتزين، لأن الله جميل يحب الجمال، ولكن لا يصل الأمر إلى حد الإسراف، كما حصل بالنسبة إلى بعض خلفاء العباسيين، وذلك أنه لبس دراعة كلفة بيت المال أثمان باهظة، أو كالذي أوصى بأن يوضع جسده بعد الموت في تابوت من العقيق، ذلك التابوت الذي كلف بيت المال مائة وثمانين ألف دينار في ذلك الوقت العصيب، أو أنه يلبس اللباس الذي يكلف آلاف الدنانير، هذا هو الإسراف المحرم، الذي نهى الإسلام عنه[٢] . أما التوسع المعقول في الملبس والمأكل والمسكن فهو من صميم الشريعة، ولم يحرمه الإسلام. قال جل وعلا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٣] . ومن هذا المنطلق فقد كان الأئمة من أهل البيت عليهم السلام جسدوا هذا المعنى فلقد كان الإمام الرضا عليه السلام يلبس اللباس الحسن، حتى انتقده أحد الصوفية قائلاً له: إن أباك كان يلبس الخشن، ويأكل الجشب، ويركب الحمار، ويعود المريض، وأنت تلبس هكذا؟ تقول الرواية وكان الإمام متكئاً، فاستوى جالساً، فقال له: أما علمت أن يوسف عليه السلام نبي ابن نبي كان يلبس أقبية الديباج مزرورة بالذهب ويجلس في مجالس آل فرعون يحكم، فلم يحتج الناس إلى لباسه وإنما احتاجوا إلى قسطه. وإنما يُحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا حكم عدل، إن الله لا يحرم طعاماً ولا شراباً من حلال وإنما حرم الحرام قلّ أو كثر[٤] وقد قال عزّ وجلّ : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٥] .

---

(١) بحار الأنوار ٧٤ ١٥٩ / ١٥٨، تحف العقول: ٥٦.

(٢) ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (من لبس ثوباً يباهي به ليراه الناس لم ينظر الله إليه حتى ينزعه) [كنز العمال]. وعن صلى الله عليه وآله قال: (من لبس مشهوراً من الثياب أعرض الله عنه يوم القيامة) [المصدر ميزان الحكمة ج ٤ ص ٢٧٦٧].

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٤) الكافي ٦: ٤٥٤.

(٥) سورة الأعراف، مقطع من الآية ٣٢.

المقطع الثاني وهو قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الآية الكريمة كما قدمنا فيها أمرٌ - بالأكل والشرب - وذلك لأنهم - أي العرب - كانوا إذا دخلوا إلى مكة لا يأكلون إلا الشيء القليل والخشن، وذلك حسب اعتقادهم بأنه عمل يقربهم إلى الله عزّ وجلّ ، فالقرآن الكريم نهى عن هذا المعتقد، واعتبره تعذيب للنفس والجسد، بل ليس فيه شيء من العبادة، لأن الأكل الذي يعطي الإنسان الطاقة على العبادة واجب، والزائد عليه مباح، ولكن لا يصل الأمر كما ذكرنا للإسراف، بمعنى أن لا يصبح الإنسان همه الطعام، والملذات الأخرى، لأنه إذا كان كذلك كان بمثابة البهيمة التي همها علفها، والحال أن الإنسان أسمى من ذلك، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : (فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المُرسَلة شغلها تقممها، تكترشُ من أعلافها، وتلهو عما يراد بها)[1]. وقال عليه السلام : من كانت همته ما يدخل بطنه كانت قيمته ما يخرج منه[2]. فالإنسان يأكل ليعيش لا يعيش ليأكل؛ إذاً هذا المقطع من الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . . .﴾ الخ. يعالج صحة الجسد كما أنه يعالج صحة النفس معاً، وهذه طريقة من الطرق التي استخدمها القرآن الكريم في توجيه الناس وإرشادهم.

ومن ثم يذكر بعض المؤرخين أن أحد الأطباء المسيحيين كان ذات يومٍ في بلاط الرشيد، - وكما هو معلوم أن العباسيين ومن قبلهم الأمويين توسعوا باستخدام المسيحيين، ولم يكونوا يعلمون أنهم أعيناً متجسسةً عليهم، بمعنى أن الوعي لم يكن موجوداً لديهم آنذاك للأسف الشديد ولكن ظهرت هذه الحقيقة فيما بعد، ولهذا مَن يحسن قراءة التاريخ السرياني - يعني الكتب التي ترجمت من السريانية - يعرف هذا الأمر بوضوح، ولهذا يقول أحد الكتاب: إن حركة الطف كانت فيها أصابع من المسيحيين، وذلك عن طريق - سرجون - وهو من مستشاري معاوية بن أبي سفيان. فعموماً أن - بختيشوع -

(١) نهج البلاغة/ الكتاب: ٤٥.
(٢) ميزان الحكمة محمد الريشهري ج ٤ ص٣٤٧٢.

كان في بلاط الرشيد وكان يعيب على المسلمين في كثير من الأمور، فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان. فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وجمع نبينا ﷺ الطب في قوله: (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء، وأعطِ كلّ بدن ما عُوّد به)(١) فقال الطبيب: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً(٢). فكأنما جاء هذا التعبير مجاملة باردة له وللرشيد. فعموماً ليست هذه الآية أو الرواية فقط، التي كانت تعالج هذا المعنى، وإنما هناك روايات كثيرة عند المسلمين يعملون بها في هذا الصدد، وكان المسلمون تجسيداً فعلياً لذلك، إلا أنه - مع الأسف - غلب عليهم بعد ذلك الميراث الاجتماعي الجائر، وأبعدهم عن الاتجاه الصحيح، وإلا فالقرآن الكريم وضع الأسس، وكذلك النبي ﷺ. فالقاعدة كانت موجودة، ولكن الجزئيات تُركت للمسلمين يطبقونها حيث شاؤوا وأنّى شاؤوا، فعموماً الآية الكريمة أعطت قاعدتين أساسيتين للمسلمين وتركت التطبيق لهم: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ **فأول قاعدة** هي أن ندخل إلى بيوت العبادة ونحن على وقار، ونحن على خشوع، ونحن نتأمل إلى مضمون تلك البيوت التي نريد الدخول إليها، ونستشعرلما فيها من مواقف، فمثلاً عندما ندخل إلى البيت الحرام علينا أن نعي أهمية ذلك المكان، وعندما نستلم الحجر الأسود لابد وأن نعرف أنه يكون شاهداً علينا عند الله يوم القيامة(٣). ونحن حينذاك نودعه أمنة، فقد ورد أن الحجر يحشر ويشهد لمن التمسه(٤). ولهذا الحاج عندما يحاذي الحجر أثناء الطواف

---

(١) عوالي اللآلي ٢: ٣٠/ ٧٢، طب الأئمة (ابن سابور الزيات): ٦، بحار الأنوار ٥٨: ٣٠٧/ ١٧.
(٢) مجمع البيان المجلد ٤ ص ٤١٣.
(٣) عوالي اللآلي١: ٦٨ - ٦٩/١٢٣، نيل الأوطار٥: ١١٣، كنز العمال ١٢: ٢١٥/ ٣٤٧٢٨، ٢١٩/٣٤٧٤٨ - ٣٤٧٥١.
(٤) شرح الأزهار ٢: ١٠٧، الدر المنثور١: ١٣٥.

يقول: أمانتي أديتها وميثاقي عاهدته، لتشهد لي بالموافاة(١).

كذلك عندما ندخل إلى أضرحة المعصومين عليهم السلام علينا أن نستشعر أن هناك أهداف لابد وأن نعيها، ومن تلك الأهداف هو تأدية حق من حقوقهم، لأن الله تبارك وتعالى فرض مودتهم وطاعتهم في قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾(٢). ومن ثَم فقد روي بالسند المتصل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لما نزلت الآية: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ قال: جبرئيل عليه السلام: يا محمد إن لكل دين أصلاً ودعامة وفرعاً وبنياناً وإن أصل الدين ودعامته قول: لا إله إلا الله وإن فرعه وبنيانه محبتكم أهل البيت فيما وافق الحق ودعا إليه(٣). وكما في الرواية عن الوشّا، أنه قال سمعت الإمام الرضا عليه السلام يقول: (إن لكل إمام عهد في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبرهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعائهم يوم القيامة)(٤).

ثانياً: على الزائر أن يستوحي أهداف الإمام التي ضحى من أجلها.

ثالثاً: أن يتعرف على أهداف المناوئين له، وما كان هدفهم من قتله، وبالخصوص عندما يقف على قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام فإذا حصلت كل هذه الأمور، بعد ذلك يغلب عليه جانب الشجن، لأن الحسين قتيل العبرة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نظر أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحسين فقال: (يا عبرة كل مؤمن فقال: أنا يا أبتاه قال: نعم يا بني)(٥). ولهذا جسد الإمام الحسين هذا الجانب إلى الجانب الآخر، فقد أوصى الإمام زين العابدين أن

---

(١) قال الإمام الصادق عليه السلام: (إن الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق العباد، أمر الحجر فألقمها، فلذلك يقال: أمانتي أديتها، وميثاقي عادته، لتشهد لي بالموافاة). [المصدر جامع السعادات ج٣ ص ٣٩٣].

(٢) سورة الشورى مقطع من الآية: ٢٣.

(٣) فرات الكوفي ص ٣٩٨.

(٤) البحار م ٢٢، ص٦، عن عيون أخبار الرضا، وعلل الشرائع وكامل الزيارات.

(٥) كامل الزيارات - جعفر بن محمد بن قولويه ص ٢١٥، بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٨٠.

يدفن ولده الرضيع إلى جانبه: بني علي وسد رضيعي إلى جنبي، وهذا ما حصل بالفعل فلقد عمل الإمام زين العابدين بهذه الوصية وذلك في اليوم الثالث عشر من المحرم عندما جاء لموارات القتلى، يقول رجل ممن حضر من بني أسد: كنا وقوفاً بين تلك الأجساد لا ندري ماذا نصنع بهم، وإذا بفارس من ناحية الكوفة قد أقبل، فوقف بإزائنا، فقال: ما الذي يوقفكم هنا؟ فقلنا له: جئنا لنتفرج على هذه الأجساد، - يقول: وقد حسبناه من عيون ابن زياد قال: كلا. بل أصدقوني بما انطوت عليه سرائركم. يقول ذلك الرجل: فقلنا له ولنا الأمان؟ قال: بلى. يقول: فقلنا له جئنا إلى دفن هذه الأجساد الطاهرة. قال: فلماذا لا تباشرون الدفن؟ قلنا له: لا ندري ماذا نصنع، لأن القوم أجساداً بلا رؤوس، وغداً نسأل عن تعريف قبر كل واحد منهم، فبماذا نجيب؟ قال: نعم، ثم انحنى بعد أن ترجل وأقبل كهيئة الراكع، وهو منحن إلى أن وصل إلى جسد من الأجساد احتضنه، أقبلنا إليه قلنا له: دعنا نعينك على حمله، قال: لا، لا. إن معي من يعينني، فوضع له بارية كانت على ظهره ولفه بها وجاء به وأنزله في تلك الحفرة، ثم خرج يبحث عن شيء حققن النظر، وإذا به رفع رضيعاً منحوراً من الوريد إلى الوريد جاء به إلى تلك الحفرة وضعه فيها، ثم خرج مرةً أخرى يبحث عن شيء في المعركة إلى أن التقطه، حققنا النظر في ذلك الشيء وإذا بها كفٌ مقطوعة الإصبع، ثم خرج يبحث عن شيء إلى أن التقطه، وإذا بها إصبع مبتورة، جاء بها كغيرها من الأعضاء ووضعها في تلك البارية ثم احتمله وجاء به ووضعه في تلك الحفرة الطاهرة، ثم التفت إلى أولئك النفر وأمرهم بحفر مجموعة من الحفر، بعد أن عيَّن لهم مواضعها، وأنزل تلك الجثث الزواكي فيها، ثم مضى مهرولاً إلى نهر العلقمي فلما أن وصل نظر إلى عمه أبي الفضل ملقًى على المسنات، مقطوع اليدين ومفضوخ الهام بعمد من حديد، عندها واراه ورجع إلى ذلك المجلس تلقته العقيلة زينب كأني بها تخاطبه بلسان الحال[1]:

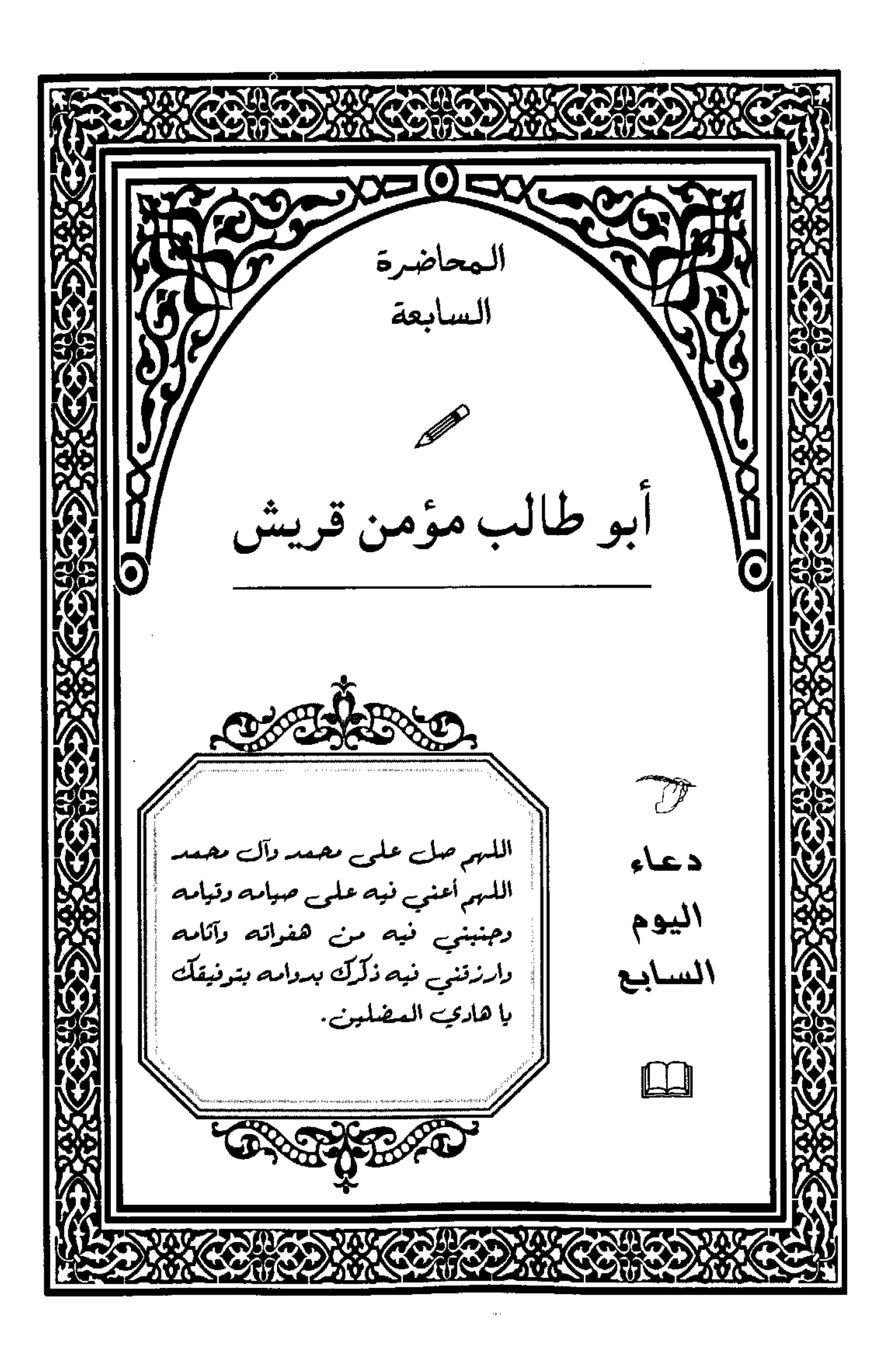
---

(١) أخي القارئ إن كل ما قرأته في هذه الخاتمة لمسات من الخيال عما دار بين الإمام زين العابدين عليه السلام وبين بني أسد.

أريد أنشدك يالدفنت احسين خبرني
بالله نشد خويه وسئل لو ما نشد عني يا حجة الرحمن
بالله سليت النبل والزان من جسمه
وسليت سهم بالقلب واسقيت أخويه ماي
لو هو اندفن عطشان
يالّي دفنت حسين غسلته اوكفنته
لو هو بلا تغسيل بس بالدم زملته
يا حجة الرحمن
يقلها يعمه غسل اخوج حسين دمع العين
وفي بارية لفيت جسمه ليتج تشوفين
صارت عوض لكفان
نادت ويا هو اللي لفى ابكافوره اوسدره
ومن شال تابوته ويا هو الشيعه القبره
من هاشم وعدنان
يقلها يزينب ما احتظى ابسدر ولا كافور
لحلف يمين ابصدره الحاوي العلم والنور نعشه سنان اسنان(١)



(١) النصرة المهدية ملا مهدي الشهابي ج ٢ ص ٩٩.



المحاضرة
السابعة

أبو طالب مؤمن قريش

دعاء
اليوم
السابع

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم أعني فيه على صيامه وقيامه
وجنبني فيه من هفواته وآثامه
وارزقني فيه ذكرك بدوامه بتوفيقك
يا هادي المضلين.



أبو طالب مؤمن قريش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[1].

※※※

إن هذه الآية الكريمة جُعلت ضمن الفقه السياسي عند علماء التفسير والتأريخ، وذلك ضمن الصراع الذي حدث فيما بينهم، وهذا المعنى سيتضح من خلال الحديث.

أولاً: توجد رواية في صحيح البخاري وكذلك في صحيح مسلم، مضمونها هو أن النبي ﷺ دخل على عمه أبي طالب عليه السلام وهو في حال الاحتضار، وكان عنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فلما نظر إليه النبي ﷺ على تلك الحالة - وهي حالة النزع - قال له: (قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله). فالتفت إليه عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقالا له: يا أبا طالب أتترك دين آبائك؟ تقول الرواية: فامتنع أبو طالب أن يقول (لا إله إلا الله)، بل قال: أنا على ملة عبد المطلب، حتى فارقت روحه جسده. فقام النبي ﷺ من عنده وهو يقول: (لاستغفرن لك ما لم أنهى عنك)، أي أنني سأبقى أطلب لك المغفرة من الله، ولا أنتهي حتى يأتيني منه نهي، فإذا جاءني منه نهي سأنتهي، أم الآن فلا أدع الاستغفار لك. يقول

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

البخاري ومسلم: فكان ذلك هو السبب في نزول هذه الآية[١].

إلا أن هذه الرواية التي يرويها البخاري ومسلم ومن حدا حدوهما ويصرون على أنها نزلت في أبي طالب لا تقبل؛ وعندما نقول لا تقبل لا لأن هناك عاطفة فقط تجرنا لأبي طالب، وإنما النقد الصحيح لا يقبلها بحال من الأحوال، وذلك لوجود أدلة تنفي ما قالوه:

الدليل الأول: الذي يجعلنا لا نقبل هذه الرواية هو سند الرواية، وذلك أن سعيد بن المسيب الذي انفرد بنقل هذه الرواية، هو ممن كان ينصب العداء الصارخ لأمير المؤمنين علي عليه السلام، فلهذا لا يُحتج بما يقوله فيه وفي أبيه وفي آله وذويه، فإن الوقيعة فيهم أشهى مأكلة له[٢]. وقد قال بن أبي الحديد: وكان سعيد بن المسيب منحرفاً عنه عليه السلام [٣] - أي عن علي ابن أبي طالب - وأخرج الواقدي من أن سعيد بن المسيب مر بجنازة السجاد علي بن الحسين عليه السلام ولم يصلِّ عليها، فقيل له: ألا تصلي على هذا الرجل الصالح من أهل بيت الصالحين؟ فقال: صلاة ركعتين أحب إلي من الصلاة على الرجل الصالح[٤] ويعرفك سعيد بن المسيب ومبلغه من الحيطة في دين الله ما ذكره ابن حزم عن قتادة قال: قلت لسعيد: أتصلي خلف الحجاج؟

قال: إنا نصلي خلف من هو شر منه[٥]

إذاً فالسند مهم في قبول الرواية ولهذا علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام لهم كتب خاصة يبحثون فيها رجالات الحديث؛ فهناك من يؤخذ بقوله وذلك اعتماداً على صدقه، وهناك من لا يؤخذ بقوله لمعرفتهم بكذبه، أو عدم

---

(١) قريب منه في: صحيح البخاري ٥: ٢٠٨، ٦: ١٨، صحيح مسلم١: ٤٠، جامع البيان المجلد: ٧، ج ١١: ٥٨، ٥٧، المجلد: ١١، ج٢: ١١٣، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٢٠، معاني القرآن ٣: ٢٥٩.
(٢) الغدير - الأميني - ج ٨ ص ٩.
(٣) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣٧٠.
(٤) الغدير ج ٨ ص ٩.
(٥) المحلى ج ٤ ص ٢١٤.

احتياطه في نقل الروايات بحيث أن البعض يكون مستأجر لنقل الروايات.

الدليل الثاني: الذي يجعلنا لا نقبل هذه الرواية في أبي طالب لأن أبا طالب مات في مكة المكرمة، وذلك قبل هجرة النبي إلى المدينة المنورة بثلاثة أعوام، أي في السنة العاشرة من بعثة النبي ﷺ، فعندما يقال أنها نزلت في أبي طالب معنى ذلك أن الآية مكية، ولا بد من أن يكون نزولها في السنة العاشرة من البعثة، بينما علماء التفسير قالوا: إن الآية مدنية[1]. الآية نزلت بعد هجرة النبي ﷺ من مكة المكرمة بتسع سنوات، فالفترة الزمنية من موت أبي طالب إلى أن نزلت الآية اثنا عشر سنة، فلماذا يقال أنها نزلت في أبي طالب؟ أليس هذا القول يعتبر مصادرة لمصداقية الكلمة؟ والمفترض من الإنسان عندما يريد أن يتكلم بشيء، عليه أن يعقل ما يقوله عن ذلك الشيء، وبالأخص خطيب المنبر الإسلامي عليه أن يتكلم بعلم، لأن من أبسط صفاته أن يشعر بمسؤولية الكلمة، كما وأن المفترض من دعاة الإسلام أن يُعلمون الناس الصدق والاستقامة، ويوقفون الناس على الحقائق. فقولهم أن الآية نزلت في أبي طالب ذلك مصادرة للحقائق.

الدليل الثالث: الذي يجعلنا لا نقبل الرواية في أبي طالب، لأن لسان الآية لسان عام، حيث أنها قالت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ فالمسألة عامة، وليست خاصة، ولذلك نجد الفخر الرازي والطبري[2] وجماعة آخرون منهم رشيد رضا قالوا: إن الآية نزلت في جماعة من المسلمين؛ وذلك أنهم دخلوا على النبي ﷺ وقالوا له: يا رسول الله إن آبائنا وأعمامنا وبعض أقاربنا كانوا يتحلون بصفات طيبة، أقرها الإسلام، منها صلة الرحم، وإشباع الجائع، وإقراء الضيف، وفك الغارم والعاني، فهل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٧٣.

(٢) عن قتادة قوله: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين. . . .الآية ذكر لنا أن رجلاً [رجالاً] من أصحاب النبي ﷺ قال يا نبي الله، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم، أفهل نستغفر لهم؟ قال فقال النبي ﷺ: (بلى) . . .[المصدر جامع البيان إبن جرير الطبري ج ١١ ص ٥٩].

يجوز لنا أن نستغفر لهم يا رسول الله؟ يقول هؤلاء المفسرون: فنزلت هذه الآية الكريمة، وهذا السبب كما يقول عنه المحققون هو السبب الوجيه، وذلك لا لأن أبا النبي كان مشركاً، وذلك بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾(١). وقال رسول الله ﷺ: لم يزل ينقلني من أصلاب الطاهرين، إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا(٢) ولكن كأنما الآية [واللهُ العالم] تريد أن تشعر أولائك الذين سألوه وغيرهم من الناس بأن هذا الحق لا يملكه حتى النبي بما للنبي من صلاحية تخوله في أمور كثيرة.

الدليل الرابع: الذي يجعلنا أننا لا نقبل الرواية في أبي طالب، هو أن النبي ﷺ منذ أن أُمر بتبليغ كلمة لا إله إلا الله كان يدعو إليها كل الناس، ولم يتخلف عن دعوة أحدٍ من الناس في استطاعته أن يدعوه. فكان يدعو القريب والبعيد، وحتى رعاة الإبل كان يخرج إليهم يدعوهم للإسلام، وكان الكثير منهم يستجيب لدعوته، فهل يعقل أنه لم يدعو عمه وهو بالقرب منه، وقد ثبت أن الحب كان متبادلاً بينهما؟ واقعاً إن هذا الأمر لا يعقل، فلا بد وأن دعاه وأسلم، لأن المعروف عند المؤرخين أن أبا طالب لم يخالف النبي ﷺ في قول ولا في فعل، حيث أنه كان مطلعاً على ظاهر النبي وباطنه، والنبي ﷺ في باطنه وفي ظاهره طاهرٌ مطهر، النبي ﷺ كانت أخلاقه عالية في السر وفي العلن، ظاهره وباطنه على حد سواء، وأبوا طالب مطلع على ذلك كله، فلا بد وأن دعاه وقد ستجاب لدعوته، ولكن قد يكون أخفى إسلامه وذلك لكي يستطيع أن يواجه قريش في كبريائها، وهذه الطريقة التي اتخذها أبو طالب استطاع من خلالها أن يحمي النبي ومن معه من المسلمين، ولهذا ثبت لدى الجميع أنه وقف يدافع عن النبي ﷺ وعن من أسلم إلى أن لحق بربه، وكان دفاعه وجهاده في سبيل الإسلام لا ينكره أحد، وحتى ألدّ الأعداء إليه لا ينكر ذلك. وبوسع أي أحد أن يقرأ التاريخ، لأن

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٩.

(٢) أوائل المقالات - الشيخ المفيد، ص ٤٥.

كل المؤرخين الذين كتبوا في أوليات الإسلام ذكروا لأبي طالب مواقف عدة، أبو طالب له مواقف كبيرة وكثيرة إزاء أوليات الإسلام، بمعنى أنه لم يقف موقف المتفرج أبداً، وإنما وقف لحماية المسلمين وللدفاع عن النبي ﷺ وضحا بكل ما يملك من أموال ومن أولاد، وقد ثبت ذلك في كتب الفريقين.

ولنا أن نسأل إذا لم يكن أبو طالب قد أسلم فلماذا تكون هذه التضحية منه؟ أنا أضحي بأموالي وبأولادي من أجل ماذا إذا لم تكن لي عقيدة؟ من الواضح أنه كان يضحي من أجل هذه العقيدة التي اعتنقها.

الدليل الخامس: الذي يجعلنا أننا لا نقبل الرواية في أبي طالب، ذلك إذا نظرنا إلى الرواة الذين روى عنهم البخاري، ليس فيهم من يجفو لعلي بن أبي طالب بمنقبة إلا ما ندر، - مع شديد الأسف - مثلاً منهم حريز بن عثمان وهو الرجل الذي كان يجلس صباحاً ويتقرب إلى الله بلعن الإمام علي عليه السلام سبعين مرة، وقد علم البخاري بذلك[1]. أيضاً من رواة البخاري والذي اعتمد البخاري على رواياته هو الأشعث بن قيس، وقد كان هذا الرجل معروفاً بالانحراف عن علي بن أبي طالب، الأشعث هو الذي كان يقول لعبد الرحمن بن ملجم - في الليلة التي ضرب فيها علي بن أبي طالب - أنجا، أنجا لحاجتك؛ فقد فضحك الفجر[2]. كذلك ممن يروي عنه البخاري سمرة بن جندب، هذا الرجل الذي كان مدير شرطة لابن زياد، والذي دفع إليه معاوية بن أبي سفيان من بيت مال المسلمين أربعمائة ألف درهم، وذلك لكي يغير مفهوم آيتين عن واقعهما، الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[3]. الآية التي أجمع المفسرون على أنها نزلت على رسول الله ﷺ عندما بات

---

(١) انظر الغدير ج ٥ ص ٢٩٤، صحيح البخاري ٤: ١٦٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦: ١١٧، الطبقات الكبرى٣: ٣٦، أسد الغابة ٤: ٣٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧. انظر كتب التفسير والتأريخ بدون استثناء كلها تنص على أن الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وذلك عندما بات على فراش رسول الله ﷺ يقيه بنفسه.

علي على فراشه ليلة الهجرة؛ بينما سمرة بن جندب أبدل مفهوم الآية بإيعاز من معاوية بن أبي سفيان فقال: إنها نزلت في عبد الرحمن بن ملجم، لأن عبد الرحمن بن ملجم باع نفسه لله بقتله علي بن أبي طالب. والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥﴾[1] فقبل الأحوال وروى الآيتين واستخلفه زياد على البصرة فقتل فيها ثمانية آلاف من الناس[2]؛ وكذلك منهم مروان بن الحكم لاعن علي بن أبي طالب عليه السلام والقائل للحسين: أنتم أهل بيت ملعونون؛ خلافاً لصريح القرآن الكريم الذي يقول عنهم أنهم بيت مطهرون[3] قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[4].

ومنهم عمران بن حطان السدوسي، البصري المتوفى سنة أربع وثمانون هجرية، الخارجي الملعون البغيض الذي مدح عبد الرحمن بن ملجم بقوله:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا[5]

---

(١) سورة البقرة الآيتين ٢٠٤ و٢٠٥.
(٢) أخرجه العلامة الأميني في كتابه الغدير ج ١١ ص ٣٠ عن الطبري في تأريخه ج ٦ ص١٣٢.
(٣) سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٤٧٨، مختصر ابن عساكر ج ٢٤ ص ١٨١، وأنظر لعن النبي له في المستدرك للحاكم ج ٤ ص ٤٧٩، هذا الإسناد بتوسط كتاب وضوء النبي صلى الله عليه وآله السيد علي الشهرستاني ج ٢ ص ٥٢٢.
(٤) سورة الأحزاب مقطع من الآية: ٣٣.
(٥) مستدرك الوسائل ج ١ ص ١٩، أوائل المقالات هامش ص ٢٣٣، نهاية البداية ص ٥٠٣ وكتب أخرى كثيرة، وبهذا فقد تجاهل قول النبي صلى الله عليه وآله: (يا علي أتدري من أشقى الآخرين؟ فقال: الله ورسوله أعلم، فقال قاتلك يا علي [المصدر تدريب الراوي للسيوطي ص ٢٢٩]، ألا يعلم يعلم أنه صلى الله عليه وآله قال: (يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) فهل خفي على البخاري قوله صلى الله عليه وآله: (يا علي حربك حربي وسلمك=

إلى آخر أبياته التي تنم عن حقده وعدائه لأمير المؤمنين عليه السلام، وأمثال هؤلاء من الخوارج الذين وَثّقهم البخاري وروى عنهم، وكل هؤلاء ليس فيهم من يجفو لعلي بن أبي طالب بمنقبة أبداً.

الدليل السادس: الذي يجعلنا لا نقبل الرواية في أبي طالب عليه السلام، ذلك عندما ننظر إلى المناقب التي تروى لعلي بن أبي طالب عليه السلام في كتب التأريخ والتفسير، حيث نجد أنها تروى بنص متماثل، بينما عند البخاري تختلف، مثلاً عندما يتطرقون إلى الواقعة التي دفع النبي صلى الله عليه وآله فيها الراية لعلي بن أبي طالب يأتون بهذه الرواية قال النبي صلى الله عليه وآله: (لأعطين الراية غداً - اليوم - رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار)[1]. الرواية بهذا المضمون أو قريبة منه، ولكن عند البخاري تختلف، بحيث عبارة يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ساقطة من النص، ومن أراد التأكد فعليه الرجوع إلى صحيح البخاري والكتب الأخرى ليقارن بينهم فيما ذكرنا.

إذاً فهذا الرجل له موقف من علي بن أبي طالب لا يشكر عليه، بل يعاتب ويحاسب عليه في الدنيا والآخرة، لهذا فالرواية لا يمكن أن تكون صحيحة، وذلك لأن الآية نزلت بلسان عام، وبالتحديد نزلت في المسلمين الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وآله أن يجيز لهم أن يستغفروا لأقربائهم الذين ماتوا وهم مشركون، فقالت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

من هنا نعرف أن الآية بعيدةً أتم البعد عن أبي طالب، ذلك لأن أبا طالب احتضن الإسلام ومد ظله على الإسلام، ولهذا صدرت فتوى لبعض علماء

= سلمي) أليس علي من النبي صلى الله عليه وآله بمنزلة هارون من موسى كما يحدثنا البخاري نفسه. هل أن مخالفة عمران بن حطان السدوسي لقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يجعله موثوقاً عند البخاري وموردا للاعتمادي عليه والاعتداد برواياته، لا أعلم لماذا كل هذا الإجحاف بحق أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا والتمسك بحبل مناوئيهم وأعدائهم.

(١) رسائل المرتضى ج ٤ ص ١٠٥، الدعوات قطب الدين الراوندي ص ٦٣، كشف الغطاء ج ١ ص ١٥، الينابيع الفقهية ج ٩ ص ١٤٢ الأمالي ص ٦٠٤، الكافي ج ٨ ص ٣٥١.

الأزهر، - والفتوى في واقع الأمر تلفت النظر - الفتوى قالوا: لا شك أن الذي يشتم أبا طالب يؤذي النبي، والذي يؤذي النبي يؤذي الله، والذي يؤذي الله كافر، فنقحوا هذه المقدمات وانتهوا إلى هذه النتيجة، ذلك لأنهم قالوا: بغض النظر عن كونه أسلم أو لم يسلم، إلا أن هذا الرجل وقف مواقف لا تجهل، منها أنه أحتضن الإسلام ومد ظله على الإسلام ودافع عن النبي وأحتضن النبي إلى أن لقي الله وهو يدافع عن الإسلام، ولذلك سمى النبي ﷺ عام موته بعام الحزن، وهذا أيضاً دليلاً على إسلامه لأن النبي ﷺ لا تجره العاطفة، ولا يجره عنصر الدم، وإنما يتبع الحق، فقد وافق أن مات أبو طالب والنبي يكافح الشرك، وقد كان أبو طالب من أبرز ناصريه.

من هنا نرى أن اثنان من أعمام النبي ﷺ هد موتهما النبي، أولهما عمه أبو طالب فإنه قد مات وهو يكافح الشرك، وأما عمه الحمزة بن عبد المطلب فإنه استشهد وهو في عز الجهاد، ووقف على عمه فرآه مقطع، لأن هند بنت عتبة مزّقت بطنه واستخرجت كبده[١] وقطعت أصابعه وجدعت أنفه، وقطعت بعض أعضائه وصنعت منها قلادة، فلما نظر النبي ﷺ إلى المثلة به بكاه إلى أن بلت دموعه كريمته، ثم رجع وهو مثقل بالحزن. ونحن عند هذا الخطب العظيم الذي وقع على قلب رسول الله ﷺ نقول له: يا رسول الله لقد أثقلك الحزن لجسد واحد مثل به وهو جسد عمك، إذاً كيف يكون حالك لو نظرت إلى ابنك الحسين يوم العاشر من المحرم، في وقت كان فيه يقوم من عند قتيل ويجلس عند آخر، إلى أن وقف على بن أخيه القاسم، فرآه مقطعاً بالسيوف والرماح، فوقف قائلاً: عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك أو يجيبك فلا ينفعك، صوت والله كثر واتره، وقل ناصره[٢] ثم جاء به إلى المخيم ووضعه بين القتلى من أهل بيته وجلس عند رأسه يبكي:

---

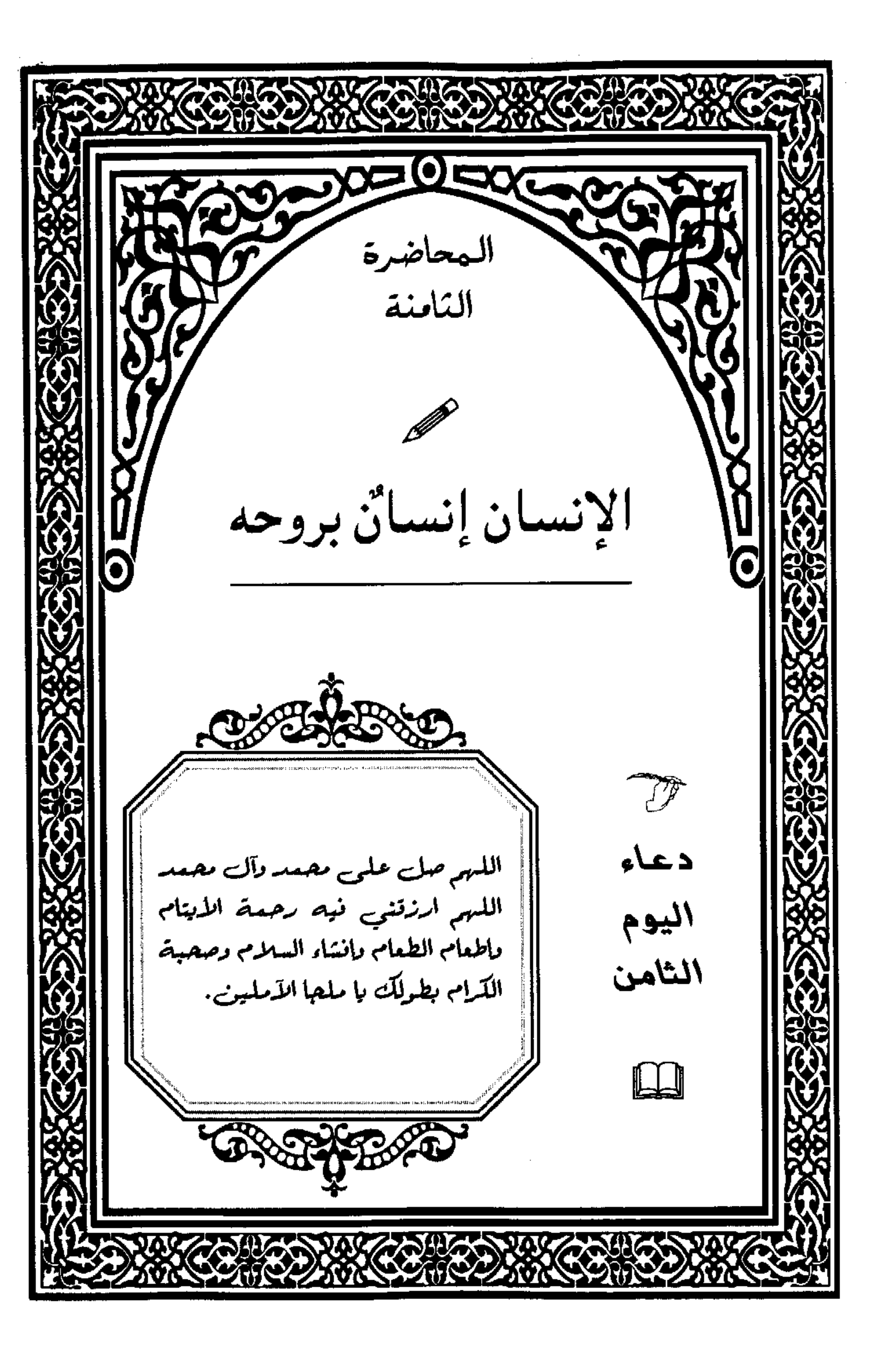
(١) انظر جامع الخلاف والوفاق علي بن محمد القمي هامش ص ٣٨١، سبل السلام محمد ابن إسماعيل الكحلاني ص ٢١٩.

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٤١، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠٢.

قضوا حك العليهم دون لخيام ولا خلوا خوات احسين تنضام
لما خروا تفايض منهم الهام تهاووا مثل مهوى النجم من دخر
هذا الرمح بفاده تثن أو هذا بيه للنشاب رنه
أوهذا الخيل صدره رضرضنة أوهذا وذاك بالهندي موذر[1]



(١) رياض المدح والرثاء ص ٥٨٤.



المحاضرة الثامنة

الإنسان إنسانٌ بروحه

دعاء اليوم الثامن

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم ارزقني فيه رحمة الأيتام
وإطعام الطعام وإفشاء السلام وصحبة
الكرام بطولك يا ملجأ الآملين.

٨

الإنسان إنسانٌ بروحه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾(١).

❋❋❋

إن لكثير من الآيات القرآنية مفاهيم متعددة وكثيرة، ولهذا لا يمكن لأي عالم أن يحصر مفهوم تلك الآيات في أمر ما، بأن يرى أن ذلك هو ما تريده الآية البتة، ولكن ما أشار إليه بعض العلماء بأن قال: نستفيد من هذه الآية أمور:

الأمر الأول: أن الآية الكريمة جعلت رابطةَ العقيدة أقوى من رابطة القرابة.

الأمر الثاني: كأن الآية الكريمة تأمر المؤمنين جميعاً أن يتعاملوا مع بعضهم البعض على الظاهر.

الأمر الثالث: الذي قد نستفيده من هذه الآية الكريمة: هو أن الإنسان في هذه الحياة يجب أن يقيم بروحه لا بجسده.

وهذه الأمور الثلاثة سنجعلها محور الحديث ولكن بعد مقدمة.

واقعاً الإنسان عندما يوجد في هذه الدنيا قد تكون له فيها عدة روابط، ولهذا نجد البعض حتى وإن خرج منها تبقى تبعات تلك الروابط تلاحقه،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

فالرابط الأول: من تلك الروابط هي رابطة البنوة، وإذا لم توجد البنوة فالأهل والعشيرة.

والرابط الثاني: الممتلكات التي يمتلكها عندما يكون في هذه الدنيا، سواءً كانت قليلة أم كثيرة.

والرابط الثالث: المواقف سواءً كانت خيرة أو غير خيرة، إلي غير ذلك مما هو متعلق بالإنسان مادياً وروحياً، ولهذا فالكثير منها يلاحق الإنسان إلى ما بعد الموت، ولكن لا تكون كلها بدرجة واحدة من الأهمية، فبعضها مهم وبعضها أهم، كذلك المهم منها أيضاً لا يكون بنفس الدرجة من الأهمية، كما تكون رابطة العقيدة، ولهذا جعلها القرآن الكريم أقوى من رابطة الدم، فقال جل وعلا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لأنه إذا لم يكن الأمر كذلك، فلا تكون للإنسان قيمة في هذه الحياة، ولهذا نجد النبي الأكرم ﷺ جعل نفوساً تنصهر بهذا المعنى، حيث أنه حرص على تغذيتها بالعقيدة الإسلامية، وأصبحت بعد ذلك العقيدة عندهم أغلى من كل شيء، بل أصبحت تلك النفوس لم يثنها عن العقيدة شيء أبداً، وسنذكر هذه الحادثة التي منها يتضح لنا هذا المعنى، يقول المؤرخون: لما انتهت غزوة بني المصطلق ازدحم الناس على الماء، ووردت واردة الناس وكان لعمر بن الخطاب أجيراً من بني غفار يقال له: جهجاه، فازدحم هو وسنان الجهني حليف بن عوف من الخزرج على الماء، فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم وكان حينذاك غلام حدث السن، فقال: أوَقد فعلوها؟ قد كاثرونا في بلادنا، أم والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[1] ثم أقبل على من حضر من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، والله لو

---

(١) وهذا المعنى الذي أشارة إليه الآية فيما بعد: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم. فسمع ذلك زيد فمشى به إلى النبي ﷺ فأخبره الخبر. تقول الرواية: فارتحل في ساعة لم يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه، فلقيه أسيد بن خضير فسلم عليه وقال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة لم تكن تروح فيها؟ فقال: أوَ ما بلغك ما قال عبد الله بن أبي؟ قال: وماذا قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال أسيد: فأنت والله تخرجه إن شئت، فإنك العزيز وهو الذليل. تقول الرواية: ويبلغ ابن عبد الله ما كان من أمر أبيه، - وهنا موضع الشاهد - وقد كان مع النبي ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله إنه بلغني إن أبي قد تكلم بكلمة خبيثة، وقد بلغتك تلك الكلمة، ولا أشك إنك متأثر منها، لأنها كلمة لا يقولها مؤمن، فإذا كنت عازماً على قتله، فأريد منك أن تأمرني بذلك، وذلك لأمرين:

الأمر الأول: كي تعلم إننا من أجل إطاعة أمرك نقتل الآباء والأبناء.

والأمر الثاني: إنني أخشى أن تأمر أحداً غيري بقتله، فلا تدعني نفسي بعد ذلك أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال النبي ﷺ: (بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا)[1] يقول المؤرخون: فلما رجعوا إلى المدينة، تقدم ذلك الابن إلى مشارف المدينة ووقف ينتظر أباه، فلما أن جاء أبوه يريد الدخول إلى المدينة منعه من الدخول إليها، فقال له: لماذا تمنعني من الدخول إلى المدينة وفيها بيتي؟ قال: والله لا تدخلها إلا بإذن من رسول الله ﷺ ولتعلم اليوم من هو العزيز ومن هو الذليل، أولم تكن خارج المدينة تهدد النبي؟ لتخرج الأعز منها الأذل، فإذا لم يأذن لك رسول الله فلا أدعك أن تصل إلى الدار أبدا، تقول الرواية: فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله ﷺ فأرسل إليه: (أن خل عنه يدخل) فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله فنعم[2]. وواقعاً إن هذا الرجل زُرعت في قلبه العقيدة، وعلم أن رضا الله ورسوله يقدم على رضا النفس وعلى رضا

---

(١) قريب منه انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٨١ - ٨٢.
(٢) قريب منه بحار الأنوار ج ٢٠ ص ٢٨٢.

الوالدين، قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. فترجم ذلك في سلوكه.

إذاً الآية الكريمة وضعت للمسلمين هذه القاعدة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بمعنى أن رابطة العقيدة أقوى من رابطة القرابة، رابطة العقيدة أقوى من رابطة الدم، بل أنها - أي الآية - وضعت للمؤمنين هذه القاعدة، فقالت حتى ولو كانوا آبائكم وأقربائكم فإنه ليس لكم الحق بأن تستغفروا لهم، لأنهم كانوا مشركين، ولأن خطرهم على الإنسانية كبير، فلهذا لا يمكن لأي أحد يقر بالشهادتين، ثم يقف ليترحم على أحد المشركين، أو أن يساند له من لا يؤمن بالله ورسوله، ذلك لأن الإسلام لا يجتمع مع هذه المواقف، الإسلام يمنع من الاستغفار للمشرك، بل ويمنع من الوقوف إلى جانب المشرك، لأن رابطة العقيدة أقوى من رابطة القرابة، ولهذا وجدنا في التأريخ الإسلامي أن حملة العقائد وقفوا يقاتلون أبائهم وإخوانهم، والدليل على ذلك ما حصل في واقعة بدر. فقد خرج الإمام علي عليه السلام وفي يده السيف، ونزل إلى ساحة المعركة، وأول من جاء بهم من الأسرى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هما من أقربائه، جاء بعمه العباس، وبأخيه عقيل، قادهما بيده وأقبل بهما أسرى. ولكن من الغريب جداً في الأمر، أن يأتي الصفدي وهو مؤرخ من المؤرخين، وذلك عندما مر بترجمة عقيل بن أبي طالب، قال: ومن جملة الأسرى عقيل، ثم وضع بين قوسين هذه العبارة، أخو علي بن أبي طالب، كأنه يريد أن يلفت نظر القارئ إلى أن عقيل كان أحد المقاتلين مع المشركين. ولكن - في واقع الأمر - إن هذا ليس فيه عار بالنسبة لعلي بن أبي طالب، لأن علي بن أبي طالب عادى الأقرب والأبعد من أجل الإسلام، ومن ثَم فإن أمير المؤمنين عليه السلام إلى يومنا هذا يدفع الثمن الكثير، لأنه قتل المشركين بسيفه، يدفع الثمن الكثير لأنه وقف بوجه الشرك، ولأن سيفه ما

(١) سورة لقمان، الآية: ١٥.

ترك بيتاً من بيوت الشرك إلا وله فيه نضح للذم، كما أن هذا الموقف يدل على صلابة علي ابن أبي طالب، وإنه لم يحابي أحداً على حساب دينه. علي ابن أبي طالب جاء بأخيه عقيل، وهذا فيه فخرٌ وكرامة لعلي بن أبي طالب. وقد أثبت علي عليه السلام ذلك في كلامه، عندما كان يصف أصحاب رسول الله، وذلك يوم صفين حين أمر الناس بالصلح، قال: (ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا؛ ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم)[1] [2]. فالمهم إن أول ما نستفيده من الآية الكريمة هو هذا الأمر.

الأمر الثاني: الذي نستفيده من الآية الكريمة، هو أن الآية أمرتنا أن نتعامل مع بعضنا البعض على الظاهر، فمن عُرف بالأيمان يُتعامل معه على أنه مؤمن، له ما للمؤمنين وعليه ما عليهم، ومن عُرف بالشرك يُتعامل معه على أنه مشرك، والمشرك ليس له سبيل على المسلمين.

من ذلك نجد البعض من الناس قد يقول الشهادتين **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)** ولكن تصرفاته ليست كلها تصرفات مسلم، إلا أن الإسلام مع ذلك يأمرنا بأن نتعامل معه على الظاهر، من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله حقن بذلك دمه وماله وعرضه[3]، ذلك لأنه حمل الجنسية الإسلامية، ومن ذلك أصبح فعل المؤمن محمول على الصحة بظاهره. انطلاقاً من هذا المعنى، عندما يُرى أحد المسلمين داخل إلى بيته، وبيده قنينة قد اصطحبها وهو مسلم، لا يصح لأحد من المسلمين أن يقول إن في تلك القنينة شيء محرم، بل عليهم أن يحملوه على الصحة، وذلك بأن يقولوا مثلاً إن فيها لبناً، أو أن فيها عسلاً، أو أن فيها خلاً، أو أن فيها أمثال ذلك من الأمور

---

(١) اللقم - بالتحريك وبوزن صرد أيضاً -: معظم الطريق أو جادته.

(٢) نهج البلاغة: ص٨٧.

(٣) قال النبي صلى الله عليه وآله: (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) مجمع الفائدة - المحقق الأردبيلي - ج ٨ شرح ص ٧٧. الحدائق الناضرة المحقق البحراني ج ١٨ ص ١٤٧.

المباحة، أي لا يجوز لهم أن يتهموه بشيء محرم، لأن ذلك يعتبر ظنٌ بالسوء، وظن السوء محرم، كما أن فعل الفرد المسلم يحمل على الصحة بظاهري، إلا إذا كان معروفاً بالاستهتار، بأن يكون ذلك الرجل معروفاً بالفسق مثلاً، فحينئذ لا يجب أن نحمله على الخير، ولكن في نفس الوقت أيضاً لا نتهمه بلا دليل. إذاً فالإسلام يأمر المسلمين فيما بينهم أن يتعاملوا على الظاهر، أما البواطن فالله عزّ وجلّ هو الذي يعلمها وهو الذي يعامل الناس عليها.

ولكن عندما ننظر إلى المسلمين حينئذ لا نجد تجسيداً لهذا المعنى، فإنهم لا يعاملون بعضهم البعض على الظاهر، فترى التشنيع فيما بينهم قائم على قدم وساق، وخصوصاً عند من يتزيون بزي العلماء، - ألا وهم الذين يحملون الحقد الدفين لأهل البيت عليهم السلام ، - فتراهم يُشنعون على الشيعة بين الفينة والأخرى، بأن الشيعة عندهم قرآنٌ يختلف عن القرآن الموجود عند بقية المسلمين، بينما مساجد الشيعة وبيوتهم ليس فيها إلا هذا القرآن، وهو القرآن الذي في أيدي بقية المسلمين، بل أنهم لا يعتقدون بوجود غيره، كما أن قنواتهم القديمة منها والحديثة ليس فيه سواه، ولكن كل ذلك لا يعطي أولئك انطباعاً أبدا، حيث أن هذا الشيء الذي قالوه لم يكن عن حقيقة، وإنما هو اتهام باطل، وهذه واحدة من الاتهامات التي ليس لها واقع في تأريخ الشيعة، إلا أن البعض - للأسف الشديد - لديهم حب التكفير، من هنا نسأل كيف يجتمع هذا مع خلق الإسلام، وآداب الإسلام، وذلك أن القرآن يأمرنا أن نعامل الناس على ظواهرهم؟ واقعاً إن هذه ظاهرة ابتلي بها الإسلام والمسلمين، نسأل الله تبارك وتعالى أن يبعدها عن مجتمعاتنا.

الأمر الثالث: الذي نستفيده من الآية الكريمة أنها عندما نهت المسلمين عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى، أرادت أن تبين إن هذا المشرك إنما نمتنع عن الاستغفار له ذلك لا لأجل جسده، وإنما لأجل روحه التي أبت أن تحمل الإسلام، وبعبارة أخرى إنما يجب عليك أن تعادي ذلك المشرك، والله تعالى نهاك عن مساعدته مادياً ومعنوياً، لأن روحه أبت أن

تحمل الإسلام، ولهذا نحن نعتقد بأن هذا الجسد ليس له تعقل؛ إن الدم واللحم ليسا هما اللذان يحملان العقيدة، الروح هي التي تحمل العقيدة، إذاً إنما نتبرأ منه لا لكونه جسداً، وإنما نتبرأ منه لكونه روح. ولكنه - للأسف الشديد - يأتي البعض بعبارة قد تكون في واقع الأمر لا تنطبق على كل أحد من الناس، وهي أنه إذا مات شخص من الناس، وقد قام بأعمال غير صالحة، وأراد البعض أن يستنكرها منه، أو أن يذكره بها، كي يحذر الآخرين من مغباتها، يُقال له: اذكروا موتاكم بخير، بينما هذه العبارة لا ينطبق مفهومها على كل أحد من الناس، إلا أن البعض أراد من خلال إيرادها أن يستر بها سيئات أسياده. إن هذه الكلمة تشبث بها البعض حتى تتستر على السيئات التي اقترفها البعض الآخر، ممن ابتزوا ثروات الأمة وأزهقوا أرواحهم؛ لأنه ليس كل من مات يجب أن يذكر بخير، وذلك لأن القرآن الكريم قدَّم للمسلمين نماذج تستحق الذم، وقدم لهم نماذج تستحق المدح، فهل يمكن لواحد منا أن يعاتب القرآن الكريم في ذلك؛ بأن يقول إن هؤلاء الذين تذمهم أو تمدحهم خرجوا من الدنيا فليس لنا معهم كلام مثلاً؟ كلا، القرآن يقول إن هؤلاء أجسادهم مضت، ولكن أفعالهم الشريرة باقية. مثلاً هل لنا أن نقول للقرآن الكريم إن هذا الذي قلت عنه: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾(١). وأرادت منا أن نردد هذه الكلمة على مدى الدهر، لماذا نرددها وصاحبها قد مات؟ بهذا المعنى كأنما القرآن الكريم يقول: أنتم لا تعقلون ولا تعلمون، فلو كنتم تعقلون أو تعلمون لعرفتم أنه لم يمت، إنما ذهب جسده؛ ذلك لأن أفعاله السيئة أصبحت من السنن التي يقتدي بها البعض منكم.

إذاً فالقرآن الكريم خلد بعض الناس بالذم لأنهم لم يخرجوا من هذه الدنيا حتى ملؤوها بالشر، فلهذا لا يصح السكوت عنهم، لأن السكوت وعدم الاستنكار على أفعالهم يجر البعض إلى مثل أفعالهم، وبالتالي تصبح فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نسياً منسيا، فمن الضروري أن يُشار إلى

---

(١) سورة القلم، الآية: ١٣.

الخير وينوه به وبصاحبه، ويشار إلى الشر ويستنكر على صاحبه، لكي يعتنق الآخرون الخير، ويبتعدوا عن الشر، فلهذا كلمة اذكروا موتاكم بخير ليست في جميع الأبواب مستندة إلى واقع - أبداً - ذلك لأننا نجد البعض إذا جن عليه الليل يتجافى جنبه عن المضجع، مثلاً قد نرى في تأريخ بعض الأبرار الذين خرجوا من الدنيا أعمالاً إذا نظرنا إليها تهزنا من الأعماق، ذلك لأنهم لم يخرجوا من الدنيا حتى ملؤوها عطراً ونعيماً وإيماناً وتربية صالحة؛ فنقف إجلالاً وإعظاماً لهم.

بينما نجد البعض لم يخرجوا من هذه الدنيا حتى ملؤوها بالرذيلة وبالفجور والانحطاط، فهل لنا أن نساوي بينهم بالفعل أو القول، فنقول: اذكروا موتاكم بخير؟ كلا - لأن فلاناً لو أنه عندما مات ذهبت أعماله معه لاستراحت الأمة منه، ولكن مما يؤسف أن أعماله باقية، وأن أفعاله لا زالت قدوة يقتدي بها البعض. مثال ذلك مروان، الذي إلى الآن البعض يثني عليه ويذكره ويجعله قدوةً يقتدى به؛ بينما هو - في الواقع - كتلة من السيئات، لهذا يجب أن يصحح تأريخ المسلمين، وذلك بأن يضع يده على مواطن الخير فيرشد الناس إليها، ويضع يده على مواطن الشر فيبعد الناس عنها. ولذلك يقال: دخل أبو العيناء ذات يوم على المتوكل العباسي، فقال له المتوكل: إلى كم تمدح الناس وتذمهم؟ فقال له: يا هذا إني تأسيت بالقرآن الكريم، القرآن الكريم رضي عن قوم فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾(1). وغضب على قوم فقال: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾(2). ألم يكن هذا مدح وذم؟ أو ليست هذه أخلاق القرآن الكريم؟ ألا ترى إن مَن يستحق المدح مدحه القرآن، ومن يستحق الذم ذمه القرآن؟ فهل تريد منا أن نلغي المقاييس التي رسمها لنا القرآن الكريم؟. كلا، ولهذا من الأساليب التي اتخذها القرآن أن المسيء يذم والمحسن يمدح، أضف إلى ذلك أن الإنسان لم يكن إنسانٌ بالجسد كما قدمنا، وإنما هو إنسان بالروح، فلو كانت

---

(1) سورة الأعراف مقطع من الآية: ٤٨.
(2) سورة التوبة مقطع من الآية: ٩٧.

إنسانية الإنسان تتحقق بجسده لكان البعيرُ أفضل منه، لأن البعير لحمه ودمه أكثر من دم الإنسان ولحمه، ولهذا إذا أردنا أن نُقيم الإنسان لا نقيمه بالجسد، وإنما نقيمه بالمواقف. الإنسان إنسان بالمواقف، إنسانٌ بالأخلاق، إنسانٌ بالعلم، إنسانٌ بالصفات الكريمة - هذا من ناحية.

من ناحية أخرى: عندما نرجع للدنيا، نسأل من الذي طورها؟ نحن الآن نعيش في عالم يُعتبر قمة في التقدم من الناحية المادية، مثلاً نحن الآن نستخدم الكهرباء، والذرة، والأثير، والموجات الصوتية، فمن أوصلنا إلى ذلك، هل هو الدم واللحم؟ الواقع كلا، إنما الذي أوصلنا إلى ذلك هو العقل، والعقل موهبة من الله تبارك وتعالى، إذاً نحن نقيم الإنسان باعتبار أن الإنسان طور الحياة، ولكن ليس باعتباره جسد، وإنما باعتباره روح وعقل. وإلا لو كان الإنسان دماً ولحماً فقط، فإنه بمجرد أن ننقله إلى القبر ينتهي تأريخه، لأن جسد الإنسان عندما يوضع في القبر تتناهشه الديدان وينتهي أمره، وهذا هو الواقع المر، عندما نقف على مقبرة، نرى عظاماً نخرة وأجساداً تمزقت ثم عادت ترابا، فإذا كان الإنسان هكذا، فمعنى ذلك إذا وضع الإنسان في قبره ختم تأريخه، بينما إنسانية الإنسان هي الباقية من بعد الموت، الإنسان يبقى من بعد الموت وذلك بمواقفه وبأفكاره، ولهذا تجد الإنسان بعلمه وبمواقفه يقهر الموت، لأن الموت مهمته أن يقضي على جسم الإنسان فقط، ولكنه لا يقضي على روحه أبداً، ولهذا ما رأينا عبقرياً استطاع الموت أن يُميته، فعباقرة العالم والمكتشفين تجد الدنيا تخلدهم، ولكن لا تخلدهم لأجسادهم، إنما تخلدهم لعلومهم وعقولهم، إذاً فالإنسان ليس بالدم واللحم، وإنما الإنسان بالعقيدة والموقف، فالدم واللحم عبارة عن شاخصٍ يمر بهذه الحياة، فإذا ترك له أثراً عاش به، وإذا لم يترك له أثراً مات وانتهى أمره، معنى ذلك أنه يكون بمثابة الديدان، الديدان إذا ماتت، ماتت، لأنها دمٌ ولحم، ولكن الإنسان موقف وعقيدة وعقل، وصاحب العقل والموقف والعقيدة لا يموت.

إذاً فالآية كأنما تقول لأولئك الذين طلبوا من النبي الاستغفار لآبائهم أن

يتبرؤوا منهم، ذلك لأنهم عرفوا بالشرك، ومن هنا نجد أصحاب المواقف يخلدون حتى وإن مرت على موتهم آلاف السنين، وليس أدل على ذلك من هؤلاء الفتية وهم شهداء الطف، فلقد مرت على مصارعهم قرون وقرون وأجيال، ولكنهم أصبحوا مخلدين، وتخليدهم لم يكن لأجسادهم، وإن كانت أجسادهم تحمل أوسمةُ الشرف، ولكن تخليدهم لأجل أرواحهم. فلقد رسموا مع سيدهم أبي الضيم موقفاً لن ينسى، كيف لا وقد واجهوا جيوشاً أولها في كربلاء وآخرها في الكوفة، وقد مُنعوا الماء فصمدوا حتى كانوا مأنوسين بتلك التضحية. يقول المؤرخون: لما كانت ليلة العاشر كان بعضهم يمازح البعض الآخر، حتى قال له: يا هذا ما هذه الليلة بساعة باطل فقال له: إن الله يعلم إنني لا أحب الباطل شاباً ولا كهلاً، ولكن ما هي إلا أن نميل على هؤلاء القوم ويميلون علينا وإذا بنا في الجنة(١)، هكذا كانت عقيدتهم، إلى أن أصبح يوم العاشر من المحرم وإذا بهم يتقدمون للدفاع عن سيدهم أبي عبد الله الحسين، وما أن جاء وقت الظهيرة وإذا بهم على بوغاء كربلاء مجزرين كالأضاحي؛ هذا مكبوب على حر وجهه وذاك مضرج بدمه، هذا وأبي الضيم يقف عند كل شهيدٍ منهم يؤبنه ويضع عليه وساماً وقد بقي ذلك الوسام ما تعاقب الليل والنهار، وكأني به يتمثل بهذين البيتين:

إلى الله أشكو لا إلى الناس أشتكي   أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

---

(١) قال أبو مخنف: حدثني عمر بن مرة الجملي عن أبي صالح الحنفي عن غلام لعبد الرحمن بن عبد ربه الأنصاري قال: كنت مع مولاي فلما حضر الناس وأقبلوا إلى الحسين أمر الحسين بفسطاط فضرب ثم أمر بمسك فميث في جفنة عظيمة أو صفحة، قال: ثم دخل الحسين ذلك الفسطاط فتطلى بالنورة، قال: ومولاي عبد الرحمن بن عبد ربه وبرير بن خضير الهمداني على باب الفسطاط تحتك مناكبهما فازدحما أيهما يطلي على أثره، فجعل برير يهازل عبد الرحمن فقال له: عبد الرحمن دعنا فوالله ما هذه بساعة باطل، فقال له برير: والله لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلاً، ولكن والله إني لمستبشر بما نحن لاقون، والله إن بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولوددت أنهم قد مالوا علينا بأسيافهم. [المصدر عدة كتب منها مقتل الحسين عليه السلام أبو مخنف الأزدي ص ١١٥].

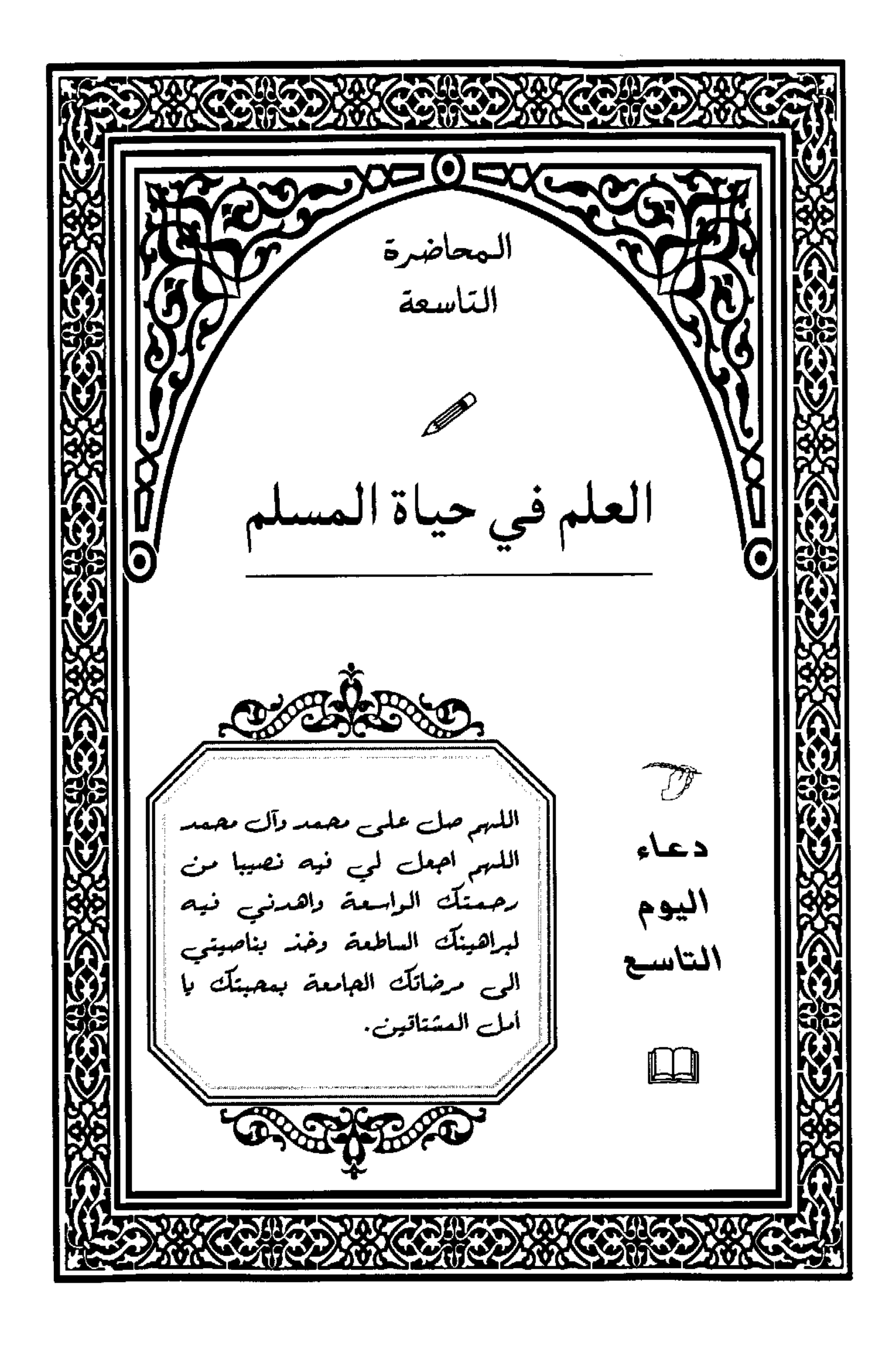
أخلاي لو غير الحمام أصابكم عتبت ولكن ما على الموت معتب[1]

※※※

لمساعد الله بقيت وحدي ابغير ساعد سبعين ما ظلي من السبعين واحد
وبقيت أنا ما بين مغتال وجاحد وحدي أنا كالطير مكسور الجناحين
نخيت حتى دمعتي بالخد سالت وحدي امحير والعدى حولي احتالت
مدري محبتكم عن المظلوم زالت لو يلاحبى إلي حجبكم غايل البين
يا نصار ما من ذاب عن مهجة الزهرا الأجساد ظلت تطرب من على الغبرة
ينادوا فدى لك نذبح سبعين مرة آمر علينه لحرب منقوم يا حسين



(١) هذان البيتان ينسبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام [مناقب ابن شهراشوب ج ١ ص ٢٠٧].



المحاضرة
التاسعة

العلم في حياة المسلم

دعاء
اليوم
التاسع

اللهم صل على محمد وآل محمد اللهم اجعل لي فيه نصيبا من رحمتك الواسعة واهدني فيه لبراهينك الساطعة وخذ بناصيتي الى مرضاتك الجامعة بمحبتك يا أمل المشتاقين.

٩

العلم في حياة المسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١).

※※※

القرآن الكريم من خلال هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات، يربي أفراد المجتمع المسلم على العلم، وذلك في ممارساتهم الفعلية والعملية، لأن الإنسان إذا لم يصدر في سلوكه عن علم، معنى ذلك يصدر في سلوكه عن جهل، لأنه لم يكن هناك شيء ثالث، فإما العلم وإما الجهل، من هنا فإن الإنسان إذا صدر في سلوكه عن جهل فإن الحيوان أفضل منه، لأن الحيوان ليست لديه قابلية كقابلية الإنسان، وذلك بالنسبة للرقي الفكري، فلو كان الحيوان لديه قابلية التفكير بمقدار ما عند الإنسان، ولا يستعملها فقطعاً ينتقد، كما ينتقد الإنسان إذا أهملها، ولكن الحيوان مطبوع على الجهل، بينما الإنسان لديه قابلية، وهذه القابلية هي من ضمن التكريم الذي أوجده الله تعالى في الإنسان، قال جل وعلى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾(٢). فالله عز وجل كرم الإنسان بأمور كثيرة، منها أن الله تبارك وتعالى جعله منتصب القامة، يواجه الأشياء بوجه، بينما الحيوانات الأخرى ليست كذلك، حيث أنها تمشي منحنية على أربع، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يقابل الأشياء وهو معتدل القامة.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء مقطع من الآية: ٧٠.

أيضاً من جملة تكريم الإنسان، أن الإنسان بادي البشرة، بينما الحيوانات الأخرى بشرتها مغطاة بالشعر، لكن الإنسان بشرته بادية.

أيضاً من وسائل تكريم الإنسان قدرته على اختزان التجربة، وهي التي نسميها بقابلية الكتابة، أو قابلية اختزان المعلومات، أو قابلية المعرفة، وهذه هي أهم مظاهر التكريم عند الإنسان، الله عزوجل كرم الإنسان بأن يستعمل القلم تلقائياً، ويختزن المعرفة ويستفيد منها بعد مدة من الزمن، فقابلية العلم، وقابلية الترقي، وقابلية التهذيب، هي أبرز وسائل التكريم التي كرم الله عزوجل بها الإنسان، من هذا المطلق إذا كان الإنسان مكرم وقد ميزه الله على باقي الحيوانات، فعليه أن يستفيد من هذا التكريم، لأن ذلك يعتبر طاقة من الطاقات، والطاقات يجب أن تستغل، وذلك بأن يستعملها الإنسان في ما يعود عليه وعلى مجتمعه، وبالأخص في تأصيل الجانب الأخلاقي، لأن إهمال هذه الطاقة يؤدي إلى تراجع في عجلة الحياة على مختلف الأشكال، وقد ورد عن العالم عليه السلام: العامل على غير بصيرة، كالسائر على غير الطريق، لا يزيده سرعة السير إلا بعداً عن الطريق(١).

إذاً فالإنسان يجب أن تكون سلوكياته صادرة عن علم، وإلا إذا لم يكن كذلك فلا يقبل إطلاقاً، أي أنه لا يقبل دينياً ولا يقبل اجتماعياً أبداً. ولتوضيح هذا المعنى، هو أن الإنسان عندما يكون في سن البلوغ تناط به أمور عبادية، - أي أنه يكلف بالأحكام الشرعية - كالصلاة، والصوم، والحج، والخمس، وأمثال ذلك، وهذه التكاليف العبادية لابد وأن يرجع فيها المكلف إلى الدليل العلمي، لأنهم قالوا: إن العمل العبادي الصحيح، لا بد وأن يكون عن علم، وبعبارة أخرى قالوا: إن العمل العبادي الصحيح إما أن يصدر من عالم، أو أن يصدر من مقلد إلى عالم، فمثلاً لو أن إنسان توضأ وضوءاً صحيحاً، وصلى صلاةً صحيحة، إلا أن ذلك لم يكن عن علم، وإنما حصل ذلك عن اتفاق، بهذا المعنى يقول: العلماء(٢). إن هذا العمل لا يعبر

---

(١) [المصدر فقه الرضا - علي بن بابويه ص ٣٨١].

(٢) عمل العامي بلا تقليد ولا احتياط باطل، لا يجوز له الاجتزاء به، إلا أن يعلم بمطابقته=

عنه بأنه عملٌ عباديٌ صحيح، ولهذا قالوا: إن عمل الإنسان العامي ما لم يستند إلى مجتهد يقلده، قد لا يكون مبرئ للذمة، إلا إذا علم بمطابقته للواقع، أو لفتوى من يجب عليه تقليده فعلاً، وذلك لأن الاستناد إلى المجتهد، يعني استناداً إلى الدليل العلمي، باعتبار أن المجتهد قد أوصل إليه الدليل العلمي، وكما هو معلومٌ ليس كل احد يقوى على الاجتهاد، فالبعض من الناس قد يكون كاسباً، والبعض قد يكون عاملاً . . . و. . و. . . وهكذا. فمثلاً الكاسب عندما يصبح عليه الصباح يمضي إلى متجره، والعامل يذهب إلى محل عمله، وهكذا، الناس تسع وتسعون في المائة منهم، أو أكثر من هذا الرقم هكذا، فلابد من أن يرجع المكلف للمختصين في ذلك، كي يكون عمله مستنداً إلى دليل، ومن ثَم يقول القرآن الكريم: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وأهل الذكر هم عبارة عن خلفاء النبي الشرعيين، عليٌّ وأبنائه الأحد عشر عليهم السلام، ومن بعدهم العلماء العاملين، الذين تجتمع فيهم شروط الإفتاء، وهم الذين أرشدنا إليهم الإمام الحسن العسكري عليه السلام فإنه قال: (فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه)[2]. ومن ثم ليس كل أحد تجتمع فيه الشروط والمؤهلات، بحيث يقوى على أن يستنبط الحكم الشرعي من الدليل، إلا بعد معانات كثيرة ودروس مكثفة، وتدريس مكثف، ولهذا يقول العلماء: إن المواد التي يجب أن يدرسها طالب العلم الديني هي سبعة عشر مادة، إضافةً إلى التوفيق من الله تبارك وتعالى.

= للواقع، أو لفتوى من يجب عليه تقليده فعلاً؛ المصدر منهاج الصالحين - الخوئي - ص٧ مسألة ٢.

(١) سورة الأنبياء مقطع من، الآية: ٧.

(٢) مستمسك العروة الوثقى السيد محسن الحكيم ج ١ ص ٤١، تحرير العروة الوثقى السيد مصطفى الخميني ص ١٧، مدارك الأحكام السيد محمد العاملي ج ١ من مقدمة التحقيق ص ٧، العروة الوثقى السيد الزدي ج ١ ص ٢٦، القضاء والشهادات الشيخ الأنصاري ص٢٤١، كتاب الاجتهاد والتقليد السيد الخوئي ص ٢٣٦، تعليقة على العروة الوثقى السيد على السيستاني ج ١ ص ١٥ تحرير الوسيلة السيد الخميني ج ١ ص ٥.

لهذا عندما نرجع إلى القرآن الكريم، نجد أن القرآن الكريم يريد من الفرد أن يدأب على السلوك العلمي؛ بمعنى أنه عندما يريد أن يعمل، لابد وأن يكون عمله عن علم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ولا تقف. تقفوا:من قفا، فلان قفا إثر فلان أي تتبعه، من التتبع، والتتبع تارةً يكون في القول، وتارة يكون في العمل، فالقرآن الكريم حينما قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ معنى ذلك أنه إذا أمرت بفعل شيء ما، وأنت لا تعرفه ولا تعلم عنه بإحدى وسائل العلم فلا تتبع آمرك به، وذلك إذا كان الآمر غير معصوماً أو أنه كان لا يرجع إلى قول المعصوم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (**من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح**)[1].

انطلاقاً من هذا المعنى ما هو السبب في نزول هذه الآية؟ قال - المفسرون - أن الآية الكريمة نهت المسلمين عن إتباع آثار أسلافهم والبناء على كونها صحيحة، وذلك أنه عندما جاء النبي ﷺ يحمل رسالة الإسلام، وأسلم من أسلم، في الحقيقة ليس كل من أسلم طبق مفاهيم الإسلام على الوجه الصحيح، والدليل على ذلك ما نجده الآن، وذلك أن هذه المنطقة التي نحن فيها منطقة عربية، فلو فرضنا غداً تأتي حضارة تخالف حضارة العرب، أي لو أن حاكماً من الحكام أراد أن يحكم الناس بخلاف ما اعتادوا عليه، فهل يستطيع بمجرد أن يأتي يحقق ذلك؟ طبعاً لا. بحيث أنه لا يقوى في خلال فترة وجيزة من الزمن أن يقوم بتغيير ملامح مجتمع، مثلاً يحول هذا المجتمع الذي نعيش فيه من مجتمع عربي إلى مجتمع آخر، ولهذا قالوا: إنه يحتاج إلى ثلاثة أجيال، هذا بأقل التقادير، بمعنى أنه يمر بعملية الهضم والتمثيل الاجتماعي. هذا ما ذهبوا إليه علماء الاجتماع في إحصائياتهم، أي أن رأي علماء الاجتماع أن الإنسان يحتاج في تغييره إلى ثلاثة أجيال، الجيل الأول، الجيل الثاني، الجيل الثالث، ثم بعد ذلك يمكن له أن يتغير شيئاً فشيء. من هنا نرجع للآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فالبعض من المسلمين حتى بعد إسلامهم لم يتركوا العادات التي كانت سائدة عندهم،

---

(١) تحرير الأحكام - الحلي - ج ١ ص ٣٦.

بل أنه بقي كثيراً منهم متأثراً بالأوضاع الجاهلية، فالعصبية كانت موجودة، والممارسات الأخرى أيضاً كانت كذلك، مع أنهم قد اعتنقوا الإسلام، وهذا المعنى لا نذهب عنه بعيداً، لأنه إلى الآن بعض مناطق المسلمين، فيها من هو متأثر بتلك العادات والتقاليد التي لا يقرها الإسلام بحال من الأحوال، منها أنهم لا يورثون البنت، بل أن البعض منهم عندما يتحدث عن البنت، يصورها بأنها كائن ضعيف، فإذا أراد أن يقيسها، قاسها بالضعف والانحطاط، وأعتبرها أنها لا تحمل كفاءات. وهذا التصور هو من العادات الجاهلية، التي لا زالت تعشعش في ربوع بعض المناطق الإسلامية، لأن الدين في الواقع لم يكن مجرد حمل شعار، وإنما هو معلومات يطبقها الإنسان على نفسه وأهله، فلابد من تربية ومن معانات طويلة، حتى تستطيع أن تحول المجتمع من حضارة لأخرى، فالغرض أن كثيراً من العادات الجاهلية، حتى بعد أن توسع الإسلام، كان البعض يمارسها، مثلاً: من بعض تلك العادات التي كانت عندهم سائدة، وكانوا يتبعون بها الآباء، وكانوا يتمسكون بها ويرون أنها من السنن الباقية، والتي يتعين عليهم القيام بها، مثلاً: إذا أصاب أحدهم المرض، فإنه لا يعالج بالدواء، أي لا يقدم له العلاج الذي قد يشفيه من ذلك المرض، بل أنهم يرون أنه سحق مرتباً من مراتب الجن، - وطأ مرتباً من مراتب الجن ، فلا يشفى حتى ترضى عنه الجن، ورضاءُ الجن يكمن في تقديم الفدية لهم، وذلك بأن توزع بعض الأطعمة في الطرقات، وفي بعض الأماكن التي يعتقدون بأن الجن تكمن فيها، حتى يصل الأمر بأن يضعوا شيئاً منها في بيوت الخلاء، ومراتب الجن عندهم كما يدعون هي الحية، واليربوع، والقنفذ. فاعتقادهم هو أنه إذا مرض أحدهم، قالوا: إنه وطأ حيةً أو يربوعاً أو قنفذاً، فلا يشفى حتى ترضى عنه الجن لأنه وطأ مرتباً من مراتبها، وكانوا يداوونه بالخرافات بدلاً من أن يداووه بالدواء، من هنا جاء النبي ﷺ فقال: (ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله فتداووا عباد الله)[1]. وقال ﷺ: (إن الله أنزل

---

(١) مواهب الجليل الخطاب الرعيني ج٣ ص ٣٤٦.

الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تداووا بالحرام[١]. أي عليكم أن تتركوا هذه الأساليب التي لم ينزل الله بها من سلطان.

أيضاً من الأشياء التي كانوا يرون أنها صحيحة، وكان آبائهم من قبل يمارسونها، هو ما يسمونه بالصفر، فالإنسان عندهم إذا جاع، وكثر به الجوع، وأصابه مثلاً فقر في الدم لسوء التغذية، لا يرون بأنه جائع، وإنما يقولون إنه قد عض على سرسوفه الصفر، [الصفر] حية يدّعون أن هذه الحية عضة على شرسوفه فأجاعته، بينما هو جائع بائس. ومن ثَم يقول الشاعر:

ولا يتأرى[٢] لما في القدر يرقبه   ولا يعض على شر سوفه الصفر[٣]

أيضاً من العادات السائدة لديهم، أنهم إذا مضوا للحرب، وجاؤوا بسبيَّة، وتزوجها أحدهم، وأولدها ابناً أو بنتاً ومات بعد ذلك الأب، وصاروا يُقسّمون الميراث، عند تقسيمهم للميراث لا يعطى من ولدته السبي شيئاً أبداً، سواءً كان ولداً أو بنتاً؛ لأنهم يعتبرونه هجين، على حد تعبيرهم، وبقيت هذه العادة عندهم إلى أن جاء الإسلام، فعندما جاء الإسلام نهاهم عن ذلك.

حكاية: دخل ذات يوم رجل على أحد القضاة، فقال له: إن أبي قد مات وترك إخوة ثلاثة وأنا أحدهم، وترك لنا أخاً رابعاً هجيناً، فقال له القاضي: وماذا تريد؟ قال: أريد أن تقسم لنا الميراث وذلك بأي صورة يتم؟ فقال له القاضي: إن الميراث يقسم أربعة أقسام، قسم منه لك، وقسمان منه لشقيقيك، وقسم منه لأخيك الرابع. قالوا: فرد عليه ذلك الرجل قائلاً له: يا هذا كأنك لم تفهم ما ذكرته لك، قال: بلا، قد فهمت ذلك وعرفت ما تريد، وأنت عليك أن تعرف ما أقوله لك، إن الميراث بناءً على ما ذكرت يقسم أربعة أقسام، فرد عليه قائلاً: إني أراك قليل الخالات بالدهناء[٤]. أي بعبارة

---

(١) المجموع محي الدين النوري ج ٩ ص ٥٣، نبيل الأوطار الشوكاني ج ٩ ص ٩٣.

(٢) [التأري] هو التوقع للشيء والانتظار له. المجازات النبوية - الشريف الرضي - ص١٦٥.

(٣) المجازات النبوية الشريف الرضي ص ١٦٤، الأمالي السيد المرتضى ج ٣ ص ١١٠.

(٤) الكامل في الأدب ٢: ٤٨. قريب منه.

أخرى إنك لست من أبناء البادية. فقال له القاضي: ما تريد أن تقوله فقل، فإن الميراث الذي تركه أباك هو أربعة أسهم، فكل واحد منكم له حصة منه، تقول الرواية فقال ذلك الرجل: إن هذا لعجيب، أنعطي الهجين كما نعطي إخوتي؟ قال: نعم، إن هذا حكم الله تعالى.

ولكن - من الغريب جداً - أن هذه النزعة بقيت عند بعض أمراء المسلمين، حتى أن أحدهم وهو هشام بن عبد الملك، كان ذات يوم من الأيام يخاطب زيداً [رضوان الله عليه]، قائلاً له: أنت الذي تنازعك نفسك للخلافة وأنت ابن أمه، يقول المؤرخون: فقال له زيد أيّهما أهم الخلافة أم النبوة؟ قال: بل النبوة. قال: اعلم إن الله تبارك وتعالى بعث نبياً وهو ابن أمة، بعث إسماعيل وأمه هاجر أمة، فلو كانت الأمهات تقعد بالأبناء عن نيل المعالي لقعدت أم إسماعيل بولدها عن النبوة، ولكن اعلم يا هشام إن لك لغةً تأدبك وتربيك، فعندها قال له هشام: قم، قال: إذن لا تراني إلا حيث تكره، فلما خرج من عنده قال: ما أحب أحد قط الحياة إلا ذل. ثم خرج من عنده وهو يقول:

منخرق الخفين يشكو الوجى ... تبكيه أطراف القنا والحداد
شرده الخوف فأزرى به ... كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد[1]

فزيد [رضوان الله عيه] كان يتألم عندما سمع هذه الكلمات، وذلك من رجل يدعي أنه خليفة المسلمين، وهو إلى الآن يحمل في ضميره نعرة من نعرات الجاهلية، بأن هذا بن أمة، وأن ابن الأمة لا يرقى، وليس له قابلية، فهل أنه أدرى وأفهم من الله تبارك وتعالى؟ ثم بعد ذلك أن هذه امرأة جيء بها سبية، فلما أن جيء بها سبية لماذا تتغير حقيقتها في نظره؟ إنه من أي مصدر جاء بهذا الحكم؟ واقعاً إن ذلك من معتقدات الجاهلية.

الغرض نرجع إلي صلب الموضوع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ

---

(١) قرب منه أنظر مواقف الشيعة الأحمدي الميانجي ج ١ ص ١٢٣.

عِلْمٌ﴾ أي لا تتبع كل ما جاء عن آبائك بدون أن تعلم صحته، فإذا علمت أن أباك على أمر صحيح فاتبع، وإلا فاتبع العلم ولا تتبع الجهل وإن كان مصدره أباك. - هذا هو الرأي الأول -.

الرأي الثاني: في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو أن القرآن الكريم نهى عن شهادة الزور، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (**شاهد الزور كعابد الوثن**)[1]. وقال عليه السلام: وقد سئل عن الشهادة فقال للسائل: (هل ترى الشمس؟) قال: نعم، قال عليه السلام: على مثلها فشهد أو دع[2]. فمثلاً قد يُدعى إنسان للشهادة، وذلك في قضيةٍ ما من قضايا الناس، وهو لا يعلم عنها شيء، بأن يقال له قل كذا وكذا، فيشهد بدون أن يكون له مصدر من مصادر العلم، في هذا المورد القرآن الكريم ينهاه عن ذلك، وكذلك رسول الله ﷺ، لأن الإنسان بهذه الصورة، قد يشهد زوراً وافتراءً، فلابد من أن يكون لديه مصدر من مصادر العلم، حتى يقدم على الشهادة[3]، ومصادر العلم مختلفة وكثيرة، فتارةً تعرف أن هذا صادق مئة بالمئة، فتشهد على صدقه[4]، وهذا لا يحصل إلا نادراً، وقد حصل إلى خزيمة بن ثابت الصحابي الجليل، ولهذا يروى أن النبي ﷺ في يوم من الأيام، كان جالساً مع أصحابه، فجاء إليه أعرابي وأمسكه من ثوبه، ثم قال: يا محمد إني بعتك فرساً ولم تدفع إلي ثمنه، فقال عليه السلام: (هذه لي وقد خرجت إليك من ثمنها). فقال الأعرابي: كلا، وإذا كان كذلك فهل عندك من يشهد؟ تقول الراية: فوقف خزيمة قائلاً: يا رسول الله أنا أشهد بأنك دفعت له الثمن، قال له النبي ﷺ: (من أين علمت، أحضرت ابتياعي لها؟) قال: لا، ولكن علمت

---

(١) جامع السعادات ج ٢ ص ٣٤١.

(٢) تحرير الأحكام - العلامة الحلي - ج ١ ص ٣٦.

(٣) عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ قال: (**لا ينبغي لأحد إذا دعي إلى شهادة ليشهد عليها أن يقول لا أشهد لكم عليها**). [المصدر مختلف الشيعة - العلامة الحلي - ج ٨ ص ٥١٠].

(٤) عن الصادق عليه السلام قال: (**إذا دعيت إلى الشهادة فأجب**) [المصدر السابق].

ذلك من حيث علمت أنك رسول الله[١]، يا رسول الله إنني أشهد من حيث أعلم أنك صادق، أنت نبي الله، وقد برهنت لنا بالأدلة على ذلك، وبرهنت لنا بالمعاجز على صدق نبوتك، أتيتنا تخبرنا بأخبار السماء، وقدمت لنا البراهين والأدلة على ذلك، وقد صدقناك على أخبار السماء، فكيف نكذبك على قول أعرابي بوال على عقبيه، تقول الرواية فقال النبي ﷺ: (قد أجزت شهادتك، وجعلتها شهادتين). فلقب خزيمة من ذلك الوقت بذي الشهادتين[٢]. فهذه الشهادة فيها مصدر من مصادر العلم، لأن خزيمة يعلم بأن النبي صادق.

ومن مصادر العلم أيضاً أن يرى الإنسان بعينيه، أو يسمع بأذنيه، فيدعى بعد ذلك للشهادة فيشهد[٣]. إذاً فالشهادة يجب أن تكون عن علم لا عن جهل، القرآن الكريم نهى عن شهادة الزور، لأن شهادة الزور تجعل الفوضى تعم في المجتمع، فصاحب الحق يختلس حقه ويضيع، ويتحول المجتمع إلى مقاييس مختلة، ولهذا نجد علمائنا بحثوها - أي الشهادة - بمنتهى الحذر، وأطنبوا فيها، كل ذلك لعظمها، وناقشوها مناقشة استدلالية[٤].

الرأي الثالث: أن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو

---

(١) قريب منه في الشافي في الإمامة الشريف المرتضى ج ٤ ص ٩٦.

(٢) أيضاً قريب منه في شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد - ج ١٦ ص ٢٧٣

(٣) روى هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ﴾ قال: قبل الشهادة، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ قال بعد الشهادة. [المصدر السابق] وقد عقب - العلامة الحلي - في كتابه مختلف الشيعة قال: وهو نص في هذا الباب، وتصريح بحمل الآية على التحمل لا الأداء.

(٤) انظر رسائل الشريف المرتضى - ج ٤ ص ٣٣٦، وكذلك الخلاف - الشيخ الطوسي - ج ٦ ص ٢٢٢، وكذلك شرائع الإسلام - المحقق الحلي - ج ٤ ص ٩١٧، وكذلك جامع الخلاف والوفاق - علي بن محمد القمي - ص ٦٠٩، وكذلك تحرير الأحكام - العلامة الحلي - ج ٥ ص ٢٩٦، وكذلك مختلف الشيعة ج ٨ ص ٥١٨، وكذلك مسالك الأفهام - الشهيد الثاني - ج ١٤ ص ٢٢٦. لأنه لا يسعنا هنا أن نذكر ما ذكروه.

النهي عن الافتراء، بأن يفتري إنسان على إنسان آخر، وذلك بأن يقول: إن فلاناً قام بالعمل الفلاني، أو أن فلاناً فيه الخصلة الفولانية، وهي ليست فيه، ففي هذا المورد يبهته بما ليس فيه، والبهتان هو أعظم من شهادة الزور، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله على تل من نار، حتى يخرج مما قاله فيه)[1]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: من بهت مؤمناً أو مؤمنةً بما ليس فيه، بعثه الله عزّ وجلّ في طينة خبال، حتى يخرج مما قال) قلت: وما طينة خبال؟ قال: (صديد يخرج من فروج المومسات)[2].

حكاية: يقال أنه في أيام العباسيين، وتحديداً في حكم المنصور الدوانيقي، جاء رجل من أهل الشام إلى المنصور، وقال له: إن في بلادنا رجل لديه أموال وأسلحة لبني أمية، فقال: المنصور في أي منطقة من مناطق الشام، قال: في مكان كذا وكذا. فالتفت المنصور إلى شرطته وأمرهم بالذهاب إليه، وقال لهم: أتوني به سحباً بعد أن تقيدوا يديه ورجليه، فأقبل الشرطة في منتصف الليل إلى داره، وانتزعوه من أهله انتزاعاً، وأخذوا يضربونه بالسياط، بعد أن أوثقوه بالحديد في رجليه ويديه، ثم جاؤوا به من الشام إلى بغداد، وأدخلوه على المنصور ليلاً، وهو آنذاك تعس بالأتربة، أتربت السفر على جسده، فالتفت المنصور إليهم، وقال لهم: فكوا قيوده، وادخلوه إلى الحمام، وأتوني به صباحاً، فمضوا به وصنعوا معه ما أمرهم به، فلما صار الصباح أحضروه بين يديه، فرفع المنصور رأسه إليه، قائلاً: يا هذا أين الأسلحة والأموال التي لبني أمية ؟ أخبرنا بأن عندك أسلحة وأموالاً لبني أمية فأحضرها، فأطرق ذلك الرجل ملياً، ثم قال له: بأي حق تطالبني أنت بأموال بني أمية وأسلحتهم، هل أنت ممن يرثهم، حتى أدفعها إليك ؟ فأطرق المنصور هنيئة، ثم قال: أنا لست ممن يرثهم، قال: إذاً هل خولوك في استلام أموالهم وأسلحتهم؟ فقال: لا. قال له: إذاً بأي حق تطالبني أنت

---

(١) جامع السعادات ج٢ ص ٣٢٥.
(٢) المصدر السابق.

بأموالهم؟ فأطرق المنصور ثم قال له: أنا خليفة المسلمين، وأن بني أمية نهبوا المسلمين، وأنا بحكم نيابتي عن المسلمين أريد أن أسترد حقوق المسلمين إليهم، - وهذه هي المصيبة التي منيت بها الأمة، مَن الذي خلفك على المسلمين؟ هذا هو البلاء الذي أبتلينا به -، قال له: وعلى فرض أنت كما تدعي، وتريد أن تسترد حقوق المسلمين إليهم، هل لديك دليل يثبت أن ما في يدي من الأموال والأسلحة، هو من الأموال العامة وليس من الأموال الخاصة؟ فقد يكون ما في يدي من الأموال الخاصة لهم، لأن بني أمية لديهم أموال خاصة بهم، إن عندهم ضياع، وعندهم بيوت، أليس كذلك؟ قال: نعم، قال: إذاً فهل تقيم عندي البينة، أن ما في يدي من الأموال هو من الأموال العامة، وليس من الأموال الخاصة، إنما هو ما نهبوه من المسلمين؟ قال: لا. قال: إذاً ما الذي دعاك إلى ما قمت به تجاهي من عمل، إنك روعتني وروعت عائلتي، حتى جيء بي إليك أسيراً في منتصف الليل، عشرات الليالي والأيام أسحب، حتى أوشكت أن أموت، فما هو المبرر لك في ذلك؟ تقول الرواية: فأطرق المنصور برهة من الزمن، ثم قال: يا هذا أراك على حق، ونحن قد استعملنا معك هذا الأسلوب، ولكن أيها الشرطة أطلقوا سراحه، فأقبلت الشرطة يفكون تلك القيود من يديه ورجليه، فالتفت الشامي إلى المنصور قائلاً: أتريد أن تطلق سراحي؟ قال: نعم. قال: اعلم والله الذي لا إله إلا هو ليس لبني أمية عندي مما ذكرت قليلاً ولا كثيراً، بل أنني لا أعرف أحداً منهم من قريب أو بعيد، ولكن عندما جيء بي إليك وسألتني عما سألتني عنه، قلت في نفسي إن أنكرت ذلك، فإن السياط تأخذ مني مأخذها، فرأيت أن أستعمل معك أسلوب المحاججة، وقد استعملت معك ذلك، وإلا فليس لبني أمية عندي شيئاً أبدا، إلا أنني أريد أن تجمع بيني وبين من سعى بي إليك، قال: بلى، إجلس، عندها أمر الشرطة قائلاً: علي بفلان الرجل، فجاؤوا به وأوقفوه بين يديه، قال: المنصور هو هذا الرجل. قال: إذاً دعني أعرفك عليه، إعلم إن هذا عبد لي - مملوك ، وقد سرق مني ثلاثة آلاف دينار، وكنت ألاحقه كي

أستقصها منه، فلما علم بذلك سعى بي إليك لتقتلني ويخلص من ملاحقتي له، ولك أن تسأله الآن، أهذا صحيح أم لا؟ قال: المنصور لذلك الرجل تكلم، قل الحق، وإلا ملأنا منك السيف، قال ذلك الرجل: بلى، لقد سرقت منه ثلاثة آلاف دينار وأردت الخلاص منه. فالتفت المنصور إلى ذلك الرجل الشامي قائلاً: لقد حكمناك فيه، ماذا تريد أن تصنع معه فصنع، فإن أردت منا أن نسجنه أو نقتله فلك الخيار، قال: كلا، لا هذا ولا ذاك، بل أنني أشهدك يا أمير أني أولاً عفوت عنه، وثانياً أعتقته لوجه الله، وثالثاً وهبته المال الذي سرقني إياه، ورابعاً تركته إلى حكم حكم عدل يوم يلقاه، لأنه من المعيب أن أضع هذا الرجل وأجعله خصماً ليَ إطلاقاً، إني لا أحب ذلك. في واقع الأمر إن هذه الصورة تعتبر من السمو النفسي، إن هذه النفس يعبر عنها بأنها نفس كبيرة، تربت في أحضان أهل البيت عليهم السلام ونهلت من معينهم، وتغذت من أخلاقهم، ولهذا نحن لا نتصور أن الإمام الحسين عليه السلام يقف يوم القيامة ويضع يزيد بن معاوية إلى جانبه، ويقول: يا رب إن هذا خصمي، من المستحيل أن يضع الحسين نفسه أمام مستنقع يزيد بن معاوية ليقول هذا خصمي أبداً، بل أن الله عز وجل هو الذي يأخذ بحقه، ولذلك عندما نتنبه إلى بعض فقرات الزيارة يتبين لنا هذا المعنى، بعض فقرات الزيارة تقول: (السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره، والوتر الموتور)[1]. بمعنى أن الحسين عليه السلام هو ثأر الله، والله عز وجل هو الذي يطلب به، وإلا فالحسين عليه السلام أكبر من هؤلاء، والدليل على ذلك أنه في اليوم العاشر من المحرم بكاء، وذلك عندما نظر إلى الجيش، وقد سألته أخته الحوراء زينب عليها السلام عن ذلك البكاء، قالت: (لماذا البكاء؟)[2] قال: (أبكي لهؤلاء القوم الذين يدخلون النار بسببي)[3]، هذه هي الروح الكريمة. وحتى

---

(١) مقطع من زيارة الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء ويومها [وهي موجودة في كثير من الكتب] منها مصباح المتهجد - الشيخ الطوسي - ص ٧٢٠.

(٢) المصدر بنور فاطمة اهتديت - عبد المنعم حسن - ص ٢٠١.

(٣) المصدر السابق.

في تلك اللحظات الأخيرة عندما سقط على الأرض يمد يميناً ويقبض شمالاً جراحاته تشخب دماً عبيطاً، حال العطش بينه وبين السماء كالدخان، يقول هلال بن نافع: مررت علي الحسين عليه السلام فرأيت شفتيه تتحركان قلت إن كان يدعو علينا هلكنا ورب الكعبة، فأصغيت لأسمع ما يقول وإذا به يقول: (صبراً على قضائك يارب، لا إله سواك، ياغياث المستغيثين، مالي رب سواك، ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك ياغياث من لا غياث له، يادائماً لا نفاد له، يامحيي الموتى، ياقائماً على كل نفس بما كسبت، أحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين)[١] ثم رمق السماء بطرفه، قال: (صبراً على قضائك، لا معبود سواك ياغياث المستغيثين)[٢]. وفي تلك اللحظات انحدرت إليه مجموعة من النساء الهاشميات، أقبلن إلى مصرعه، يقول أحد الشعراء:

فواحدة تحنو عليه تضمه ... وأخرى عليه بالرداء تُظلل
وأخرى على خوف تلوذ بظله ... وأخرى تفدّيه وأخرى تقبِّل
وأخرى بفيض النحر تصبغ شعرها ... وأخرى لما قد نالها ليس تعقل

يقول المؤرخون: فوصلن إليه وقد كانت حالتهن مختلفة، أما أخته الحوراء زينب فقد وقفت لتضرب أسمى الأمثلة في الصبر، حيث أنها قرنت كفيها ووضعتهما تحت ظهره الشريف ثم رفعته إلى السماء قائلتاً: (اللهم تقبل منا هذا القربان)[٣]، ثم أضجعته في مكانه، وكرت راجعة ولم يبدو على عينيها شيئاً من الانكسار، وكانت على هذا المعنى طيلة مكوثها في الأسر إلى أن رجعت إلى المدينة، لما رجعت نظرت إلى دار الحسين فوجدتها خالية، وكان وجه أخيها الحسين يتراءى لها يميناً وشمالاً، لأنها لم تفارقه طيلة ذلك

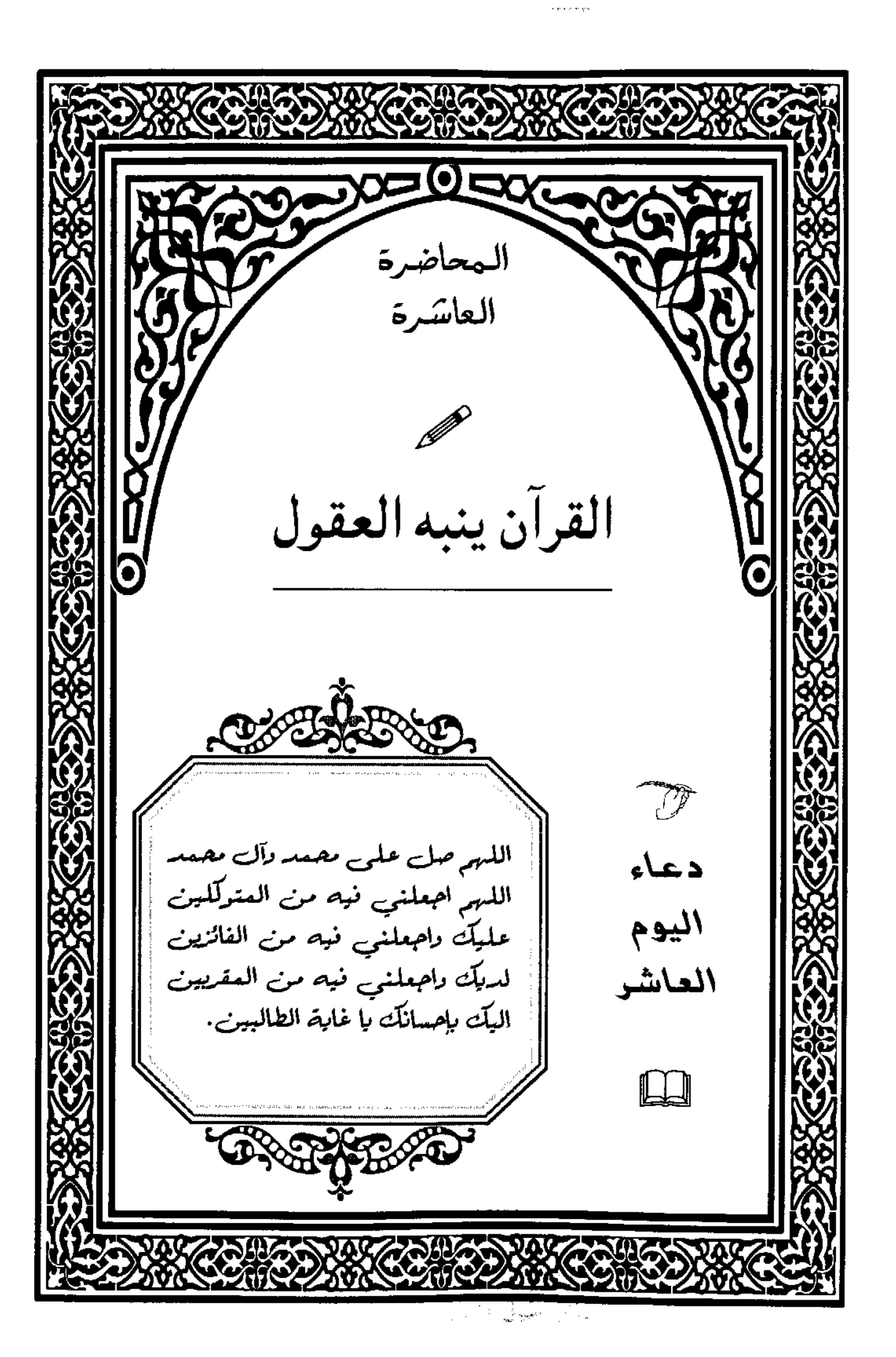
---

(١) موسوعة كلمات الحسين عليه السلام لجنة الحديث في معهد باقر العلوم عليه السلام ص ٦١٥، من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام عبد العظيم المهتدي البحراني ص ٢٥٨، الأخلاق الحسينية جعفر البياتي ص٢٥٠.
(٢) الأخلاق الحسينية جعفر البياتي ص ٢٥٤.
(٣) حياة الإمام الحسين عليه السلام الشيخ باقر شريف القرشي ج ٢ ص ٣٠١.

العمر، نشأت معه جنباً إلى جنب، فكان للحسين مع زينب صلة خاصة، أخته ولكنها كانت عديلةُ روحه، كان لا يكاد يفارقها، فلهذا أصبحت تجول في البيت ليلاً ونهاراً:

إن جان التريدن أنسى أبطل النوح ونيني
أُخذ ذكراك من قلبي وخذ صورتك من عيني
أيام الچنة وياك أناغيك وتناغيد
ءاشبيدي عايشة وياك من ذيك الأيام أشبال





المحاضرة
العاشرة

القرآن ينبه العقول

دعاء
اليوم
العاشر

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم اجعلني فيه من المتوكلين
عليك واجعلني فيه من الفائزين
لديك واجعلني فيه من المقربين
اليك بإحسانك يا غاية الطالبين.

١٠

القرآن ينبه العقول

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

❊ ❊ ❊

إن حقيقة الأمثال في المحاورات العامة هي بمثابة تقريب المعاني إلى أذهان المستمعين والقارئين[2]، وتوضيح ذلك أنه إذا كانت

---

(١) سورة الجمعة آية (٥).

(٢) وقد استخدم القرآن الكريم ضرب الأمثال كوسيلة من وسائل الدعوة إلى الهداية وإلى الاستقامة، والحث على الالتزام بأوامر الله ونواهيه، قال تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. فقد مثل القرآن الكريم الذين اتخذوا من دون الله أولياء في عقيدتهم ومنهجهم في الحياة ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وضرب الله تعالى مثلا للموحدين لله تعالى ولغير الموحدين التائهين في التوجيهات المتناقضة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] وضرب الله مثلاً في عبد آتاه الله الآيات فانسلخ منها واستسلم للشيطان ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ومثل القرآن الكريم العلماء الذين لم يجسدوا علومهم في سلوكهم العملي بالحمار يحمل أسفاراً ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ =

جماعة من الناس يتحدثون في ما بينهم، فقد يكون البعض منهم يأتي بمسألة فيها خفاء، بحيث لم يكن السامع بمستوعب إليها، فحينئذٍ يضطرّ المتحدث أن يأتي بقضية مشابهة أو مماثلة قد عهدها المستمع من قبل. وعليه تكون وظيفة المثل هي وظيفة استبيانية، وهذا المعنى تناوله القرآن الكريم في كثير من الآيات، كما في سورة الكهف قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾(١). فمن خلال هذا المثل القرآني يتبين لنا حال أولائك الأشخاص الذين يجمعون أموالهم من السحت والحرام، بأن تكون أموالهم هي أشبه شي بالنبات اليابس الذي يتساقط عليه المطر فيهشمه ويحطمه، وبعد ذلك تأتي الرياح العاتية وتبدده بالفضاء يميناً وشمالاً، كذلك إذا أخذنا هذا المثل بعين الاعتبار نرى أن الثروة التي تجمع من الحرام لا بد وأن يكون مصيرها التبدد، ويصبح هذا الشيء المعنوي في الآية الكريمة أن عرفناه بهذا المثل الحسي.

مثالٌ آخر جاء في سورة البقرة قال جل وعلا: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى عباده بالإنفاق وقال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾(٣). بيّن جل جلاله أنه سيعطي المنفق في سبيله أجراً وأن يضاعف ذلك الأجر، وبين صورة ذلك الأجر بهذا الشيء الذي يرونه أمام أعينهم في النبات؛ وذلك أن

= ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] والقرآن مليء بالأمثال، وكذلك السيرة النبوية وسيرة أهل البيت عليهم السلام. وضرب الأمثال يقرب المعنى إلى الأذهان ويجعله متفاعل في الضمير والوجدان البشري، وهو سهل الحفظ والنقل، وله تأثير محسوس على جميع مقومات الشخصية، كذا استخدم كوسيلة من وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦١.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٧.

الفلاح عندما يضع البذرة في الأرض ويغذيها بالماء والأسمدة كيف أنها تنمو بذلك الشكل العجيب من النمو المتزايد؛ كذلك الأجر الذي أعده الله تعالى للمنفق أنه ينمو بهذا الشكل من النمو المتزايد، ثم بعد ذلك هناك شيء لا يتصوره الإنسان، حيث لم يكن له نظير في دار الدنيا قد أعده أيضاً للمنفق، فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. من هنا نرجع إلى أبحاث الآية التي صدرنا بها البحث

المبحث الأول: يقول المفسرون إن الآية الكريمة نزلت تتحدث عن اليهود، - اليهود حُملوا التوراة - والمقصود بـ[حملوا] أي كُلّفوا، فقولنا حمله هذا الشيء أي كَلّفه به؛ فكأن الله عز وجل عندما أنزل التوراة على اليهود كلفهم بالعمل بمضمونها، وافترض عليهم بأن تكون التوراة دستوراً للحياة عندهم، وأمرهم أن يطبقوا المفاهيم التي وردت فيها، من وصايا، ومن نظم، ومن حدود، ومن، ومن، إلى آخره، كل ذلك على ساحة الواقع، فأصبحوا مسؤولين عن تطبيقها على أرض الواقع.

وهنا يأتي السؤال هل أنهم طبقوها على أنفسهم، أو أنهم طبقوها في مجتمعهم؟

الجواب: كلا، إنهم لم يطبقوها، وذلك لأنهم قرؤوها فرأوا فيها أشياء تصطدم بما تمليه عليه أهواؤهم؛ مثلاً من جملة الأشياء التي تصطدم بأهوائهم، أن التوراة تبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الأمر يصطدم بالمصالح الخاصة والعامة عندهم، لأن لديهم مؤسسات قائمة على اليهودية، وهذه المؤسسات تدرُّ عليهم بوارد كثير، حيث أن لها ارتباط مع الدولة، فالمكانة الاجتماعية إذا ألغوها ذهبت مصالحهم، كما وإلى جانب ما ذكرنا أن لديهم أشياء يقومون بها لا تلتقي مع تعاليم السماء، فلذلك رفضوا العمل بالتوراة. من هنا جاء القرآن وأشار إليهم، بماذا عبر عنهم؟ قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ وهنا نقطة هامة يجب أن نشير إليها، وهي هل أن هذه المسألة اختصت باليهود فقط؟ بمعنى أن الله تبارك وتعالى أنزل عليهم التوراة فجمدوها ولم يعملوا بمضمونها هم فقط؟

واقعاً كلا، وذلك لأن غيرهم أيضاً كذلك، مثلاً القرآن الكريم أنزل على النبي ﷺ وكان الهدف من إنزاله هو العمل به، لكن يا ترى هل أن المسلمين اليوم يعملون بالقرآن طبق ما أمر الله عزّ وجلّ به؟ الجواب: كلا؛ إنهم لم يعملوا به، كما هم ملزمون أن يعملوا به. إذاً هذا الذم الذي ذكرته الآية لليهود لا يختص باليهود، بل أن بعض المسلمين مشمولين به، والدليل على ذلك هو أن القرآن الكريم أنزله الله تعالى في المجتمع العربي، وكلف بالعمل بمضمونه العربي وغيره، إلا أن ذلك لم يتم على الوجه الصحيح، فكثيراً من آياته جمدت ولم يعمل بمضمونها؛ فعلى سبيل المثال من جملة ما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾(١). فنحن هل تساءلنا عن العلاقة في ذلك؟ يعني ما بين الإعراض عن ذكر الله تبارك وتعالى وبين أن تكون المعيشة ضنكاً؟ فعلينا أن نسأل ما هي العلاقة في ذلك، الجواب: أن العلاقة واضحة، وهو أن كل من يعرض عن القرآن الكريم لأن يطبق غير القرآن، وهذا ما حصل بالفعل في المجتمع الإسلامي، حيث أن المسلمين اليوم يقومون بتطبيق مبادئ النظم المعاصرة، كالاشتراكية، والرأسمالية، وغيرهما من النظم الحديثة، ومن خلال ذلك أصبحت الانتكاسة واضحة أتم الوضوح. فالبعض قد طبق الرأسمالية وطبق الاشتراكية، وطبق المبادئ المتدخلة، ومن خلال ذلك أصبحت المشاكل قائمة على قدم وساق، ففي كل يوم من الأيام يمر، تسمع مصيبة اقتصادية هنا، ومصيبة اجتماعيه هنا، . . . و. . . و وهكذا، ولكن لو أن المسلمين طبقوا مفاهيم القرآن الكريم ما حصل لهم بالفعل ما حصل، لأن هذه النظم لم ولن تحل لهم مشكلة من المشاكل أبداً، بل أن فيها ويلات مرعبة.

فإذاً لا بد من أن تُجسد مفاهيم القرآن وتنصهر في الواقع العملي، بحيث مثلاً يتاح للاقتصاد الإسلامي أن ينزل إلى أسواق المسلمين، بأن نأتي إلى نظريات التوزيع، وإلى نظريات الإنتاج، وإلى نظريات البيع

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

والتبادل. . و. . و. . وهكذا ونأخذ فيها الرأي الإسلامي ونطبقه، ثم ننظر إذا طبقنا ذلك هل تكون حياتنا مرفهة أم لا؟

لأن هذه المبادئ التي تطبق ويعمل بها، ما أغنت الإنسانية بشيء إطلاقاً؛ فانظر تجد الآن في أرقى وأغنى الدول - إلى الآن - البعض إذا جن عليه الليل يفترش الأرض ويلتحف السماء، ليس عنده مكان يسكنه يتناسب وشأنه، وليس له طعام على الوجه المطلوب، . . و. . . وإلخ، فعندها تتساءل عن تلك الثروات الهائلة التي ترد أين هي؟ أليس هو من مَن يتنابهم ذلك؟ بل أنه في المقابل وفي نفس تلك المنطقة تجد كلباً من الكلاب ينفق عليه عشرات الجنيهات، أو عشرات الدنانير، يدلل ويرفه ويوضع له خادم كما له من يعنيه ويبيطره وهكذا، فترى هذه المفارقات العجيبة في مجتمعاتنا الإسلامية، الجوع منتشر، والحرمان كذلك، بالرغم من وجود هذه النظم، فهل درسنا العلاقة بهذه الآية؟ الجواب: كلا، والحال أنه يجب علينا أن ندرس ذلك، بل أكثر من هذا، أنظر إلى المفارقة التي هي أكبر، هل لدينا في مجتمعاتنا التربوية مفردة من مفردات المنهج الإسلامي؟ كما ندرّس الاقتصاد المعاصر كاقتصاد آدم أنست مثلاً، أو اقتصاد سندي، أو اقتصاد فلان، لماذا لا ندرس رأي الإمام جعفر الصادق، أو رأي عالم من علماء المسلمين؟ لماذا لا نضع رافد من الروافد الإسلامية؟ لماذا لا ندرس رأي إمام المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ وهو الذي يمثل حصيلة السماء؟ إلا أنه - وللأسف الشديد - البعض تجده إلى الآن يحمل عقدة في قرارة نفسه، تجاه الدين الإسلامي، بأنه يتصور أن الإسلام ليس لديه القدرة على مواكبة الأمور، وهذا المعتقد هو الذي جعلنا مُستعمرين من قبل الحضارات الأخرى، فأصبحت الحضارات الأخرى تسيطر بكل قواها في بيوتنا، وفي مدارسنا، وفي منتدياتنا، وفي أسواقنا، وفي، وفي، وإلى آخره؛ وأصبح الفرد المسلم لا يعرف عن الإسلام سوى الصلاة والصيام والحج وأمثال هذه الأمور، بينما الإسلام هو الذي أبتكر نظريات العلوم الأخرى ولكن بمادة تحتاج لمن يصهرها، لأن الفقهاء قدموها لنا - كمادة - خام، تحتاج لمن يقوم بصهرها وبعد ذلك توضع في منهج تدريسي وتدرس.

فهل درسنا هذه العلاقة فيما تعنيه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؟ الواقع كلا لم ندرس ذلك.

نعود إلى أصل البحث، فالبعض يحمل القرآن ولكنه لا يفرق بينه وبين غيره من الكتب الأخرى، فلهذا يعبر عنه القرآن أنه بمثابة البعير الذي يوضع على ظهره الحمل؛ وهولا يفرق بين هذا الحمل وذاك الحمل، يرى أن الطعام والكتاب والشراب على حد سوى، فالبعض من الناس هكذا بالنسبة لحمله للقرآن الكريم، لا يفرق بينه وبين الكتب الأخرى، وهذه ظاهرة - للأسف الشديد - متفشية عند كثير من الشعوب. بل أن البعض تقييمهم للأشخاص أيضاً هكذا، فتراه في تقيمه لأصحاب النبي ﷺ يقارن علي بن أبي طالب بغيره، لأن غيره حضر معه في بعض الغزوات؛ بينما علي بن أبي طالب هو الوحيد الذي نزلت فيه سبعون آية، وذلك على حد تعبير كثير من علماء غير الشيعة، فهل هذا الرجل يقاس أو يقارن برجل لعله أبسط المسائل لا يعرفها؟ بعض المؤرخين يقول: علي بن أبي طالب بدري وحاطب ابن أبي بلتعه بدري، كلاهما بدريان، وهنا نسأل هل أن هذه تعتبر مقاييس صحيحة؟ علي ابن أبي طالب عليه السلام يصعد على المنبر يقول: (**سلوني قبل أن تفقدوني**)، والله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل[1]. وقوله عليه السلام: (والله ما من فئة تهدي مئة وتضل مئة إلا وأنا أعلم بناعقها وقائدها وسايقها إلى يوم القيامة)[2]. فهل من الممكن شخص كهذا يوضع في التقييم إلى جانب رجل كما ذكرنا لعله أبسط الأحكام لا يعرف عنها شي؟ - قد يكون من الصحيح أن يقدر له صحبته لرسول الله ﷺ ولكن يجب التميز، لان الموقف يستدعي ذلك-. فالشخص الذي قارنه البعض بعلي بن أبي طالب هو حاطب بن أبي بلتعه وقد قام هذا الرجل بقضية أزعجت النبي ﷺ وتأثر منها، حيث أن هذا الرجل كانت له عائلة في مكة المكرمة، فلما علم

(١) المتعة النكاح المنقطع - مرتضى الموسوي الأردبيلي - ص ٢١٨.
(٢) عوالي اللئالي ج ٤ ص ١٢٨.

بأن النبي ﷺ يتهيأ للخروج إليها مع جيش المسلمين، أراد أن يجعل له جميلاً على أهلها - أي أهل مكة - لئلا يساء إلى عائلته، فأرسل كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه بقدوم رسول الله ﷺ وذلك على يدي إمرأة جاءت إلى المدينة بعنوان أنها فقيرة تتسول، وهي ليست كذلك، وإنما هي - في واقع الأمر - جاسوسة لقريش، فلما علم بها أعطاها الكتاب وجعل لها جعلاً على أن توصله إلى قوم سماهم لها من أهل مكة، وأمرها أن تأخذ على غير الطريق، فوضعت الكتاب في عقيصتها وخرجت، فهبط الأمين جبريل على النبي ﷺ وأخبره بذلك، فاستدعى أمير المؤمنين عليه السلام وقال له: «إن بعض أصحابي قد كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، وقد كنت سألت الله أن يعفِّي أخبارنا عليهم، والكتاب مع امرأة سوداء قد أخذت على غير الطريق، فخذ سيفك والحقها وانتزع الكتاب منها وخلها وصر به إلي» ثم استدعى الزبير بن العوام فقال له: «امض مع علي بن أبي طالب في هذه الوجه» فمضيا وأخذا على غير الطريق فأدركا المرأة، فسبق إليها الزبير فسألها عن الكتاب الذي معها، فأنكرته وحلفت أنه لا شيء معها وبكت، فقال الزبير: ما أرى - يا أبا الحسن - معها كتاب، فارجع بنا إلى رسول الله ﷺ لنخبره ببراءة ساحتها. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يخبرني رسول الله ﷺ أن معها كتاباً ويأمرني بأخذه منها، وتقول أنت أنه لا كتاب معها» ثم اخترط السيف وتقدم إليها فقال: «أما والله لئن لم تخرجين الكتاب لأكشفنك، ثم لأضربن عنقك» فقالت له: إذا كان لا بد من ذلك فاعرض يا ابن أبي طالب بوجهك عني، فأعرض عليه السلام بوجهه عنها فكشفت قناعها، وأخرجت الكتاب من عقيصتها فأخذه أمير المؤمنين عليه السلام وصار به إلى رسول الله ﷺ فأمر أن ينادي بالصلاة جامعة، فنودي في الناس فاجتمعوا إلى المسجد حتى امتلأ بهم، ثم صعد رسول الله ﷺ المنبر وأخذ الكتاب بيده وقال: «أيها الناس، إني كنت سألت الله عز وجل أن يخفي أخبارنا عن قريش وإن رجلاً منكم كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب، وإلا فضحه الوحي» فلم يقم أحد، فأعاد رسول الله ﷺ مقالته ثانية، وقال: «ليقم صاحب الكتاب وإلا فضحه الوحي» فقام حاطب بن أبي بلتعة وهو يرعد كالسعفة في يوم الريح

العاصف فقال: يا رسول الله أنا صاحب الكتاب، وما أحدثت نفاقاً بعد إسلامي، ولا شكاً بعد يقيني، فقال له النبي ﷺ: «فما الذي حملك على أن كتبت هذا الكتاب؟ فقال: يا رسول الله إن لي أهل بمكة، وليس لي بها عشيرة، فأشفقت أن تكون الدائرة لهم علينا، فيكون كتابي هذا كفاً لهم عن أهلي، ويداً لي عندهم ولم أفعل ذلك لشك في الدين. فأمر النبي بإخراجه من المسجد تقول الرواية فجعل الناس يدفعونه في ظهره حتى أخرجوه، وهو يلتفت إلى النبي ﷺ ليرق عليه فأمر النبي ﷺ برده وقال له: قد عفوت عنك وعن جرمك، فاستغفر ربك ولا تعد لمثل ما جنيت»(1). فمجمل القول أن هذا الرجل كان خائفاً ووجلاً على عائلته من أن تتعرض لسوء، فهل يقارن هذا الرجل بمن كان في صباح كل يوم يقف شاهراً سيفه في وجه الكفر، وهو يعلم بأن عائلته ستتعرض إلى القتل والتشريد؟؟

ولهذا كم تعرضت عائلة علي بن أبي طالب إلى أذىً وإلى إبادة من قبل الأمويين، فقد كان الأمويون يواجهون قبر النبي وهم يقولون: يا محمد ثار بثارات بدر، وبدر من فيها؟ يقول المؤرخون: أبرز من كان فيها هو علي بن أبي طالب، فقد قتل خمسة وثلاثون بسيفه، وخمسة وثلاثون اشترك فيها الجيش الإسلامي كله مع الملائكة، ولهذا من المفارقات عندنا أن يأتي مؤرخ ويجعل علي بن أبي طالب مع هذا الرجل، ويقول: علي بدري وحاطب بن أبي بلتعة بدري، هل يقاسا في المضمون على حد سوى؟ كلا، وألف كلا، إذاً لا بد وأن تكون لدينا مقاييس نوزن بها الأشخاص لكي لا نقع في ما لا يحمد عقباه، ولهذا أنظر إلى القرآن الكريم فإنه ينعى على هؤلاء بأنهم حملوا التوراة ولم يعملوا بمضمونها، كذلك نحنُ المسلمين حملنا القرآن ولم نعمل بمضمونه، فالمسألة إذاً لا تقتصر على اليهود من أنهم حمل التوراة ولم يعملوا بها، لأنه حتى حامل القرآن إذا لم يعمل بمضمونه يكون عرضة للمؤاخذة، لأن القرآن لم ينزل فقط للتلاوة أو للتبرك، وإنما أنزل القرآن

---

(1) الإرشاد - الشيخ المفيد - ج ١ ص ٥٦ - ٥٧، قريب منه بحار الأنوار ج ٤١ ص ٨، مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٤٠٥.

إمامنا ومرشدنا، القرآن مصدر حضارتنا، فعندما نقرأ القرآن لا بد وأن نأخذ من مضامينه، لأنه لم يَدع بعداً من أبعاد الحياة إلا وملأهُ، اقتصاد، أخلاق، تربية، آداب... الخ. فقد عالج كل المشاكل على المستوى الفردي وعلى المستوى الاجتماعي، فعلينا إذاً أن نأخذ من القرآن الكريم ومن عطائه، بحيث يكون مجتمعنا مجتمع قرآني بما لهذه الكلمة من معنى.

المبحث الثاني في هذه الآية الكريمة: يأتي السؤال وهو لماذا الله عزّ وجلّ ضرب المثل بالحمار، قال: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾؟ هناك آراء:

أولاً: يقول علماء الحيوان: أن هذا الحيوان أغبى الحيوانات، ولهذا يخضع لما يراد منه في كل وقت، يقول أحد الأدباء:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له أحد[1]

ثانياً: أنه سهل التحميل بمعنى أنه غير مرتفع، وثالثاً سهل القياد، وإن كانت هذه الظاهرة عامة في كل الحيوانات، حيث أن الله تعالى سخرها لنا، إلا أن هذا الحيوان أكثر تسخيراً من غيره، فكأن الله تعالى هيّأهُ للحمل، ولهذا نجد الآية الأخرى تقول: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ﴾[2] إذاً بالإضافة إلى ما ذكرنا هناك تصنيف، فالبعض للركوب، والبعض للزينة، فماذا نفهم من هذا؟ واقعاً هناك سبب، السبب أن الله عزّ وجلّ يريد أن يعلمنا على المقاييس، فما هو معد للحمل يجعل للحمل، وما هو معد للزينة يجعل للزينة، بمعنى أن نجعل المناسب في المكان المناسب، فمن هو معد للحمل يوضع للحمل ومن هو مهيّء للزينة يوضع للزينة، ولا يكون العكس، لأنه إذا كان العكس يحصل حينئذٍ ما يحصل من تراجع في عجلة الحياة، وهذا ما

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٨ ص ٣٢٨، المناظرات في الإمام الشيخ عبد الله الحسن ص٦٠، شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٢٢، تفسير الآلوسي ج ٢٩ ص ٢١.

(٢) سورة النحل مقطع من الآية.

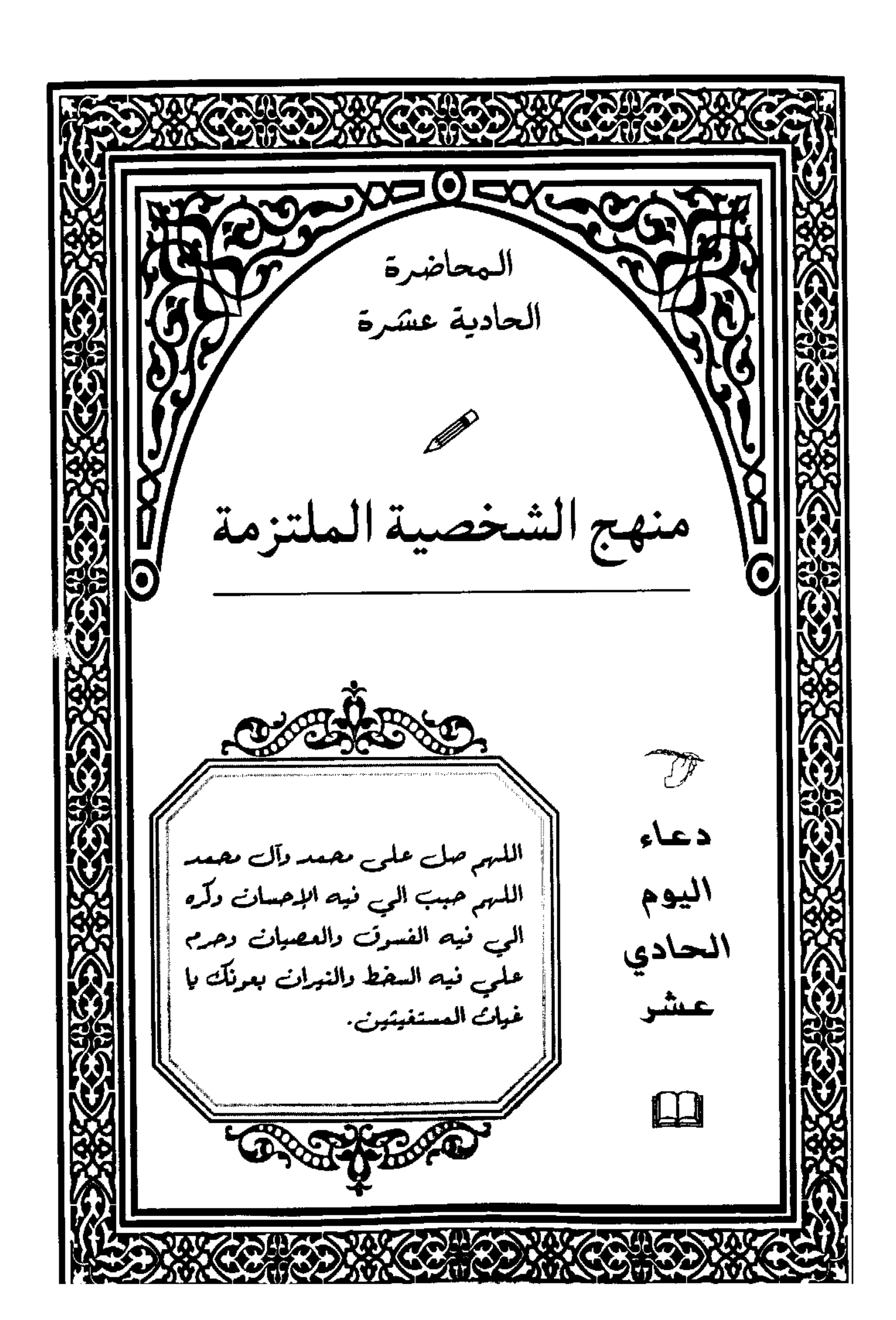
نلاحظه في مجتمعاتنا الصغيرة منها والكبيرة، فمشاكل المجتمع جاءت من وضع الرجل المناسب في المكان غير المناسب، والعكس الرجل الغير مناسب في المكان مناسب، فبالتالي لم تنته إلى نتيجة صحيحة، فالمقاييس إذا اختلت حينئذ تختل هذه الحياة، مثال ذلك فلانٌ من الناس مثلاً اختصاصه العلمي الفيزياء أو الكيمياء، إلا أنه يطلب منه أن يكون مدرب كرة قدم، واقعاً إن هذا المعنى تضييع للكفاءة، كما وأنه تضييع للعلم، وذلك لأنه وضع للشيء في غير موضعه، فالكل له ميدانه العلمي والعملي، فإذا انحاز أو حيز عن ذلك تحصل الويلات في المجتمع. وهذا ما حصل بالفعل للأمة بعد وفاة نبيها، فقد أصبح مَن هو مهييء لقيادة الأمة بعد رسول الله في عقر داره، ولم يكتفوا بذلك بل كبست عليه داره، حتى خرجوا به ملبباً بحمائل سيفه، ولهذا من كانت تعرف منزلته عند الله وعند رسوله وهي فاطمة الزهراء عليها السلام لم تستقر في دارها، بل أنها خرجت برفقة مجموعة من النساء الهاشميات إلى أن وصلت إلى مسجد أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإذا بالقوم حوله كالحلقة وهم يطلبون منه أن يبايع، فلما نظرت إليه أقبلت تعدوا وتصيح: (خلوا عن ابن عمي!! خلوا عن بعلي!! والله لأكشفن عن رأسي ولأضعن قميص أبي على رأسي ولأدعون الله عليكم). وفي رواية: (فوالذي بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالحق لئن لم تخلوا عنه لأنشرن شعري ولأضعن قميص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رأسي ولأصرخن إلى الله تبارك وتعالى فما ناقة صالح بأكرم على الله مني، ولا الفصيل بأكرم على الله من ولدي)[1].

ورحم الله الكعبي وهو يصف ذلك الموقف عن لسان الزهراء:

خلوا ابن عمي أو لأكشف بالدعا	رأسي وأشكو للإله شجوني
ما كان ناقة صالح وفصيلها	بالفضل عند الله إلا دوني[2]

(١) بحار الأنوار ج ٤٣/ تاريخ اليعقوبي/ الاحتجاج للطبرسي، بحار الأنوار ج ٢٨ ص ٢٠٦.

(٢) للشيخ صالح الكواز [المصدر مجمع النورين ص ٨٣].



المحاضرة
الحادية عشرة

منهج الشخصية الملتزمة

دعاء
اليوم
الحادي
عشر

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم حبب الي فيه الإحسان وكره
الي فيه الفسوق والعصيان وحرم
علي فيه السخط والنيران بعونك يا
غياث المستغيثين.

١١

منهج الشخصية الملتزمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

❋❋❋

لقد كان الحديث في الموضوع المتقدم، في الفقرات الأولى من هذه الآية الكريمة، إلى قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ وحينئذ سيكون الحديث فيما تبقى من فقراتها، قالت الآية الكريمة: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في هذا الموضع، يقول علماء اللغة: أن كلمت بئس - فعل للذم[٢] - ولهذا قالوا: أن عكس بئس نعم، مثلاً: تقول: بئس الكذاب ونعم الصادق. ومن هنا نفهم، أن الآية جاءت تذم الذين يكذبون، بآيات الله تبارك وتعالى.

فمن هم هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله؟ الواقع هم اليهود ونظائرهم، ممن حمل الآيات، ولم يعمل بمضمونها، لأن المراد من الآيات هنا هي الآيات التدوينية، لا الآيات التكوينية، فالبعض حملها شكلاً لا مضموناً، ومن المفترض بالإنسان المؤمن بالله تعالى أنه إذا جاءته آيات الله يتفاعل معها، أي يطبقها على نفسه، حتى بعد ذلك ينطبق عليه أنه مؤمن بها، أما كونه يقرؤها

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٢) انظر رائد الطلاب ص ١٦٥ قال: [بئس: فعل للذم ماضي جامد].

أو يعمل بها أو يعلمها الغير ولا يطبقها فلا[1]. ورد عن النبي ﷺ أنه قال: **(أوحى الله إلى عيسى بن مريم: عظ نفسك بحكمتي، فان انتفعت فعظ الناس وإلا فاستحي مني)**[2]. وهذه تعتبر - للأسف الشديد - إحدى الثغرات التي توجد في مجتمعاتنا وفي تاريخنا، والتي نسميها العالم غير العامل، ذلك لأن البعض يعرف الآيات القرآنية، ويعرف الأحكام الشرعية، ولكنه يعمل خلاف ما يعلم، ثم يدعو إلى تطبيق ذلك[3]. وهذا هو المعنى الذي يتطرق إليه أحد الشعراء:

يأيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الظنى ... كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبداً وأنت من الرشاد عقيم
ابدأ بنفسك وانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم[4]

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **(من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه)**[5]. **وقال عليه السلام: (ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس**

---

(١) روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه حدث عن النبي ﷺ قال: (العلماء رجلان: رجل عالم أخذ بعلمه فهذا ناج، ورجل تارك لعلمه فهذا هالك، وإن أهل النار ليتأذون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله سبحانه فاستجاب له، وقبل منه فأطاع الله، فأدخله الجنة، وأدخل الداعي إلى النار بتركه علمه) تحرير الأحكام ج ١ ص ٣٧.

(٢) كنز العمال خ ٤٣١٥٦، ج١٥، ص٧٩٥.

(٣) من مواعظ عيسى عليه السلام [١٥] بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج الدقيق الطيب ويمسك النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم. [تحف العقول ص ٥٠١ - ٥١٣].

(٤) تفسير الرازي ج ٣ ص ٤٨، أعيان الشيعة السيد محسن الأمين ج ٧ ص ٤٠٤.

(٥) البحار ج ٢: ص٥٦.

ومؤدبهم)[١]. ذلك لأن البعض كثيراً ما يعلم الناس ويرشدهم بلسانه، إلا أن سيرته تخالف عمله[٢]، بينما البعض يعلم الناس بعمله، وهذا هو المعنى الذي يريده الإمام الصادق عليه السلام في معرض وصيته لأصحابه إذ يقول: (كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلك داعية)[٣]. وقال عليه السلام: (كونوا دعاة الناس بأعمالكم، ولا تكونوا دعاة بألسنتكم)[٤]. هذه العبارة عندما يسمعها الإنسان في أول وهلة يتساءل كيف يدعو الإنسان وهو صامت؟ الواقع أن الداعي الصامت هو من تكون أخلاقه وأفعاله تدعو الناس، وسلوكه يدعو الناس، وهذا كثيراً ما نراه عند البعض.

ولهذا نجد أن من يطبق التعاليم الإسلامية يكون قدوةً للآخرين، بمعنى عندما نرى في المجتمع من يتحلى بالصدق ويتحلى بالورع ويتحلى بالتقوى، لا شك نتأثر بأفعاله، فبالتالي مَن يكون بهذه الكيفية أفضل من داعية يدعو الناس إلى الصلاح وهو في بؤرة الفساد، لأنه مَن يكون كذلك لا تأثير لكلامه، لأنه واعظ غير متعظ، ولهذا ورد عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال في حديث: (أوصيكم بتقوى الله، والعمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وأداء الأمانة لمن ائتمنكم، وحسن الصحبة لمن صحبتموه. وأن تكونوا لنا دعاة صامتين. فقالوا: يا ابن رسول الله وكيف ندعو إليكم ونحن صموت؟ قال: تعملون بما أمرناكم به من العمل بطاعة الله وتتناهون عن معاصي الله وتعاملوا الناس بالصدق والعدل وتؤدون الأمانة وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ولا يطلع الناس منكم إلا على خير

---

(١) نهج البلاغة/ الحكمة: ٧٣.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **(مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها)، وعنه صلى الله عليه وآله قال: (مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه)، وعنه صلى الله عليه وآله قال: (مثل من يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل المصباح الذي يضيء للناس ويحرق نفسه)** [المصدر ميزان الحكمة ج ٤ ص٢٨٤١].

(٣) الكافي ج ص ٧٨.

(٤) الكافي ج ص ٧٨.

فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا أفضل ما عندنا فسارعوا إليه)[1]. لقد كان الإمام الصادق عليه السلام يريد من الدعاة أن يقرنوا العمل بالقول وأن تكون أقوالهم صورة من أفعالهم لأن ذلك أبلغ في التأثير.

حادثة: يذكر أن الشيخ جعفر المعروف بالتستري رحمه الله دخل عليه ذات يوم رجل من المماليك وقال له: إني عبد مملوك لأحد المؤمنين، الذين يستمعون إلى حديثك في كل ليلة، وإنه يتأثر باستماع حديثك، حيث أن مجلسك هذا عامر بالموعظة ، فأريد منك أن تشرح له فضيلة العتق، لأني قد أصبحت وليس لدي طاقة على العمل، ذلك لأنني طعنت في السن وضعفت عن العمل. تقول الرواية فقال له الشيخ: سأتحدث عن ذلك إن شاء الله. فأخذ ذلك العبد يتردد على مجلس الشيخ حتى مضت ستة أشهر، والشيخ لم يتحدث عن موضوع العتق أبداً، وبعد كمال الستة أشهر تحدث في ليلة من الليالي، فلما أن رجع ذلك الرجل إلى منزله استدعاه وأعتقه، فلما كانت الليلة الثانية مضى العبد إلى مجلس الشيخ وهو فرح مستبشر، فناداه الشيخ قائلاً له: أراك في زي المأنوسين، قال: وكيف لا أكون كذلك؟ وقد منّ الله علي ببركة توجيهك سيدي أن أعتقت؛ إلا أن في نفسي سؤالاً يعتمل أريد أن أسألك، تقول الرواية فقال الشيخ: وما هو؟ قال: أيها الشيخ اعلم لقد مضى على طلبي منك أن تتحدث عن فضيلة العتق ستة أشهر وأنت لم تتحدث عنه إلا البارحة، فلماذا؟ ثم اعلم أنك لو تحدثت عنه عندما قلت لك لأعتقت قبل البارحة. تقول الرواية فقال له الشيخ: اعلم أنني في هذه المدة كنت أجمع من المال ما أستطيع أن أشتري به مملوك، فلما أن كمل عندي، اشتريت مملوكاً فأعتقته، فعندها تحدثت عن فضيلة العتق، فلو أنني تحدثت قبل أن أعمل لما كانت لموعظتي أي أثر في النفوس، فما أقدمت على الكلام إلا بعد أن طبقته. والواقع إن هذا شيٌ من الطبيعي، لأن الموعظة إذا خرجت من متعظ لا بد وأن تأخذ أثرها في النفوس، ولهذا يسأل الكثير منا يقول: لقد كان عندنا رجال مضوا وقد كانوا غاية في الأهمية من الاستقامة والصلاح،

(١) مستدرك الوسائل - الميرزا النوري ج ٨، ص ٣١٠.

والآن ليس عندنا مثلهم. فلماذا؟ الجواب إن علمائنا الأوائل كانوا عندما يأمرون بالشيء يطبقوه قبل أن يقولوه، فلهذا كان تأثير كلامهم على السامعين له أثراً لا حدود له، أمّا الآن فالكثير منا قد يقول ما لا يطبقه أو ما لا يقوم بتجسيده والعمل به على أرض الواقع، فلذلك أصبحت الكلمة ليس لها أثر في نفس المستمع. القرآن الكريم يقول: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

ثم انتقلت الآية الكريمة في بحثها الثالث فقالت: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهنا قد يأتي السؤال وهو كيف يكون ذلك، والهداية لابد وأن تأتي منه جل وعلا، يعني أنه بدون هداية الله لا يستطيع أحد أن يقوم بأي عمل من الأعمال، سواءً كان ذلك العمل عملاً دنيوياً أم أخروياً؟ والجواب:(١) هو أن الله تعالى قبل أن يقطع هدايته عنهم - أي عن الظالمين - أرسل إليهم الكتب السماوية وأرسل لهم الرسل، ومن بعد الرسل جعل الأئمة وكلهم يعتبرون هداةٌ من الله تعالى، ولكن - للأسف الشديد - كذبوهم ولم يعتبروا بهم وقاتلوهم. بعد ذلك قطع الله الهداية عنهم فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والسؤال من هم هؤلاء؟ الجواب: أنهم كل من سمع التوراة فلم يعمل بما فيها، ومن سمع الكتب السماوية الأخرى فلم يعمل بما فيها، ومن سمع القرآن ولم يعمل بما فيه، فالتوراة دعاهم الله فيها لاتباعه، والقرآن أيضاً دعاهم الله فيه لاتباعه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(٢). ولكن من سمع القرآن صنفان:

الصنف الأول: يقول كما ذكر القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ

---

(١) يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في كتابه الأمثل عند تفسيره لهذه الآية ج ١٨ ص ٣٠٠ [صحيح أن الهداية شأن إلهي ولكن ينبغي أن تهيؤ لها الأرضية اللازمة، وهي الروح التواقة لطلب الحق والبحث عنه، وهي أمور يجب أن يهيئها الإنسان نفسه، ولا شك أن الظالمين لا يمتلكون مثل هذه الأرضية].

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

﴿هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]. هذا الصنف يعبر عنه بأنه معاند، وفي نفس الوقت وعر، حيث لم يكن لديه استعداد بأن يتأثر بما يمليه عليه القرآن، أو ما يمليه عليه الرسول ﷺ إن كان هذا هو الحق من عندك - فلا أريده - فأمطر علينا حجارة من السماء. هذا المعنى أشبه شيء بما ذكروه عن الحجاج كما يقول أحد كتابه.

الحجاج صعد في يوم من الأيام على المنبر فقال: إني أرى عيوناً طامحة وأعناقاً ممتدة ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها وليس لها إلا السيف، بعد ذلك يُسأل يُقال له: لماذا أنت متأذٍ من الأعناق الطامحة؟ ألا تحب أن يكون في شعبك أو في من يتبعك فيه عنق طامح، وفيه عنفوان، وفيه رجولة. لماذا هذا القلب الطافح بالجحيم؟ فالبعض لا يحب أن يكون الخير لغيره، والبعض لا يحب الخير حتى لنفسه أيضاً، فهذا القسم الأول من الناس.

القسم الآخر: استجاب لله، بمعنى أنه طبق ما يمليه عليه القرآن، وقام بتجسيده على أرض الواقع، وليس أدل على ذلك في المثال في مَن حضر واقعة اليرموك، يقول رجل[2] مَن حضر الواقعة، كنت في صفوف المسلمين بعد أن وضعت الحرب أوزارها، فجاءني رجل من المسلمين، وقال لي إن ابن عمك في المعركة وفيه بقايا حياة فأذهب إليه، فقد تكون عنده وصيه يوصيك بها، يقول: فذهبت إليه وقد أخذت معي قُلّة ماء أريد أن أسقيه منها قبل أن يفارق الحياة، فلما أن وصلت إليه قلت له: اشرب يا ابن عم إنك الآن في حاجة إلى الماء قال: بلا، ولكن قد يكون من هو بجانبي أحوج مني، فأذهب إليه واسقه ثم عد إلي، يقول: فذهبت إليه وعرضت عليه الماء، فقال: ياهذا أنا في حاجة إلى الماء، ولكن إذهب لمن هو بالقرب مني واسقه ثم عد إلي، يقول: فذهبت إليه، وهكذا كل واحد يؤثر صاحبه، وأخيراً رجعت إلى ابن عمي وإذا به قد فارق الحياة، وهكذا من كان إلى جانبه ومَن

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.
(٢) الرجل هو حذيفة العدوي.

إلى جانبه كلهم ماتوا وهم يؤثرون بعضهم البعض[١]. الواقع إن هذا المجتمع يعبر عنه بأنه مجتمع قرآني، لأنه فعّل آيات القرآن الكريم، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢]. كما أن هذا المجتمع يذكرنا أيضاً بأبي الفضل العباس بن أمير المؤمنين عليه السلام الذي آثر أخاه وأبناء أخيه على نفسه، فقال لما نزل إلى الفرات مخاطباً نفسه:

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبعده لا كنت أو تكوني
هذا الحسين وارد المنون ... وتشربين بارد المعين
والله ما هذا فعال ديني ... ولا فعال صادق اليقين[٣]

يقول المؤرخون: مد يده أحس ببرد الماء قال: لا والله لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عطشانا.

قال شلون أشرب وارد لسكينه ... تنتظرني وتكول عمي وينه
لا والذي دار الفلك بيمينه ... ما بالشرب دون الحسين أتهنا
طفح تلك أخيولها بنارا ... نعمين نود الفحل شنياره
قطعوا يمينه يا وسف ويساره

عند ذلك سقط أبو الفضل، وسقط معه لواءهُ، وسقطت قربته عند ذلك صاح بضعيف صوته: أبا عبد الله عليك مني السلام، ساق الريح كلامه إلى الإمام الحسين عليه السلام بادر إليه الحسين فوجده صريعاً يخور في دمه، جلس عند رأسه وهو محدودب الظهر.

فأكب منحنياً عليه ودمعه ... صبغ البسيط كأنما هو عندم
نادى وقد ملئ البوادي صيحة ... صم الصخور لهولها تتألم
هونت يابن أبي مصارع فتيتي ... والجرح يسكنه الذي هو آلم

---

(١) قريب منه أنظر تكملة حاشية رد المختار ج٢ ص ٥٦٤.
(٢) سورة الحشر مقطع من، الآية: ٩.
(٣) مقتل الحسين أبو مخنف الازدي ص ١٧٩.

أأخي يهنيك النعيم ولم أخل تـرض بأن أرزى وأنت منعم
أأخي من يحمي بنات محمد إن صرن يسترحمن من لا يرحم
ما خلت بعدك أن تشل سواعدي وتكف باصرتي وظهري يقصم[١]

❋❋❋

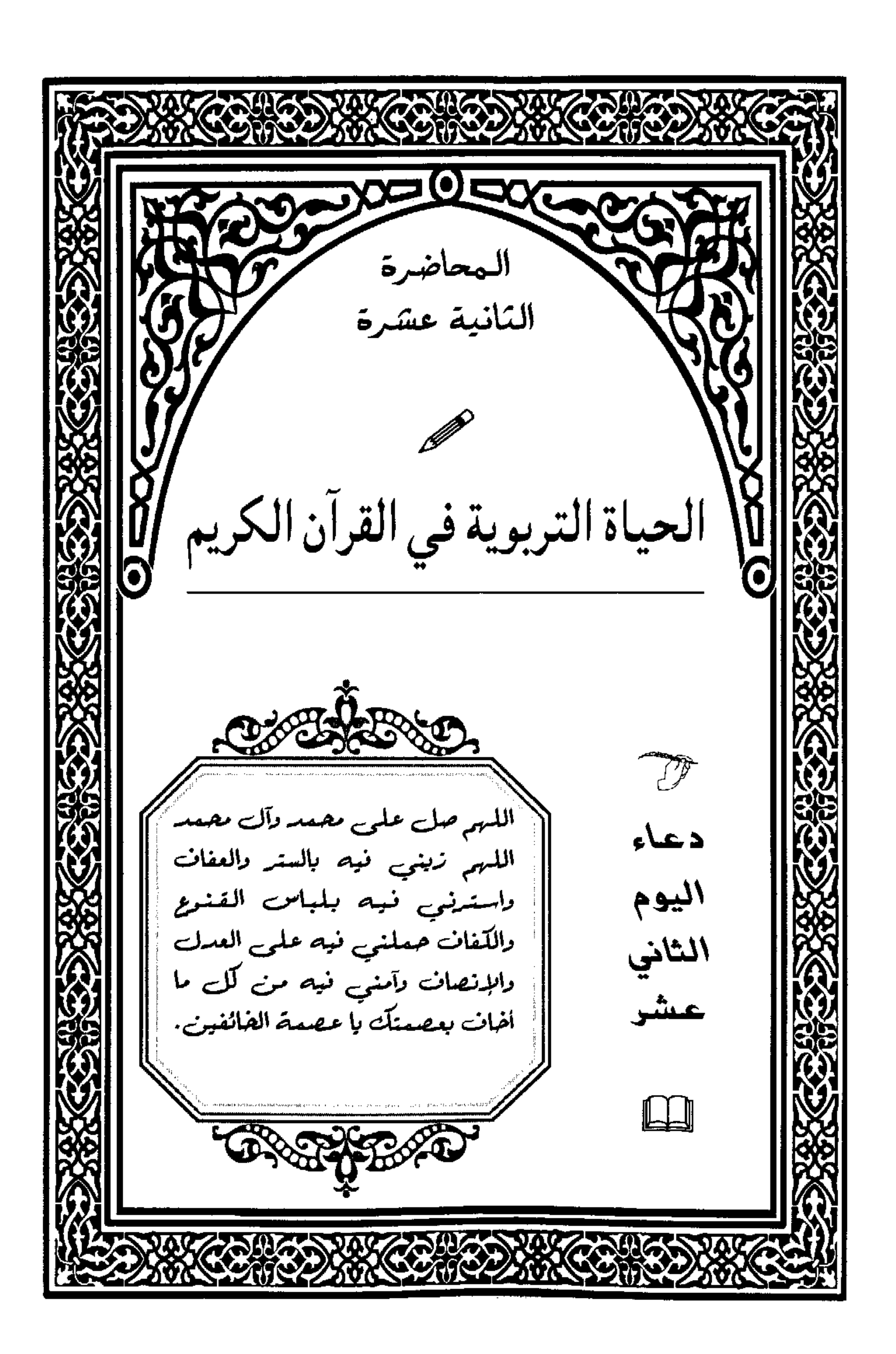
خوي العلم كلي وين أوديه ينور العين درب بيش أجديه
أنحنى فوقه يويلي وشبجن أيديه عليه وصاح خوي الله أكبر

❋❋❋

لمن اللوا أعطي ومن هو جامع شملي وفي ضنك الزحام يقيني



(١) من قصيدة للسيد جعفر الحلي رياض المدح والرثاء ص ١٧٥.



المحاضرة
الثانية عشرة

الحياة التربوية في القرآن الكريم

دعاء
اليوم
الثاني
عشر

اللهم صل على محمد وآل محمد اللهم زيني فيه بالستر والعفاف واسترني فيه بلباس القنوع والكفاف واحملني فيه على العدل والإنصاف وآمني فيه من كل ما أخاف بعصمتك يا عصمة الخائفين.

١٢

الحياة التربوية في القرآن الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[١].

※※※

تتعدد أقوال المفسرين في سبب نزول هذه الآية الكريمة، ولكن الذي ينسجم في مفهومها، هو ما جاء في تفسير مجمع البيان عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: (إن الله كتب عليكم الحج) فقام عكاشة بن محصن، وقيل سراقة بن مالك فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاث، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم، فاتركوني كما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)[٢]. كما أن هناك رأي آخر يذكره بعض العلماء[٣] في سبب نزول هذه الآية قريباً من هذا الرأي، وهو أن النبي

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

(٢) تفسير مجمع البيان وتفسير الدر المنثور والمنار؛ في ذيل الآية المذكورة مع بعض الاختلاف.

(٣) الشيخ الوائلي.

الأكرم ﷺ كان ذات يوم يخطب على المنبر، وكان حديثه بصدد تبيين بعض الأحكام الشرعية، فانبرى إليه رجل من الجالسين وقاطعه في حديثه، قائلاً: يا رسول الله أخبرني من أبي؟ فأخبره رسول الله باسم أبيه. ثم جلس، وعندها تتالت الأسئلة على النبي ﷺ حيث قام إليه شخص آخر قال: أخبرني يا رسول الله هل أن أبي في الجنة أم في النار؟ وهكذا قام إليه شخص ثالث قال: يا رسول الله أخبرني عن السائبة والوصيلة والحامي والبحيرة، فتأثر النبي ﷺ من تلك الأسئلة، حتى بان التأثر في وجهه، فهبط عليه جبرائيل يحمل هذه الآية الكريمة.

ولهذا أعتبرها العلماء من آيات الفقه التربوي، وإن كان القرآن الكريم بأكمله يعتبر كتاب تربية بالمعنى الأشمل والأوسع، إلا أن بعض الآيات يتميز فيها طابع التربية أكثر من غيرها، ومن جملة تلك الآيات هي هذه الآية، وسيتضح هذا المعنى عندما نمر بمضامينها، وذلك بعد مقدمة نوضح فيها ما أثاروه من أسئلة.

أولاً: النبي ﷺ خاطب أولئك الذين سألوه بتلك الأسئلة التافهة ونهاهم عنها، ذلك لأنها أسئلة لا داعي إليها، لأنه قد تكون الإجابة عليها تستدعي التشاؤم، بأن يأتي فلان من الناس يسأل من أبي، أو هل أن أبي في الجنة أم في النار، وكلها أسئلة لا داعي إلى إثارتها. ولهذا إذا نظرنا إلى الوجه في سؤال السائل الأول، عندما قال: يا رسول الله من أبي، ذلك لأن أباه قد تزوج أمه في زمن الجاهلية، فلهذا كان يبحث عن مشروعية ذلك الزواج، أهو مشروعٌ أم غير مشروع، فالنبي ﷺ كأنما نهى عن مثل هذا السؤال؛ لأن هذا السؤال أولاً يعتبر مضيع للوقت، وثانياً ليس هو محل ابتلاء عند الناس في ذلك الوقت، وثالثاً ليس هناك ما يستدعي إثارة هذا السؤال.

ومما يلفت النظر في هذه النقطة، وهي نقطة أن فلان ولد في أيام الجاهلية فما هو رأى الإسلام في بنوته لأبيه، واقعاً إن هذه مسألة من المسائل التي قد فُرغ منها، لكل قوم نكاح، فالولد يعتبر ولد شرعي لأبيه، بل أن الفقه

الإسلامي يعتني عناية في غاية الأهمية، فيُلحق حتى ولد الشبهة بأبيه، وولد الشبهة[١] هو الذي يكون أبوه قد ضاجع أمه في عدتها، وهو لا يعلم أن مضاجعته لها في ذلك الوقت حرام، وأمثال ذلك من القضايا التي قد تحدث عن جهل لا عن تجاهل، فلهذا يقول العلماء[٢]. لو اتفق أن وجد ولد خلال عملية من هذا القبيل، فالإسلام لا يتركه بلا أب، لأنه بعد ذلك يصبح سوءة في المجتمع، والمجتمع بعد ذلك يشير إليه بإصبع الاتهام بأنه ابن زنا، وإذا أشار إليه بذلك، تحول إلى قذيفة إذا تمكن بعد ذلك يحرق الحرث والنسل، لأنه ليس له ذنب في المجتمع، المجتمع هو الذي يتحمل مسؤوليته، وذلك من خلال الكيفية التي جعله فيها، فقد ينتقم منه أشد الانتقام إذا تمكن، لذلك المشرع الإسلامي يلحق ولد الشبهة بأبيه. أما ولد الزنا الصريح فلا؛ لأنه إذا ألحقه بأبيه حينها يفتح باب التساهل للوقوع بجريمة الزنا، فالمسألة إذاً مفروغٌ منها كما قدمنا - لكل قوم نكاح -، ولهذا المجوس واليهود والنصارى - كل هؤلاء - عقودهم لا تدخل ضمن نطاق شريعة الإسلام، ولا يقرها الإسلام بحال من الأحوال، وليست هي من بنية الإسلام، ولكنه عقد عند تلك الفئات، ومن ثم يرى: ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم. فلهذا النبي ﷺ بيَّن له أنه ابن فلان، ولكن لماذا يثير قضية لا داعي إليها، فقد يكون جوابها يسيؤه ويسيء الآخرين، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن الإنسان في هذه الدنيا له عمرٌ محدود، وهذا العمر له بداية وله نهاية، فإذا كان الأمر كذلك، فهذا الوقت المحدود للإنسان في الدنيا لا يتسع إلا للأشياء المفيدة. فعلى الإنسان حينئذٍ أن لا يحشده بالتوافه، بل عليه أن يغتنم هذه الفرصة، - وهي فرصة العمر - في ما يعود عليه بمنفعة، إما في العاجل، وإما في الآجل،

---

(١) توجد مسألة في منهاج الصالحين [السيستاني] ص١١٥ وهي) مسألة ٣٧٨: إذا وطئ الأجنبية شبهة فحملت منه وولدت كان الولد ولد حلال، وإذا كان لها زوج رجعت إليه بعد الاعتداد من وطئها شبهة.

(٢) للإطلاع مراجعة الكتب الفقهية، منها منهاج الصالحين السيد السيستاني[كتاب النكاح] من صفحة ١١٢ إلى صفحة ١١٥ ففي هذه الصفحات بحث ممتع.

ثالثاً عليه أن يغتنم فرصة وجود النبي، بحيث يسأله بسؤال يستفيد منه، وذلك في شؤونه العامة والخاصة، وكذلك في أموره الدينية، وفي شؤونه الاجتماعية، وفي تنظيم علاقاته مع نفسه ومع الآخرين، أما كونه يسأل سؤال خارج عن نطاق ما يتحدث فيه النبي أو الإمام أو العالم فهذا غير مستحسن، بل أنه يعد من الفضول.

ولكن هذه الظاهرة - للأسف الشديد - قد تكون باقية إلى الآن في مجتمعاتنا الإسلامية، مع أن القضايا المهمة قد لا نعرف عنها شيئاً أبداً، ولكن القضايا التافهة قد نُسخِّر جل الوقت إليها.

حكاية: يقال أن عالماً من العلماء دخل عليه أحد العوام، فقال له: إن عندي سؤالاً، فقال له: سل. قال: أخبرني عن نوح ما اسم والدته؟ فقال له ذلك العالم: يا هذا هل في اعتقادك أن الله يسائلك عنها يوم القيامة؟ إذا كنت تعتقد ذلك فحينئذٍ عليك أن تسأل.

إذاً فالإنسان عليه أن يسأل السؤال الذي قد يحتاجه، مثلاً عليه أن يسأل عن علاقته مع جيرانه، وعن علاقته مع أقربائه، وعن علاقته مع أبويه وعن، وعن... أمثال هذه الأمور المهمة، عليه أن يسأل كيف أنها تتم؛ ذلك لأن كل شريحة من هؤلاء لهم حقوق عليه[1]، وإذا كان كذلك هذه العلاقات عليه أن يَسأل عنها، حيث أنه يُسأل عنها يوم القيامة، ومن ثَم فإن هذه الأمور بوسعه أن يستقيها ويأخذ فيها نظرية الإسلام الحنيف، لا أن يسأل مثل هذا السؤال الآنف الذكر. ولهذا الآية الكريمة لم تأتي لتقحم الناس عن الأسئلة كلها، وإنما جاءت كي تهذب السؤال، فلا ينبغي أن يظن أحد بأن السبب في نزول هاتين الآيتين هو غلق أبواب التفهم، لأن القرآن الكريم في آياته يأمر الناس صراحة بالرجوع إلى أهل الخبرة في تفهم الأمور، قال جل وعلا: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]. إنما المقصود هو الأسئلة التافهة،

---

(١) لقد أوضح الإمام زين العابدين عليه السلام في **رسالة الحقوق**، الحقوق التي يجب على الإنسان أن يتحلى بها، بعد أن يعرفها.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.

وليس كل الأسئلة، لأن البعض عندما يسمع مبدأ الآية الكريمة، فإنه قد يتصور أن الآية تنهاه عن كل الأسئلة، والحال أن القرآن والأحاديث تدفعنا للسؤال، لأنه لا شك أن السؤال مفتاح المعرفة، ولذلك من قلت أسئلته قلت معرفته، ولكن لكل قاعدة استثناء، ولهذا المبدأ التربوي الأساس استثناءاته أيضاً، منها أن هناك أحيناً بعض المسائل التي يكون إخفاؤها أفضل لحفظ النظام الاجتماعي، ولمصلحة أفراد المجتمع، ففي أمثال هذه الحالات لا يكون الإلحاح في السؤال عنها والسعي لكشف النقاب عن حقيقتها بعيداً عن الفضيلة فحسب، بل يكون مذموماً أيضاً مثلاً: يرى معظم الأطباء ضرورة كتمان الأمراض الصعبة الشفاء والمخيفة عن المريض نفسه، وقد يخبرون أهله شريطة أن يلتزموا كتمان الأمر عن المريض، والسبب هو أن التجارب قد دلت على أن المريض إذا عرف أن مرضه لا يشفى بسرعة انتابه الرعب والهلع، وقد يؤخر ذلك شفاءه إن لم يكن مرضه مهلكاً، فعلى المريض أن لا يلح في إلقاء الأسئلة على طبيبه العطوف لأن هذا الإلحاح قد يحرج الطبيب فيصرح للمريض بما لا ينبغي أن يصارحه به، تخلصاً من هذا الإصرار واللجاج.

كذلك الناس عموماً فهم في التعامل فيما بينهم يحتاجون إلى أن يحسن بعضهم الظن بالبعض الآخر، فللحفاظ على هذا الرصيد الهام خير لهم ألا يعرفوا خفايا الآخرين، إذ أن لكل امرئ نقاط ضعفه، فانكشاف نقاط ضعف الناس يضر بالتعاون فيما بينهم، فقد يكن امرؤ ذو شخصية مؤثرة قد ولد في عائلة منحطة وإذا انكشف هذا، فقد تتزلزل آثاره الوجودية في المجتمع، لذلك ينبغي على الناس ألا يلحوا في السؤال والتفتيش في هذا المجال. هذه وأمثالها نماذج لما لا يصح فيه الإلحاح في السؤال والقرآن في هذه الآية يشير إلى الموضوع نفسه ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

ثانياً أنه يجب اغتنام الوقت، فعلى الإنسان أن يحافظ على هذا الوقت الثمين ويستفيد منه، لأن الوقت طاقة والطاقة يجب المحافظة عليها، ولأنه غداً أيضاً يُسأل عنه؛ أضف إلى ذلك إن الوقت له ثمن عند المشرع

الإسلامي، وكي نعرف أن له ثمن فلنأخذ هذا المثال التالي يقول: الفقهاء[1] لو أن شخصاً ما، استأجر عاملاً من العمال، بأن قال له أريدك أن تأتيني غداً البيت، وأن تعمل لي الشيء الفلاني، فيصبح العامل ويهيء نفسه للعمل، ويأتي إلى بيت ذلك الرجل، فيرى الباب إما مغلقاً، أو أن صاحب البيت ليس فيه، أو أن ذلك الرجل أبدل نظره عن ذلك العمل؛ ففي هذه الحالات وأمثالها، نجد الفقه الإسلامي يُلزم صاحب البيت بدفع الأجرة كاملة إلى ذلك العامل، وإن كان لم يعمل شيئاً، لأن الوقت المعد لقضاء العمل قد انتهى، ولم تتح له الفرصة في العمل الذي أمر به أو في عمل آخر.

إذاً فالوقت له ثمن عند المشّرع الإسلامي. ولهذا يقال: يؤتى يوم القيامة بثلاثة صناديق وتوضع بين يدي العبد أحدها مملوءاً بالصور الحسنة الجميلة، والثاني مملوءاً بالصور السيئة التي تروع الإنسان، والثالث فارغ ليس فيه شيئاً. فيَسأل عن ذلك، فيقال له أم الصندوق المملوء بالصور الحسنة فهو الوقت الذي قضيته في أمور نافعة، وأما الصندوق المملوء بالصور المرعبة، فالوقت الذي قضيته في الاعتداء على كرامات الناس، وأما الصندوق الخالي هو الوقت الذي قضيته بالتوافه، ولم تعمل فيه شيئاً أبداً، ومن ثَم قالوا: الوقت طاقة والطاقة يجب أن لا تهدر بالتوافه.

فالغرض أن الإسلام ينهى أولئك الناس وغيرهم عن إهدار هذه الطاقة بأمثال تلك الأسئلة التافهة التي لا تعود عليهم بشيء في الدين والدنيا، إلا أن البعض من الناس حتى ولو لم يكن في حاجة إلى معرفة أمر من الأمور إلا أنه يسأل، مثلاً البعض يسأل السؤال الذي في نظره أنه سؤال تعجيزي، حتى أنه إذا لم يجبه فلان الذي سأله يفتضح أمام الناس.

---

(١) كما في (المسائل المنتخبة؛ للسيد السيستاني) (دام ظله)، ص٣١٥ (مسألة ٧٨٦): إذا آجر نفسه لعمل وسلّم نفسه إلى المستأجر ليعمل له استحق الاجرة، وإن لم يستوفه المستأجر، مثلاً: إذا آجر نفسه لخياطة ثوب في يوم معين، وحضر في ذلك اليوم للعمل وجب على المستأجر إعطاء الأجرة وإن لم يسلمه الثوب ليخيطه، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الاجير فارغاً في ذلك اليوم أو مشتغلاً بعمل آخر لنفسه أو لغيره.

رواية[١]: يقال أن هشام بن عبد الملك كان ذات يوم جالساً على كرسي في الحرم المكي، فأقبل الإمام الباقر عليه السلام فأخذ يتنفل بركعات بالقرب من حجر نبي الله إسماعيل، فلما أن الفتل من صلاته التف حوله الناس، فساء هشام ذلك، بمعنى أنه هل كيف يحترم شخص آخر بحضرته، وهذه بعض عقد النقص التي قد تكون عند البعض من الناس، ذلك لأن ناقص القدر في المجتمع إذا أُحترم غيره بحضرته يتألم، وكأنما نقص منه شيء، فلذلك هشام وهو ممن كانوا يحملون هذا المعنى، أراد أن يسأل الإمام بسؤال تعجيزي في نظره، حتى إذا قصر عن الجواب هتكه بين الناس، فأقبل على أحد غلمانه وقال له: اذهب إلى هذا الذي التف حوله الناس، وقل له يقول لك الخليفة ماذا يأكل الناس يوم القيامة إذا حشروا بين يدي الله تعالى؟ - ذلك لأن القرآن الكريم يقول: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٢]. آية أخرى: ﴿يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٣]. - فإنهم في تلك الفترة التي يحشر الناس فيها ماذا يأكلون؟ فلما أن جاءه الغلام بالسّؤال قال له: الإمام عليه السلام: يحشرون على قرصة وأنهار متفجرة[٤]. - بمعنى - أنهم يحشرون على أرض نقية من الخبز، يأكلون منها إلى أن ينتهى من حساب الخلائق، لأن هذه أمور لا نستطيع أن نُحكّم فيها العقل، ولا نستطيع أن نحكّم فيها الحواس، ذلك لأنّنا لم نراها بأعيننا وليست هي من المسائل العقلية، فنأخذها من مقدمات عقلية بمعنى أن واحد زائداً واحد يساوي اثنان، وإنما هي مسألة سماعية، إما من القرآن أو من النبي صلى الله عليه وآله أو من أقوال أهل البيت عليهم السلام فلهذا الإمام قال: (يحشرون على قرصة وأنهار متفجرة) فلما أن جاءه الغلام بالجواب تصور أن هذا الجواب لم يكن مقنعاً - أي كافياً - وقد حصلت له الفرصة في أن يخجل الإمام، فأقبل عليه مرة

---

(١) قريب من هذا المعنى جاء في روضة الواعظين ص ٢٢٤.
(٢) سورة السجدة، الآية: ٤.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٧.
(٤) الصراط المستقيم ج ٢ ص ١٧٤.

أخرى قال له اذهب وقل له الله أكبر ما أشغلهم يومئذ عن الأكل والشرب، إنهم على أية حالة في ذلك الوقت حتى أنهم يطلبون الطعام والشراب، فرد عليه الإمام بأن قال: هم في النار أشغل ولم يشغلوا عن أن قالوا: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فلما رجع إليه بالجواب أطرق هشام وسكت[1]، لأنه بأي شيء يجيب؟ فأمثال هذا السؤال يعتبر تعجيزي، وإلا بوسعه أن يسأل سؤال يستفيد منه، وهذه المسألة كما ذكرنا - للأسف الشديد - قد تكون باقية إلى الآن.

حكاية: مما ينقل أن أحد المراجع - السيد أبو الحسن - قصده ذات يوم رجلان يتنازعان، واتفق وصولهما إليه في يوم من أيام الصيف، فلما أن دخلا مجلسه، وكان ذلك الوقت وقت الظهيرة، وقد أعده السيد لراحته، فطلبا من غلامه أن يوقظه في الحال، فأبى ذلك الغلام أن يوقظه، فألحا عليه بأن قالا له إن عندنا مسألة مهمة ونريد أن نسأله فيها، فمضى الغلام فأيقظه، فلما مثل بينهما، انبرى إليه أحدهما قائلاً: لقد تنازعنا في الفرس التي ركبها القاسم يوم الطف هل هي سوداء أم بيضاء، فأنا أقول له إنها سوداء، وهو يقول لي إنها بيضاء، فأخبرنا ما هو لونها؟ يقول ناقل الرواية: وإذا بالسيد حينذاك

---

(١) ما ذكرناه فهو مضمون الرواية وأما النص فقد جاء في كتاب الإرشاد - الشيخ المفيد أعلى الله مقامه - ج٢ - ص١٦٣ - ١٦٤ بالسند المتصل قال: الزبير بن أبي بكر: حدثني عبد الرحمن بن عبد الله الزهري قال: حج هشام بن عبد الملك فدخل المسجد الحرام متكئاً على يد سالم مولاه، ومحمد بن علي بن الحسين عليهما السلام جالس في المسجد، فقال له سالم مولاه: يا أمير المؤمنين هذا محمد بن علي، قال هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم، قال: اذهب إليه فقل له يقول لك أمير المؤمنين: ما الذي يأكل الناس ويشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة؟ قال له أبو جعفر عليه السلام: «يحشر الناس على مثل قرص النقي، فيها أنهار متفجرة، يأكلون ويشربون حتى يفرغ من الحساب». قال فرأى هشام أنه قد ظفر به، فقال: الله أكبر، اذهب إليه فقل له: ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ؟! فقال له أبو جعفر عليه السلام: «هم في النار أشغل ولم يشغلوا عن أن قالوا: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فسكت هشام لا يرجع كلاماً.

يضع يده على رأسه وهو يقول: منَّ الله عليكما بالهداية والعقل، أهذا سؤال يستدعي منكما هذا التجشم والعناء؟.

الغرض: أن الآية الكريمة جاءت تنهى المؤمنين عن التطرق إلى مثل هذه الأسئلة التافهة، وتحثهم على الأسئلة المفيدة. ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ثم انتقلت الآية الكريمة قالت: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فكأن الله عزّ وجلّ أرد أن يأمر نبيه، ونبيه بدوره يأمر أفراد المجتمع، بأن يسألون عن مضمون الآيات القرآنية عند نزولها، فلماذا؟ لأنه إذا كانت لديهم مشكلة من المشاكل، والآية جاءت تعالج تلك المشكلة، عليهم أن يسألون عن مضمون الآية في ساعة نزول الآية، لأنهم إذا لم يسألوا ومضت أيام على الواقعة التي نزلت الآية من أجلها، قد تحدث المشاكل عند المسلمين، ويكون الاختلاف فيما بينهم، بمعنى أن الخرافات تدس للتفاسير، وهذا ما حصل بالفعل، فلو أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وآله في تلك الأوقات التي أنزلت فيه كل آية من الآيات عن مضمون تلك الآيات، والنبي شرح لهم مضمون الآيات لاستراحت الأمة من خطر عظيم، ولكنهم لم يسألوا، فحصل ما حصل بالفعل، أي أن ما بليت به الأمة من تراجع في عقيدتها وفي دينها وفي مجالات حياتها الأخرى، هو من جرّاء أنهم لم يسألوا النبي صلى الله عليه وآله. ولهذا مما يلفت النظر في تاريخ أهل البيت عليهم السلام، أن الإمام علي عليه السلام هو الوحيد الذي سأل النبي صلى الله عليه وآله عن مضمون كل آية من آيات القرآن الكريم، ولهذا جاءت الروايات الكثيرة مؤكدةً، بأن الإمام علي ابن أبي طالب عنده قرآن بحجم هذا القرآن الكريم الذي عندنا ثلاث مرات، وكذلك عند الزهراء عليها السلام، كما عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لأبي بصير **(...وإن عندنا لمصحف فاطمة وما يدريهم ما مصحف فاطمة؟ قال: فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد وإنما هو شيء أملاه الله عليها وأوحى إليها...)** إلى آخر الحديث[(١)]. ولهذا كان هذا

---

(١) علل الشرائع ص ١٨٢

الحديث، وأمثال هذا الحديث، عندما يسمعه البعض يقول بأن الشيعة تقول بتحريف القرآن، والحال ليس الأمر كذلك، إن ما تقوله الشيعة وتعتقد به هو أن للإمام شروح على القرآن، وتلك الشروح عندما جمعت ساوى حجمها حجم هذا القرآن الكريم الموجود بين أيدي المسلمين ثلاث مرات، فاعتقاد الشيعة في القرآن، هو أن القرآن ليس فيه زيادةً عن الأصل ولا نقصان عن الأصل، لأن من يعتقد الزيادة أو النقيصة في القرآن لا يصبح القرآن حجةً عليه. بعبارة أخرى تنتفي الحجية، لأنه ربما يكون ما نقص هو آية ناسخه لآية الزكاة مثلاً، أو أنها مقيدة. وكذلك الحقوق كلها هكذا، لذلك أجمع فقهاء الإمامية أن القرآن هو ما بين الدفتين، وآراء علمائنا واضحة أتم الوضوح، فالشهيد الأول والشهيد الثاني والحر العاملي والبهائي وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين آرائهم كلها تنص على عدم التحريف. ولكن إذا نظرنا إلى الضمائر التافهة أو المأجورة نجدها تتهم الشيعة بذلك، وهذه المسألة ليست الأولى أو الأخيرة عندهم، بل أن هذه واحدة من آلاف المسائل التي اتهموا بها الشيعة، فكل واحد من هؤلاء المهرجين يتبع الآخر، وذلك بغير دليل يستدلون به، ولهذا عندما يُسأل أحدهم من أيِّ مصدر جئت بهذه الرواية؟ يقول: اعتمدت على فلان، وفلان عندما يُسأل يقول: اعتمدتِ على فلان، وهكذا، فلماذا يذهب هؤلاء بعيداً عن الواقع؟

الغرض: نعود إلى صلب الموضوع الآية قالت: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ بمعنى أنه إذا نزلة الآية يُسأل النبي عن مضمونها، وما أجاب به النبي عليكم أن تثبتوه، وهذا هو الذي تقول عنه الإمامية، بأن عند الإمام علي عليه السلام قرآن بحجم هذا القرآن ثلاث مرات، فلقد كان الإمام عليّ عليه السلام إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله وعندما تنزل الآية يسأله عن معناها، فالنبي صلى الله عليه وآله يوضح المعنى، والإمام يدوّن ذلك كله، ولهذا من جملت الآيات التي فهمها الإمام بمفهوم يختلف عن مفهوم غيره من الصحابة وذلك أنه سأل النبي عن معناها هي هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا

فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١). لأنه عندما نزلت هذه الآية طلب من النبي أن يحدد له المرفق، لأن - إلى - من الألفاظ المشتركة في لغة العرب، تأتي بمعنى البداية، وتأتي بمعنى الغاية، ففي هذا المورد ماذا يكون موقعها؟ فالنبي ﷺ يوضح ذلك، وأمير المؤمنين عليه السلام يدونه، كذلك إلى المرافق ما هو؟ هل هو تحديد للغسل؟ أو أنه تحديد للمغسول؟ فالنبي ﷺ يشرح ذلك وأمير المؤمنين يُثبت الشرح، بهذا المعنى يكون القرآن والشروح التي دونت حول آياته لا شك أنه ضخم، وإلا لم يكن من علمائنا من يقول بالزيادة أو النقيصة في القرآن الكريم، كلا وألف كلا، قال جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٢). نعود للآية محل البحث: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فلو أنهم سألوا عندما نزلت الآيات القرآنية لما اختلقت الروايات، لأن الكثير من الروايات عند البعض، أصبحت تؤخذ من فم فلان وفلان، وهم ممن ليسو بأهل لنقل الرواية، فأصبحت كثير من الروايات مفتعلة لم يتفوه بها النبي؛ إلا أنه بعد ذلك وضعت لقائليها مبررات على ألسن البعض، وذلك لأمور يعلمها الله وسيحاسبهم عليها يوم القيامة، مثال ذلك يروى إن عائشه مرت ذات يوم من الأيام على المقبرة، فرأت أشخاصاً على قبر ميت لهم وهم يبكون، وإذا بشخص مقبل فلما سمع بكائهم وقف وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الميت إذا جلس أهله على قبره وبكوا عليه يعذب، فقالت عائشه: يا سبحان الله ما هكذا قال رسول الله، رسول الله مر على قبر كافرة فرأى أهلها يبكون عليها، فقال: إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها، المسألة خاصة ليست لها علاقة بكل أحد، يعني

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

ليس كل ميت مسلم دفن، وأهله بكوا عليه يعذب بسبب بكائهم، والواقع إن هذه غريزة طبيعية، بعد أن دفن جلسوا على القبر وبكوا لماذا يعذب؟ والقرآن الكريم يقول في خمسة مواضع: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] فهل يعذب ببكاء أهله؟ ففي واقع الأمر إن هذا الراوي قد يكون سمع جزءاً واحداً من الحديث ورواه، وهذه رواية من مئات الروايات التي يجب عدم الأخذ بها.

إذاً فالقرآن الكريم يريد منهم أنهم إذا سمعوا الآية يسألون النبي عن معناها عند نزولها، لأن معاني القران معاني توقيفية، النبي يوقف المسلمين عليها، يقول لهم كذا وكذا، هذا هو معنى الآية، كي لا يُفسَّر القرآن بآرائهم، وحتى لا يفسرون الحديث بأهوائهم، أو أن ينسبون إلى الدين ما ليس من الدين في شيء، ويجعلون بعد ذلك من أنفسهم مشرعين، والإنسان لا يمتلك هذه القابلية. الإنسان ملاك الضعف، الإنسان ملاك النقص، الإنسان عليه أن يكمل نقصه بالشرايع، بمعنى أن الإنسان لا يستطيع أن يرى ببصره إلا بوجود الضوء، كذلك بالنسبة للعقل، عقل الإنسان لا يقدر أن يفهم به إلا بضوء البعثة، إلا بنور البعثة، فالله عزّوجلّ أكمل نقص الإنسان بالشرائع التي أنزلها.

ثم انتقلت الآية في بحثها الثالث قالت: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ﴾ بمعنى أن هناك أشياءً ما من شأنكم أن تسألوا عنها، لأن الله عفا عنها، الله عزّوجلّ سكت عن أشياء فلا تتكلفوها ورخص لكم بأشياء فخذوا بها، لأن الله عزّوجلّ يُحب أن يؤخذ برخصه كما يُحب أن يؤخذ بعزائمه، يقول الإمام علي عليه السلام: (إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وحد لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً فلا تتكلفوها)[2]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وحد لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها،

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٨ - ٢ الزمر، الآية: ٧ - ٣ فاطر، الآية: ١٨ - ٤ الإسراء، الآية: ١٥ - ٥ الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٢) نهج البلاغة/ الحكمة: ١٠٥.

وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تتكلفوها)[١]. وهذا هو المعنى الذي يُسمِيه العلماء - البراءة الشرعية أو البراءة العقلية - التي يتفق فيها فقهاء القانون، فقهاءُ القانون يقولون: لا جريمة إلا بقانون، فإذا لم يوجد قانون لا تترتب جريمة على أحد، إطلاقاً، الجريمة بوجود القانون، هذا المعنى يقول عنه القرآن الكريم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٢]. بمعنى قبح العقاب بلا بيان، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يعاقبنا على شيء إلا بعد أن ينهانا عنه، فإذا نهانا عن شيء واقترفناه عاقبنا على ذلك، وذلك تطهيراً لنا، فلهذا الآية تقول: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فلا تشغلوا أنفسكم بالسؤال عن أشياء معفيٌّ عنها، فلو كنتم مكلفون بها، لكان النبي ملزماً أن يأتي لكم بالحكم الشرعي فيها. إلا أنهم كانوا بعكس ما يُراد منهم، الأمور التي كلفهم الله بالعمل بها لم يعملوا بها، والأمور التي لم يكلفهم الله بالعمل بها أخذوا يبحثون عنها، مثال ذلك القرآن الكريم ينادي آناء الليل وأطراف النهار: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ﴾[٣]. فلن يتكلف أحدهم أن يسأل النبي من هم القربى؟ وما هي مظاهر مودتهم، مع أن القرآن الكريم يجهر بها آناء الليل وأطراف النهار، فتراه معرضاً عن ذوي القربى، والبعض لم يكن معرضاً فحسب، بل أنه إذا رأى من يتمسك بهم يستنكر ذلك عليه وينتقده. البعض يصل به الأمر بأن يقول: لماذا تكرمون الحسين وتعظمونه؟ نحن نقول لهم: أوليس الحسين هو سبط رسول الله، أوليس الحسين هو من قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: (حسين مني وأن من حسين أحب الله من أحب حسين، حسين سبط من الأسباط[٤])؟ فإذا ثبت هذا المعنى، وهو ثابت فحريٌّ بأن يكرم الحسين.

كما أن هناك أمور تلزم المسلمين بذلك، منها **أولاً**: الحسين هو الامتداد الطبيعي لرسول الله، **ثانياً**: الحسين قارع بثورته الظالمين، **ثالثاً**: الحسين

---

(١) سنن الدارقطني٤: ٢٩٨، وفي كنز العمال ١: ٣٨١/ ١٦٥٦ نحوه.
(٢) سورة الأسرى مقطع من آية: ١٥.
(٣) سورة الشورى مقطع من، الآية: ٢٣.
(٤) الناصريات - الشريف المرتضى - هامش ص ٩٠.

حمل مبادئ الإسلام على يده فدافع عنها، رابعاً: الحسين سيد شباب أهل الجنة...... الخ فذكرنا له هو الاستجلاء من سيرته العطرة، أوليس هذا تاريخ عظمائنا؟ والله عز وجل أمرنا بتعظيم الشعائر، أليس الشعائر هي ما نصبها الله عز وجل ليتكون قدوةً للناس؟ وهذا هو من شعائر الله، إذا كانت البدن من شعائر الله فما رأيك بآل محمد الذين نحروا من أجل الله؟ فعندما نقف على قبره إنما نقف على غضبة من غضبات النبوة من أجل الله، فهو غضب لله، وسال على الثرى من أجل رفع كلمة لا إله إلا الله. فالوقوف على قبره هو تمجيد لتلك الغضبة التي كانت لله، المتمثلة في شخص الحسين، ولذلك الإمام الصادق عليه السلام عندما يدعو لهؤلاء الزائرين لا يدعو لهم لأنهم وقفوا يقلبون وجههم على قطعة من الفضة أبداً، الموقف أبعد من هذا كله. يقول معاوية بن وهب: دخلت عليه سمعته وهو في سجوده يقول:.... فارحم تلك الوجوه التي قد غيرتها الشمس وارحم تلك الخدود التي تقلبت على حفرة أبي عبد الله عليه السلام وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا وارحم الصرخة التي كانت لنا، اللهم إني أستودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى نوافيهم على الحوض يوم العطش[1]. وأول خد تقلب على قبر الحسين عليه السلام هو خد سليمان بن قتيبة العدوي وقف على القبر وأنشأ يقول:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وكانوا رجاء ثم عادوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغم تخلت
وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت[2]

وأما الخدود الثانية التي تعفرت على قبر الحسين عليه السلام فهي خدود عائلته

---

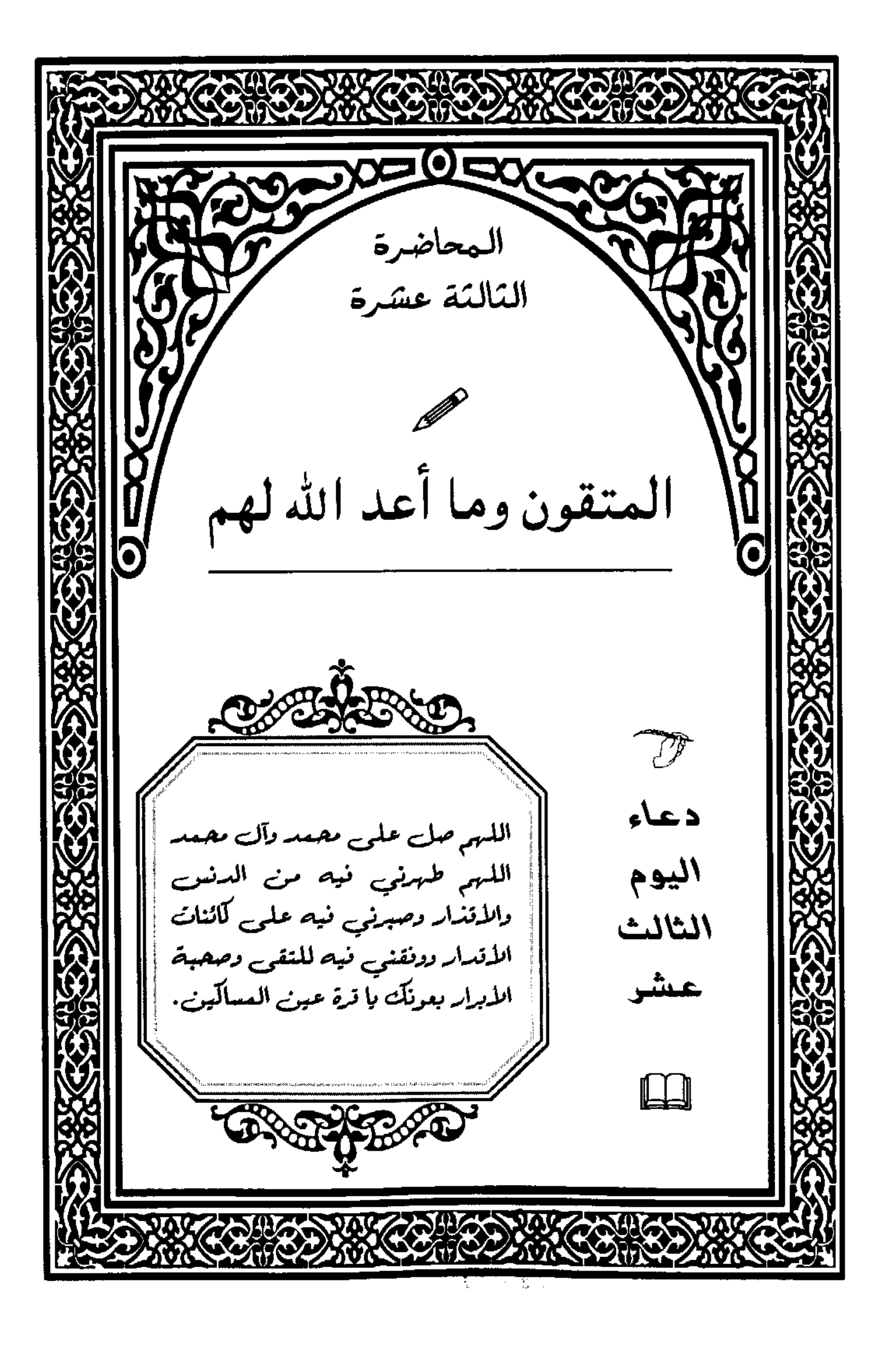
(١) الكافي - الشيخ الكليني ج ٤ ص ٥٨٣، وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٤١٢.
(٢) مقاتل الطالبيين، ص ٨١، مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ٢٦٣، مثير الأحزان، ص ٨٨، بحار الأنوار ج ٤٥ ص ٢٤٤.

وأهل بيته عندما جاؤوا من الأسر والسبا وفي مقدمتهم الحوراء زينب كأني بها لما لاحت لها القبور نادت بلسان الحال:

يانازلين بكربلا هل عندكم خبر بقتلانا وما أعلامها
ما حال جثة ميت في أرضكم بقيت ثلاثاً لا يزار مقامها[1]



(١) وفيات الأئمة، ص ١٦٧.


المحاضرة
الثالثة عشرة
المتقون وما أعد الله لهم
دعاء
اليوم
الثالث
عشر
اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم طهرني فيه من الدنس
والأقذار وصبرني فيه على كائنات
الأقدار ووفقني فيه للتقى وصحبة
الأبرار بعونك يا قرة عين المساكين.

١٣

المتقون وما أعد الله لهم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾(١).

❋❋❋

من الملاحظ في الآيات القرآنية هو التأكيد على التربية الروحية، حيث أن كل المعاني القرآنية يتجسد فيها طابع التربية بشكل واضح، فمثلاً نجد العنصر التربوي يتجسد في الحكم الشرعي، كما أنه يتجسد ضمن الحديث عن الطعام والشراب، وكذلك يتجسد ضمن العظة والعبرة التي تشير إليهما الآية... وهكذا في كل الآيات القرآنية، غالباً يستهدف القرآن الكريم أن يربي القارئ والمستمع، ذلك لأنه الكتاب الذي يُعنى بتربية العقول والأجسام، ففي هذا المورد يؤكد على التقوى. وهذا المعنى في واقع الأمر يعتبر من النواميس أو السنن الطبيعية، ولكي نقرب المعنى إلى الأذهان؛ مثلاً: الفلاح عندما يريد أن يزرع قطعة من الأرض، لا بد وأن يحرثها ويستخرج كل الأعشاب الضارة منها، إلى أن تتحول إلى أرض صالحة للزراعة، ثم بعد ذلك يضع البذرة فيها؛ كذلك الإنسان عندما يريد أن يكتب له كتاب ما، لا يمكن أن يكتبه على ورقة كتب عليها مسبقاً، أي أنه لا بد له من أن يأخذ ورقة بيضاء، حتى تتأتى له الكتابة عليها.

القرآن الكريم أيضاً وضع هذا الأسلوب، وهو الأسلوب التربوي الفريد في

---

(١) سورة المرسلات الآيات: ٤١ - ٤٣.

نوعه، فأكد على التقوى. التقوى[١] من الصفات التي يحرص القرآن عليها أشد الحرص، التقوى يعرفها العلماء هي عبارة عن إيجاد الملكة المانعة من الاقتراب إلى المعاصي، وهذا المعنى لا يمكن لأي أحد منا أن يتصور أنه من الأمور المستصعبة، التي لا يستطيع احد منا أن يصل إليها، ذلك لأن الإنسان يحمل من القابليات ما لا حد له، ولكن قد يكون المحيط الذي يعيش فيه الإنسان - في كثير من الأحيان - هو الذي يجره إلى الرذيلة، ويبعده عن الفضيلة، بينما الأسلوب التربوي يرفع بمستوى الإنسان عن حضيض الذنوب، وقد ثبت عند العلماء أن الإنسان يتفاعل مع هذه الجوانب، وهي جوانب المحيط أياً كانت، فإذا كان المحيط ملتزماً بالقيم الإسلامية ينشيء الإنسان وهو متحلٍ بها، وإذا كان المحيط خال من القيم يصبح الإنسان خال منها. ولهذا علماء الاجتماع في نظرية التوائم المتماثلة، نجد أنهم ينتظرون المرأة حتى تلد، فإذا ولدت اثنان يفرق بينهما، فيأخذون أحدهما ويهيئون له حضانة جيده، ثم بعد ذلك يُدخلونه إلى إحدى الروضات المتميزة، ثم بعد ذلك ينقلونه إلى مدارس متنوعة، إلى أن يصل إلى مرحلة الدخول في الجامعة، وهكذا يتطور في الدراسات العليا.

والثاني مثلاً يضعونه في أعماق الريف الأفريقي، إلى أن يمكثا على افتراض عشرين سنة، أو أقل أو أكثر، ثم يؤتى بهما، فيرون الأول الذي أعتني به، لا شك أن لديه مجموعة من الخبرات العلمية، وكذلك الإنسانية، بينما الذي لم يُعتنَ به في تدريس أو تهذيب أو تخصص، لا يعرف عن الحياة شيء أبدا. إذاً فالمحيط له أثر فعّال في صياغة الفرد وصياغة المجتمع، بحيث يكون الإنسان لديه قابلية لأن يتحول إلى كتلٍ من الخرافات، وإلى كتلٍ من الذنوب والانحطاط، ولديه قابلية لأن يصعد إلى مستوى الملائكة، والدليل على ذلك ما يقوله بعض الشعراء بالنسبة إلى مشاعر الناس. فالبعض

---

(١) ولها تعاريف كثيرة منها اصطلاحية ومنها لغوية، وأما في الأثر فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: (التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك)؛ المصدر نور البرهان - السيد نعمة الله الجزائري - ج ١ ص ٢٠٤].

يقول:

إذا لم تكن ذئباً على الأرض أجرداً كثير الأذى بالت عليك الثعالب

فكأن هذا الفرد في الحياة فلسفته أن يحول يديه إلى أظافر ينهش بهما اللحم والدم، بينما آخر يقول:

إني شكرت لظالمي ظلمي وغفرت ذاك له على علم
ورأيته أهدى إلي يداً لما أبان بظلمه حلم
رجعت إساءته إليه وإحساني فعاد مضاعف الجم
ما زال يظلمني وأرحمه حتى بكيت له من الظلم[1]

إذاً فهناك فرق بين هذين الاثنين، البعض في الحياة بمثابة الذئب من يقترب منه ينهشه بلسانه ويديه، بينما البعض الآخر تجده يقول إن هذا الشخص الذي ظلمني دعاني لأن أربِّي نفسي على الحلم، فقابلته بعكس ما قابلني، الغرض هذين النموذجين تُجسدهما التربية، وإلا فليس هناك من الناس يخرج إلى الدنيا ذئباً، وليس هناك من الناس يخرج إلى الدنيا ملَكاً. ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]. يخرج الإنسان بمثابة الصفحة الخالية.

وفي هذا الجانب قد يثير البعض هذا الإشكال بأن يقول: هل أنني خططت لمجيئي للحياة قبل وصولي إليها؟ بمعنى هل أنني اخترت أبواي، أو أن القدر اختارهما لي؟ بمعنى أنني لم آتي إلى الدنيا باختياري، وليس لي دخل في اختيار الأبوين، فمثلاً البعض قد أختار الله له أباً وأماً بشكل معين، والبعض الآخر بشكل آخر، وذلك لأن وضع النطفة عند الأبوين من المقدرات، فأنا لا أملك الاختيار في هذا الجانب، كذلك المدرسة التي أدخلت إليها لم تكن لي يدٌ في مناهجها، كذلك مَن عشت في أحضانهم من أبناء المجتمع لا أدري مدا تأثير أخلاقهم علي؟ فإذاً هذه كلها عوامل خارجة عن إرادتي. الواقع أن

---

(١) الشعر إلى محمود الوراق؛ شرح نهج البلاغة بن أبي الحديد ج ١٨ ص ٣٧٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.

هذا الأمر صحيح إلى حد ما، ولكن ليس معنى ذلك أن الإنسان يفقد الاختيار، وإن كانت هذه عوامل مساعدة، ولكن من المؤكد أن الشخص الذي يشعر أن هناك مفارقات، وخصوصاً في أيامنا هذه، وذلك بعد أن وجدت الوسائل الحضارية التي يسرت للإنسان سبل المعرفة، فالولد أو البنت في مكانهما في الدار مثلاً، أو في المأتم، أو في المعمل، أو في أي مكانٍ آخر، في أيديهم جهاز لا يتعدى عقدة الإصبع، يستطيع كلٌّ أن يتصل به إلى أي عالم شاء، ويأخذ منه الحكم الشرعي، وذلك في أي مسألة من المسائل، كذلك وسائل الإعلام، ووسائل التعليم كلها ميسرة، الكتاب ميسور، الصحيفة ميسورة، وإلى آخره.

فعموماً بعد هذه المقدمة نرجع للآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ **أولاً**: ما المقصود بالظلال في القرآن الكريم؟ لأننا دائماً نقرأ في القرآن هذا المعنى مثلاً قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾[1] كذلك وردت عبارات في أدعية المعصومين منها: (اللهم أظلني تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك)[2]. فكثيراً نرى هذا المعنى، فما هو المراد بالظلال؟ واقعاً عندما ندرس أجواء الآية نجد أنها أجواء مادية بحته، لأن الحديث كأنما يدور عن بستان مهيأ بكل وسائل الراحة، شجرة فيها ظل، وعيون فيها ماء، وأشجار تحتوي على فاكهة، وأمثال ذلك، فأجواء الآية كلها أجواء مادية، الجو جو طعام وشراب وجلسة استرخاء مريحة، ولكن هل المقصود في المعنى الباطني في الآية كما هو في المعنى الظاهري لها؟ بمعنى أن الفظ بأكمله يحمل على الظاهر، أو أن هناك توجيه آخر؟ الجواب علينا أن نرجع إلى اللمحات التي سجلها المفسرون في الآية الكريمة.

قال بعض المفسرين: إن تفسير الظلال الذي أشارت إليه الآية الكريمة، نحن في هذه الحياة لا نستطيع أن نعرفه، ولا نستطيع أن نقدره، حتى تأتي الآية وتحمل هذا الزخم من الأهمية بالنسبة له، لأن الظلال عندنا لا يساوي

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٦.

(٢) مصباح المتهجد ص ٦٨٤.

شيئاً بهذا المقدار من الأهمية، وبالخصوص بعد أن وجدت هذه الوسائل الحديثة، وذلك حتى ولو أنني كنت عاملاً من العمال وأعمل في وقت الظهيرة وفي حرارة الشمس، إلا أنني استطيع أن أستظل عنها بين الفينة والأخرى، فمسألة الظل في دار الدنيا قد تكون مسألة بسيطة، ولكن الظلال التي يواعد الله تبارك وتعالى بها عباده المتقين، إنما تعرف قيمتها يوم القيامة، ذلك عندما نتصور إلى الآيات الموجودة في القرآن، والتي تبين وتصور لنا جهنم، ومنها هذه الآية قال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾[١] ومنها كما عن ابن عباس: (لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها)[٢]. ومنها (. . .لو وقع سوط منها على البحر لغلت من مشرقها إلى مغربها، ولو وضعت على جبال الدنيا لذابت حتى تصير رمادا. .)[٣]. . هذه الصور التي ذكرتها الآيات وذكرتها الأحاديث لم نكن نستوعبها حتى الآن، حيث لم يكن في معطياتنا الحضارية شيئاً منها، أو مثيل لها. وإن كان العلم على سبيل المثال يقول: أن بعض القنابل النووية لا يتم تفجيرها إلا بدرجة حرارة تساوي أربعة ملايين وخمسمائة ألف درجة مئوية، بمعنى أنه لا يتم التفاعل الهيدروجيني إلا في ظل حرارة من هذا القبيل، ولكن كل هذا لا يساوي ذلك البركان الهائل الذي يصوره لنا القرآن الكريم، وتصوره لنا الأحاديث التي ذكرنا بعضها، إذاً متى تعرف قيمة الظلال؟ تعرف قيمته عندما يكون الإنسان بالقرب من جهنم، وأنه يعرض عليها غدوةً وعشية، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[٤]. بمعنى أن الإنسان حتماً يمر عليها، فعندما يعرف الإنسان أن هناك شرراً أو لهباً من هذا القبيل، حينئذ

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٣٢ - ٣٣.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل الزمخشري ج ٣ شرح ص ٩، مجمع البحرين الشيخ الطريحي ج ١ ص ٥٧٩.

(٣) بحار الأنوار ج ٢٨ ص ٦٤/ وج ٣١ ص ٦٣٨، الجواهر السنية ص ٢٩١، كامل الزيارات ص ٥٥١. [حديث طويل اقتطفنا منه هذه الفقرة].

(٤) سورة مريم، الآية: ٧١.

تعرف لديه قيمة الظلال، ولهذا فإن الإنسان المتقي عندما يحشر يكون في ظل بعيداً عن هذه التأثيرات. لقوله تعالى في الآية التالية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[١]. ومن ثم نجد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لديه لوحةٌ يبين لنا فيها مواقف القيامة، يقول فيها: (قد ضلت الحيل وانقطع الأمل وهوت الأفئدة كاظمة وخشعت الأصوات مهيمنة وألجم العرق وعظم الشفق وأرعدت الأسماع لزبرة الداعي إلى وصل الخطاب)[٢]. بمعنى أن العرق أصبح لجاماً على فم الإنسان، وذلك من جراء ما يتساقط منه من عرق، إذاً فقيمة الظلال في ذلك الوقت تعرف، لأنه إذا كانت قيمة الظلال في دار الدنيا أمراً عادياً، إذا لم يحصل الإنسان على ظل لأن درجة الحرارة عادةً تكون محتملة، بحيث لو لم تكن محتملة لما استطاع الإنسان أن يعيش فيها. ولكن هناك وتحت تلك الأجواء تعرف قيمة الظلال، فلهذا يقول القرآن: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني أنهم بعيدين أتم البعد عن تلك التأثيرات المرعبة، وعن تلك الأجواء الملتهبة بذلك الجحيم المستعر، فهم في ظلال، وكذلك في عيون، لأن تلك الحرارة تستلزم العطش، فالإنسان يكون في حاجة لأن يشرب الماء آناً بعد آن، فالقرآن يضمن ذلك للمتقين، بأن يجعل ذلك تحت تصرفهم وهو الظل الذي يدفع عنهم الحر، وكذلك الماء الذي يشربون منه آناً بعد آن، لأن موقف القيامة موقف طويل، كما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٣]. وهنا قد يأتي السؤال: هل أن الألف السنة التي ذكرتها الآية يشعر بها الإنسان المتقي أو لا يشعر بها؟ لأن الوقت إنما يطول أو يقصر تبعاً للشعور، فمتى يشعر الإنسان بالوقت؟ ومتى يطول عليه الوقت؟ ذلك إذا استشعر بالوقت، أما إذا استغرقته حالة من السرور فلا

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧٢.

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ١٣٥، (من خطبة له عليه السلام تسمى الغراء)، بحار الأنوار، ج ٧، ص١١٢.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٥.

شك أنه ينسى معها الوقت. ولتقريب المعنى هو عندما يكون إنساناً ما، يتحدث وحديثه ممل، لا شك أن الجالسين من حوله يشعرون بالوقت، أما إذا كان الحديث شيق وفيه طراوة وحلاوة، فإنه لا يشعر أحد بذهاب الوقت، بحيث يذهب الوقت وكأنما لم يكن إطلاقاً، فإذاً المسألة عندما يكون الإنسان المتقي في ظل الله هل هناك شعور بالوقت؟ الجواب كلا، ولهذا نستدل على ذلك أيضاً بحادثة أهل الكهف، أهل الكهف استغرقوا في نومهم ثلاثمائة وتسع سنين كما ذكر ذلك القرآن الكريم: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[1]. ثم انتبهوا من نومتهم وكأنهم لم يناموا سوى سويعات قليلة قال جل وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[2]. فالمسألة هي أن أجواء القيامة أجواء ما لم يكن الإنسان له خلفيات بما ورد فيها، لا يستطيع أن يحدد كم هي المدة التي يقفها بين يدي الله تبارك وتعالى، إلا أن المتقين في تلك الفترة طالت أم قصرت إنهم في ظلال وفي عيون على حد تعبير الآية، والوقت يمر عليهم وهم لا يشعرون به. هذا هو الرأي الأول.

الرأي الثاني: أن الظلال ليس المقصود بها الفيء، والعيون ليس المقصود بها عيون الماء، وإنما المقصود بالظلال الظلال المعنوية، مثال ذلك هو ما نردده دائماً في محاوراتنا العامة، وذلك عندما نتحدث عن شخص يرعاه شخص آخر، ونُسأل عنه، حينئذ نقول: إن فلاناً يعيش في ظل فلان مثلاً، معنى ذلك أنه تحت رعايته المادية والمعنوية، ولذلك في الدعاء كثيراً ما نردد: (اللهم أحرسني بعينك التي لا تنام)[3]. أي أسألك أن تتفضل علي بجودك وإحسانك وكرمك.

لذلك فالقرآن الكريم يصف ما أعد الله للمتقين، وكأنه يقول: إذا كان غير

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٩.
(٣) شرح إحقاق الحق السيد المرعشي ج ١٢، ص ٢٥٢.

المتقين يستظلون بظل آخر، المتقون يكونون في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، معنى ذلك أنهم تحت رحمته ورعايته وعطفه. ومن المؤكد أن من يكون مرضياً عند الله عزّوجلّ ويصبح تحت ظله ورحمته، هذا هو الذي نال السعادة الأبدية التي لا تحد بحال من الأحوال، ذلك لأننا نعلم أن كل ظل ينحسر إلا ظل الله، مهما يكون ذلك الظل وارف، لا بد وأن ينحسر في يوم من الأيام، طالت به الدنيا أم قصرت، ولدينا تجارب كثيرة في الحياة، مثلاً الملوك، العمالقة، وغيرهم، وغيرهم كثير،ألم يكن هارون الرشيد يخاطب السحابة إذا مرت به؟ يقول: لها أمطري أينما أحببت فخراجك يأتيني؟ إذا مرت به السحابة يرفع رأسه إليها، يقول: أمطري أينما أحببت، إنما تمطرين في ملكي[(١)]، وسواءً صحت هذه الرواية أو لم تصح، فإن هناك من هو أكثر ملكية من الرشيد، هناك مَن ملكوا الأرض تقريباً، الإسكندر دو القرنين ظلاله تقريباً امتدت على أغلب أنحاء المعمورة، إلا أنه في يوم من الأيام هزته حادثة، يقول المؤرخون: أقبل الإسكندر ومن ورائه جيشه، إلى أن وصل به السير إلى مقبرة، فرأى في المقبرة رجل ينبش القبور، ويتنقل من قبر لآخر، فوقف بالقرب منه، ثم قال له: ماذا تصنع هنا؟ قال: لقد أوكلت لي مهمة، قال: وما هي؟ قال: لقد كنت منذُ زمنٍ طويل أبحث في هذه العظام، وذلك لعلي أرى شيئاً منها يختلف عن الآخر لكنني لم أر، فقد كنت أبحث في عظام الملك، وفي عظام السوقي، وفي عظام الفقير، وفي عظام المتوسط الحال. إلا أنني لم أرى في أي منهم اختلاف عن الآخر، فإنهم كلهم سواء، ليس هناك فرق بين هذا وذاك، تقول الرواية فأطرق الإسكندر ثم قال له: لقد وعظت فأبلغت، أي أن ما تقوله هو عين الصواب، ثم انصرف عنه، وهذا هو المعنى الذي أمر أحد الأعراب أن يكتب على قبره!!

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحمام بكم علينا قادم
لا تستعزوا بالحياة فإنكم ... تبنون والموت المفرق هادم

---

(١) قريب منه انظر لمحات - الشيخ لطف الله الصافي - ص ٢٠١.

ساوى الردى ما بيننا في حفرة حيث المخدم واحد والخادم[١]

آخر يقول:

انظري كيف تساوى الكل في هذا المكان
وتلاشى في بقايا العبد ورب الصولجان
والتقى العاشق والقالي فما يفترقان

فكلهم أصبحوا على هيئة واحدة. إذاً فكل ظل أياً كان نوعه لا بد وأن ينحسر طالت الدنيا أم قصرت، فمنهم - أي من الملوك - من مات ووضع في تابوت من الذهب ووقف عليه أحد الأشخاص فقال: هذا الذي كان يخزن الذهب أصبح الذهب يخزنه، لقد كان هذا الرجل في يوم من الأيام يحرص أتم الحرص على أن يخزن الذهب، فأصبح ذهبه الآن يخزنه، آخر وقف على شخص آخر فقال: هذا الذي كان يعضنا بنطقه أصبح الآن يعضنا بصمته، لقد كان هذا الرجل عندما يتكلم، يتكلم بموعظة فنتعظ بها، والآن سكوته أيضاً أصبح موعظة لنا، إذاً يتبين أنه لا بد أن يأتي يوماً من الأيام كل لسان يسكت، وكل خد يوضع على التراب، وكل ظل ينحسر، ولا يبقى إلا ظل الله تبارك وتعالى، فالإنسان في هذه الدنيا مهما يكون ذلك الظل الذي يلوذ به قوي ووارف، هل يطمئن أنه يبقى من المساء إلى الصباح أو من الصباح إلى المساء؟ أبداً أبداً.

حكاية[٢]: يقال أن ذي الكلاع كان يحكم الشام وذلك قبل أن يضيء الله الأرض بنور الإسلام، فذهب لرؤيته أحد الأشخاص، يقول ذلك الرجل: وكانت عندي مهمة أردت أن أسأله عنها، فلما أن وصلت إلى الشام أردت الدخول عليه فلم أستطع، وفي اليوم الثاني كذلك لم أستطع، وفي اليوم

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٥٩٩.

(٢) قال شيخ من همدان: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع بهدايا فمكثت تحت قصره حولا لا أصل إليه، ثم أشرف إشرافة من كوة له فخر له من حول العرش سجداً ثم رأيته بعد ذلك بحمص فقيراً يشتري اللحم ويسمطه خلف دابته، وهو القائل: أف لدنيا إذا كانت كذا أنا منها في كل يوم في أذى ....الخ. المصدر شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١٨ ص ٣٦٤.

الثالث أيضاً كذالك، وهكذا إلى أن بقيت سنةً كاملة كلما حاولت الوصول إليه لم أستطع، حيث أن هناك آخرون قبلي يريدون الدخول عليه، وبعد كما السنة من وصولي إلى الشام نزل من قصره، وبمجرد أن نزل خر الناس له ساجدين. يقول: فيئست من الوصول إليه وعدت إلى أهلي، وبقيت سنة كاملة فقط، ثم ذهبت مرة أخرى إلى الشام حيث بدت لي حاجة فيها، فلما دخلتها علمت بأن وضعه قد تغير، وأصبح الشخص الذي لم أستطع الدخول عليه شخص عادي من سائر الناس، فبينما أنا كذلك أتسوق وإذا بصاحبي ذو الكلاع يتمشى في السوق كغيره من الناس؛ أقبل ومعه درهمان فاشترى بأحدهما خبزاً، واشترى بالآخر لحماً، ثم ردفهما خلف دابته. يقول: فأقبلت إليه وقلت له من أنت؟ قال: ألا تعرفني؟ قلت: كأني أعرفك، ولكن أريد أن أتيقن من نفسي هل أن معرفتي لك صواب أم لا؟ فقال: نعم، ثم أنشأ:

تعست دنياً إذا كانت كذا ... أنا منها في بلاء وعنا
إن يطب عيش أمريء في صبحها ... جرعته ممسياً كأسا الردى
ولقد كنت إذا ما قيل من ... أنعم العالم عيشاً قيل ذا

إذاً من الأشياء البديهية التي نراها بأم أعيننا دائماً، والتي نقرأ عنها أيضاً، هي أن ظلال البشر مهما تكون قوتها تنته وتزول وكألم تكن. لهذا عندما تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾[1] أي أنهم في ذلك الظل الذي لا ينحسر، وفي عين الله التي لا تنام، أي أنهم في موضع التقدير، ومن يكون في ظل الله وفي رحمته فإن عطاء الله لا يحد بحال من الأحوال، هذا الرأي الثاني. أيضاً هناك رأي ثالث لا مجال لذكره حيث أن المفسرين لهم فيه نقاش واسع.

المبحث الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ واقعاً هنا أقوال كثيرة في هذه الآية عند المفسرين، ولكن الذي يتلاءم مع روح الآية، هو أنه أي صنف من أصناف الفاكهة يشتهيها الإنسان يجدها أمامه، وعندما يقطعها لا يبقى مكانها خالياً ألبتة، وإنما تعوض إما بفاكهة من جنسها، أو بفاكهة أخرى

(١) سورة المرسلات، الآية: ٤١.

من جنس آخر، بحيث لا يبقى مكانها خالياً أبدا[1]، ولهذا سأل الزنديق أبا عبد الله عليه السلام قال: من أين قالوا: إن أهل الجنة يأتي الرجل منهم إلى ثمرة يتناولها، فإذا أكلها عادت كهيئتها. قال: (نعم ذلك على قياس السراج، يأتي القابس فيقتبس منه فلا ينقص من ضوئه شيء، وقد امتلأت الدنيا منه)[2].

وهذا المعنى أراد منه الإمام أن يقرب المعنى لذلك الرجل الذي طلب منه أن يُعّرف له نعم الجنة، فأعطاه هذا المثال الحسي، وذلك أنه يريد من خلاله تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن المتعارف عند الناس في دار الدنيا أن نعم الدنيا تنتهي، وذلك لأن نعم الدنيا خاضعة للكم والكيف، الكم إذا أخذ منه نقص، شيئاً فشيئاً إلى أن ينته، بينما نعم الجنة يقول عنها القرآن الكريم: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾[3]. فعندما قالت الآية: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ هو أن كل فاكهة تخطر ببال أحدهم يجدها أمامه.

ولكن - مما يؤسف إليه - هو أن بعض كتب التفسير حملت من الروايات الإسرائيلية ما لا يُطمئن إليه بحال من الأحوال، كما يقول: - بعض العلماء -، حتى أن بعض - تلك - الروايات تصور فاكهة الجنة بتصويرٍ عجيبٍ في بابه، منها أن الإنسان عندما يفتح تلك الفاكهة يجد في داخلها أنواعاً أخرى من الفواكه، وكذا، وكذا، إلى آخره، من الكلام أو السخف الإسرائيلي، ولذلك جهد العلماء رحم الله الماضين منهم وأطال الله في عمر الباقين من تخليص تراثنا الإسلامي من الفكر اليهودي، لأن الإسرائيليات لعبت أدواراً كبيرة، فاستغلت آيات القرآن الكريم وأخذت تصور تصاوير عجيبة لا يقرها الفكر الإسلامي بحال من الأحوال.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ سورة الواقعة، الآيتان: ٣٢ و٣٣.

(٢) الاحتجاج - الطبرسي - ج ٢ ص ٩٩، بحار الأنوار ج ٨ ص ١٣٦/ وج ١٠ ص ١٧٨، الفصول المهمة في أصول الأئمة ج ١ ص ٣٦٥.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

الغرض الآية انتقلت في بحثها الأخير قالت: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في هذا المقطع من الآية لنا وقفتان ألأولى مع ﴿هَنِيئًا﴾ والثانية مع ﴿بِمَا﴾.

الوقفة الأولى: قالت الآية الكريمة ﴿هَنِيئًا﴾ ونحن دائماً نقول لبعضنا البعض هنيئاً، وما المعنى في تعبيرات القرآن الكريم؟ وهل أن هناك تقارب فيما نقوله ويقوله القرآن في هذا الجانب؟ مجمل القول كلا، ذلك لأن الهنيء هو الذي لا يخشى الإنسان انقطاعه ولا يخافوا فوته، وهذا لا يحصل لأحد في دار الدنيا، وإنما يحصل للمتقين عندما يكونوا في الجنة على حد تعبير الآية، بينما نحن في هذه الدنيا ليس عندنا شيئاً من هذا القبيل، وكمثال على ذلك، مثلاً الثوب الذي اشتريته بالأمس ولبسته، مرةً يداخلني الخوف أنه يتقطع، ولا يوجد مثله في الأسواق، أو ليس عندي أموالاً حتى أشتري مثله، ومرةً يبقى ومثله في الأسواق كثير، ولدي أموالاً كثيرة أستطيع أن أشتر الكثير من مثله، إلا أنني أنا الذي أنتهي من هذه الحياة، الثياب والأموال موجودة، لكن يا ترى هل أنني أبقى، حتى البس تلك الثياب التي اقتنيتها، أو أنني أُلفّ بتلك القطع البيضاء وأحمل لألقى في القبر؟ وهذا هو الواقع الذي ينتظرني وينتظر كل مخلوق.

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن؟[1]

تارةً الإنسان يخاف ذهاب النعم التي يحبها في دار الدنيا، وتارةً النعم التي يحبها الإنسان قد ملئت الدنيا، ولكن طالبها من البشر ينته، وكلا الأمران محتملان في دار الدنيا، عطاء الدنيا ينته، والإنسان كذلك ينته، ألّلابس والملبوس كلاهما يتحولان إلى خرق بالية، مهما تتصور، ملك، لباس الملك، وضيع، لباس الوضيع، العالم، لباس العالم، الجاهل، لباس الجاهل، كل ذلك ينته ويلقى في التراب، ويتحول بعد ذلك إلى تراب.

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ٣١٤.

حكاية قد تناسب ما نحن فيه: يروى أنه في أيام عبد الملك بن مروان، جاء السيل فكشف عن غار كبير في اليمن، فدخلوا إلى الغار فوجدوا فيه ستة أجساد مسجاة على أسرة من الذهب، وقد وضع لوحاً من الذهب عند رؤوسهم، مكتوبة عليه الأبيات التي استشهد بها الإمام الهادي عليه السلام، عندما أدخل على المتوكل.

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تمنعهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ... فأسكنوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا[١]

إذاً في واقع الأمر ألهنيء هو الشيء الذي لا يخشى الإنسان انقطاعه ولا يخافوا فوته، وكذلك لا يخشى الإنسان عدم القدرة من الانتفاع به، وهذا لا يحصل إلا للمتقين في الجنة، لذلك الآية الكريمة قالت: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ بمعنى أن هذا الشيء باق لكم وأنتم باقون له، فلا يداخلكم الخوف بانقطاعه عنكم، ولا يداخلكم خوفٌ بانقطاعكم عنه، فكلاهما مضمونان لكم، بقائكم للنعم، وبقاء النعم لكم.

النقطة الثانية: في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فماذا تعني الباء هنا؟ يقول العلماء: أن الباء هنا كأنما تشعر الإنسان بالجزاء، يعني جزاءً على ما قمتم به من عمل في دار الدنيا تنالون النعم في دار الآخرة، بمعنى أن الله تبارك وتعالى إذا أعطى الإنسان غداً أجراً، فذلك الأجر جزاءً على عمله الذي قام به في دار الدنيا، ولكن كيف يتلاءم هذا المعنى وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (والذي نفسي بيده ما من الناس أحد يدخل الجنة بعمله)، قالوا: : ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٠ ص ٢١٢.

برحمة منه وفضل) - ووضع يده على فوق رأسه وطول بها صوته -[١] وهنا نحتاج لأن نقف مع هذا التعريف للجزاء؛ الواقع أن العمل الذي يعمله الإنسان في دار الدنيا لمن هو؟ ومن أين هو حتى يأخذ عليه الإنسان أجراً في الآخرة؟ فمثلاً عندما يصلي الإنسان، أو يصوم، أو يدفع الزكاة، أو يتصدق، أو غير ذلك من الواجبات أو المستحبات لمن هي؟ ومن أين مصدرها؟ لا شك أن الزكاة والصدقات تدفع لأفراد المجتمع، والمجتمع كلهم من جنس واحد، فتكون حينئذ بمثابة الضمان الاجتماعي، الصلاة عندما يصليها الإنسان تخلق عنده حالة من التهذيب النفسي، كذلك إذا جئنا إلى الصوم، شعيرة الصوم في حد ذاتها تخلق حالة روحية عند الإنسان الصائم نفسه، وهكذا كل عمل من الأعمال إذا بحثنا عنه نجده عائداً إلى الإنسان نفسه، إذاً كل شيء يعمله الإنسان فهو لنفسه، فلماذا يأخذ عليه أجراً؟ إن هذا المعنى هو بمثابة من يسعى على نفسه، ومن يسعى ويكدح لنفسه، هل له أن يمن على الناس؟ أو أنه يأخذ أجراً منها؟ الآية قالت: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فما هو السبب في ذلك؟

يقول المفسرون: لا لأن العمل لله عز وجل، وإنما - يكون ذلك - لامتثال أوامر الله تعالى، بمعنى أن الله تبارك وتعالى دفع العبد نحو العمل الواجب، وذلك لأن الأمر من الله يخلق عند الإنسان حالة من الانبعاث لأوامر الله تبارك وتعالى على العمل، فالقرآن الكريم يؤكد أن هذا الأجر الذي ستحصلون عليه هو بدل امتثالكم لأوامر الله عز وجل، وإلا فكل عمل من الأعمال لا يستحق الإنسان عليه أجراً، لأن ذلك كله تفضل من الله، مثال ذلك لو أن إنساناً دعا بعض فقراء المسلمين، وأطعمهم طعاماً وكساهم ثياباً، لنا أن نسأله حينئذ من الذي أوجد مستلزمات ذلك الطعام، أليس هو الله؟ هو الذي خلق التربة ووضع فيها تلك العناصر كلها، وهو الذي خلق المراعي وتكفل برزقها، وخلق النبات وما يستلزم تقنية النبات، وكذلك النقود التي أشتري بها الطعام، أي معدن الذهب والفضة، أو معدن الورق، كل ذلك منه

---

(١) بحار الأنوار ج ٧ ص ١١، درر الأخبار ص ٨٦.

وعائد إليه، ولهذا أحد الشعراء يقول:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر[١]

إذاً حتى شكر النعمة هو منه تعالى، فحينئذ يجب الشكر على ذلك الشكر، ولا نهاية للشكر[٢]، ولهذا قالوا كل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله تعالى، فإن غاية شكرها الاعتراف بالعجز عنها، وذلك أن شكر نعمته نعمة منه، فيجب على العبد شكرها، ثم يجب عليه الشكر على الشكر، وهكذا إلى ما لا ينتهي وما لا نهاية له، فنهايته في بدايته. فينبغي أن يسند العبد من الابتداء على العجز ظهره، ويبني على الاعتراف بالتقصير أمره، فيكون معرفة التقصير عن الشكر شكراً، ولهذا كان علي بن الحسين عليه السلام يقول في تسبيحه: (سبحان من جعل الاعتراف بالنعمة له حمداً سبحان من جعل الاعتراف بالعجز عن الشكر شكراً)[٣]. وإلا فأنى يبلغ شكر العباد نعم الرب الجواد وأين يقع الحال من الأزلي، والذي لا يبقى من الذي لا يفنى.

ولهذا الشكر - يقسمه العلماء - على ثلاثة أقسام **الأول** باللسان، **والثاني** باليد، **والثالث** بالعمل، كما أن الشكر له أحياناً مراحل تنفيذية، مثال ذلك هو: أن الله عز وجل أنعم على الفرد بعزيمة، اللهُ تعالى خلق عند الإنسان عزماً وإرادة وقوةً وشجاعة، فعليه أن يوظف تلك الشجاعة وأن يجندها في سبيل الله عز وجل. ولهذا وقف الإمام الحسين عليه السلام يشكر الله تعالى بطريقته

(١) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين؛ شرح ص ٢٣٣.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام: أوحى الله إلى موسى عليه السلام، يا موسى اشكرني حق شكري، فقال: يا رب، وكيف أشكرك حق شكرك، وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به علي؟ قال: يا موسى الآن شكرتني، حين علمت أن ذلك مني. وفي راية قال موسى عليه السلام: إلهي أمرتني بالشكر على نعمك، وشكري إياك نعمة من نعمك (المصدر السابق).

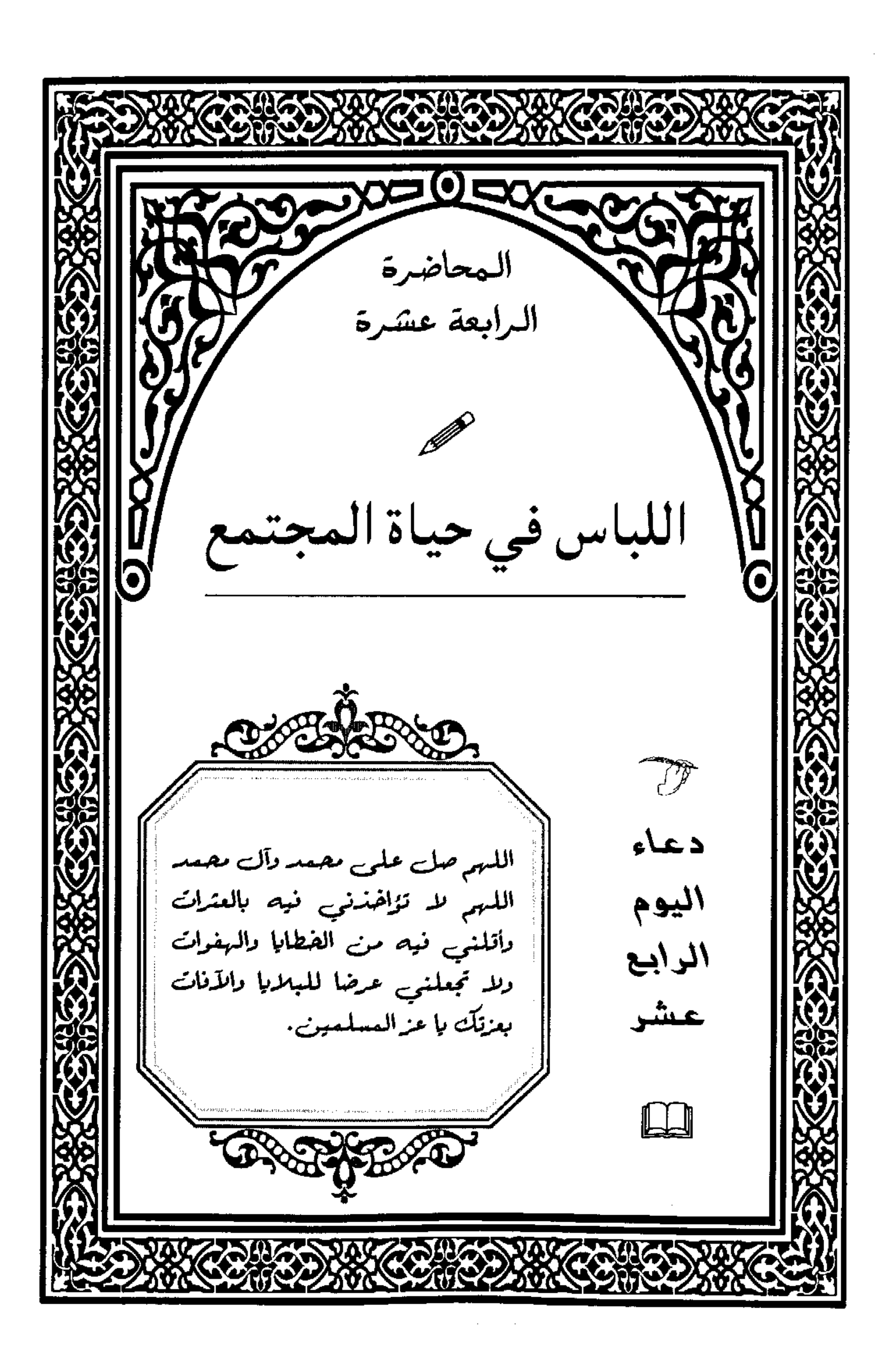
(٣) الصحيفة السجادية ص ٢٥، تحف العقول ص ٢٨٣، بحار الأنوار ج ٧٥ ص ١٤٢، أعيان الشيعة ج ١ ص ٦٤٥.

الخاصة، وكانت طريقته الخاصة أن يقدم لله القرابين، ذلك لأن القرابين عادةً تقدم شكراً لله على نعمة، فمثلاً الحاج في أثناء حجه يقدم قربان، وهكذا القرابين عادةً تقدم أداء لواجب، ولهذا فالحسين عليه السلام أراد أن يقدم القرابين لله تعالى، ولكن لنا أن نسأل ما هي تلك القرابين التي قدمها الحسين عليه السلام؟ واقعاً قدم تلك الوجوه من آل محمد صلى الله عليه وآله التي كان الشعراء يذكرونها وهي التي عبر عنها الأديب الكواز:

تلك الوجوه المشرقات كأنها	الأقمار تسبح في غدير دماء
خضبوا وما شابوا وكان خضابهم	بدم من الأوداج لا الحناء
ومغسلين ولا مياه لهم سوى	عبرات ثكلىٰ حرة الأحشاء
أصواتها بحت وهن نوائحٌ	يندبن قتلاهن بالايماء[1]



(١) ديوان الشيخ صالح الكواز/ العلويات/ القصيدة الأولى في رثاء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام وأصحابه.



المحاضرة
الرابعة عشرة

اللباس في حياة المجتمع

دعاء اليوم الرابع عشر

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم لا تؤاخذني فيه بالعثرات
وأقلني فيه من الخطايا والهفوات
ولا تجعلني عرضا للبلايا والآفات
بعزتك يا عز المسلمين.

١٤

اللباس في حياة المجتمع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1].

※※※

القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة يبين نعمة من النعم التي أنعم الله تبارك وتعالى بها على العباد، ألا وهي نعمة اللباس، وكذلك يشير إلى خواص هذه النعمة العظيمة. ومن هذا المنطلق نفهم أن لكل نعمة خاصية من الخصائص، كما أنه من الملاحظ عند العلماء في تفسير الآية الكريمة أنها تشير إلى شرط من شروط الصلاة، وذلك أن الصلاة لها شروط كثيرة، ومن شروطها الستر والساتر، وسنذكر في سياق البحث شيئاً من ذلك، - ومن أراد المزيد فعليه بمراجعة الكتب الفقهية[2]. كما أن الصلاة لها شروط أخرى، منها الطهارة، والوضوء، واستقبال القبلة.... الخ. فلهذا كانت تعرف عند العلماء من آيات الأحكام - هذا أولاً - . وثانياً: ما هو المراد من كلمة (أنزلنا)؟ علماً بأن اللباس من الأرض، وذلك إما من النبات، أو من النفط، أو من أوابر الحيوانات، وجميعها في الأرض التي نحن عليها،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

(٢) منها المسائل المنتخبة ص ١١٦ (شروط لباس المصلي). - السيستاني - وغيره من الكتب.

فماذا تعني كلمة (أنزلنا)؟ يقول العلماء: يراد بهذا التعبير أي خططنا، فكما أن مصدر الوحي هو السماء، كذلك مصدر الرزق هو السماء، قال جل وعلى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] وبعبارة أخرى أن السماء هو الباب الذي تنزل منه الرحمات على العباد، فهذا هو المقصود من كلمة أنزلنا، وإلا ففي واقع الأمر،أن كل الأشياء المادية موجودةً في الأرض، ولكن لأن المخطط لها والمقدر لها هو الله عَزَّوَجَلَّ فلذلك عبر عنها بـ(**أنزلنا**)[2]. هذا أمر.

الأمر الثاني: أن هناك علواً معنوياً، فمثلاً لتقريب المعنى، عندما يكون إنسان ما، ذا منصب اجتماعي، أو ذا رصيد مالي، أو ذا مكانة اجتماعية، ويُسأل عنه في الوسط الاجتماعي، يقال بأن فلاناً فوق، ويراد بذلك أنه أعلى ممن دونه. فالله عَزَّوَجَلَّ هو الخالق، وهو الرب.... الخ، فعلوه علواً معنوياً بدليل أن الناس عبيده ومحتاجون إلى رحماته، فلذلك قال جل وعلا: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا﴾ بهذا المعنى، فالمسألة إذاً لم تكن مسألة مادية، الماديات موجودة في الأرض، الملابس وغيرها، وإنما المسألة هي مسألة معنوية. من هنا نرجع إلى الآية: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ هنا أيضاً نقطتان، النقطة الأولى: اللباس وما هو دوره؟ والنقطة الثانية: العورة ولماذا سميت عورة؟. **أولاً**: لماذا سمية العورة عورة؟ هل أن هذا التعبير جاءنا نتيجة للوضع الاجتماعي؟ يعني هل أنها نتيجة ذاتية؟ مثلاً لتوضيح المعنى المجتمعات التي نعيش فيها مجتمعات مستورة، يخرج الولد وقد أُلبس من قبل الأبوين لباس داخلي يستره، وعليه لباس آخر يُجملهُ، بمعنى أن المواضعات والتقاليد هكذا سائدة بهذه الصورة؟ أو أن الإنسان هو ذوقاً وروحاً وعقلاً يستقذر أن تبدو عورته، يعني يستقبح رؤية العورة، أو أن هذا الأمر أقره الدين؟ في واقع الأمر إن العقل السليم يستقبح للإنسان أن تبدو عورته، ولهذا عرّف القرآن الكريم القبل والدبر بالسوأتين، ذلك لأن

---

(١) سورة الداريات، الآية: ٢٢.

(٢) انظر شرح العروة الوثقى - السيد محمد باقر الصدر ج ١ هامش صفحة: ٢٠، فإنه قد وضع شرحاً ممتعاً في هذا الباب.

الإنسان يسوؤه النظر إليهما، يعني بعبارة أدق حتى لو لم يكن الشارع يأمر بذلك، فإن العقل وهو النبي الداخلي يأمر بذلك، فالمسألة ذاتية في الأصل، وإن كان بعد ذلك فرضها علينا الإسلام، وقد يأتي هذا المعنى خلال الحديث إن شاء الله تعالى. **النقطة الثانية**: وضيفة اللباس، ما هي وظيفة اللباس التي تحدثت عنها الآية الكريمة واعتبرتها من النعم؟ هناك وظائف متعددة، وأول وظيفة من تلك الوظائف هي أن اللباس يستر جزءاً من جسد الإنسان الذي من المعيب إظهاره؛ وهذه النقطة فيها فرعان. **الفرع الأول**: في داخل الصلاة، **والفرع الثاني**: في خارج الصلاة، أما الذي في داخل الصلاة، فبالنسبة إلى الرجل هو القبل والدبر[1]، وهما اللتان يعبر عنهما العورتان، وأما ما عدا ذلك وهو بقية الجسد فستره سنة[2]، إلا أن الواجب الذي تبطل الصلاة بتركه هو إبراز السوءتين. وأما بالنسبة إلى المرأة فكل جسدها يوجب الشارع ستره، ما عدا الوجه والكفان والقدمان، وفي بعض الروايات يقتصر على الوجه والكفين، وذلك عن كل ناظر محترم أو غير محترم، هذا على رأي بعض الفقهاء، وعلى رأي البعض الآخر الناظر المحترم، أما الطفل أو الحيوان أو المجنون فلا بأس في ذلك، لأنهم لا يقدرون أن يصفون الأعضاء، وكما يعمم الفقهاء الإنسان بالذكر والأنثى. وهنا يأتي السؤال وهو لماذا عند الرجل المقدم والمؤخر فقط؟ قالوا: - أي العلماء - لأنهما موضع الإثارة، أما جسد المرأة فكله إثارة، فلهذا أوجب الشارع ستره. كذلك في خارج الصلاة؛ الفقهاء يرون حتى في الحمام على المسلم أن يرتدي الإزار، وذلك لكي لا يلوث ذوقه بالنظر إلى العورات، فكأن الإسلام يريد أن يربي الفرد المسلم على الذوق السليم، حتى لا يتحول إلى كتلة من الغرائز، كما نشاهده

---

(١) مسألة ٢٢٥: يعتبر في الصلاة ستر العورة، وهي في الرجل القبل (القضيب والبيضتان) والدبر، وفي المرأة جميع بدنها غير الوجه - بالمقدار الذي لا يستره الخمار عادة مع ضربه على الجيب - واليدين إلى الزند، والرجلين إلى أول جزء من الساق، ولا يعتبر ستر الرأس وشعره والرقبة في صلاة غير البالغة. ص ١١٤ (المسائل المنتخبة السيستاني).

(٢) أنظر جواهر الكلام ج ٨ ص ١٨٥ - الشيخ الجواهري فقد وضع بحثا رائعاً فهذا الباب.

اليوم، من أن البعض من المسلمين عندما اختلطوا بالمجتمعات الغربية اقتبسوا منهم الشيء الكثير، فأصبحوا كما قال النبي ﷺ عن النساء: (نساء كاسيات عاريات)[١]. فلهذا كون اللباس الذي في حد ذاته يجسد الأعضاء لا يصدق عليه لباس، لأنه قد يعطي الجسد صورة أنصع مما هي فيه، فبالتالي ليس هذا هو الهدف من اللباس، إنما هدف اللباس كما قدمنا هو الستر، أما كونه وسيلة من وسائل الإثارة فلا يصح أن يسمى لباساً. فإذاً أول هدف من أهداف اللباس أنه يستر الإنسان.

الهدف الثاني: من أهداف اللباس هو التجميل، لأن الإنسان يريد من اللباس إضافة إلى الستر الجمال، يعني الوظيفة الجمالية، فهده الوظيفة مهمة في حد ذاتها، لأنها تجعل للإنسان احتراماً بين أفراد نوعه[٢]. لا أن يكون مهاناً بينهم[٣]، فبعض الألبسة إذا لبسها الإنسان تجعله يُحتقر، ومن ثَمَ نجد النبي ﷺ ينبه من لا يعتني بلباسه. ورد عن أبي الأخوص عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ في ثوب درن، فقال: (ألك مال؟ قال: نعم. قال: من أي المال؟ قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: فإذا آتاك الله مالاً فليرى أثر نعمته عليك وكرامته)[٤]. كأنما يقول: ألا تعلم أن الله عز وجل إذا أنعم على عبدٍ بنعمةٍ أحب أن يرى أثر تلك النعمة ظاهرة عليه، ألا تعلم أن لسان النعمة أنطق بالشكر من لسان الإنسان، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٥]. وكما هو معلوم أن أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يلبسون أجود اللباس، الإمام زين العابدين عليه السلام كان يلبس الكساء الخز في الشتاء فإذا جاء الصيف باعه

---

(١) تنوير الحوالك جلال الدين السيوطي ص ٦٦٠.

(٢) والله تبارك وتعالى أراد للإنسان ذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

(٣) يقول الإمام علي عليه السلام: (البس ما لم تشتهر به ولا يزري بك) [غرر الحكم].

(٤) فقه السنة - الشيخ سيد سابق ج ٣ ص ٤٧٥.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

وتصدق بثمنه، وكان يقول: (إني لأستحي من ربي أن آكل ثمن ثوب قد عبدت الله فيه)[١]. كما أن الإمام الحسين عليه السلام قُتل يوم العاشر من المحرم وعليه جبة الخز، فعموماً اللباس من شأنه التجميل أيضاً، فعلى الإنسان أن يتزين من خلاله، ولكن لا يصل الأمر إلى حد الإسراف[٢]، فمثلاً لو كان هناك طيلسان يشترى بخمسين ديناراً وهو يسد الحاجة، ويستخدم في كثير من الأوقات، فما الداعي بأن يُشترى طيلسان بخمسمائة دينار ويُستخدم في ليلة واحدة فقط؟ بحيث أن البعض يصل به الحال إلى درجة أن يضيع الأموال بهذه الصورة من السفه، وفي المقابل هناك بطونٌ غرثى، وأجساد عارية مفتقرة إلى عشر معشار هذا الشيء، فمن المؤكد لو أن الشريعة يتاح لها أن تحكم، لتقبض على أيدي هؤلاء السفهاء، لأن الأموال لا بد وأن تأخذ طريقها إلى السيولة، وإلى الأسواق، كي تشغل العاطلين، وفي نفس الوقت تأتي بخيرات طائلة، يستفيد منها فقراء المسلمين، فالأموال يجب أن تنزل إلى مشاريع استثمارية، أما أن يكون الإنسان يضعها في ثوب مبلغه كذا من المال، فهذا هو الإسراف المحرم بعينه[٣]. يذكر أحد المؤرخين أنه في أيام الفتوحات وبالتحديد في أيام عمر بن الخطاب، جاء المسلمون ببساط كسرى الذي كان يبسطه بالديوان، وكانت مساحته ستون ذراعاً وكله مزين بالأحجار الكريمة، فقطع للتوزيع، فحصل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على قطعة منه، فلم يدخل بها إلى بيته، بل أنه باعها وتصدق بثمنها. بينما في المقابل هشام - والذي يريد الإطلاع أكثر، عليه بمراجعة حياة الحيوان للدميري وذلك في ترجمته لخلفاء الأمويين - يقول: كانت ستمائة مركوب مخصصة إلى ملابسه، وذلك إذا أراد السفر إلى مكان، ولكن هذا الأمر يعبر عنه علماء الأخلاق بأنه شعور

---

(١) ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة الشهيد الأول ج ٣ ص ٦٩، تذكرة الفقهاء العلامة الحلي ج ١ ص ١٠٠، منتهى المطلب ج ٤ ص ٢٣٧.

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: المال مال الله يضعه عند الرجل ودائع، وجوز لهم أن يأكلوا قصداً ويلبسوا قصداً... [البحار ج٧٩ ص ٣٠٤].

(٣) **يقول الإمام الصادق عليه السلام: (للمسرف ثلاث علامات: يشتري ما ليس له، ويلبس ما ليس له، ويأكل ما ليس له). [البحار ج٧٢ ص ٣٠٦]**

بالنقص، بحيث يتصور أن شخصيته لا تكتمل إلا بالطيلسان المذهب، الذي يأخذ بريقه للنضار، بينما الإنسان الذي هو في حد ذاته بريق لا يحتاج إلا ذلك، يقول أحد الشعراء وهو يصف أمير المؤمنين عليه السلام :

وإذا الدر زان حسن النحور كان لدر حسن نحرك زينا[1]

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذا أراد أن يلبس، يلبس الثوب العادي، وبعد ذلك يكونُ هو زينة لذلك الثوب الذي يلبسه، فلا يحتاج لأن يزينه الثوب. يذكر المؤرخون أن الثوب الذي خرج به من الكوفة إلى صفين رجع به، المدرعة التي كان يلبسها والتي طالما سمع منه قوله: (والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ قلت أعزب [أغرب] عني فعند الصباح يحمد القوم السرى)[2]. هذه النوعية من اللباس كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقتنيها ويلبسها، وكان في بعض الأيام إذا جيء بها إليه تكون طويلة الردن فيقطعها، ثم يلبسها ويمسح على جسده ويقول: (الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس)[3]. فعلي ابن أبي طالب لم يزينه أي لباس من الألبسة، بل أنه هو الذي يكون زينة لذلك اللباس، وذلك بما كان يحمله من تواضع وخلق. ولهذا يخاطبه أحد الشعراء:

قد يزين الخميل بضع ورود وبمعناك جنة من فواح

فكأن هذا الأديب الذي صاغ هذا البيت من الأدب، يقول: إن الحديقة قد يزينها شكل أو شكلين من الورد، وأنت من أولك إلا نهايتك ورد وعطر وعطاء لا حدود له، فالدنيا إذا تأملته اهتزت بحسنه في كل الأبعاد، وهذا هو الحسن الحقيقي الذي لا ينتهي، وإلا فالثوب يتركه الإنسان قبل أن ينزل إلى القبر. فعموماً نرجع إلا أصل الموضوع، الآية بعد أن قالت: ﴿وَرِيشًا﴾

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ٧ ص ٩١.
(٢) بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٦٠، جامع أحاديث الشيعة - البروجردي - ج ١٤ ص ٣٥، نهج البلاغة ج ٢ ص ٦٠.
(٣) الأمالي الشيخ الطوسي ص ٣٦٥.

قالت: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لباس التقوى ما المراد منه؟ العلماء لديهم ثلاثة آراء في هذا المقطع.

الرأي الأول: أن على المسلم أن يلبس ثوب الحمد، والمراد بثوب الحمد هو أن تكون الأموال التي يشتري بها الثوب من الحلال، بحيث أنه قد أعطى كل ذي حق حقه، قبل أن يلبس ذلك الثوب، فبهذا حتى لو لبس الثوب العادي يعتبر ذلك الثوب أرقى نوعاً من اللباس، لأنه بر اليتامى، وعطف على المساكين، وأحسن للضعفاء، وأسدى الخير للناس، وهذا شأن أئمة أهل البيت عليهم السلام، الذي كان الواحد منهم إذا جنهُ الليل خرج يتفقد أهل الحاجة، فيوصل إليهم ما يحتاجون إليه - وهناك أمثلة على ذلك من أرادها فعليه الرجوع إلى كتب التاريخ - فإذاً ثوب الحمد هو الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين.

الرأي الثاني: أن المراد بلباس التقوى [الحياء][(1)]، وهذا الرأي ذات أهمية كبرى، فكأن القرآن الكريم يرى بأن اللباس مع كونه يستر العورة، ولكنه بدون الحياة لا يكفي، بدليل أن البعض يلبس كذا نوعاً من اللباس وهو بادي العورة، وذلك من خلال تصرفاته التي لا تتلاءم مع المفاهيم والقيم الإسلامية، عن أبي جعفر عليه السلام قال: (في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ فأما اللباس فالثياب التي يلبسون، وأما الريش فالمتاع والمال، وأما لباس التقوى فالعفاف، إن العفيف لا تبدو له عورة، وإن كان عارياً من الثياب، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسياً من الثياب، يقول الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يقول العفاف خير ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[(2)]. فمثلاً لو أن امرأة فاسدة أو رجل فاسد، فإن اللباس لا يغير من واقعهما شيئاً أبداً، وإن كان اللباس في حد ذاته مطلوب، ولكن

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله يحب الحيي المتعفف ويبغض السائل الملحف، وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول أفضل العبادة العفاف (بحار الأنوار ج ٦٨ ص ٢٧١).

(٢) البحار ج ٦٨ ص ٢٧١.

قبل ذلك - الحياء ، فالعباءة لا تغير من واقع المرأة شيئاً إلا إذا توفر الحياء، مثلاً امرأة تريد أن تتحجب فلها ذلك، ولكن بشرط أن لا تحول الحجاب إلى زينة، لأن البعض منهن قد تجعل من الحجاب ما يلفت النظر إليها. فالمسألة هي أن تضيف إلى الحجاب مسألة الحياء، بعبارة أخرى الحجاب النفسي، لأن الإسلام فرض الحجاب الخارجي وفرض الحجاب الداخلي، ونفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] هذا هو الأمر المهم الذي يجب أن نتأمل إليه، بمعنى أن المسألة ليست فقط بأن تكون فلانة قد لبست الحجاب، كلا، بل لابد لها من الحجاب الطبيعي وهو - الحياء، قال رسول الله ﷺ: (الله عزوجل حييٌّ ستير يحب الحياء[2]. لأنه تعالى يستحي حتى من عبده المؤمن إذا أسن كما في الرواية، قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى ينظر في وجه الشيخ المؤمن صباحاً ومساء فيقول: يا عبدي كبر سنك، ودق عظمك، ورق جلدك، وقرب أجلك وحان قدومك علي فاستح مني فأنا أستحي من شيبتك أن أعذبك بالنار)[3]. إذاً فالله عزوجل حييٌّ ويحب للرجل والمرأة الحياء، لأن الحياء والإيمان مقرونان. يقول الإمام الصادق عليه السلام: **(الحياء والإيمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه)**[4]. ويريد من

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) كشف القناع - البهوتي - ج ١ ص ١٨٨، نيل الأوطار - الشوكاني - ج ١ ص ٣١٧.

(٣) بحار الأنوار ج ٧٠ص ٣٩٠.

(٤) الكافي ج ٢ ص ١٦٠، منهاج الصالحين الشيخ وحيد الخرساني ج ١ص ٥١٥، تحف العقول ص ٧٩٧، جامع السعادات ج٣ ص ٤٦. وقال الصادق عليه السلام : **(لا إيمان لمن لا حياء له)**. [المصدر نفسه].

المرأة أن تكون حيية مستورة، فالحياء قبل الحجاب. وقد يأتي السؤال هل أن الحياء لوحده يكفي بدون الحجاب؟ طبعاً لا يكفي، لأن هذا الفرد الموجه له الخطاب هو طرف بالمعادلة، فعليه أن لا يسبب الإغراء للطرف الثاني، فالمرأة إذا أبرزت مفاتنها دفعت الرجل إلى النظر إليها، وأدت النتيجة إلى أنهما يقترفان الإثم، وآل الأمر إلى شيء لا يحمد عقباه. **الرأي الثالث: أن** المراد من قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يعني ما يقي الإنسان به جسده أثناء الحرب، وبعبارة أخرى المقصود بذلك الملابس الحربية، فكأن الآية تريد أن تغطي البعد الحربي والبعد السلمي معاً، فلباس التقوى يعني بها وسائل الوقاية التي يلبسها الإنسان في حال الحرب، ومن المعلوم أن الوسائل الحربية تختلف من وقت لآخر، فمثلاً الآن يستعملون أشياء تختلف عما كانوا يستعملونه من قبل، ففي أيام الدعوة الإسلامية كانت وسائل الوقاية: الدرع، والمغفرة، والبيضة.... الخ. فلهذا يقول المؤرخون أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الدرع، ولكنها صدراً لا ظهر لها، حتى قيل له ألا تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك؟ فقال عليه السلام: (إن أمكنت عدوي من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقى علي)[1] لأنه كان لا يتبع منهزماً ولا يفر من أحد، فكان عليه السلام يلبس درعاً صدراً لا ظهر لها. كذلك الإمام الحسين عليه السلام في اليوم العاشر من المحرم أمر بإحضار الدرع، ولكنه ما أراد أن يتقي بها، وإنما أراد أن يلبسها ليعيد إلى ذاكرة القوم مصدرها وهي المسماة - بذات الفصول - التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله يلبسها، فكأنما أراد الإمام الحسين عليه السلام أن يقول لهم إن كل شيء عندي هو من عند رسول الله صلى الله عليه وآله بل أنني دماً ولحماً وروحاً من رسول الله، ولهذا يقول المؤرخون خاطبهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: (أما بعد أيها الناس انسبوني وانظروا من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها هل يحل لكم سفك دمي وانتهاك حرمتي الست ابن بنت نبيكم وابن عمه وابن أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي أولم يبلغكم قول رسول الله صلى الله عليه وآله مستبشراً لي ولأخي انا

(١) سنن الإمام علي عليه السلام لجنة الحديث معهد باقر العلوم ص ٣٩٣.

سيد شباب أهل الجنة أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي وانتهاك حرمتي)؟[(١)]. فكأنما قال لهم بهذا المعنى إنكم تقاتلون قطعة من رسول الله ﷺ، تقاتلون دماً ولحماً وآثاراً من رسول الله ﷺ ولذا يقول الكعبي:

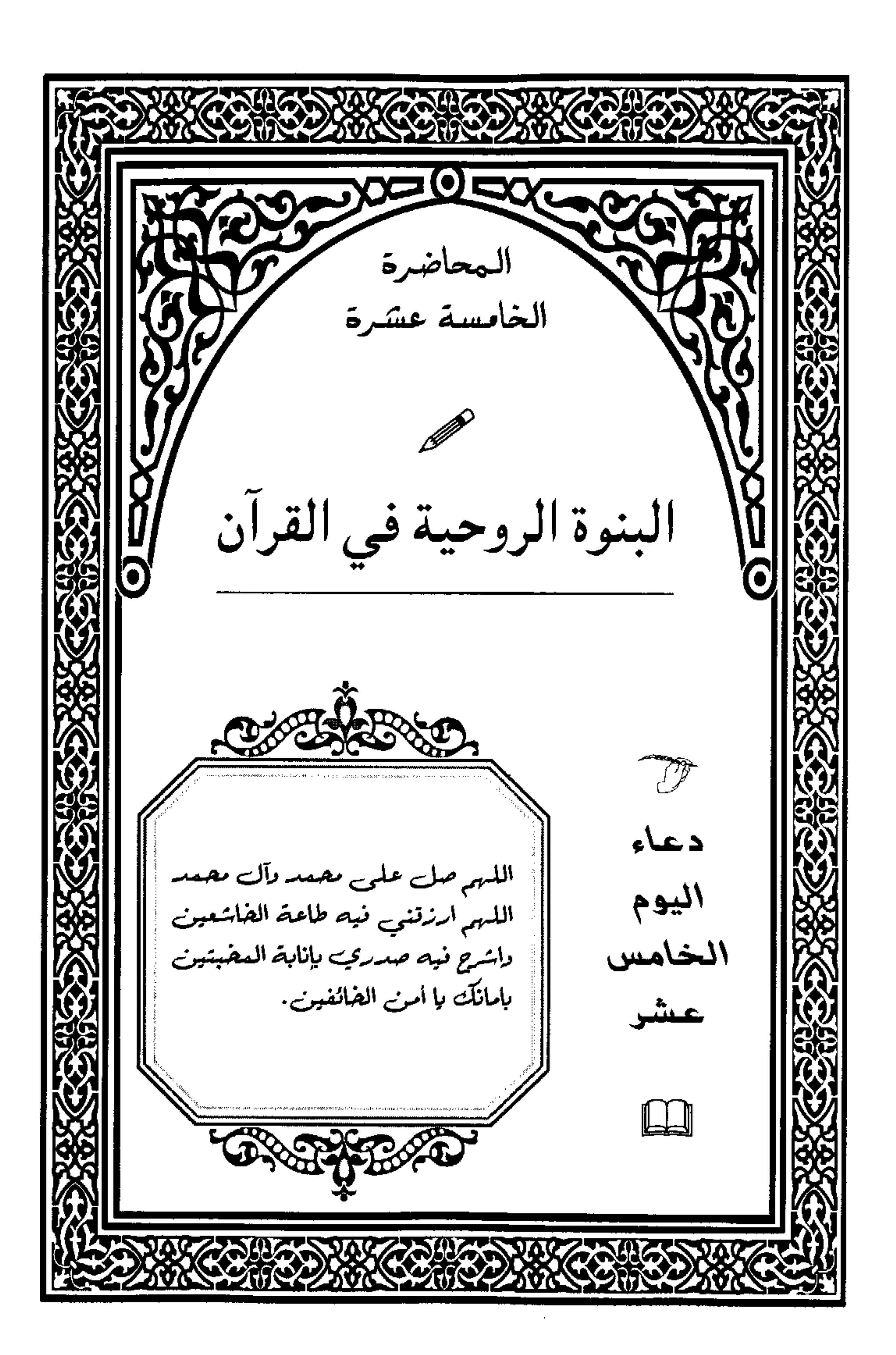
ذات الفقار بكفه وبكتفه ذات الفضول
وأبو المنية سيفه وكذا السحاب أبو الفضول
لف الرجال بمثلها وثنى الخيول على الخيول
لسنانه وسنانه صدقان من طعن وقيل
قل الصحابة غير أن قليلهم غير القليل[(٢)]

بمعنى أنه عليه السلام خاطبهم بلسانه، ولما لم يفد الخطاب باللسان، رجع إليهم بالسنان يقاتلهم، إلى أن أثخن بالجراح، وسقط على الأرض، عند ذلك أقبلوا يسلبون تلك الآثار التي كان يعظهم بها، عندها بقي على بوغاء كربلاء. عار اللباس قطيع الرأس منخمد الأنفاس في جندل كالجمر مضطرم[(٣)] بقي تصهره حرارة الشمس، بقي روحي له الفدى ثلاثة أيام ولم تغير الشمس شيئاً من جماله وبهائه. ورحم الله الكعبي إذ يوصف لنا ذلك المصرع الفظيع يقول:

ومجرح ما غيرت منه القنا حسناً وما أخلقن منه جديداً
قد كان بدراً فاغتدى شمس الضحى مذ ألبسته يد الدماء بريدا
وتظله شجر القنا حتى أبت إرسال هاجرة إليه بريدا[(٤)]

---

(١) مثير الأحزان ابن نما الحلي ص ٣٧.
(٢) أعيان الشيعة السيد محسن الأمين ج ١ ص ٦٢٦/ ج ١٠ ص ٢٤٢.
(٣) شجرة طوبى الشيخ محمد مهدي الحائري ج ٢ ص ٢٩٠.
(٤) أعيان الشيعة السيد محسن الأمين ج ١٠ ص ٢٣٨، حياة الإمام الحسين عليه السلام الشيخ باقر شريف القرشي ج ١، ص ٣٧.



المحاضرة
الخامسة عشرة

البنوة الروحية في القرآن

دعاء
اليوم
الخامس
عشر

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم ارزقني فيه طاعة الخاشعين
واشرح فيه صدري بإنابة المخبتين
بأمانك يا أمن الخائفين.

١٥

البنوة الروحية في القرآن الكريم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾(١).

✻✻✻

القرآن الكريم له أسلوب خاص في طرح المفاهيم، فتارةً تأتي المفاهيم بطريقة مباشرة، وتارةً أخرى بطريقة غير مباشرة.

ولدينا مفهوم البنوة، البنوة في القرآن الكريم على نوعين، بنوة دموية، وبنوة روحية، **فأولاً**: البنوة الدموية.

البنوة الدموية: هي التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾(٢). فمتى يتم تفعيل هذه الآية في المجتمع؟ ذلك إذا كان الشخص له أبناء قد انحدروا من صلبه، بمعنى أنه إذا تزوج عمرو وولد له زيد، يقال إن عمراً أباً لزيد وأن زيداً ابنٌ لعمر، بعبارة أخرى العلاقة الدموية تحدد معنى البنوة، أن فلاناً ابنٌ لفلان، لأنه منحدر من صلبه. وهذا المعنى أشار إليه القرآن الكريم.

كذلك من أهداف القرآن الكريم، التي ربّى عليها المجتمع الإسلامي، هو أن ركز على البنوة الروحية، حتى اعتبرها هي البنوة الأساسية، كما وأنه لا ينفي المنحدر من صلب الإنسان كما قدمنا، وإنما يجعل ذلك في أدنى مراتب البنوة، لأن البنوة الأساسية هي الاتحاد في المبادئ الإسلامية، فكأنما يقول

(١) سورة هود مقطع من الآية: ٤٦.
(٢) سورة النساء مقطع من الآية: ١١.

القرآن الكريم من خلال مفهوم هذه الآية، إن ابنك هو أن يكون امتدادك في عمل الصالحات، امتدادك فيما أراد الله عز وجل أن يكون فيه الولد امتداداً لأبيه. وهذا هو المعنى الذي يؤكد عليه الحديث النبوي الشريف: (**كل بني أم ينتمون إلى عصبتهم، إلا ولد فاطمة، فإني أنا أبوهم وعصبتهم**)[1]. والحال نحن نعرف أن الحسن والحسين عليهما السلام أبوهما الإمام علي عليه السلام، وإذا كان كذلك، فالنبي صلى الله عليه وآله لا يريد أن ينفي بنوتهما لعلي عليه السلام، ولكنه يريد أن يقول للمسلمين إن الحسن والحسين هما امتدادٌ لحمل الرسالة. وهذا هو المعنى التربوي، الذي يفتح لنا آفاقاً كبيرة في التعامل مع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، فكأن رسالة الإسلام قدمت للإنسانية ثمرة من الثمار، وأرادت من الناس أن يعتبروا هذه الثمرة هي محور الحياة، وهذه الثمرة هي عبارة عن مبادئ السماء، مبادئ السماء إذا كان فيها إنسان امتداداً لآخر تكمن فيها البنوة الحقيقية. وحتى يكون المعنى قريباً إلى ذهن القارئ، نأتي بهذه الحكاية يقال: أن الإسكندر ذو القرنين كان أستاذه ارسطاطليس، وكان هذا الرجل إذا دخل عليه أستاذه يحترمه احتراماً لا حدود له، وإذا دخل عليه أبوه يحترمه أيضاً، إلا أن احترامه لأبيه أقل من احترامه لأستاذه بمراتب ومراتب، مما أصبح هذا المعنى يلفت أنظار المرتادين إلى مجلسه، فقالوا له في ذلك، لماذا تحترم أباك بأقل من احترامك لأستاذك؟ - وكأنما هذه رسالة لأبنائنا الطلبة، كما أنها في نفس الوقت للآباء الذين يجعلون الزواج إشباعاً لغرائزهم فقط. موضع الشاهد فقال لهم: لأن أبي أخرجني إلى كون الفساد، بمعنى أن الأب كل ما في الأمر هو إشباع لذته، وقد تكونت أنا بعد ذلك، والذي كونني روحياً هو أستاذي، والواقع هو هكذا، لأن بعض الآباء وضيفته من الزواج كما قدمنا إشباع لذائذه فقط، وهذا المعنى يحاسبنا عليه القرآن

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ٢٢٨، وقد ورد هذا الحديث في كتب الحديث بصيغ مختلفة منها على سبيل المثال كما في تهذيب الكمال ج ١٩ ص ٤٨٣ قال: (**كل بني أم يتتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وأنا عصبتهم**) أما في معجم الرجال والحديث - ص ٢٣ قال: (**كل بني أم يتتمون إلى عصبتهم إلا ولد فاطمة الزهراء فأنا وليهم وأنا عصبتهم**) وهكذا في بقية الكتب صيغ مختلفة، إلا أن المغزى هو تبيين هذا الأمر المهم.

الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١).

فالإنسان قبل أن يقدم على الزواج عليه أن يهيء نفسه لتربية الأبناء، لأنه إذا لم يكن كذلك يصبح الإنسان هيكلاً خاوياً، تجره رياح المجتمع، ورياح المجتمع كثيراً ما تكون عنيفة، وإذا كانت كذلك يكون الأب في موقع المسؤولية، وفي موقع المعاتبة والمناقشة يوم القيامة، لأن الوظيفة ليست فقط وظيفة إفراز، فلو كان الأمر كذلك لما فضل الإنسان على بقية المخلوقات.

فالغرض أن الإسكندر قال: إن أبي أخرجني جسداً مثله، وإنني تكونت بعد ذلك، وهذا الجسد الذي أنا فيه آيل إلى الفساد. والواقع هكذا، لأن الجسد لا بد وأن يئول إلى الفساد، وأن يؤول إلى الانحلال مهما كانت قوته، ومهما كانت طاقته هو آيل إلى الفساد، فتجده خلال فترات قصيرة من العمر تتبدل قواه، وتنحني قامته المعتدلة، ويتجعد وجهه الجميل، - هذا إذا قدر له البقاء - وإذا لم يقدرله البقى ومات ونقل إلى القبر فلك أن تمر على ذلك الجسد بعد يومين أو ثلاثة من مواراته، فإنك ستجد ذلك الجسد بأي صورة من الصور المرعبة. الصورة التي يرسمها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول: (فلوا مثلتهم بعقلك أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك لرأيتهم وقد ارتسحت أسماعهم بالهوام فاستكت، واكتحلت أبصارهم بالتراب فخسفت، وتقطعت الألسنة في أفواههم بعد ذلاقتها، وهمدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها، وعاث في كل جارحة منهم جديد بلى، سمجها، وسهل طرق الآفة إليها، مستسلمات فلا أيد تدفع، ولا قلوب تجزع لرأيت أشجان قلوب، وأقذاء عيون. لهم في كل فظاعة صفة حال لا تنتقل، وغمرة لا تنجلي. وكم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون كان في الدنيا غذي ترف وربيب شرف...الخ)(٢). الواقع هو هكذا، إنك لو دخلت إلى القبر لوجدت ذلك الكيان بتلك الصورة، التي عبر عنها الشريف الرضي إذ يقول:

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) نهج البلاغة ج٢ ص ٢٠٨.

وجه كوجه البرق غاب وميضه صدر كصدر العظم فَلَّ نضاءه
حكم البلاء فيه فلو نظرت له أعداءه لرثت له أعداءه

ففي واقع الأمر أن الابن إذا لم يحصل على مربٍّ يوجهه، يكون بمثابة الفساد، فلهذا قال: أن أستاذي أخرجني إلى كون النور، وذلك لأنه بناني فكرياً وعلمياً وهدياً وخلقاً، فلهذا أعتبره هو أبي الحقيقي. والواقع هو هكذا، وهذا معنى الحديث النبوي الشريف: (يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة)[1]. ذلك لأنهما حملا مشعل الهداية والنور والعطاء الفكري إلى الأجيال على امتدادها. إذاً فالله تبارك وتعالى لا يريد أن ينفي كنعان من أبيه بالمعنى الدموي، ولكنه يريد أن ينفيه عنه مبدءاً وامتداداً، لأنه لم يحمل الرسالة التي جاء بها أبوه. انطلاقاً من هذا المعنى فالحسنان عليهما السلام أخذا من رسول الله صلى الله عليه وآله البنوة بالمعنيين، المعنى الأول وهي البنوة الدموية، لأنهما منحدران منه، والمعنى الثاني وهي البنوة الروحية، لأنهما يعتبران الامتداد الطبيعي له، ومن هنا كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحرص على تسميتهما له. قال صلى الله عليه وآله: (هذان ولداي إمامان قاما أو قعدا)[2]. وقال صلى الله عليه وآله: (هذان ولداي وديعتي عند المسلمين)[3]. وقال صلى الله عليه وآله: (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)[4]. إلى غير ذلك من العبارات التي تؤكد هذا المعنى، والتي نستوحي منها أنها تشير إلى أنهما يخلفانه في هداية الأمة، ولهذا حرص النبي صلى الله عليه وآله أتم الحرص على تربيتهما، وهذا المعنى قد يمر علينا في سياق الحديث، ونحن بصدد سيرة الإمام الحسن عليه أفضل الصلاة والسلام. الإمام الحسن عليه السلام ولد في السنة الثالثة من الهجرة النبوية، وذلك في ليلة النصف من شهر

(١) روضة الواعظين ص٣٥٣. مقطع من حديث وتتمته [ومن حقوق الآباء والأمهات أن يترحموا عليهم في الأوقات ليكون فيه أداء حقوقهم].
(٢) تذكرة الفقهاء (ط.ج) الحلي ج ٥ ص ٤٣٥، / ج ١ ص ٢٤٥، بداية المعارف في شرح عقائد الإمامية شرح ص ١٣٤.
(٣) عوالي اللئالي ج ٢ ص ٢٢٠، جامع أحاديث الشيعة السيد البروجردي ج ٦ ص ١١٦.
(٤) دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، الإرشاد ٢: ٣٠.

رمضان المبارك، وهو أول وليد جمع بين طرفي النبوة والإمامة، بمعنى أنه أول وليد للإمام علي عليه السلام من زوجته فاطمة عليها السلام، وبعد أن ولدته جاءت به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فتأمل في وجهه وحنكه بريقه، وسماه حسناً وعق عنه بكبشين أملحين. يقول المؤرخون: وأرضعته أم الفضل بلبن قثم، وقثم هو بن العباس، إلا أن الرواية طالما يقف المحققون عندها، حتى أن البعض منهم قال: إنه كلما حاول أن يهتدي إلى الأيدلوجي الكامن من ورائها لم يهتدي إلى نتيجة، وذلك حسب قوله أن الحقائق التاريخية، تستبعد أن يكون الحسن عليه السلام رضع من لبن أم الفضل، لأن قثم أكبر من الإمام الحسن عليه السلام سناً، فكيف يقال أنه رَضع معه، هذا أولاً. وثانياً: أن العباس بن عبد المطلب يذكر المؤرخون عنه رأيان، الرأي الأول: قالوا: أنه لم يهاجر إلى المدينة نهائياً. والرأي الثاني قالوا: إنه هاجر ولكن في السنة الثامنة من الهجرة، وكانت إقامته بمكة المكرمة وزوجته معه، والذي يؤيد أنه لم يهاجر هي المحاورة التي جرت بين الإمام موسى بن جعفر وبين هارون الرشيد، ذلك أن هارون الرشيد أرسل خلف الإمام موسى بن جعفر فأحضره إلى بغداد، وأخذ يحاججه في أمر الخلافة، وأول ما خاطبه به أن قال: يا موسى خليفتان في الأرض يجبى لهما الخراج ويطيعهما الناس؟ فقال له الإمام: إني أعيذك بالله أن تبوء بإثمي وإثمك، فتقبل الباطل من أعدائنا علينا، فقد علمت بأنه كذب علينا منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله؛ كأنما يقول نحن مازلنا أهل هذا البيت مكذوب علينا من الصدر الأول، لأن الإمام ما دعا إلى خلافة يوماً من الأيام أبداً، - لأن هذا الأمر لم يكن بالشيء لذي يحض باهتمام أهل البيت عليهم السلام، لأنهم عليهم السلام ما كانوا يرون الحكم بأنه مكسب، وإنما يرونه مسؤولية، فلما رد الإمام ما اتهمه به، قال: إن عندي أسئلة أريد أن أسألك بها. قال الإمام: سل. قال: ولكن بشرط. قال: ما هو؟ قال: أن تتركوا التقية التي عرفتم بها معاشر بني فاطمة. - والحقيقة - أن هذه النقطة وهي مسألة التقية قد ألقيت على عاتق الشيعة دون غيرهم، ومن المفترض أن كل المذاهب الإسلامية تقول بها بالإجماع، ولكن من يرجع إلى تاريخ الشيعة، يجد، أنهم تعرضوا للاضطهاد أكثر من غيرهم، فلهذا كانت في بعض الأحيان

حالات يضطرون فيها إلى تطبيق التقية أكثر من غيرهم. كما لا نشك أن بعض الروايات التي كانت دائماً تحمل على التقية، قد حصل إسرافٌ من قبل البعض في حملها، وإلا ليس هناك مذهب من المذاهب الإسلامية لا يقول بها، وفي وسع كل احد أن يرجع إلى تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(1). وذلك في تفاسير المسلمين عامة وبدون استثناء، فكلها تنص على تشريع التقية، وأحياناً البعض من علماء المسلمين يوجب الأخذ بها، وذلك في حالات معينة. إذاً فالمسالة يظهر أنهم ركزوا عليها، فلهذا هرون الرشيد قال للإمام عليه السلام: بشرط أن تترك التقية التي عرفتم بها. فرد عليه - بالمعنى - ذلك إذا أعطيتني أماناً في أن أتحاور معك بوضوح، أما إذا صار البناء في أن تستعمل معي السيف فلا، لأن الله عز وجل أمرني بحفظ نفسي وصيانة دمي، قال الرشيد: يا موسى أعيذك الأمان - ولكنه ما وفى - وهذا المعنى سيأتي - قال الرشيد: أخبرني لم ادعيتم أنكم ورثتم رسول الله من دوننا، ومن المفترض أن العم يحجب ابن العم، الم تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما توفي كان عمه العباس حياً، وجدكم أبو طالب متوفى، ومن المفترض أنكم أبناء عم، والعم رتبة مقدمة على ابن العم، فاللازم نحن نرث النبي لا أنتم، - وهذه النقطة موضع الشاهد - فرد عليه الإمام عليه السلام: - بالمعنى - إن هذا الكلام كله قد يأتي على نظرية العصبة، بمعنى إن هذا الكلام لم يرو فقط عندنا، أليس جدك عبد الله بن عباس يروي قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليٌ أقضاكم بعدي؟ قال: نعم. قال: فما هو معنى أقضاكم؟ قال: يعني أعلمكم بالحلال والحرام. قال: اعلم أن رأي علي بن أبي طالب ورأي أهل البيت أنه لا إرث لأحد مع وجود الولد الصلبي إلا للأبوين إن وجدا. بمعنى أن الطبقة الأولى هم الأولاد والآباء، فإذا وجدوا لا يشاركهم احد بالإرث، إذا وجد ولد صلبي فقط للأبوين لكلٍ منهما السدس، والباقي للولد. والنبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما توفي كانت ابنته فاطمة في قيد

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

الحياة. والولد أعم من أن يكون ذكراً أو أنثى، فابنته فاطمة موجودة، ونحن ورثنا رسول الله ﷺ من هذا الطريق. كما أن هناك شيء آخر قال: ما هو؟ قال: حتى لو بنينا على نظرية العصبة، الميراث ولاية، نوع من أنواع الولاية، فإذا توفرت توفر الميراث، وإذا لم تتوفر لا يتوفر الميراث. ثم قال: عمي العباس لا ولاية له معنا: قال: وكيف؟ قال الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]. وعمي العباس ممن أسلم ولم يهاجر فقطع الله بذلك ولايته عنا. تقول الرواية فأزبد وجه الرشيد. قال: يا موسى هل أفتيت أحداً من أعدائنا بهذه المسالة؟ قال: لا. قال: والله لأن خرجت من فمك ليفارقن رأسك بدنك[2]. وهذا التعبير من الرشيد يوضح لنا أن الرشيد لم يفِ وعده. نعود لما نحن فيه من ذكر الإمام الحسن عليه السلام، الإمام الحسن عليه السلام بعد أن ولد ارتضع من أمه فاطمة؛ وقد يكون أشرك في مرضعة أخرى، ولكنه لم يرتضع من لبن قثم، وذلك للسببين الذان ذكرناهما آنفاً. ترعرع الإمام الحسن عليه السلام في حجر جده رسول الله ﷺ في فترة يعدُّها المؤرخون بسبع سنوات، والذي يلفت النظر في هذه الفترة هو المعنى الذي احتج به المأمون على العلماء في بلاطه، وهو أن النبي ﷺ قبل بيعة الحسنين لما بايعه المسلمون، وكان عمر الحسن عليه السلام - وهو محل ترجمتنا - سبع سنين فقط، وعمر الحسين أقل من ذلك، ومن المعلوم أن البيعة عقد من العقود ومن المفترض أن العقد لا يتم إلا بين بالغين، فشرط من شروط صحة العقد البلوغ، فإذا كان كذلك، لماذا رسول الله قبل بيعة الحسنين؟ ولهذا نجد أن هذه المسألة قد تنبه إليها

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٢) قريب منه في عيون أخبار الرضا - الشيخ الصدوق - ج ٢ ص ٨٠، وقريب منه في بحار الأنوار ج ٤٨ ص ١٢٧. [وما ذكرناه عن الإمام فهو مضمون ما قاله الإمام وليس النص].

المأمون، فلهذا طلب منهم - أي من العلماء - تعليل ذلك، قال: عللوا إلى هذا الأمر الذي قام به رسول الله ﷺ بالنسبة إلى الحسن والحسين عليهما السلام لماذا قبل رسول الله البيعة من الحسن والحسين وهما طفلان؟ من هنا يستدل على أن كبر السن وصغر السن بالنسبة لهما ليس محل اعتبار، لأن الله عز وجل من الناحية الإدراكية وهبهما ذلك، وهذا المعنى بقليل من التأمل نستطيع أن نهتدي إليه؛ وإلا قد نسأل وهذا التاريخ بين أيدينا هل هناك مؤرخ قال بأن هؤلاء الأئمة الاثنا عشر درسوا على مدرس؟ واقعاً لا يوجد هذا المعنى في كتب المؤرخين، إذاً من أين حصلا على العلم؟ ومن المفترض لدينا أن طرق التحصيل إذا كانت طرق اعتيادية، الطرق الاعتيادية أن التلميذ فيها يجلس أمام المعلم، ويأخذ منه، فمن أين لهؤلاء العلم، وقد كانوا يُستفتون بآلاف المسائل؟ مثلاً الإمام الجواد عليه السلام كان يُستفتى بآلاف المسائل في مجلس واحد فيجيب عليها، فمن أين له ذلك العلم؟ وهذا التاريخ بين أيدينا، ونحن لا نختصر على تاريخ الشيعة، بل أن تاريخ المسلمين عامة يقول بذلك، لأنه لو اختصرنا على تاريخ الشيعة، فالقائل أن يقول إن هذا لون من ألوان المغالاة عندكم، لكن الأمر ليس كذلك، إنما تاريخ المسلمين عامة يقول بذلك، وهو تاريخ لا يمكن أن يتطرق إليه عامل من عوامل التضعضع، ومَن يتناوله هو من لا يعتقد بإمامتهم، فالسؤال هو من أين لهم هذا العلم؟ وإن كان هناك بعض المفارقات في تاريخ المسلمين، وهي أن البعض قد يعطي غير أهل البيت ما لا يعطي أهل البيت، ولكن لا يعنينا هذا الأمر، إنما يعنينا هو أن هذا المعنى قد يجرنا إلى الاعتراف بأن صغر السن وكبر السن بالنسبة إلى هؤلاء لا يعتبر شيئاً ذا بال. وإلا كيف أن رسول الله قبل البيعة منهما وهما طفلان؟. الغرض هو أن الإمام الحسن عليه السلام عاش مع جده رسول الله ﷺ، ثم انتقل بعد ذلك للحياة مع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وكان عليه السلام في حياة رسول الله لا يخاطب أباه أمير المؤمنين - يا أبة - وإنما كان يخاطب رسول الله ﷺ - يا أبة - وبعد أن توفي رسول الله ﷺ خاطب أباه - يا أبة. ولهذا البوصيري كان يخاطب النبي:

وبريحانتين طيبهما منك الذي أودعتهما الزهراء

كنت تؤويهما إليك كما آوت من الخط نقطتيها الياء[١]

فلقد كان رسول الله ﷺ يحرص على ضمهما إليه، يقول أسامة بن زيد: طرقت الباب على رسول الله ﷺ ذات ليلة من الليالي، وقد بدت لي حاجة، فخرج إلي وهو مشتمل على شيء، فأخذت أسأله وإذا بي أراه لم يكن مستقراً في وقوفه، فقلت له فدائك روحي يا رسول الله ما لي أراك هكذا؟ فكشف ﷺ الرداء فنظرت وإذا بالحسن على كتفه الأيمن، والحسين على كتفه الأيسر. قال: (**هذان ابناي، وابنا ابنتي، اللهم إنك تعلم أني أحبهما فأحبهما**)[٢] فكان يأبى أن يفارقهما حتى في حالة استقراره وراحته. إذاً فالإمام الحسن والحسين عليهما السلام عاشا السنين الأولى من حياتهما في حجر رسول الله ﷺ وبعد أن انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانا في حجر أبيهما أمير المؤمنين عليه السلام وبمجرد أن اشتد ساعديهما أدخلهما أمير المؤمنين في لهواة الحروب، وكأنه أراد أن لا يترك قناة من القنوات المشرفة إلا ويضعهما فيها، والجهاد من خير ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، ولكنه كان في بعض الفترات إذا نزلا إلى الحرب[٣]. يقول: (أملكوا عني هذا الغلام لا يهدني، فإنني أنفس بهذين - يعني الحسن والحسين عليهما السلام - لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ)[٤]. وهنا تبرز لنا حقيقة مني الحقائق، وهي حقيقة انتهاء الإمام الحسن عليه السلام إلى الصلح، وذلك لأن بعض الكتاب قد يغمز من طرف بعيد، بأن يقول أن المسألة كانت تتعلق بحبه للحياة، مثلاً، أو أنه لا يريد أن يعرض نفسه إلى قتل أو قتال، ولكن بوسعنا أن نسأل وأن

---

(١) أعيان الشيعة ج١ ص ٦٢٥.

(٢) قريب من هذا في موارد الظمآن - الهيثمي - ج ٧ ص ١٩٢. نص الحادثة بالسند المعنعن إلى أن قال أخبرني الحسن بن أسامة بن زيد عن أبيه قال: طرقت رسول الله ﷺ ذات ليلة لبعض الحاجة وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت من هذا الذي أنت مشتمل عليه؟ فكشف ﷺ فإذا حسن وحسين على فخذيه، فقال: (**هذان ابناي، وابنا ابنتي، اللهم إنك تعلم أني احبهما فأحبهما**).

(٣) قال عليه السلام في بعض أيام صفين وقد رأى الحسن عليه السلام يتشرع إلى الحرب.

(٤) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٨٦.

نستفسر متى امتنع الإمام الحسن عليه السلام عن حرب من الحروب؟ واقعاً أن الإمام الحسن وأخوه الإمام الحسين عليه السلام لم تخلو منهما ساحة من ساحات الحرب، فكانا يخوضان المعارك في كل الفتوحات، مثلاً كانا في فتح إفريقيا، وفتح أصفهان، وفتح قبرستان.... وهكذا، فقد اشترك الإمام الحسن عليه السلام في تلك الفتوحات، وكان عليه السلام يأخذ مركزاً قيادياً[1]. ومن بعد ذلك حروب أبيه أمير المؤمنين عليه السلام اشترك فيها، إذاً فالمنصف يرى أنه لم تكن هناك مسألة خوف أو حب للحياة عند الإمام الحسن إطلاقاً، ولا العامل الثاني وهو عامل الأموال الذي قد يتصور البعض أن الإمام الحسن من أجله صالح. الإمام الحسن خرج من أمواله لله تعالى ثلاث مرات، وشاطر الله بأمواله مرتين. ولهذا كان عليه السلام مَن يسأله حاجة لا يرجع إلا بها أو بميسور من القول، فكان عليه السلام يأبى أن يعود عنه من سأله إلا أن يأخذ ما طلب؛ بل أكثر من هذا، هو عليه السلام كان يبدأ بالعطاء قبل أن يُسأل، وهذا هو الدستور الذي وضعه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في أدبياته. يقول: (**السخاءُ ما كان ابتداءً؛ فأمَّا ما كان عن مسألةٍ فحياءٌ وتذممٌ**)[2]. كأن الإمام عليه السلام بهذا التعبير الدقيق يقول قبل أن يأتيك السائل ويطلب منك أن تعطيه، عليك أن تبدأه بالعطاء، لأنه إذا طلب منك أن تعطيه وأعطيته، أعتبر ذلك حياء وتذمم، معنى ذلك أنه باعك ماء وجهه، واشتريت منه ماء وجهه، فالجود هو أن تعطي قبل أن تُسأل وهو المعنى الذي أخذه محمود الوراق قال:

إني دعوت ندى الكرام فلم يجب فلا أشكرن ندى أجاب وما دعي
ومن العجائب والعجائب جمة شكرٌ بطيٌّ عن ندىً المتسرع[3]

إذاً نفهم من هذا المعنى لم يكن صلح الإمام الحسن عليه السلام بدافع أموال، ولا بدافع الحرص على الحياة، ولكنه صالح لأنه آمن بعقم المناجزة آنذاك،

---

(١) طبقات المحدثين بأصبهان (ابن حبان) ١: ١٩١، تاريخ جرجان: ٤٨.
(٢) نهج البلاغة: باب المختار من كلماته القصار ص٥٦١. [التذمم: الفرار من الذم، كالتأثم والتحرج].
(٣) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١٨ ص ١٨٤.

وآمن بأن القتال في تلك الفترة قد لا يعطي نتاج. وهنا لدينا سؤال آخر قد نسأله أيضاً نقول: إن هؤلاء الذين يحلو لهم أن ينظرون إلى الإمام الحسن عليه السلام بمنظار العصر الذي يعيشون فيه، هل أنهم عاشوا ذلك العصر؟ ذلك لأن الإنسان عندما يريد أن يؤرخ عصراً من العصور، يجب عليه أن يلبس تقاليد ذلك العصر، وأهداف ذلك العصر حتى يؤرخه - وهذا ما يسمونه بعملية الاستبطان الذاتي - فهل أنهم عاشوا ذلك ؟ الواقع كلا. لو أنهم عاشوا ذلك العصر لوجدوا أن هناك ملابسات وفوارق من خلالها اضطر الإمام الحسن عليه السلام إلى الصلح. **أولاً**: منها وعلى سبيل المثال أن معاوية رشحه الخليفة الثاني، وأطفى على شخصيته اعتباراً.

ثانياً: أن معاوية عليه شبهة قد اعترف بها البعض، وهي شبهة كاتب الوحي.

ثالثاً: أن معاوية عليه شبهة قتال الروم، لأن الروم كانوا آنذاك محتشدين على الحدود، والحدود الإسلامية معرضة لأن يعتدى عليها، فعندما اجتمعت هذه الأمور بأجمعها، والناس كلهم لم يكونوا متنبهين إلى هذه الشبهة، من هنا اضطر الإمام الحسن عليه السلام إلى الصلح، وذلك لإيمانه بعدم جدوى القتال. كما أن رواية الجهني تؤكد هذا المعنى قال عليه السلام: (والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً، فوالله لئن أسالمه وأنا عزيز، خير من أن يقتلني وأنا أسيره، أو يمن علي فتكون سبة على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يمن بها وعقبه على الحي منا والميت)[1] وذلك لأنه قد عرف مَن في الساحة من المتعاونين مع معاوية على تسليمه إلى معاوية، والإمام يعلم أن تسليمه إلى معاوية يحدث تغييراً في كلمة النبي التي خص بها أبا سفيان وأهله، وهي الكلمة المشهورة - اذهبوا فأنتم الطلقاء - فمعاوية قد لا يقتل الإمام إذا ظفر به، وإنما يمن بإطلاقه، فترجع تلك الكلمة

---

(١) منهاج الصالحين وحيد الخراساني - ج١ ص٣٣٧، بحار الأنوار ج ٤٤ ص ٢٠، قريب منه في الاحتجاج الطبرسي، ج٢ ص[illegible].

في أهل البيت، وهذا لا يرضاه الإمام الحسن لأهل البيت، إلى غير ذلك من الأمور. كما أن الشروط التي اشترطها الإمام الحسن على معاوية تبين حنكة الإمام الحسن وتبصره في الأمور، فهي شروط لا يمكن لأي أحد مهما كانت تجاربه أن يتنبه إليها، إلا أن معاوية وكما يعلم الجميع أنه ما وفى بها. إذاً ما وقف الإمام الحسن عليه السلام ليصالح من أجل حب للدنيا، ولا من أجل خوف من حرب، بل كان يلقي بنفسه في لهوات الحروب، ويرجع والدم قد كلل جسده الشريف، حتى نشأ بين ميادين متنوعة، وفي كل ميدانٍ له الباع الطويل، يقول عنه ابن كثير: كان الإمام الحسن عليه السلام إذا أصبح الصباح وصلى الفجر يبقى في محرابه إلى الضحى، فيأتي إليه سادة المسلمين يسألونه في مسائلهم وهو يجيبهم. ويقول عنه واصل ابن عطاء: كان عليه سيماء الأنبياء وبهاءُ الملوك. ويقول عنه ابن الزبير وهو من ألد أعدائه: والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي بن أبي طالب. يقول المؤرخون: كان ميدانه العلمي في المسجد المبارك، مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وحتى في عهد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام من قبل عندما تطرح على أبيه الأسئلة يحيل إليه كثيراً منها، فيجيب الإمام الحسن عليها، وكان يحمل بذلك علم جده رسول الله صلى الله عليه وآله وبعبارة أخرى كانت فتواه منبثقة كلها عما رسمه رسول الله. أما ميادين عبادته (صلوات الله وسلامه عليه) فمنها: أنه كان إذا وقف إلى الصلاة لا يتحرك منه إلا ما تحركه الريح، وقد حج خمس وعشرين حجة ماشياً والنجائب تقاد بين يديه، حتى جاء إليه سعد بن أبي وقاص فقال له: يابن رسول الله لقد أثقلت على الناس، فإما أن تبتعد عن الطريق العام أو أن تركب، فما كان من أمره عليه السلام إلا أن تنحى عن الطريق. أما ميادين أخلاقه فلا يستطيع أحد أن يصفها، فكان يمر بسكك المدينة ومن ورائه حشمه، فيتلقاه رجل ممن نشأ وترعرع على بغض أهل البيت عليهم السلام فيولع ذلك الرجل بشتم أمير المؤمنين قائلاً: أنت الحسن يقول الإمام: (بلى). قال: أنت ابن أبي تراب يقول: (بلى). فيولع بشتم أمير المؤمنين عليه السلام فيهب غلمانه من ورائه. يقول لهم الإمام عليه السلام: (على رسلكم دعوه). ثم يقول: (يا هذا أحسبك غريباً؟) قال: نعم. قال: (مل إلينا وعرج علينا ولا تدع، فإن

احتجت إلى منزل أنزلناك، وإن استأ ويتنا آويناك وإن احتجت إلى مال واسيناك، وإن ضعفت عن أمر عاوناك.....[١]. يقف ذلك الرجل منبهراً أمام ذلك الخلق العالي يقول: هذه والله شيمة أهل الدين وأخلاق أهل الدين أشهد أنكم حجج الله على خلقه ثم يلتفت ذلك الرجل إلى الإمام قائلاً: لقد دخلت المدينة وليس على وجه الأرض أحد أبغض إلي منك ومن أبيك، وسوف أخرج وليس أحد عليها أحب إلي منك ومن أبيك[٢]. ثم ينصرف الإمام وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٣]. هكذا نشأ عليه السلام وهكذا ترعرع في تلك الأجواء التي هي ثدي الإيمان وحجر الإسلام على حد تعبير جابر بن عبد الله الأنصاري، واقعاً هذه أجواء الرسالة أجواء النبوة أجواء الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله تلك الأجواء الطاهرة التي ما فارقها طيلة بقائها معه، طالما شاهد المسلمون رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يجمع يديه عليه وعلى أخيه الحسين عليه السلام ويولع في تقبيلهما، يقبل هذا مرة وهذا أخرى وإذا مر بباب فاطمة يطرق الباب فتخرجهما إليه وقد علقت في عنقيهما سخاباً وأبدلت أثوابهما فيحتضنهما رسول الله صلى الله عليه وآله ويقول: (هذان ريحانتاي من الدنيا، من أحبني فليحبهما[٤]. وها نحن في هذه الليلة المباركة التي ولد في صبيحتها نهنّئ ونبارك لأمة جده رسول الله صلى الله عليه وآله كما نخص بالتهاني العطرة صاحب العصر والزمان عليه وعلى آبائه وأجداده أزكى الصلاة والسلام. - مولاي ومولى الكونين ونور العينين يا أبا محمد.

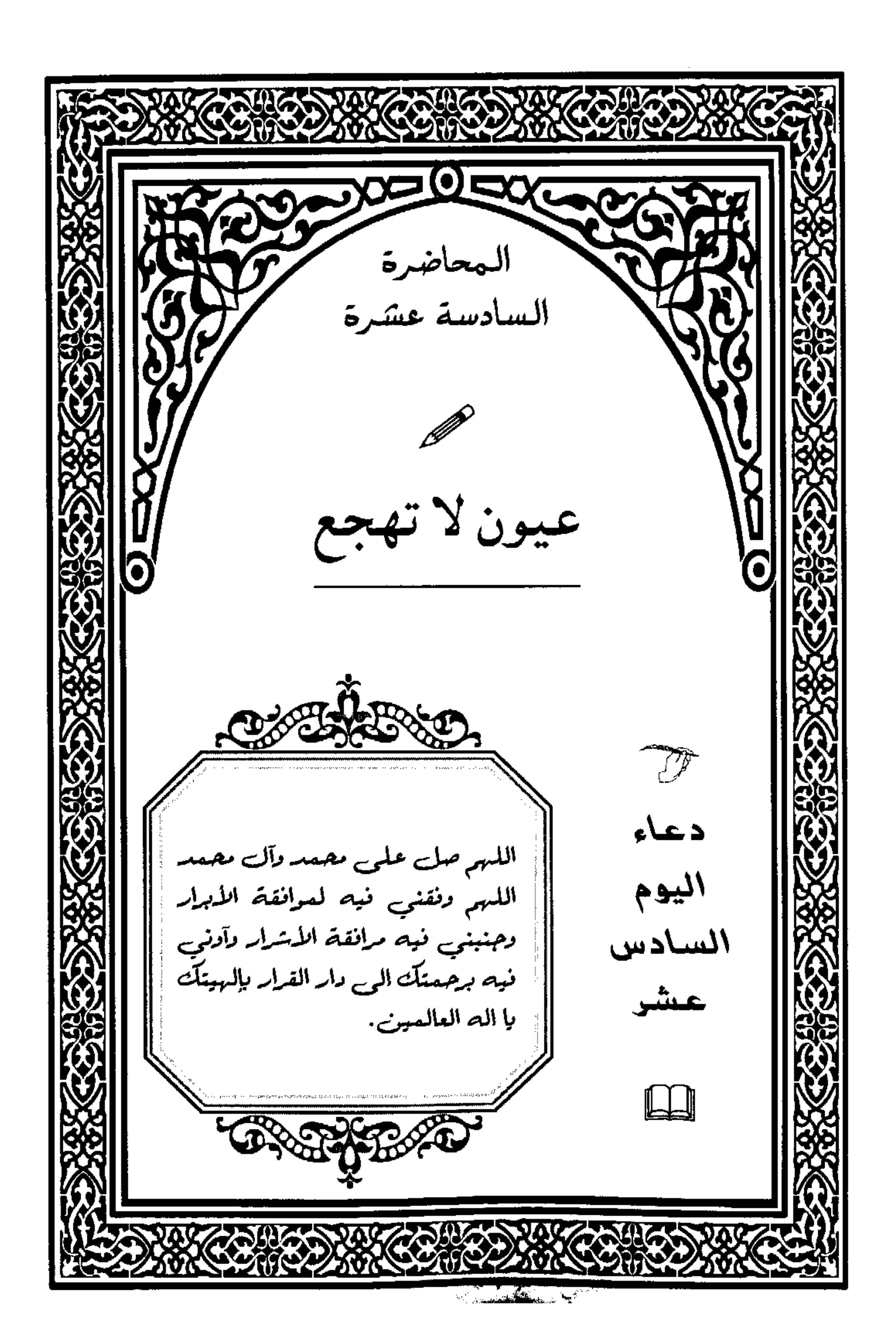
للزكي حسنٌ سبط طه مكرمات أعيا الورى إحصاها
فلتقصر عن مدحه شعرها حسن نجل حيدر مجتباها

---

(١) الأنساب - السمعاني ج ٣ هامش ص٤٧، وقريب منه في شرح إحقاق الحق السيد المرعشي - ج٢٨ ص ١٩٣.
(٢) الأنساب ٣: ٤٧، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤).
(٤) بحار الأنوار ج ٣٧ ص ٧٥

قد حوى كل ما حوت أنبياها بحر علم وحكمة ثم تقوى
كل من جاء يستقي منه يروى ولديه حلم من الطود أقوى
حلمه لو به يوازن رضوى لغدى رجحاً على رضواها





المحاضرة

السادسة عشرة

عيون لا تهجع

دعاء اليوم السادس عشر

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم وفقني فيه لموافقة الأبرار
وجنبني فيه مرافقة الأشرار وآوني
فيه برحمتك الى دار القرار بالهيتك
يا اله العالمين.

١٦

عيونٌ لا تهجع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾(١).

※※※

إن كثيراً من المفسرين قالوا: إن المعنيين في هذه الآية الكريمة هم جماعة من أصحاب النبي ﷺ. إلا أن من الأمور التي تستدعي الانتباه في القرآن الكريم، هو أن القرآن الكريم له أسلوبٌ خاص في التوجيه، وذلك أنه إذا أراد أن يوجه أمراً من الأمور يأتي به إما على نمط القصة، أو على نمط الحكاية، سواءً كان ذلك الأمر واجب، أو مستحب، وبهذا الأسلوب الشيق يُلفت أنظار الناس إلى أهميته والعمل به.

ومن خلال هذه المقدمة الوجيزة، نلج في أبعاد الآية الكريمة: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.

أولاً: (الهجوع) يقول العلماء، أن الهجوع هو عبارة عن النوم ليلاً(٢). وذلك لأن الله تبارك وتعالى صنف الوقت إلى صنفين: صنف قد جعله محراب للجسد، وصنف جعله محراب للروح، فمحراب الجسد هو النهار، لأن النهار ظرف يقع فيه العمل، وذلك أن الله تبارك وتعالى استعمر الإنسان في الأرض، أي أمره بإعمارها، وإعمارها لا يتم إلا بالعمل. كما حمله مسؤولية الأسرة، ومن ثَم يقول النبي الأكرم ﷺ: (ملعون من ألقى كله على

---

(١) سورة الداريات، الآية: ١٧.

(٢) انظر عمدة القارئ العيني - ج ٧ ص ١٩٦/ج ١٠ ص ١٠٣.

الناس[١] وكله يعني ثقله. يعني من عاش عيالاً على الناس وهو قادر على العمل. وقال الإمام الصادق عليه السلام: (الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله)[٢]. ذلك لأن الأب هو السبب المباشر في إخراج الأبناء، وذلك من خلال علاقته الزوجية، فالله تبارك وتعالى هو الخالق، والأب هو السبب المباشر، فبالتالي إذا لم يكدح ويعمل يصبح متخلٍّ عن المسؤولية، فلذلك تعبر عنه الرواية بأنه ملعون. إذاً فالنهار هو ظرف لعمل الجسد، كما وأن الليل هو ظرف للهجوع، بحيث يستعيد الإنسان فيه راحته، وبعبارة أخرى يستعيد فيه ما فقده من القوى خلال النهار. إلا في حالات معينة، ومن تلك الحالات التي يسوغ للإنسان أن يترك فيها الهجوع، هو أن يكون هناك هدف أكبر من ذلك. بعبارة أخرى إذا أردنا أن نخرج عن هذا التقسيم الذي وضعه الله تبارك وتعالى لليل والنهار، لا نخرج إلا لسبب. ولهذا هناك أسباب متعددة:

السبب الأول: هو أن البعض من الناس لا يهجع ليلاً، وذلك من أجل طلب العلم، حيث أنه يتخذ من الليل وسيلة، وذلك بالمثابرة على الاستزادة من المطالعة في الكتب، كما وأن الليل محاطاً بالهدوء والسكينة، ولهذا يكون الإنسان فيه بعيداً عن الضوضاء، ومن ثَم يكون الإنسان لديه قدرة على صفاء الذهن أكثر للاستفادة من العلوم.

حكاية: يقال أنه سُئل أحد طلبة العلم وقد كان شغوفاً بالمطالعة، لماذا لا نراك تسئم من المطالعة للمسائل ليلاً؟ ومَن دفعك إلى هذه المثابرة؟ فقال: لسائليه لقد أعطاني هذه المثابرة - أبو الجعل-. وأبو الجعل هو ذلك الطائر الأسود الذي يطير على الضياء إذا جن الليل. فقالوا له: وكيف ذلك؟ قال: لقد كنت في ليلة من الليالي أبحث عن مسألة من المسائل، وطال بي الوقت إلى ما بعد منتصف الليل، فعندها قررت أن أترك تلك المسألة، حيث أنني سئمت، وإذا بهذا الطائر قد أقبل، إلى أن وصل إلى ضياء بين يدي كنت

---

(١) جامع السعادات ج٢: ص٢٠.

(٢) المصدر السابق.

أستعين به على مطالعة الكتب، وقد أوقدتُ ذلك الضياء من الزيت السائل، وكانت منارة الضياء صيقلية، فأخذ يبحث عن مصدر ذلك الزيت أين هو؟ فأدرك أنه في داخل الضياء، فأخذ يحاول الوصول إلى داخله ليأخذ منه بغيته، فكان كلما حاول الصعود إلى أعلى الصيقلية يسقط، فكثرت منه المحاولات وأنا أنظر إليه، إلا أنه لم يسئم ولم ييأس، هكذا كنت أراقبه إلى أن طلع الفجر، وبعد طلوع الفجر وصل إلى بغيته، يقول: بهذه الصورة التي رأيتها منه، أعطاني دافعاً قوياً لأن أرجع إلى المسألة، فرجعت إليها وأخذت أبحث عنها إلى أن اهتديت إلى الدليل فيها، ومن ذلك الوقت ما كنت أعرف الكلل ولا السأم، فبهذا المعنى أصبح-أبو الجعل - أستاذي. فإذاً البعض يتخذ من الليل وسيلة للاستزادة من العلوم، لما فيه من بعد عن الضوضاء، وصفاء للذهن، فيترك الهجوع ويغتنم الوقت للمذاكرة والمراجعة، وذلك لأن طلب العلم تكميل للنفس.

كما وأن الإنسان لا يمكن له أن يخرج من الدنيا وقد حصل على العلم بأكمله، لأن العلم كما يقال: إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه، ولكن على الإنسان أن لا يخرج من هذه الدنيا إلا وعنده نصيب - أو رصيد - من العلم لا بأس به، لا أن يخرج من الدنيا وهو خال الذهن؛ لأنه يسأل يوم القيامة عن هذه الثروة التي أعطيت له - وهي ثروة العقل - في أي جانب وظفها، فمن الواجب عليه أن يستعملها في ما يعود عليه في تأصيل الجانب الأخلاقي والإنساني، ولكن - للأسف الشديد - قد يتصور البعض، أن العلم مقصور على ما يحقق له فائدة دنيوية فقط، فعندما يبحث عن علم، تراه يبحث عن علم يحقق له ما يصبو إليه في دار الدنيا، وذلك من منصب أو مكسب. أما أنه يتعلم مسألة أخلاقية أو فقهية فلا، وهذا التفكير فيه شيء من الخطأ، وإن كان كل العلوم مهمة، وتحتاجها الإنسانية، ولكن كل علم إذا لم يقترن بعلم الأخلاق، قد لا تكون فيه مصلحة للبشر، بل أنه يكون وبالاً عليها ومدمراً لها، وهذا ما نشاهده الآن. فالعلم الذي يدعم الإنسانية في رقيها يكون ذلك العلم مطلوب، بل أنه مستحب في نظر الشريعة الإسلامية ، وإذا انحصر في واحد فطلبه واجب، إلا أن العلم الذي يؤصّل الجانب الإنساني هو علم

الأخلاق، فهو الذي خدم الإنسانية على امتدادها الطويل، وذلك أن الإنسانية في الوقت الذي هي فيه محتاجة إلى المنجزات المادية، هي في حاجة إلى المنجزات المعنوية؛ وكمثال على ذلك نجد الآن البشرية تعيش في مجتمعات غنية بالعلم، فهي تستخدم أحدث وسائل النقل، وأحدث وسائل الأدوية مثلاً، وأحدث وسائل الأمور ذات العلاقة مثلاً بتنظيم شؤون البيت، . . . و، . . و وهكذا، كل الوسائل الحديثة ميسرة، ولكن في المقابل لديها صحراء من الأخلاق، تعيش في صحراء من الأخلاق، وذلك بأن يحصل الإنسان في الحياة، على يد إنسانٍ آخر يكون أميناً معه في المعاملة لا يوجد، أو أن هذا المعنى نادراً وقليل، وأن يحصل الفرد بين أفراد مجتمعه مَن يحفظ له كرامته، فهذا المعنى أيضاً نادراً أو قليل، وهكذا . . . . الخ، فإذاً الصحة النفسية إذا لم تحصل، فكل المنجزات الأخرى ليس لها اعتبار أبداً، والصحة النفسية تقوم على العامل الأخلاقي.

فعموماً نرجع إلى أصل الموضوع، فالبعض لا يهجع ليلاً لأنه يطلب علم من العلوم.

البعض تراه لا يهجع ليلاً لأن لديه هم يؤرقه، وهذا المعنى له أمثلة كثيرة، مثلاً البعض من المؤرخين يذكر أن عمر بن معدي كرب أسرت أخته - ريحانة، فلما أسرت لم يهدأ أبداً، ولهذا كان إذا جن عليه الليل يجلس متألماً يطيل الصمت، ثم ينبعث فيقول:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع[1]

فيمكث ليله متشوق إلى أخته، ثم ينفث لوعته في أبيات من الشعر، ومنها ما مر، وسبب ذلك هو شيء أهم من النوم، وهي مسألة حفظ الكرامة والعرض؛ أولاً عارٌ عليه وهو الرجل الشجاع بأن تؤسر أخته، مثلاً، إضافة إلى ذلك، أن الأسر قد يسبب له فضيحة، فلذلك كان لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً، لأن عنده ما هو أهم من النوم.

---

(١) بحار الأنوار ج ٤ ص ١٩١.

آخر يقول:

سكن الليل سوى من آهة ... لأبن من قلبه المنفطر
حومة من حول سجن مظلم ... يشتكي الضر به من ضرر
أي سجن إنه فيما به ... لعنة الدهر وعار البشر

صاحب هذه الأبيات هو أبٌ سجن ولده، فإذا جن عليه الليل تراه لا يهجع، وذلك لأن في مخيلته شيء أهم من النوم.

بينما آخرون لا يهجعون ليلاً وذلك خوفاً من الله عزّ وجلّ، فيتركون المنام والنوم ويقومون يلتمسون رضا الله عزّ وجلّ، فكأن الهجوع يرونه مسلكاً من مسلك الغافلين، أو طريقاً من طريق المطمئنين، حتى أن البعض منهم يقول: كيف لي أن أنام؟ أأنام وأنا مطمئن بأن الله عزّ وجلّ راضٍ عني؟ لماذا لا أجعل النفسي ما يصوغها، إذا جن علي الليل، وهو محراب أتعبد فيه إلى الله، في وقت لا يراني فيه أحد سواه؟

وهذا ما دأب عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام، يقول طاووس اليماني: تبعت الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد خرج في منتصف الليل، إلى أن وصل إلى الكعبة المكرمة، وطاف بالبيت سبعاً، ثم وقف للدعاء، يقول: فسمعته يدعو قائلاً: **إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك، وأبوابك مفتحات للسائلين، جئتك لتغفر لي وترحمني، وتريني وجه جدي محمد صلى الله عليه وآله في عرصات القيامة. ثم بكى، وقال: وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ أعصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى به علي فأنا الآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ فوا سوأتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط؟ ويلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما آن لي أن أستحي من ربي...** ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح ردية ... وما في الورى خلقاً جنى كجنايتي

ثم بكى وقال: . . . **سبحانك تعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعصَ تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم وأنت يا سيدي الغني عنهم. . .** ثم خر إلى الأرض ساجداً، فدنوت منه، وشلت رأسه ووضعته على ركبتي، وبكيت حتى جرت دموعي على خده، فاستوى جالساً وقال: . . . من ذا الذي أشغلني عن ذكر ربي؟ فقلت: أنا طاووس يا ابن رسول الله، ما هذا الجزع والفزع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جافون، أبوك الحسين بن علي، وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله ﷺ قال: فالتفت إلي وقال: . . . هيهات هيهات طاووس دع عني حديث أبي وأمي وجدي، خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشيا، وخلق الله النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً. أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح)[1].

فكان الإمام [سلام الله عليه] يأخذ وطراً كبيراً من الليل في العبادة، وفي الدعاء وفي المناجاة، وفي قراءة القرآن الكريم.

في واقع الأمر إن منتصف الليل هو جوٌّ إذا وظف للعبادة، يصوغ النفس صياغة متألقة، وذلك لأن العبادة هي عبارة عن صلة بين الإنسان وخالقه، فالصلاة هي لون من ألوان الاتصال بالله تعالى، والدعاء أيضاً كذلك، فلهذا ينقل عن بعض الصالحين أنه قال: (إذا أرت أن يكلمني الله قراءة القرآن، وإذا أرت أن أكلم الله تعالى صليت)، وذلك أن الشريعة الإسلامية ليس فيها حواجز تمنع العبد من ذلك، يقف العبد بين يدي خالقه ويدعوه. الحواجز نجدها في دار الدنيا.

حكاية: مما ينقل في كتب المؤرخين، أن الأصمعي كان ذات يوم في مجلس الرشيد، وكان معهما الفضل، إذ قد عطس الرشيد، يقول: الأصمعي فسمّته، فأجابني، إلا أني رأيت وجهه قد تغير، وحديثه معي قد تغير، كل ذلك بعد أن سمته، يقول: الأصمعي فلما أن خرجنا التفت إليّ الفضل قلت

---

(١) الصحيفة السجادية ص١٧٦.

له: أسألك؟ قال: سل. قلت: لماذا عندما عطس الرشيد وسمته تغير وجهه وحديثه معي، قال لي - وهذا موضع الشاهد - يا أصمعي الم تعلم إن الملوك لا يكلمون بهذه السهولة؟ قلت: وكيف؟ قال: اعلم أنه لابد من مقدمات، وهي أولاً يثنى عليهم، ثم بعد ذلك يُخاطبون، فخطؤك واضح، وهو مخاطبتك إياه مباشرةً بدون المقدمات، فإياك، إياك، أن تعد إلى مثل ذلك مرة أخرى.

بينما يقف العبد الخاشع يقول: (إلهي هبني لابتداء كرمك وسالف برك بي)[1]. رأساً يتجه إلى الله عز وجل ويغرف من ذلك العطاء الذي ليس له نهاية؛ على ما لله عز وجل من عظمة، ولكنه يُحب أن يسمع صوت عبده وهو يدعوه، ويُحب أن يطيل معه الخطاب، ولهذا تأتي الدعوة من الله لعباده. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[3]. فما هو الهدف؟ الهدف هو أن الإنسان ينبغي له أن يطيل الدعاء، ولهذا نحن نقرأ الأدعية المطولة لأهل البيت عليهم السلام مثلاً أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام أو أدعية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك الأدعية المنسوبة لأهل البيت عليهم السلام عامة، فنجد التطويل فيها، ولكن الواقع مضمونها وخلاصتها، كأنما تقول إني عبدٌ متجلببٌ بكل أقسام النقص، وأنت رب متحل بكل أسباب الكمال، أفض علي من جودك وكرمك إنك أنت الكريم الوهاب، فهذا هو الملخص في الدعاء. فإذاً التطويل في الدعاء، كأنما الله عز وجل بربد أن يسمع صوت عبده، ويحب أن يطيل المحادثة مع عبده، ومن ثَم يقول المفسرون وذلك عندما يأتون إلى قضية نبي الله موسى - على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام -

---

(١) فقرة من الدعاء الذي أملاه أمير المؤمنين عليه السلام على كميل بن زياد النخعي؛ تجده في كثير من الكتب.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

وذلك عندما سأله الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[(١)]. كأن يقول هذه عصاي فقط. إلا أنه قال: كما ذكر القرآن الكريم: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾[(٢)]. فما هو الغرض من هذا كله؟ قالوا: - أي المفسرون - أراد بذلك أن يطيل الحديث مع الله عز وجل، لكي يستمع إلى ذلك الصوت المنبعث من ساحة الجلال.

إذاً في وقع الأمر إن هذا الجو، وهو جو الصلاة، أو جو الدعاء ليلاً، إذا ما هجع فيه الإنسان، هو ما بين هاتين الحالتين، إما أن يكلم الله تعالى عن طريق الدعاء والصلاة، أو أن يكلم الله عن طريق تلاوته للقرآن الكريم. وهذا هو دأب الصالحين من عباد الله تبارك وتعالى، كما هو دأب الأئمة من أهل البيت عليهم السلام من قبل. فالإمام زين العابدين عليه السلام يجسد لنا هذا المعنى، والصحيفة السجادية خير شاهد على ذلك، ولهذا يقول المؤرخون: إن المار إذا مر على باب دار الإمام تُسمر قدماه إلى الأرض، لا يتعدى إلى أن ينتبه الإمام من قراءته للدعاء، وذلك لأنه يأخذه تكيف الإمام مع أجواء الدعاء، الإمام كان يتكيف مع أجواء الدعاء، الجو الذي فيه وعد، يكون الإمام فيه مملوءاً بالرجاء والرحمة من الله، أما إذا مرت عليه آية فيها وعيد فإنه يبكي وينتحب ويشهق من الوعيد.

إذاً فهؤلاء كانوا يتخذون من الليل محراباً، ولذلك يعبر عنهم القرآن الكريم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ يقول العلماء[(٣)]: إن (ما) التي وردت في الآية تسبق الليل وما بعدها بمصدر، فيكون معنى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا

---

(١) سورة طه، الآية: ١٧.

(٢) سورة طه، الآية: ١٨.

(٣) انظر مفتاح الفلاح - البهائي العاملي - هامش ص ٢٢٤ فإنه قال: وقد فسروا الهجوع بالنوم القليل وذكروا في لفظة (ما) وجوهاً أحدها أن تكون زائدة، الثاني والثالث أن تكون مصدرية أو موصولة أي كانوا قليلاً من الليل هجوعهم أو الذي يهجعون فيه وارتفاع المصدر أو الموصول بالفاعلية لقليلاً ولا يجوز أن تكون نافية لأن النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ولولا هذا لصح الحمل على النفي فتأمل.

﴿يَهْجَعُونَ﴾ أن هذه الشريحة المشار إليهم في الآية هجوعهم قليل جداً، وهذا هو رأي البعض من المفسرين. **الرأي الثاني**: أن معنى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ هو أن الآية تُقرأ هكذا، ﴿كَانُوا﴾ - وتقف - ﴿قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ تكون جملة أخرى، وذلك بمعنى أن الذين لا يهجعون بالليل قليل، يعني هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفة، في واقع الأمر هم مجموعة قليلة. لماذا؟ لأن البعض من الناس قد يصلي، وقد يقرأ القرآن، ويقرأ الدعاء، ولكنه لا يعي ما يقول، تقليداً يقرأ القرآن، فيختم له كذا ختمه، ويقرأ الدعاء، ويصلي كذا ركعة، ولكنه لا يعي أهمية ذلك العمل، بينما هناك شريحة من الناس وهم قليلون، إذا وقفوا بين يدي الله أخذتهم لذة القرب من الله، بحيث ينسون أنفسهم، ومن ثَم نجد بعض المحللين من المؤرخين يقول عن الصورة التي تروى من أن أمير المؤمنين عليه السلام كان إذا وقف إلى الصلاة تؤخذ من جسمه كسر السلاح، بأن هذه الصورة ليس فيها شيئاً من الافتعال، وذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يذوب في الله، ولا يشعر إلا بأنه جزء من العالم العلوي، فعند ذلك لا يشعر بالألم قط، فبهذا المعنى الكبير تكون الصلاة عن وعي، وهو المعنى الذي يقصده عليه السلام وذلك عندما سمع رجلاً من الحرورية[1] يتهجد[2] ويقرأ، فقال: (**نومٌ على يقين خيرٌ من صلاة في شك**)[3]. ضمن أنواع الدعاء يكون الداعي واعياً، يعرف الإنسان نسبته بين الخالق ونفسه، يعرف أنه العبد المسكين المستكين، الذي هو كله حاجة، ويعرف الله عزّ وجلّ، جبار السموات والأرضين، ويعرف الله الذي كل شيء تحت سلطانه وملكه، وهذا المعنى الذي ذكره الخيام في إحدى رباعياته:

ربي إن لم أجد في طاعاتك   فأنا بائس إلى رحمتك
وشفيعي إليك أني لم أشرك   ولو ساعة بوحدة ذاتك

---

(١) الحرورية - بفتح الحاء - الخوارج الذين خرجوا على علي بحروراء.
(٢) أي يصلي بالليل.
(٣) المصدر نهج البلاغة باب المختار من حكمه عليه السلام.

إذاً فمعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ يعني هؤلاء قُوّام الليل الذين كانوا يقومون إلى العبادة هم قليلون جداً، أمّا الأعم الأغلب فيأخذه النوم، نوم الغفلة، أو أنه يقضي الليل بما يبعده عن الله، بما يجعله في محراب الشيطان، ورحم الله أبا فراس عندما كان يُقارن بين بيوت آل علي وبيوتِ غيرهم يقول:

ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم ... ولا يرى لهم قرد له حشم
الركن والبيت والأستار منزلهم ... وزمزم والصفا والحجر والحرم[1]

نعم تلك البيوت التي كانت عامرة بذكر الله تعالى، إذا مر عليه المار يسمع فيها تلك النبرات الواعية، والمتدفقة بالخضوع إلى الله تعالى، والطالبة من الله عزّوجلّ .

إذاً الآية كانت تمدح هؤلاء بأنهم كانوا على هذا النسق، ولا غرابة في ذلك، فإنها شريحة قد رباها النبي الأكرم ﷺ بالإيمان والتقوى، وزرع في قلوبها المحبة والأنس بالعبادة، ولهذه الشريحة نظائر كثيرة في التاريخ الإسلامي، وأبرزهم مَن حضر يوم الطف مع الإمام الحسين عليه السلام ، فلقد باتوا ليلة العاشر من المحرم ولهم دويٌّ كذويِّ النحل بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، وبين تال للقرآن، إلى أن أصبح عليهم صباح يوم العاشر، وإذا بهم يتقدمون للدفاع عن الحسين وأهل بيته، إلى أن صرعوا على بوغاء كربلاء، فلما نظر إليهم أبيُّ الضيم تناثرت دموعه على خديه، فأخذ يخاطبهم فلما لم يَرَ منهم مجيب رجع إلى مخيمه.

رد ابن حيدر للمخيم يكفكف دمعته
وقف ما بين الخيم عزمه يودع نسوته
يصيح يا زينب ابها النسوة واليتام اطلعي
وبالعجل يمخدره مني تعالي اتودعي

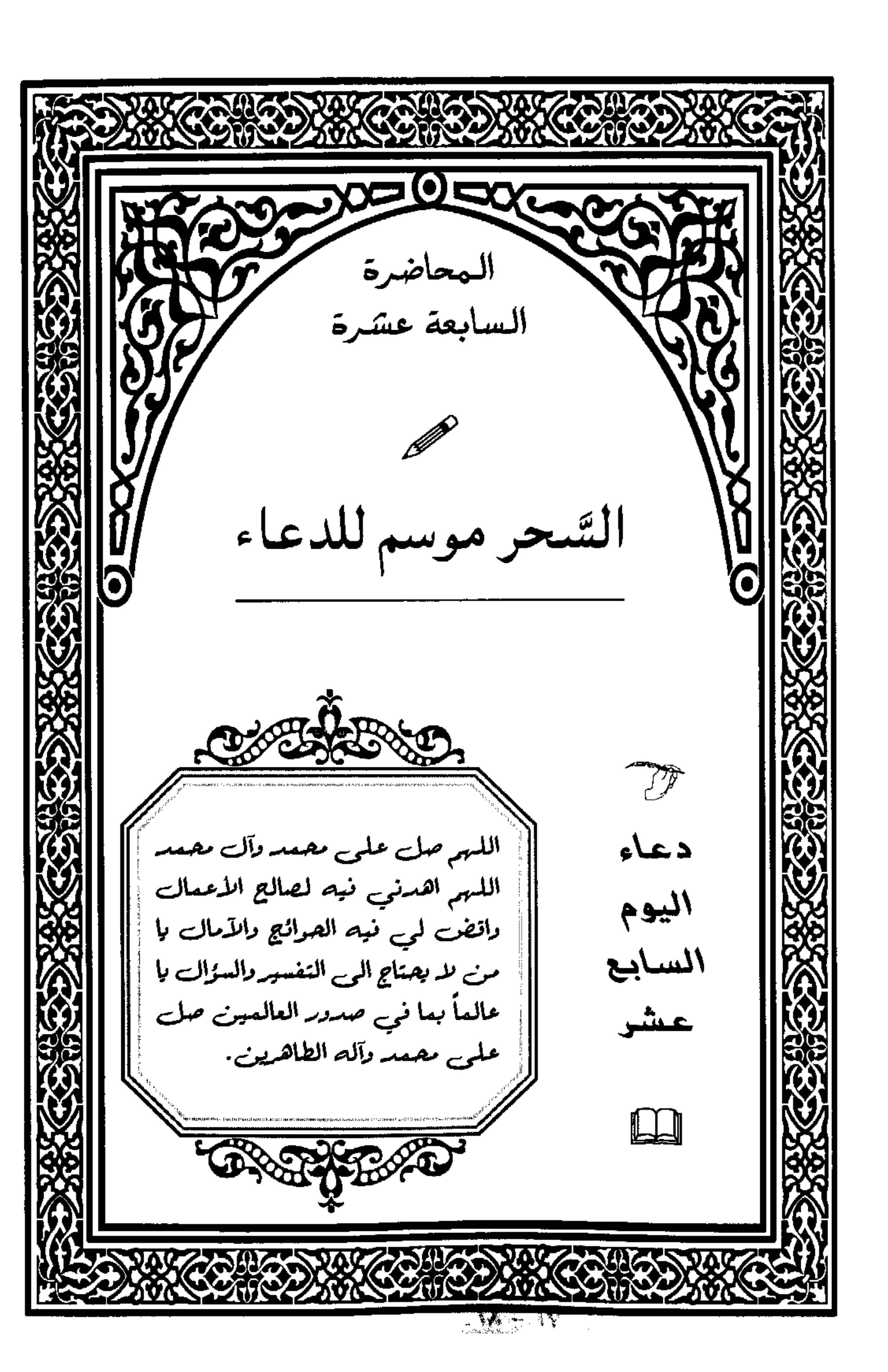
---

(١) مواقف الشيعة ج ٣، ص ٢٩٤، أعيان الشيعة ج ٤، ص ٣٤٢.

وقربي ليه الجواد وشيعيني المصرعي
طلعت اتقود المهر والجبد منها مفتته
نادته يانور عيني شفت مثلي بالدهر
للمنية ماشي ابن مي وأقدم له المهر
قلبي مقاسي مصابي يا الولي تفت الصخر
خرت تودعه وبالمنحر يويلي شمته
فتح باعه للوديعة وضمها ضم الوداع
صاح خوي وداعة الله وقلبها الذايب ارتاع
غدت مدهوشه تضمه الصدرها والراي ضاع
نادت اليوم الدهر يحسين شملي شتته
قال شفتي ياعزيزه مثل خيج بالملا
ذبحت أنصاره طبق حتى الطفل ما ظل اله
وينظر أولاده وأخوته بالتراب مجدلة
والحرب شبت لظى والعطش مض بمهجته[1]



(١) الجمرات الودية ص٣٢٩.


المحاضرة
السابعة عشرة
السَّحر موسم للدعاء
دعاء
اليوم
السابع
عشر
اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم اهدني فيه لصالح الأعمال
واقض لي فيه الحوائج والآمال يا
من لا يحتاج الى التفسير والسؤال يا
عالماً بما في صدور العالمين صل
على محمد وآله الطاهرين.

١٧

السحر موسم للدعاء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾(١).

❋❋❋

هاتان الآيتان سبق وأن ذكرنا - في المجلس السابق - أنهما نزلتا في جماعة من أصحاب النبي ﷺ، وذلك لأنهم كانوا قليلي الهجوع ليلاً، وسبب ذلك هو شوقهم إلى الله تبارك وتعالى، لهذا أصبحوا لا يهجعون لأنهم كانوا مأنوسين بالعبادة، ومن ثَم عبرت عنهم الآية الكريمة بأن قالت: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾. ثم وصفتهم الآية الثانية بصفة أخرى فقالت: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. والسؤال هنا لماذا خصت الآية هذا الوقت وهو وقت السحر بالاستغفار، علماً بأن هذه الصفة كانوا ملازمين لها في كثير من الأوقات؟ هناك أقوال كثيرة عند العلماء.

الأول قالوا: إن المقصود بالاستغفار هنا من باب تسمية الشيء باسم بعض أجزائه، وذلك أن المقصود منه الصلاة؛ لأن الصلاة جزءٌ من محتوياتها الاستغفار، فكأن ذلك الوقت وهو وقت السحر يجعلونه موسماً يستحصدون فيه المغفرة من الله تبارك وتعالى. فكما أن البعض من الناس لديهم مواسم؛ كالفلاح مثلاً فإنه يأتي عليه وقت يستحصد فيه البسر، ويأتي عليه وقت آخر يستحصد فيه ثمرة معينة من الثمار، ويأتي عليه وقت يضع البذرة في

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان.

الأرض،... وهكذا. كذلك هؤلاء لهم وقت يستحصدون فيه المغفرة من الله وهو وقت السحر. فكأن الله عزوجل في هذا الوقت بالذات من السحر يغدق فيه رحماته على عباده، فيأتي الصوت من الحضرة القدسية: **هل من مستغفر فأغفر له، هل من طالب حاجة فأقضيها له، هل من، هل من، هل من...**(١)

المعنى الذي يشير إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لأصحابه حيث قال: (من كانت له إلى الله حاجة فليطلبها في ثلاث ساعات من يوم الجمعة: ساعة الزوال حين تهب الريح وتفتح أبواب السماء وتنزل الرحمة وتصوت الطير، وساعة في آخر الليل عند طلوع الفجر، فإن ملكين يناديان: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فيعطى؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ هل من طالب حاجة؟، فأجيبوا داعي الله)(٢). بمعنى أن الله عزوجل يفتح أبواب خزائنه للسائلين وهو (الذي لا تنقضي خزائنه ولا تزيده كثرة العطاء إلا كرماً وجود، إنه هو العزيز الوهاب)(٣). ولهذا نسأله تعالى أن لا يحرمنا من رحمته، وأن لا يحرمنا من عطائه.

إذاً قوله: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أن السحر أولاً هو وقت لاستحصال المغفرة.

---

(١) عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في حديث طويل أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن الله تبارك وتعالى يُنْزل ملكاً إلى سماء الدنيا كل ليلة في الثلث الأخير وليلة الجمعة في أول الليل ويأمره فينادي: هل من سائل فأعطيه، هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، يا طالب الخير أقبل ويا طالب الشر أقصر فلا يزال ينادي بهذا حتى يطلع الفجر فإذا طلع الفجر عاد إلى محله من ملكوت السماء حدثني بذلك أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وآله) [المصدر الحدائق الناضرة المحقق البحراني ج ٩ ص ٣٥١، منتهى المطلب العلامة الحلي ج ١ ص ٣١٦].

(٢) من آداب أمير المؤمنين عليه السلام لأصحابه [وهي أربعمائة باب للدين والدنيا] أقتطعنا هذا المقطع. [المصدر تحف العقول ص: ٧٥].

(٣) هذا المقطع من دعاء الافتتاح، ضياء الصالحين ص ٤٨.

وثانياً: قالوا: إن وقت السحر هو وقتٌ يكون الإنسان فيه بعيداً عن الرياء، وذلك لأن أكثروا الناس نيامٌ فيه، فعندما يكون الإنسان لوحده، يحصل منه التوجه إلى الله عزّ وجلّ، أكثر ما لو كان معه آخرين، فحينها يخلص لله في العبادة.

ولهذا يقول الفقهاء يستحب للإنسان أن يذهب إلى المسجد لتأدية الصلاة، ويؤكدون ذلك في صلاة الجماعة، حتى وردت روايات كثيرة في ذلك، ولكن كل هذا إذا لم يداخل الإنسان الرياء. أما إذا كان ممن يداخله الرياء فيستحسن له أن يصلي في بيته، كما أن الفقهاء يرون أن صلاة النافلة في البيت أفضل من أن يؤتى بها في المسجد، اعتماداً على روايات قد وردت في ذلك منها بالسند المتصل عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **(يا أبا ذر إن الصلاة النافلة تفضل في السر على العلانية كفضل الفريضة على النافلة)**[1] كل ذلك بلحاظ أن لا يداخل الإنسان في عبادته الرياء. ذلك لأن الرياء مبطل للعمل. فهؤلاء الذين وصفتهم الآية بهذه الصفة وقالت: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ذلك لأنهم يُصلون وهم بعيدين عن الرياء.

ثالثاً: قالوا: إن السحر وقت من أوقات استجابة الدعاء، بمعنى أن دعاء المتضرع تكون الاستجابة له أكثر في وقت السحر[2]. فدعاء الإنسان عند السحر قريباً من أن يكون مقبولاً عند الله عزّ وجلّ، وقريباً أن الله تعالى يمن على الإنسان الذي يدعو في ذلك الوقت بالاستجابة.

حكاية: يذكر أنه لما أن جاء المعتصم العباسي بالأتراك، وأرد أن يقهر مَن حوله من الناس، أمرهم أن يمرون بالضعفاء فيسحبونهم ويؤذونهم، فطبقوا هذا المعنى، إلى أن ضج الناس من جورهم، إلا أنهم لم يستطيعوا أن

---

(١) مستدرك الوسائل الميرزا النوري ج ١ ص ١١٦.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (خير وقت دعوتم الله فيه الأسحار، وتلا هذه الآية في قول يعقوب عليه السلام ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ وقال أخرهم إلى السحر) [تفسير نور الثقلين ج٢ ص ٤٢٢].

يقابلوهم أو يقابلوا المعتصم بشيء أبداً، إلا شخصاً واحداً فإنه وقف على قارعة الطريق، فعندما مر موكب المعتصم اعترضه قائلاً له يا هذا انتقل بجيشك عنا وإلا حاربناك، يقول المؤرخون: وما كان المعتصم يتوقع أن يسمع هذه الكلمة في يوم من الأيام من أحد، فلهذا التفت إليه قائلاً له: بماذا تحاربني؟ إن مثلك لا يمتلك جيشاً يقاتلني به، قال: بلى إنا لنمتلك، ولكن لا حيث تضن، إنما نحاربك بدعاء السحر[1]. إذا صار وقت السحر ندع الله تعالى عليك، ودعاء السحر يحول إلى سهم يقع في عنق الظالم، وأنت أحد الظالمين. وهنا قد يقول البعض: لقد كان عندنا كثيراً من الظلمة، وقد دعونا عليهم في أوقات السحر وفي أوقات أخرى، ولكن لم تحصل لنا الاستجابة. فلماذا؟

أولاً: على الإنسان أن يرجع إلى نفسه، فيرى هل أنه ظالم لها أم لا، فلعل الإنسان الذي يدعو على غيره هو أظلم لنفسه من غيرها.

وثانياً: لعل الله تعالى يريد أن يؤدب عباده، لأن الظالم إما ينتقم به أو ينتقم منه. وخير شاهد على ذلك الحكاية التي تروى: وهي أن جعفر بن يحيى البرمكي كان ذات يوم في بيته، إذ دخل عليه مسرور الكبير، فقال له: أجب الخليفة، فقال له جعفر: وما عنده، وقد كنت آنفاً جئت من عنده؟ فقال: لا أعلم، إنما أمرني أن أدعوك إليه، تقول الرواية: فخرج معه، إلى أن قربا من قصر الرشيد، فلما قربا من باب القصر عصب عينيه، ثم قال له: مد عنقك قال: ويحك ما الخبر؟ قال: إنه أمرني بضرب عنقك، فقتله وحمل رأسه ودخل به على الرشيد ووضعه بين يديه. فلما نظره الرشيد قال: الحمد لله، قتلته، قال: نعم. قال الرشيد: ولكني لا أستطيع أن أنظر إلى قاتل جعفر، اطرحوا مسرور واضربوا عنقه، فقتل مسرور. فإذاً الله عزوجل يؤدب عباده ببعض الظلمة، ثم يقتل أولائك الظلمة، بمعنى أن الله عزوجل يضع لبعض العباد طرقاً للتأديب، ومن جملة هذه الطرق أن يؤدبهم ببعض الظالمين،

---

(١) قريب منه انظر معجم البلدان - الحموي - ج ٣ ص ١٧٥.

وذلك بظلمهم قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[1]. فبسبب ظلمهم أحياناً يحرمون، وأحياناً يقتلون. فالمهم أن دعاء السحر هو وقت من الأوقات التي تكون مضنة لاستجابة الدعاء. فلذلك الآية قالت: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

ومن هذا المنطلق يأتي السؤال وهو هل أن الاستغفار - وهو طلب المغفرة - يكون فقط للإنسان نفسه، أو ينبغي للفرد المؤمن أن يستغفر لغيره؟ واقعاً القرآن الكريم علمنا أيضاً أن نستغفر لغيرنا في عدة آيات، منها كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾[3]. إذاً ينبغي للفرد المؤمن أن يستغفر لأبويه، وذلك من خلال منطوق الآية[4]. ولكن قد يقول قائل لماذا نضع هذا العنصر الأجنبي وهما الأبوان في هذه الساحة المتمخضة بين العبد وربه؟ الجواب: واقعاً أن هناك جهات مناسبة بين الله عزّوجلّ وبين الأبوين، كما أن الأبوان لهما حقوقٌ كثيرة على الابن، فلابد وأن تراعى هذه الحقوق.

أولاً: لأنهما السبب المباشر في إخراجه إلى الدنيا، فالله عزّوجلّ هو الخالق ويُدعى الخلاق، والوالدان هما السبب المباشر بالخلق، وهذا الأمر واضح من أن الله تعالى أجرى عادته أن يخرج الولد عن طريق اجتماع الأبوين، الله تبارك وتعالى هو الخالق، ولكنه خالق بالسبب الطبيعي، والأسباب الطبيعية أمرنا على أن نرعاها، فكما أن التربة والماء والهواء سبب طبيعي بالنسبة

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٠.
(٢) سورة إبراهيم عليه السلام، الآية: ٤١.
(٣) سورة نوح، الآية: ٢٨.
(٤) روى الدرقطني أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله: فقال: كان لي أبوان أبرهما حال حياتهما، فكيف لي ببرهما بعد موتهما؟ فقال صلى الله عليه وآله: إن من البر بعد الموت أن تصلَّ لهما مع صلاتك وأن تصوم لهما مع صومك. حاشية رد المختار ج ٢، ص ٦٥٦، فقه السنة ج ١، ص ٥٦٩، سبل السلام ص ٩٠.

للزرع، كذلك الأبوان هما السبب بالنسبة إلى وجود الإنسان في الدنيا، ولوجود هذا المعنى الله عزّ وجلّ أمرنا بأن نستغفر للوالدين كما نسأله الله تعالى بالغفران لنا.

ثانياً: إن رحمة الوالدين من ناحية تشبه رحمة الله، - وذلك بعدم الانقطاع مع المعصية - ولهذا لدينا كائن[1] من الناس يبارزون الله تبارك وتعالى بالمعصية، إن في المجتمع مجاميع كبيرة إذا أصبح عليها الصباح بارزة الله عزّ وجلّ بالمعصية، ولكن الله - مع ذلك - لا يقطع الرزق عنهم، ولم يقطع العمر والعافية عنهم. ولهذا نحن نعتبر أن مَن يحارب إنسان برزقه يعتبر خسيس، وذلك من المفترض أن النبل يقتضي أن موضوع الرزق له علاقة بذمة الإنسان، فلا يحارب الإنسان برزقه أبداً، ولهذا الباري عزّ وجلّ لم يقطع عطائه عن الكافرين، ولم يقطع عطائه عن الفاسقين، ولم يقطع عطائه عن المنافقين.... ولم ، ولم. كذلك الذين حملوا رسالة السماء وهم الأنبياء والأوصياء لم يقطعوا عطائهم عمن كان يحاربهم، فلهذا التاريخ يحدثنا عن جماعة من المنافقين عاشوا في عصر النبي ﷺ وكانوا يؤذون النبي ﷺ ومن معه، ولكن ما كان النبي يمنع عنهم العطاء أبداً، بل العكس كان الرسول ﷺ يوصل إليهم العطاء، بل كان بنفسه يغشاهم في مجالسهم، وعندما يسمع منهم الكلمات النابية يتحملها ولا يقابلهم بشيء من الإساءة على ما فعلوه معه، وحتى من دحرجوا له الدباب وأرادوا قتله، كان يرسل إليهم العطاء.

كذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، كانت جماعة كثيرة من الناس يعيشون تحت كنفه، وقد كانوا يتقربون إلى الله بعدائه وبشتمه، بينما كان يتقرب إلى الله بإيصال الخير إليهم ، فبمقدار ما كانوا يؤذونه كان عليه السلام يعطيهم، وبمقدار ما كانوا يسيئون إليه كان عليه السلام يحسن إليهم، وبمقدار ما كانوا يلتمسون إليه العثرات كان يلتمس لهم الرحمة والشفقة. فلهذا كانت جماعة

(١) كائن بمعنى كم.

من الناس تعيش في ظله وهم يتقربون إلى الله بشتمه؛ كسلمان بن ثمامة بن شرحبيل بن الأصهب الجعفي حيث أنه كان قد اعتزل القتال مع أمير المؤمنين عليه السلام هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقة، فكان عليه السلام يرسل إليهم عطاءهم ويقول: (لا نمنعكم حقكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا[١]. ومثل عبد الله بن الكوّاء والأشعث بن قيس، بل حتى ابن ملجم الذي أخبره رسول الله صلى الله عليه وآله أنه سيقتله[٢]، كان يوصل عطاءه إليه. وهكذا كان عليه السلام يوصل عطاءه إلى بيوت تظن أنها تتقرب إلى الله بشتمه، وهذا تطبيق حيّ لما رسمه الله تعالى له من خلق نبيل وعالٍ، وقد جرى عليه كل الأنبياء والأئمة عليهم السلام؛ لأنه الخُلق الذي أراده الله لنا.

وكذلك أبنائه عليهم السلام، ولا يذهب عنا بعيداً ما قام به الإمام زين العابدين عليه السلام بعد واقعة الحرة. حيث أن المدينة انتفضت على الأمويين وقاتلوهم إلى أن أخرجوا الكثير منهم، وكان موقف الإمام زين العابدين في هذه المرحلة الحرجة على الأمويين أنه أمر أبنائه وغلمانه بعدم التعرض إلى الأمويين بسوء، بل جند أبنائه وغلمانه للدفاع عنهم، فإذا جن الليل يكونوا حراساً لهم، وكانوا يوصلون العطاء إلى بيوتهم، فقد عال الإمام أربع مائة بيت في المدينة ممن كانوا يبغضونه، فقد روى المؤرخون أنه كان الإمام يوصل العطاء إلى بيت مروان بن الحكم، وإلى بيت يزيد بن معاوية. وهذه صفة من صفات السماء حملها الأنبياء واستشعرها أبناء الأنبياء. إذاً الله عز وجل لا يقطع عطائه عن العبد، وإن كان العبد يقابل الله بالمعصية، والأبوان أيضاً لا يقطعان عطائهما عن الولد وإن قابلهم بالمعصية.

ثالثاً: الله عز وجل يعطي ولا ينتظر الجزاء قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا

---

(١) الإصابة ٣: ١١٦/ ٣٣٦٤.

(٢) كمال الدين: ٨٢، مسند أحمد١: ١٠٢، بغية الباحث: ٢٩٦، الآحاد والمثاني ١: ١٤٥، أسد الغابة ٥: ٢٧٣، ولم تشر لاسمه، غير أنه عليه السلام كان يعرفه باسمه ورسمه، انظر: الإرشاد ١: ١٣، تذكرة الخواص: ١٨٦.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٧.

دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]. فتلك الذبائح التي تنحر، الله عزّ وجلّ لا ينتفع بدمائها ولا بلحومها ولكن يناله التقوى منكم، فإنه فقط يريد منكم أن تكونوا متقين متبعين لأوامره تعالى، وهذا الإتباع ترجع فوائده إليكم، أي للإنسان نفسه، وإلا ما معنى أنك تقدم ذبيحة، ماذا تنتفع منها السماء؟ فالله لا يريد جزاءً من العبد، والأبوان أيضاً لا يريدان جزاءً من الولد. فهل رأيت من الآباء مَن لا يعمل لولده الخير إلا بعد أن يأمل أو يضن أن ولده سيكافؤه بالمثل؟؟ إن هذا المعنى غير متصوراً على الإطلاق. فلذلك أمرنا الله عزّ وجلّ بالاستغفار للأبوين، أمرنا أن لا نحجب عطائنا عن الأبوين حيين كانا أو ميتين، ففي الحياة الدنيا أمرنا أن نوصلهما بالبر المادي والمعنوي، ومن بعد موتهما أمرنا أن نصلهما بالبر المعنوي، والبر المعنوي له طرقٌ كثيرة، منها أن نستغفر لهما، وأن نوصل لهما ثواب قراءة القرآن، وأن نوصل لهما ثواب صلاة نصليها، أو ثواب صدقة نتصدق بها، أو أو . . . إلى آخره من سبل الخير، ولهذا ورد أن إكرام صديقهما بر لهما، كذلك الوقوف على قبرهما وتلاوة آيات من القرآن يعتبر بر لهما. . . . إلخ.

وهنا نقطة أثارها الفقهاء، وهي أنهم قالوا: هل أن هذا الأمر الوارد في القرآن الكريم بالنسبة للاستغفار يقتضي الدوام؟ لأن هذه المسألة تتعلق بقاعدة أصولية، بمعنى أنه إذا جاء الأمر في القرآن الكريم، هل أن هذا الأمر ينحل، أو أنه يبقى دائماً يتكرر، بمعنى أنه يكفي أن الإنسان يطبقه مرة واحدة؟ أو لا، بل أنه يبقى يتكرر؟ قالوا: - أي العلماء - يكفي أن يطبقه مرة واحدة، ولكن إذا استمر عنده دافع البر وبقي يكرر ذلك، ذاك شيء آخر. كأن القرآن الكريم ينبه عندنا غريزة الحنو بالنسبة إلى الأبوين، وعلينا أن نمارس هذه الغريزة، بأن نبقى ندعو لهما، ومن أهم أنواع البر للأبوين أو غيرهما من المؤمنين، هو أن

---

(١) روي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من مر على المقابر وقرأ قل هو الله أحد إحدى عشر مرة ثم وهب أجرها للأموات أعطي من الأجر بعدد الأموات.
حاشية رد المحتار - ابن عابدين - ج ٢ ص ٦٥٦.

نقف على قبورهم وأن نقرأ لهم القرآن وأن نتعظ من ذلك[١]، بمعنى أن نأخذ العظة والعبرة من الوقوف على القبور، بعد أن نوصل لهم ثواب تلك القراءة. وهذا ما دأب عليه أهل البيت عليهم السلام وندبونا إليه يقول المؤرخون: كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام له طلعات يقف فيها على قبر فاطمة عليها السلام، وفي كثير من الأوقات يأخذ معه الحسن والحسين عليهما السلام، وهما أيضاً كانا يقفان على قبر أمهما، وعندما يقفان يقرآن القرآن ويهديان ثواب تلك التلاوة لروحها، وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن يقرأ القرآن يقف يستعيد ذكريات مواقف الزهراء عليها السلام وبعد ذلك تنهمل عينيه بالدموع لأنه يتذكر ما جرى عليها. ثم يتمثل بهذه الأبيات:

مالي وقفت على القبور مسلماً قبر الحبيب فلم يرد جوابي
أحبيب ما لك لا ترد جوابنا أنسيت بعدي خلة الأحباب[٢]

ثم بعد ذلك يقف على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ويبل تربة قبره الشريف بدموع عينيه، ثم يخاطبه بتلك الزيارة المعروفة: **السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، وَرَقَّ عنها تجلدي، إلا أن في التأسي لي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك، موضع تعزٍّ...**[٣]

وحيدر على قبر النبي ينادي يمختار
هذي الوديعه ما دريت بحالها اشصار

وصيتني وآنا صبرت واستهضموني
والزمت بيتي يا رسول الله ولفوني

وذيج الوديعة ما رعوها ولببوني
وآنا وحيد ولا شفت لي منهم أنصار

يا سيد الكون الوصية ما رعوها

---

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.

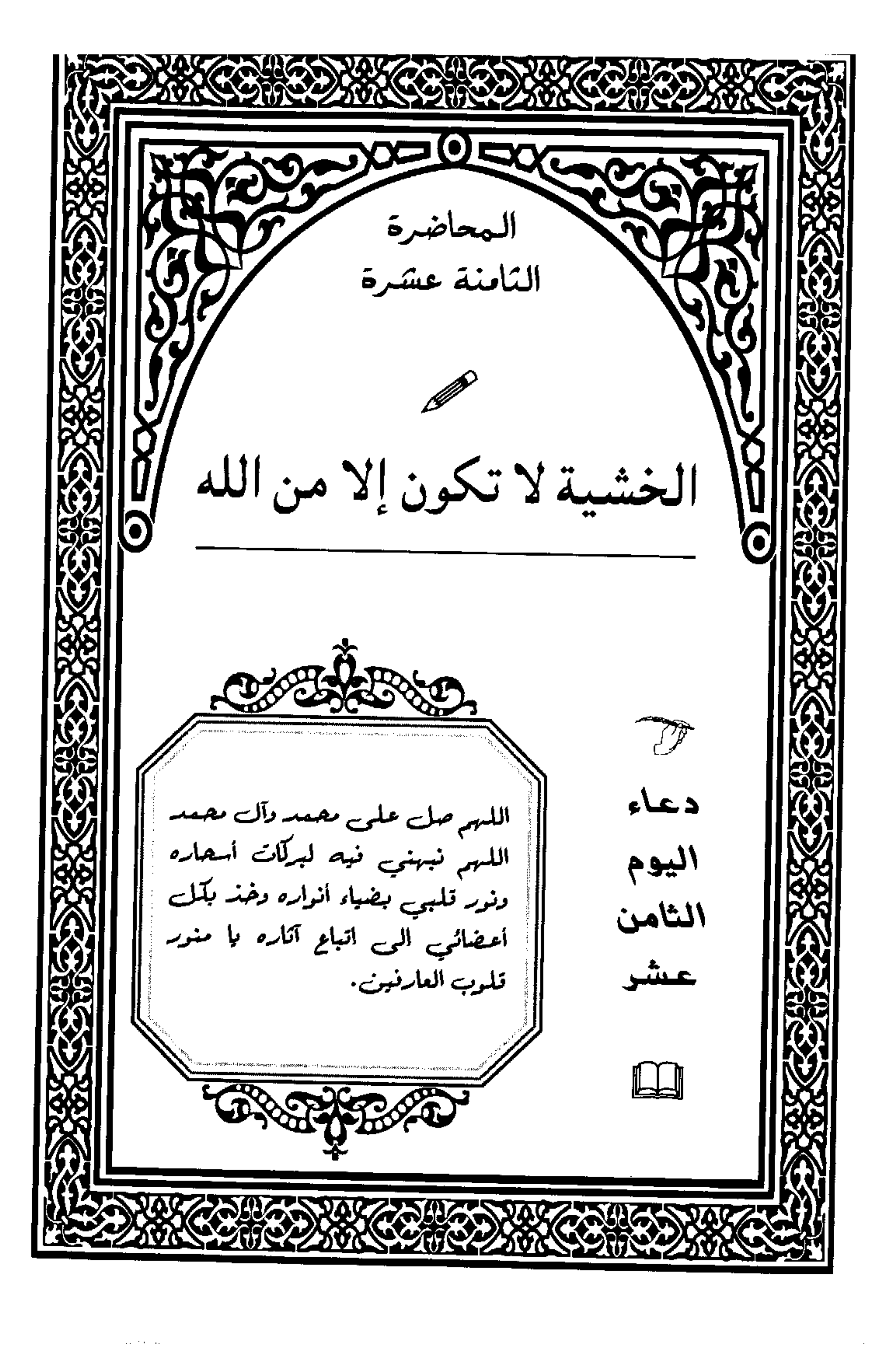
(٢) نهج البلاغة: ص ٣٧٠.

وهجموا الدار اعلى البتوله وروعوها

طلعت تدافعهم وبالباب اعصروها
وانكسرت الأضلاع منها وصار ما صار
عاشت عقب فرقاك مهضومه وذليله
ومن كثر تلويع الرجس صارت عليله
شحجي شعدد من مصايبها الجليله
وكلما شفت هالحال قلبي يلتهب نار[1]



(١) الجمرات الودية في المودة الجمرية ج ١ ص ٦٥.



المحاضرة
الثامنة عشرة

الخشية لا تكون إلا من الله

دعاء
اليوم
الثامن
عشر

اللهم صل على محمد وآل محمد اللهم نبهني فيه لبركات أسحاره ونور قلبي بضياء أنواره وخذ بكل أعضائي الى اتباع آثاره يا منور قلوب العارفين.

الخشية لا تكون إلا من الله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

❋❋❋

هذه الفقرات الشريفة من الآية الرابعة والأربعون من سورة المائدة، ومبدأُ الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ وقد ذكر المفسرون أن الآية الكريمة والآيات الثلاث التي سبقتها ورد فيها سبب للنزول[2]، كما وأن الآية محل البحث فيها أوامر موجهة إلى القضاة.

---

(١) سورة المائدة مقطع من الآية: ٤٤.

(٢) انظر الميزان ج ٥ ص ٣٣٩ قال - بعد كلام طويل - وبذلك يتأيد ما ورد في أسباب النزول أن الآيات نزلت في اليهود حين زنا منهم محصنان من أشرافهم، وأراد أحبارهم أن يبدلوا حكم الرجم الذي في التوراة إلى الجلد، فبعثوا من يسأل رسول الله ﷺ عن حكم زنا المحصن، ووصوهم إن هو حكم بالجلد أن يقبلوه، وإن حكم بالرجم أن يردوه فحكم رسول الله ﷺ بالرجم فتولوا عنه، فسأل ﷺ ابن صوريا عن حكم التوراة في ذلك وأقسمه بالله وآياته أن لا يكتم ما يعلمه من الحق فصدق رسول الله ﷺ بأن حكم الرجم موجود في التوراة.. ثم قال (صاحب الميزان: والآيات بعد ذلك مستقلة في بيانها غير مقيدة فيما أفادها بسبب النزول، وهذا شأن الآيات القرآنية مما نزلت لأسباب خاصة من الحوادث الواقعة، ليس لأسباب نزولها منها إلا ما لواحد من مصاديقها =

اما سبب النزول: فقد كانت جماعة من اليهود الذين يستوطنون المدينة المنورة[1]، حدثت عندهم في يوم من الأيام حادثةً هزتهم وأربكتهم، وذلك أن رجلاً من الأشراف - كما يزعمون - زنا بامرأة من الأشراف، وكلاهما محصنان، أي أن الرجل كان متزوجاً، والمرأة أيضاً كانت متزوجة، وكان المتعارف عندهم، أن أمثال هؤلاء لا يطبق عليهم قانون، لا من القوانين الوضعية ولا من القوانين السماوية، فلما حدث هذا الأمر اجتمع كبارهم للتشاور في خلاصهما، وبعد منازعات كثيرة حصلت فيما بينهم، استقر رأيهم على أن يبعثوا إلى النبي ﷺ ويستفتونه في الأمر، وقرروا فيما بينهم إن أفتاهم النبي بما يخلصهما من الموت - أي بجلدهما - أخذوا برأيه، وأن أفتاهم برجمهما نبذوه، هذا حسب ما أضمروه في ما بينهم، أي إذا أفتى بالجلد طبقوه، وإذا أفتى بالرجم تركوه، فعينوا من بينهم جماعة يثقون بهم، وأرسلوهم إلى النبي ﷺ، فجاؤوا إليه وأخبروه بذلك، فقال رسول الله ﷺ: (وهل ترضون بقضائي في ذلك)؟ قالوا: نعم. فنزل جبرائيل بالرجم فأخبرهم بذلك فأبوا أن يأخذوا به فقال جبرائيل: (اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه لهم). فقال النبي: (هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدكاً يقال له: ابن صوريا؟) قالوا: نعم، قال: (فأي رجل هو فيكم؟) قالوا: هو أعلم يهودي بقي على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى، قال: (فأرسلوا إليه، ففعلوا فأتاهم عبد الله بن صوريا). فقال له النبي: (إني أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، وفلق لكم البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون، وظلل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المن

= الكثيرة من السهم، وليس إلا لأن القرآن كتاب عام دائم لا يتقيد بزمان أو مكان، ولا يختص بقوم أو حادثة خاصة، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ سورة يوسف، الآية: ١٠٤ وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ سورة الفرقان، الآية: رقم ١ إنتهى كلامه عليه الرحمة.

(١) وهم الذين كانت لهم حضارة مستقلة عن حضارة المسلمين، بمعنى أنهم لم يخضعوا لحضارة المسلمين، وإنما كانت لهم معاهدة مع النبي، وكان النبي ﷺ قد احترم تلك المعاهدة.

والسلوى هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن؟) قال ابن صوريا: نعم، والذي ذكرتني به لولا خشية أن يحرقني رب التوراة إن كذبت أو غيرت ما اعترفت لك، ولكن أخبرني كيف هي في كتابك يا محمد؟ تقول الرواية: فبين له النبي ﷺ ذلك الحكم الذي في الإسلام، قال ابن صوريا: هكذا أنزل الله في التوراة على موسى. فأمر بهما النبي فرجما عند باب مسجده[1]. يقولوا المفسرون: فكان السبب في نزول هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ إلخ هي هذه الحادثة[2].

لكن أي التوراة التي يحكم بها النبيون؟ قطعاً التوراة التي أنزلت من السماء، وليست التوراة التي امتدت إليها يد العبث، لأن الأحبار والرهبان مدوا أيديهم إلى التوراة التي أنزلت من السماء فعبثوا بها، ولذلك نحن معاشر الإمامية نعتقد أن الكتاب السماوي الوحيد الذي لم تمتد إليه يد العبث هو القرآن الكريم، قال جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3]. فهو ما بين الدفتين، قال تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[4].

فالقرآن الكريم لا يستطيع أحد أن يضيف إليه شيئاً، ولا أن ينقص منه شيء، ولكن - مما يؤسف إليه - إن العبث قد حدث في التفسير للقرآن الكريم، وذلك من بعض النفوس الدنيئة، التي اشترت مرضات المخلوقين بسخط الخالق، حيث أنهم بدّلوا مضامين بعض الآيات عن مدلولها، وليس أدل على ذلك مما قام به البعض، وذلك بتبديله مضامين هذه الآية الكريمة وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) قريب منه أنظر الميزان ج ٦ ص ٣٥٧.

(٢) وإن كان هناك قول آخر في السبب النزول ذكره بعض المفسرين ومنهم ابن كثير والسيوطي وغيرهما إلا أن المشهور هو ما ذكرناه، وهو ما ذهب إليه صاحب الميزان وأيده عند تفسيره لهذه الآية أنظر المجلد الخامس صفحة ٣٦٠.

(٣) سورة الحجر، الآية:

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[1]. وهي إحدى الآيات التي أتثبتت لأمير المؤمنين عليه السلام الولاية العامة على الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله[2]. فيأتي البعض - ممن يحمل الحقد الدفين لأهل البيت - ليبعدها عن أمير المؤمنين عليه السلام وذلك بحسب مشتهياته ورغباته، ولكن هذا المعنى في واقع الأمر لا يضير علي بن أبي طالب عليه السلام إذا تأملنا، - على الإطلاق - وإنما يضير تاريخ المسلمين، الذي من واجبه أن يضع عقول الناس على الحقيقة والصواب.

فعموماً إن ما تعنيه الآية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ الخ هي التوراة التي أنزلت من السماء، وذلك قبل أن يُعبث بها. كذلك الآية الكريمة فيها أوامر موجهة إلى القضاة:

الأمر الأول: قالت ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾، الخشية لابد وأن تكون من الله تبارك وتعالى، لأن كل أمر من الأمور راجع إليه، وإن الناس في هذه الدنيا مهما طالت حياتهم فهم مُخرجون منها، أي أن حياتهم منتهية، حتى ولو عمروا في هذه الدنيا مهما عمروا، فهم في واقع الأمر سائرون في طريق، وهذا الطريق له نهاية، والنهاية هي الموت، ولكن الذي لا ينته هو الله، الله تبارك وتعالى لا ينته، وهو مراقب للعبد، ومشرف عليه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[3].

الأمر الثاني: إن الله تبارك وتعالى يقدر على أن يمنع الناس عنك، ولكن الناس لا يقدرون على منعك من الله، الله تباك وتعالى يقدر على أن يحميك من كل إنسانٍ مهما كانت قوته، ومهما كانت سطوته، ويحميك من كل قوة تتصور أنها ضخمة. بينما لا يستطيع أحد من الناس أن ينجيك من الله أبداً، بل لا يستطيع أحد أن ينجيك من جرثومة صغيرة، ولا من أي مخلوق آخر،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٢) والتي ذكرت ذلك مجموعة من كتب التفسير والحديث لا يمكن إحصائها.

(٣) سورة ق، الآية: ١٦.

بينما الله تبارك وتعالى من السهل عليه أن يصرف شر إنسان عن إنسان بمختلف الصوارف، وهذه الحقيقة يريدها القرآن أن تكون ثابتة في أذهاننا. من هنا تُروى كلمة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام وتروى حادثة تاريخية بهذا الصدد.

أولاً: كلمة الإمام عليه السلام سُئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن العلم فقال: (أربع كلمات أن تعبد الله بقدر حاجتك إليه، وأن تعصيه بقدر صبرك على النار، وأن تعمل لدنياك بقدر عمرك فيها، وأن تعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها)[1]. فإذا رجعنا إلى الشطر الأول من الحديث نجد أنه يؤكد على عبادة الله تعالى قال عليه السلام: (أن تعبد الله بقدر حاجتك إليه) الإنسان متى يحتاج إلى الله عز وجل ومتى لا يحتاج؟ بمعنى هل أن هناك وقت من الأوقات لا يحتاج الإنسان فيه إلى الله؟ فمتى يكون الإنسان في وقت يحتاج فيه إلى الله فليطع الله، فعلى الإنسان أن يدرس ملابسات حياته، هل هناك لحظة من اللحظات تمر على الإنسان يستغني فيها عن الله؟ **الجواب**: ليست هناك لحظة يمكن أن يستغني فيها الإنسان عن الله أبداً، الإنسان وجوده من الله تعالى، اللهُ تعالى ابتدأ خلقه، ووفر له الرزق، ودفع عنه البؤس، ودفع عنه الشر، و..و..و..الخ فعناية الله مع الإنسان حتى قبل أن توضع نطفته في رحم أمه، وحينما يوضع وإلى أن ينفصل منها، وإلى أن يكون على ظهر هذه الأرض، وإلى أن يكون فيها، وإلى أن يخرج منها، وهكذا وفي يوم القيامة، فمن يدّعي أنه مستغنٍ عن الله تعالى فهو تافه، بل من أتفه التافهين، فالله تبارك وتعالى بكل شيء محيط وبكل شيء حسيب، ولا يمكن للإنسان أن يستغني عنه لحظة من اللحظات أبداً، إذاً فلتكن عبادتك أيه الإنسان مستمرة.

الشطر الثاني من الحديث قال: (وأن تعصيه بقدر صبرك على النار) فالإنسان متى وفي أي وقت يستطيع أن يصبر على النار؟ واقعاً إنه لا يتحمل أحد من الناس أن يصبر على النار البسيطة في دار الدنيا، ذلك أن النار البسيطة إذا أصابت جزءً من جسد الإنسان لا يقدر أن يصبر عليها، فكيف

---

(١) ميزان الحكمة – محمد الريشهري ج ٣ ص ٢١٠٦، تحف العقول ص ٢٨٦.

يصبر على تحمل النار في الآخرة؟ وقد ورد إن نار جهنم أشد حراً من نار الدنيا سبعين درجة. فكأنما يقول الإمام عليه السلام: أيها الإنسان لا تعصي الله طرفة عين أبداً.

الشطر الثالث: قال عليه السلام: (وأن تعمل لدنياك بقدر عمرك فيها). فلهذا الإنسان عندما يريد أن يعمل للدنيا، ويقدم الاعتبارات الدنيوية، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار ما هو مقدار ما يعيش فيها من السنين، يعني مهما يتصور الإنسان بقاءه في الدنيا فهو منصرف عنها، فما نشاهده اليوم أن معدل الأعمار الموجودة هي ما دون الثمانين، أو ما دون الخامسة والسبعين، فإذا كان كذلك، أي أن بقاء الإنسان ثمانين عام أو أقل، وهو في الآخرة قد يبقى آماداً، وآماداً، لا عدد لها إلا في علم الله تبارك وتعالى[1]. فعليه حينئذ أن يقارن بين العمل للبقاء في الدنيا، وبين العمل للبقاء في الآخرة، فكأنما يريد الإمام أن يقول يا إبن آدم إنك في مرحلة ستغادرها، فستعد لما وراءها، وهذا هو المعنى الذي تعرض إليه أبو العلاء المعري في رثاءه الفلسفي إذ يقول:

الفتى ظاعن ويكفيه ظل السدر ضرب الأطناب والأوتاد

بمعنى أن الإنسان في هذه الدنيا كأنما هو في طريقه إلى سفر، ومَن يكون كذلك، فهل يحتاج مِن هو في طريق أن يضع له خيمة؟ أو أنه إذا تعب يستظل بظل شجرة؟ الواقع يتعين عليه الأمر الثاني، وهو أن يستظل بظل شجرة من الأشجار، ولا يكفل نفسه بأن يضع له خيمة، وأن يضع له فيها أطناباً أبدا، وإلى هذا أشار نبي الله عيسى عليه السلام حيث قال: **(الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها)**[2]. فالإنسان بهذا المعنى عليه أن يحاسب لبقائه في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ

(١) ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فينظر بما يرجع). [البحار ج - ٧٣ ص١١٩]. وقال صلى الله عليه وآله الدنيا دار من لا دار له، لها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا ثقل له، ولها يسعى من لا يقين له). [تنبه الخواطر ص١٠٥].

(٢) جامع السعادات ج٢ ص ٣٨.

كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]. ويقول الإمام علي عليه السلام: (الدنيا ظل الغمام وحلم المنام)[2]. ويقول عليه السلام: (هل هي إلا كلعقة الآكل، ومذقة الشارب، وخفقة الوسنان)[3]. فهناك الحياة المستمرة، والحياة الخالدة، والحياة الدائمة، وإلا فإن هذه الدنيا هي بمثابة الطيف، كما يعبر أحد الفلاسفة، الفلاسفة يعتقدون بأن الدنيا ليس لها وجود خارجي[4]. والذي يلفت النظر - هنا - هي إحدى النظريات الفلسفية، إن إحدى النظرات الفلسفية تقول: إن هذه الأشياء الموجودة في دار الدنيا ليس له وجود خارجي، وإنما هي أمور نحن نتصورها في أحاسيسنا وفي مخيلتنا، وكلها أوهام وخيالات، بمعنى أن الحواس التي لدينا تنبئنا بأن هناك شيئاً، وإلا في الواقع لا شيء، أو لا حقيقة لهذا الشيء، وهذه النظرية عبر عنها البعض بأنها نظرةٌ فضائية، إلا أنها في الواقع لم تنشىء من فراغ، إنما نشأت من تفاهة هذه الدنيا. ففي واقع الأمر إذا لاحظنا، نرى إن أمساً قد مضى، ونرى قد أقبل اليوم، وفلانٌ من الناس يستعد للحياة، وقد ضخم رصيده المالي وهيأ نفسه، وأقبل ليبني لنفسه ولأهله مسكن، إلا أنه لم ينته ذلك البناء، وإذا به يحمل إلى القبر، وهو بعد لم يشبع نفسه من الأنس بأولاده، ولا من الأنس بأهله، ولا، . ولا، . . . إطلاقاً، ولهذا ليس هناك مَن خرج من الدنيا وقد أنهى جميع أعماله، بمعنى أنه عندما يمر الإنسان على المقبرة ويسأل عن فلانٍ وفلان، هل أنهم أنهوا أعمالهم في دار الدنيا؟ يكون الجواب: كلا، ليس هناك من مضى إلى القبر وقد أنهى كل ما يريد في هذه الحياة. إذاً هذا الجانب المهم ينبهنا إليه الإمام عليه السلام؛ ولهذا لا يتصور أحد أن الشريعة الإسلامية شريعة منزوية، تريد فقط أن تأتي للإنسان تشبعه بالهم والغم، كلا؛ إنما تريد أن تضع يده على الواقع، وعلى صعيد الموضوعية، فتشرح له الأمر على الحقيقة.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٢) غرر الحكم.

(٣) تنبه الخاطر ٢٩١.

(٤) يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (إنها لذوي العقول كفيء الظل، بينا تراه سابغاً حتى قلص، وزائداً حتى نقص) [شرح نهج البلاغة ج - ٥ ص١٤٠].

الشطر الرابع: وهو الأخير قال: (وأن تعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها)، فعلى الإنسان أن يتصور كم سيبقى في عالم الآخرة كي يستعد لذلك العالم، أي حتى يهيّء لذلك المكان ما يناسبه.

إذاً نرجع إلى كلمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال عليه السلام: (أربع كلمات أن تعبد الله بقدر حاجتك إليه، وأن تعصيه بقدر صبرك على النار، وأن تعمل لدنياك بقدر عمرك فيها، وأن تعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها). كذلك الآية تقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ فلتعلم أن الله تعالى مطلع عليك وعلى نواياك، فعلى هذا يجب عليك أن تطبق ما يُمليه عليك، أما الناس فلا.

أما الحادثة التاريخية التي أحببنا إيرادها هنا، يقال: أنه في أيام الدولة العباسية، الدولة كانت تطالب رجلاً من أهل الحي بأموال، فمات ذلك الرجل، فلما علم المنصور بذلك، كتب إلى الوالي، «أما بعد إذا جاءك كتابي هذا، فأستوفي لأمير المؤمنين ديونه، ثم فرق الباقي على الغرماء». أي أمره بأن يجمع الديون حالاً، الديون التي يعبر عنها في الاصطلاح الحديث، الديون الممتازة، ديون الدولة، أمره بأن يستوفيها، ثم أضاف في الرسالة التي بعثها إليه، وعليك بعد أخذ الديون أن تقوم بتوزيع الباقي على الغرماء، تقول الرواية فلما وصل إليه الكتاب وضعه تحت الفراش ولم يعتني به، ثم أخذ يجمع الأموال فلما فرغ من جمعها جعل المنصور أحد الغرماء. جعله حال باقي المديونين، وأخذ الأموال فقسمها بالسواسية، فأعط المنصور كغيره من الناس، ولم يجعل له تمييز على غيره، عندها التفت إليه الرسول قائلاً: لقد جئتك بكتاب وعليك أن ترعاه، إنه كتاب الخليفة، تقول الرواية فالتفت إليه قائلاً: قل للخليفة يقول لك الوالي: لقد جاءني قبل كتابك كتاب من الله تعالى، وهو كتاب يقول فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾[1] لقد جاءني القرآن الكريم يأمرني بالعدل، فلست مستعداً بأن أجعل القرآن وراء ظهري، وآخذ برأي المنصور أو غيره، إن الله يمنعني من المنصور، ولكن المنصور لا

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

يمنعني من الله. إن هذا المعنى عندما يقرأه الإنسان المؤمن يبعث في نفسه الاعتزاز، حيث أنه يعكس صفحة مشرقة من القضاء النظيف، الذي لا يتأثر بالمؤثرات مهما كانت قوتها، ومهما كانت سطوتها، وإلا فهو يعلم علماً يقيناً من أن المنصور يعتبر رأس الدولة، وبيده الحل والعقد، ولكن مع ذلك فإن هذا الرجل يقول: أنا لا أعطل كتاب الله أبداً. من هنا نشعر بأن الإسلام يبني الضمير بناء مرهف، الإسلام إذا أنزل إلى الواقع العملي، كسلوك وتربية، يخلق حينئذٍ ضميراً واعياً لا يتأثر بالمؤثرات، بحيث لا يراعي إلا الله، وهذا هو المعنى الذي أشارت إليه الآية: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ بمعنى أن تجعل الله نصب عينيك.

بعد ذلك الآية قالت: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الواضح أن المقصود بالآيات في هذا المقطع من الآية هي الآيات التدوينية، أي النصوص القرآنية، بمعنى أنها تنهى عموم المسلمين من أن يفسروا النصوص القرآنية بتفاسير تختلف عن التفسير الواقعي، وذلك على حساب الثمن القليل. - ولكن للأسف الشديد - أن البعض مقابل الثمن القليل أقدم على تغيير الكثير من المضامين، فكثير من الآيات صرفت عن مدلولها بشكل وبآخر، مثال ذلك كما في هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(١) إن هذه الآية الكريمة تشير إلى الوفاء بالعهد، العهد مما أمر الله تبارك وتعالى بالوفاء به، والبيعة عهد من العهود، وعقد من العقود، ولكن أيُّ بيعة هي التي تكون بمثابة العهد؟ واقعاً هي بيعة النبي ﷺ وبيعة خلفاء النبي ﷺ وهو الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام، باعتبار أن الله تبارك وتعالى أمر بإتباعهم كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(٢).

إلا أنه - وللأسف الشديد - يأتي ذلك الرجل الصحابي وهو عبد الله بن عمر يحث الناس على التمسك ببيعة يزيد بن معاوية، قائلاً: تمسكوا ببيعة

---

(١) سورة الفتح مقطع من الآية: ١٠.
(٢) سورة النساء مقطع من الآية: ٥٩.

يزيد بن معاوية، لأن الله تعالى أمر بالتمسك والوفاء بالعهد، فإن الغادر يرفع له لواء يوم القيمة[١]. يروي قريب من هذا النص صاحب كتاب سنن البيهقي، والحال أن يزيد - وكما يعلم الجميع - في ذلك العصر كان من أشد الناس استهتاراً بالقيم الأخلاقية، وبالموازين الاجتماعية، وكان كما يروي المؤرخون وليس مؤرخي الإمامية فقط، مع إيماننا بأنهم أكثر الناس خوفاً من الله عزّ وجلّ وتقوى الله، ولكن مع ذلك نجد التفاسير الأخرى مثل تفسير الآلوسي أو الفخر الرازي أو ابن الفلاح الحنبلي وغيرهم، وغيرهم كثير، انظر ماذا يقولون عن يزيد بن معاوية، الذي كانت حياته بين خمرة ترنحه، وبين قرد يلاعبه، وبين رغبة يسير ورائها. هذا الذي يعبر عنه أحد الشعراء:

رافع الصوت داعياً بالفلاح … خفض الصوت في أذان الصباح
وترفق بصاحب العرش مشغولاً … عن الله بالقيان الملاح
ألف الله أكبر لا تساوي … بين كفي يزيد نهلة راح[٢]

فهل يكون هذا الرجل التمسك ببيعته موجب لطاعة الله؟ واقعاً إن كلاماً من هذا القبيل يجعل الناس تبتعد عن القرآن الكريم، كما وأن لأمثال هذه الكلمة نظائر كثيرة، لا نحب أن نضع أيدينا عليها، وذلك عندما نرجع للتفاسير، ولكنه ولله الحمد إن الضمير اليقظ، والعين الحارسة، والمقاييس الإسلامية الصحيحة، كلها تشكل حاجزاً دون تسرب هذا الفكر الملتوي إلى حضارتنا الإسلامية - الصحيحة -..

نعم هذا الرجل الذي طالما كان يصعد على منبر ليس هو له، ويقول بصريح العبارة:

---

(١) عن نافع قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة قال: وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن تبايع رجلاً على بيعة الله ورسوله ثم تنصب له القتال، وإني لا أعلم أحد منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه. [المصدر صحيح البخاري ج ٨ ص ٩٩].

(٢) الغدير ج ١٠ ص ٣٢.

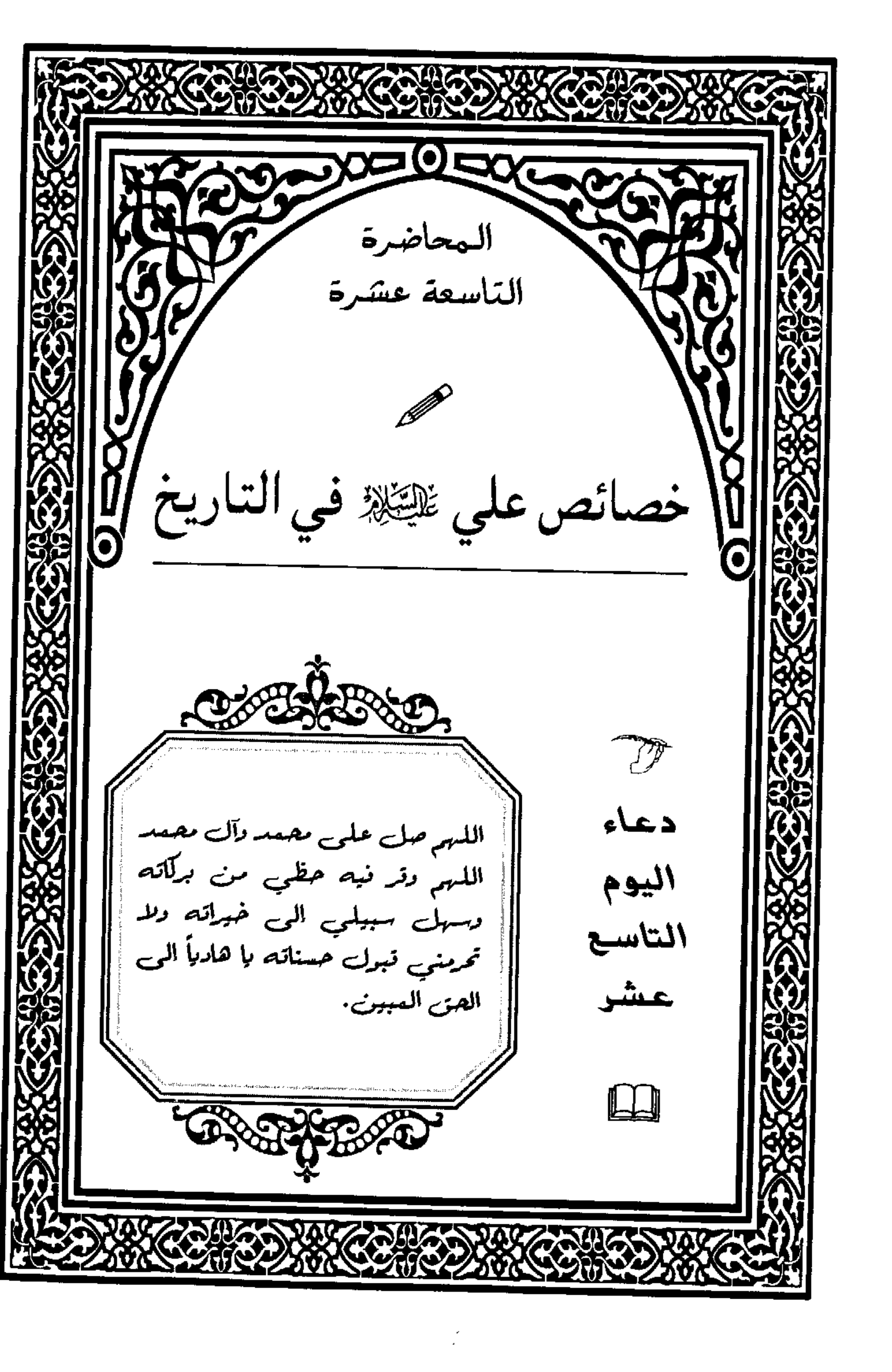
لما بدت تلك الحمول وأشرقت   تلك الشموس على ربا جيرون
نعب الغراب فقلت صح أو لا تصح   فلقد قضيت من النبي ديوني[(١)]

بأمثال هذه العبارات يواجه النبي ﷺ ويجعله طرفاً إليه، ثم بعد ذلك يقف يتشمت على عائلة الحسين ويخاطب أخت الحسين قائلاً كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك....؟ تقول له: (ما رأيت إلا جميلاً هؤلاء قومٌ كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فلتنظر لمن الفلج هبلتك [ثكلتك] أمك يا ابن مرجانة)[(٢)] إلى آخر الخطاب الذي دار ببينها وبينه فأفحمته ولم يحر جواباً، إلا أنه بعد ذلك رفع رأس الحسين والتفت إلى الرباب بعد أن خاطبها فلم تجب قائلاً: أتعرفين من هذا؟ عند ذلك اختنقت بعبرتها ونادت:

لقد كنت أستحيه والترب بيتاً   إلى الآن قلب لي به متولع
فتلك هي البلوى التي ما أرى ولا   وعى مثلها في الدهر مرأى ومسمع[(٣)]



(١) لواعج الأشجان ص ٢١٨، معالم المدرستين ص ١٥٥.
(٢) مثير الأحزان ابن نما الحلي ص ٧١، بحار الأنوار ج ٤٥ص ١١٦.
(٣) الصرخة المرحومة للعترة المظلومة.



المحاضرة
التاسعة عشرة

خصائص علي عليه السلام في التاريخ

دعاء
اليوم
التاسع
عشر

اللهم صل على محمد وآل محمد اللهم وفر فيه حظي من بركاته وسهل سبيلي الى خيراته ولا تحرمني قبول حسناته يا هادياً الى الحق المبين.



١٩

خصائص علي عليه السلام في التاريخ

في الحرب أنت المستحم من الدما
والسلم أنت التين والزيتون
والصبح أنت على المنابر نغمة
والليل في المحراب أنت أنين[١]

❋❋❋

شخصية علي بن أبي طالب عليه السلام إذا أراد الفرد مواجهتها مواجهةً موضوعية، فإنها تملك عليه مشاعره، ويصبح عقله بعد ذلك بمثابة العين عندما تواجه الشمس أثناء الظهيرة، - وعين الإنسان إذا واجهت الشمس في أثناء الظهيرة يبهرها شعاع الشمس -.

ذلك لأن شخصية علي عليه السلام لها خصائص لم تكن لغيرها قط، ولهذا لا توجد هناك صدفة لتلك الظاهرة التي حدثت، وهي ظاهرت الغلو، فالبعض من الناس عندما طافوا بتاريخ علي عليه السلام فقدوا توازنهم في عقيدتهم، وذلك لأنهم رأوا في علي ما لم يرونه في غيره من البشر.

كما أنه يجب أن لا يُفهم من هذا التعبير أن هناك مبرر للغلو أبداً، فالإسلام يعتبر المغالي نجساً[٢] ويبرأ منه، فلا يزوجه ولا يتزوج منه، ولكن ما نقوله أن الغلو لم يأتي من فراغ، حيث أن أولئك الأشخاص الذين حدث الغلو عندهم،

---

(١) علي في الكتاب والسنة والأدب الحاج حسين الشاكري ج٥ ص ٢٩٣.
(٢) انظر شرائع الإسلام للمحقق الحلي كتاب الطهارة ص٤٠، [الركن الرابع في النجاسات وأحكامها] فإنه قد عد تسعة ثم قال: والعاشر: [الكافر وضابطه كل من خرج عن الإسلام أو] من انتحله وجحد ما يعلم من الدين ضرورة، كالخوارج والغلاة].

إنهم واجهوا شخصيةً تأخذ بمجامع العقول، بل أنهم واجهوا شخصيةً جمعت من الصفات ما ينتزع الإعجاب انتزاعاً، والغريب في ذلك أن الأشخاص الموضوعيين، الذين جاؤوا وقيموا علي بن أبن أبي طالب، سواءً كانوا من أعدائه أو من أحبائه، إنهم قيموه بنفس الدرجة من الحماس والانفعال، وهذا مما يدلل على أن هذه الشخصية لديها خواص تأخذ بمجامع القلوب.

ودعنا نلاحظ بعض تلك الخواص، ونحن بسبيل من ذكرى هذه الشخصية الفذة، التي موجة أبعاد التاريخ الإسلامي.

فأول خاصية انفرد بها هي موضوع الولادة، ولادته عليه السلام لم تأخذ الصورة الاعتيادية التي اعتاد عليها الناس، لأن ما اعتادت عليها الناس قاطبة، أنهم يولدون إما في بيوتهم، أو أنهم يولدون في أماكن مخصصة للولادة، بينما هذا الرجل يُعطى هذه المكانة من الله تبارك وتعالى، وهي بأن يولد في أشرف بيت في الدنيا، ألا وهي الكعبة المكرمة[١]. على أن - كلمة - جوف الكعبة في تعابير المؤرخين يعني بذلك داخلها، [أو باطنها] إضافةً إلى ذلك فإن الحدث لم يكن حدثاً عفوياً، كما حاول البعض أن يصوره للناس، بأن تكون إمرأة تريد أن تعتمر، أو أن تطوف وهي حبلى ويضايقها المخاض، فتكون حالة من الإضطرار لأن تضع، فلو كانت الصورة بهذا المعنى لكانت طبيعيةً في حد ذاتها، ولكن الصورة ليست هكذا، إنما الصورةُ هي أن الجدار انفرج لها ودخلت، وهي الصورة التي يرويها يزيد بن قعنب وغيره، يزيد بن قعنب يقول: كنا جلوساً حول الكعبة، وأقبلت فاطمة بنت أسد [سلام الله عليها]، وهي في أيامها الأخيرة من حملها بأمير المؤمنين، فأمسكت بجدار الكعبة، ورفعت رأسها إلى السماء قالت: (رب إني مؤمنة بك وبما جاء من عندك من رسل وكتب، وإني مصدقة بكلام جدي إبراهيم الخليل... وإنه بنى البيت العتيق، فبحق الذي بنى هذا البيت وبحق المولود الذي في بطني لما يسرت علي ولادتي..)[٢].. يقول ابن قعنب: فرأيناها دخلت في البناء، وذلك بعد

---

(١) انظر كتاب الغدير ٦: ٢٣.

(٢) بحار الأنوار ٣٥، ٨.

أن انفرج لها جدار البيت، ومكثت فيه ثلاثة أيام لا يستطيع أحد أن يصل إليها، رغم تلك المحاولات التي بذلت، ثم خرجت من الموضع الذي دخلت منه، وهي تحمل على يدها وليدها.

وهذه الرواية لم ينفرد بها شريحة من المؤرخين، وإنما كانت متواترة، بمعنى أنها ليست من الروايات المرسلة، والمراد من الخبر المتواتر هو الذي يروونه جماعة كثيرة من الناس، كلهم عدول ومن المستحيل أن يكذبوا، وهذا مصطلح قد ذكره علماء الرجال في كتبهم، بينما خبر الآحاد هو الذي يكون بأقل من هذا سواءً رواه شخص أو أكثر. فرواية ولادة الإمام في جوف الكعبة رواية متواترة، فقد رواها جمهور المسلمين، المؤرخين منهم والمفسرين، ومن يريد الاطلاع للاستزادة في ذلك، فعليه الرجوع إلى كتاب أعيان الشيعة - للسيد الأمين - [عليه الرحمة]، الجز الثالث منه، فإنه خاص بالأمام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ذكرت فيه الرواية مفصلة. ولعل الذي أكثر منه في جمع الروايات في هذا الصدد، هو المرحوم الأميني في كتابه الغدير، فإنه قد أشار إلى الروايات الكثيرة، التي نصت على ولادته في داخل الكعبة المكرمة، وهم من مختلف المذاهب الإسلامية، فالمسألة إذاً لم تكن رواية آحاد، وإنما هي رواية أخذت حد التواتر. ولنا أن نسأل - وذلك بعد أن ثبتت ولادته في داخل الكعبة - هل يُلتمس في ولادته في داخل الكعبة لوناً من التشريف من قبل الله عزّ وجلّ لهذا الرجل؟ بحيث أن القضية يكون لها وضعاً غير طبيعي، بأن تأتي المرأة ويشق لها جدار البيت وتزج في داخله؟ واقعاً إن هذا الأمر إن دل على شيء، فإنما يدل على أن السماء أولته عنايةً خاصة، وإلا فهذه عبارة المؤرخين واضحة، لا يستطيع أن يتجاهلها أحد من الناس وهي: (ما ولد قبله ولا بعده في الكعبة أحد)(١).

يقول المؤرخون: إن مريم بنت عمران عليها السلام لما أن حملت بعيسى عليه السلام، وأرادت أن تضعه، أقبلت إلى بيت المقدس لتضعه فيه، فـ(أوحي إليها أن

---

(١) انظر شرح إحقاق الحق - السيد المرعشي - ج ١٧ ص ٣٦٤/ ج ٣٠ ص ١٧٥.

أخرجي من بيت المقدس فإنه بيت عبادة لا بيت ولادة)[١]. فخرجت منه وجاءت إلى بيت لحم، حتى وضعته في ذلك المكان الذي هو الآن محل ولادته، بينما فاطمة بنت أسد لم تُمنع من الدخول، بل يشق لها الجدار بشكل إعجازي، ويزج بها في داخل البيت، وتضع فيه وليدها وتمكث فيه ثلاثة أيام تأكل من طعام الجنة. - هذا من ناحية -.

ومن ناحية أخرى: عندما نرجع إلى أحكام المساجد في كتب الفقه عند علماء المسلمين، نجد أن من أوليات أحكام المساجد هو وجوب إزالة النجاسة عنها، فكل نجاسة إذا حدثت في المسجد، يتعين على المسلم أن يزيلها حالاً[٢]. ومن المعلوم أن المولود في أثناء الوضع لا بد وأن يصاحبه بلل وقدر من دم النفاس، أياً كان ذلك المولود ذكراً أو أنثى، فإذا كان كذلك لماذا فاطمة بنت أسد تدخل بعد أن يشق لها الجدار وعلى ذلك الشكل من الإعجاز؟ واقعاً إن هذا الأمر يدل على أنه ما صاحب ولادته بلل ولا قدر من دم النفاس، وهذا المعنى لا يستطيع أحد أن يُكذّبه، وذلك بعد أن أطبق عليه علماء المسلمين، ولا يمكن لأي أحد أن يتهمنا بشيء، بأن يقول لنا أنتم معاشر الشيعة تواجهون علي بن أبي طالب بالمواريث التي ورثتموها من الآباء والأجداد، فلهذا كنتم تنظرون إليه من هذا المنظار، كلا، نحن ننظر لعلي عليه السلام بمنظارٍ موضوعي، ولهذا كل من يتهمنا بأننا نواجه علياً بالمواريث عليه أن يفسر لنا هذا الحدث، أليس هذا يدل على عناية من الله تبارك وتعالى له ولأمه، حيث أنه تعالى فسح لها المجال بأن تلده في داخل البيت. ولهذا نجد الآلوسي في كتابه روح المعاني يقول: إن علي بن أبي طالب كافئ هذه المنقبة بعطاء مثله، ثم يستشهد بالبيتين:

---

(١) العقيلة والفواطم الحاج حسين الشاكري ص ١٠٠.

(٢) وردت عبارة في التعليق على [شرائع الإسلام للمحقق الحلي] هي: (فلا يجوز إدخال النجاسة في المساجد، سواء في البدن أو اللباس أو غيرهما وان لم يستلزم تلويث المساجد، وفي المسالك) ويلحق بالمساجد الضرائح المقدسة والمصاحف وآلاتها الخاصة بها كالجلد فيجب إزالة النجاسة عنها كما يحرم تلويثها بها. ص٤٠.

لـمـا دعـاك الله قـدمـاً لأن تـولـد فـي الـبـيـت فـلـبـيـتـه
شـكـرتـه بـيـن قـريـش بـأن طـهـرت من أصـنـامـهـم بيتـه[١]

إذاً فالله عزّ وجلّ بعد أن حبا علياً بهذه المنزلة، وهي له الولادة في داخل البيت، قام عليه السلام بحفظ ذلك الجميل ورده على أكمل وجه وأتمه، فكما هي له الموضع الطاهر ليوضع فيه، قام هو أيضاً بتطهير ذلك الموضع. يقول المؤرخون: لما حدثت واقعة الفتح، دخل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة المكرمة، وأمر علياً أن يرقى على كتفه، ثم أصعده إلى سطح الكعبة، وجعل علي عليه السلام، يتناول الصنم ويضرب به الآخر، ثم يرمي به إلى الأرض، ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢].

إذاً فأول لحظاتُ حياته تواجهنا بهذا الشكل المنوط بهذه الهالة من العظمة، وذلك بأن يولد في أشرف بيت في الدنيا.

ثم إنه بعد أن خرج من دور الولادة تلقاه أفضل حجر في الدنيا، وهو حجر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي تولى تربيته، وذلك بيده ولسانه وعقله، فبمجرد أن جاءت به أمه فاطمة بنت أسد، استلمه النبي منها، يقول المؤرخون في تعابيرهم: كان النبي صلى الله عليه وآله يضع مهد علي عليه السلام بالقرب من مهده، ويؤجره[٣] اللبن عند شربه، - أوجره أي وضع اللبن في فمه - يتولى غسله عند تطهيره، يحمله على صدره، يُشممه عرفه، يحمله ويطوف به في شعاب مكة وأوديتها، يقول:

(أخي ووزيري....). الصورة التي يصورها لنا عبد الباقي العمري:

لقد ترعرعت في حجر عليه لذي حـجـر بـراهـينُ تـعـظـيم بـه قـطـعـا
ربـيـب طـه حـبـيـب الله أنـت ومـن كـان الـمـربـي لـه طـه فـقـد بـرعـا[٤]

---

(١) الشعر إلى العلامة السيد رضا الهندي المصدر الغدير - الأميني ج ٦ ص ٢٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨١.
(٣) الوجر: أن يوضع الدواء أو الماء أو غيره في حلق الصبي. لسان العرب ١٥: ٢٢٠ - وجر.
(٤) الأنوار العلوية: ٣٩، ٣٤٥.

من هنا يتبين لنا أن وظيفة فاطمة بنت أسد رضي الله عنها أنها ولدته فقط، وإلى هنا انتهى دورها، حيث أن رسول الله ﷺ تناوله منها، فنشأ [سلام الله عليه] من بواكير أيامه الأولى وهي الأيام التي يقول عنها علماء التربية بأنها مفتاح الشخصية في حجر رسول الله ﷺ. إذاً الفترة التي تعتبر هي المنطلق للشخصية، وذلك عند كل إنسان بدون إستثناء، قضاها علي في حجر رسول الله، فكان رسول الله ﷺ يقوم برعايته وتربيته، حتى استمرت هذه التربية عشرة أعوام قبل البعثة، ومن الواضح لدينا أن العالم الإسلامي كله وسعه صدر النبي، وذلك أن رسول الله ﷺ كانت له عناية خاصة من قبل الله تعالى، حتى من قبل أن يبعث بالرسالة، وبعد أن بعث بها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته ليسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره)[1] ومن هذا المنطلق فقد بلغنا القرآن الكريم وجسده لنا بأخلاقه القيمة، ومن ثَم فقد أعتبر صدر النبي الأكرم ﷺ مهدٌ للعالم الإسلامي كله، فعندما نتصور هذا الصدر الذي وسع العالم كله، وقد احتضن علياً قبل الرسالة وبعدها، فقد كان النبي ﷺ يحمله على كتفه، ويغذيه بأخلاقه ويؤدبه بآدابه، حتى كان الإمام عليه السلام يحفظ لنا هذه الصورة المشرقة من حياته، وذلك في كتابه إلى عثمان بن حنيف، قال: (وأنا من رسول الله كالضوء من الضوء - كالصنو من الصنو - والذراع من العضد)[2]. فكأنه يشير في هذه العبارة إلى لون من ألوان الملازمة، فهل يمكن أن تنفك الذراع عن العضد؟ كلا، وهذا المعنى نلمس تجسيدا ته في حياة الإمام علي عليه السلام، حيث أنها بدأت من بواكيرها

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٤٦، مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٢٨.

(٢) نهج البلاغة ص٤٨٩، في كتابه عليه السلام إلى عثمان بن حنيف. وفي هذا المقطع بعض الكلمات شرحت في ذيل الكتاب منها قوله عليه السلام: (كالضوء من الضوء): شبه نفسه بالضوء الثاني، وشبه رسول الله بالضوء الأول، وشبه منبع الأضواء عزّ وجلّ بالشمس التي توجب الضوء الأول، ثم الضوء الأول يوجب الضوء الثاني. وقوله عليه السلام: (الذراع من العضد): شبه الإمام نفسه من الرسول بالذراع الذي أصله العضد، كناية عن شدة الامتزاج والقرب بينهما.

الأولى إلى نهايتها، فكان عليٌّ منذ السنين الأولى على صدر رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان عليه السلام ألزم للنبي من ظله، وبعد أن بعث النبي وضع سيفه في يده، فأين ما كان يخرج النبي هو يرقبه ويتبعه، وهذه هي عبارة علي عليه السلام: (ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالإقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحرَاء [حرّاء] فأراه، ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة[1]. أي لا يكاد النبي يرفع قدماً إلا وهو من ورائه، كل ذلك لحمايته ولرعايته، حتى استمر هذا الإتباع إلى آخر لحظة من اللحظات في حياة رسول الله، فكان عليٌّ مع رسول الله في غزواته وحروبه، وحتى في بيته، إلى درجة تضايقت منه إحدى نساء النبي، قالت: أنا ليس لي من رسول الله صلى الله عليه وآله إلا يوماً من تسعة أيام، وتأتي أنت تشاركني في يومي فلماذا؟ فلما سمعها رسول الله صلى الله عليه وآله نهاها عن ذلك بعبارات ذكرها المؤرخون. إذاً الخاصية الثانية لعلي عليه السلام هي التربية، حيث كان له ذلك الاستعداد التام، وذلك بأن نهل من عطاء رسول الله الذي وسع الدنيا عطاء.

الخاصية الثالثة: التي كانت لعلي عليه السلام، أنه لما بدأ وعيه بالتكامل حلت بفمه أشرف كلمة وهي كلمة لا الله إلا الله، فالنبي صلى الله عليه وآله بعث يوم الاثنين وأعلن علي إسلامه يوم الثلاثاء، وذلك عندما هبط عليه جبرئيل يحمل أول سورة من القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾[2]... الخ. فرجع النبي صلى الله عليه وآله إلى الدار وهو يحمل كتاب ربه، وشفاهه تهمهم بذكر الله تعالى، وذلك يوم الاثنين في السابع والعشرين من شهر رجب، وأعلن علي إسلامه يوم الثلاثاء[3].

إذاً عليٌّ عليه السلام أول الناس إسلاماً، ولا يختلف في هذا أحد من المسلمين

---

(١) نهج البلاغة: ص ٣٤٨.
(٢) سورة العلق، الآيتان: ١، ٢.
(٣) لقد ذكر الشيخ الأميني في كتابه الغدير أسماء مجموعة من الرواة أنظر الجز الثالث.

أبداً، إلا أن البعض منهم لم ير بأنها أولية مطلقة، وإنما اعتبرها أولية مضافة، فلهذا قالوا: إن علياً هو أول من أسلم من الصبيان. ولكن الملفت للنظر هنا هو أن تاريخنا الإسلامي لا ينفس على أحد من الصحابة قدماً له أو فضيلة له، ذلك لأن في عقيدتنا أن كل عطاء للإسلام هو عطاء للجميع، فلهذا أصبحت الحذلقة باللفظ - في واقع الأمر - لم يكتب لها التوفيق، كما وأن المحققين من علمائنا لا يُحبون أن يعبرون هذا التعبير[1]. حتى أن البعض منهم يقول: إذا قلنا أن علياً هو أول من أسلم، فهل أن علياً كان في دور يخالف الإسلام، أو يناقض الإسلام؟ حتى يقال بعد ذلك أنه انتقل من ذلك الدور إلى هذا الدور، لأن الدور الذي يخالف الإسلام هو الكفر، فعلي بن أبي طالب عليه السلام ما كان كافراً في يوم من الأيام أبداً، ذلك لأنه لم يسجد لصنم قط، ولم يعرف كلمة الكفر قط، وما مر عليه يوماً من الأيام لم يتفكر فيه في ملكوت السماوات والأرض، وذلك أن بواكير حياته الشريفة قضاها في صدر النبي صلى الله عليه وآله، والنبي ما عرف الشرك قط، ولا عرف السجود للأصنام قط، ولا عرف انحرافات الجاهلية أبداً. فلهذا كان علي أبي طالب عليه السلام كذلك، ولذلك العبارة التقليدية - كرم الله وجهه - لأنه لم يسجد لصنم، فعلي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن في دور مناقض للإسلام أبداً، فلهذا قالوا: إن الإسلام بمضامينه الخاصة، - كاصطلاح سماوي - هذا الاصطلاح السماوي حمله علي بن أبي طالب عليه السلام في بدء صباه.

إذاً عليٌ عليه السلام له شرف السبق إلى الإسلام، بأن فمه صافحته أفضل كلمة، وهي كلمة لا إله إلا الله.

---

(١) مقطع من كلام الشيخ الأميني بهذا الصدد قال: بل نحن نقول: إن المراد من إسلامه وإيمانه وأوّلويته فيهما وسبقه إلى النبي في الإسلام هو المعنى المراد من قوله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وفيما قال سبحانه عنه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وفيما قال سبحانه عن موسى عليه السلام ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وفيما قال تعالى عن نبيه الأعظم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾. وفيما قال: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾. وفي قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾. وفي قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أيضاً عندما نواجه هذه الشخصية نجد أن كل الجوانب فيها متسامته، بمعنى أنه لا نرى ظاهرة من الظواهر انفرد بها هي أكبر من غيرها، أو أنه تميز بها، أو ليس فيه غيرها، بينما لو درسنا شخصية أخرى، فلا بد وأن نجد فيها جانباً يطغوا على الجانب الآخر، بحيث تعرف مثلاً بالشجاعة، ولكن جانب الحلم فيها منعدم، أو أنها تعرف بالكرم، ولكن جانب العطف فيها منعدم، وهكذا .... وإلخ. بينما نلاحظ هذا الرجل في كل جانب من الجوانب لا يقل فيه عن الآخر، فكل الجوانب فيه متسامته، فهو قمة في كل أبعاد حياته.

الخاصية الرابعة: التي انفرد بها عن بقية أصحاب النبي صلى الله عليه وآله هو أنه صلى قبل الناس بسبع سنين[1]، ومن ثم قال: (اللهم إنك تعلم إن لم يعبدك أحد من هذه الأمة بعد نبيها قبلي، ولقد عبدتك قبل أن يعبدك أحد من هذه الأمة بست سنين)[2] وفي رواية سبق الناس إلى الصلاة بسبع سنين. فلهذا قالوا: إن الصلاة لها معنيان ولسنا بصدد تبيين ذلك، إنما نحن بصدد هذه الخاصيات التي انفرد بها.

الخاصية الخامسة: التي أنيطت به عليه السلام هي حفظ النبي صلى الله عليه وآله وهي أكبر مهمة وذلك في حالتين:

الحالة الأولى: عندما حوصر الهاشميون في ذلك الشعب، وذلك عندما أحست قريش بأن دعوة النبي تهددها، حيث أن قريشاً في بادئ الأمر تصوروا أن دعوت النبي يمكن أن يتغلبون عليها، أو أن يحتوونها بأي طريقة من

---

(١) انظر المجلد الثالث من موسوعة الغدير[الأميني] فإنه قد ذكر أسماء مجموعة من الرواة، ومنهم أبو رافع قال: مكث علي يصلي مستخفياً سبع سنين وأشهراً قبل أن يصلي أحد. قال: وأخرجه الطبراني. الهيثمي في المجمع ٩ ص ١٠٣. الحمويني في الفرائد ب٤٧.

(٢) المعجم الأوسط - الطبراني ج ٢ ص ٢٠٧. في رواية أخرى (اللهم إنك تعلم أنه لم يعبدك أحد من هذه قبلي، ولقد عبدتك قبل أن يعبدك أحد من هذه الأمة ست سنين) كنز العمال ج ١٣، ص ١٢٢، غاية المرام السيد هاشم البحراني ج ٥ ص ١٧٣، شرح إحقاق الحق السيد المرعشي ج ٧ ص ٥٧٣.

الطرق، بحيث يقفون في طريق حماة الدعوة، أو يبعدونهم من مكة، فلما أن جربوا ذلك ولم تنجح مساعيهم، اجتمعت قبائل قريش في دار الندوة وقرروا أن يقاطعوا الهاشميين، بأن لا يتزوجون منهم، ولا يبيعونهم، ولا يشترون منهم، ولا يكلمونهم، ويمنعون عنهم كل شيء، حتى الطعام والشراب، هكذا كتبوا صحيفة وعلقوها في الكعبة، وجمعوا بني هاشم وبني الفضل بذلك الشعب، وأداروا عليهم حراسةً قوية، حتى مكثوا في ذلك الشعب ثلاث سنين[١] محصورين، لا يصل إليهم من الطعام إلا الشيء القليل، وذلك عن طريق السر. حتى أن المؤرخين ومن جملتهم ابن أبي الحديد يقول: كان دأب أبي طالب عليه السلام خلال تلك السنين الثلاث لا ينام من الليل إلا القليل، لأنه ينتظر رسول الله صلى الله عليه وآله حتى يغير مكانه، ويأتي بعلي يضجعه مكانه، ويمكث على هذا المنوال إلى أن يأتي الصباح[٢]. وفي يوم من الأيام قال له الإمام أمير المؤمنين: (يا أبتاه إني مقتول ذات ليلة)[٣]، فقال أبو طالب:

أصبرن يا علي فالصبر أحجى ... كل حي مصيره لشعوب
قد بدلناك والبلاء عسير ... لفداء النجيب وابن النجيب
لفداء الأغر ذي الحسب الثاقب ... والباع والفناء الرحيب[٤]

يقول المؤرخون فأجابه الإمام عليه السلام:

أتأمرني بالصبر في نصر أحمد ... فوالله ما قلت الذي قلت جازعا
ولكنني أحببت أن ترى نصرتي ... وتعلم أني لم أزل لك طائعا[٥]

فكان علي عليه السلام في تلك الفترات الطويلة التي مرت على النبي صلى الله عليه وآله، قد

---

(١) قريب منه روضة الواعظين - الفتال النيسابوري ص ٥٣.
(٢) روضة الواعظين: ٥٣.
(٣) مناقب آل أبي طالب - ابن شهراشوب - ج ١ ص ٥٨، الفصول المختارة - الشريف المرتضى - ص ٥٩.
(٤) روضة الواعظين - الفتال النيسابوري ص ٥٤.
(٥) الفصول المختاره - الشريف المرتضى ص ٥٩، الأحتجاج - الشيخ الطبرسي ج ١ هامش ص ٣٤١، مناقب آل أبي طالب ابن شهراشوب ج١ ص ٥٩.

تحول إلى فدائي يضع نفسه في مكان الخطر دون رسول الله صلى الله عليه وآله يقيه بنفسه، واستمر على هذا المنوال تلك السنين الثلاث، حتى جاؤوا إلى الصحيفة فأخرجوها من قلب الكعبة، فرأوا وإذا الأرض قد أكلتها ولم يبقى منها إلا باسمك اللهم، وكان ذلك سبب الإفراج عن حصار بني هاشم. إذاً علي عليه السلام لم يبارح مكان النبي صلى الله عليه وآله في المنام خلال تلك الفترات الطويلة.

واليوم الثاني الذي أنيط به أن يكون فداءً لأشرف مخلوق ليلة الهجرة، عندما هبط جبرائيل على النبي صلى الله عليه وآله يخبره بأن قريشاً قد ائتمرت فيما بينها على قتله، ونزل يحمل هذه الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1]. وأمر النبي صلى الله عليه وآله بأن يتهيأ للخروج من مكة، بحيث لم يبق للنبي في مكة من يساند دعوته، أمره بالهجرة وأمره أن يضجع علياً في مكانه، فنادى النبي صلى الله عليه وآله علياً وأمره بالمبيت على فراشه، وقال لعلي عليه السلام: (أرضيت أن أطلب فلا أوجد وتوجد فلعله أن يبادر إليك الجهال فيقتلوك؟) قال: (بلى يا رسول الله رضيت أن يكون روحي لروحك وقاء ونفسي لنفسك فداء...)[2].. ثم خرج النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام أخذ برده وتلفع به واضطجع مكانه، فلما أن جاء الليل أقبلت قريش وفق الخطة المرسومة، وقد كانوا مجموعة من كل قبيلة رجل، وكل رجل بيده سيف، فوقفوا أمام البيت وكلما حاولوا الدخول كان أبو جهل يمنعهم من ذلك، قائلاً لهم: لا أدعكم تدخلون الآن، لأن في البيت عائلة قد تروع فلا أفسح لكم المجال، إلى أن يأتي الصباح، فلما أن انبلج عمود الفجر هجموا، فأول من تقدم منهم مهلع وهو عبد لأبي جهل، وأبو جهل ومعه أبناؤه، فهب علي في وجوههم، فلما نظروا إليه قالوا: أين محمد؟ قال: (أوتركتموني عليه حارساً؟)[3]. قالوا له: أبيت أن تخبرنا؟ عندها شد عليه مهلع، فشدَّ عليه علي عليه السلام فقتله، لما قتله وقف القوم بأجمعهم ، ثم كروا

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٢) بحار الأنوار ج ١٩، ص ٨١.

(٣) مسند أحمد ١: ٣٤٨، فتح الباري ٧: ١٨٤.

راجعين، فأخذ علي سيفه، لما نظروا إلى جده تراجعوا. هذه الصورة التي يصورها الكعبي في داليته:

ومواقف لك دون أحمد جاوزت بمقامك التعريف والتحديدا
على الفراش مبيت ليلك والعدى تهدي إليك بوارقاً ورعودا
فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما يهدي القراع لسمعك التغريدا
ووقيت ليلته وبت معارضاً بالنفس لا فشلاً ولا رعديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى أوما دروا كنز الهدى مرصودا[1]

وقد خلّدت السماء هذا الموقف العظيم، ونزلت الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[2]. وهبط جبرئيل وميكائيل عليهما السلام وكلٌّ واحد منهما يقول: (بخ بخ لك يابن أبي طالب، من مثلك وقد باهى الله بك ملائكة السماوات)[3].

ولهذا نحن إذا أردنا أن نواجه علياً في كل بعد من أبعاد حياته إنما نواجه قمةً تنحني لها الرقاب وتهتز لها النفوس وتمتلئ لها إعجاباً. إنما الذي يجب أن نترك له مجالاً في الحديث، هو أن نتعرف على عظم المؤامرة في اغتيال هذه الشخصية، ومَن الذي كان وراء ذلك، الواقع إن هذا الموضوع فيه نظريات:

النظرية الأولى: النظرية التقليدية التي كان المؤرخون إذا مروا بها يضعونها على عاتق الخوارج فقط، حيث أنهم قالوا: إن الذي أغتال الإمام هم الخوارج، وهذه النظرية التقليدية مكثت مدة من الزمن بدون أن يتنبه المحللون إلى ما في ثناياها، أو أن يحللوا الواقعة تحليلاً عميقاً، ولكن في الحقيقة أن لدينا ثلاث نظريات - أو ثلاثة آراء - لأن النظرية الأولى وهي النظرية التقليدية أعقبتها النظرة المحللة، النظرة المحللة فيها ثلاثة آراء.

---

(١) للكعبي في كتاب أعيان الشيعة - السيد محسن الأمين - ج١ - ص٣٧٦، علي في السنة والأدب - الحاج حسين الشاكري - ج٤ - ص٣٨٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

(٣) الأمالي الطوسي ٤٧١ - ٤٧٢، شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٦٢، التفسير الكبير ٥ : ١٧٤، بحار الأنوار ج ١٩ ص ٨٥.

الرأي الأول: يذهب إلى أن الذي قتل الإمام وحاك الأمر وهيأ قتله هو الأشعث بن قيس. حيث يذهب إلى هذا الرأي صاحب كتاب الأغاني، وأيضاً معه جماعة من المؤرخين، ومن ثَم يقول: إن القضية لها سبب، والسبب هو أن الأشعث دخل ذات يوم من الأيام على الأمام أمير المؤمنين عليه السلام يخطب منه ابنته زينب عليها السلام، والملفت للنظر هنا، هو أن الأشعث قد تزوج أخت الخليفة الثاني أم فروة من قبل، وأنجبت له أولاده المعروفين، محمد وعبد الرحمن... إلخ، إلا أن الأشعث عندما تزوجها لم يتزوجها حباً في الدين، وقد كان الأشعث سلوكه معرفاً عند المؤرخين، فقد أسره الإسلام مرة والكفر مرة، ومن يريد الإطلاع على ذلك، فليراجع الكتب التاريخية، منها الإصابة، وأسد الغابة، والاستيعاب، وكتب الرجال الأخرى، فإنهم قد أثبتوا ترجمته بالكامل، - كي نتفادى نحن معشر أتباع أهل البيت الاتهامات - لأنه قد يقول البعض: إنكم تحبون علي بن أبي طالب فلهذا ترجمتم عدوه بترجمة لا تتناسب معه، فكل من في قلبه هوس من هذا القبيل، عليه أن يقرأ ترجمته في كتب المذاهب الإسلامية الأخرى، حتى يعرف مَن هو الأشعث، والغريب في الأمر أن الأشعث بن قيس وهو مَن كان في داخله مجموعة من النقائص نجد البعض يعتبره من الرواة العدول ويروي عنه روايات عديدة.

الغرض هو أن الأشعث دخل على الإمام يخطب منه ابنته زينب، فرده الإمام رداً حاسماً، لأنه يعرف من هو الأشعث، ويعرف لماذا تزوج بفروه أخت الخليفة الثاني، حيث أنه أراد من زواجه بها أن يستغل تلك المكانة، ويعبث بمقدرات الأمة، يقول المؤرخون: وهذا ما حصل بالفعل، بحيث أصبح ذلك الزواج زواج تجاري محض، على حد تعبير البعض، فقد أستغله لمصالحه الخاصة، ثم أراد أن يكرر ذلك الزواج مع علي عليه السلام لكن الإمام كان متنبه لذلك، فلهذا قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: (بناتنا لبنينا وبنونا لبناتنا)[1]

---

(١) هذا النص تجده في كثير من الكتب منها جواهر الكلام - الشيخ الجواهري ج ٣٠ ص ١٠٨، من لا يحضره الفقيه ج ٣ ص ٣٩٣.

تقول الرواية فألح على الإمام فرده الإمام بكلمة يستحقها، فمن ذلك الوقت خرج الأشعث وهو ممتلؤ غيضاً، وبدأ في حبك المؤامرة، لأن هؤلاء الثلاثة الذين قاموا بالأمر وهم عبد الله التميمي، والبرك وشبيب بن بهرة، كل هؤلاء ليس فيهم مَن هو بمستوى من يخطط لاغتيال خليفة، أياً كان وهو في عاصمته، أي أنه لا يستطيع أحدهم أن يقوم بعملية بهذا المستوى من الكبر، لأنهم لا يملكون هذا الاستعداد. إذاً لا بد وأن يكون من ورائهم من يسندهم ومن يموّلهم ويرتب الأمر، فالأشعث هو الذي هيّأ لهم المناخ الملائم، وبيَّت جماعة من الناس في المسجد لمساعدتهم، وحضر بنفسه لمساعدتهم، حتى سمعوه يخاطب عبد الرحمن بن ملجم يقول: أنجا، أنجا، لحاجتك فقد فضحك الفجر، كما وأن الأشعث مواقفه كلها تدل على انحرافه عن علي عليه السلام، ولا ننسى أن الأشعث له مواقف في صفين، وله مواقف في تحكيم الحكمين، وله مواقف بعد ذلك، وكل تلك المواقف يساند بعضها بعضاً، وتشكل دليلاً قائماً على أنه في غاية الانحراف عن علي بن أبي طالب عليه السلام ويريد الخلاص منه، لأن علي بن أبي طالب يعامله معاملة أي إنسان آخر، ولم يجعل له تميزاً على غيره، بينما هو يريد لنفسه ذلك، وهذه هي إحدى الأسباب التي أثارت المجتمع على علي بن أبي طالب عليه السلام، لأنه إذا وزع العطاء من بيت المال لا يفرق بين نفسه وواحداً من مواليه، فبمقدار ما يدفع لقنبر يجعل لنفسه، لأن العطاء في نظر أمير المؤمنين عليه السلام لا بد وأن يأخذ طريق التسوية، ذلك لأنها أموال خراجيَّة، والأموال الخراجية في نظر أمير المؤمنين عليه السلام الناس فيها على حد سوى، ولهذا السبب دخلوا عليه جماعة من خواص أصحابه في يوم من الأيام، وقالوا له: يا أمير المؤمنين إن المجتمع طبقات، فيه الزعماء، وفيه الرؤساء، وفيه الشعراء، - والشاعر آنذاك بمثابة الصحيفة السياسية في يومنا هذا - فلا بد من أن تجعل لهم تميزاً على غيرهم في العطاء، فقال لهم الإمام عليه السلام: (أتأمروني [اتأمرونني] أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجماً لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال

الله ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف..)[١].. قال عليه السلام: (ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز)[٢]. وقال: (والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، أو أجر في الأغلال مصفداً، أحبُّ إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفسٍ يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها؟!..)[٣]..

فكأنما يقول لهم - بهذه العبارات التي مرت - لا تتوقعون مني في يوم من الأيام أنني أعمل ذلك، لأن هذه الدنيا ليس لها قيمة عند علي ابن أبي طالب أبداً، فلهذا ما كان مستعداً أن يسحق مبادئه من أجل أن يرضي شرذمة من الناس، أو أن يسحق الطبقة العامة منهم، أو أنه يأتي إلى بيت المال كغيره ويعبث فيه، ويكون بذلك مخالف للنص، لأن هذه الأموال للمسلمين، وقسمة الأموال هنا تقتضي التسوية، فلهذا ما سوغ لنفسه أن يأخذ سهم الضعفاء ويدفعه إلى الأشعث أو نظرائه، الناس في نظر أمير المؤمنين على حد سوى في الأموال. فلهذا الأشعث لم يكن بالذي يرضيه أن علي بن أبي طالب يسد المجال أمامه، لأنه قد أعتاد من قبل أن له منزلة، وأن له مكانة، وأن الزواج الأول أعطاه ميزة على غيره من الناس الضعفاء، فأراد أن يأخذها في زواج ثانٍ، فطرده الإمام، فلهذا اشترك في المؤامرة وأدى الأمر إلى قتل الإمام عليه السلام وهذا الرأي يميل إليه مجموعة من المحققين.

الرأي الثاني: أن الذي قام بالأمر هو معاوية بن أبي سفيان، وهذا الرأي يؤيده الطبري، كما يميل إليه دولها وزن المستشرق نقلاً عن الطبري، وكذلك أحمد عباس في كتابه اليسار واليمين في الإسلام، ويستدلون على أن الإعداد لقتل علي بن أبي طالب تم في مكة المكرمة، وذلك في موسم الحج، وأن

---

(١) نهج البلاغة: كلامه لما عوتب على التسوية ص٢١١.

(٢) نهج البلاغة في آخر الخطبة المعروفة بالشقشقية ج١، ص ٣٧، علل الشرائع الشيخ الصدوق ج ١، ص ١٥١، وكتب أخرى كثيرة تناقلتها.

(٣) نهج البلاغة من كلام له عليه السلام ٢٢٤.

خيوط المؤامرة كانت في يدي معاوية، والذي يؤيد ذلك أبيات أبو الأسود الدؤلي:

ألا أبلغ معاوية بن حرب   لقد قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا   بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا   وذللها ومن ركب السفينَ[1]

وكثير من المؤرخين يذهب إلى هذا الرأي، ولهذا قالوا: إن الليلة التي كانت فيها الحادثة، كان معاويةُ على علم بها، ولهذا اخذ الحيطة لنفسه، بأن لبس درعاً تحت ثيابه، - كما أشار إلى هذه المصادر أحمد عباس في كتابه اليسار واليمين في الإسلام -، وأما عمرو بن العاص فإنه قد تغيب في تلك الليلة، إذاً القضية لم تكن صدفة وإنما كانت مهيأة، وكانت الأداة التنفيذية هم الخوارج، حيث أنهم ارتأوهم أحسن أداة، لأنهم كانوا موتورين في واقعة النهروان، وذلك لأنهم كانوا أربعة الآلف لم يسلم منهم إلا أحد عشر شخص، فلهذا أصبحوا يحملون حقداً لا حدود له، من هنا اتخذوهم أداة تنفيذية، والذي دبر الأمر هو معاوية بن أبي سفيان، وأولياته كانت ممتدة إلى الأشعث وجماعة آخرين في الكوفة.

والرأي الثالث: هي أن المسألة اختصت بالخوارج، وهذا هو الرأي التقليدي الذي كان سائداً من قبل؛ ولكن البحث والتحقيق والتنقيب يؤيد أن الخوارج كانت مجرد أداة تنفيذية، فللتمويه على جريمتهم عينوا شخصاً منهم أن يذهب إلى معاوية ويضربه ضربةً بسيطة على إليته، ففعل، فأعطوا معاوية بعد ذلك شربة برأ منها. وأما عمرو بن العاص فقد تغيب في تلك الليلة، وأخرج مدير شرطته خارجة، حيث كان بينهما أمر كلٌّ يضمره في نفسه، فجاء ذلك الرجل وضرب خارجة، وبقي يعالج إلى أن مات، وجاء عبد الرحمن بن

(١) الغدير الأميني ج ١١ ص ٧٩، تاريخ الطبري ج ٤ ص ١١٦، نهج السعادة الشيخ ج ٨ ص ٥٠٨، مقاتل الطالبيين ص ٢٧. وهذه الأبيات الكثير يرويها لأم الهيثم بنت العريان النعية.

ملجم إلى الكوفة، فلما دخلها واجه بها قطام بنت الأخضر التميمية، التي قتل أبوها وأخوها وبعض أعمامها في النهروان، فأعجبته المرأة فخطبها، فقالت: لي عليك ثلاثة شروط قال: وما هي؟ قالت: الشرط الأول: ثلاثة آلاف وعبد وقينه، والشرط الثاني: أن تقيم معي في الكوفة، والشرط الثالث: قتل علي بن أبي طالب، هذه الشروط إذا حققتها فهنا لك العيش معي، فقال لها: ومن يقوى على قتل علي بن أبي طالب؟ حيث أنه تصور أنها دسيسة تريد أن تختبره، ولكنه لما رآها تقول الجد وعرف أنها جادة، قال: اعلمي والله ما أقدمني إلى هذا المصر إلا قتل علي بن أبي طالب، قالت: إذاً أنا طالبةٌ لك من يساعدك ويقويك، فطلبت وردان بن مجاهد، وشبيب بن بحرة، وكلاهما من الخوارج أيضاً، فأمرتهما بمساعدته، ودخلوا عليها يوم الأربعاء، وهي معتكفة قد ضربت عليها قبة من الادم في مسجد الكوفة، فناولتهم أسيافهم، وكانوا من قبل معها، وقد أحاطتهم بالسم ثلاثة أيام، فعصبت صدورهم بحرير، وخرجوا، وكلٌّ واحد منهم أخذ طرقه، بحيث كانوا موزعين في المسجد، وكذلك الأشعث وجماعته كانوا موزعين، وبات أمير المؤمنين عليه السلام تلك الليلة يتأهب للقاء ربه، لأنه أحس أنها ليلته، حيث أنها بدت بوادر لديه أنها هي الليلة التي يُستشهد فيها، لأن الأمام يعلم إجمالاً أنه سيقتل في هذا الشهر، ويعرف أنه في ليلة من الليالي يقتل، ولكن الليلة بالتعيين أغلب المحققين قالوا أن الإمام لا يدريها، ولكنه يعلم بأن ابن ملجم يتولى قتله، وفي ليلة من ليالي شهر رمضان، وقد مرت عليه أوقات يضع يده على كريمته ويقرأ:

تلكم قريش تمناني لتقتلني ... فلا وربك ما فازوا وما ظفروا
فإن بقيت فرهن ذمتي لهم ... بذات ودقين لا يعفى لها أثر[1]

وقد سمع منه ترديده لهذه العبارة: (متى ينبعث أشقاها حتى يخضب هذه

---

(١) مناقب آل أبي طالب ابن شهرآشوب ج ٣، ص ٩٦، بحار الأنوار ج ٣٤، ص ٢٢٣.

من هذا)[١] ويشير إلى لحيته ورأسه، في تلك الليلة تقول: ابنته قدمت إليه عند إفطاره طبقاً فيه قرصان من خبز الشعير وقصعة فيها لبن وملح جريش، فلما فرغ من صلاته أقبل على فطوره، فلما نظر إليه وتأمله، حرك رأسه وبكى بكاء شديداً عالياً، إلى أن قال: . . . أتريدين أن يطول وقوفي غداً بين يدي الله عزوجل يوم القيامة، أنا أريد أن أتبع أخي وابن عمي رسول الله صلى الله عليه وآله ما قدم إليه أدامان في طبق واحد إلى أن قبضه الله إليه، يا بنية: ما من أحد طاب مطعمه ومشربه إلا طال وقوفه بين يدي الله عزوجل يوم القيامة[٢]. تقول: فلما رفعته تقدم إلى الطعام فأكل قرصاً واحداً بالملح الجريش ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قام إلى صلاته فصلى ولم يزل راكعاً وساجداً ومبتهلاً ومتضرعاً إلى الله سبحانه، يقول المؤرخون: وكان بين الآونة والأخرى يخرج يقلب طرفه في الكواكب وفي النجوم يقول: (والله ما كذبت ولا كذبت، وإنها الليلة التي وعدت بها)[٣] ثم يعاود مضجعه إلى أن أوشك الفجر على الانبلاج جدد وضوئه، ثم نزل إلى صحن الدار، وكان في صحن الدار طيور من الاوز قد أهديت للإمام الحسن عليه السلام فلما وقع بصره عليها رفرفن في وجهه، لما نظر إلى ذلك قال: (صوائح تتبعها نوائح)[٤] ثم أقبل إلى باب الدار وعالج فتحه فانحل مئزره فأخذ يشد الإزار وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيك

ولا تجزع من الموت ... إذا حل بواديك

ولا تغتر بالدهر ... وإن كان يواسيك

كما أضحكك الدهر ... كذاك الدهر يبكيك[٥]

---

(١) نهج السعادة الشيخ المحمودي ج ٢، ص ٦٩٤، شواهد التنزيل الحسكاني ج ٢، ص ٢٣٨.

(٢) الأنوار العلوية ص ٣٧١، بحار الأنوار ج ٤٢، ص ٢٧٦.

(٣) روضة الواعظين ص ١٣٦.

(٤) روضة الواعظين ص ١٣٦.

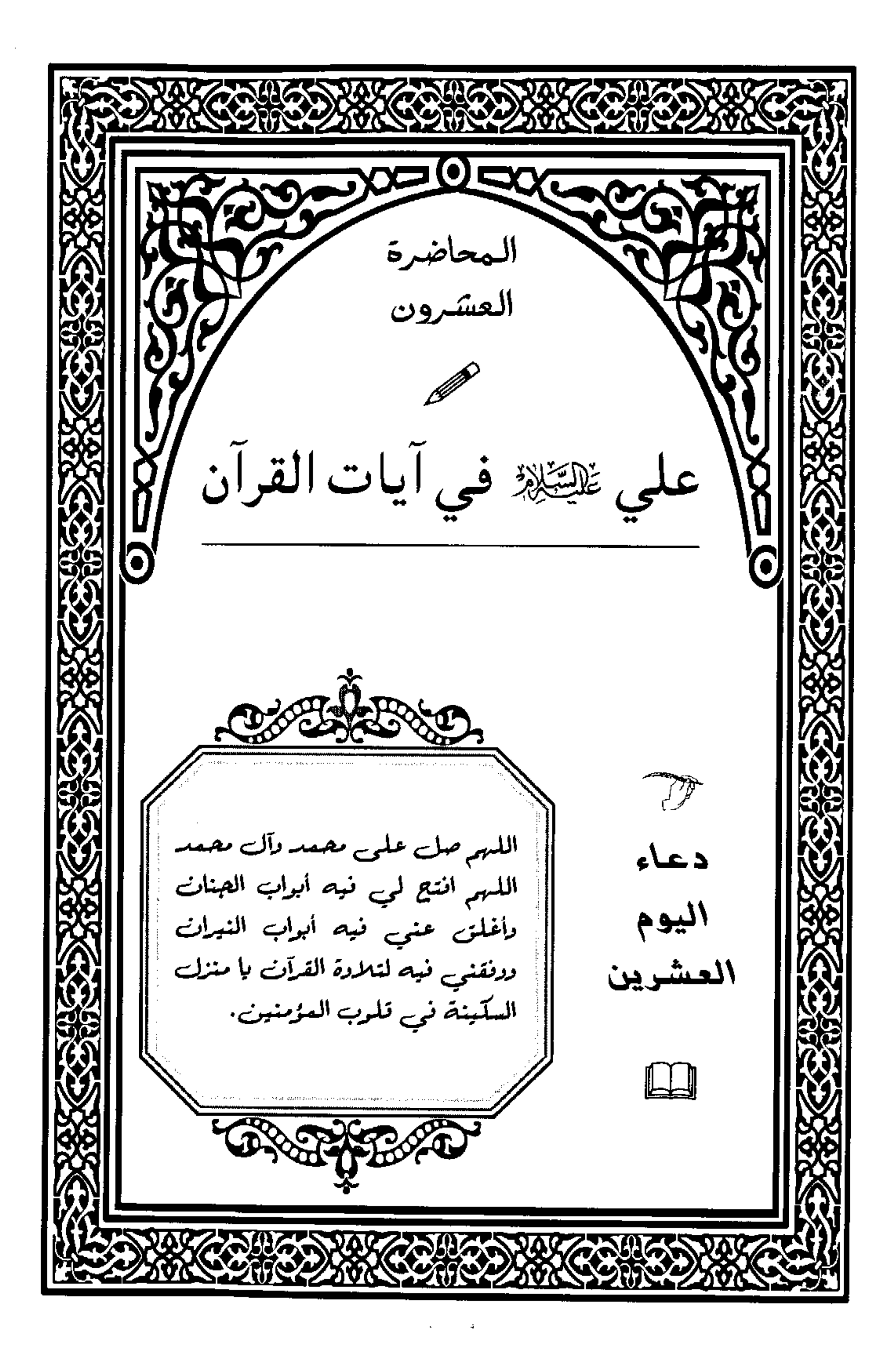
(٥) الإرشاد الشيخ المفيد ج ١، ص ١١، بحار الأنوار ج ٤٢، ص ١٩٢.

ثم خرج عليه السلام فتبعه الحسنان إلا أنه أمرهما بالرجوع فرجعا ومضى أمير المؤمنين إلى المسجد، فلما دخل المسجد وحان وقت الصلاة صعد المئذنة وما كاد يصعد ويؤذن حتى اضطربت حيطان المسجد، ثم نزل يوقظ الناس إلى الصلاة واحداً واحدا. إلى أن جاء إلى محرابه فرفع يديه حيال أذنيه وكبر، ثم قرأ القراءة في الركعة الأولى، ثم أهوى إلى الركوع ورفع رأسه ثم أهوى إلى السجود، وما كاد أن يرفع رأسه حتى لاح بريق السيف وقائل يقول الحكم لله لا لك يا علي، وإذا بالسيف على أم رأسه، فسقط أمير المؤمنين في محرابه وأخذه نزف الدم، وصاح قتلني ابن اليهودية، لا يفوتنكم الرجل، وإذا بالصوت وهو نداء جبرئيل بين السماء والأرض: (تهدمت والله أركان الهدى، وانطمست والله نجوم السماء وأعلام التقى، وانفصمت والله العروة الوثقى، قتل ابن عم محمد المصطفى قتل الوصي المجتبى قتل علي المرتضى قتل والله سيد الأوصياء، قتله أشقى الأشقياء)(١) فأقبل الناس يهرعون من كل جانب ومكان وهم ينادون واسيداه، وصلوا إلى المسجد وإذا بأمير المؤمنين مسجىً بمحرابه، والإمام الحسن يشد رأسه بمئزره، والدماء تسيل على جسده الشريف وكأني بالإمام الحسن يخاطب أباه على لسان أحد الشعراء:

هالضربة القشره يبويه امنين حلت   بعدك يا داحي الباب شوكتنا افتلت
ها لضربت إللي هدت اركان لمسلمين   هلي فعلها راح يا باب العلم وين
من جسر يالاهوتها الأعظم يبو حسين   بطل ونينك يالولي قلبي تفتت
بطل ونينه والدمع هل أو تحدر   صابغ بدم الراس وينادي يشبر
هذا الذي مكتوب لي من عالم الذر   من عالم التكوين هالطبره انكتبت(٢)

---

(١) بحار الأنوار ج ٤٢، ص ٢٨٢، الأنوار العلوية الشيخ جعفر النقدي (ره) ص ٢٧٧.
(٢) الجمرات الودية في المودة الجمرية ج ١.



المحاضرة
العشرون

علي عليه السلام في آيات القرآن

دعاء
اليوم
العشرين

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم افتح لي فيه أبواب الجنان
وأغلق عني فيه أبواب النيران
ووفقني فيه لتلاوة القرآن يا منزل
السكينة في قلوب المؤمنين.

٢٠

علي عليه السلام في آيات القرآن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾(١).

***

عندما نسبر التأريخ الإسلامي، نبحث عن شخصية تضاربت فيها أقوال البشر، وانصبت عليها جداول الثناء من الله تبارك وتعالى ومن رسوله صلى الله عليه وآله، لم نجد لأحد من الناس بمقدار ما كان لعلي بن أبي طالب عليه السلام وبقول قاطع، والسر في ذلك أن علي بن أبي طالب عليه السلام قد جمع من أسباب التأهل والعظمة ما لم يجمعه أحد، وسنحاول في هذه الصفحات أن نستجلي ولو بعضاً منها.

مثلاً منها في القرآن الكريم آيات كثيرة، وفي كتب التاريخ نصوص معتبرة، قد وردت عن النبي صلى الله عليه وآله وكلها تشير إلى مكانته ومنزلته عند الله تبارك وتعالى وعند رسوله صلى الله عليه وآله، ولكن قبل الدخول فيها، نقول: إن كل من له إلمام بالفكر الإسلامي، وتحديداً بفقه الشريعة والتفسير، يعلم عدد الآيات التي نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، ويعلم بالأحاديث أيضاً، بمعنى أن المهمة تحتاج إلى تخصص، ولهذا يجب على كل من يكلف بهذه المهمة أن يكون مؤهل لها علمياً، فإذا كان الأمر كذلك، فمن المؤكد أنه سوف يرى الآيات التي أشار إليها المفسرون، وهم من مختلف المذاهب الإسلامية، لأن علماء التفسير من

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

مختلف مذاهب المسلمين أشاروا إلى ذلك، وهو أن الإمام علي عليه السلام نزلت فيه آيات تربوا على ثلاث مائة آية[1]. كما عن ابن عباس رضي الله عنه ومن المؤكد أنه لا يكلف أحد بأن يؤمن بذلك إيمان أعمى، ما لم يرجع بنفسه حتى يكون على حقيقة من الأمر.

ولكن - مما يؤسف إليه - عندما نسمع البعض من أرباع المتعلمين أحياناً في بعض وسائل الاعلام، أو نرى فيما يؤلف لديهم من كتب، أنهم إذا مروا بمنقبة لعلي بن أبي طالب عليه السلام إما أن ينفونها، وإما أن يضعون عليها نوعاً من الضباب، إلا أن هؤلاء في واقع الأمر لا يعنينا أمرهم، لأنهم ليسوا مؤهلين لكي ينفون أو يثبتون، ذلك لأن المعلومات التي لديهم لا تتجاوز بعض المعلومات السطحية، كما أنهم يعيشون على أفكار تقليدية، أخذوها من زاوية التعصب، قبل أن يأخذونها من زاوية الواقع، فمن هذا القبيل لا يعنينا أمرهم، إنما يعنينا أمر الأساطين من العلماء المؤهلين للخوض بأمثال هذه المواضيع، ومؤلفاتهم بين أيدينا شاهدة على ذلك، ولكن الأمر الذي نريد أن نصل إليه، وذلك بعد أن نذكر طائفة من الآيات والأحاديث، نقول: هل أن تلك الآيات والأحاديث التي سنذكر بعضها هي التي خلقت له المنزلة؟ أم أن لديه مؤهل ذاتي فكانت الآيات تشير إلى ذلك المؤهل الذاتي؟

هذا الأمر الذي يجب أن نستنتجه ونتفهمه، فتارةً نقول: أن الآية هي التي خلقت له المنزلة، وتارةً تكون المنزلة موجودة في علي وتأتي الآية فتشير إليها، فمثلاً عندما نعتته الآية الكريمة بالجهاد، هي لم تخلق له الجهاد، وإنما نسبت إليه الجهاد، بمعنى أنها انتزعت هذه الصفة وهي صفة الجهاد من ذاته، أي أنه كان مجاهداً فأثنت عليه الآية بالجهاد، وليس الثناء في الآية هو الذي خلق له الجهاد، وهكذا كل الآيات الأخرى، ولذا فإن هذا الأمر - إذا تأملناه - هو في غاية الوضوح. ومن هذا المنطلق نرجع إلى الآية التي افتتحنا

---

(١) من جملة المصادر التي روت ذلك تاريخ بغداد ج: ٦ ص٢٢١. الصواعق المحرقة: ٧٦. نور الأبصار: ٧٦. وغيرها. . . . وهذه الآيات يقسمها العلامة الشيخ باقر شريف القرشي إلى أربع طوائف، وذلك في كتابه «موسوعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام».

بها البحث وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ إن هذه الآية برواية جمهور المفسرين والمؤرخين أنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام. وهنا قد يقول البعض هناك من يجادل في هذا، واقعاً إذا كان الجدال منبعث عن تحري للحقيقة فلا بأس في ذلك، أما إذا كان الجدال منبعث عن تعصب لقبول الحقيقة، فليس هناك مجال للحديث مع هؤلاء الأشخاص، لأننا من أي منطلق نعرف أن الآية نزلت في علي أو في غيره؟ ذلك إذا رجعنا إلى الطرق التي يعتمد عليها العلماء لإثبات ذلك، لأن المفسرين يعتمدون على روايات جاؤوا بها أشخاص من المسلمين، والقاعدة المتبعة عندهم أنهم ينظرون في سلوكيات أولائك الأشخاص قبل الأخذ برواياتهم، فإذا كانوا أولئك الأشخاص موثوقين وصادقين، والرواية قد جاءت على لسان الكثير منهم، بحيث تكون مشهورة عندهم، أو متواترة فيما بينهم ينتهي الأمر بهم أن يذعنون إليها. فإذا رجعنا إلى تفاسير المسلمين للبحث عن هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾. نجد تفاسير المسلمين تقول: إن الآية نزلة في علي ابن أبي طالب عليه السلام.

ولكن السؤال ما هو مفاد الآية؟ يقول العلماء: مفاد الآية أنها أشركت علي ابن أبي طالب عليه السلام بالولاية العامة.

أولاً: جعلت الولاية لله عز وجل، ثم الولاية للنبي صلى الله عليه وآله ثم الولاية له عليه السلام، فهذه الولاية التي أثبتتها الآية لعلي بن أبي طالب عليه السلام، دعنا نرى هل أن علي بن أبي طالب عليه السلام مؤهل لحملها أم لا؟ لأن الولاية أمانة، والأمانة لا تعطى إلا لمن هو مؤهل لحمل الأمانة، علينا أن نبدأ معه منذ أن واجه الحياة.

أولاً: الإمام علي عليه السلام دخل إلى الحياة فواجه بيت الله تعالى، بمعنى أن أول ما صافح خده أشرف بقعة في الأرض وهي الكعبة المكرمة، - وكما ذكرنا في الموضوع المتقدم كيف كانت العناية الربانية -[1] ثم حملته أمه

(١) من حين جاءت أمه إلى البيت ووضعته إلى أن خرجت به.

فتناوله أشرف صدر في الدنيا وهو صدر النبي ﷺ، فكان النبي يحمله على صدره إلى أن ترعرع ونشأ وهو على ذلك الصدر الطاهر، إلى أن طرق الوحي سمع النبي وهو إلى جانبه في غار حراء، وقد كان علي عليه السلام بنفسه يشير إلى ذلك في خطبته المشهورة، قال عليه السلام: (أنا وضعت في الصغر بكلاكل [كلكل] العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومُضر. وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة؛ وضعني في حجره وأنا ولد [وليد] يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمُّني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل... - إلى أن قال عليه السلام -:... ولقد سمعت رَنَّةَ [رَنَة] الشيطان حين نزل الوحي عليه عليه السلام) فقلت: (يا رسول الله، ما هذه الرنةُ؟) فقال: (هذا الشيطان قد أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير، وإنك لعلى خير)[1].

إذاً فعلي عليه السلام يؤكد ذلك في خطبته التي أثبتها الشريف الرضي في كتاب نهج البلاغة، بأنه كان في تلك الفترات على ذلك الصدر الطاهر، وفي تلك البيئة الطاهرة، ولهذا ما عرف السجود لصنم قط، لأنه كان إلى جانب النبي ﷺ، والنبي تحنف في غار حرا، وهو يرمق السماء بطرفه وهو يتملى إبداع الله عز وجل في الكون، فكان من بواكير حياته الأولى متّجهاً نحو السماء ملهماً من الله عز وجل، حتى إذا نزلت كلمة (**لا إله إلا الله**) كان أول لسان نطق بها بعد لسان النبي ﷺ هو لسان علي بن أبي طالب عليه السلام. فعلي عليه السلام أول المسلمين إسلاماً، إلا أنه - للأسف الشديد - بُذلت محاولات كثيرة وإلى الآن تبذل هذه المحاولات وذلك في أن تجعل علي بن أبي طالب في أوليةٍ إضافية، فيأتي البعض ليقول: إن علي بن أبي طالب هو أول صبي أسلم، وغيره أول كبير أسلم، إلا أن المسألة - في واقع الأمر - ليست مسألة صبي أو كبير أو صغير، إنما المسألة هي تجسيد الكلمة في السلوك، وذلك لأن البعض قد أسلم في بدء الدعوة، ولكنه لم يجسد الكلمة في السلوك، ومن

---

(١) نهج البلاغة: ص ٣٤٨/٣٤٩.

هذا المنطلق لا نقارن علياً بغيره، لأن غيره يفر من المعركة وعليٌّ ثابت فيها، لأن غيره يجبن المسلمين عن القتال وهو يدفعهم إلى ذلك، وهكذا كل مواقفه واضحة. من هنا لا تعنينا المقارنة في ذلك، فعليٌّ هو الذي رفع كلمة التوحيد مع رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كان عليٌّ أسبق الناس طراً إلى الإسلام، وبعد أن سبق غيره إلى الإسلام، مشى في طريق الإسلام، وقد كان له من العمر عشرة أعوام، ومن ذلك الوقت بقيت يده على سيفه، فحمل الإسلام فكراً، ودافع عنه جهاداً، وتبناه مبدأً، وسار فيه منهجاً، وما حاد عنه قيد شعرة واحدة أبداً. إلى أن ترعرع ونشأ وأصبح يقوى على أن يخوض الميادين، فكان المكافح الأول عن كلمة (**لا إله إلا الله**).

كما أن بين أيدينا تاريخ المزاوجة، وهو أن النبي صلى الله عليه وآله إذا أراد الخروج يكون الشخص الذي يلازمه كظله علي بن أبي طالب، فإذا تعرض النبي صلى الله عليه وآله إلى رشق الحجارة أخذ علي حقه من الحجارة، وإذا تعرض النبي إلى النبل أخذ علي حقه من النبل، وإذا تعرض النبي إلى الاغتيال وقف علي يفديه بنفسه، منذ أن بعث النبي صلى الله عليه وآله إلى أن هاجر من مكة، فكل المحن والآلام التي انصبت على رسول الله صلى الله عليه وآله كان لعلي منها القسط الأكبر، حتى ختم آخر ليلة من بقائه بمكة بتلك التضحية الكبيرة التي ظلت السماء تغرد بها، وذلك على مدى تعاقب الليالي والأيام: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1]. فعليٌّ عليه السلام آثر أن يبيت على فراش النبي صلى الله عليه وآله يقيه بنفسه، وختم إقامة النبي بمكة، وأنجى الله نبيه من كيد المشركين. وهكذا هاجر النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة ولم يتأخر عنه علي إلا أياماً، فلما وصل إليه أنزله في بيته لمدة سبعة أشهر، وذلك حال كونه في بيت أبي أيوب الأنصاري، ثم بنى النبي صلى الله عليه وآله المسجد وبنى إلى جانب المسجد بيوت نسائه، وبنى بيتاً لعلي كان إلى جانب بيته، وأغلق الأبواب كلها عن المسجد، وترك لعلي باباً مفتوحاً إلى المسجد، ولم يترك باباً لغيره. إذاً عليٌّ ما فارق النبي صلى الله عليه وآله في لحظة من اللحظات أبداً، وحتى في اللحظات الأخيرة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

من حياة رسول الله ﷺ، فرسول الله ﷺ فاضت روحه الطاهرة ورأسه في حجر علي عليه السلام، وهذا المعنى ذكره عليه السلام في كلامه الذي بين فيه اختصاصه بالنبي ﷺ قال: (ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، وتتأخر فيها الأقدام، نجدةً أكرمني الله بها ولقد قُبض رسول الله ﷺ وإن رأسه لعلى صدري، ولقد سالت نفسه في كفي، فأمررتها على وجهي، ولقد وُلِّيت غُسله ﷺ والملائكة أعواني)(١).

كذلك علي بن أبي طالب في الوقت الذي كان فيه بالقرب المكاني من رسول الله ﷺ كان أيضاً بالقرب الروحي منه، بحيث لا يكاد يفارقه لحظة من اللحظات، لأنه اشتق له منزلة الإخاء من نفسه، ترفع [سلام الله عليه] حتى عن الكلمة النابية أن يطلقها على ألد أعدائه، ولهذا كان الروح الكبيرة حتى على الروح التي تتلظى عليه حقداً، فكان تجسيداً لهذه الآية: وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٢) فكان عليٌّ الطهر الطاهر، فقد استل الله الرجس عنه وعن أهل بيته، وذلك لأنه أبى الرجس أولاً في عقيدته، فهو الموحد الذي سمعناه يمجد الله ويوحده، فيقول: (واحد لا بعدد، ودائم لا بأمد، وقائم لا بعمد(٣). **وثانياً**: أبى الرجس في فكره فرأيناه فكراً يسطر أبدع آيات التوحيد، **وثالثاً**: أبى الرجس في سلوكه، فما كانت له كذبةً في قول ولا في فعل، فما مد يده إلى بيت مال المسلمين، بل أنه كان العبء الذي يأبى إلا أن يأكل ما أخذه بكده، والذي يأبى أن يتناول إلا ما عرق به جبينه؛ يقول المؤرخون: دخل عليه أخوه عقيل وطلب منه أن يميزه على بقية الناس فقال: . . . اصبر حتى يخرج عطائي(٤).

---

(١) نهج البلاغة: خصبة رقم: ١٩٧، ومن كلام له عليه السلام ينبه فيه على فضيلته لقبول قوله وأمره ونهيه.

(٢) سورة الأحزاب مقطع من الآية: ٣٣.

(٣) نهج البلاغة - ج٢ - ص١١٥، بحار الأنوار - ج٤ - ص٢٦١، الاحتجاج - ج١ - ص٣٠٥.

(٤) قريب من هذا النص في كثير من الكتب، منها موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ ص ٢١٧.

يقول المؤرخون: وكانت أعظم تضحية من علي بن أبي طالب عليه السلام . لأن عطائه من بيت المال هو النفقة الوحيد له ولعياله، بحيث ليس له نفقة آنذاك إلا عطائه من بيت المال. يقول المؤرخون: كانَ عليٌّ عليه السلام يخرج إلى سوق الكوفة وبيده سيف يقول: من يشتري سيفي هذا؟ فوالله لو كان عندي ثمن أزار ما بعته[١]. فيبيعه ويرجع إلى البيت يحمل بضعة دريهمات يشتري بها الطعام لأهله.

من هنا نسأل أين موقع الطهر في حياة الأشخاص بهذا المستوى من حياة علي بن أبي طالب عليه السلام ؟ إنه الطهر المطهر الذي أشارت الآية به فقالت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ولهذا أبى أمير المؤمنين إلا أن يكون المصداق لهذه الآية الكريمة، فكان الطهر الطاهر بالقول وبالفعل؛ الله عزّ وجلّ خلقه وحباه بهذه الفضائل، أراد الله عزّ وجلّ أن يقدم لنا نموذجاً متكاملاً بالجسم وبالروح، فكان علي عليه السلام هو ذلك النموذج المتكامل، وذلك إذا استثنينا رسول الله صلى الله عليه وآله ، الله عزّ وجلّ أعطانا النموذج المتكامل جسداً وروحاً، أما بالجسد فما حدثنا التاريخ عن جسد كان يحمل باباً طولها ثمانية عشر ذراع، وعرضها عشرة أذرع، وسمكها ستة أشبار من الصخر الصلب، يقتلعها ثم يقذف بها ثم يحملها ويتفرس بها ويضع طرفاً منها على الخندق[٢] لغير علي عليه السلام . هذا تاريخ الأبطال بين أيدينا لم نسمع بنظير ذلك لأحد، ولا يقو أحد يدفع هذا القول بعد أن أطبق عليه تاريخ المسلمين، لأن ذلك لم يروه واحد، بل أن كتب السير بأجمعها ذكرت ذلك، من أن علي بن أبي طالب عليه السلام جاء إلى الحصن واقتلع باب الحصن وحمل ذلك الباب وتفرس بها وقتل بطل القوم مرحباً، الذي أحجم القوم عنه ورجعوا يجبن بعضهم بعضاً، يقول المؤرخون: رجع عليٌّ عليه السلام وهو مكلل بالنصر، نعم في تلك الواقعة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وآله : (أما لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله

---

(١) مناقب آل أبي طالب بن شهراشوب ج ١، ص ٣٦٦.

(٢) الإرشاد الشيخ المفيد ج ١ ص ١٢٧، كشف الغطاء الشيخ جعفر كاشف الغطاء ج ١، ص١٥.

ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه)[1]. حتى صاغ هذا المعنى أحد الشعراء:

وله يوم خيبر فتكاتٌ ... كبرت مَنظراً على من رآها
يومَ قال النبيّ إني لأعطي ... رايتي ليثَها وحامي حماها
فاشرَأبَت أعناقُ كلٌ فريقٍ ... ليرَوا أيَّ ماجد يُعطاها
فدعا أين وارثُ العلم والحلـ ... ـم مجيرُ الأنام من بأساها
أين ذو النجدة التي لو دعته ... بالثريا مَرُوعةٌ لَبَّاها
فأتاهُ الوصيُّ أرمدَ عينٍ ... فَسقاها من رِيقِهِ فَشفَاهَا
ويرى مَرحَباً بكفٌ اقتدار ... أقوياءُ الأقدار من ضُعَفاها[2]

إذاً الله تبارك وتعالى أراد أن يقدم للمسلمين جسداً مثالياً في غاية القوة والمتانة، وقد كان علي بن أبي طالب هو ذلك، ولهذا كان صوته يدوي في كل واقعة من الوقائع.

قال: (ما بارزني أحد إلا وأعانني على نفسه)[3] ولهذا عندما نتتبع تاريخ المسلمين لا نرى جسداً استوعبته الجراح في سبيل الله تعالى كجسد علي بن أبي طالب عليه السلام، ولا حدثنا التاريخ عن سيف دمر في وجوه الكتائب كسيف علي بن أبي طالب، ولا يهمنا تلك الدعاوى التافهة التي لا تصمد أمام الحقائق بنسبة الشجاعة لفلان وفلان وغير ذلك، إنما هو علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أفنى كل ذرة من جسده دفاعاً عن الإسلام وخدمة للمسلمين، فلقد شاء الله تعالى أن يقدم لنا هذا النموذج المتكامل لهذا الجسد، فكان يرجع إلى البيت وقد بنى الدم على جسده بنياناً، فقد كان

---

(١) الخرائج والجرائح قطب الدين الراوندي ج ١ ص ١٥٩، شرح اللمعة للشهيد الثاني ج ٧ شرح ص١٥١، زبدة البيان ص ١١٠. كما أن في كتب التأريخ لهذا النص تعابير مختلفة ولكنها كلها ترمي إلى هدف واحد.

(٢) من قصيدة الشيخ كاظم الأزري المعروفة بالأزرية. انظر: تخميس الأزرية: ٦١، شجرة طوبى٢: ٢٩٠.

(٣) الأنوار العلوية - الشيخ جعفر النقدي - ص ١٧٤.

يصدح وهو الصادق يقول: (والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها؛ وسأجهدُ في أن أطهر الأرض من هذا الشخص المعكوس [الرجل]، والجسم المركوس، حتى تخرج المدرةُ من بين حب الحصيد)(1).

وكما أن الله تعالى قدم لنا نموذجاً متكاملاً بالجسد، كذلك قدم لنا نموذجاً متكاملاً بالروح، فكانت روحه التي ما أذعنت ولا خافت من أحد من البشر قط، كانت إذا جن عليها الليل تحولت إلى نفس ترتعد من خشية الله تعالى، وتحولت إلى روح تذوب في طاعة الله تبارك وتعالى، وتحولت إلى أنة ولهى خوفاً من الله ومما ادخره الله غداً، فقد سمعه التاريخ وهو في أحشاء الليل وقد سقط على التراب بعد أن قال: (إلهي أفكر في عفوك فتهون علي خطيئتي ثم أذكر العظيم من أخذك فتعظم علي بليتي ثم آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها فتقول خذوه فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته ولا تنفعه قبيلته، آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوا. آه من غمرة من لهبات اللظى)(2).

إلى آخر تلك المناجاة التي تشعر عندما تسمعها أو تقرأها بأن هناك نفس متصلة بعالم الملكوت، ولهذا يقول أبو الدر داء أقبلت إليه بعد أن سقط فأخذت أقلبه ظهراً لبطن فلم أجد فيه للحياة أثر، فرجعت إلى فاطمة عليها السلام أنعاه إليها، فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبا الدرداء ما كان من شأنه وما قصته؟ فأخبرتها الخبر فقالت: (هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية

---

(1) نهج البلاغة ص ٤٨٩، في كتابه عليه السلام إلى عثمان بن حنيف. كما أن في هذا المقطع كلمات وضعت لها تعاريف، قوله عليه السلام - وسأجهد: - جهد - كمنع: جد. قوله عليه السلام المركوس: من الركس، وهو رد الشيء مقلباً وقلب آخره على أوله، والمراد مقلوب الفكر.

(2) مقطع من مناجاة طويلة للإمام عليه السلام جاءت في كثير من الكتب منها بحار الأنوار ج ٤١ ص ١٢، الأمالي الصدوق ص ١٣٨.

الله)[1]. إذاً فهذا الرجل إذا جاءت الآية الكريمة لتشركه بالولاية العامة فهي في واقع الأمر لم تخلق له المنزلة، وإنما أشارت إلى عطائه الذاتي وإلى معاناته، بمعنى أن هذا الأمر لم يخذه حبوه، وإنما أعطته السماء ذلك نتيجة معانات، لأنه قاتل من أجل إرساء كلمة لا إله إلا الله، ولأنه حمل الإسلام فكراً وذب عنه جهاداً، فكان إسلاماً يمشي على الأرض، وكان قرآناً وكان رافعاً لراية السماء فيما يقول ويفعل، فلهذا علي بن أبي طالب عندما أشركته الآية بالولاية العامة أرادت أن تنبه المسلمين إلى أنه يأتي في الخط الثاني بعد رسول الله ﷺ، فتأهيله للولاية العامة لم يأته منحة وإنما جاءه نتيجة معاناة.

آيةٌ أخرى أشار إليها المفسرون وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[2]. ينص علماء المسلمين في تفاسيرهم[3] أن المقصود بالشاهد في الآية الكريمة هو علي بن أبي طالب عليه السلام، وهنا نسأل ما المراد من قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ على بينة من ربه، حيث أنه نزل عليه الوحي ورأى الوحي، وبعدها أدرك وعرف أنه مرسل من السماء، فحمل رسالة السماء يبلغها إلى الناس، وكان الشاهد الذي من ورائه مباشرةً هو علي بن أبي طالب عليه السلام **والسؤال** هنا لماذا عبرت عنه الآية بأنه شاهد؟ **الجواب**: أن علي ابن أبي طالب كان الشاهد الأول على كل ما صدع به النبي ﷺ وقام به من قول وفعل، وذلك لأنه كان إلى جانبه، فكانت الآيات إذا نزلت وعاها وعرفها وعلم لماذا أنزلت وفي أي شيء أنزلت ولذلك كان عليه السلام يقول: فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل[4]. وهذه الدعوة

---

(١) الأمالي - الشيخ الصدوق - ص ١٣٨، روضة الواعظين ص ١١٢.

(٢) سورة هود مقطع من الآية: رقم ١٧.

(٣) واقعاً لا تسع هذه الصفحات باستقصاء كل من ذكروا ذلك، ولكن على سبيل المثال أنظر الطرائف في معرفة الطوائف - السيد ابن طاووس ص ٤٩، دعائم الإسلام ج ١ ص١٩، الأعتقادات في دين الإمامية ص ٧٤ شرح الأخبار ج ١ ص ٩٥، وغيرهم كثير.

(٤) سعد السعود ابن طاووس ص ٢٨٤، ذخائر العقبى الطبري ٢٠،

كان عليه السلام يشفعها بالبرهان، فكان عالماً بنزول القرآن فما من آية تنزل إلا ورسول الله يدنيه ويطلعه على معناها، ومن ثَمَ نصت آية ثانية تدعم هذا المعنى قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[1]. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير هذه الآية: (قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سألت ربي أن يجعلها أذنك يا علي، فما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فنسيته)[2]. فإذاً الآية الكريمة أشارت إلى أنه هو الأذن الواعية وكان الشاهد لكل مضمون من مضامين الآيات القرآنية، فمثلاً إذا كانت الآية قد نزلت بجهاد فهل هناك غزوة من الغزوات تأخر عنها عليٌّ عليه السلام في تاريخ المسلمين، أو أن هناك لواء في حرب للمسلمين رفع ولم ترفعه يد علي عليه السلام؟ يقول المؤرخون: ما تأخر عليٌّ عن حرب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا في غزوة واحدة، وهي واقعة تبوك، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلفه على المدينة نائباً عنه، ولهذا لما تطاولت عليه ألسن المنافقين أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعيناه تطفحان بالدموع، قائلاً: يا رسول الله إن المنافقين يزعمون أنك إنما خلفتني استثقالاً ومقتاً. فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (ارجع يا أخي إلى مكانك، فإن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك.. - إلى أن قال - :.. أما ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)[3]. وبهذه المناسبة كان هذا الحديث الشريف [وهذا الحديث يعرف بحديث المنزلة] فإن هذه الغزوة هي الغزوة الوحيدة التي تخلف فيها عليٌّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإلا فكل حرب وكل واقعة يكون الشاهد لها علي بن أبي طالب عليه السلام، بل أنه الحامل للوائها والشاهد لما يجري فيها والمساهم بقتل أبطالها وأقرانها ودحر وجوهها حتى يرجع والنصر على يديه.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٢.

(٢) كنز العمال ٦: ١٠٨ أسباب النزول الواحدي: ٣٢٩. تفسير الطبري٢٩: ٣٥. تفسير الكشاف٤: ٦٠٠. الدر المنثور ٨: ٢٦٧.

(٣) رسائل المرتضى ج ٣ هامش ص ٢٠، المراجعات ص ١٣٩ - ١٤٢، كما أنه ورد في كتب أخرى. (وهذا الحديث يعرف بحديث المنزلة).

إذاً فعلي بن أبي طالب عليه السلام في ما أعطته السماء من جداول الثناء كل ذلك إشارة إلى ما حملته ذاته من مؤهلات، وكذلك أيضاً الأحاديث النبوية الشريفة. النبي صلى الله عليه وآله عندما قال له: (أنت أخي في الدنيا والآخرة[1] لأنه رأى فيه النموذج الذي يصلح أن يؤاخي هذه الذات المقدسة، والنبي صلى الله عليه وآله عندما قال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)[2]. والنبي صلى الله عليه وآله عندما قال له: (من أحبك فقد أحبني، ومن أبغضك فقد أبغضني[3]. والنبي عندما قال: (إن هذا أخي ووصيي وخليفتي من بعدي فأسمعوا له وأطيعوا)[4]. كل هذا الثناء ونحوه قاله لعلي عليه السلام لأنه أهل لذلك، ولكن ماذا تصنع لبعض النفوس المريضة، التي إذا مرت به - كما ذكرنا في مقدمة الحديث - تراها تنقلب وتفقد الشعور بأبسط وسائل الاتزان، حتى أن حافظاً من كبار الحافظين عندما مر بهذه الرواية قال: أمسكه النبي وقال له: (أنت أخي وكذا وكذا)[5] ولم يقل: قال له: (أنت أخي ووصيّي وخليفتي من بعدي) - بينما هذا الحديث قد رواه جمهور المؤرخين والمفسرين - إلا أنه قال: قال له: أنت أخي وكذا وكذا، ليس إلا، كما تأتي نفس أخرى من هذا القبيل ممن يرمون الكلام على عنوانه فتقول إن حديث الغدير لم يرد له ذكر إلا في كتب الشيعة، بينما حديث الغدير قد تضافرت به كتب السنة أيضاً[6] حتى أن البعض منهم وهو الطبري قد ألف مجلدين

---

(١) انظر منهاج الصالحين الشيخ الوحيد الخراساني - ج ١ ص ١٥٩، وكتب أخرى كثيرة لا يسع المقام تعدادها.

(٢) انظر صحيح البخاري ج٢ ص١٨٥ في مناقب علي عليه السلام وج٣ منه ص٥٤ في باب غزوة تبوك من كتاب المغازي، وصحيح مسلم ج٢ ص ٢٣٦و٢٣٧، والصواعق لابن حجر ص٣٠، و٧٤، ونور الأبصار للشبلنجي ص٦٨، وغيرهم من الكتب التي لا يسع المقام لإحصائها.

(٣) أسد الغابة ٤: ٣٨٢، تهذيب الكمال ١: ٣٥٩، بشارة المصطفى: ٢٥٣.

(٤) السقيفة - الشيخ محمد رضا المظفر ص ١٩٥.

(٥) القول للطبري نقله أحمد حسين يعقوب في كتابه [أين سنة الرسول وماذا فعلوا بها] ص٣٩٦.

(٦) قد ألف في موضوع الغدير من السنة والشيعة ست وعشرون مؤلفاً، إلى حد سنة ١٤٠٠ هجرية.

ضخمين في صحة حديث الغدير وهو واحد من عشرات العلماء الذين ألفوا الكثير الكثير في إثبات ذلك[1]، ولكن ما نقوله هو أن هذا الأمر لا يضير علياً عليه السلام إنما يضير تاريخ المسلمين، وخصوصاً من يدعي حمل الأمانة للأجيال، كما أنه لا يضير علياً من شتمه ومن لم يتولاه. يقول الرياشي: انتقص ابن حمزة بن عبد الله بن الزبير علياً عليه السلام فقال له أبوه: يا بني ما بنت الدنيا شيئاً إلا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا، أما ترى علياً وما يظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكأنما يكشفون عن الجيف[2] وهذا ما حصل بالفعل لعلي عليه السلام، لأن الله عز وجل إذا أراد تكريم ذاته فهيهات أن تهان تلك الذات ولو تواترت الدنيا عليها، فعلي بن أبي طالب مرت عليه عصور وعصور وأرادت أن تهزمه فهزمها، وضل ألقاً يتوهج وصوتاً يصدع وفكراً يتألق، وروحاً كبيرة. ومن هنا نقول لأمير المؤمنين عليه السلام: نِم مطمئناً يا أبا الحسن، فسوف يبقى الدهر وهو ألسنة ثناء عليك، سوف لن تموت لأن القرآن أراد إحيائك، وسوف تبقى لأن الإسلام أراد تخليدك، سوف تبقى لأنك صنعت ما يبقيك، وستبقى أناشيد الثناء يرفعها القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾[4]. فيا من تعلقت بوجه الله سيخلدك وجه الله، ويعز علينا أن نرى وجهك وهو أشد اصفراراً من العصابة، وقد كان ذلك بعد أن ضربه ابن ملجم بسيفه، يقول الأصبغ بن نباته: مضيت أنا وجماعة من

---

(1) ربما قد يتصور القارئ الكريم أن في استرسال الكلام تناقض، ولكن ما نقوله ليس كل من ألف أو روى شيئاً اعتقد به، فالطبري من جهة أنه يُؤلف ولكن من جهة أخرى لا يعتقد. وهذا المعنى الذي وبخنا القرآن الكريم عليه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف ٢ - ٣].

(2) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام - ابن الدمشقي - ج ٢ هامش ص ٢٢٩

(3) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.

(4) سورة الإنسان مقطع من الآية: ٩.

أصحاب أمير المؤمنين إلى عيادته، وذلك بعد أن ضربه ابن ملجم، فلما انتهينا إلى باب داره، سمعنا نحيباً وبكاءً من داخل الدار، فاستأذنا بالدخول عليه فخرج إلينا الإمام الحسن عليه السلام فقال يقول لكم أمير المؤمنين: انصرفوا إلى منازلكم، يقول: الأصبغ فانصرف القوم إلا أنا لم أنصرف، بل وقفت على باب الدار، فسمعت النحيب من داخل الدار فأدركني البكاء وارتفع صوتي، فخرج الإمام الحسن قال: ألم أقل لكم انصرفوا؟ يقول: قلت بلى سيدي ولكن رجلاي لا تطاوعاني أن أنصرف حتى أرى سيدي ومولاي أمير المؤمنين، قال: فدخل فلم يلبث أن خرج، قال: ادخل، يقول فدخلت فلما وقع بصري على أمير المؤمنين رأيته معصب بعصابة صفراء إلا أنني لا أشك أن وجهه كان أشد اصفراراً من تلك العصابة ، فانتحبت باكياً، فقال لي: (لا تبكي يا أصبغ، فإنها والله الجنة)، فقلت له: جعلت فداك إني أعلم والله أنك ماضٍ إلى الجنة، وإنما أبكي لفراقك[1]. عند ذلك جاؤوا إليه بالأطباء وكان من جملتهم أثير بن عمر السكوني وكان أبصرهم بالطب فأخذ رئة شاة حارة فتتبع منها عرقاً وأدخله في جراحة علي ثم نفخ العرق وأستخرجه فإذا عليه بياض الدماغ وإذا الضربة قد وصلت إلى أم رأسه فقال: يا أمير المؤمنين أعهد عهدك ووصِّ وصيتك فإن الضربة قد وصلت إلى أم رأسك[2].

براسك يا أبو الحملات رفرف طاير البين
حان الأجل وانقضت الحسبة يا أبو حسين
يا طود الأعظم يالي بالحرب منعوت
ضربتك هالتني وعقلي راح مبهوت
عجل يا حيدر بالوصية قبل ما تموت
خوفي تهود ونتك وتغرب العين

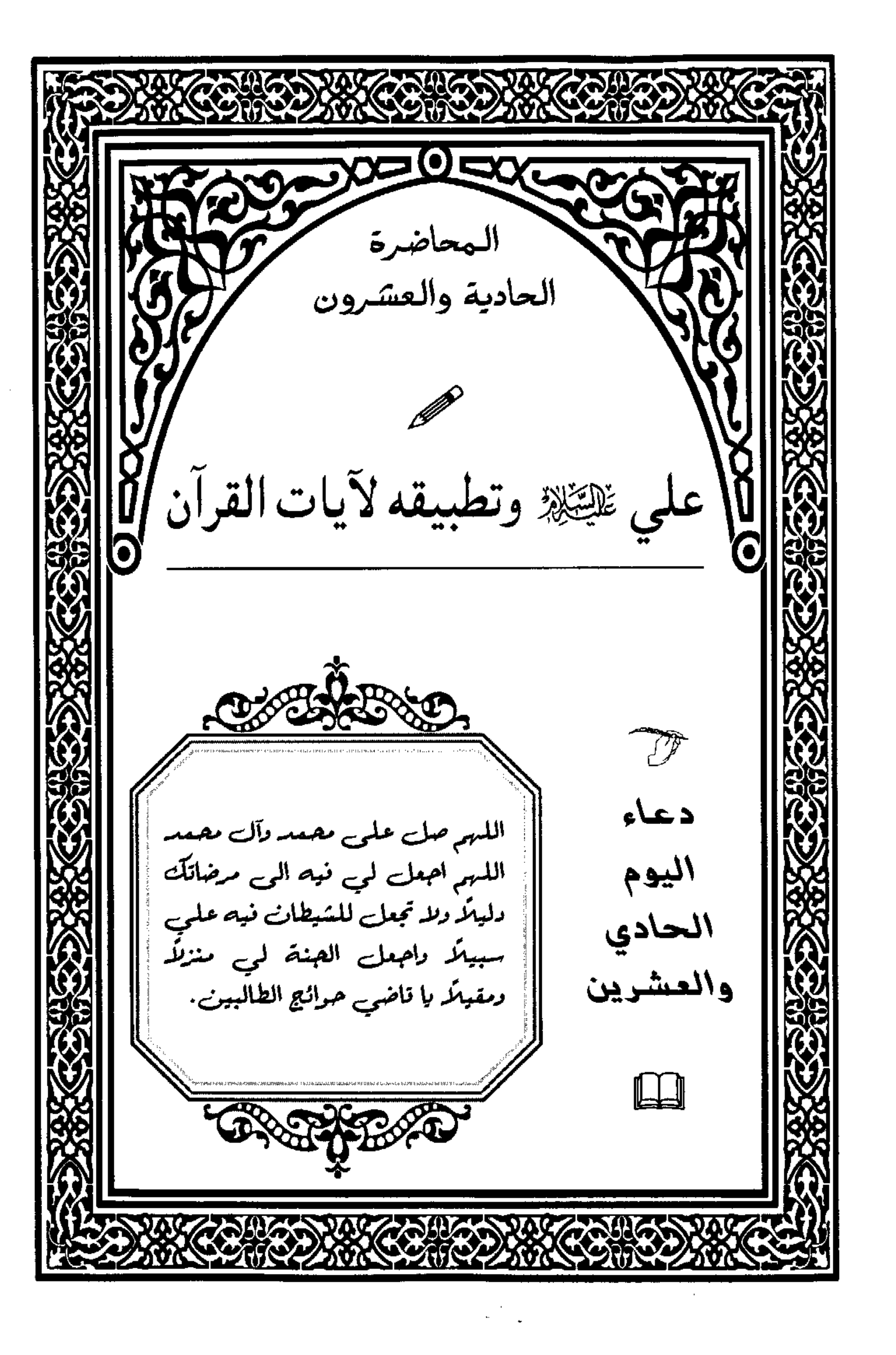
---

(١) قريب منه في الأمالي - الشيخ المفيد - ص ٣٥٢.
(٢) قريب منه انظر أعيان الشيعة ج ١ ص ٥٣٢، معجم البلدان ج ١ ص ٩٣، الاستيعاب ج٣ ص ١١٢٨.

اعهد بعهدك يا علي وخط الوصية
ضربت الطاغية فيك ما بقت بقية
تيَّهت بالي والدوا تعسر علي
وين الدوا ينفع وراسك راح شطرين
وعلى الحسن دنك وعبرات نتيرة
هالسيف أضن مسموم هالطبرت خطيرة
وزينب تجر دموعها هالكسيرة
واضيعتي عقبك يا فارس بدر وحنين[1]



(١) الصرخة المرحومة الجزء الأول.



المحاضرة
الحادية والعشرون

علي عليه السلام وتطبيقه لآيات القرآن

دعاء
اليوم
الحادي
والعشرين

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم اجعل لي فيه الى مرضاتك
دليلاً ولا تجعل للشيطان فيه علي
سبيلاً واجعل الجنة لي منزلاً
ومقيلاً يا قاضي حوائج الطالبين.

علي عليه السلام وتطبيقه لآيات القرآن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[1].

※※※

إن من أهداف هذه الآية الكريمة هو التأكيد على أهمية الوفاء بالوعد، وذلك أن قسماً من المؤمنين دعوا الله تعالى أن يرشدهم إلى أفضل الأعمال ليعملوا بها ولم يمضي وقت طويل حتى أخبرهم الله سبحانه بأن (أفضل الأعمال الإيمان الخالص والجهاد في سبيله) إلا أنهم لم يتفاعلوا مع هذا التوجيه، وتعللوا فنزلت الآية تلومهم وتوبخهم على موقفهم هذا، ولهذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام لأحد أصحابه أنه قال: (عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة فيه، فمن أخلف فبخلف الله بدأ، ولمقته تعرض، وذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾)[2]. كما وأن هذه الآية الكريمة قد أكدت على أهمية التطبيق بالمعتقد، واستنكرت على المؤمنين الذين يأمرون ولا يأتمرون، ذلك لأن الكثير من الناس قد يأمر غيره بما لم يطبقه ولا يقوم بتجسيده.

ومن خلال هذه المقدمة الوجيزة في الآية الكريمة، نريد أن نقف مع

---

(١) سورة الصف، الآيتان ٢ - ٣.

(٢) قريب من هذا المعنى انظر تفسير الأمثل - الشيخ ناصر مكارم شيرازي - ج ١٨ ص٢٦٠ وص ٢٦٢.

شخصية تمثلت فيها نظرية الإيمان مع التطبيق، - ألا وهي شخصية علي بن أبي طالب [صلوات الله وسلامه عليه] - وتلك ظاهرة من أبرز الظواهر في حياته عليه السلام؛ فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان في السلوك الفكري والسلوك العملي لا تختلف عنده النظرية عن التطبيق أبداً، وسيتضح هذا المعنى من خلال المرور ببعض مواقفه.

بينما نحن نقرأ في التاريخ عن أناس حملوا نظريات خيِّرة، ولكن تلك النظريات لم يطبقوها على أنفسهم، ولم يطبقوها في مجتمعاتهم، بمعنى أن النظرية عندهم تختلف عن التطبيق، وهذا هو المعنى الذي استنكره القرآن الكريم في الآية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ فالقرآن الكريم يستنكر على من يفرق بين النظرية والتطبيق، لأن الإنسان إذا آمن بنظرية ينبغي عليه أن يطبق تلك النظرية، أولاً على نفسه وأهله، وثانياً في مجتمعه. وإلا إذا لم يكن كذلك يتحول إلى مزدوج، بل يتحول إلى نفاق. ولكن عندما نقرأ علي ابن أبي طالب عليه السلام في التاريخ، نجد أنه ما افترقت عنده النظرية عن التطبيق أبداً، وسنرى ذلك ونحن في مسيرةٍ نمر بها في حياته عليه السلام، فقد عرف عنه وهو الصادق الذي إذا قال شيئاً فعله، إنه قال: (إني لأرفع نفسي عن أن أنهى الناس عمّا لست عنه أنتهي، أو آمرهم بما لا أسبقهم إليه بعملي، أو أرضى منهم بما لا يرضى ربي)[1]. فهذه الكلمة العظيمة أُثرت عنه، وكان يقولها، وكان يطبقها؛ فعلي بن أبي طالب حمل هذا الشعار، وما افترق حمله للشعار عن تطبيقه أبداً، إذاً فلنأتي إلى بعض أبعاد حياته ليتضح لنا كيف كان كذلك.

أولاً: عليٌّ عليه السلام آمن بالعدل، وعندما آمن بالعدل طبق العدل، آمن بالعدل لأنه آمن بالقرآن، وقد ذكر القرآن الكريم العدل في خمسة مواضع[2]. منها في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ

---

(١) عيون المواعظ والحكم: ١٧٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢، سورة النحل، الآية: ٧٦، سورة النحل، الآية: ٩٠، سورة الحجرات، الآية: ٩ سورة النساء، الآية: ٥٨.

﴿ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[١]. والعدل هو وضع الشيء بموضعه، فجاء علي بن أبي طالب فطبق العدل، وذلك في كل الأبعاد، سواءً كان ذلك في البعد النفسي، أو البعد الاجتماعي، أو البعد الأخلاقي، أو البعد الاقتصادي. . . أو . . . أو. . الخ.

أولاً: عندما أمر بالعدل طبق العدل على مستوى البعد النفسي، قال عليه السلام في معرض وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام وهو يوصي الناس عامة: (يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسنَ إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحهُ من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل مالا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك)[٢]. ومن خلال هذه الكلمة قد نمر بحادثة نتبين منها ما قاله عليه السلام - فلقد كان أمير المؤمنين هو الرجل الذي استطاع أن ينفلت من قيود البيئة وسلاسلها - يقول الخطيب البغدادي: مر علي بن أبي طالب عليه السلام وذلك في طريقه إلى صفين إلى أن وصل إلى المدائن، فأمر رجلاً من أصحابه أن يهيّء له ماء ليغتسل به، تقول الرواية فهيء له ذلك الرجل الماء، وأخبره بذلك، فطلب منه أن يبحث له عن مكانٍ منعزل عن أعين الناس حتى يغتسل فيه، فقال له ذلك الرجل: إن هاهنا خربة وفيها مكانٌ منعزل يمكنك الاغتسال فيه؛ فدخلها الإمام عليه السلام وإذا على جدران تلك البناية بعض الصور التي توحي بأنها بناية مسيحية، وبالخصوص كنيسة، فقال بعض أصحابه يا أمير المؤمنين ما تضن هذه البناية؟ قال: (كأن هذه كانت كنيسة) قال ذلك الرجل: إذاً طالما أشرك بالله في هذا المكان، - أي أن هذا المكان طالما وقعت فيه لفضة الشرك بسم الأب والابن وروح القدس - طالما أشرك بالله هنا، فقال الإمام عليه السلام: (وكان يذكر فيها الله كثيراً)[٣]. وهذه لفتة في واقع

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٢) نهج البلاغة: ص ٤٦٢.

(٣) قريب من هذا التعبير في تاريخ بغداد ٩: ٢١١/ ٤٧٩٠.

الأمر تستدعي منا التأمل والانتباه، كيف قال عليه السلام: (وكان يذكر فيها الله كثيراً)؟ كأن الإمام عليه السلام يقول لذلك الرجل إن مَن جاء إلى هنا وتعتقد أنت بأنه أشرك، إنه قصر في البحث فقط، وإلا فهو في واقع الأمر يبحث عن الله، إلا أنه لم يبحث البحث الكافي الذي يجب عليه أن يأتي به، فلو أنه بحث بحثاً كافياً لاهتدى إلى الطريق الصحيح؛ لأنه لم يأتِ إلى هذا المكان بدافع الشرك بالله، وإنما جاء بدافع أن يعبد الله، ولكنها البيئة الفاسدة والتربية الفاسدة وضعته بتلك القناة، وإلا لو هيء له من يرشده لوصل إلى الطريق الصحيح، ذلك لأنه يتصور أن الله تعالى عن طريق الكنيسة، وأنت تتصور أن الله تعالى عن طريق المسجد، فعليك أن تنظر إليه بهذه النظرة الواسعة، لا أن تنظر إليه بالنظرة الضيقة، وإن كان من الصحيح أنه قصر في البحث، ولكن الهدف لديه هو البحث عن الله.

من هنا يجب علينا أن ننظر إلى علي عليه السلام كيف جسد إيمانه بالعدل، فكأنما يقول: إن الإنسان يصعب عليه أن يخرج من قيود بيئته الصغيرة والكبيرة، - قيود الأسرة وقيود المجتمع - ولهذا إذا رجعنا إلى أفراد المجتمع، وذلك في اعتناقهم للأديان، نجد أن الناس أكثرهم من هذا القبيل، - أي أن معتقداتهم في الأغلب - تقليدية، وهذا الأمر هو الذي لا يرضاه لنا الإسلام، وذلك لأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون بالنظر والمعرفة، لا أن يقلد فيها الابن أباه، ولكن - للأسف الشديد - البعض هكذا، حيث أنه يولد في بيت من بيوت المسلمين فيكون بعد ذلك مسلم، بدون أن يعرف ما معنى الإسلام، أو أنه يولد في بيت مسيحي فيعتنق المسيحية، وذلك بدون أن يعرف ما معنى المسيحية، وهذا الأمر غير صحيح، لأن الإنسان عليه أن يتحرى الحقيقة، ولكن يجب أن لا ننسى المؤثرات البيئية، والمؤثرات التربوية. فكأن الإمام يقول: لو أن الرجل وجه بتوجيه أصح، لوصل إلى الطريق الذي وصلت إليه وهو معرفة الله تعالى، إذاً فعلي آمن بالعدل وطبقه.

من هنا نرجع إلى كلمة الإمام التي قالها لابنه الإمام الحسن عليه السلام وهي في واقع الأمر لكل إنسان في الدنيا، قال عليه السلام: (يا بني اجعل نفسك ميزاناً)

فهذه الكلمة إذا أُخذت بمنظورٍ عام، كأنما يقول الإمام لذلك الرجل لو كنت أنت مكانه لعملت كما عمل، فعليك أن لا تسيء الظن، وهذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على سعة أفقه.

يقول المؤرخون: كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذا جيء إليه بأموال إلى بيت المال يوزعها بالفعل - أي في الوقت يؤتى بها إليه - ففي ليلة من الليالي جيء إليه بأموال إلى بيت المال، فلما أن أحضرت الأموال بين يديه، أمر بإحضار رؤساء الأشباح وأمرهم بالاستعداد لتوزيعها، فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين لو تركتها حتى يأتي الغد فنوزعها؟ تقول الرواية فلم يرضَ أمير المؤمنين بذلك بل أمرهم بتوزيعها في الحال، فلما أن وزعت الأموال قام ومعه كاتب بيت المال عبد الله بن أبي رافع، وإذا برجل على أرصفة الطريق يسأل الناس، يمد يده إلى الناس، فلما نظر إليه الإمام التفت إلى عبد الله بن أبي رافع وهو مستنكراً مما رآه ومتعجباً من ذلك، فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين هلا نظرت إليه، إن هذا عجيز النار، إنه مسيحي يا أمير المؤمنين، فوقف أمير المؤمنين متألماً من ذلك، لأنه يرى أن ذلك الرجل مواطن وله حق المواطنة وإن كان على حد تعبير ابن أبي رافع عجيز النار، إلا أنه أهرق عرقه في بناء وطنه، فلقد خدم وكدح وبعد أن أدركه العجز والشيخوخة يجب أن لا يترك، لأن الله تعالى لم ينهى عن بر أمثال هؤلاء، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1]. ولهذا أمير المؤمنين عليه السلام بعد ذلك أمر بأن يفرض له عطاء من بيت المال، ونهى خازن بيت المال أن يتكرر هذا الأمر مرة أخرى، أي أن هذا وأمثاله لابد وأن يأخذوا نصيبهم من العدل ومن حقوق المواطنة، ويجب أن لا ينظر إليهم من منظار طائفي، لأن الطائفية في نظر أمير المؤمنين لم تكن باباً للخير بل هي باب للشر، ولم تكن الطائفية باباً للنبل بل هي باب للخسة وللحطة، ولن تكن الطائفية باباً للكرامة بل هي باب

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

يدل على الخساسة، وقد علم أمير المؤمنين ذلك فنبذ الطائفية بكل أنواعها. إذاً فهذا هو العدل بأسمى معانيه.

آمن علي بالعدل فطبق العدل، دخل إلى بيت مال المسلمين فرأى الأموال تكدس في مكان وتنحسر عن مكان آخر، تكدس في جيوب أناس وتنحسر عن جيوب آخرين، فساءه ذلك، ساءه أن لا يأخذ العدل مجراه في توزيع الأموال، عند ذلك وقف يعلن نظريته وهي التي استقاها من أسس الإسلام الحنيف، فقال: (**ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع**)[1]. وقال عليه السلام: (ما جاع فقيرٌ إلا بما مَنعَ غني)[2]. وقال عليه السلام: (إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقواتَ الفقراء؛ فما جاع فقير إلا بما مُتع به غني، والله تعالى سائلهم عن ذلك)[3]. ثم وقف يوزع الأموال توزيعاً عادلاً، ساءه أن يتمدد إنسانٌ على حساب إنسانٍ آخر، وأن تبيت بطنٌ تشتكي من الجوع في مقابل بطونٍ باتت تتضايق من التخمة، فأراد أن يأخذ العدل مجراه في توزيع الأموال، وهذه النظرية التي التزم بها علي بن أبي طالب عليه السلام هي نظرية الإسلام، نظرية الإسلام في أن المشكلة الاقتصادية لم تكن ناتجة من قلّة السلع وكثرة الناس كما يدعي البعض، كلا، بل أنها ناتجة من كثرة السلع وسوء التوزيع، عليٌّ عليه السلام يؤمن أن الله تعالى ما فتح فماً إلا وأوجد له الطعام والشراب والمسكن والملبس، ولكن الناس يسطوا بعضهم على بعض، وينهب بعضهم بعضاً. عليٌّ آمن بالعدل فأراد للأموال أن تتوزع على حد سواء، ووقف عليه السلام ببيت المال يطبق منهجه، فكان العطاء يخرج لكل فرد على حد سواء، فكان نصيبه من بيت المال كنصيب قنبر مولاه، وكان نصيب قنبر كنصيب طلحة، وكان نصيب الحسن كنصيب الزبير، وكان نصيب الزبير كنصيب إنسان عادي من سائر الناس، ولهذا كانت آراؤه بالنسبة إلى العطاء

---

(١) دراسات في نهج البلاغة محمد مهدي شمس الدين ص ٤٠، الخلافة المغتصبة إدريس الحسيني المغربي ص ١٧٠.

(٢) المستدرك ١/٥٠٩.

(٣) نهج البلاغة: الباب المختار من حكمه عليه السلام ص ٦١١.

هي إحدى الأمور التي سببت له المشاكل مع مجتمعه، ولكنه عليه السلام ما أعتبر أن تلك المشاكل مشاكل، وإنما أعتبرها صرخات باطل، ذلك لأنه يريد أن يقيم الحق وأن يطبق العدل، ولا يهمه إن غضبت عليه الدنيا، فلهذا ما كان عليه السلام بالذي يفرح بأن يلتف حوله الناس وعندهم أصوات باطل، وأن ينحسر عنه شخص وعنده صوت الحق. فكان عليه السلام يقول: (لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ولا تفرقهم عني وحشة)(1). فكان همه هو أن يطبق العدل وأن يقيمه، ومن ثَمَّ طبق العدل في الأموال، وطبق العدل في العقاب، فما كان من جانبه إنسانٌ يفلت من إقامة الحق، قال عليه السلام: (وأيم الله لأبقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته)(2). وقال عليه السلام: (الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه)(3).

يقول المؤرخون: دخلت عليه ذات يوم امرأتان، إحداهما من الموالي والأخرى عربية، وطلبتا منه أن يعطيهما، فأعطاهما بالتساوي، فقالت: إحداهما يا أمير المؤمنين أنا إمرأة عربية من آل فلان، فأطرق عليه السلام، فكررت عليه القول، عند ذلك أخذ حفنتين من التراب وأخذ يقلبهما، - وكأنما يقول لا أرى لهذا التراب على هذا التراب فضلاً -، ثم التفت إليها وقال: كلكم لآدم وآدم من تراب(4). وقد عرف عنه ترديده لهذه الأبيات:

الناس من جهة التمثال أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواءُ
وإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعاتٌ وللاحساب آباءُ
فإن يكن لهم في أصلهم شرفٌ ... يفاخرون به فالطينُ والماءُ
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاءُ
فقم بعلمٍ ولا تطلب به بدلاً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياءُ(5)

---

(1) نهج البلاغة ج ٣ ص ٦٢، المزار الشهيد الأول ص ٧٢، بحار الأنوار ج ٣٤ ص ٢٥.
(2) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٠٠، المعجم الموضوعي لنهج البلاغة ص ١١٣/ ٢٥١، بحار الأنوار ج ٣٢ ص ٧٧.
(3) نهج البلاغة ج ١ ص ٨٨.
(4) تحف العقول ص ٣٤.
(5) ديوان الإمام علي أمير المؤمنين وسيد البلغاء والمتكلمين عليه السلام، ص٧.

عليٌ آمن بالعدل فطبق العدل قولاً وفعلا، فقد أخذ العدل مجراه في حياة علي بن أبي طالب في كل بعد من أبعاد حياته، فلهذا ما نقل التاريخُ لنا أنه جار على أحد أبداً، ولا نقل التاريخُ لنا أنه حابى أحداً، ولم ينقل لنا التاريخ أنه آثر شخصاً على شخص آخر، وحتى أخص أهل بيته لم يوثر أحداً منهم على غيره من الناس، وخير شاهد على ذلك هي هذه الحادثة، يقول المؤرخون: وضعت بين يديه زقاق العسل، فأخذ يتصفحها واحدةً واحدة، وهو من قبل قد تصفحها، فنظر إلى زق قد أخذ منه قليلاً، فٱلتفت إلى خازن بيت المال وسأله عن ذلك، (يعني عما ما نقص) فقال: يا أمير المؤمنين لقد جاء أضيافٌ للإمام الحسن وأقرضته من حصته، وذلك لكي يقدمه لإضيافة، وقد دونت ذلك في الدواوين، تقول الرواية فغضب أمير المؤمنين عليه السلام، ثم بعد ذلك أخرج من صرته مبلغاً من المال وأمره بأن يذهب إلى السوق ويشتر بمقدار ما أعطاه عسلاً مثل ذلك العسل وأن يعيده إلى مكانه، وأكد عليه أن لا يفعل مثل ما فعل مرة أخرى، هكذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام يأبى إلا أن يأخذ العدل مجراه في مختلف الأبعاد، لأنه آمن بالعدل فشفع الإيمان بالتطبيق، وما افترقت عنده النظرية عن التطبيق أبداً.

آمن عليٌ بالإنسان وعندما آمن بالإنسان سما بالإنسان عن الرغبات المؤقتة، بينما كثير من الناس يترجم إيمانه بالإنسان بأن يرى عليه لباساً مزركش، أو يرى بأن الإنسان لديه كمية من الأموال، أو يرى أن الإنسان صاحب قصر منيف يسكنه، فجاء علي عليه السلام لينزه الإنسان عن هذا التصور الخاطئ، ليرفع بالإنسان إلى قيمته الحقيقية، ليضع الإنسان في مكانه الصحيح، رأى علي بن أبي طالب هو أن الإنسان في ما يحسنه من ملكات، وما يقوم به من مواقف، فوقف يقول كلمته الشهيرة: (**قيمة كل امرئ ما يحسنه**)[1]. فالإنسان ليس بالدار الفخمة التي يسكنها، وذلك لأن البعض من الناس سكنوا القصور الفخمة، ولكن تلك القصور الفخمة لم تطفيء على

(١) نهج البلاغة/ الحكمة: ٨١.

شخصيتهم شيئاً من العلو ولا شيئاً من الاعتبار، ومن هنا يتضح لنا قول أحد الشعراء:

كن عالماً وأرض بصف النعال ولا تكن صدراً بغير الكمال
فإن تصدرت بلا آلة صيرت ذاك الصدر صف النعال[1]

فالإنسان هو إنسانٌ بما يحمله من ملكات وما يحمله من مواهب، فلا يكرمه القصر الفخم إلا عند الجهلاء، ولا يطف على ذاته اعتبار إلا عند المتهافتين على الدنيا، والتاريخ شاهد على ذلك، فكم هناك من أناس سكنوا القصور الفخمة التي قد بلغت الملايين، ولكن تلكَ القصور الفخمة التي عاشوا بها ذهبت أدراج الرياح. والتاريخ يروي لنا أن قصر الخلد الذي كان في بغداد قد اشتمل على أحد عشر ألف غلام شاكري وهم حملت البريد فقط، وإلى جانب ذلك القصر الفخم كوخ من البوار والحصر يسكن فيه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وفي يوم من الأيام جاء رجل يسأل عنه، فقالوا له: إنه في كوخ من البوار والحصر بالقرب من مكان كذا، فأقبل إلى ذلك المكان وإذا بغلام واقف، فلما أن رآه قال له: أدخل لا حاجب ولا بواب، فيدخل ذلك الرجل فيرى الإمام جالس في محراب من الحصباء يتعبد فيه. ولكنّ ذلك الكوخ الذي من البوار والحصر عاد قصراً شاهقاً، وذلك القصر عاد تراباً، وذلك الكوخ حمل الثناء المعطر، وذلك القصر عاد تراباً بعد أن حمل الذم، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

إذاً فعلي آمن بالإنسان إنساناً مجرداً من كل هذه الكماليات المؤقتة، ووقف عليه السلام ينبذ عنه هذا الحطام المؤقت، ودخل إلى الكوفة فرأى قصر الإمارة قد هُيّء له، فلما نظر إليه بعد أن قيل له: يا أمير المؤمنين أي القصرين ننزلك؟ قال: (قصر الخبال لا تنزلونيه)[3]، عند ذلك استدعى ابن

(١) بحار الأنوار ج٢ ص ٩٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٣) بحار الأنوار ج ٣٢ ٣٥٥، نهج السعادة الشيخ المحمودي ج ١ هامش ص ٤١٧.

أخته جعدت بن هبيرة، وقد كانت عنده قطعت أرض فأستأجرها منه، وأخذ بعد ذلك مجموعة من البوار والحصر وجريد النخل وركزها، واتخذ منها كوخاً إذا قام ضرب برأسه، فأصبح ذلك الكوخ هو مسكنه واستقراره. وذهب علي بعد ذلك، وضل الكوخ في نفوس الأحرار كبيراً وشاهقاً وعظيماً، ذلك لأنه ضم العظمة الحقة، وذهب قصر الإمارة فعاد إلى أحجار بالية، وإلى رماد وإلى ركام من التراب، وهكذا وقف علي فرأى الإنسان أكبر من الذهب والفضة، يقول المؤرخون: دخل إلى بيت مال المسلمين، وفي يده مخصرة، وقد وضعت بين يديه صرتان من الذهب والفضة، فأخذ يفرق الفضة عن الذهب إلى أن صنفهما، ثم استدعى الناس فوزع الأموال، ثم قال: (يا دنياً غري غيري أبي تعرضت؟ أم إلي تشوقت؟ هيهات، هيهات قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك فعمرك قصير وخطرك كبير وعيشك حقير)[1]. حتى وزع الأموال وكنس مكان بيت المال وافترش عباءته فصلى ركعتين من الصلاة.

ووقف عليٌّ عليه السلام ينظر إلى الإنسان الذي يرى أن في البرد الموصوف عظمة بنظرة سطحية، ولهذا ترك علي البرد ولبس تلك المدرعة، التي كان بعد ذلك يتحدث عنها في منهجه يقول: (والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها، ولقد قال لي قائلٌ ألا تنبذها عنك؟ فقلت اغرب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى)[2]. ثم ينزع عنه ذلك الرداء ليغسل وليس عنده رداء غيره. يقول: المؤرخون اشترى أمير المؤمنين عليه السلام قميصاً بثلاثة دراهم فخرج على يديه، فقطع ما فضل عن أطراف أصابعه، ثم قال: (الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري سوأتي وأستر عورتي. والحمد لله رب العالمين) فقال له رجل: يا أمير المؤمنين أهذا قولٌ قلته عن نفسك أو شيء سمعته من رسول الله؟ قال: بل كان رسول الله إذا لبس ثوباً قال مثل هذا القول[3].

---

(١) وفيات الإمة ص ٧٢.

(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٦٠.

(٣) دعائم الإسلام ج ٢ ص ١٥٧، مستدرك الوسائل ج ٣ ص ٢٦٨.

عليٌّ عليه السلام آمن بالإنسان كإنسان، ووقف ينظر إلى الطعام ما هو إلى حشو بطن وحسب الإنسان أن يوصل إلى بطنه ما يملؤها، شريطة أن يكون من الحلال. يقول: المؤرخون: مر علي بن أبي طالب عليه السلام بسوق التمّارين، واشترى له قوصرة من التمر ونقلها بنفسه إلى بيته، ثم مكث يأخذ منها في كل يوم قليلاً ويردد هذا البيت:

أفلح من كانت له قوصرة   يأكل منها كل يوم مرة[1]

ثم يمر بيده على بطنه بعد أن يشرب الماء وهو يقول: (من أدخله بطنه النار فأبعده الله)[2] وبعد ذلك أصبح ذلك الطعام الذي يأكله عليٌّ عليه السلام، والثوب الذي يلبسه، والكوخ الذي يسكنه، كل ذلك لا يؤلف للإنسان شيئاً من العظمة في نظر علي عليه السلام، بمعنى أنه ليس جزءاً من الإنسان، الإنسانُ إنساناً بقيمه وبأفكاره وبعدله في نظر علي عليه السلام، وكان علي الفكر، وكان علي الموقف، فلهذا خلد علي عليه السلام.

علي عليه السلام آمن بالإنسان فكرم الإنسان، ولم يكرم ما علق بالإنسان، وما تصور البعض أنه دخيل في حياة الإنسان، فكان يرى أن الإنسان أكبر من رغبة مؤقتة، وأكبر من كرسي يجلس عليه ثم يتداعى بعد أيام، كان يرى أن الإنسان كل الإنسان هو الذي يبنى له كرسي في نفوس الناس، لا الذي يبني له كرسي على رؤوس الناس. فهناك فرق بين من يجلس على الرؤوس قسراً، وبين من يحتل النفوس عن طواعية. ولهذا يقول أحد الشعراء:

ورأيت كرسياً يرج كأنه   نعش يدق بجنبه مسمار

فكثيرٌ من الناس كانت كراسيهم نعوشهم ماتوا فيها من حيث تصوروا أنهم سيحيون؛ بينما علي عليه السلام وهو الذي كان كرسيه من التراب خلد في نفوس الأحرار، ولهذا وقف يخاطبه أحد الشعراء بهذه الأبيات:

---

(١) مناقب آل أبي طالب٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث٣: ٨٦ - قرر، البداية والنهاية ٨: ٣، تاريخ مدينة دمشق٤٣: ٤٨٠. والقوصرة: الذي يكنز فيه التمر من البواري، الصحاح٢: ٧٩٣ - قصر.

(٢) بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٣٤٠، ميزان الحكمة ج ٣ ص ٢٦٣٧.

يـا أبـا الأوصـيـاء أنـت لـطـه صـهـره وابـنُ عـمّـه وأخـوهُ
إن لله فـي مـعـانـيـك سـرّاً أكـثـر الـعـالـمـين ما عـرفـوهُ
أنـت ثـانـي الآبـاء فـي منتهـى الـدور وآبـاؤه تُـعـدّ بـنـوهُ
خـلـق الله آدمـاً مـن تـراب فـهـوَ ابـنٌ لـه وأنـت أبـوهُ(١)

فعلي عليه السلام آمن بالإنسان كإنسان، فلهذا كان تكريمه للأغنياء والفقراء على حد سوى، بل أنه كان يُكرم الفقراء ويُطعمهم العسل المصفى، يقول المؤرخون: كان عليٌّ عليه السلام يضع الأيتام في حجره، ويحنو عليهم ويرعاهم، لأنه سمع القرآن داعياً إلى ذلك ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾(٢). فجسد علي هذا المعنى، هكذا كان علي عليه السلام ما افترقت عنده النظرية عن التطبيق أبداً.

آمن علي بالقرآن وما افترق إيمانه بالقرآن عن تطبيقه لتعاليم القرآن، بينما وجدنا في التاريخ كم من مدع إدعاء أنه آمن بالقرآن، ولكنه ترك تعاليم القرآن وراء ظهره، ومضى يطبق ما يمليه عليه الهوى، ولكن علي بن أبي طالب ما افترق عن القرآن في لحظة من اللحظات، بل أنه حمل القرآن فطبقه قولاً وفعلاً، سمع القرآن يقول: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾(٣). فوقف عليٌّ قانتاً آناءَ الليل وأطراف النهار، يقلب وجهه بالسماء، يقول نوف البكالي: رأيت أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة وقد خرج من فراشه، فنظر في النجوم فقال لي: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟ فقلت سيدي: بل رامق قال: (يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح)(٤). وبقي عليه السلام يطوف حتى الصباح، وما كان يهدأ أبداً، ذلك لأنه آمن بالقرآن، عليٌّ آمن بالقرآن داع للعبادة فوقف يعبد الله تعالى، وقف يعفر خده بالتراب،

---

(١) الغدير٦: ٢٣٨. شجرة طوبى٢: ٢٢٠.
(٢) سورة الضحى، الآية: ٩.
(٣) سورة الزمر مقطع من الآية: ٩.
(٤) نهج البلاغة/ الحكمة: ١٠٤.

طالما يرونه ساجداً بين النخل، وطالما كانوا يسمعون صوته وقد امتزج بالنشيج وبالنحيب من خشية الله عز وجل، طالما وعاه تراب المدينة وهو يمزج عينيه بذلك التراب، فكان عليٌّ الحبر بالليل لأنه آمن بالقرآن، ومن ثَم كان يطبق آيات القرآن في حياته اليومية، ويرى أن تطبيقها هو ما أرادته منه السماء، لأن الله تعالى لم يُنزّل قرآن ليقرأ دون أن يعمل به، ولذلك كان الإمام الصادق عليه السلام في وصفه لعلي عليه السلام كأنما يقول: يعمل العمل ووجهه بين الجنة والنار، يرى نعيم هذه، ويخشى عذاب هذه، بمعنى أن القرآن رسم له هذا الخط، خط النظرية والتطبيق، فكان يرى من ههنا الجنة ومن ههنا النار، ولا يعمل العمل إلا وهو بين هذين، شعوره أن الجنة لمن عمل، وشعوره بأن النار لمن لم يعمل.

آمن علي بن أبي طالب بالقرآن فسمع القرآن يقول: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1]. فكان من خلال هذا النص والنصوص الأخرى في القرآن لم يخف علي من الموت، ذلك لأنه أيقن أن الخوف من الموت لا ينجيه منه، كما أنه أيقن أن الشجاعة ليست في الفرار من المعركة ، بل بأن يقذف الإنسان بنفسه إلى لهواة الحروب. يقول سعيد بن قيس الهمداني: كنت أجول بين الصفوف يوم صفين، فرأيت علي بن أبي طالب عليه السلام في ثوبين، والسهام تتخاطف من بين يديه، والسيوف والرماح من ورائه. فقلت: سيدي أههنا؟ أفي هذا المكان؟ وليس عليك إلا ثوبان، أين الدرع؟ أين المغفر؟ أين السلاح؟ قال عليه السلام: (وأي شيء أخاف؟ إنه ليس من أحد إلا ومعه ملكان موكلان به أن يقع في بئر أو تضر به دابة أو يتردى من جبل حتى يأتيه القدر فإذا أتى القدر خلوا بينه وبينه)[2].

ومن ثَم ورد عنه أنه قال: (لا أبالي أوقعت على الموت أم وقع الموت علي)[3]. ولقد ترجم ذلك بمقولته الشهيرة:

---

(١) سورة النساء مقطع من الآية: ٧٨.
(٢) التوحيد الشيخ الصدوق ص ٣٧٩/ والحر العاملي ج ١٥ ص ٢٠٣/ وج ١١ ص ١٥٩.
(٣) تفسير الآلوسي ج ١٩ ص ٨٠.

أي يوم من الموت أفر يوم لم يقدر أم يوم قدر
يوم لا يقدر لا أخشى الوغى يوم قد قدر لا يغني الحذر(1)

فكأنه عليه السلام في هذين البيتين يقول: أنا ما بين أمرين، إما أن يكون هذا اليوم مقدرٌ علي الموت فيه ولا طريق للخلاص من القدر، أو أنه لم يكون مقدر عليّ الموت فيه، فلذلك لا أخشى من الدنيا كلها أن تميتني، ذلك لأن الأمر بيد الله عز وجل ، فالله تعالى هو الذي يُحيي وهو الذي يميت. ولذلك رأته لهوات الحروب وهو يقذف بنفسه فيها، فيرجع وهو مكلل بالنصر. لقد عرفه تاريخ المسلمين بأنه الساعد الذي لم يعرف الكلل في الدفاع عن المسلمين، والنفس التي لا تعرف الانهزامية، فكان دوماً يصارع الحروب ويقارعها، منذ أن فتح عينيه على الحياة، حتى ختمت حياته، ولم تزل بقايا الضربات على جسده الشريف، لأنه آمن أن الإنسان لا يمكن أن يهرب من الموت، وإذا هرب من الموت تبعه الموت، فلم يبقى إلا الجبن، فكان يقول: (والذي نفس علي بن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش)(2) فكان عليٌّ عليه السلام غاية في البطولة. ولهذا ما عرف عنه أنه انهزم في معركة قط، وما لبس درعاً كاملة قط، فكان يلبس درعاً صدراً لا ظهر لها، فيقال له: ياأبا الحسن لِمَ لا تلبس الدرع الكامل، مخافة أن يأتيك إنسانٌ من خلفك. فكان يقول: (إذا مكنت عدوي من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقى علي)(3) كأنه بهذا المعنى يقول: لا أبقى الله علي إن أبقيت عليه حتى يصل إلى ورائي، لأنه عليه السلام لا يتبع منهزماً ولا يفر من أحد، فلا يحتاج إلى الدرع الكامل، فكان عليه السلام ثبات في الحرب، وعزيمة لا تعرف الكلل، وانطلاقة ليس لها حدود، لا يمكن أن يصفها إنسان قط، كل ذلك لأنه آمن بأن الله وحده هو الذي يحيي وهو الذي يميت، فلم يخشى من الموت، ولم يبالي إن وقع على الموت أو وقع الموت عليه.

---

(1) مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٤، بحار الأنوار ٤٢: ٥٨.
(2) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢.
(3) المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٤٧٣.

آمن عليٌّ بالقرآن وعندما آمن بالقرآن لم تأخذه في الله لومة لائم، فقد جسد مفهوم هذه الآية الكريمة عندما سمعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1]. طبق عليٌّ النظرية بعد إيمانه بالمفهوم. يقول: المؤرخون لما فتح النبي صلى الله عليه وآله مكة المكرمة، أقبل بعض الصحابة إلى أقربائهم فآووهم في بيوتهم، وجاء علي بن أبي طالب وهو يحمل سيفه، إلى أن وصل إلى دار أخته المكنّات بأم هاني، وطرق عليها الباب. فخرجت، وقد علم مسبقاً أن في البيت زوجها هبيرة، ومعه اثنان من قريش قد استجاروا بها، وذلك لكونها أخت علي بن أبي طالب، ولكونها بنت عم النبي صلى الله عليه وآله، يقول: ابن طاووس فلما سمعوا نقره على الباب أخذوا يزرقون منه، كما تزرق الحبارى، فأمرها علي عليه السلام أن تخرجهم من بيتها، يقول المؤرخون: - فلم تعرف أنه أخوها - قالت له: يا هذا أنا أخت علي بن أبي طالب، أنا بنت أبي طالب، أنا بنت عم رسول الله صلى الله عليه وآله، وليس عندي أجانب، إنما هو زوجي ومعه شخصان استجاروا بي، تقول الرواية فأبى علي بن أبي طالب إلا أن يخرجوا من بيتها لأنها ابنة أبي طالب وأن أولئك الأشخاص كفرة وليس من شأنها أن تأوي الكفرة، فلما خرجوا قالت: لأشكونك إلى رسول الله، فأقبلت إلى النبي صلى الله عليه وآله وقد أمسكته من يده، فلما وصلت إليه قالت: يا رسول الله أعلمت بما صنع بي هذا وهو رجل من قومك، لقد أخرج من استجاروا ببيتي، فسألها رسول الله عنه فلم تعرفه وبعد ذلك عرّفها رسول الله صلى الله عليه وآله به، فلما عرفته قالت: أهذا أنت وتفعل بي هذا الفعل؟؟

فكان عليه السلام شديداً على الكافرين، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله في تشخيصه لهذه الخصلة عند علي عليه السلام: (إن علياً عليه السلام لأخيشن في ذات الله)[2].

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٢) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين ص ٣٤.

وقال ﷺ: (لا تشكوا علياً فإنه الأخيشن في ذات الله)[١]. ما افترقت النظرية عن التطبيق عند علي عليه السلام في أن لا يتخذ الكافرين أولياء أبداً، وذلك أنه ما لج به عرق من القرابة، ليرغمه على قبول هؤلاء في دار أخته، وما دفعته المجاملة ليرفع جناحه عنهم أبداً، بل دفعه إيمانه بالله بأن يتنمر في وجه الكفر، ولذلك تنمر عليه الكفر، ولكن الكفر سينهزم، وسيبقى علي عليه السلام كما هو. هكذا آمن علي عليه السلام وطبق كل ما آمن به.

علي آمن بالقرآن فسمع القرآن يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢]. وهنا تتجلى لنا صورة من العفو عند علي عليه السلام، التي لا يمكن لمن هو في موقفه ذلك الوقت أن تكون عنده، بينما كانت عند علي عليه السلام بارزة، إنها صورة لا يمكن لأي إنسان فيها أن يسيطر على عواطفه، حدثت واقعة البصرة، وملئت الأرض بالجثث، وارتوت الأرض بالدماء، وفي تلك اللحظات جاؤوا إليه بموسى بن جعفر بن عبد الله الذي قاد المعركة. وأوقفوه أسيراً بين يديه، فلما نظر إله لم ير فيه أنه الإنسان العدو، ولم يرى فيه أنه الإنسان الذي خرج ليقاتله، وإنما رأى فيه الإنسان المقهور المخذول، فأمرهم بفك وثاقه، فلما فكوا وثاقه، أمره بعد ذلك بتقوى الله تعالى وأن يذهب إلى المعسكر فإذا وجد له سلاحاً أو كراعاً أن يأخذه من المعسكر وينصرف. إذاً علي آمن بالآية فطبقها، ولهذا رسم لنا منهجاً في العفو فقال عليه السلام: (إذا قدرتَ على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه)[٣]. كما أنه طبق القرآن بكامله ولم يبتعد عن تعاليمه، فرآه تاريخ المسلمين في مثل هذه الليلة وهو يرسم مثل القرآن وأهداف القرآن، وذلك عندما كان يوصي ابنه الإمام الحسن عليه السلام قائلاً له: (إرفق يا ولدي بأسيرك، وارحمه وأحسن إليه وأشفق عليه)[٤] وقال عليه السلام

---

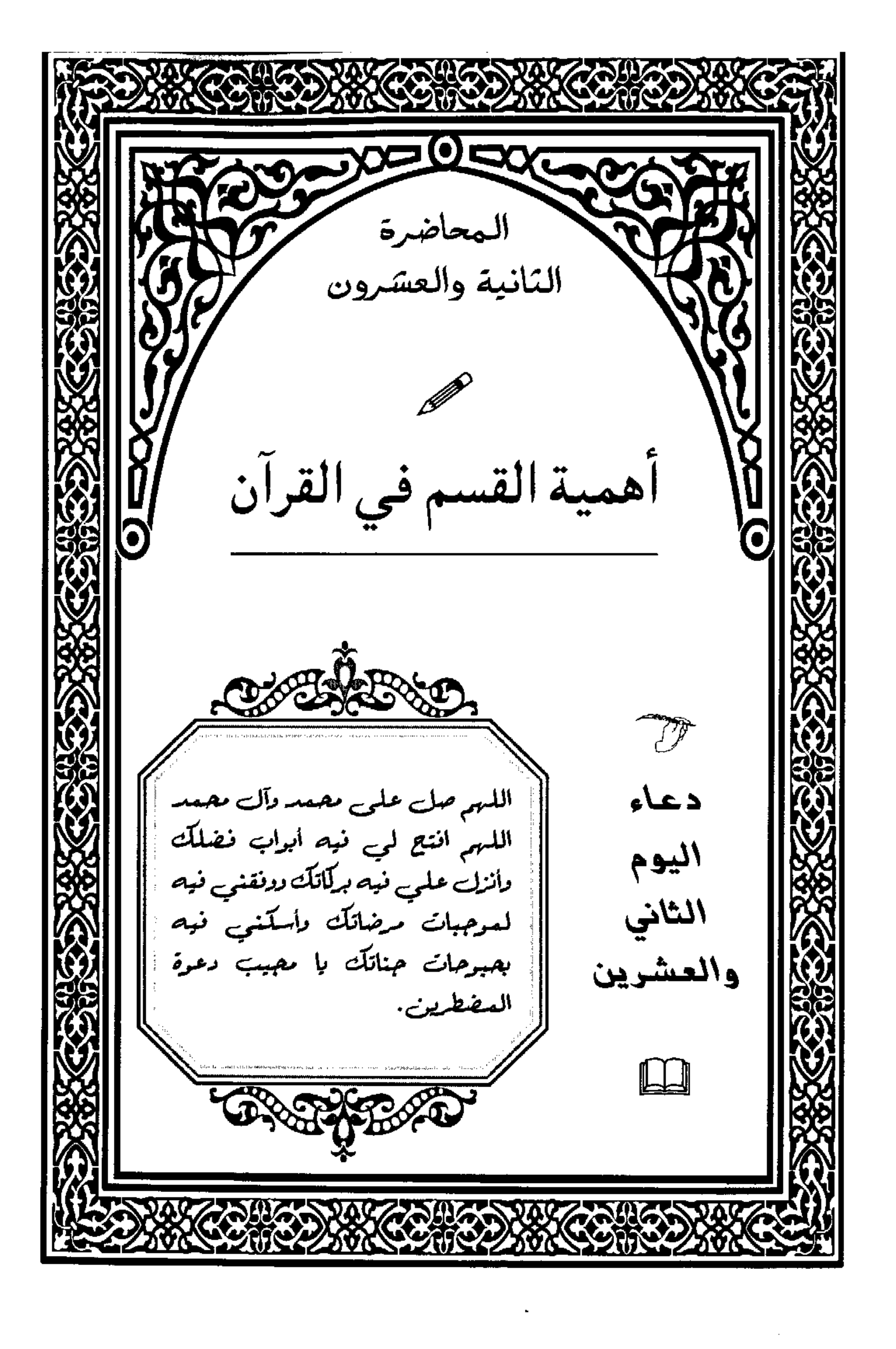
(١) شرح احقاق الحق السيد المرعشي ج ٤ ص ٢٤٤/ ج٢٠ ص ٣٠٠.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٣) نهج البلاغة الباب المختار من حكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ص٥٥٢.
(٤) مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ١١ ص ٧٩.

لابنه الإمام الحسن : (يا حسن أبصروا ضاربي أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي)[1] وقال عليه السلام : (ألا لا يقتلن بي إلا قاتلي أنظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ولا يمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور)[2] ثم أغمي عليه فتصارخت بناته ونساؤه فلما أن أفاق من غشوته أقبل عليهم يوصيهم بوصاياه هذا وجبينه يرشح عرقاً. . . . الخ.

وسفة والف وسفة وحزن ما ينقضي طول الزمن
لفلاك كلها اتعطلت جبريل ينعي بو الحسن
شد ميزره بيده اوطلع من منزلة اوزينب مشت
تبجي وتقله يا علي دارك علينا استوحشت[3]



(١) أعيان الشيعة - السيد محسن الأمين - ج ١ ص ٥٣٣.
(٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ٧٨، روضة الواعظين - الفتال النيسابوري - ص ١٣٧.
(٣) من قصيدة للشاعر المرحوم الملا مهدي الشهابي البحراني، من ديوانه «النصرة المهدية للعترة الأحمدية».



المحاضرة
الثانية والعشرون

أهمية القسم في القرآن

دعاء
اليوم
الثاني
والعشرين

اللهم صل على محمد وآل محمد اللهم افتح لي فيه أبواب فضلك وأنزل علي فيه بركاتك ووفقني فيه لموجبات مرضاتك وأسكني فيه بحبوحات جناتك يا مجيب دعوة المضطرين.

٢٢

أهمية القسم في القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾(١).

❋❋❋

من الملاحظ في القرآن الكريم أن كثيراً من السور القرآنية أفتتح بالقسم، وقد تكرر القسم في بعضها إلى أحد عشراً قسماً أو أكثر، لهذا يسأل البعض عن السبب في ذلك، يقول: لماذا يتكرر القسم في سور القرآن الكريم، مثلاً قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾، كذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾، ... إلى غير ذلك من القسم الوارد في سور القرآن الكريم؟

في الأغلب - كما يقول العلماء - إن الهدف هو إلفات العقول إلى أهمية تلك الأشياء المقسم بها، بحيث أن لها أهمية على غيرها عند الله تبارك وتعالى، إما مادياً وإما معنوياً ، لأن الشيء الذي يُقسم به لا بد وأن تكون له أهمية، وإلا إذا لم تكن له أهمية لا يقسم به البته؛ فعندما يأتي القسم في القرآن الكريم، معنى ذلك أن له أهمية. ومن هذا المنطلق أولاً نقف عند قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾؛ فهل المقصود بالتين والزيتون هما الفاكهتان المعروفتان عندنا؟ أو أن المقصود بهما غير ذلك؟ واقعاً هناك رأيان عند العلماء.

---

(١) سورة التين، الآيات: ١، ٣.

الرأي الأول: هو أن المقصود بالتين والزيتون هما الفاكهتان المعروفتان عندنا، ويؤيد ذلك قول ابن عباس عندما سؤل عن ذلك، قال: (هو تينكم وزيتونكم هذا)[1]. وبناءاً على هذا المعنى، ما هي الغاية من القسم بهما، إذا كان الأمر كذلك؟ واقعاً عندما نرجع إلى الأطباء نجد أن لديهم قائمة كبيرة ذكروا فيها أهمية هاتين الفاكهتين، وذلك حسب الدراسات التي لديهم، أنهم قالوا: إن في أكل التين والزيتون آثاراً إيجابية على صحة جسد الإنسان، ولهذا فإنهم يضعون قائمة في ذلك، إلا أن هذا الأمر في حد ذاته لا يعنينا في هذا الموسوعة إنما يعني الأطباء، فمن يريد الإطلاع على ذلك فله أن يسأل الأطباء، فإنهم يوضحون له منفعتهما، إنما الذي يهمنا في هذا الموضع هو قول النبي ﷺ وذلك عندما أهدي إليه طبق من التين فأكل منه ثم قال لأصحابه: (كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس)[2].

وروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: (التين يذهب بالبخر ويشد الفم والعظم، وينبت الشعر، ويذهب بالداء، ولا يحتاج معه إلى دواء). وقال عليه السلام: (التين أشبه شيء بنبات الجنة)[3]. ولهذا كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بأن يأكلوا من التين، كما كان ينوه بأكل الزيتون، قال ﷺ: (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة)[4] وكان ﷺ يتخذ من الزيتونة قطعة عود لسواك الأسنان. وكذلك القرآن الكريم أعتبرها شجرة مقدسة ومباركة،

---

(١) تفسير الرازي ج ٣٢، ص ٨، تفسير السمرقندي ج ٢، ص ٥٧١، لسان العرب ج ١٣، ص ٧٥.

(٢) تفسير الرازي ج ٣٢، ص ٨. وعن علي بن موسى الرضا عليه السلام: (التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج وأما كونه دواء فلأنه يتداوى به في أخراج فضول البدن) المصدر السابق.

(٣) الكافي، ج٦، ص ٣٥٨. وأورده العلامة المجلسي في بحار الأنوار ج ٦٦، ص١٨٤ روايات متعددة في حقل خواص التين. وعن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: قال: كان في ما أوصى به آدم عليه السلام هبة الله أن قال له: كل الزيتون فإنه من شجرة مباركة.

(٤) بحار الأنوار، ص ١٨٢ حديث ١٦.

قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[1]. بالإضافة إلى ذلك قالوا: إن شجرة التين لها ارتباطاً بنا عاطفياً وصحياً وأخلاقياً. وهذه نقاط يجب أن نقف عندها.

أولاً: الارتباط العاطفي: قالوا: إن هذه الشجرة هي التي حنت على آدم وحواء عندما تعريا، وذلك عندما أكلا من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها. وهذه هي إحدى الصلات الوثيقة التي اعتبروها مع هذه الشجرة، لأنه قد تكون الصلة ما بين الأشخاص والمخلوقات الأخرى، مثلاً قد يكون للإنسان ارتباط بغرفة من الغرف في بيته، وذلك عندما تكون له ذكريات فيها. فهذه الشجرة كان الارتباط العاطفي لنا بها أنها حنت علينا وسترتنا، فمقتضى هذا الفضل لابد وأن نسجله لها - أي إلى شجرة التين - لأن الستر في حد ذاته أمر مطلوب على الرجل والمرأة. وذلك بغض النظر عن القيم الاجتماعية والأخلاقية، لأن المسألة ليست مسألة اجتماعية فحسب، وإنما هي مسألة ترتبط بالنفس، بمعنى أن الإنسان نفسياً يتقزز من ذلك، - أي من كشف العورة - بدليل أن هناك أعضاء الشارع يأمر بسترها، ولكنها إذا انكشفت النفس لا تتقزز منها، بمقدار ما تتقزز من كشف العورة.

إذاً الارتباط العاطفي بيننا وبين هذه الشجرة هو ستر العورة. ولكن - للأسف الشديد - إن العالم اليوم نجده في انحدار، وذلك عن قيمة وعن مواضعاته، حيث أن هناك مدارس للعري تحاول أن تبرز أعضاء الرجل وأعضاء المرأة، كل ذلك محاربة لله ولرسوله، وذلك من خلال ما يبثونه في تلك القنوات، التي من المفترض بها أن تعطي هذا الجانب الأهمية البالغة وهو جانب الستر.

فعموماً نرجع إلى أصل البحث، واقعاً إن لستر العورة أهمية، ولهذا كان الارتباط العاطفي بيننا وبين هذه الشجرة بأن سترت آدم وحواء.

ثانياً: الارتباط الصحي: واقعاً هناك ارتباط صحي بيننا وبين هذه الشجرة

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.

وهو ما ذكرناه في مقدمة الحديث، إضافةً إلى ذلك الروايات التي تقول إن هذه الشجرة مباركة، هي وشجرة الزيتون فلقد عبر عنها القرآن الكريم وأعطاها صفة المباركة، بالإضافة إلى ذلك فإن النبي ﷺ والصحابة كانوا يسرجون منها.

الارتباط الثالث: أن المفسرين لهم لفتة أخلاقية في هذا الجانب، حيث أنهم قالوا: إن الشجر على ثلاثة أصناف، كما أن البشر على ثلاثة أصناف.
الصنف الأول من الشجر قد يأخذ له مساحة واسعة من الأرض، وقد يرفع لنفسه شعاراً في الفضاء، وبالأخص عند ما يأتي الربيع، ولكن بدون جدوى، لأنه لا يعطي ثمرة من الثمار، وهذا النوع من الشجر هو بمثابة البخلاء من الناس، فلهذا يسمى عند العرب بشجر الخلاف - هذا الصنف الأول -.

الصنف الثاني من الشجر قد يرفع شعاراً ملفتاً في الفضاء، وقد يأخذ مساحة واسعة من الأرض، وأيضاً يحتاج إلى عناية مكثفة، ولكنه في مستقبل الأيام قد يعطي الثمر شيئاً فشيئاً.

الصنف الثالث من الشجر ليس له ضجة، وليس له إعلان، ولا تجده يأخذ مساحة واسعة من الأرض، ورأساً يعطيك الثمر، ومنه شجرة التين، وهذه في واقع الأمر لفتةٌ أخلاقية من لفتات المفسرين يقارنون فيها بين الشجر والناس، فالناس أيضاً كذلك، وذلك أنهم يصنفون الناس كما يصنفون الشجر، فالبعض من الناس تراه لافتةً عالية، بالإضافة إلى عناوين واسعة، ولكن بدون جدوى، بمعنى أنه عندما تتصفح تلك الحياة، تراها خالية ليس فيها عطاء، لا من قريب ولا من بعيد. وهذا هو المعنى الذي يشير إليه الشاعر العربي:

إذا كنت لا تنفع فضر فإنما يراد الفتى إذ ما يضر وينفع[1]

المقصود هو أن الإنسان لابد وأن تكون له فاعلية في الحياة، فإذا لم تكن له فاعلية في الحياة فوجوده كالعدم، فلهذا هناك نمط من الناس كما ذكرنا مزهر، وطويل، وعريض، ولكن بدون جدوى.

---

(١) محاكمة الخلفاء وأبنائهم الدكتور جواد الخليلي ص ١٠١.

نمطٌ آخر من الناس يحب البروز ويحب الظهور، ولكن مقابل ذلك البروز والظهور - عطاء - مقابل ذلك البروز والظهور - ثمر - وهذا المعنى لا يتنافى مع المفاهيم الإسلامية، وذلك إذا لم يصاحبه الرياء، لأن الرياء مفسد للعمل، مثلاً البعض من الناس عندما يتصدق يحب أن تكون صدقته علانية، وعندما يبذل، وعندما يتبرع، وعندما يشارك في مشروع خيري يُحب أن يقال فلان أسس المؤسسة الفلانية، فيشعر في داخله بلذة، يقول العلماء: هذا المعنى لا يتنافى إذا كان القصد منه أن يشجع الآخرين على ذلك العمل، أو أن يحثهم عليه. ولكن بملاحظة هذا الشرط، وهو أن يكون خالٍ من الرياء، لأن الرياء مفسد للعمل، كما يقول الحديث الشريف المروي بالسند المتصل إلى أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله)[1] فلهذا قالوا: إن هذا الشرط إذا تحقق لا يتناف معه البروز، فعموماً إن البعض من الناس لديه موازنة، في الوقت الذي يحب البروز يقدم عطاء، وهذا هو الصنف الثاني من أصناف البشر.

الصنف الثالث هو بمثابة شجرة التين، شجرة التين رأساً تعطي الثمرة، وذلك بهدوء، وبدون ضجة، البعض من الناس هكذا عمله بصمت، لا يشعر به أحد إطلاقاً، فيعمل الخير، ويعمل البر، ويعمل الإحسان، ولا أحداً يعلم به. فإذا عمل معروفاً لا يخبر أحداً بذلك، أي أنه لا يحب الظهور، كما وأنه في نفس الوقت تجده الإنسان الذي ينكر ذاته، بحيث لا يحب أن تكون بصماته واضحة على كل عمل يعمله، وهذا - في واقع الأمر - يعتبر النمط الأعلى، الذي يكون جدواه للإنسانية لا حدود له، وهذه الشخصية من الناس شبيهة بشجرة التين.

التفسير الثاني: أن المراد بـ(التين والزيتون) هما موقعان: فالتين يقال هو المكان الذي رست عليه سفينة نوح عليه السلام في ظهر الكوفة، أي أنه المكان - الذي يعرف بالجود فإنه يسمى بالتين - ولهذا عندما نرجع تاريخياً وننظر إلى ما كتبوه علماء الري، ومنهم أحمد شوشة، فإنه قد كتب بحثاً مطولاً في

---

(١) أصول الكافي - المجلد الثاني - كتاب الإيمان والكفر - باب الرياء - ح ٣.

ذلك، وقال: بأن سفينة نوح يؤثر في قول من الأقوال أنها رست على ظهر الكوفة، ولذلك الزائرون للعتبات المقدسة، عندما يصلون إلى النجف الاشرف، يمضون إلى ذلك المكان. وهو مكان منخفض يسمى بالسفينة وهو باقٍ إلى الآن، فالأخبار التي تعالج الموضوع، في بناء مسجد الكوفة تؤكد هذا المعنى، وإن كان هناك رواية تشير إلى أن السفينة رست على جبل من جبال لبنان. إلا أن الرواية المشهورة تؤكد أنها رست في شمال العراق، وتحديداً في مسجد الكوفة، وقد عرف ذلك المكان بالتين.

وعندما نسأل عن العلاقة في ذلك، يقول العلماء: لأن العرب تسمي الحال بسم المحل، وتسمي المحل بسم الحال، ولتوضيح هذا المعنى أكثر فأكثر، هو عندما نأتي إلى القرآن الكريم نجد هذا المعنى وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾[1] فنحن لفظة الغائط نطلقها على ما يخرج من الإنسان أثناء التخلي، بينما هي في اللغة أن الغائط هو المنحدر من الأرض. بعبارة أخرى هي الحفرة، فكل حفرة تسمى غائط، ولهذا نجد السيد حيدر الحلي أحله الله دار كرامته في قصيدته الهائية التي يرثي بها الإمام الحسين عليه السلام يقول: (وغط النجود وغيطانها)[2] فالنجد المرتفع والغيطان المنخفضات، من ذلك قالوا: كان الرجل من الناس في الزمن السابق، إذا أراد أن يقضي حاجته، يمضي إلى مكان منخفض، كي يتوارى فيه عن أعين الناس. - واقعاً كان هذا المعنى قديماً، أمّا الآن فالأمر يختلف - فعلى أي حال، الغائط إنما سمي من باب تسمية الحال بسم المحل، ذلك من أن المحل أخذ الاسم، بعبارة أدق أُلقي على الحال، أو على الشيء الذي يحل فيه، كذلك هنا عندما يقول القرآن الكريم: ﴿وَٱلتِّينِ﴾ يعني به المكان الذي ينبت فيه التين، وعندما نرجع إلى المصادر التاريخية، نجد أنها تثبت من أن النجف الأشرف كان أكثر بقاع الأرض زرعاً للتين، حتى أن البعض من الباحثين يذكر بأن على ظهرها نهراً كبيراً، وكان ذلك النهر يُزرع عليه التين من

---

(١) سورة النساء مقطع من، الآية: ٤٣/سورة المائدة مقطع من الآية: ٦.

(٢) مقطع بيت من قصيدة عصماء للسيد حيدر الحلي [رياض المدح والرثاء].

الجانبين، ومن جملة من ذكر هذا المعنى هو الدكتور الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله في كتابه (الخلفية الحضارية للنجف قبل الإسلام) فقد أثبت فيه بالأرقام من أن تلك البقعة يرتبط تاريخياً الحضاري بخمسمائة سنة قبل الإسلام، كما وأن الدكتور مصطفى جواد له بحث كبير في النجف، وقد ذكر أقوال كثيرة، ومن جملة تلك الأقوال أن هذه المنطقة وهي النجف كانت منبت من منابت التين.

أم الزيتون فهو ببيت المقدس حيث أن هناك جبل ينبت عليه الزيتون، كما هو معلوم، ولكن - للأسف الشديد - في هذا الوقت وأنا أكتب هذه الصفحات العالم يشاهد جرافات الصهاينة تزيل تلك الأشجار المثمرة عن جديد الأرض، كما أنها تقتل الأبرياء وبدون أي مبرر لها، وليس هناك رادع يردعها، سوى قنوات المسلمين تخبر عن ذلك. إذاً فبناءً على هذه الأدلة التي ذكرناها سابقاً فإن التين والزيتون موقعان. فإذا كان كذلك فإن لهما أهمية، لأن القرآن لا يقسم بشيء إلا وله أهمية، كما ذكرنا في مقدمة البحث، وحيث أن النجف الاشرف قد ثبت في علم الله تعالى أنه موضع يدفن فيه أمير المؤمنين [سلام الله عليه] وأمير المؤمنين عليه السلام مَن علم الجميع أن له القداسة والمكانة والمنزلة عند الله تبارك وتعالى، والمواقف المشهورة - المشرفة - التي وقفها مع رسول الله صلى الله عليه وآله في نصرة هذا الدين الحنيف، وتفانيه للعقيدة الإسلامية، وكل هذا يعلم به جل وعلى قبل أن يكون، فلهذا أعطى موضع مدفنه هذه المنزلة، بحيث أنه أقسم به، ومن ثَم يرى المؤرخون أن قبره كان مُعداً من قبل نبي الله نوح [على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام] وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم بذلك، ولهذا قال في مضمون وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: (فإذا صليت عليَّ يا حسن فنح السرير عن موضعه ثم اكشف التراب عنه فترى قبراً محفوراً ولحداً مثقوباً وساحة منقوبة فأضجعني فيها)[1]. - إلى أخر وصيته عليه السلام فلهذا الإمام الحسن قام بتنفيذ تلك الوصية

(١) بحار الأنوار ج ٤٢، ص ٢٩٢، الأنوار العلوية الشيخ جعفر النقدي ص ٣٨٦، السيرة النبوية برواية أهل البيت عليهم السلام الشيخ علي الكوراني العاملي ج ١، ص ٤٦١.

فصلى على أبيه مع جماعة من أهل بيته وخُلّص شيعته فكبر سبعاً كما أمره أبوه ثم زحزح السرير وكشف التراب وإذا بقبر ولحد مشقوق وساجة منقورة مكتوب عليها: [هذا ما ادخره نوح النبي للعبد الصالح الطاهر بن المطهر] فعندها أنزله الإمام الحسن عليه السلام مع إخوته وكروا راجعين إلى الدار وإذا بالحوراء زينب واقفة على باب الدار تنتظرهم ودموعها جارية على خديها، فلما لاح إليها أبا محمد صاحت بلسان الحال:

وديت يبن المصطفى باب العلم وين

ورديت لينا بالكسيرة يا ضيا العين

والله عجب صفوة الباري وسر لوجود

والجوهر السامي وحب الله الممدود

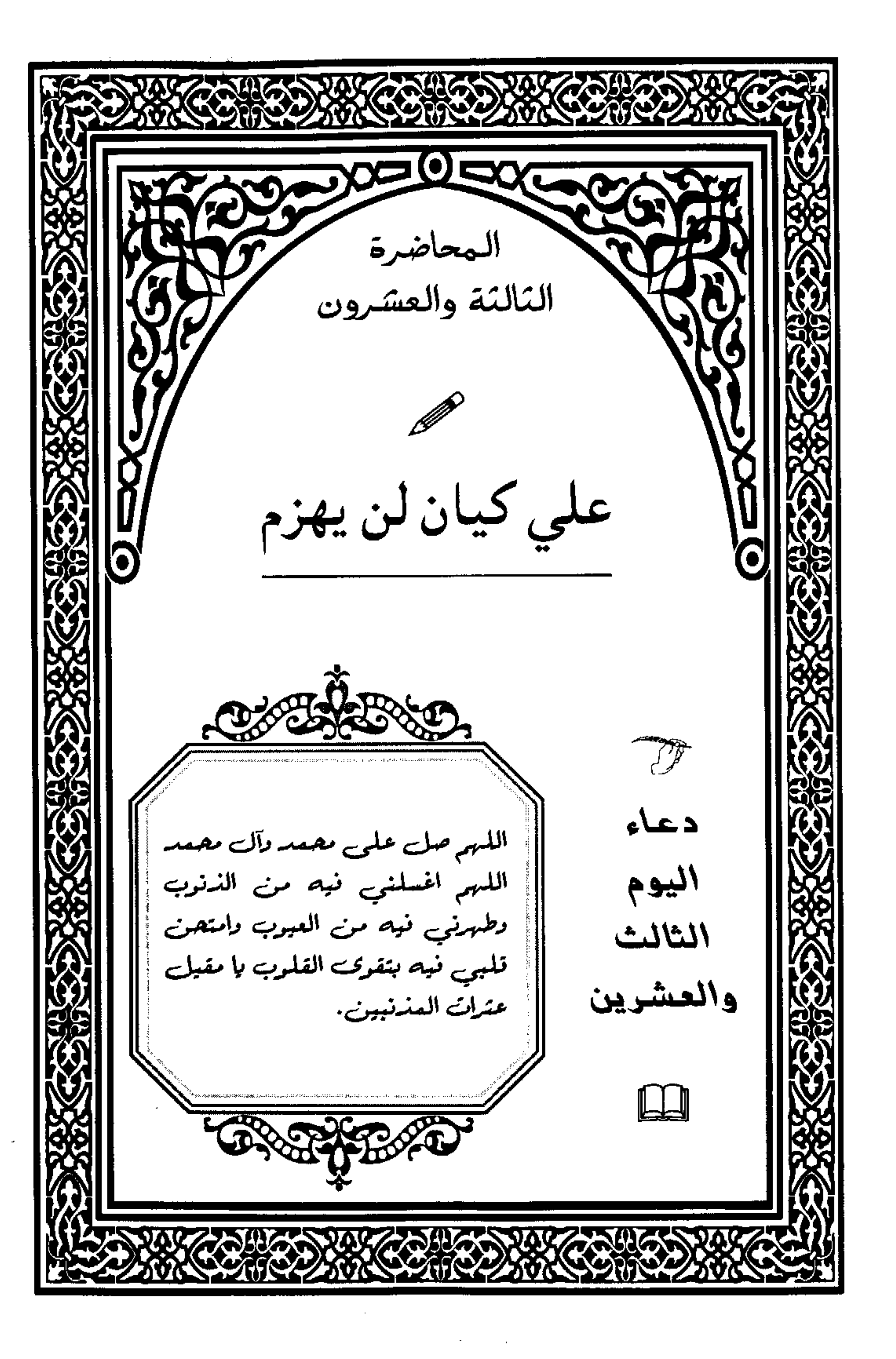
بحر الكرم والجود چيف اتضمه الحود

كهف الأرامل واليتامى والمساكين(١)



---

(١) الجمرات الودية ص ٧٥.



المحاضرة
التالثة والعشرون

علي كيان لن يهزم

دعاء
اليوم
الثالث
والعشرين

اللهم صل على محمد وآل محمد اللهم اغسلني فيه من الذنوب وطهرني فيه من العيوب وامتحن قلبي فيه بتقوى القلوب يا مقيل عثرات المذنبين.

٢٣

عليٌّ عليه السلام كيانٌ لن يهزم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾[1].

※※※

لقد كان الحديث في المجلس المتقدم حول القسمين من السورة المباركة، وحينئذٍ سيكون الحديث حول القسمين الآخرين فيها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يقول العلماء: إن لفظة سينين[2]. في اللغة يراد منه إما المشجر، أو المثمر، أو الجميل. واحدٌ من هذه الأسماء الثلاثة، وأما طور فيراد منه في اللغة المكان المرتفع، الذي يكون دون الجبل، ما دون الجبل يسمى طور. فإذا رجعنا إلى النجف الأشرف جغرافياً، فإنها كما يقول العلماء: ترتفع عن البحر مائتين وأربعين قدماً، فإذاً يطلق عليها طوراً، أو هضبةٌ مرتفعة. ولكن قبل أن نجزم بذلك، نتساءل: هل أن هناك دليل تاريخي يدل على أن المراد بطور هو النجف؟ في واقع الأمر لدينا روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام تسمي منطقة النجف بطور سينا، ومن جملتها ما روي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث حدّث به، أنه كان في وصية أمير المؤمنين عليه السلام: (أن أخرجوني إلى الظهر، فإذا تصوبت

---

(١) سورة التين الآيات: ١، ٣.

(٢) قيل أن سينين (جمع سينه) وهي شجرة. ولما كان طور اسم جبل، فيكون القسم بالجبل المغطى بالأشجار، وقيل إن سينين اسم الأرض التي يرسو عليها ذلك الجبل. وقيل إنه يعني كثير الخير والبركة، وجميل، باللسان أهل الحبشة روح المعاني، ج ٣٠، ص ١٧٣.

أقدامكم واستقبلتكم ريح فادفنوني، وهو أول طور سينا، (ففعلوا ذلك)[1].
فهذه الرواية إذا صحت فهي نص في ذلك، إضافة إلى ذلك، أن هناك رواية أخرى تروى عن صفوان الجمال قال: كنت عند مولاي جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وكنا نسير إلى نجف الكوفة، فلما بلغنا إلى هذا المكان المعروف بالأكمه، قال: (أنخ الناقة)، فأنختها. فقام واغتسل واحتفى وتضرع وقال لي: (افعل كما فعلت)، ثم قال لي: (قصر خطاك فإن لك بكل خطوة مائة ألف حسنة وتمحى عنك مائة ألف سيئة، وترفع لك مائة ألف درجة، ويكتب لك ثواب كل شهيد وصديق مات أو قتل في سبيل الله تعالى)، ثم مشى ومشيت خلفه وعلينا السكينة والوقار ونحنُ نسبح الله ونقدسه ونهلله إلى أن بلغنا الأكمة، فوقف فنظر يمنة ويسرى وخط بعكازه خطاً وقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ثم قال: (السلام عليك أيها الوصي البر التقي، السلام عليك أيها النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون وعنه مسؤولون، السلام عليك أيها الصديق الشهيد..)[2].. إلى آخر الزيارة المشهورة التي زاره بها الإمام الصادق عليه السلام. إذاً فيتضح من أن المراد بطور سينا هو النجف الاشرف، ومن ثم نجد هذا المعنى في قوافي الشعراء منها قال أحدهم:

يا راكباً لسحوب في السرى غلساً ... يسوقها لحثيث السير والجثم
لم يعيها في السرى التعنيف إن وثبت ... تطوي مراكبها للبيد والأكم
عرج على طور سينا والتثم كرماً ... لترب قبر إمام العرب والعجم[3]

إذاً فهذا المكان في الحقيقة تبعاً للروايات يعتبر طور سينا، وهو مكانٌ

---

(١) مدينة النجف محمد علي جعفر التميمي ص ١٠٨، مدينة المعاجز السيد هاشم البحراني ج ٣، ص ٤٦. كما وردت رواية بالسند المتصل عن جابر بن يزيد قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام: أين دفن أمير المؤمنين؟ قال: دفن بناحية الغريين ودفن قبل طلوع الفجر.... إلى آخر الحديث[المصدر كتاب مدينة النجف ص ١٠٨].
(٢) وفيات الأئمة ص ٧٦.
(٣) من قصيدة عصماء للشيخ محمد بن الشيخ جواد بن الشيخ محمد آل الشيخ فرج الله الجزائري [المصدر علي في الكتاب والسنة والأدب الحج حسين الشاكري ج ٥، ص ٩٦].

مقدس، ومن المعلوم أن هذه المنطقة قديماً كان يزلزل بأهلها، بحيث لا يمر عليها يومان إلا وتكون فيها زلزلة؛ إلا أن تلك الزلزلة ليست من النوع القوي وإنما هي من النوع الخفيف.

يقول: المؤرخون فمر بهم نبي الله إبراهيم عليه السلام وكان في طريقه إلى مكة المكرمة، فعندما وصل إليها أناخ راحلته وضرب خبائه، يريد أن يستريح من عنا السفر، لكنه حينذاك يظهر أنه ارتاح لذلك المكان، فاستقام فيه أياماً، وكان من حين وصوله إلى ذلك المكان لم يزلزل بهم، فجاؤوا إليه بعد بضعة أيام من وصوله، وقالوا له: إنك منذُ أن حللت بين أظهرنا لم يزلزل بنا، فنريد منك البقاء عندنا، حيث أنه بوجودك قد ارتفع عنا الزلزال، فقال لهم: بلى، سأبقى ولكن بشرط. قالوا: وما هو الشرط؟ قال: أشتري منكم هذه البقعة، وأريد منكم أنه إذا جاءكم ضيفاً تضيفوه. ولهذا يقال أنه أول من اتخذ النزل للضيف هو نبي الله إبراهيم عليه السلام، فبعد ذلك اشتراها منهم، وسميت (بانقيا)[1]. ومن ثَم قالوا: إن من أسماء النجف الاشرف بانقيا. يعني أن هذه المنطقة اشتريت من قبل نبي الله إبراهيم عليه السلام. ومن هذا المعنى يبدو أن طابع القداسة عليها يسبق مهاجرة أمير المؤمنين عليه السلام إليها، كما أنه يظهر من ذلك أن نبي الله إبراهيم عليه السلام أقام بها وشرفها وكرمها وجعلها محلاً

---

(١) عن أبي الجارود رفعه فيما يروى إلى علي عليه السلام قال: إن إبراهيم صلّى الله عليه مر ببانقيا فكان يزلزل بها فبات بها فأصبح القوم ولم يزلزل بهم، فقالوا: ما هذا وليس حدث؟ قالوا: نزل ههنا شيخ ومعه غلام له، قال: فأتوه، فقالوا له: يا هذا إنه كان يزلزل بنا كل ليلة ولم يزلزل بنا هذه الليلة فبت عندنا، فبات فلم يزلزل بهم فقالوا: أقم عندنا ونحن نجري عليك ما أحببت قال: لا، ولكن تبيعوني هذا الظهر، ولا يزلزل بكم، فقالوا: فهو لك، قال: لا آخذه إلا بالشراء فقالوا: فخذه ما شئت فاشتراه بسبع نعاج وأربعة أحمرة، فلذلك سمي بانقيا لأن النعاج بالنبطية نقيا، قال: وقال له غلامه: يا خليل الرحمن ما تصنع بهذا الظهر ليس فيه زرع ولا ضرع؟ فقال له: اسكت فإن الله تعالى يحشر من هذا الظهر سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب يشفع الرجل منهم لكذا وكذا. المصدر علل الشرائع ج ٢ ص ٥٨٥، مستدرك الوسائل ج ٢، ص ٣٠٧، بحار الأنوار ج ١٢، ص ٧٧/ ج ٩٧، ص ٢٢٦، جامع أحاديث الشيعة ج ٣، ص ٣٩٢.

لأضيافه. ثم إنها بعد ذلك لعبت أدواراً مهمة في التاريخ، وبالخصوص التاريخ الثقافي، والتاريخ العلمي. إلى أن جاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فأكمل تشريفها، وذلك بأن نقل عاصمته من الحجاز إليها. وقد كانت هذه البقعة مثلث حضاري - كما يقول العلماء -، فمن جهة تكون الحيرة، ومن جهة تكون الكوفة، ومن جهة تكون النجف. كما أن الكوفة في الأصل تسمى عاقولا، وعاقولا مدينة سريانية، وهذا المعسكر الذي بني من قبل المسلمين، بني على أساس هذه المدينة السريانية، فالآثار كانت موجودة فيها، فبنيت على تلك الآثار. - فأصبحت مثلث حضاري - فهذه البقعة قد أخذت القداسة أكثر عندما دفن فيها أمير المؤمنين عليه السلام، وقد كان هذا الوادي محطاً لأرواح المؤمنين، فما من مؤمن يموت في شرق الأرض وغربها إلا ويقال لروحه الحقي بوادي السلام، وقد ورد عن حبة العرني قال: خرجت مع أمير المؤمنين عليه السلام إلى الظهر فوقف بوادي السلام كأنه مخاطباً لأقوام، فقمت لقيامه حتى أعييت ثم جلست حتى مللت، ثم قمت حتى نالني مثل ما نالني أولاً، ثم جلست حتى مللت ثم قمت وجمعت ردائي، فقلت: يا أمير المؤمنين إني قد أشفقت عليك من طول القيام فأستراحت ساعة ثم طرحت الرداء ليحلس عليه فقال لي: (يا حبة إن هو إلا محادثة مؤمن أو مؤانسة)، قال: قلت: يا أمير المؤمنين وإنهم لكذلك؟ قال: (نعم ولو كشف لك لرأيتهم حلقاً حلقاً محتبين يتحادثون)، فقلت: أجسام أم أرواح؟ فقال: (أرواح، وما من مؤمن يموت في بقعة من بقاع الأرض إلا قيل لروحه إلحقي بواد السلام وإنها لبقعة من جنة عدن)[1]. ولهذا يقول أحد الأدباء عن هذا الوادي:

فكم حمحمت حولي الغري وأنشدت تقدست يا وادي ابن عمران واديا
ترابك أكبادٌ تداف وإنما نسيمك أرواحٌ تهب عواديا[2]

---

(١) تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي ج ٣ ص ٥٥٧. صاحب التفسير له تعليق على الحديث قال: معنى إلى الظهر - أي إلى ظهر الكوفة - وقوله: محتبين من احتبى بالثواب: (اشتمل به). وقيل: جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ليسند، إلم يكن للعرب في البوادي جدران تستند إليها في مجالسها.

(٢) انظر علي في الكتاب والسنة والأدب الحاج حسين الشاكري ج ٥ ص ١٤٨.

آخر يقول:

تحية أيها الوادي الحبيب إلى ربىً إليها النجوم الزهر تنجذب
يلوح في واديها من أبي حسن وجه ومن قسمات منه تختضب
ثوت ملايين آمال بتربتها السمراء فهي على أبعادها كتب
توحدت طبقات في قرارتها وهوم الخصم جنب الخصم واصطحبوا
حتى تعابير كانت فوق أعينهم ماتت فما ابتعدوا منها وما اقتربوا
لو عن ثغور بها نمَّ الثرى لغدت تلك المسالع فيها ينبت الشنب[1]

كأنما يقول الشاعر هنا: لو أن تلك الثغور التي دفنت في تلك البقعة أتيح لها أن تخرج للثرى لرأيت الثرى مملوءاً كله بالحسن والجمال، لأن هذه البقعة أخذت ملايين من البشر، ولهذا قال:

توحدت طبقات في قرارتها وهوم الخصم جنب الخصم واصطحبوا
لوعن ثغور بها نمَّ الثرى لغدت تلك المسالع فيها ينبت الشنب

بمعنى أن الناس جميعاً قد توحدت فيها، الغني والفقير، والعالم والجاهل، والضعيف والقوي، فأصبحت مزدحم الأضداد كما يقول أبو العلاء المعري:

رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكاً من تزاحم الأضداد[2]

فاللحد الواحد تتزاحم فيه الأضداد، العبقري مع البليد، الغني مع الفقير، الحاكم مع المحكوم.

إذاً فالذي أعطاها هذه الميزة هو مدفن أمير المؤمنين عليه السلام فيها. ولكن - للأسف الشديد - إذا رجعنا إلى الكتب التاريخية[3] نجد التناقض عند البعض من المؤرخين، خصوصاً في هذا الجانب، فمثلاً الخطيب البغدادي يقول: إن

---

(١) ديوان الوائلي ١: ٩٢.
(٢) البيت لأبي العلى المعري أنظر شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١١ ص ١٨٤.
(٣) تاريخ بغداد ١: ١٤٨، ونقل ذلك عن الصفدي في (تمام المتون).

القبر الذي تزوره الشيعة في النجف، ليس هو لعلي بن أبي طالب، وإنما هو قبر المغيرة بن شعبة. ثم إنه لم يكتفي بهذا حيث أنه بعد ذلك وفي نفس الكتاب يقول: إن قبر المغيرة بن شعبة في المدائن، فالتناقض عند هذا الرجل نجده في آنٍ واحد، وهذه تعتبر كلها محاولة للتذويب من قبل هذا الرجل. كما أن ياقوت الحموي صاحب كتاب معجم البلدان يقول: إن علي بن أبي طالب دفن في منطقة تسمى عكة، كذلك مؤرخ ثالث يقول: إن قبر علي بن أبي طالب في جامع دمشق. ولكن - في واقع الأمر - هذه كلها محاولات للتظليل، وهذا التظليل يرجع على الشيعة بخير كثير. على حد تعبير بعض المحققين، لأنه في أي بقعة من بقاع الأرض يكون لأهل البيت مقاماً فيه، تتتالى فيه الرحمات من الله تبارك وتعالى على الناس. بعد ذلك الإمامية ليسوا حريصين على أن يجعلوا علي بن أبي طالب عليه السلام مدفون بقبر. عليٌ عليه السلام لا يضمه قبر يدفن فيه، ولهذا يقول أحد الشعراء:

أخ الذكر والمحراب إن جن ليله ... وصنو القنا والسيف إن طلع البدر
وفارس مضمار البيان بنهجه ... تلاق البيان الجزل والفكر الغر
تزود منه كل عصر كما اشتهى ... وما زال للدنيا بمزود ذخر
ستلقاه حياً بالروائع كلها ... وفي كل سفر من روائعه سفر
فإن قيل هذا قبره قلت أربع ... أهذا الكيان الضخم يجمعه قبر
ولكنه باب إلى معطياته ... يمد غناه من بساحته فقر[1]

فمن هذا المنطلق علي ابن أبي طالب عليه السلام كله قداسة، فأين ما حلت روحه أو حل جسده فهي روضةٌ من الرياض التي هي محل للرحمات، ولهذا في أماكن كثيرة، نجد البعض يقول: إن لعلي فيها قبر، فمثلاً في الأفغان يقال أن له قبر، وفي الهند يقال أن له قبر، وهكذا أماكن متعددة، ولكن هذه الروايات تجعل لذلك المكان قداسة، وكذلك حرمة وكرامة، بل وخير وعطاء، إما مادي وإما معنوي، وقد يكون كلاهما أيضاً، فأي بقعة من بقاع

---

(١) ديوان الوائلي ١: ٢٤.

الأرض يقال أن لأهل البيت أو لأحد من مواليهم قبراً يكون ذلك المكان محطة لمن يريد التقرب إلى الله تبارك وتعالى، فعلي بن أبي طالب عليه السلام في أي بقعة من بقاع الدنيا يذكر هو عطاء، ولكن الذي يؤلم فؤاد الحر، هي تلك المحاولة، وهي محاولة التذويب، من أن البعض يقول: القبر الذي في النجف لغيره، أو أنه غير معروف، والشيعة إنما تزور قبراً لغيره، إلا أن هذه محاولة لم يكتب لها التوفيق، لأن الشيعة عندما تقف على قبر علي بن أبي طالب واقعاً إنها لا تقف على عظام كما يتصور البعض، وإنما تقف على مضمون. كما هو بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وآله فالوقوف على أي قبر من قبل الشيعة هو تكريماً لمضمون صاحب القبر.

فإذاً طور سينا هو المكان الذي دفن فيه أمير المؤمنين [سلام الله عليه] ولهذا أصبح موضع القداسة في نفوس المسلمين، لأن علي بن أبي طالب ليس للشيعة فقط.

القسَمُ الأخير في السورة المباركة قالت: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[1] أجمع المفسرون على أن البلد الأمين هي مكة المكرمة، وأصح الأقوال في أمانها أن مهدور الدم يؤمن بها. الأرض التي كانت في عصر الجاهلية أيضاً بلداً آمناً وحرماً الهياً، ولا يحق لأحد فيها أن يتعرض لأحد، المجرمون والقتلة كانوا في أمان إن وصلوا إليها أيضاً.

هذه الأرض لها في الإسلام أهمية عظمى، الحيوانات والنباتات والطيور فيها آمنة، فما بالك بالإنسان؟ وبعبارة أخرى حتى من يحكم عليه بالقتل، إذا دخل إلى الكعبة لا يقتل فيها[2]، وذلك احتراماً لها، كما وأن الطير يلتجأ إليها فلا يهان، كذلك الحيوان يلتجأ إليها فلا يهان، كل خائف يدخل إلى

---

(١) الأمين على وزن فعيل بمعنى فاعل أي (ذو الأمانة) أو بمعنى مفعول أي الأرض المأمونة لسكنتها. المصدر تفسير الأمثل (الشيخ ناصر مكارم شيرازي).

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من قتل قتيلاً وأذنب ذنباً ثم لجأ إلى الحرم فقد أمن، لا يقاد فيه ما دام في الحرم، ولا يؤاخذ ولا يؤذى ولا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع ولا يُضيف ولا يضاف. [المصدر: الحج والعمرة في الكتاب والسنة محمد الريشهري ص ٢٩].

مكة يوفر لنفسه الأمان - ولكن مع الأسف - إن ذلك الأمان سلبه الأمويون، بحيث أن المنجنيقات في أيام عبد الله بن الزبير أحرقوا بها الكعبة، كذلك الدماء سالت في قلب الكعبة، كما أن الحرم روع، وأهل الحرم روعوا، ووصل الأمر إلى درجة من الوحشية، حيث أنهم سلبوا في المسجد الحرام عبد الله ابن الزبير، وهو من قبل جاء إلى أمه أسماء بنت أبي بكر قال لها: يا أماه إن هؤلاء ليسوا بأشراف فقد يصلبوني بعد القتل ويمثلون بي، فقالت له أمه أسماء: يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح(١). - الشاة إذا ذبحت لا تحس بعد ذلك بشيء أبداً، فدفعته ونزل إلى المعركة قاتل إلى أن قتل، وبعد ذلك صلبت جثته، في داخل الحرم المكي. فواقعاً الاستهانة بمقدسات المسلمين بلغ ذروته في ذلك الوقت من قبل الأمويين، بأن كانت الاعتداءات في قلب المسجد الحرام، وهذا المعنى هو الذي دفع الإمام الحسين [سلام الله عليه] بأن يخرج من مكة في اليوم الثامن من ذي الحجة، بحيث أنه عدل عن حجه إلى عمرة مفردة وخرج من مكة، وذلك صوناً لها من أن تباح بدمه، خرج ومعه تلك الفتية من أهل بيته وأصحابه، يلتفت إليه شخصٌ وقد أقبل للحج معه، قائلاً: سيدي أبا عبد الله إن بينك وبين الحج يوماً واحداً فلماذا عزمت على الخروج؟ فقال له: (إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحل حرمتها فما أحب أن أكون ذلك الكبش)(٢). فخرج [سلام الله عليه] وصانها من أن تباح بدمه. لهذا الله تبارك وتعالى جعل قبره كعبة للمؤمنين، وجعله أنشودةً في نفوس المسلمين، وقد جاء في الأخبار إن الله تبارك وتعالى ينظر إلى زوار الحسين عليه السلام قبل أن ينظر إلى حجاج بيته الحرام(٣) ولهذا يحق لكربلاء أن تفتخر وتبتهج بذلك وكأني بأحد الشعراء يصور هذا المعنى:

---

(١) انظر الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج٤ ص ٣٥٣، وكذلك وفيات الأعيان وأبنا الزماناً ابن خلقان - ج ٣ ص ٧٥.

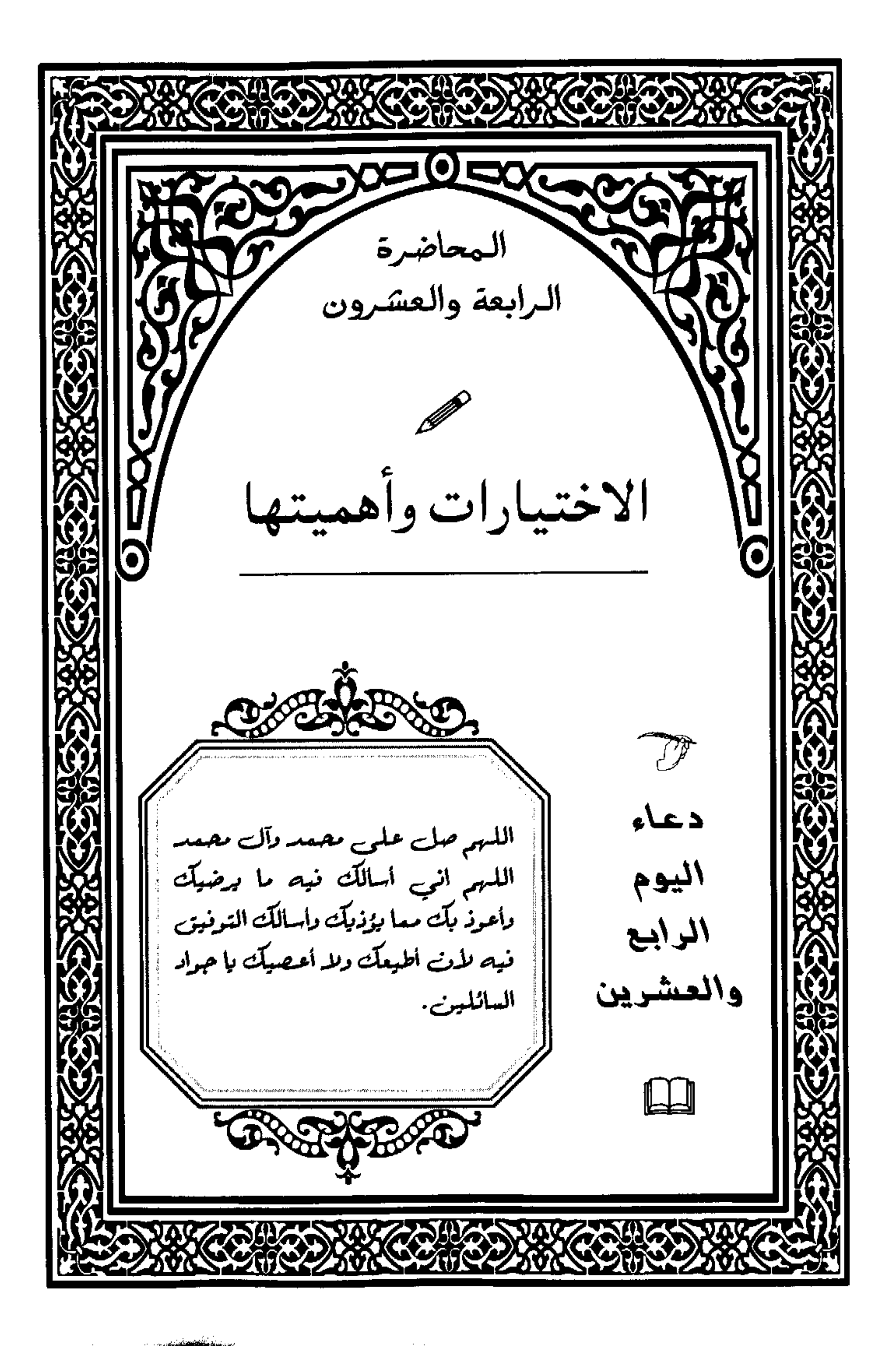
(٢) شجرة طوبى ج ١ ص ١٢٥، معالم المدرستين ج ٣ ص ٥٦، موسوعة كلمات الحسين عليه السلام ص ٣٩٢.

(٣) فقه الصادق عليه السلام السيد محمد صادق الروحاني ج ٩، ص ١٩٥.

كل الفخر نلتينه كل الفخر نلتينه يا كربلاء من حظك كل الفخر نلتينه
أرض المدينة روضة او بغداد أرضها روضة ولا بلد نزلوها إلا أرضها روضه
وانتِ عليهم فزتي بالجثة المرضوضة وانتي عليهم فزتي ابجسم تضمنتينه
طوبى إلك من تربة يالساطعة بأنوارك يوم القيامة الجنة مكتوبة الزوارك
هيهات ما يتحاسب من يندفن باجوارك إكرام للي اتعفرت في تربتك خدينه
وزيارتك قال النبي سبعين حجة اتعادل ما تنقطع زوارك منهم امقيم او شايل
يرجوا الشفاعة من غريب ظل دمه سايل طوبى لهم لا من أتوا يوم الحشر يرجون،[1]



(١) ديوان فوز الفائز ص٦٨.



المحاضرة

الرابعة والعشرون

الاختيارات وأهميتها

دعاء اليوم الرابع والعشرين

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم اني أسالك فيه ما يرضيك
وأعوذ بك مما يؤذيك وأسالك التوفيق
فيه لأن أطيعك ولا أعصيك يا جواد
السائلين.

٢٤

الاختيارات وأهميتها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

***

هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة يتضمن توضيحاً هاماً لقضية من القضايا العقائدية، التي طالما أشغلت أذهان الفلاسفة والباحثين، وهذه القضية هي قضية الاختيار والتفضيل، حيث أن الله تبارك وتعالى عندما خلق الخلق اختار لهم منهم مَن يصلحهم، واختص هذا الاختيار والانتخاب بذاته المقدسة فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ وأن البشر ليس من حقه أن يختار؛ ذلك لأن البشر مهما أوتوا من علم فهم قاصرون عن ذلك، بل وقاصرون من أن يصلحوا أنفسهم، فكيف لهم بأن يصلحوا الغير؟ ولهذا يكون هذا المقطع بمثابة الإجابة على مجموعة من الأسئلة التي قد تثار من الناس أنفسهم تجاه هذا الاختيار. فالله تبارك وتعالى خلق هذا الخلق بأجمعه وبدون استثناء، حيث قال في مطلع الآية الكريمة: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ولحكمة منه تعالى اختار منه أشياءً، فالبعض جعلها محلاً للقدوة، وهو الأنبياء والأوصياء، والبعض جعله في موقع الانتباه لعقول الناس وذلك لقدسيته.

أولاً: اختياره من البشر: أجمع العلماءُ والمحدثون من مختلف الطوائف

---

(١) سورة القصص مقطع من الآية: ٦٨.

الإسلامية أن أفضل البشر هو النبي الأكرم محمد ﷺ، وتؤيد هذا المعنى النصوص الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم، وكذلك في السنة الشريفة.
أولاً: القرآن الكريم قال جل وعلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. وأما في السنة النبوية فقوله ﷺ: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريش من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)[3] وفي رواية أخرى قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)[4]، ولهذا دأب الشعراء على صنع القوافي المماثلة لهذا الحديث، ومن جملة من صاغ ذلك هو الأديب البوصيري في همزيته حيث قال:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء[5]

كما قال الأزري في هائيته مشيراً إلى هذا المعنى:

قلب الخافقين ظهراً لبطنٍ فرأى ذات أحمد فاجتباها[6]

فالنبي ﷺ هو سيد الموجودات على الإطلاق، وأن الله عز وجل اختاره وميزه على كافة الموجودات، وكذلك أيضاً حبب للمسلمين أن يكرموه في كل شيء، فأمر جل وعلى إذا ذكر اسمه أن يحيا في النفوس، وذلك بأن يصلى عليه، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[7]. ومعنى الصلاة على النبي ﷺ يعني الدعاء له

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٣) مغني المحتاج المؤلف محمد بن أحمد الشربيني ج ١، ص٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) الغدير ج ١١، ص٣٩٢.
(٦) أعيان الشيعة السيد محسن الأمين ج ٩، ص ١٧.
(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

برفع المنزلة. [لأن معنى الصلاة اللغوي هو الدعاء][1] كذلك جاءت الروايات تؤكد على تكريم اسم النبي ﷺ. منها: (إذا سميتم محمد فلا تضربوه ولا تحرموه)[2]. وعن أبي رافع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا سميتم محمد فلا تقبحوه ولا تجبهوه ولا تضربوه، بورك بيت فيه محمد، ورفقة فيها محمد)[3]. وكذلك ورد عن النبي ﷺ قال: (إذا سميتم الولد محمد فأكرموه، ووسعوا له في المجلس، ولا تقبحوا له وجهاً، فما من قوم كانت لهم مشورة حضر معهم من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس ذلك البيت في كل يوم مرتين)[4]. إلى غير ذلك من الروايات التي تحث على احترام اسم النبي، وذلك إذا وضع على ذات؛ فالله تبارك وتعالى اختار من بين الناس النبي الأكرم ﷺ وميزه بهذه الميزة تكريماً له. وكما سبق بأن قلنا الناس لديهم ظاهرة التساؤل. يقول البعض: لماذا ميز النبي دون غيره من البشر، وذلك أنه من صنف البشر وصفاته من صفات البشر، والبشر بأجمعهم يجمعهم اسم واحد وهو لفظ - البشرية -؟

والحال أنه ليس الأمر كما يتصور البعض؛ وذلك أن لدينا ما يُسمى بالحد الأدنى والحد الأعلى، والناس تتوزع فيما بينهما، ولهذا تجد البعض من الناس لا يتجاوز نقطة الصفر في الإنسانية، بينما البعض الآخر يصل إلى أعلى درجة في الإنسانية، وذلك بمعيار التقييس، وكما عرف عند البشر عامةً، أن عامل الذكاء لديهم متفاوتٍ من واحد لآخر، والعقول أيضاً متفاوتة من واحد لآخر، كذلك الأنبياء بشر ويقفون عند حدود البشرية ولكنهم في القمة، ويأتي منهم من يصل إلى أعلى القمة، وهذا ما حصل للنبي ﷺ، فلقد جمع الله تعالى أخلاق الأمة ومفاخرها فيه، وهذا هو المعنى الذي يقول عنه أحد الأدباء:

---

(١) تعليق على شرح اللمعة الشهيد الثاني ج٢ شرح ص ٥٦.
(٢) كشف الخفاء ج١ ص ٩٠، الغدير ج ٦، ص ٣١٠، مجمع الزوائد ج ٨، خص ٤٨، كنز العمال ج ١٦، ص ٤١٨.
(٣) مستدرك الوسائل - الميرزا النوري ج ١٥، ص ١٣٠.
(٤) المصدر السابق.

ليس على الله بمستبعد أن يجمع العالم في واحد[١]

فالمسألة هي أنه عندما يسأل البعض عن ذلك، تأتي الآية الكريمة تقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، الله تبارك وتعالى أعلم بما عند الناس من مواهب تجعل البعض منهم لأن يكون محل الاختيار ومحل التفضيل، وهذا ما حصل للنبي ﷺ، وهذا الاختيار وهذا التفضيل الذي يأتي من الله تبارك وتعالى هو أمر موضوعي، وليس بالأمر العاطفي كما يفعل البشر مع بعضهم البعض؛ البشر عندما يفضل البعض منهم البعض الآخر، غالباً يكون ذلك عن عاطفة؛ فالقليل من البشر مَن يفضل التفضيل الموضوعي. الله جل وعلى هو رب العالمين، وهو بالنسبة للخلق على حد سوى، هو ربهم وخالقهم، فعندما فضل النبي ﷺ على غيره، لأن النبي اجتمعت فيه خصال لم تجتمع لأحد من قبله ولا من بعده على الإطلاق، وقد شهد القرآن الكريم بذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

وهنا قد يأتي السؤال وهو إذا كان الأمر كما ذكر، فهذه الملكات من أي وجه اكتسبها النبي ﷺ؟ أليست هي إفاضة من المولى جل وعلا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإذاً لو أعطيت لغيره لكان له ما كان له؟ والحال ليس الأمر كذلك، وذلك لأن الروايات تنص أن الخلق قبل وجودهم في هذا الخلق خلقوا في عالم يسمى بعالم الذر، وهو الذي أشارة إليه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[٣]. وذلك قبل أن يخلقوا في هذا العالم، وامتحنوا فكان منهم من نجح في الامتحان، وكان منهم من رسب، وكان منهم من تميز؛ فرسول الله ﷺ هو أول المتميزين، ويؤيد هذا المعنى الرواية التي وردت في الكافي عن الإمام أبي عبد الله

---

(١) إرشاد الأذهان العلامة الحلي ج ١، ص١٧٢، قواعد الأحكام ج ١، ص ١٥٠.
(٢) سورة القلم، الآية: ٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

الصادق عليه السلام قال: (سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله بأي شيء سبقت ولد آدم؟ قال: إنني أول من أقر بربي، إن الله أخذ ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى. فكنت أول من أجاب)(١).

وعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام كيف أجابوا وهم ذر؟ قال: جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه. - يعني في الميثاق -(٢) كذلك وردت عبارات كثيرة في زيارات الأئمة عليهم السلام أنهم يخاطبون بهذا المضمون، وكذلك بالنسبة للصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام كما جاء في زياراتها: (يا ممتحنةُ امتحنك اللهُ الذي خلقك قبل أن يخلقك فوجدك لما امتحنك صابرة)(٣). إذاً ومن خلال هذه المضامين يتضح أن الاختيار لهؤلاء موضوعي، وذلك أن هؤلاء لديهم مؤهلات لم تكن في غيرهم؛ ولكن هل أن هذا الاختيار يرجع للبشر أنفسهم أو لا؟ نعم هذا ما تكفلت بتوضيحه بقية الآية حيث قالت: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ فإذاً اختيار هؤلاء يرجع بالنتيجة إلى البشر أنفسهم، وذلك أن البشر يراد منهم أن يكونوا صالحين مطيعين لله تعالى، وهذا لا يتم إلا من قبيل إرشادهم وتوجيههم، ولا يتسنى ذلك لأحد إلا من قبل مَن هو مؤهل لذلك، ألا وهم الأنبياء ومن بعدهم الأوصياء.

ثانياً: أن الله تبارك وتعالى له اختيار في الكلمات التي يقولها الإنسان، وقد ورد أن أفضل الكلمات هي كلمة: (**لا إله لله إلا الله**)، في الكافي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (من قال لا إله إلا الله غرست له شجرة في الجنة من ياقوتة حمراء، منبتها في مسك أبيض أحلى من العسل وأشد بياضاً من الثلج وأطيب ريحاً من المسك، فيها أمثال ثدي الأبكار تعلو عن سبعين حلة)(٤) وقال أبو الحسن الرضا عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال جبرئيل عليه السلام: (يقول الله لا

---

(١) الكافي ج ٢ ص ١٢، مختصر بصائر الدرجات ص ١٥٨.
(٢) الكافي ج ٢ ص ١٢، بحار الأنوار ج ٥ ص ٢٥٧.
(٣) مصباح المتهجد - الشيخ الطوسي ص ٧١١، الحدائق الناظرة البحراني ج ١٧ ص ٤٢٨. وكتب أخرى كثيرة.
(٤) حق اليقين ص ٤٨٥.

إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي[١]. وقال عليه السلام: (بشروطها وأنا من شروطها)[٢]. - وهذا الحديث هو ملخص الحديث المعروف بالسلسلة الذهبية - وسنورده هنا تبركاً به، يقول المؤرخون: لما دخل الإمام الرضا عليه السلام إلى نيسابور خرج الناس لاستقباله يتقدمهم الحفاظ وحملة الحديث وكان بأيديهم أقلامهم، فوقفوا ينتظرون الإمام كي يستمعون إلى أحاديثه فيدونوها، فلما صاروا بالقرب منه طلبوا منه أن يحدثهم عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله - وقد كان قعد في العمارية -، فأطلع رأسه فقال عليه السلام: سمعت أبي موسى بن جعفر عليه السلام يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد عليه السلام يقول: سمعت أبي محمد بن علي عليه السلام يقول: سمعت أبي علي بن الحسين عليه السلام يقول: سمعت أبي الحسين بن علي عليه السلام يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سمعت جبرئيل يقول: سمعت الله عز وجل يقول: (لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي، فلما مرة الراحلة نادى) أما بشروطها، وأنا من شروطها[٣]. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله)[٤] ومن ثَم ورد على لسان أحد العلماء: أن سورة الإخلاص هي أفضل السور، تقريباً وليس تحقيقاً، ذلك لأن فيها أفضل الكلمات وهي كلمة لا إله إلا الله، وذلك لأن كلمة لا إله إلا الله هي قلب الحقيقة، لأن الإنسان إذا عرف أن الله واحد ينصرف إلى عبادته، وإذا انصرف إلى عبادته لا بد وأن يترك العبوديات الأخرى، التي قد توزعت عليها الناس، فالناس لديهم عبوديات متنوعة، ولكن كل هذه العبوديات المتنوعة تتلاشى بأجمعها، لأن كل شيء قد خلقه الله وهو عبد لله، الله هو الواحد الذي ليس معبوداً سواه، الحي الذي لا يموت، والباقي

---

(١) روضة الواعظين ص٥١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مستمسك العروة الوثقى - السيد محسن الحكيم ج ٤، ص ١٨٣، ثواب الأعمال الشيخ الصدوق ص ٧، العروة الوثقى اليزدي ج٢ ص ٧٧.
(٤) إعانة الطالبين - البكري الدمياطي ج ١، ص ١٩، عمدة القاري ج ١، ص ٢١٢، كشف الخفاء ج ١، ص ١٥٣.

بعد فناء كل شيء، لأن كل معبود دون الله يموت. ولهذا من عبدوا الجن فإن الجن يموتون. ومَن عبد ألإنس فإن الإنس يموتون. ومَن عبد الشجر فإن الشجر يهوي. ومَن عبد الكواكب فإن الكواكب تندثر. و. و. . . الخ. قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾[1]. كل المعبودات تتلاشى ويبقى الواحد القهار الذي لا إله سواه، والذي لا ينازعه أحد في ملكه. فإذاً كلمة التوحيد هي أفضل كلمة، وذلك لأنها **أولاً**: توحد مشاعر الناس، **وثانياً**: تضمهم تحت لواء رب واحد، **وثالثاً**: تشعرهم بمعنى العدل، بحيث أن الله تعالى لا يظلم أحداً على حساب أحد آخر. فكلمة التوحيد هي خير الكلمات ولذلك المُوحد لا يخلد في النار أبداً، مَن قال لا إله إلا الله ومات معتقداً بها لا يُخلد في النار أبداً، هذا ما تقوله النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وإن تعذب فترة من الزمن في النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[2]. وقال رسول الله ﷺ: (والذي بعثني بالحق بشيراً لا يعذب الله بالنار موحداً أبداً، وإن أهل التوحيد يشفعون فيشفعوا)[3] وروي عنه ﷺ: (ما جزاء من أنعم الله عزوجل عليه بالتوحيد إلا الجنة)[4].

إذاً من هذا المنطلق تكون هذه الكلمة هي خير كلمة للناس جميعاً، وذلك إذا قالها العبد بإخلاص، فقد ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: (من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة وإخلاصه أن يحجزه لا إله إلا الله عما حرم الله)[5].

ثالثاً: أن الله تبارك وتعالى له اختيار من الأفعال التي يؤديها العباد، وقد

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٣) روضة الواعظين ص٥١ [للفتال النيسابوري]. الأمالي ص ٣٧٢.

(٤) منهاج الصالحين الشيخ الوحيد الخراساني ج ١، ص ٤٣، وعن الصادق عليه السلام (إن الله تبارك وتعالى أقسم بعزته وجلاله أن لا يعذب أهل توحيده بالنار أبداً) المصدر السابق.

(٥) البحار ج١، ص٣٥٩.

ورد في الروايات إن أفضل الأفعال عند الله تبارك وتعالى هي الصلاة الواجبة[١]. عن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرب به العباد إلى ربهم وأحب ذلك إلى الله عز وجل ما هو؟ فقال: (ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أن العبد الصالح عيسى بن مريم عليه السلام قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[٢]. ومن ثم ورد أن الصلاة عمود الدين، وهي أول عمل يحاسب عليه العبد، فإن قبلت قبل ما سواها، وإن ردت رد ما سواها[٣]، الصلاة نور الوجه، الصلاةُ صلت بين العبد وربه، الصلاةُ هوية المسلم. ولهذا الله تبارك وتعالى ذكر عن حبيبه عيسى عليه السلام في القرآن الكريم قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[٤]. إذاً الله تبارك وتعالى أول عمل أوصى به نبيه وحبيبه عيسى هي الصلاة، ولهذا نجد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام لهم عناية خاصة بالصلاة، فكما تُحدث إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وآله تقول: (كان النبي صلى الله عليه وآله يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة،

---

(١) وردت أحاديث كثيرة في الحث على الصلاة والتأكيد عليها، منها عن أبي جعفر عليه السلام: قال: (الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب). مستدرك الوسائل ج ٣، ص ٣٢. وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (الصلاة عماد الدين). وقال: (الصلاة عمود الدين). وقال: (الصلاة عماد الإيمان). [الجامع الصغير ٢: ١٢٠/ ٥١٨٥ - ٥١٨٧]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن عمود الدين الصلاة، وهي أول ما ينظر فيه من عمل ابن آدم، إن صحت نظر في عمله، وإن لم تصح لم ينظر في بقية عمله). تهذيب الأحكام٢: ٢٣٧/ ٩٣٦. وعنه عليه السلام أنه قال: (أوصيكم بالصلاة التي هي عمود الدين وقوام الإسلام، فلا تغفلوا عنها). دعائم الإسلام١: ١٣٣. وعنه عليه السلام أنه قال: (الصلاة عمود الدين، وهي أول ما ينظر الله فيه من عمل ابن آدم، فإن صحت نظر في باقي عمله، وإن لم تصلح لم ينظر له في عمل. ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة). [دعائم الإسلام ١: ١٣٣].

(٢) ذخيرة المعاد (ط. ق) المحقق السبزواري ج ١، ص ١٨٢.

(٣) المقنع - الشيخ الصدوق - ص ٧٣.

(٤) سورة مريم، الآية: : ٣١.

فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه)[١]. وقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذا أخذ في الوضوء يتغير وجهه من خيفة الله. وكان عليه السلام إذا حضرت أوقات الصلاة يتزلزل ويتلون، فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان[٢]. وكانت الصديقة فاطمة عليها السلام تنهج في الصلاة من خيفة الله. وكان الإمام الحسن بن علي عليه السلام إذا فرغ من وضوءه تغير لونه، فقيل له في ذلك، فقال: (حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه)[٣]. وهكذا بقية الأئمة عليهم السلام فإنهم يكونُ في حالة خاصة أثناء الصلاة تختلف عما يكونوا عليه في سائر الأوقات، كل ذلك لعلمهم بأنها أفضل فعل يقوم به العبد. ولذلك الصلاة تعتبر الأنيس في الوحشة إذا وضع المرء في قبره، لأن الروح إذا فارقت أحبائها تستوحش، فالأنيس الذي يطرد عنها الوحشة هي الصلاة، لأنه ورد إن الصلاة توضع بين يدي العبد، فلهذا تعتبر ملاك الأعمال، فكل عمل من الأعمال قبوله مرتبط بصحة الصلاة، فلا ينظر في أعمال الإنسان حتى ينظر في صلاته، فإذا كانت صلاته مقبولة نظر في أعماله الأخرى. ومن هنا إذا كان الأمر كذلك تكون الصلاة خيرت للعبد، بحيث تردعه عن ارتكاب الجرائم والموبقات في دار الدنيا، وإذا ارتدع عن الجرائم حسن وضعه مع نفسه ومع مجتمعه، قال جل وعلا: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[٤]. ولكن الصلاة متى تكون ناهيةً عن للفحشاء والمنكر؟ قالوا: إذا جاء بها العبد على الوجه الصحيح، الذي رسمه الله تبارك وتعالى في كتابه وعلى لسان نبيه وأهل بيت نبيه، وبعبارة أخرى بالشروط التي ذكرت في الرسائل العملية عند الفقهاء، وإذا رجعنا إلى سيرة

(١) جامع السعادات ج٣، ص ٣٢٨.
(٢) جامع السعادات ج٣، ص ٣٢٩. [وقريب من هذا في تفسير نور الثقلين ج٤ ص٣١٣].
(٣) جامع السعادات ج٣، ص ٣٢٩، وقد ذكرت هذه الأحاديث الواردة في الصلاة في بحار الأنوار ١٨/ ١٦٩ - ٢٠٢، باب آداب الصلاة.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام نجد تجسيداً واضحاً لمنهج الصلاة التي من خلالها تكون خيرةً للعبد[(١)].

رابعاً: إن الله تبارك وتعالى اختار بقعة من بقاع الأرض، وهي مكة المكرمة، وقد وردت في ذلك روايات كثيرة، منها كما عن الصادق عليه السلام: (إن الله اختار من كل شيء شيئاً، واختار من الأرض الكعبة)[(٢)] وفي الروايات إن الله تبارك وتعالى اختار من بقاع الأرض مكة المكرمة، بحيث أنها تعتبر سيدة البقاع، قال الإمام الصادق عليه السلام: (أحب الأرض إلى الله تعالى مكة، وما تربة أحب إلى الله عز وجل من تربتها، ولا حجر أحب إلى الله عز وجل من حجرها، ولا شجر أحب إلى الله عز وجل من شجرها، ولا جبل أحب إلى الله عز وجل من جبلها، ولا ماء أحب إلى الله عز وجل من مائها)[(٣)]. ولذلك رسول الله صلى الله عليه وآله عندما تآمرت قريش على قتله وأمره الله تعالى بأن يخرج منها، أقبل إلى البيت الحرام واستلم الحجر وقال: (الله يعلم أنني أحبك، ولولا أن أهلك أخرجوني عنك لما آثرت عليك بلداً)[(٤)]. فهذا الحديث ينبئ على أنه لا توجد بقعة من بقاع الأرض أفضل منها، ومن ثم يقول الإمام الباقر عليه السلام: في حديث طويل: (.. والساجد بمكة كالمتشحط بدمه في سبيل الله)[(٥)]. كما

---

(١) في حديث طويل قال صلى الله عليه وآله: واعلم أن أفضل الفرائض بعد معرفة الله عز وجل الصلوات الخمس، وأولها صلاة الظهر. وأول ما يحاسب العبد عليه الصلاة، فإن صحت له الصلاة صح له ما سواها، وإن ردت رد ما سواها وإياك أن تكسل عنها، أو تتوانى فيها، أو تتهاون بحقها، أو تضيع حدها وحدودها، أو تنقرها نقر الديك أو تستخف بها، أو تشتغل عنها بشيء من عرض الدنيا، أو تصلي بغير وقتها. (فقه الرضا - علي بن بابويه - ص ١٠٠). وقال صلى الله عليه وآله: ليس مني من استخف بصلاته، لا يرد علي الحوض لا والله، . . [المقنع - الشيخ الصدوق - ص ٧٣].

(٢) وسائل الشيعة الحر العاملي ج ٩ ص ٣٤٨.

(٣) الحج والعمرة في الكتاب والسنة ص ٣٧.

(٤) مستدرك وسائل الشيعة ٩: ٣٣٤/ ١١٠٣٠، ٣٤٦ - ٣٤٧؛ ١١٠٤٦، مسند أحمد ٤: ٣٠٥.

(٥) مقطع من حديث للإمام الباقر عليه السلام المصدر ذخيرة المعاد المحقق السبزواري ج ١، ص٦٩٦، الوسائل باب ١٦، كلمة التقوى ج ٣ ص ٤٩٨.

أن القران الكريم يؤكد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]. فأول بيت وضع هو البيت الحرام، ولهذا نجد الإمام الصادق عليه السلام قد استشهد بهذه الآية في مناسبة من المناسبات، وهي أنه لما أن جاء المنصور الدوانيقي إلى سدت الحكم، أراد أن يوسع الحرم المكي، وذلك عندما بدأ يضيق بالحجاج والمعتمرين، وقد كان إلى جانب البيت بيوت مجاورة، فأرسل المنصور إلى أصحاب تلك البيوت، فلما حضروا طلب منهم أن يبيعوه تلك البيوت، لكي يدخلها إلى البيت الشريف، فرفضوا أهلها أن يبيعوه تلك البيوت، وقالوا له مهما تعطينا من ثمن فنحن لا نوافق على بيعها، وذلك لأنا نعتز بوجودنا بالقرب من البيت الحرام، فأصبح المنصور في حيرة من الأمر، لا يدري ماذا يصنع، وهو مكان يريد المسلمون أن يصلوا فيه ويؤدوا فيه مناسك حجهم، فلا يمكن لتلك الأماكن أن تؤخذ منهم بالغصب، فعندها سأل الإمام الصادق عليه السلام، قائلاً له: ماذا أصنع والأمر هكذا؟ فاستشهد له الإمام عليه السلام: بالآية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. فهو البيت الذي لم يسبق وجوده بيت من بيوت الناس، وأمره أن يرسل خلف أصحاب البيوت الذين من حوله، ويسألهم أيهما السابق النزول، بيت الله أم بيوتهم، فإذا قالوا: بيت الله، فليقل لهم: أوليس للبيت فنا، فإذا قالوا: نعم، فليطلب منهم أن يعطوه فناء البيت؛ عندها أرسل خلفهم وسألهم أيهما السابق بالنزول. فقالوا جميعاً: البيت سبقنا، ونحن إنما جئنا بعد أن كان البيت موجوداً، ومن الآن فلك أن تأخذ ما تريد، ونحن راضون غير معترضين، عندها أخذ البيوت وعوضهم عنها تعويضاً كافياً[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) نص الرواية التي تروى في بطون الكتب هي طلب أبو جعفر أن يشتري من أهل مكة بيوتهم أن يزده في المسجد فأبوا، فأرغبهم فامتنعوا، فضاق بذلك، فأتى أبا عبد الله عليه السلام فقال له إني سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم وأفنيتهم لنزيد في المسجد وقد منعوني ذلك فقد غمني غماً شديدا. فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيغمك ذلك وحجتك عليهم فيه ظاهرة، فقال: وبم أحتج عليهم؟ فقال بكتاب الله، فقال: في أي موضع؟=

فإذاً الإمام عليه السلام استدل بهذه الآية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فهو بيت مبارك وهو أشرف البيوت، ومن هنا جاءت الروايات تحث على الدفن في الحرم، ومجاورة الحرم، منها: (أن الدفن في الحرم يوجب الأمن من الفزع الأكبر)[1]. فلهذا الفقهاء[2] يذهبون إلى أن أفضل بقعة اختارها الله عز وجل ودحيت الأرض من تحتها هي مكة المكرمة.

خامساً: إن الله تبارك وتعالى له اختيار من الأزمنة[3] فقد ورد أنه اختار من الأزمنة شهر رمضان المبارك، لذلك يقول أحد المفسرين: الشهور أشبه شيء بأولاد يعقوب عليه السلام، فإن أحب أولاد يعقوب إلى يعقوب عليه السلام يوسف. كذلك أحب الشهور إلى الله تعالى شهر رمضان المبارك[4]. الشهر الذي في مضمونه شرف ذاتي، وكذلك فيه شرف عرضي، الشرف الذاتي هو أن الله شرفه على الشهور، والشرف العرضي هو أن الله تعالى جعله ظرفاً للعبادة أكثر من

= فقال: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾، قد أخبرك الله أن أول بيت وضع للناس هو الذي ببكة، فإن كانوا هم تولوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، وإن كان البيت قديماً قبلهم فله فناؤه. فدعاهم أبو جعفر فأحتج عليهم بهذا، فقالوا له: إصنع ما أحببت. [مصدر هذه الرواية الحج والعمرة في الكتاب والسنة محمد الريشهري ص٦٣، وأيضاً بحار الأنوار ج ٩٦ ص ٨٣].

(١) مستمسك العروة - السيد محسن الحكيم ج ٤ ص ٢٧١، كتاب الطهارة السيد الخوئي ج٩، ص ٢٦٣.

(٢) (مسألة ١٥) من الأمكنة التي يستحب الدفن فيها ويجوز النقل إليها الحرم ومكة أرجح من سائر مواضعة، [المصدر العروة الوثقى - السيد اليزدي ج ٢ ص ١٤١].

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن الله اختار من الأيام الجمعة، ومن الشهور شهر رمضان، ومن الليالي ليلة القدر) [مستدرك الوسائل الميرزا النوري ج ٦ ص ٦٣].

(٤) قال رسول الله صلى الله عليه وآله لما حضر شهر رمضان وذلك في ثلاث بقين من شعبان قال لبلال: ناد في الناس، فجمع الناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **أيها الناس إن هذا الشهر قد خصكم الله به، وهو سيد الشهور، ليلة فيه خير من ألف شهر، تغلق فيه أبواب النار وتفتح فيه أبواب الجنان، فمن أدركه ولم يغفر له فأبعده الله، ومن أدرك والديه ولم يغفر له فأبعده الله، ومن ذكرت عنده ولم يصلي علي فأبعده الله**. [تذكرة الفقهاء (ط.ج) ج ٦، ص٢٣٧، غنائم الأيام ج ٥، ص ٢٩، الكافي ج ٤، ص ٦٧].

غيره من الشهور، كما جعل فيه الأيام التي أعز فها المسلمين وانتصر فيها المسلمون، وذلك أن واقعة بدر الكبرى كانت في السابع عشر منه، وكذلك فتح مكة المكرمة في الثاني والعشرين منه، ونزول القرآن الكريم في الثالث والعشرين منه، وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، الليلة التي هي أفضل الليالي على الإطلاق، الليلة التي يكتب على الإنسان فيها أمر المنايا والبلايا، وما يحدث على الإنسان من أمور في سائر أيام السنة. فإذاً شهر رمضان هو أفضل الشهور، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: (من لم يغفر له في شهر رمضان لم يغفر له إلى قابل إلا أن يشهد عرفة)[1] لأن الله عز وجل يفتح فيه أبواب رحماته على العباد، ويدعو فيه عباده إلى عبادته وطاعته. إذاً فهذه خمسة من الاختيارات ذكرناها، ولكن في طليعة الاختيارات التي اختارها الله تعالى هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام لأنه وكما ذكر في الحديث القدسي: (لولاك لما خلقت الأفلاك)[2] فأشرف الموجودات وسيد الكائنات هو رسول الله صلى الله عليه وآله، وكذلك كل مَن يتصل بالنبي صلى الله عليه وآله بالامتداد الطبيعي هو مختار من قبل الله، فالذين يتصلون بالنبي هم أهل بيته عليهم السلام ومنهم اللذان كان يحملهما وينوه بمكانتهما الحسن والحسين عليهما السلام اللذان كان يقول فيهما: (**الحسن والحسين ولداي**)[3] وقد سمعه المسلمون كثيراً يردد: (حسين مني وأنا من حسين)[4]. إذاً فالخواص التي تعطى للنبي صلى الله عليه وآله أيضاً قد أخذ منها الحسين عليه السلام، فالخصال الجسدية والخصال الروحية التي كانت عند النبي صلى الله عليه وآله أخذ منها الحسين عليه السلام باعتباره جزء من رسول الله صلى الله عليه وآله فدمه من

---

(١) المقنعة الشيخ المفيد هامش ص ٣٠٨.

(٢) شرح أصول الكافي ص ٦١، بحار الأنوار ج ١٥، ص ٢٨، غاية المرام السيد هاشم البحراني ج ٣ هامش ص ٢٣٩، تفسير الآلوسي ج ١، ص ٥١.

(٣) تحفة الأحوذي١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٢٢/٥١٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حيان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، وغيرهم من الكتب كثير.

(٤) قد ورد هذا الحديث في كتب كثيرة منها المستدرك على الصحيحين٣: ١٧٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥.

دم رسول الله ولحمه من لحم رسول الله، ولهذا يقول أحد الشعراء:

لله مرتضع لم يرتضع أبداً   من ثدي أنثى ومن طه مراضعه[1]

فمن كان بهذه الصورة من رسول الله دماً وروحاً، ماذا يجب على الأمة تجاهه؟ أيحسن منهم أن يقتلوه ويرضو جسده بحوافر خيولهم؟؟ فيا ليت شعري ما حال أخته الحوراء زينب عندما نظرة إليه وذلك بعدما سقط على واهجة الرمضاء؟ يقول المؤرخون: خرجت إلى التل، الذي عرف بعد ذلك بالتل الزينبي، وصاحت: أي قوم أما فيكم مسلم يواري هذا القتيل؟. فلما سمعها عمرو بن سعد أمر عشرة من الخيالة بأن خيولهم في الميدان ويطؤوا بها صدر الحسين وظهره، فأقبلوا يحومون بتلك الخيول بحومة الميدان، وبعد ذلك أصعدوها على جسد الحسين[2] فأصبحت خزانة علم رسول الله تتكسر كما تتكسر القوارير، هذا وهي تسمع إلى جناجن صدره تتكسر كما تتكسر القوارير. عندها رجعت إلى ابن أخيها زين العابدين وهي تنادي وا أخاه وا حسيناه.

تصرخ على التل زينب وعيونها همالـه
كل الجنائز شيلت واحسين ما حد شالـه
يا قوم ما من فيكم مسلم يثور بهمة
وش هالعداوه لينا واحنا الهدينا الامة
ما لازم اتغسلونه زملوا ولينا ابدمه
ودفنوه لا يظل عاري ودفنوا هله وارجالـه
نادى الدعي في قومه يا قوم لا اتخيبوها
عكس التريده زينب لازمكم اتجيبوها
قوموا بعجل ذي فرصة واخيولكم ركبوها
ودوسوا جسد واليها بالخيل والخيالة

---

(١) شجرة طوبى – الشيخ محمد مهدي الحائري ص ٢١٦.
(٢) قريب من هذا مقاتل الطالبيين أبو الفرج الأصفهاني ص ٧٩، شجرة طوبى ص ٢٨٩.

داسوا جسد واليها ومنها الدمع يتناثر

تسمع جناجن صدره كلما يدق الحافر

نادت تعزي جدها هذا العزيز الطاهر

فوق الوطيه طايح واتدوسه الخياله

وردت خيمها اتنادي وادموعها مسفوحه

يا بني علي شال حيله والحسين فاضت روحه

وكل الجنايز شيلت واجنازته مطروحه

محد لفى باكفانه ومحد لفى ابشياله

يقلها اسكتي يا عمه كاتب عليه الباري

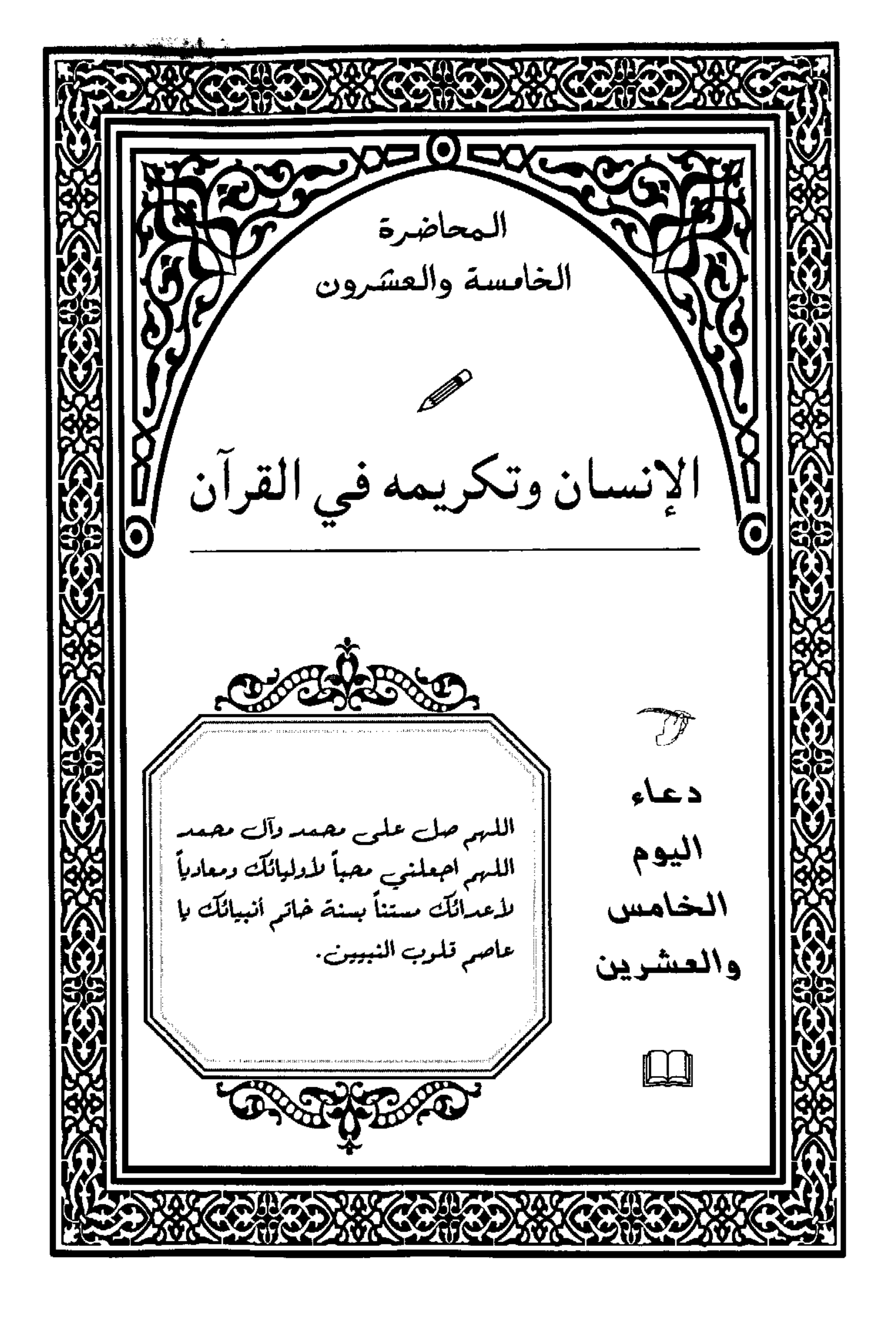
يبقى وتصير أكفانه كلها سوا في وذاري

صاحت فجعني بن امي يوم لفيته عاري

والخيل فوقه تاطي ومحد لفى له شاله(١)



(١) النصرة المهدية للعترة الأحمدية ج ١، ص١٣٧، ١٣٨.



المحاضرة
الخامسة والعشرون

الإنسان وتكريمه في القرآن

دعاء
اليوم
الخامس
والعشرين

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم اجعلني محباً لأوليائك ومعادياً
لأعدائك مستناً بسنة خاتم أنبيائك يا
عاصم قلوب النبيين.

٢٥

الإنسان وتكريمه في القرآن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾(١).

❋❋❋

إن هذه الآية الكريمة أعلنت حقوق الإنسان، ونصت على كرامته وذلك في بدء الدعوة الإسلامية، وكان لهذا التكريم أثره الفعال من يومه الأول، بينما نجد الدراسات الحديثة التي دائماً تتشدق وتتبدخ بأنها أعلنت حقوق الإنسان، في واقع الأمر نسيت أمراً هاماً، حيث أنها لم تفي له إلا بالشيء القليل، وذلك بعد تلك المعانات الطويلة التي قضاها مطالباً بحقوقه المشروعة، بينما الإسلام جعل في صلب دعوته تكريم الإنسان.

وهنا نقطة تحتاج منا إلى تأمل، وهي أن نتعرف على مدا إنسانية التشريع الإسلامي، وذلك بالتنبه إلى هذا التعبير القرآني: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فإن القرآن الكريم يصرح - في هذا النص - أن الله عز وجل كرم الإنسان، وذلك بصفته إنسان لا لشيء آخر، أي بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى، بمعنى أنه لم يخص التكريم بالمسلم فقط، بل التكريم لكل إنسان على وجه هذه الأرض، إلى أي جهة كان انتماؤه وإلى أي جهة كانت قوميته، وذلك لأن مفهوم الآية الكريمة جاء مطلقاً، أي أن التكريم جاء للإنسان باعتباره إنسان

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

ليس إلا، وذلك أن كل الاعتبارات ألغاها الإسلام، وهذه إيماءة أخلاقية رائعة في القرآن الكريم. في حين عندما ننظر إلى البشر في الأرض، نجده - مع شديد الأسف - رغم ما أوتي من استعداد في العقل، إلا أنه لم يزل إلى الآن يعيش نظام التفرقة، فتراه يفرق بين إنسان وإنسان، تارة على حساب المذهب، وتارة على حساب العقيدة، وتارة على حساب العنصر، وتارة على حساب القومية، و... و... وهكذا، فالتفضيل عند البشر يقوم على أساس من الهوى والتحكم، أو على أساس الطبقية، فالنظم الاجتماعية المعاصرة نرى التفرقة فيها قائمة على أساس العرق، وعلى أساس المذهب، بأن هذا فلان ينتمي للعرق الفلاني، وهذا ينتمي للمذهب الفلاني. أيضاً هناك من يفرق على أساس جغرافي، وحتى عند بعض المسلمين تكون أمثال هذه المحسوبيات، وربما قد نسمع مثلاً في وسائل الإعلام بأنه ليس هناك تمييز، إلا أن الوقع العملي نجده يختلف، فالتفرقة قائمة على اللون تارة، وعلى الأصل تارة أخرى، وكذلك على المعتقد، وحتى على الموطن الجغرافي؛ في حين أن القرآن الكريم أعلن منذ فجر الدعوة الإسلامية، أن الإنسان بمختلف أشكاله مكرم، لا لأنه يحمل شيئاً من هذه الأمور. قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وهذا هو العمق في أصل الدعوة الإسلامية، ولهذا عندما نرجع إلى التمييز الذي دأب عليه الناس، نجد أن البعض يصل به الأمر إلى أن يفضل الأبيض على الأسود، بينما لا نجد أن للإنسان دخلاً في ذلك، بمعنى أنه ليس للإنسان دخل في تحديد لونه، ومن ثَم توجد نظريتان عند العلماء في ذلك:

النظرية الأولى: النظرية الكلاسيكية، التي تقول: بأن حام حدث بينه وبين أبيه حادثة من خلالها دعا عليه أبوه، فأصبح مَن تولد منه يحمل اللون الأسود، وهذه النظرية يقول عنها أحد العلماء بأنها إحدى النظريات التي دست في تفاسير المسلمين[1]؛ إلا أن هذه النظرية ذكرها كثير من العلماء

---

(١) الدكتور الوائلي.

برواية[1]، ولهذا فقد يكون التعبير السابق في غير محله.

النظرية الثانية: تقول: إن السود إنما صاروا سوداً، لأنهم نشؤوا في مكانٍ حار ورطب، واستمرت المدة إلى آلاف السنين، وذلك من الإنسان الأول، لأن الإنسان عندنا نوعان، الإنسان الحضاري، والإنسان غير الحضاري، فالإنسان الحضاري يرجع تاريخه إلى قبل أربعة عشر قرن تقريباً، والإنسان غير الحضاري مثلاً يمتد إلى أعماق مليونين سنة تقريباً، فلهذا يقول العلماء: لقد مرة على الإنسان فترات طويلة، كان يعيش فيها تحت أشعة الشمس والرطوبة، فأخذ لونه يسود ويسود. . . . . وهكذا، إلى أن صار بهذا الشكل، وأخيراً تحول إلى وراثة، فكان مَن يتولد من الأسود يكون أسود[2].

إذاً فهناك نظريتان ذكرهما العلماء، ولكن ما نقوله إن هذا الذي خرج من بطن أمه أسود، وذاك الذي خرج من بطن أمه أبيض، كلاهما من مخلوقات الله تبارك وتعالى، كما أنه ليس لهما اختيار في ذلك، ولهذا لا يجوز أن يحرم أحد منهم من فرص الحياة أبداً، فالتمييز فيما بين الأبيض والأسود في فرص العمل أو في فرص التعلم هو الكفر بالإنسانية، قبل أن يكون الكفر بشرائع الله تبارك وتعالى، لأن الآية الكريمة تقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وذلك بغض النظر عن كل اعتبار، فمن أي منطقة كان، أو إلى أي مذهب ينتمي، أو بأي لون يتصف، كل ذلك يتلاشى أمام إنسانية الإنسان التي جعلها القرآن الكريم علة لتكريمه[3].

ولكن علينا أن نسأل ما هي مظاهر التكريم الموجودة في الإنسان؟ واقعاً هناك بعض المفسرين يقول: إن الله عز وجل خلق الأشياء بأمره: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ

---

(١) انظر علل الشرائع - الشيخ الصدوق - ج ١، ص ٣٢، تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي - ج ٤، ص ٢٨٢.

(٢) وكلا هاتين النظريتين محل مناقشة عند العلماء.

(٣) وهذا المعنى لو تنبه إليه من لا ينتمي إلى الإسلام لعرف كيف أن الإسلام ليس له عداء مع أي شريحة من البشر، وأن هذه الأوامر والنواهي التي جاء بها إنما هي في صالح البشر أنفسهم، وذلك لكي تكون حياتهم هادئة ومستقرة.

أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[(١)]. ولكنه تعالى خلق الإنسان بيده، بمعنى أن الإنسان إنما كان أفضل من غيره من المخلوقات لأن الله خلقه بيديه، وبناءً على هذا القول لنا أن نسأل: هل أن الله عزَّ وجلَّ يداً؟ يعني هل أن لله جارحة؟ إذا كانت لديه جارحة يكون حاله حال بقية الأجسام، وبالتالي يكون حاله حال بقيت المخلوقين، أي محدث، والمحدث مخلوق، والمخلوق لابد له من خالق، وهذا غير صحيح، فالله تبارك وتعالى منزه عن الجسمية، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ بمنطوق القرآن الكريم، أما إذا كان هذا المفسر يفسر اليد بالقوة وبالإرادة، فليس هناك فرق بين الإرادة وبين الأمر، لأن الأمر معرب عن الإرادة[(٢)]. إذاً فالإنسان حاله حال بقية الأشياء، مخلوق بالإرادة، مخلوق بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وهنا تلفت النظر رواية وردت عن صفوان ابن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ قال: فقال: (الإرادة من الخلق: الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل. وأما من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير، وذلك لأنه لا يروي[(٣)] ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق. فإرادة الله، الفعل، لا غير ذلك يقول له كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك، كما أنه لا كيف له)[(٤)] إذاً إنما صار التكريم للإنسان على بقية الموجودات ذلك بعقله، ولهذا إن أول أقسام التكريم وأهمها أن الله عزَّ وجلَّ أفرد الإنسان بالعقل، فالكائنات الأخرى لم تكن لدية نسبة من العقل، بمقدار ما هي عند الإنسان، فالإنسان يتعامل مع المجتمع بالعقل، أما الحيوانات والنباتات فإنها لا تتعامل مع المجتمع بعقل، النبات يتعامل

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) بخصوص الإرادة أنظر الموسوعة الفقهية الميسرة - الشيخ محمد علي الأنصاري - ج ٢، ص٣٧٥ فإنه قد نقل آراء مجموعة من العلماء وناقشها مناقشة موضوعية، وكذلك أنظر منهاج الصالحين - الشيخ الوحيد الخراساني - ج ١، ص ٢٩٦ وذلك في شرحه لخطبة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام فإن له شرحاً ممتعاً في هذا الباب.

(٣) رويت في الأمر نظرت وفكرت والاسم الراية.

(٤) الكافي - الشيخ الكليني - ج ١، ص ١٠٩.

بالقوانين الطبيعية، النبات يتماشى وفق تلك القوانين، أما الحيوان فإنه يتعامل مع بيئته من منطلق الغرائز، فعندما تقام علاقة عند الحيوانات بين الذكر والأنثى فإنها لا تقوم على أساس عقلي، وإنما تقوم على أساس غرائزي، كذلك العلاقات الأخرى عند الحيوان مبنية كلها على الغرائز، القوي منها يأكل الضعيف، فمثلاً لو أن هناك قطعة من اللحم، وأربعة من بني الإنسان جياع، فمن المفترض أنها تقسم في ما بينهم، لأن كل واحد من هؤلاء الأربعة يتعامل بعقله، فيقسمونها بينهم، [هذا إذا كانوا أصحاء]، بينما الحيوانات القوي منهم يأكلها، ويبقى الآخرون محرومون منها.

إذاً الكائنات كلها تتعامل من منطلق غير عقلي، باستثناء الإنسان من المفترض به أن يتعامل من منطلق عقلي، لأن الله عَزَّوَجَلَّ كرمه وميزه بالعقل، وأعطاه هذه الجوهرة الثمينة، وجعلها ملاك الأمر والنهي، ومن ثم فالإنسان الذي ليس لديه عقل، لا يكلف بشيء من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة إطلاقاً. ولهذا يقول أحد الشعراء:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت كفاه بالجود حتى حاكت الديما
كأنها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرما[1]

ثانياً: أن الإنسان يتفاعل مع مَن مضى من قبله، ويتفاعل مع مَن وجد في عصره، ولهذا نحن نقول في بعض الأحيان، مثلاً إن الشعب الفلاني شعبٌ متحضر، معنى ذلك أن له تاريخ، بحيث تكون لديه مخترعات، ولديه أفكار، ونظريات، وعلم، و...... وإلى آخره. بمعنى أن الإنسان عندما يولد يأخذ بحضارة مَن سبقوه، ويعطي من حضارته لمن لحقوه، وذلك أنه يأخذ من حضارة أجداده وآبائه، منها مثلاً التقاليد، العادات، المواضعات العرفية، وغير ذلك، بحيث يتفاعل معهم في كل شيء، وبعد ذلك يترك تراثاً لمن يأتي من بعده، وهذه هي احد الميزات التي أعطيت للإنسان، بينما الحيوان لم

(١) أضواء البيان الشنقيطي ج ٨، ص ٤٦، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ابن خلكان ج٤، ص ٤٠٢ الوافي بالوفيات الصفدي ج ٣، ص ١٥٨.

تكن لديه هذه الميزة، ولهذا فإنه لا يترك تاريخاً لمن يأتي من بعده، كما أنه لا يأخذ تأريخاً ممن مضى من قبله، بينما الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يأخذ من الحضارة ويعطيها، بحيث أنه يترك بصماته على التاريخ، ولهذا نجد الأعم الأغلب من بني الإنسان، عندما يخرج من الدنيا يترك له أثراً فيها، فتكون آثاره إما نظرية علمية، وإما حادثة تاريخية يذكر بها، وإما أسرة طيبة تدعو له وتترحم عليه، وإما سيرة مشرفة يحمد عليها، وإما شيئاً أخراً من هذا القبيل.

ثالثاً: إن من وسائل التكريم التي كرم الله بها الإنسان، أن الله تبارك وتعالى جعله يستقبل الأشياء بوجهه، أي جعله يستقبل الأشياء وهو منتصب القامة، بينما الحيوانات الأخرى لا تواجه الأشياء بوجهها.

رابعاً: إن من جملة تكريم الإنسان، أن الله عزوجل جعله يستفيد من القلم، ولهذا قالوا: إن القلم هو الذي يصنع الحياة، وذلك أن الإنسان يستطيع من خلال القلم أن يحل المعادلات الرياضية، والنظريات العلمية المعقدة، فلهذا ليس هناك كائن من الكائنات يستفيد من القلم، بمقدار ما يستفيده الإنسان، ولهذا قالوا: إن الذي أحيى الدنيا على امتدادها هو القلم، فالإنسان الذي لديه قدرة على استعمال القلم هو روح الحياة، لأن الإنسان الواعي هو الذي يسطر بالقلم آراؤه وأفكاره.

حكاية: يقول الدكتور الشيخ أحمد الوائلي: دخلت على العلامة الشيخ آقا بزرك الطهراني [رحمة الله عليه] في يوم من الأيام، فوجدته بين أكداس من الكتب مكبوباً علها، وبيده القلم وقد ربط في إصبعه وشد في يده، حيث أنه لا يستطيع أن يمسك القلم بيده لشدة ضعفه، وذلك لأنه قد تجاوز التسعين من العمر. يقول: وقد كان شغوفاً على مطالعة الكتب وتأليفها، حتى ترك للأمة الإسلامية مجموعة من الآثار الرائعة. ولهذا عندما نتصور هذه الشخصية - وأمثالها ممن خدموا الشريعة - فإنها في الحقيقة - تهزنا من الأعماق، لأننا نجد تلك الهمة التي لا تعرف الكلل، بحيث أنها تصل إلى هذا السن، وهي تحرص على الاستفادة من القلم، بل وإلى آخر لحظة من الحياة، حتى أخرج تلك الكتب العامرة والغنية بأصناف الموضوعات، وأصبحت مؤلفاته كلها في

خدمة الإسلام والمسلمين ورجال الإسلام، وكانت تلك المؤلفات غاية في الروعة وفي الاستيعاب والإحاطة، وهذا المعنى لا شك أنه يبعث في النفس الطمأنينة والاعتزاز، بحيث تحصل الأمة على شخصية كهذه الشخصية، لأن أمثال هذه الشخصية تكون صانعة للحياة وفي نفس الوقت نادرة الوجود.

إذاً فمن جملة وسائل التكريم التي كرم الله عزّ وجلّ بها الإنسان هو ما ذكرنا آنفاً، إضافة إلى ذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعبر عما بداخلة، ولهذا قالوا: إن الحيوان إذا كان متألماً يحس، ولكنه لا يستطيع أن يعبر للآخرين بذلك، كما أنه يحس باللذة والفرح، ولكنه لا يتمكن أيضاً أن يعبر عما في داخله، ولذلك الكلمة اعتبرها الإسلام معبرة عن الإرادة؛ الأصل في الكلمة أن تكون معبرة عن الإرادة، وحتى الأخرس عندنا مع أنه لا يتمكن أن يعبر عن الألم وعن الفرح وعن الحزن بلسانه، ولكنه يعبر عنه بالإشارة، ولذلك يقول العلماء: إن عقد الأخرس قد يكون بالإشارة والدلائل الأخرى على ذلك، كتحريك لسانه مضافاً إلى تحريك إصبعه ويده[1] فإشاراته بعد ذلك تعتبر مثل بيان لسان الإنسان النطق. إذاً فهذه مجموعة من الأمور التي نستفيد منها مضمون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ انتقلت الآية الكريمة قالت: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بمعنى أن الله تبارك وتعالى قد وظف كل ما في الكون تحت يد الإنسان، أي أن كل الطاقات وضعها لخدمة الإنسان، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستخدم كل الأشياء إلا ما استثني، ولهذا أحياناً الإنسان يقصر عن بعض الطاقات الموجودة عند الحيوان، ويقصر حتى عن الطاقات الموجودة في النبات، لأن بعض النباتات تحتوي على ميّزات أهم من ميّزات الإنسان، فبعض النباتات قد يكون عمرها أكثر من عمر الإنسان، وبعض الحيوانات تكون قوتها أعظم من قوة الإنسان، وذلك بأضعاف مضاعفة، بل أن بعض الحيوانات لديها فاعلية أكثر من فاعلية الإنسان، فالإنسان لا يستطيع أن يركض كما يركض الفرس، كما ليس له

---

(١) انظر كتاب النكاح - السيد الخوئي - ج ٢، شرح ص ١٧٣، فإن عنده نقاش ممتع في هذا الجانب، أوضح مما ذكرنا.

طاقة بمقدار طاقة البعير، وذلك أنه لا يستطيع أن يحمل بمقدار ما يحمل البعير مثلاً، بل ليس عنده طاقة بمقدار طاقة النملة؛ فالنملة لها طاقة تفوق طاقت الإنسان بكثير، ذلك بالمقارنة بينها وبين الإنسان في الحجم، ولكن إنما صار الإنسان سيد الموجودات بعقله، فأصبحت الموجودات كلها تحت تصرفه، حيث أن الله تعالى ألهمه أن يصنع الدنيا ويصنع الحياة.

وهنا نقطة يجب أن نقف عندها، وهي أن بعض الجهال الذين هم بعيدين عن معرفة الإسلام على الوجه الصحيح، يقولون: ماذا صنع لنا الإسلام، أو ماذا صنع لنا الدين؟ فها هي الإنجازات البشرية الموجودة في الدنيا ليس للدين فيها دخل، فالذي اخترع السيارة ليس من المسلمين، والذي اخترع المروحة ليس من المسلمين، وكذا....، وكذا، من أمثال هذه العبارات. والجواب أن هؤلاء - في الحقيقة - يتكلمون بكلامٍ سطحي، وبدون وسط علمي، أو أنهم - بعبارة أخرى - يتكلمون بتفكيرٍ همجي، لأن الدين ليس من شأنه أن يعلم الناس كيف يصنعون المروحة، وكيف يصنعون السيارة، وكيف يصنعون الهاتف أو الطائرة مثلاً، إنما الدين مهمته أن يبني الإنسان، وأن يجعل في الإنسان ضميراً يستطيع من خلاله أن ينظم علاقاته أولاً مع نفسه، وثانياً مع أهله، وثالثاً مع مجتمعه، و... و... وهكذا، لأنه بدون بناء ذلك الضمير الموجود في داخل الإنسان، فإن الإنسان لا يمكن له أن يعيش في هذه الحياة، حياة هادئة ومستقرة، والدليل على ذلك ما نجده الآن في دنيا الناس، وذلك من حروب، ومن نزاعات ومن، ومن... إذاً فالله عَزَّوَجَلَّ وضع الاختراعات على عاتق الإنسان، وذلك بعد أن كرمه وأعطاه العقل، كما سخر له كل الطاقات وأمره أن يستفيد منها، قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]. وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة لقمان مقطع من الآية ٢٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠.

إذاً فليس من المعقول أن نكلف الدين بشيء من هذه الأشياء - أي من هذه المنجزات المادية - لأن الدين غداً قد يسألنا ما هي وظيفتكم في الحياة؟ بمعنى هل أن وظيفة الإنسان في الحياة تقتصر، على أن يأكل ويشرب وينام ويمرح فقط؟ الواقع كلا، ذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ له الحجة على الناس، فالله عَزَّوَجَلَّ أعطى الإنسان العقل، بالإضافة إلى الطاقات الأخرى، منها أن جعل له الأرض وجعلها قابلة للاستفادة، بحيث جعل فيها المعادن على مختلف الأشكال، ومكنه بعد ذلك من حل المعادلات، وكل هذه الطاقات أمر أن توظف أرباب الضمائر السليمة، التي بناها ويبنيها الإسلام، حتى تنطلق الحياة في المسار الصحيح، أما إذا كان المفترض هو أن الله تبارك وتعالى ينجز هذه الأشياء للإنسان، بدون هذه الطرق الآنفة الذكر، فإن الدنيا تصبح حظيرة للكسالى، ويصبح الإنسان في أتم الخمول، على أن هذا الشيء ليس بعسير على الله تعالى، ولكنه تعالى أجرى الأشياء بمسبباتها، الله تبارك وتعالى اقتضت حكمته أن يجعل لكل فنٍّ مخترع، وذلك لكي تتم عملية التكاتف الاجتماعي في الحياة، وحتى تسير الحياة على هذا النمط من التعاطي، ولهذا كان من دعاء الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ في طلب تعليم طلب الاستغناء عن الخلق، وقد قال بحضرته رجل: اللهم أغنني عن خلقك، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ليس هكذا، إنما الناس بالناس، ولكن قل: اللهم أغنني عن شرار خلقك)[1]. والواقع هكذا، لأن الله تبارك وتعالى، استعمر الإنسان في الأرض، بأن جعل الإنسان خليفته فيها، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]. إلا أن البعض من الناس الذين عاشوا على السطوح، في واقع الأمر تبعدهم كلمة وتجرهم كلمة، وسبب ذلك لأنهم لم يخوضوا في أعماق الحياة الإسلامية. إذاً فالدين مهمته أن يصنع الإنسان، والإنسان هو الذي يصنع الحياة. بعبارة أخرى إن الرسالات السماوية مهمتها صنع الإنسان، ومهمة الإنسان صنع الحياة، فالآية الكريمة قالت: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾

---

(١) الصحيفة السجادية ص ١١٦، تحف العقول ص ٢٧٨.

(٢) سورة البقرة مقطع من، الآية: ٣٠.

من هنا نجد الآية تسند الحمل إلى الله، ولكن هذا الحمل لم يكن بصورة مباشرة، وإنما هو عن طريق العقل الذي وهبه الله لهم، فبالعقل اكتشفوا الكثافة الموجودة في الماء بأنها أكثر من الكثافة الموجودة بالمساحات الفارغة، سواءً من حديد أو من خشب، بمعنى أنهم درسوا قانون الكثافة، فأتضح لهم أن الحديد يطفوا على البحر، والخشب أيضاً كذلك، فمن خلال دراستهم لهذه المعادلة، اتضح لهم بأنهم يحتاجون إلى صنع السفينة، فصنعوها واستفادوا منها، ولكن المواد التي عملت بها السفينة ليست من صنعهم، والذي أعطاهم القدرة على صنع السفينة هو العقل، والعقل موهبة من الله تعالى، فركبوا البحر. أيضاً استفادوا من قانون الفعل ورد الفعل، بأنهم يحتاجون إلى الطائرة، لأن الطائرة تسير بنظرية رد الفعل، فصنعوها، كذلك درسوا طباع الحيوان، فروضوا الحيوان، وسخره الله تبارك وتعالى لهم، وإلا لو لم يسخره الله تعالى، فليس من الممكن لأحد من الناس أن يدنو إليه، ولذلك في الدعاء نقول: (**سبحان الله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين**)[1]، فالشخص الذي يركب الفيل ليس لديه طاقة توازي الفيل أبداً. ولكن الله تبارك وتعالى سخره له.

فلآية الكريمة عندما قالت: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أشارة إلى هذا المعنى، وهو استخدام القوانين، وذلك من خلال العقل؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أن الله تبارك وتعالى أعطى الإنسان القدرة على أن يسخر الحامل، وهذا الحامل لا يتمكن أن يسخر غيره لحمله، مثلاً الفرس ليس له قابلية أن يسخر حيوان آخر لحمله، بينما الإنسان عنده القابلية بأن يسخر آخر، ولهذا قالوا: إن الله عز وجل جعل الحيوان بكل أشكاله بسط، وجعل الإنسان عنده استعدادٌ بالعقل، فالإنسان إذا لم يستثمر استعداده العقلي يتحول إلى أتعس من الحيوان، ورحم الله أحد الأدباء إذ يقول:

قال حمار الحكيم توما   لو أنصفوني لكنت أركب

---

(١) فقه الرضا - علي بن بابويه - ص ٣٩٨، جواهر الكلام - الشيخ الجواهري - ج ١٨، ص١٤٥.

لأنني جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب[(١)]

فلسان حال الحيوان - في هذين البيتين - كأنما يقول: إنني أعترف لنفسي بالجهل وعدم الفهم، بل لا أقول أنني أفهم شيئاً في الحياة، ولكن راكبي هذا الذي لا يفهم عن الحياة شيئاً، يدعي أنه يفهم كل شيء، وهذا هو الجهل المركب، فلهذا من الأولى به أن يكون هو الحيوان، وأن أكون أنا الراكب، إلا أن الظروف جعلتني هكذا، فماذا أصنع؟ لأنني جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب النتيجة كما في الحديث النبوي الشريف: (فرب دابة مركوبة خير من راكبها)[(٢)]. واقعاً إن بعض الدواب قد تكون أفضل من أصحابها، [أو صاحبها]، لأنها لا تعصي الله تبارك تعالى ولا تؤذي أحداً من الناس، بل كلها خيراً وليس فيها شراً، بينما كثير من الناس كله شرور وتعدٍّ على حقوق الآخرين. نعود إلى صلب الموضوع! الآية الكريمة قالت: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بمعنى مكناهم من دراسة القوانين، ومن خلال دراستهم للقوانين، استطاعوا الاستفادة من البر والبحر.

القسم الثالث من أقسام التفضيل، قالت الآية: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي أن رزق الله تعالى يأتي فقط من الطيبات، أما الرزق الذي لا يأتي من الطيبات فليس من رزق الله تعالى، والمقصود من رزق الله هو الذي يكون مصدره حلالاً، بمعنى أن لا يكون من سرقة، وأن لا يكون من غش، وأن لا يكون من خداع، وأن لا يكون فيه ضرر ذاتي. فإذا اجتمعت كل هذه الشروط كان ذلك المال أو الطعام من رزق الله، فرزق الله يأتي من الحلال فقط، مثال ذلك أن يكون فلاح يحرث الأرض ويلقي البذرة فيها، ثم يصارع الأرض، ويستخرج - بعد ذلك - ما أودع الله فيها من خيرات، هذا هو رزق الله عزوجل، أو أن يكون صانعاً يعارك المواد المستخرجة من الأرض، ثم يحول ذلك إلى حاجات تلبي احتياجات الإنسان. مثال ذلك هو مَن يأتي إلى

---

(١) تفسير الالوسي ج ٢١ ص ٦٢.
(٢) دعائم الإسلام القاضي النعمان المغربي ج ١، ص ٣٤٧، مستدرك الوسائل الميرزا النوري ج ٨، ص ٢٥٩، النوادر فضل الله الراوندي ص ٢١، بحار الأنوار ج ٦١ ص ٢١٠.

الصوف، ويحاول غزله ونسجه، حتى يعمل منه لباساً يستفيد منه الناس، كل هذا وأمثاله يعتبر رزق الله تعالى، لأن الإنسان بهذه الكيفية يسخر وقته وطاقاته، وذلك من الصباح إلى المساء كي يحصل على شيء من المال لينفقه على نفسه وعلى عياله. شخصٌ آخر مثلاً يشتغل في حقل العلوم، فتراه يصارع النظريات الصعبة، ويكتب ويدرس ثم يأكل من عمله، هذا هو الكد المشروع، وهذا الرزق يعتبر هو رزق الله عزّوجلّ ، وبالتالي يصدق عليه أنه رزق الله، ذلك لأن رزق الله من الطيبات فقط.

بينما البعض يأكل من رزق الشيطان، ورزق الشيطان له أبواب كثيرة، منها أن يكون شخص والعياذ بالله يفتح له حانة يبع فيها الخمرة، أو يفتح له مؤسسة مهمتها بيع العري من أقراص مدمجة وما شابه وبيع المخدرات، فيتلف بعمله ذلك أمة من الناس، كل ذلك بقصد أن يحصل على الأموال. أخر يشتغل بالدمار الفكري، أي بالحقل الديني، فيألف كتباً كلها عصبية وحقد، فيدمر من خلال نشرها وبيعها المجتمع، وبالتالي يصبح ضررها أكثر من المخدرات، بحيث يسمم بها أفكارا المجتمع، كل ذلك لكي يحصل على شيء من المال. بينما الدين الإسلامي أمانة جعلها الله تبارك وتعالى في الأعناق، الله تبارك وتعالى أرسل الديانات السماوية يجمع بها الناس، لا أن تفرقهم وتشتتهم، فمن يدأب على تفريق المسلمين ويكتسب من خلال ذلك، فإنه يصبح ذلك الرزق الذي يحصل عليه من رزق الشيطان، فالبعض تجده يأكل عن طريق تمزيق وحدة المسلمين، والبعض يأكل عن طريق بيع العِرض وبيع الكرامة، والبعض يأكل عن طريق الغش، والبعض عن طريق المخدرات، والبعض عن طريق الربا، والبعض عن طريق الربح الكثير الغير معقول، الذي لا يقره العقلاء بحال من الأحوال، مثلاً قد يكون إنسان ما، يريد أن يشتري لأبنائه سلعة، فلك أيه البائع أن تربح فيها، حتى تخرج منها أتعابك وأتعاب متجرك - الذي يتم فيه العرض-، ولكن لا يكون ذلك بأضعاف مضاعفة، إنما يكون بالشيء المعقول، لأنه كما ورد: **(من أفضل الدين المروءة، ولا خير في دين لا مروة فيه)**[1].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ - علي بن محمد اللثي الواسطي - ص ٤٧٣.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (**أفضل المروة مواساة الإخوان بالأموال ومساواتهم في الأحوال**)[1]. إلا أن البعض من الناس - وللأسف الشديد - يستغل الآخرين، فيغتنم الفرص، ويأخذ أرباحاً بأضعاف مضاعفة، وهذا خلاف المروة، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام وهي لنا: (**يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسنَ إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحهُ من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك**)[2]. فماذا تحب لنفسك أيضاً حبه للآخرين، فإذا كنت تحب أن تأخذ السلعة بسعرٍ معقول، وليس فيها معيب، فقم بإبرازها للآخرين على هذا الوجه، فلا تسرق أحداً عن طريق الاستغلال، لأن الدين المروة، وهذا هو أحد الآراء في هذا المقطع من الآية: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

الرأي الثاني: أن المقصود من الطيبات هي نفس المأكولات التي يأكلونها، بحيث تكون طيبة تقبلها النفس، وذلك بعكس المخلوقات الأخرى، فمثلاً الحيوانات تأكل الجيف، بينما الإنسان لا يأكل الجيف، وإنما يأخذ اللحم فينظفه جيداً وينقيه ويطبخه، ثم بعد ذلك يتناوله، وإن كان - الآن - بعض الحيوانات تُعود من قبل أصحابها على أن تأكل نوعاً من الغذاء النظيف، إلا أنها لا تأكل أشياء مركبة كالإنسان، الإنسان يأكل مجموعة في آن واحد، مثلاً توابل وأملاح وفيتامينات وغير ذلك، من هذا القبيل، فيجمع الغذاء المركب، الإنسان هو الذي يقدر على تركيب الغذاء واستعماله. كذلك الحيوان يأكل الطعام مباشرةً بفمه، بينما الإنسان يتناوله بيده، فيرى الجيد والرديء فيميزهما، فيأكل الجيد منه ويترك الرديء، إذاً - في واقع الأمر - الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستفيد من طيبات الطعام. من هنا نعرف كأنما جو الآية يرشد إلى هذا المعنى، وإذا كان كذلك، فما بال هذا السيل من المعلومات التي يأتي بها

---

(١) موسوعة أهل البيت عليهم السلام - الشيخ هادي النجفي - ج ١٠، ص ٢١٩.

(٢) نهج البلاغة: ص ٤٦٢.

البعض؟ مع أن الإنسان الذي يريد التقرب إلى الله تعالى، عليه أن يترك الطيبات، الواقع إن هذا هو الذي يعبر عنه القرآن الكريم بالرهبانية المبتدعة، لأن الله تبارك تعالى عندما خلق الطيبات لم يحرمها على الناس أبداً. بل أنه تعالى عندما خلق الطعام الجيد أباح للناس أن يأكلوه، ولكن بشرط وهو أن يؤخذ من الحلال، لا أن يؤخذ من الحرام، بل لا يجعل الإنسان نفسه على قالب واحد من الطعام، ولهذا أئمتنا لم يحرموا الطيبات، وإنما آثروا الطعام البسيط لأنفسهم، اعتماداً على تحسسهم للآخرين. ومما يذكر أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام جيء إليه بحلاوة جيدة في يوم النيروز، - وهو عيد من الأعياد القومية - فلما تذوقها - وكانت ممتازة الطعم - قال: (نورزونا كل يوم)[1].

كذلك الإمام الصادق عليه السلام كان يصنع الطعام الكثير والمتنوع ويقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]. ولهذا يقول أبو بصير: دخلت على الإمام الصادق عليه السلام بالأبواء، فدعاني إلى وليمة - قد أعدها - فأجبته، فلما جاء وقت الغداء أحضر الطعام، وإذا به طعام كثير ومنوع، فبينما نحن نريد أن نأكل منه، وإذا برسول حميدة إلى الإمام يخبره بأنها قد طرقها الطلق، فقام الإمام وما أسرع من أن رجع وهو مبتسم الثغر، يقول أبو بصير: فقلنا له سيدنا زادك الله فيما أعطاك؛ نراك فرحاً ومستبشراً ما الذي حدث؟ قال: (قد سلمها الله وقد وهب لي غلاماً وهو خير من برأ الله في خلقه)[3]... الخ. إذاً موضع الشاهد يقول أبو بصير: إنها كانت وليمة عامرة، وفيها أنواع من الطعام.

---

(١) تاريخ بغداد الخطيب البغدادي ج ١٣، ص ٣٢٧، تهذيب الكمال ج ٢٩، ص ٤٢٣، سير أعلام النبلاء الذهبي ج ٦، ص ٣٩٥، فهرست ابن النديم هامش ٢٥٥. الذي أهدى للإمام عليه السلام الفالوذج في يوم النيروز هو النعمان بن المرزبان (أبو ثابت).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٣) أنظر قريب منه - المحاسن ج ٢، ص ٣١٤، بصائر الدرجات ص ٤٦٠، الكافي ج ١، ص٣٨٥، عيون المعجزات ص ٨٥، مدينة المعاجز ج ٤، ص ٢٢٩/ ج ٦ ص ١٨٤، بحار الأنوار ج ٢٥، ص ٤٢/ ج ٤٨، ص ٢.

يقال أن إبراهيم بن أدهم كان معروفاً بالزهد، وفي يوم من الأيام اشترى زبداً وعسلاً وخبزاً من النوع المميز، فقالوا له أصحابه: أكلٌ هذا؟ قال: نعم كلٌّ هذا، نحن قوم إذا وجدنا نأكل كما يأكل الناس، وإذا لم نجد نصبر كما يصبر الناس. فالله تبارك وتعالى ما نهى عباده عن أكل الطيبات، وإنما أمر بأن تؤخذ من الحلال، وطرق الحلال كثيرة، فعلى أية حال الآية قالت: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ثم قالت ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ هذا المقطع يحتاج إلى تأمل.

التفسير الأول: أن الآية الكريمة ما قالت على جميع المخلوقات، وإنما قالت: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ فهؤلاء الذين استثنتهم الآية يعني هم الملائكة؛ والحال أن كثيراً من المفسرين يقول عكس ذلك، لأن الفرد المسلم إذا اتبع عقله هو أفضل من الملائكة، لأن الملك من المعروف أنه ما ابتلي بغرائز كما ابتلي الإنسان، فلو ابتلي بغرائز لاختبر كما اختبر الإنسان. الملك كله عقل، بينما الإنسان عقل وغريزة، فالإنسان إذا انتصر على غرائزه واتبع عقله يكون أفضل من الملك، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى أن الله تبارك تعالى خلق من البشر الأنبياء، والأنبياء سادة الوجود، ولهذا ثبت في الأثر أن النبي ﷺ علة الموجودات، وهذا المعنى سيأتي في نهاية البحث.

التفسير الثاني: أن معنى قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أن المقصود بهم الأقلية، فالذين لم يفضل الله البشر عليهم، قد يكونوا نوعاً من البشر، يسكنون في بعض المجرات الأخرى، لأن المأثورات العلمية تشير إلى أن الكون قد يكون فيه بشراً أرقى من هذا البشر، وذلك في ثقافته ووعيه وإبداعه، بل وأعقد تركيبة من هذا البشر، فلهذا العلماء يأتون بنظريات تؤكد أن بعض المجرات الموجودة في الكون، إذا وضعت المجرة الشمسية فيها لا تُرى لكبرها واتساعها، ولهذا لا زال العلم يكتشف مجرات، فبعضها غير مسكون، وذلك لعدم الجاذبية، وبعضها قد يكون مسكوناً بكائنات حية وعاقلة، وكل مجرة منه فيها أكثر من آدم وآدم، وإن فيها من البشر مَن قد تكون حضارتهم وثقافتهم كبيرة، ولهذا لا ندري ماذا يكشف لنا

المستقبل. فبعض المفسرين يقول: إن الآية الكريمة تشير إلى أننا أقل حضارة من أولائك، وأقل قدرات من أولائك، بمعنى أن الله عزّ وجلّ فضلنا على الموجودات الموجودة في الأرض، صحيح أن الإنسان سيد الموجودات، ولكن سيبقى الكون فيه عوالم أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

إذاً فالبشر مع كونهم من جنس واحدة، ومن طينة واحده، إلا أن مراتبهم ومزاياهم وسجاياهم وأفضليتهم تختلف من واحد لآخر، ولهذا ورد أن أفضل المخلوقات هم الأنبياء، وأفضل الأنبياء النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله ولذلك الكثير من علماء المسلمين يقول: إن المدينة أشرف وأفضل من مكة، لأنها ضمت جسد النبي صلى الله عليه وآله وهو أشرف الموجودات، ومن يضم الاشرف فهو الاشرف، وبناءاً على هذا المعنى، تكون تربة المدينة أشرف من تربة مكة المكرمة، لأنها ضمت النبي صلى الله عليه وآله وهذا ما عليه جمهور علماء المسلمين، أو المحققين من علماء المسلمين، وانطلاقاً من هذا المعنى، هو أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله قد علمنا بسلوكه، الذي سلكه مع الإمام الحسين عليه السلام، أن الحسين منه، وذلك أنه كان يحمل الإمام الحسين عليه السلام ويقول: (حسين مني وأنا من حسين)[2] وكلمة - من - هذه إذا حملناها على التبعيض، تعني أنه جزء من النبي، بمعنى أن الحسين قطعة منه، وإذا حملناها على الجنس، أي لبيان الجنس، فإنها تعني من نفس النوع، أومن نفس السنخ، وعلى كلا الحالتين، يقتضي أن التربة التي صارت أشرف من مكة، لأنها ضمت النبي صلى الله عليه وآله، أن يُعطى هذا المعنى إلى تربة كربلاء، لأنها ضمت جزءاً من جسد النبي، وهو الحسين عليه السلام وكما يقول العلماء: إن حكم الأمثال في ما يجوز وفيما لا يجوز واحد، ولذلك نجد الإصرار من أئمة أهل البيت عليهم السلام على الوقوف على هذه التربة الطاهرة، وتعظيمها واحترامها، لأنها قد ضمت

---

(١) سورة المدثر مقطع من الآية: ٣١.
(٢) الشريف المرتضى هامش ص ٩٠، منهاج الصالحين الشيخ الوحيد الخراساني ج ١، ص٣٤٥، كامل الزيارات جعفر بن محمد بن قولويه ص ١١٦.

قطعة من رسول الله ﷺ وهو أشرف الموجودات، إضافةً إلى ذلك أنها احتضنت دماء الشهادة، وسال على صعيدها دم الحسين يوم عاشوراء، ذلك الدم الطاهر، لأن الحسين عليه السلام دمه من دم رسول الله، ولحمه من لحم رسول الله، ولهذا نقول ونحن مطمئنين لقد سال عليها دم النبي ﷺ. بعد إلى هنا وينتهي الأمر؟ كلا، لقد احتضنت المواقف الكريمة، حيث أن الحسين عليه السلام مثّل عليها أشرف المواقف، فلقد مثل الصبر، ومثل البطولة، ومثل الصلابة، ومثل الدفاع عن حما الإسلام، ومثل الوقوف بوجه الكفر، كل هذه القيم مثلها أبو عبد الله على أرض كربلاء، كما أنه مثل التضحية والعطاء في الله تعالى، ولهذا يقول احد الشعراء:

هي كربلاء فقف على عرصاتها ودع الدموع تسيل في ساحاتها
سلها بأي قرىً تعالجت الأولى نزلوا ضيوفاً عند قسر فلاتها
ما بالها لم تروهم من مائها حتى تروت من دماء رقابها

نعم فلقد جن الليل وإذا بأولئك الأضياف يشربون من دماء نحورهم، وإذا برحل رسول الله قد تبدد يميناً وشمالاً، وإذا بذلك المخيم قد استعرت فيه تلك النيران الملتهبة، وقد علاء مَن فيه الذهول، وأمست أولائك الأيتام وقلوبهم قد عراها الذهول، نعم هذه الصورة المروعة التي يصورها لنا أديب الطف:

وسرى الليل والرجال ضحايا والنساء المخدرات نفول
واليتامى تشرد وضياع والثكالى مدامع وعويل
وجنود عضت عليها قيود وسياط يبرى بها التنكيل
ودم شاطئي الفرات سيبقى الدهر يرويه والربىٰ والنخيل[1]

نعم لما جن الليل على أخته الحوراء زينب، هدأت العيال والأطفال، ونزلت إلى ساحة المعركة بذلك الليل المهين تشق طريقها بين تلك الضحايا،

---

(١) شعر الوائلي من قصيدة نشرة في مجلة المواقف.

إلى أن وصلت إلى جسد أبي عبد الله الحسين، فلما وصلت إليه قرنت كفيها ووضعتهما تحت ذلك الجسد المقطع، ورفعته بكلتا يديها إلى السماء، وقالت: (اللهم تقبل منا هذا القربان)(١) ورجعت إلى الخيمة تمرض ذلك العليل، وتجمع تلك اليتامى وهي تنادي:

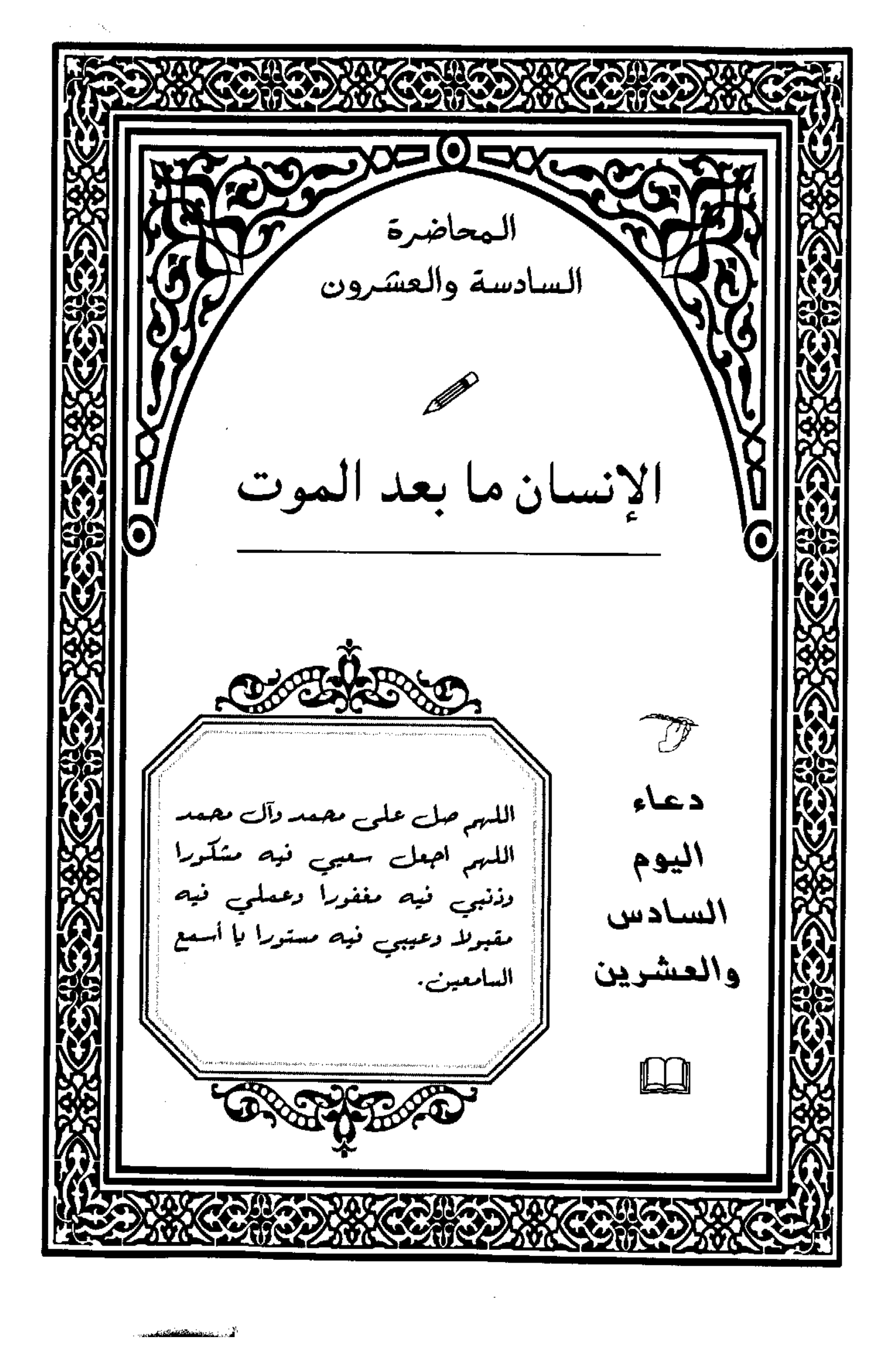
علّي يبوي الليل هود　　وآنا ضعيفة ولا لي أحد

***

هذا يتاماكم تلوذ ببعضها　　ولكم نساء روع وذهول



(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام - الشيخ باقر شريف القرشي - ج ٢، ص ٣٠١.


المحاضرة
السادسة والعشرون
الإنسان ما بعد الموت
دعاء
اليوم
السادس
والعشرين
اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم اجعل سعيي فيه مشكورا
وذنبي فيه مغفورا وعملي فيه
مقبولا وعيبي فيه مستورا يا أسمع
السامعين.



٢٦

الإنسان ما بعد الموت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

※※※

يقول: العلماء[٢] - نادى - فعلٌ ماضي، والفعل الماضي هو الذي قد حصل معناه قبل الحديث عنه، ولكن عندما نرجع إلى الآية الكريمة نجد أن المعنى بعد لم يحصل، إنما يحصل ذلك إذا تواجد كلٌّ من أصحاب النار في النار، وأصحاب الجنة في الجنة، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يكون التعبير بـ(نَادَى)؟ قالوا - أي العلماء -[٣] أن كل فعل متحقق الوقوع يعبر عنه بصيغة الماضي، وهذا المعنى له نظائر كثيرة في سور القرآن الكريم، منها

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٤.
(٢) قطر الندى وبل الصدى لابن هشام الأنصاري ص ٢٦.
(٣) ومنهم الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في كتابه الأمثل ص ٤٩ قال: [ويجب الالتفات إلى أن (نادى) وإن كان فعلاً ماضياً إلا أنه هنا يعطي معنى المضارع، ومثل هذه التعابير كثيرة في (القرآن الكريم، حيث يذكر الحوادث التي تقع في المستقبل حتماً بصيغة الفعل الماضي، وهذا يعد نوعاً من التأكيد، يعني أن المستقبل واضح جداً، وكأنه قد حدث في الماضي وتحقق]. على أن التعبير بـ(نادى) الذي يكون عادة للمسافة البعيدة، يصور بعد المسافة المقامية أو المكانية بين هذين الفرقين.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[2]. بينما النفخ في الصور بعد لم يحصل، إلا أنه لما كان النفخ في الصور أمراً متحقق الوقوع، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ﴾. ومما يلفت النظر هنا أن هذا المعنى يجري فقط بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى، لأن الإنسان لا يستطيع أن يقول عن شيء لم يحدث أنه حدث، ذلك لأن الإنسان بينه وبين العمل الذي يريد إنشائه فارق زمني، سواءً كان ذلك العمل مادي أو معنوي، وهذا الفارق الزمني منعدم بالنسبة إلى الله تعالى، فالأشياء التي ستحدث في الآجل كأنما قد حدثت من قبل. فلهذا عندما كانت المحاورة حتمية، ولا بد من وقوعها، وذلك عندما يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قالت الآية الكريمة: ﴿وَنَادَىٰ﴾.

الغرض: أن الآية الكريمة فيها أبحاث متعددة وكثيرة، ولكن أول شيء يُتساءل عنه قبل الدخول في أبحاثها، هو هل أن الجنة والنار مخلوقتان فعلاً[3]، أو أنهما ستخلقان يوم القيامة؟ ثانياً إذا كانتا مخلوقتان، فأين

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٠.

(٢) سورة يس، الآية: ٥١.

(٣) انظر كتاب حق اليقين في معرفة أصول الدين للعلامة المحقق الجليل السيد عبد الله شبر فإن فيه بحثاً ممتعا في هذا الجانب منه كما في صفحة: ٤٦٥ قال: وأما كون الجنة والنار مخلوقتين الآن فقد ذهب إليه جمهور المسلمين، إلا شرذمة من المعتزلة كأبي هاشم والقاضي عبد الجبار ومن يحذو حذوهما، فإنهم قالوا سيخلقان في القيامة. والآيات المتكاثرة والأخبار المتواترة دافعة لقولهم، ولم يذهب إلى هذا القول السخيف من الفرقة المحقة أحد. وربما نسب إلى السيد الرضي رحمه الله ذلك. وهو بعيد عن جلالة شأنه وعظم قدره. والقرآن صريح في وجودهما حين نزوله، كما قال الله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. «أعدت للذين آمنوا» «اعدت للكافرين» عندها جنة المأوى (وأحاديث المعراج المروية من طرق العامة والخاصة صريحة) في أن النبي رأى الجنة والنار ودخل الجنة]. وكذلك في صفحة ٤٦٦، قال وروى الصدوق في الأمالي والتوحيد عن الهروي قال: قلت للرضا عليه السلام يا بن رسول الله أخبرني عن الجنة والنار أهما اليوم مخلوقتان؟ فقال: نعم، وإن رسول الله قد دخل الجنة ورأى النار لما عرج به إلى السماء. قال فقلت له: فإن قوماً يقولون إنهما اليوم مقدرتان غير مخلوقتين. فقال عليه السلام: ما أولئك منا ولا نحن=

موقعهما من الدنيا؟ والجواب: أنهم قالوا - أي العلماء - المسألة هنا تتبع الآيات والروايات، وليس للعقل مسرح فيها، فالحديث عن عالم الآخرة يُرجع فيه أولاً إلى القرآن الكريم، وثانياً إلى أقوال النبي والأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجد الآيات في هذا الجانب واضحة وصريحة، في أن الجنة والنار مخلوقتان، قال تعالى مخبراً عن الجنة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾(١) ومعنى أعدت أي أنها مخلوقة بالفعل. وكذلك النار، قال: تعالى مخبراً عنها: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾(٢) ولا إشكال في أن كل معدود موجود.

أما عن كونهما في أي موضع، فالآية التالية تبين هذا المعنى، قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾(٣). وهذا المعنى هو الذي جعل العلماء يختلفون في موقعهما، فالبعض من العلماء قال: أن السموات والأرض التي تشير إليهما الآية، هي هذه المجموعة الكوكبية التي نعيش فيها، وهذه المجموعة الكوكبية بالقياس إلى بعض الكواكب تكون في غاية البساطة، بل أنها تعتبر كياناً بسيطاً بالنسبة لغيرها، لأن بعض الكواكب الأخرى إذا وضعت المجموعة الشمسية فيها، كأنما وضعت حبةً من الرمل في هذه الأرض التي نعيش عليها. أما البعض فإنه قال: إن الجنة في كوكب لوحدها، وأن النار في كوكب آخر من الكواكب الملتهبة، التي من شأنها أنها تضيء بالتفاعل الهدرجيني كما يقولون. وهذه فكرة موجزة عما أثاروه حول وجودهما وعدمه. وسنرجع إلى أبحاث الآية.

= منهم، ومن أنكر خلق الجنة والنار كذب النبي صلى الله عليه وآله وكذبنا، وليس من ولايتنا على شيء وخلد في نار جهنم. قال الله عز وجل: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ۝٤٤﴾ [سورة الرحمن: ٤٣ - ٤٤].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣١.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢١.

المبحث الأول: الآية الكريمة قالت: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ إن هذا المقطع يبين أنه سيكون حوار بين أهل الجنة وأهل النار، فأهل الجنة يسألون أهل النار، قائلين لهم - بالمعنى - نحن رأينا كل شيء وعدنا الله به، فهل أنتم أيضاً رأيتم ما أوعدكم به الله أم لم تروه؟ وهذا الحوار منشأه التقرير والتوبيخ كما يقولوا العلماء، وإلا فإن أهل الجنة يعلمون أن ما وعد الله حق، ولكن سبق أن أهل النار كانوا يسخرون بأهل الجنة في دار الدنيا، ويعتبرون أن ما يأتون به من طقوس عبادية، ومن شعائر إسلامية كل ذلك لا ينفعهم، فحينئذٍ تتاح لهم الفرصة بأن يقابلونهم بالمثل، وذلك على سوء صنيعهم في دار الدنيا، وقد جاء في الأثر عن النبي ﷺ: (إن المستهزئين يفتح لأحدهم باب الجنة، فيقال: هلمّ: فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه..)[١]..

المبحث الثاني: أن الآية الكريمة ذكرت الوعد وذكرت الوعيد، ولتوضيح هذا المعنى أكثر، هو أن الوعد يختلف عن الوعيد، فهناك وعد، وهناك وعيد، الله عز وجل وعد وأوعد، فالوفاء بالوعد يجب عليه، ولكن الوفاء بالوعيد لا يجب[٢]. مثال ذلك أنك تعد شخصاً من الناس، بأن تقول له غداً أكرمك، فإذا جاء الوقت ولم تفي له بما وعدته، أعتبر ذلك من المعيب عليك، لأنك لم تفي له بذلك، بينما إذا أوعدت شخصاً بأن تسيء إليه، ولكنك لم تنفذ تهديدك له، لا يعتبر ذلك عيباً بل يعتبر ذلك فضيلة، لأن العفو

---

(١) كنز العمال ح٨٣٢٨.

(٢) انظر الميزان في تفسير القرآن ج ١١: ص ٣٥، مسألة «وجوب دخول أهل الثواب الجنة» بنية على قاعدة عقلية مسلمة وهي أن الوفاء بالوعد واجب دون الوفاء بالوعيد لأن الذي تعلق به الوعد حق للموعود له، وعدم الوفاء به إضاعة لحق الغير وهو من الظلم، وأما الوعيد فهو جعل حق للموعود على التخلف الذي يوعد به له، وليس من الواجب لصاحب الحق أن يستوفي حقه بل له أن يستوفي وله أن يترك، والله سبحانه وعد عباده المطيعين الجنة بإطاعتهم، وأوعد العاصين النار بعصيانهم فمن الواجب أن يدخل أهل الطاعة الجنة توفية للحق الذي جعله لهم على نفسه، وأما عقاب العاصين فهو حق جعله لنفسه عليهم فله أن يعاقبهم فيستوفي حقه وله أن يتركهم بترك حق نفسه.

فضيلة. فالله تبارك وتعالى وعد بأشياء، فلابد وأن ينفذها، لأنه تعالى ربُ الوفاء، ورب الصدق، ورب الخير، ورب العطاء، ورب الرحمة... .الخ. قال رسول الله ﷺ: (من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار)[1].

ومرةً أوعد بجهنم فحينئذ لا يجب عليه الوفاء بذلك، لأنه رب العفو، ورب الجود، ورب الإحسان، ورب الكرم، ورب المغفرة... الخ.

المبحث الثالث: كيف استطاع أهل النار سماع أهل الجنة؟ وأهل الجنة كيف استطاعوا أن يسمعون أهل النار؟ وكيف جرت المحاورة فيما بينهم، وقد كانت بينهم مسافات بعيدة، بناء على بعض الأقوال التي مرت؟ الواقع إن بعض العلماء كالفخر الرازي عندما مر في تفسيره بهذه الآية الكريمة قال: يزحزح الله أهل الجنة حتى يشرفوا على أهل النار. ولكن - في واقع الأمر - أن كلمة يزحزح عندما قالها هو مضطر إليها آنذاك. أما الآن بعد أن جاء العلم فلا نحتاج إلى كلمة يزحزح، فها نحن نستمع إلى الصوت المكهرب الذي يأتينا من أقصى الأرض في لحظات؛ حيث أنه يأخذ سرعة الضوء مباشرةً، لأن الإنسان بما أعطاه الله من علم، استطاع أن يوصل الأصوات من مكان لآخر في لحظات، فإذا كان كذلك، اللهُ عز وجل لم يكن بالعسير عليه إيصال الأصوات، وذلك بمعنى أقل من هذا المعنى بكثير، وبهذا فقد تحل المشكلة.

المبحث الرابع: ما نستفيده من الآية الكريمة أيضاً هو أن الموتى يسمعون الحديث، وقد ورد أن النبي ﷺ خاطب بهذه الآية القتلى من أهل بدر، وذلك بعد أن وضعوا بالقليب، وحادثتهم مشهورة في كتب الحديث، وهي أنهم لما أن وضعوا بالقليب وقف عليهم أحد شعراء الجاهلية وقال:

وكائن بالقليب قليب بدر ... من الفتيان والنفر الكرام
يخبرن ابن كبشه أن سنحيى ... وكيف حياة أشلاء وهام
أيعجز أن يرد الموت عني ... ويرجعني إذا بليت عظام

---

(١) كنزل العمل خ ١٠٤١٦ - البحار ج٥ ص٣٣٤.

فقل لله يمنعني شرابي وقل لله يمنعني طعام
ألا من مبلغ الرحمن عني بأني تارك شهر الصيام

إلى آخر أبياته المشهورة. الغرض أن النبي ﷺ وقف على أولئك القتلى وتلى الآية الكريمة: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلما فرغ النبي ﷺ من تلاوتها قال له أصحابه: يا رسول الله هل ترى أنهم يسمعون؟ فقال لهم النبي ﷺ: (إنهم يسمعون كما تسمعون)[١].

ذلك لأن الإنسان في دار الدنيا إنما يسمع بعضوي السمع، ولكنه من بعد الموت لا يحتاج إلى ذلك العضو، وذلك أن السمع يكون مباشرةً إلى الروح، فالروح هي التي تسمع، ذلك لأن الإذن في دار الدنيا مجرد وسيط لنقل الصوت إلى الروح، وهكذا بقية الأعضاء. فمثلاً لا يتذوق الإنسان إلا بلسانه، ولا يسمع إلا بأذنيه، ولا يتكلم إلا بشفتيه، ولا يبصر إلا بعينيه، ولا يمشي إلا برجليه، ولا يبطش إلا بيديه،.. ولا... ولا... إلا. الخ. فهذه الأعضاء تنقل ذلك إلى الروح. ولهذا الإذن تأخذ الكلام فتميزه، فإن كان نافعاً، أو ضاراً، أو خبيثاً، أوجيداً، أو مفيداً، فإنها تتفاعل من خلال ذلك. فمثلاً إذا كانت الكلمة طيبة يشعر الإنسان من خلالها في داخله بالراحة والسرور، وإذا كانت الكلمة خبيثة فإنها تتحول إلى كتلة من الغضب والهياج في داخل الإنسان، وذلك كله بفعل الروح، فبالتالي الكلمات تنعكس على الأعضاء كلها، ولذلك قالوا: إن الميت إذا فارقت روحه جسده فإن إحساسه باللذة والألم يكون أكثر من إحساسه في الدنيا، لأن الإنسان في دار الدنيا يحس بواسطة أعضاء الجسد، أما من بعد الموت فلا يحتاج إلى تلك الأعضاء، فتصبح الروح مباشرةً تحس، بحيث لم تكن هناك واسطة بينها وبين الأشياء، فلهذا يصبح إحساسها أشد.

يقول الغزالي: يضن الجهّال أن الموت يعدمنا، الواقع أن الموت لا

---

(١) أحكام القرآن ابن العربي ج ٢ ص ٣٨٣، الدر المنثور جلال الدين السيوطي ج ٣ ص ٨٦.

يعدم، وإنما مهمته أن يفرق بين الروح والجسد، فالروح باقية لا يعتريها فناء[1]، ومن هنا كانت مشروعية النداء عند المسلمين، وذلك عندما يوضع الإنسان في قبره، بحيث أنه يخاطب بالتلقين، وتعليلهم في ذلك - أي في مخاطبته - أنهم يقولون أن الروح خالدة لا تموت، إلا أننا لا نراها بالفعل، فقد كنا نراها من قبل في الجسد. بينما هناك تعليل آخر عند الماديين، ولكن قد لا يجزم المسلمون بصحته، وذلك أنهم قالوا: أن بعض الخلايا تبقى ثلاثة أيام بعد موت الجسد. أما الروايات الموجودة عندنا فإنها تقول: أن الروح أحياناً تكون على شفير القبر، ولهذا قال: (فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه[2] مدبرين) وكأنما يخاطبهم: خذوني معكم، وهذا ما ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[3] لأن الإنسان في هذه الحياة سبق وأن جاءته الرسل، وجاءته المواعظ، وأخبرته بأن القضية ليست قضية أيام يعيشها في دار الدنيا وينته أمره، بل أن هناك مطالب من بعد الموت، ولهذا يقول بعض الشعراء:

ولو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شي[4]

وهذا هو الشيء الذي ينبغي علينا أن نعيه، وأن نجعله أمامنا دائماً وأبداً، وأن نتنبه إليه في كل حركة من حركاتنا، لأن مسألة البعث والنشور هي من أبده البديهيات، ولهذا لو كان الإنسان يؤمن بها كما ينبغي، لأصبحت الدنيا

---

(١) وقد قال ﷺ: (ما خلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء وإنما تنقلون من دار إلى دار) انظر بحار الأنوار ج ٦ ص ٢٤٩/ وج ٥٨ ص، ٧٨، الاعتقادات في دين الإمامية الشيخ الصدوق ص٤٧، (توضيح المسائل) فارسي الشيخ وحيد الخراساني ص ٥٤. ، وفي حديث آخر: (خلقتم للأبد وإنما تنقلون من دار إلى دار). حق اليقين ص٣٦٠.

(٢) انظر أحكام الجنائز - محمد ناصر الألباني - ص ١٥٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩ - ١٠٠.

(٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ج ١٤ ص ١٧٧، محاسبة النفس - الشيخ إبراهيم الكفعمي ص ٤٠.

بوجه غير هذا الوجه الذي هي فيه، ولكن البعض قد يأخذها بين الصدق والكذب، وخصوصاً الجاهل، أمّا العالم فلا، لأنه يرى أن الإنسان استطاع أن يغير ما على وجه الأرض، فكيف بخالق الأرض وهو الله تعالى؟ إذاً الآية تؤكد ذلك: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾ فكأنما يقررونهم بهذا الخطاب، لأن أصحاب النار في الدنيا، كانت لهم مقابلة مع أصحاب الجنة. أصحاب النار إذا مروا بمؤمن يمارس شعيرة من الشعائر التي يعتقد بها، يواجهونه بالضحك وبالسخرية على ما يقوم به، بمعنى أنهم يقولون إن هذا مغفل، قد حرم نفسه لذائذ الحياة، بحيث يتصور أنه سيرجع من بعد الموت، فكانوا يرون أنه بليد الحس والإدراك، وقليل الشعور وليس عنده فهم. ولكن في يوم القيامة، الله تبارك وتعالى يجعل المؤمن يقابلهم بالمثل[1]، وهذا ما ذكره القران في قضية نوح عليه السلام: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾[2].

ينقل المؤرخون: أنه كانت لمؤمن الطاق مع أبي حنيفة حكايات كثيرة، منها أنه قال له يوماً: يا أبا جعفر تقول بالرجعة؟ فقال: نعم. فقال له: أقرضني من كيسك هذا خمسمائة دينار فإذا عدت أنا وأنت رددتها إليك، فقال له في الحال: (أريد ضميناً يضمن لي أنك تعود إنساناً فإني أخاف أن تعود قرداً فلا أتمكن من استرجاع ما أخذت مني)[3]. الواقع إن هذه اللغة قد يحتاجها هذا الرجل، وذلك لسخريته واستهزائه، لأن البعض يستنكر ويستكبر رجوع الإنسان من التراب، وهو يرى بأم عينيه عشرات الأدلة.

حكاية[4] يقال أن أبي بن خلف، مر ذات يوم بمقبرة من المقابر، فرفع

---

(١) قال رسول الله: (من استذل مؤمناً أو مؤمنة أو حقره لفقره أو قلة ذات يده شهره الله تعالى يوم القيامة ثم يفضحه). [البحار ج ٧٢ص ٤٤].

(٢) سورة هود، الآية: ٣٨.

(٣) بحار الأنوار ج٥٣ ص ١٠٧، معجم رجال الحديث السيد الخوئي ج ١٨ ص ٣٥.

(٤) أنظر قريب منه في الأمالي - الشيخ المفيد - ص ٢٤٧، الأمالي - الشيخ الطوسي - ص١٩، مناقب آل أبي طالب ابن شهرآشوب ج ١، ص ٥١.

عظماً من عظام أحد الموتى، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ووقف أمامه، ثم أخذ ذلك العظم وفته بيديه، حتى طار في الهواء، ثم التفت إلى النبي ﷺ وقال: اعلم يا محمد إني جئتك بهذا العظم وقد رأيتَ ما صنعتُ به، فهل لك أن تعطيني دليلاً واضحاً كيف أنه سيجمع بعد أن أخذه الهواء؟ تقول الرواية فالتفت إليه النبي ﷺ وقد أخذه الوحي إلى أن فرغ، فتلى عليه الآية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[١] فمن استطاع في أول مرة أن ينشئها، من السهل عليه أن يعيدها إلى الحياة مرة أخرى. أضف إلى ذلك أن العلم يؤكد لنا، أن في جسد الإنسان حياةٌ وموت، ففي كل لحظة من اللحظات خلايا تموت وخلايا تحيى. إذاً فليس كثيراً على الله تعالى أن يعيد الإنسان بصورته الأصلية كما هيه.

بعد ذلك قالت الآية: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معنى ذلك أشعرهم مشعر، لأن الأذان له أكثر من معنى، ألأذان تارةً يأتي بمعنى الإشعار، وتارةً يأتي بمعنى التنبيه، وتارةً يأتي بمعنى الإذن، فلان أذن لفلان - أي أجاز له الدخول - أما المقصود هنا فقد أشعرهم مشعر.

لهذا فإن عندنا أذان الصلاة المعروف، وهو أن المقصود منه أن أنبه غير الملتفت إلى وقت الصلاة، بحيث أخبره أن وقت الصلاة قد حان، ولهذا أختلف المسلمون في كيفية ذلك، فقالوا: إن موضوع الأذان يحتاج إلى وسيلة ميسرة نجمع الناس من خلالها، فماذا نصنع؟ البعض منهم قال: دعونا نعمل كما يعمل المسيحيون، وذلك بأن نضرب لنا ناقوساً، والبعض الآخر قال: دعونا نعمل كما يعمل العرب، العرب إذا أرادوا جمع الناس فإنهم يوقدون النار على المرتفعات. من هنا بدء الاختلاف عند المسلمين، فالإمامية قالوا: إن جبرائيل نزل على رسول الله ﷺ بهذه الصيغة، وهي صيغة الأذان، وأمره أن يأمر أحد المسلمين أن يصعد على مرتفع، وأن يأتي بهذه الصيغ التي

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٧٨ - ٧٩.

عرّفها المسلمين بعد ذلك. بينما المذاهب الأخرى قالوا: إن أحد الصحابة رأى طيفاً في المنام، والطيف قال له اعملوا هكذا.

ولكن الشيء الذي يجب أن نلتفت إليه في موضوع الأذان، هو أن الأذان مستحب، ولهذا يقول العلماء: إذا أضيف إليه شيئاً لا يقدح فيه، فمثلاً عندما يضاف إليه من قبل المذاهب الإسلامية لفظ التثويب، بعد أذان الفجر، - بأن يقال الصلاة خير من النوم - أو أن يضاف إليه من قبل الشيعة عبارة أشهد أن علياً ولي الله، فإن هذه الإضافة لا تقدح في الأذان، بل أنها توضح مفهوماً لمضمون آية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ ذلك لأن عشرات الروايات تؤكد أنها نزلت في علي بن أبي طالب، إلا أنه - وللأسف الشديد - حدث ذلك الصراع الفكري بين المسلمين، مما جعل البعض ينكر ميزات البعض الآخر، فحدثت من خلاله ردت الفعل، ذلك لأن كل فعل له في المقابل ردة فعل. فالقسم الأول أراد أن يؤخرها، بينما جاء القسم الثاني وأثبتها. أثبتها بأن جعلها في الأذان، والحال أنها لا تقدح، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي إقرار لمضمون الآية، لأن معظم كتب الحديث والتفسير قالت أنها نزلة في الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أما إذا رأيت البعض ينكر ذلك فإنكاره ليس عن علم، وإنما عن عصبية، والعصبية يجب أن لا تكون في الإطار العلمي أو العقيدي، لأن ذلك يؤدي بالأمة إلي ما لا يحمد عقباه، وهذا ما حصل بالفعل. الغرض نعود إلى موضوع الأذان، الأمامية قالوا: نزل جبرئيل بصيغ الأذان، بينما المذاهب الأربعة قالوا: إن أحد الصحابة[1] رأى طيفاً في المنام، والطيف أمره بذلك. - أي علمه صيغ الأذان - فجاء وقص ذلك على النبي صلى الله عليه وآله، والنبي استحسن ذلك وأمرهم بأن يعملون به[2]. بمعنى أن هذا الحكم أخذه النبي صلى الله عليه وآله من الطيف، وهذا القول من المهازل، فصاحبه يدَّعي أن المسلمين أخذوا الأذان من الحلم، وعلى ذلك سوف يُفتح الباب أمام ما لا يحمد

---

(١) هو عبد الله بن زيد بن عبد ربه.

(٢) مسند أحمد ٤: ٤٣.

عقباه، فقد يأتي من يقول لنا: إن دينكم هذا مبني على الأحلام. فالأذان مستحب، والاستحباب حكم من الأحكام الشرعية التكليفية الخمسة وهي: الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة والإباحة[1]. فعموماً وردت روايتين عند المسلمين، ولكن هذا الأمر لا يعنينا في هذا الباب إنما يعنينا قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بمعنى أن القرآن الكريم ذكَّرهم بما استوجب دخولهم النار، وهنا أيضاً لنا أن نسأل من هو هذا المؤذن الذي تُعطى له هذه الصلاحية؟ يقول المفسرون[2]: لا يستفاد من الآية شيئاً في هذا المجال، ولكن جاء في الأحاديث الإسلامية المفسرة والموضحة لهذه الآية، تفسير المؤذن بأمير المؤمنين علي عليه السلام فقد روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني وهو من علماء أهل السنة بسند عن محمد بن الحنفية عن علي عليه السلام أنه قال: (أنا ذلك المؤذن).

وهكذا روى بسنده عن ابن عباس أن لعلي عليه السلام أسماء في القرآن الكريم لا يعرفها الناس منها المؤذن في قول الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ فهو الذي ينادي بين الفريقين أهل الجنة وأهل النار ويقول: (ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي)[3]. وقد رويت روايات وأحاديث متعددة مماثلة بطرق الشيعة، منها ما رواه الصدوق بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بالكوفة منصرفه من النهروان، بعد أن بلغه أن معاوية يسبه ويعيبه ويقتل أصحابه فقام خطيباً - إلى أن قال - وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة قال الله عز وجل: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنا

---

(١) فالأذان وإن كان مستحباً لكنه حكم شرعي والحكم الشرعي لا يؤخذ من الطيف. ولهذا لو رجعنا إلى فقهاء المسلمين لوجدناهم يبذلون الجهود المضنية في تحصيل الحكم الشرعي، فهم يمحّصون الروايات سنداً ومتناً، ويجمعون بينها، ويتبعون القواعد الخاصة بهذا العلم في عملية معقدة لا يعرفها غيرهم. فالحكم الشرعي حكم الله، وحكم الله لا يؤخذ من الطيف.

(٢) ومنهم الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في كتابه الأمثل ص٥١.

(٣) مجمع البيان عند الآية المطروحة هنا.

ذلك المؤذن. وقال: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾[(١)] وأنا ذلك الأذان[(٢)]. ولهذا يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي عند تفسيره لهذه الآية في كتابه [التفسير الأمثل] صفحة (٥١) قال: ونحن نتصور أن السبب في انتخاب أمير المؤمنين علي عليه السلام مؤذناً ومنادياً في ذلك الوقت هو:

أولاً: لأنه كان له مثل هذا المنصب من قبل الله والنبي صلى الله عليه وآله في دار الدنيا أيضاً، فهو بعد فتح مكة كلف من جانب الله بأن يتلو الآيات الأولى من سورة البراءة على مسامع الناس بصوت عال في موسم الحج، تلك الآيات التي تبدأ بقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾[(٣)].

ثانياً: إن موقف الإمام علي عليه السلام طوال حياته الشريفة كان موقف المكافحة للظلم والنضال ضد الظالمين، حتى أن دفاعه عن المظلوم وعداءه للظالم وخاصة مع ملاحظة ظروف عصره لتسطع في الصفحات البارزة من تأريخه. ثم يقول: أفليست الحياة في العالم الآخر هي نوع من تجسم كبير وواسع ومتكامل لحياة البشر في هذا العالم؟ وكلاهما بالتالي وجهان لعملة واحدة.

فإذا كانت هذه حقيقة من الحقائق لم يبقى أي مجال لاستغراب أن يكون مؤذن ذلك اليوم، والذي يلعن الظالمين في مكان بين الجنة والنار، بأمر من الله والنبي صلى الله عليه وآله هو علي عليه السلام [(٤)]. فعموماً القرآن الكريم يبين لنا صورة واضحة لمن يستوجب الدخول إلى النار، ألا وهي نتيجة الظلم، فهؤلاء لمن كانوا ظالمين؟ لغيرهم أم لأنفسهم؟ لأن الإنسان تارةً يظلم غيره، وتارةً يظلم نفسه، بمعنى أنه يبعدها عن المناخ الذي جعلها الله فيه، فبدلاً من أن يختار لنفسه المناخ الطيب، يختار لنفسه المناخ الخبيث، ومن ثَم كان أمير

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣.

(٢) تفسير البرهان ج٢، ص١٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣.

(٤) انتهى كلامه.

المؤمنين عليه السلام يحذر من ذلك فكان يصعد على المنبر ويقول: (عباد الله، الله الله في أعز الأنفس عليكم، وأحبها إليكم؛ فإن الله قد أوضح لكم سبل الحق وأنار طرقه)[١]. فأعز الأنفس على الإنسان نفسه التي بين جنبيه، ليس هناك أعز من النفس. فلهذا أمير المؤمنين كأنما يقول لهم ارحموها، ولا تكونوا سبباً لإدخالها النار، فما دام الاختيار بأيديكم فلا تسيؤوا الاختيار. (الله الله في أعز الأنفس عليكم). إذاً نفهم من الآية الكريمة أن هؤلاء الذين كنا نسميهم أمواتاً، أنهم لا شك يسمعون، إلا أنه كلما هنالك في الأمر أن الروح فارقت الجسد، وهذا بالنسبة إلى الشخص العادي، إذاً فما بالك بالشهيد؟ واقعاً الشهيد له حياة تفوق حياة الناس العاديين، ولذلك القرآن الكريم يُثبت الحياة لشهداء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢]. فلهذا ما تعتقده الإمامية في أئمتهم هو عين الصواب، ولا يعتريه ريب ولا اشكال. لأنه منبثق من منهج القرآن الكريم، فمثلاً عندما يقف الواقف على ضريح الإمام الحسين ويخاطبه قائلاً: (أشهد أنك تسمع كلامي وترد جوابي)[٣] ذلك لأن الإمام الحسين عليه السلام حيٌّ عند ربه يرزق، ولهذا شهداء ألطف مكثوا على الأرض ثلاثة أيام بلياليها، الشمس تصهرهم، والرمال تسفي عليهم، ولكن هل أن هناك مؤرخ من المؤرخين قال بأن شهداء ألطف حدثت فيهم رائحة نتنة؟ كلا، وألف كلا، بل نجد العكس، يقول المؤرخون: كانت أجسادهم كأن فيها رائحة المسك، علماً بأنهم قتلوا في شهر تموز، وهو من الشهور المعروفة بشدة الحرارة، ومن المعروف أن الميت إذا بقاء جسده فترةً طويلة لم يوارى الثرى، وهو معرض للشمس تحدث فيه رائحة كريهةً، يتأذى منها من يمر به من الأحياء، ولكن لم يذكر لنا التاريخ أنه حدث فيهم شيء منفر، بل كانت أجسادهم يشع منها النور إلى عنان السماء، إلى أن جاءهم الإمام زين العابدين عليه السلام وذلك

---

(١) نهج البلاغة: من خطبة له يحث الناس فيها على التقوى ص ٢٥٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٣) رسائل المرتضى - الشريف المرتضى - ج ١، ص ٤٠٧.

بعد مقتلهم بثلاثة أيام، وأول ما وقف، وقف على جسد أبيه الحسين عليه السلام قائلاً: (طوبى لأرض تضمنت جسدك الطاهر، فإن الدنيا بعدك مظلمة، والآخرة بنورك مشرقة، أما الليل فمسهد، والحزن سرمد، أو يختار الله لأهل بيتك دارك التي فيها أنت مقيم، وعليك مني السلام يابن رسول الله صلى الله عليه وآله ورحمة الله وبركاته)(١). يقول مَن حضر من بني أسد: رأينا رجلاً أقبل علينا كهيئة الراكع، فلما نظر إلينا قال: ما الذي يوقفكم هنا؟ يقول: نحن حسبناه من عيون ابن زياد، فقلنا له جئنا لنتفرج على هذه الأجساد، قال: كلا، حدثوني بما انطوت عليه سرائركم؟ يقول: فقلنا له ولنا الأمان؟ قال: ولكم الأمان، قلنا له: جئنا إلى دفن هذه الأجساد الطاهرة. قال: إذاً ما الذي أخركم عن ذلك، لماذا لا تباشرن الدفن؟ قلنا له: لا ندري ماذا نصنع لأن أجساد القوم كلها أجساداً بلا رؤوس، وغداً نسأل لمن هذا القبر، ولمن هذا القبر، فبماذا نجيب؟ قال: فمضى عنا إلى أن وصل إلى جسدٍ قد قطعته السيوف والرماح، فألقى بنفسه عليه، ثم أحتضنه ووضع فمه على نحره وراح يشبعه لثماً وتقبيلا، عند ذلك وضع بارية كانت على ظهره، ثم أخذ يجمع فيها أوصال ذلك الجسد، يقول ذلك الرجل: دنونا إليه، قلنا له سيدنا هل نعينك على حمله، قال: لا، لا، إن معي من يعينني، ثم حمل ذلك الجسد وأنزله إلى القبر، وجلس على شفير القبر يؤبنه ويغمر نحره بدموع عينيه. بعد ذلك قام يبحث عن شيء في المعركة، نظرنا وإذا به قد رفع رضيعاً لم يصل إلى سن الفطام، أقبل به وضعه إلى جانب ذلك الجسد، يقول: أحد الفضلاء لأن كلمة الحسين كانت ترن بإذنيه (بني علي، بني علي، وسّد رضيعي إلى جنبي)، ثم خرج يبحث عن شيء آخر يقول من حضر نظرنا إليه وإذا بها كف الحسين المقطوعة الإصبع، جاء بها ووضعها في تلك البارية(٢).

---

(١) بلاغة الإمام علي بن عليه السلام - جعفر عباس الحائري - ص ٢٣٤، موسوعة شهداء المعصومين عليهم السلام لجنة الحديث معهد باقر العلوم عليه السلام ج ٢، ص ٢٩٨.

(٢) إن هذه الخاتمة كانت لمسات من الخيال عما دار بين الإمام زين العابدين وبين بني أسد عندما جاءوا لمواراتهم. وأما نص ما جاء في كتب السير فمنها على سبيل المثال يقول=

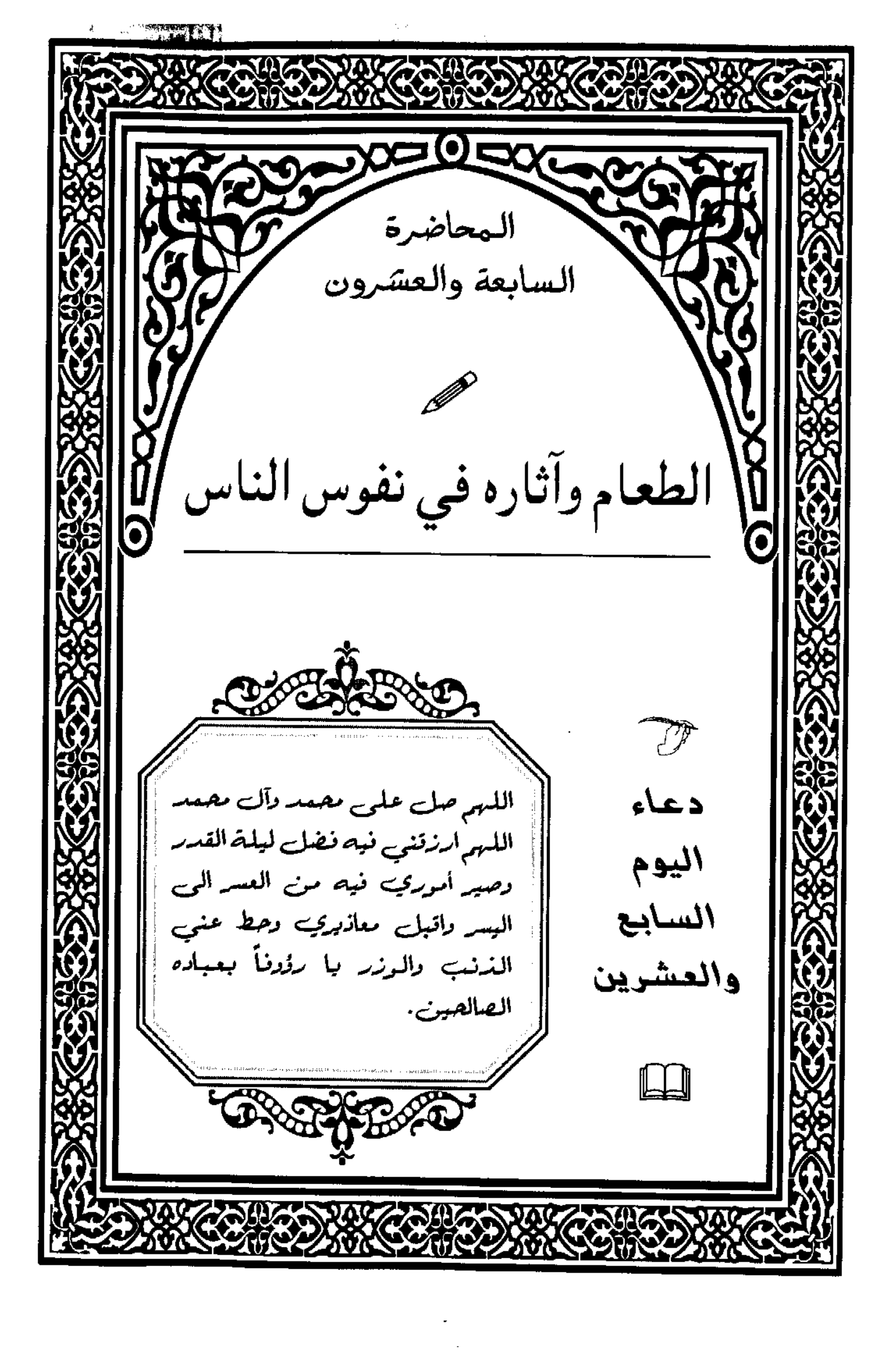
من وصل للغاضرية ازداد همه والحزن
شاف أبوه مقطع أوصاله طريح بلا كفن
راح جاب كفه الايمن خاليه من خنصره
راح للخنصر يدوره شاف جبده امهبره
جمع أوصال الجسد لمهبرة والمكسرة
لف عليه البارية وصارت له تابوت وجفن
نزله في الحفرة الطيبه جسد من غير راس
عقب ما صلى عليه وقبله وصعد انفاس
صاح يابه انطحن جسمك من حوافر هالافراس
لكن أحييت الفرائض والنوافل والسنن
ذبحتك شنعاء عجيبه ما جرى امثلها ولا صار
مثلوا بك يا عزيزي وفي الخيم شبوا النار

= المقرم: ولما أقبل السجاد عليه السلام وجد بني أسد مجتمعين عند القتلى متحيرين لا يدرون ما يصنعون ولم يهتدوا إلى معرفتهم وقد فرق القوم بين رؤوسهم وأبدانهم وربما يسألون من أهلهم وعشيرتهم! فأخبرهم عليه السلام عما جاء إليه من موارات هذه الجسوم الطاهرة وأوقفهم على أسمائهم كما عرفه بالهاشميين من الأصحاب فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وسالت الدموع منهم كل مسيل ونشرت الأسديات الشعور ولطمن الخدود. ثم مشى الإمام زين العابدين إلى جسد أبيه واعتنقه وبكى بكاءاً عالياً، وأتى إلى موضع القبر ورفع قليلاً من التراب فبان قبر محفور وضريح مشقوق، فبسط كفيه تحت ظهره وقال: «**بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله صدق الله ورسوله ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم**». وأنزله وحده لم يشاركه بنو أسد فيه وقال لهم: إن معي من يعينني. ولما أقره في لحده وضع خده على منحره الشريف قائلاً: «**طوبى لأرض تضمنت جسدك الطاهر، فإن الدنيا بعدك مظلمة، والآخرة بنورك مشرقة، أما الليل فمسهد والحزن سرمد، أو يختار الله لأهل بيتك دارك التي أنت بها مقيم، وعليك مني السلام يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته**». وكتب على القبر: «**هذا قبر الحسين بن علي بن أبي طالب الذي قتلوه عطشانا غريباً**».

سيرونا على الهوازل شهرونا في الامصار
يضرب ابن ازياد راسك والنسا تبجي وترن
يا جماعه ساعدوني وادفنوا هذا الغريب
شبل طه وفاطم الزهراء النجيب ابن النجيب
صاحب الهيبة العليه وصاحب الرحل النهيب
بالمساحي اعلى القبر زفوا الترب فوق اللبن
عقب دفنه راح للمسنات وادموعه تهل
صاح يا عمي قضيت الفرض كله والنفل
وين كفينك يعمي اشعبتني يا بو الفضل
دفن عمه وقعد عنده يجذب الونه ويحن[١]



(١) النصرة المهدية للمرحوم ملا مهدي الشهابي ج ٢، ص ٩٧.



المحاضرة
السابعة والعشرون

الطعام وآثاره في نفوس الناس

دعاء اليوم السابع والعشرين

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم ارزقني فيه فضل ليلة القدر
وصير أموري فيه من العسر الى
اليسر واقبل معاذيري وحط عني
الذنب والوزر يا رؤوفاً بعباده
الصالحين.



٢٧

الطعام وآثاره في نفوس الناس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١).

❋❋❋

الآية الكريمة تناولت موضوعين من المواضيع المهمة في حياة الإنسان، ألا وهما الغذاء المادي والغذاء الروحي، ثم تحدثت عن البناء التصاعدي الذي يترتب من خلالهما في العقيدة الإسلامية، وقبل الدخول في مضامين ما تناولته هذه الآية الكريمة، سنشير أولاً إلى سبب النزول.

يقول المفسرون: إن الآية الكريمة نزلت تتحدث عن مطالب قُدمت إلى نبي الله عيسى عليه السلام من قومه، وذلك أن نبي الله عيسى عليه السلام منذ أن بعث كان يتنقل في الصحراء من مكان لآخر، بحيث لم يهيء له بيتاً مبنيٍّ يسكنه، وفي أثناء تنقلاته تتبعه مجموعة من الناس يقدرون بالآلاف، إلا أنهم لم يكونوا على هدف واحد، وإنما كانت أهدافهم تنقسم إلى أقسام، منهم من يطلب الاستشفاء، كالأكمه والأبرص، وهذا المعنى الذي ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٣.

مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. إلى غير ذلك من الآيات التي تؤكد هذا المعنى. القسم الثاني: يتبعه لطلب المعجزة، القسم الثالث يتبعه للاستهزاء، وهذه الشريحة كانت ملازمة للأنبياء من قبل، وكذلك فيما بعد كانت ملازمة للنبي ﷺ. ففي يوم من الأيام خرجوا معه إلى أن انتهوا إلى مفادة (صحراء)، فاشتد عليهم الجوع والعطش، فجاؤوا إلى الحواريين وقالوا لهم: قولوا لعيسى عليه السلام أن يسأل ربه أن يُنزّل علينا مائدة من السماء، فجاء الحواريون إلى عيسى وقالوا له: إن قومك يطلبون منا أن نكلمك بأن تسأل الله تعالى أن يُنزّل عليهم مائدة من السماء، فقال لهم عيسى عليه السلام: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، كما ذكر القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]. أي أنهم ليسوا في حاجة لأن يطلبوا منه، فقد يعطيهم ذلك دون أن يبدأوا، فرجعوا وأخبروهم بما قال عيسى عليه السلام، فقالوا: كلا. نحن عندما سألناه نزول المائدة أردنا عدة أمور.

الأمر الأول: لقد اشتد علينا الجوع فنريد أن نأكل. **الأمر الثاني**: نريد أن تطمئن قلوبنا. **الأمر الثالث**: كي نعلم أنه صادقٌ معنا. **الأمر الرابع**: حتى نكون على رسالته من الشاهدين. هذه الأمور لخصتها الآية الكريمة فقالت: ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ودعنا نرى عمق هذه الأمور، بمعنى أنه لابد من وقفة تأملٍ مع هذا النص الشريف، حتى نتعرف على أسلوب القرآن الكريم في توصيل المعاني إلى الناس، وذلك بهذا الأسلوب السلس ومدى إيجازه، وما هي الأمور التي ذكرتها الآية، وكيف رتبت بعضها على بعض. فعندما نلاحظ أسلوب القرآن الكريم في طرح المفاهيم نجد أنه المعجزة الخالدة، التي تعالج قضايا الناس ومشاكلهم. وهذا قد أمرنا به جلياً، لأن الروايات تدفعنا إلى ذلك، يقول الإمام علي عليه السلام: (ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٢.

ليس فيها تفقه)[1]. ومعنى التدبر هو التفهم، بمعنى أن نتفهم إلى معانيه، لأن القرآن الكريم يحتوي على معاني ومضامين متعددة وكبيرة، وهذه المعاني تستدعي التأمل فيها، ومن جملة تلك المعاني والمضامين التي تحتاج إلى تأمل وتدبر هو ما جاء في هذه الآية الكريمة، أولاً أنها تحكي طلب مَن كانوا مع عيسى عليه السلام: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ فماذا نفهم من هذا النص؟ واقعاً نفهم أن الإنسان يحمل في داخله غرائز متعددة وكثيرة، وبالإضافة إلى كونها متعددة وكثيرة، أيضاً تحمل طابع مهم في تحريكه، إلا أن بعضها ملح وبعضها غير ملح، فمثلاً من جملة الغرائز التي يحملها الإنسان هي غريزة الأنانية، بمعنى أن البعض من الناس يُحب من الآخرين أن يبجلوه وأن يحترموه، وخصوصاً المتكبرين في الأرض، الكثير منهم يريد أن توضع عليه أوسمة شرف وإن كان منهم من لا يستحقها في الواقع، إلا أن هذه الغريزة وهي غريزة الأنانية التي تكون عند البعض مهمة، لا تكون بنفس الدرجة من الأهمية بالنسبة إلى غريزة الجنس، فغريزة الجنس إلحاحها أكثر بكثير.

إذاً فالغرائز منها المهم ومنها الأهم عند الناس، وإذا عرفنا ذلك، دعنا نرى ما هي أكثر الغرائز إلحاحاً، الواقع إن أكثر الغرائز إلحاحاً هي غريزة الطعام، لأن الإنسان قد يحتاج إلى اللباس، ولكن قد يكون ذلك في السنة مرة أو مرتين، كذلك يحتاج إلى الأمور الأخرى ذات العلاقة بالجسد، إلا أن ذلك لا يكون بمقدار حاجته إلى الطعام والشراب، فغريزة الجوع هي الغريزة الملحة دائماً، وهي التي يومياً يحتاجها الإنسان، فإذا أصبح عليه الصباح يريد الطعام، وإذا جاءه المساء أيضاً كذلك. فقد تكون في اليوم ثلاث إلى أربع وجبات عند البعض، من هنا قالوا: إن المعدة لها صوت لا يعلو عليه صوت قط، ولا يمكن أن يتصور أحد من الناس، أن هناك صوت أقوى من صوت المعدة، المعدة تحتاج إلى الطعام، وتحتاج إلى الشراب، ولهذا إذا لم تملؤ

---

(١) البحار ج٩٢، ص٢١١. وعنه عليه السلام: (تدبروا آيات القرآن واعتبروا فإن فيها أبلغ العبر). [غرر الحكم].

المعدة لا يستطيع الإنسان أن يقوم بأي عمل من الأعمال، ولهذا يقول الأعسم[١] في أرجوزته:

الفضل للخبز الذي لولاه ما كان يوماً يعبد الإله[٢]

جاء بمعنى الحديث الشريف الذي ورد عن النبي ﷺ: (اللهم بارك لنا في الخبز ولا تفرق بيننا وبينه فلولا الخبز ما صمنا ولا صلينا ولا أدينا فرائض ربنا)[٣] فالطعام مسألة مهمة في حياة الإنسان، بحيث لا يمكنك أن تأتي إلى صاحب المعدة الخاوية وتأمره بالاستقامة ما لم تُشبعه، فصاحب البطن الخاوية لا يعرف الاستقامة، ولا يعرف الخلق، ذلك لأن الجوع قد يدفعه دفعاً لارتكاب الجريمة، فإذا لم تسد حاجاته من الطعام من المستحيل أن يكون فاضلاً أو أن يكون مؤدباً، فإبعاده عن الجريمة يتوقف على إشباع المعدة، هذه نظرية يقولها علماء الأخلاق، فهي موجدة عند الإنسان وكذلك عند الحيوان على حد سواء، فإذا ما رجعت إلى الحيوان، تجد أن الحيوان إنما يفترس إذا جاع، أما إذا شبع فلا يفترس، - هذا ما يقوله علماء الحيوان-، كذلك الإنسان من العوامل التي تساعده على ارتكاب الجريمة هو الجوع، فلا نستطيع أن نهيء الإنسان بأن يكون أرضية صالحة للفضيلة ما لم نشبعه، ولهذا قالوا إن الكلام معه - بدون إطعامه - يعتبر حينئذ فضول. يقول أبو ذر: (**إني لأعجب ممن يدخل إلى بيته فلم يجد قوتاً لم لا يخرج شاهراً سيفه**) وهذا هو الواقع، لأن الإنسان إذا لم يحصل على الطعام المهم في حياته، فإنه يتصور أن المجتمع بأجمعه هو الذي قام بسرقته، فلا يضع اللوم على فرد دون آخر، بمعنى أنه يقول: لماذا تأكل الناس وأنا لا آكل؟ فيحمل المسؤولية الجميع، عندها يخرج وهو ساخط على الدنيا، فالأهمية في

---

(١) هو عالم من علماء النجف الاشرف وشعرائها له منظومات في الفقه والعربية، توفي سنة ١٢٤٧.

(٢) الشيعة في الميزان محمد جواد مغنية ص٣٦٣.

(٣) الوسائل ج١٢، ص١٦ الحديث ٢١٨٩٥.

الدرجة الأولى هي إشباع المعدة، لأنها هي التي تتحكم مبدئياً في سلوك الإنسان.

إلا أنه قد يقول قائل ليس بالطعام وحده يحيى الإنسان، حيث أن الإنسان لم يكن معدة فحسب؟. وهذا صحيحٌ قطعاً، لأن الإنسان بالإضافة إلى كونه جسداً، هو أيضاً روح وعقل، إلا أن الطعام يستأثر بالمساحة أو بالحجم الأكبر من سلوك الإنسان، فآدمية الآدمي لا تُحفظ بدون الطعام، فإذا أردت الفرد أن يكون مستقيماً ومتعلماً ومتمسكاً بآداب الفضيلة فهيء له سبل العيش، حتى توفر له المناعة عن الانهيار، يقول الشافعي: لا تشاور من ليس في بيته دقيق لأنه موله العقل[1]. الشخص الذي لا يوجد في بيته شيء من الطعام يأكل منه، لا شك أنه فاقد للتوازن، ولهذا قالوا: إن الشعوب الذي يفتك بها الجوع رأساً تفتك بها الجريمة، بحيث يصبح الإنسان أرضية مؤهلة للجريمة، ومن ثَم أول شيء عالجه الإسلام هو إشباع المعدة، القضاء على الفقر[2].
ولهذا كان العلاج لهذه القضية عند النبي ﷺ وعند الأئمة على نوعين: **النوع الأول**: الحث على العمل، **والنوع الثاني**: تهيئة أفراد المجتمع على مساعدة بعضهم البعض، وذلك في حال قصور بعض أفراده عن العمل. ينقل أن رفقة كانوا في سفر، فلما قدموا قالوا: يا رسول الله ما رأينا أفضل من فلان، كان يصوم النهار، فإذا نزلنا قام يصلي حتى نرحل، فقال رسول الله ﷺ: من كان يمهد له ويكفيه، ويعمل له؟ فقالوا: نحن، قال: كلكم أفضل منه[3].
ذلك لأن عليه أولاً أن يعرف أن من جملة العبادات الكسب، عليه أن يكتسب ويهيأ نفسه ويأكل من كده ومن عرقه، لأنه لا يوجد طعام أفضل من أن يأكل الإنسان من كد يده، لأن ذلك الطعام يأكله الإنسان ومعه شعور بالكرامة، بحيث يشعر أنه ما مد عنقه لشخص آخر، وإنما أعتمد على الله وعلى كد يده.

---

(١) الانتقاء بن عبد البر ص٨٧.
(٢) قال النبي ﷺ: إن الله يحب العبد المؤمن المحترف. (كنز العمال خ٩٢٠٠).
(٣) جامع أحاديث الشيعة السيد البروجردي ج ١٦، ص ٤٩٤، مستدرك الوسائل الميرزا النوري ج ٨، ص ٢٢٠.

إذاً الآية الكريمة أشارة إلى القاعدة الأساسية قالت: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ فمبدئياً الأكل، ومن ثَم عبروا عن هذا الأمر بالوثيقة الأولى التي كتبها الله تعالى لأبينا آدم عليه السلام لما أدخل إلى الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾[(١)]. الوثيقة الأساسية أنك لا تجوع، فطعامك مكفول، ولهذا كان الإمام الصادق عليه السلام يقول: (النفس إذا أحرزت معيشتها اطمأنت[(٢)] وذلك عندما دخلوا عليه جماعة، فرأوه يشتري الطعام الكثير الذي لا يُستهلك في يوم أو يومين، فقال له: أحدهم في ذلك، سيدي نراك تجمع الطعام الكثير، ألا يكفي التوكل على الله؟ قال: بلا. ثم ذكر لهم الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وآله: (لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطيور، تغدوا خماصاً وتروح بطانا)[(٣)]. فالتوكل قد يكفي ولكن بالأسباب التي أمر الله تعالى بها، وذلك لكي لا تبقى النفس قلقه، فالإنسان إذا أحرز قوته موجوداً عنده، هذا لا ينافي التوكل، ذلك أن الله تعالى أمر الإنسان بتهيئة الأسباب، لأن الله عز وجل عندما خلق الإنسان خلقه بتخطيط، ومن التخطيط أن يعد الإنسان للمستقبل، فالإنسان حيوان عاقل، والحيوان العاقل من المفترض به أن يفكر في المستقبل، فليس خلاف التوكل أن يكون الإنسان مهيئاً لطعامه وشرابه، لأن الإنسان إذا هيأ الطعام، هي لنفسه المناعة، أما إذا ترك نفسه جائعة، فقد جعل نفسه عرضةً للانهيار. إذاً الحاجة الأولى أشارة إليها الآية: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾.

ثم انتقلت الآية قالت: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ معنى ذلك أنه إذا أكلنا يحصل لدينا الرضا والاطمئنان. يقول المفسرون: فدعى لهم عيسى عليه السلام فنزلت المائدة فكانت المائدة سبباً في اطمئنانهم، ولهذا أصبحوا بعد ذلك مطمئنين، ونظير نزول هذه المائدة من السماء، حادثة ذكرها المؤرخون قد حصلت في

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٨.
(٢) تحف العقول: ٣٥٢، ونسبه في الكاف ٥: ٨٩/٣، والعلل - ابن حبل - ٣: ٤٠٢/ ٥٧٧٤. وغيرهما لسلمان رضي الله عنه.
(٣) جامع السعادات ج٣، ص٢٢١.

بيت النبي ﷺ وذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: دخلت السوق فابتعت لحماً بدرهم وذرة بذرهم، فأتيت به فاطمة عليها السلام حتى إذا فرغت من الخبز والطبخ قالت: لو دعوت أبي، فأتيته وهو مضجع وهو يقول: أعوذ بالله من الجوع ضجيعاً. فقلت له: يا رسول الله إن عندنا طعام، فقام واتكأ علي ومضينا نحو فاطمة عليها السلام فلما دخلنا قال: هلم طعامك يا فاطمة، فقدمت إليه البرمة والقرص، فغطى القرص وقال: اللهم بارك لنا في طعامنا. ثم قال: أغرفي لعائشة فغرفت، ثم قال: أغرفي لأم سلمة فغرفت، فما زالت تغرف حتى وجهت إلى نسائه التسع قرصة قرصة ومرقاً. ثم قال: أغرفي لأبيك وبعلك، ثم قال: أغرفي وكلي واهدي لجاراتك، ففعلت وبقي عندهم أياماً يأكلون، من ذلك الطعام، كل ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ [١].

وهذا المعنى تناوله بعض الأدباء فقال:

ياكساءً ببيت فاطم ضم الأهل	في يوم موقف مشهود
والبتول الزهراء تعد لطفليها	سخاباً في خيطه المشدود
وعلي سقى بعيلات نخل	وأتى أهله بقوت زهيد
بيد ممسك ببعض تميرات	وأخرى بحزمة من جريد
أكلوا والنبي في دعوات	خاشعات بلهفة وهو جود
إيه آل النبي ما مثل هذا	من فخار بطارف أو تليد
أين كسرى وأين قيصر من هذا	على كل ما لهم من رصيد

فالرصيد الروح هو الاطمئنان، الذي يتركه الطعام في نفوس الناس، فالإنسان تتحقق عنده المناعة إذا شبع، أما إذا جاع فلا تتحقق، وخير شاهد على ذلك هو ما نجده في التاريخ، التاريخ يحدثنا عن أناس صرعتهم المعدة، وذلك أنهم آمنوا بأشياء لولا الجوع لم يؤمنوا بها، ففي تاريخ الشعوب ترى الكثير ممن لوح إليهم البعض بالرغيف، فطاردوا خلفه، ولكن النتيجة أنهم لم

---

(١) روى نحوه الراوندي في الخرائج والجرائح١: ١٣٨/ ٢٢٤، والطبرسي في أعلام الورى: ٤٢، ونقله المجلسي في بحاره ١٧: ٢٣١/ ١.

يحصلوا على شيء، وأصبحت أتعابهم كأدراج الرياح، لأن الجائع من شأنه أن يطارد. ولهذا قريش في بدء الدعوة الإسلامية كانوا يتصورون هذا المعنى، وذلك بالنسبة إلى مَن تبع النبي ﷺ، حيث أنهم رأوا إلى جانبه تلك المجموعة من الفقراء - وهم الرواد الأوائل من المسلمين - [رضوان الله عليهم]، وكان من جملتهم على سبيل المثال، بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وعمار بن ياسر، وياسر وسمية، أمثال هؤلاء الذي تبعوا النبي مبدئياً، فأقبل أحد الجبابرة إلى النبي قائلاً له: يا محمد نحن نريد أن نستمع إلى قرآنك، ولكن الذي يمنعنا هو أننا لا نملك استعداداً لأن نجلس مع هؤلاء، لأنهم لم يأتوا عن مبدأ، ولم يأتوا لسماع القرآن، وإنما سمعوا بقوتك، فأرادوا أن يحصلوا على طعام ولباس، فوضعهم مزرٍ، حيث إن رائحتهم كريهة، وملابسهم عادية، وليسوا من بيوت معروفة، فلا يناسبنا أن نجلس معهم، فاطردهم حتى نستطيع أن نجلس معك، ونستمع إلى قرآنك[1].

وفي عبارة أخرى قالوا له: هل تتصور أن هؤلاء تبعوك عن وعي؟ إن هؤلاء إنما تبعوك لأجل الرغيف الذي ذكرته لهم، حيث قلت لهم أن الدنيا ستدر عليكم فتبعوك، فأطردهم عنك، فقال النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. الغرض أن جبابرة قريش تصوروا أن هذه المجموعة كغيرها من الناس، والحال أن هذه المجموعة وهم الرواد الأوائل من المسلمين تحملوا من أجل دعوة النبي الجوع، وتحملوا العذاب وتحملوا التشريد وتحملوا أشياء كثيرة، إذاً فالجوع لم يكن سبباً من الأسباب في دفعهم للالتفاف حول دعوت النبي، وإنما دفعهم الوعي للالتفاف حول دعوة الإسلام، إلا أن الكثير من الناس صرعهم الجوع، وجعلهم منحرفين، فباعوا

---

(١) تفسير جوامع الجامع ١: ٥٧٣، تفسير القرآن العظيم٣: ٣٥٣.

(٢) قريب منه بحار الأنوار ج ١٧، ص ٤١، الفتح السماوي - المناوي - ج ٢، ص ٦٠٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

دينهم وكرامتهم، والتاريخ مليء بأمثال هؤلاء. فلذلك الآية رتبت الموضوع على هذا النحو من التدرج، أولاً: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ الشيء الأول نريد أن نسكت نداء المعدة، وإذا أسكتنا نداء المعدة، بعد ذلك نفسح المجال إلى صوت العقل، الإنسان من بعد أن يشبع، بماذا يفكر؟ واقعاً يفكر بالحاجة الروحية، يشعر حينئذ بالجوع الروحي، ولهذا قالت الآية: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ إذاً تكون مرتبة الاطمئنان بعد مرتبة إشباع المعدة.

بعد ذلك انتقلت الآية فقالت: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ هذا المقطع ماذا نفهم منه؟ الواقع كأنهم قالوا له: يا عيسى إنك تدعو إلى الله، وتقول أنك رسولٌ من الله، فإذا كان الأمر كذلك، عليك حينئذٍ أن تقدم لنا برهاناً على ذلك، فما هو الدليل على أنك ممثل للسماء، لابد من شيء تأتينا به يكون نادراً ولا يستطيع أحد منا أن يأتي بمثله، لأنه لو كان من الدّعاء وقال بأنه نبي، صُدق، لما تورع الكثير من أن يقول ذلك، فلا بد إذاً من دليل وبرهان يُستدل به على صحة نبوة المدعي، ولهذا طلبوا من عيسى أن يثبت لهم ذلك بمعجزة، فماذا نفهم من هذا؟ نفهم أن المعجزة سلاح الأنبياء، فبمقدار ما يتحقق صدق دعوة النبي، وتنتهي نبوته، ينته دور تلك المعجزة، ولهذا قالوا: المعجزة شذوذ، فأول ما يُبعث ويَطلب من الناس أن تصدقه في دعوته، الناس حينئذ تريد أن تعرف مدى صدقه في ذلك، حتى تتبعه، فيلجئون إلى طلب المعجزة، لأن البرهان القاطع في صدق دعوى النبي هي المعجزة، التي يعجز بقية الناس عن الإتيان بمثلها، فعندما نرجع إلى معاجز الأنبياء الذين اتخذوا منها وسيلة لإيمان الناس بهم، نجدها كثيرة، وقد ذكر بعضها القرآن الكريم، ولهذا نجد أن لكل واحد من الأنبياء معجزة تختلف عن الآخر، وفي نفس الوقت تتناسب مع زمانه، فمثلاً معجزة موسى عليه السلام هي أن فلق الله البحر، وأهلك الله فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ

ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾(١) كذلك له معاجز أخرى ذكرها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾(٢).

أما معجزة عيسى عليه السلام فمنها أنه أبرأ الأكمه والأبرص وأحياء الموتى، وذلك كله بقدرة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾(٣) وهكذا بقية الأنبياء عليهم السلام . النبي صلى الله عليه وآله كانت له معاجز كثيرة وكانت أيضاً متنوعة، ولكن من أكبر معاجز النبي صلى الله عليه وآله القرآن الكريم. القرآن في الحقيقة هو المعجزة التي لا تضارعها معجزه، ذلك لأن القرآن هو الذي يدلل على بقاء رسالة النبي، والدليل على ذلك هو ما حمل من مضامينٍ كبيرة، ومن معاني لا يتسع لها عصر النبي، لأنها معاني جداً ضخمة، وإلى الآن ضخمة، فكلما تتقدم الإنسانية تجد غذاؤها في القرآن الكريم، بحيث أنه يحمل حقائق علمية، وحقائق أخلاقية، بل أن فيه رصيداً متفجراً وقابلية لأن يغني الأجيال على امتدادها، ومع ذلك النبي صلى الله عليه وآله لم يكتفي بهذه المعجزة الأدبية، بل أنه قدم المعاجز الحسية، لأن البعض من الناس إذا قيل له بأن القرآن معجزة يقول: أنا لا أفهم ماذا يقول القرآن، وصحيحٌ هذا المعنى، لأن القرآن الكريم معجزة عند من يفهم. فلهذا قدم النبي صلى الله عليه وآله المعاجز الأخرى، منها إطعام العدد الكبير من الناس من الطعام القليل، ومنها مثلاً أن ذلك الجيش الضخم، الذي يملك الوسائل والمعدات الضخمة، يقابله النبي بجريد النخل، فتصبح تلك العصي والجريد، جريد النخل تتغلب على تلك الوسائل الحربية التي كانت عند المشركين، من سيوف، ورماح، ووسائل أخرى، بحيث تصبح تلك المعدات لا تعطي ناتج، وجريد النخل لأن معه إيمان

---

(١) سورة يونس آيات رقم ٨٨/ ٨٩/ ٩٠ / ٩١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٠.
(٣) سورة آل عمران مقطع من الآية: ٤٩.

يعطي نتائج متعددة وكثيرة[١]. مثلاً من المعاجز التي كانت للنبي ﷺ والتي أرى أصحابه إياها، هو ما حصل في غزوة أحد، وذلك عندما نادى المنادي للخروج، وخرج من خرج من أصحاب النبي، ومن جملتهم رجل يقال له قتادة بن النعمان، يقول المؤرخون: وكان في أول أيام زواجه، فعندما جاء إلى المعركة أصابه سهم بعينه، فلما انتزع السهم انتزع معه فص العين بأكمله، وأخذ الدم ينزف من عينه، فأقبل إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله إن روحي لك الفدى اعلم إنني في أول الأيام من زواجي، وسأرجع إلى داري وزوجتي تستقذر مكان عيني، فالغوث الغوث، تقول الرواية: ثم دنا من رسول الله ﷺ فأخذ عينه المقطوعة وأعادها إلى مكانها ومر بأنامله الشريفة عليها فعادت كما كانت أولا[٢]. فالغرض هو أن المجتمع طبقات، فكل طبقة منه تحتاج إلى شكل من أشكال المعجزة، فالبعض يرى المعجزة الحسية فيقتنع، والبعض يراها فلا يقتنع، بل أنه يريد المعجزة المعنوية، والبعض حتى إذا جاءته المعجزة المعنوية لا يقتنع، وذلك هو الشخص المعاند الشرس، فإذاً المقطع الثالث من الآية يحكي طلبهم للمعجزة: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ هذي هي المرتبة الثالثة، المرتبة الأولى إشباع المعدة، والمرتبة الثانية التطلع للأمور المعنوية، والمرتبة الثالثة أن تحقق لنا شيئاً من خلاله يجعلنا نؤمن بصدق انتمائك إلى السماء، فنحن حينئذ عندما نتّبعك، نتبعك لأنك رسول من الله، وهذه - في واقع الأمر - نقطةٌ مهمة، كأن الإنسان في داخله ما يقال عنها بالنزعة الفطرية، فعندما يريد أن يتّبع إنساناً ما، لا بد وأن

---

(١) وهذا المعنى الذي يجب أن تعرفه الشعوب الإسلامية، بأن تطرح كلمة الله مع السلاح، لأن الجندي الذي لا يحمل إيمان بقضيته لا ينته إلى نتيجة.

(٢) قريب منه انظر بحار الأنوار ج ٢٠ ص١٠٢/ ج ١٨ ص ٤٠، مناقب آل أبي طالب ج ١، ص ١٠١، يقول المؤرخون فكانت أصحهما وكانت تعتل البقية ولا تعتل المردودة، فلقب ذا العينين، أي له عينان مكان الواحدة فقال الخرنق الأوسي:

ومنا الذي سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأحسن حالها ... فيا طيب ما عيني ويا طيب ما يدي

يرى فيه بأنه أفضل منه، والله عزّ وجلّ يعلم بذلك، الله تعالى رب الحكمة، خالق كل شيء، فلهذا أجرى على أيديهم - أي الأنبياء والأئمة - أمور لا يستطيع غيرهم أن يأتي بها[1] من هنا قالوا كما حكى القرآن: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي لا نصدقك حتى تقدم إلينا برهاناً، فقدم لهم عيسى البراهين، منها أن نزلت المائدة فكانت إحدى معاجزه.

ثم انتقلت الآية إلى المرحلة الرابعة، وهي قوله تعالى: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهذه إحدى النقاط المهمة في تاريخ الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام، ومن ثَم بقية إلى يومنا، فكأنهم قالوا: نحن نفرٌ قد عايشناك، وقد صدقنا بنبوتك بعد أن دللت لنا على ذلك، وعرفنا أنك مرسل من السماء، فلقد كنت تبرئ الأكمه والأبرص وأُنزلت المائدة علينا بدعائك، ولكن الأجيال التي تأتي من بعدك، كيف لها أن تؤمن بذلك؟ يعني ما هو دليلها حتى تؤمن بصحة نبوتك، وما هو الطريق إلى ذلك؟ الطريق هو أن نكون نحن حلقت الوصل بينك وبين الأجيال المقبلة، نكون نحن الرواة، فنروي لهم ما جئتنا به على وجه الصحة. ماذا نفهم من هذا؟ نفهم أن حلقة الوصل التي تكون بين النبي وبين الأجيال لابد أن يطمأن إليها، بحيث تكون موثوقة في نقلها للأخبار، وإلا ما أكثر من ينقل، ونقله ليس فيه أساس من الصحة، ولهذا ليس كل من عاصر الأنبياء حمل بأمان ما قاله الأنبياء، فقد كانت جماعة عاصرت عيسى، ولكنها لم تحمل بأمان ما قاله عيسى، وجماعة أخرى عاصرت الأنبياء الذين سبقوه، ولكنهم لم يحملوا بأمان ما قاله

---

(١) ولهذا تجد أن أتباع الأديان السماوية تختلف عن أتباع الدعوات الأرضية، فلا تجد عند أحد من أتباع الدعوات الأرضية حماس بنفس الحماس الموجود عند أتباع الدعوات السماوية، فهناك فرق بين من يقاتل باسم الله، بحيث يرى أنه خليفة الله في الأرض، والله تعالى أمره بذلك، وبين من يقاتل بدافع الشهوات أو الأنانية، فالذي يقاتل بسم الله يحمل رصيد من العزم لا حدود له، ولهذا يُخاف منه دائماً، لأنه يعتبر قذيفة، فلا يحتاج إلى السلاح المقنن، فتجده يقارع بالحجارة، كما هو حاصل عند من ينتمون إلى الدعوات السماوية.

الأنبياء، وكثيرٌ من مَن عاصر رسول الله ﷺ ولكنه لم يحمل بأمان ما قاله رسول الله، إذاً نريد أشخاصاً يحملون رسالة النبي للأجيال التي تأتي من بعده على وجه الصحة، وإلا ما أكثر من ينقل، فأحياناً البعض ينقل بدافع الطمع، أو بدافع الأموال، أو بدافع من التزييف، أو... أو... إلخ. وهنا لا نريد أن ندخل في متاهات، وإلا فالكلام في هذا الباب طويل، لهذا يروي المؤرخون حادثة حصلت في مجلس يزيد بن معاوية وذلك عندما جاؤوا إليه بالسبايا وبالرؤوس وطرحوها في مجلسه، تقول الرواة فالتفت إلى رجل ممن حضر الواقعة وسأله قائلاً كيف كان قتالكم لهؤلاء القوم؟ فقال ذلك الرجل: اعلم ما هي إلا ساعة حتى برزوا إلينا فبرزنا إليهم وأتين عليهم. عند ذلك قام إليه رجل آخر قال له: يا هذا كذبت وعضت بالجندل يبن الإخناء، إن ما تفوهت به كذب وزر، ثم التفت إلى يزيد قال: والله لقد ثارت علينا عصابة مضرية، أيديها على مقبض سيوفها، لو انتظرناها ساعة لأتت على حذافير المعسكر، ماذا ترانا صانعين؟ يقول الرواة: فاحترم يزيد هذا المتكلم، لأنه رأى ذلك متجسداً في لواء أبي الفضل العباس عليه السلام، لأن اللواء كان من مبرزات الواقعة، فلما نظر إليه أخذ يقلبه، فرآه ممزق من ضربات السيوف وطعنات الرماح، مخرق لم ير فيه مكان سالماً إلا المقبض - مقبض اليد - فقال كلمته الشهيرة - أبيت اللعن يا عباس - وهذه الكلمة تعتبر أكبر كلمة تقولها العرب، وذلك عندما يرون بطولة متمثلة لشخص ما، يقولوا - أبيت - أي أن مثلك لا يشتم، إن موقفك هذا يمثل البطولة والإباء، وهذا ما حصل بالفعل لأبي الفضل العباس، حيث أنه لم يسقط اللواء حتى سقط أبو الفضل حامل اللواء، - سقطا معاً - اللواء إلى جانب، وأبو الفضل إلى جانب، عند ذلك أقبل إليه الإمام الحسين عليه السلام ذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً، ثم وقف عليه وأخذ يمسح الدم والتراب عن وجهه، وكأنه يتمثل بهذا البيت:

كسر الآن بانكسارك ظهري وقناتي فلت وشوكي بانا

يقول المؤرخون: لم يكن العباس حينذاك يبصر شيئاً، لأن إحدى عينيه جمد عليها الدم، والثانية قد نبت بها السهم، وليس عنده يدٌ يميط بها ذلك

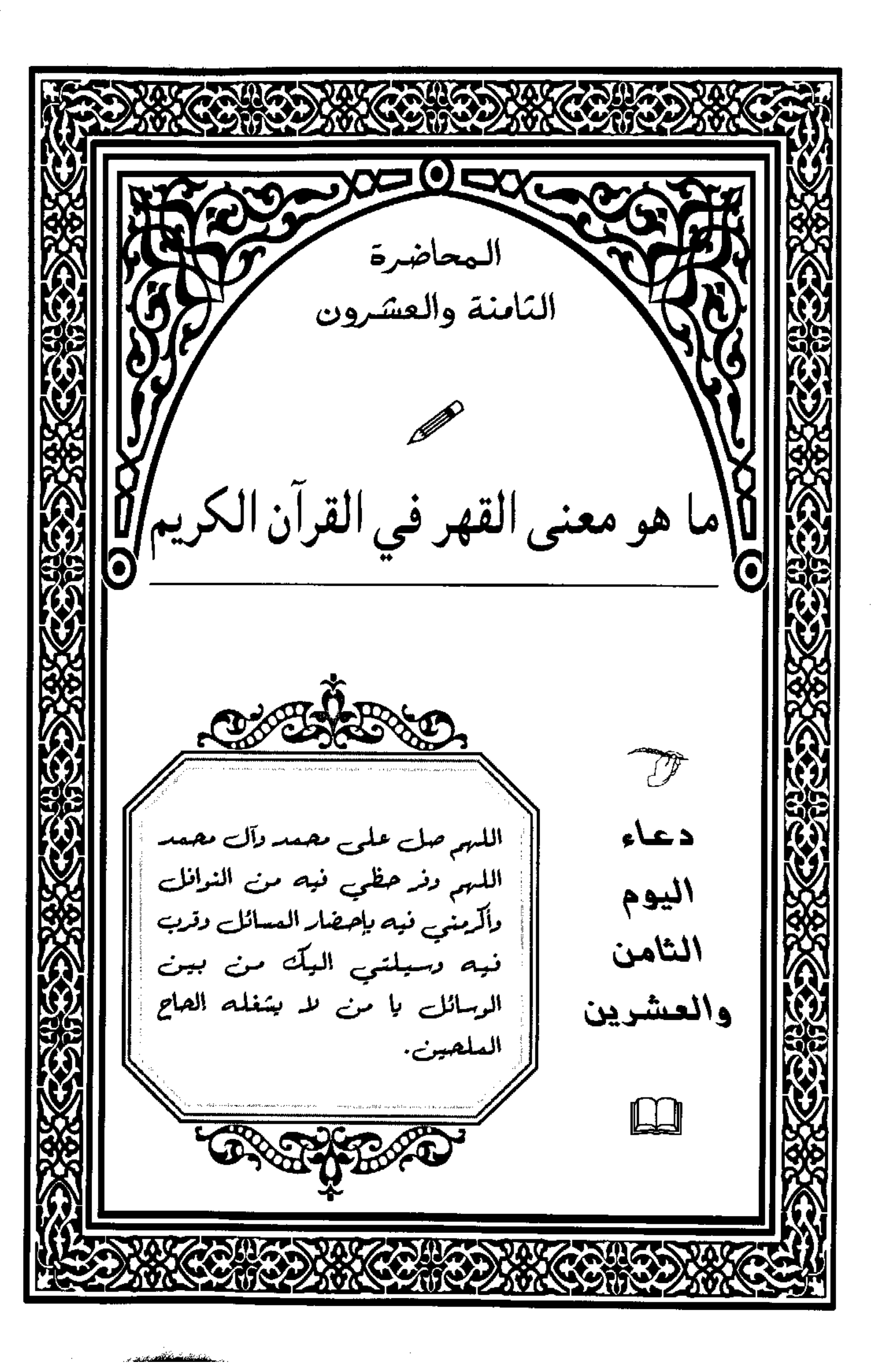
السهم عن عينيه، ولكن فيه بقايا حياة، فلذلك أحس بحركة رجل عند رأسه، فقال: يا هذا أقسم عليك بمن تعبد، لما سمع الإمام الحسين أصغى إليه ليسمع ما يقول - قد تكون لديه وصيه يريد أن يوصي بها، لأنه في آخر لحظات حياته ، يا هذا أقسم عليك بمن تعبد، قال: ماذا تريد؟ قال: حتى يأتي إلي أخي وابن والدي أودعه ويودعني وأشمه ويشمني، قال الحسين: أنا أخوك أنا ابن والدك لما سمع ذلك منه، قال: أبو عبد الله عند رأسي، إذاً أريد منك أن تلثمني لثمةً قبل الفراق، أبا عبد الله دعني أقبلك وتقبلني قبل أن ألقى جدك رسول الله، حتى أقول له يا رسول الله هذه لثمت سبطك الغريب الذي خلفته بين الأعداء وحيداً فريدا[1].

شرفني الثمني بشاتك لثمت أوداع
وعذر يخويه كيف أضمك بس بالذراع
أكفوفي يخوي أمقطعه والجسد على الكاع
بس في أمان الله يا حجة الرحمن
وغمض أعيونه ومن قبل ما التفيظ روحه
التحير يلثمه وين من كثرة اجروحه
في هامته لو جبهته كلها مليَّحة
لكن دماه التسيل مخه بالعمد طار
ودنَّك يلثمه في شفاته ويهمل الدموع
يغسل جروحه والقلب بالهم ملسوع
فاضت على المسنات روحه وظل مصروع
والحسين نادى انكسر ظهري ابقيت محتار[2]

---

(١) إن هذه الخاتمة جاءت لمسات من الخيال عن لسانيهما وذلك على ظاهر ما قاله المؤرخون.

(٢) النصرة المهدية للعترة الأحمدية ج ١، ص ١٠٨.



المحاضرة
الثامنة والعشرون

ما هو معنى القهر في القرآن الكريم

دعاء
اليوم
الثامن
والعشرين

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم وفر حظي فيه من النوافل
وأكرمني فيه بإحضار المسائل وقرب
فيه وسيلتي اليك من بين
الوسائل يا من لا يشغله إلحاح
الملحين.



ما هو معنى القهر في القرآن؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(١).

❋ ❋ ❋

في هذه الآية الكريمة مجموعة من الأبحاث سنعرض إليها، واحدة تلوى الأخرى.

ما يلفت النظر في الآية الكريمة، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ وهذا المعنى قد تكرر في كثير من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٢). فما هو المقصود من وصف الحق تبارك وتعالى بالقاهر؟ هل المراد أن الله تبارك وتعالى يحكم عباده بالقهر في الأمور التشريعية، أو أن للقهر معنىً آخر؟

واقعاً نحنُ ندرك بالبداهة أن الإنسان حرٌ في تصرفاته، فمثلاً عندما يريد أحدنا أن يذهب إلى السوق، فإنه يستطيع ذلك، وعندما يريد أن يذهب إلى مكانٍ آخر أيضاً يستطيع ذلك، وكذلك عندما يريد أن يكتسب بالحرام يستطيع، وعند ما يريد أن يكتسب بالحلال أيضاً يستطيع، وهكذا، أي بمعنى

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٨) كما وردت في القرآن الكريم ست آيات تصف الباري جل وعلى بـ(الواحد القهار) وهي، الآية: (٣٩) من سورة يوسف عليه السلام، وآية (١٦) من سورة الرعد، وآية (٤٨) من سورة إبراهيم عليه السلام، وآية (٦٥) من سورة ص، وآية ٤٨ من سورة الزمر، وآية (١٦) من سورة غافر.

أنه لا يصرفه صارف عن إرادته، إرادته هي التي توجه حيث ما أراد، وذلك أن الله تبارك وتعالى لم يقهر الإنسان في سلوكياته، ولهذا لو أن القهر جاء في باب السلوك، لألغيت جميع الشرائع السماوية، وبذلك يتحول الإنسان إلى أداة لا تضر ولا تنفع، بينما الإنسان يمتلك الإرادة في قرارة نفسه، ويستطيع أن يسخرها متى ما أراد.

إذاً - فالقهر - الذي أشارت إليه الآية التي افتتحنا بها، والآيات الأخرى، ذلك في الأمور التي هي خارجة عن إرادتنا، وعن إرادة ما يُحيط بنا، مثلاً الله عزوجل قهر العدم بالوجود؛ العدم انتزع منه الوجود انتزاعاً، أوجدنا ونحن لم نكن شيئاً يذكر، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[1]. كذلك أوجد السموات والأرض، ... و... والخ فكلُّ هذا العالم عدا الله محدث، اللهُ تبارك وتعالى أحدثه، - الله تعالى أوجده -، كذلك قهر الوجود بالفناء والفساد والانحلال، ولهذا لا نستطيع أن نقول قهره بالعدم. لأن الموجود لا ينعدم، وإنما يتحول[2]، وهذه نقطة يجب أن ننتبه إليها؛ لأن البعض قد يتصور عندما يموت الإنسان، ويوضع جثمانه في القبر، أنه انعدم، والحال ليس الأمر كذلك، ذلك لأن الإنسان يتحول إلى ذرات، هذه الذرات قد يقدر لها في يوم من الأيام أن تتحول إلى طاقة، بمعنى أنها تتحول من شكل إلى شكل، وإلا فلا شيئاً ينعدم. كذلك الله عزوجل قهر الظلم بالنور، وهذه كلها أشياء تحيط من حولنا، وهي مقهورة لله، أي أنها ممكنة. معنى ذلك أن الوجود والعدم بالنسبة لها سواء، فلا يخرجها إلى عالم الوجود إلا إرادة الله تعالى، فالله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق ذلك الشيء خلقه،

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ما خلقتم للفناء، بل خلقتم للبقاء وإنما تنقلون من دار إلى دار وأنها في الأرض غريبة وفي الأبدان مسجونة) المصدر شرح أصول الكافي ج ٦، ص ٧٠. وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: (... أيها الناس، إنا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء، لكنكم من دار إلى دار تنقلون، فتزودوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه، والسلام). المصدر في كثير من الكتب منها الإرشاد - الشيخ المفيد - ج ١، ص ٢٣٨، الأمالي - الشيخ الطوسي - ص ٢١٦، بحار الأنوار ج ٧٤، ص ٤٠٣/ وج ٧٠، ص ٩٦.

وإذا لم يرد الله خلقه يبقى ذلك الشيء في العدم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

كذلك بالنسبة للأشياء التي هي خارج إرادة الإنسان، والتي يُعتبر أبناء البشر مقهورين بها كثيرة، ومنها هذه الأشياء الآتية: مثلاً فلانٌ عندما خلق ذكر، وفلانة عندما خلقت أنثى، هذا التخطيط لم يكن للإنسان فيه اختيار، إنما هو أمرٌ مقهور فيه، وتخطيطه يأتي من الله تبارك وتعالى، ولهذا نجد القرآن الكريم يحاول أن يفرز هذا الأمر بشكل واضح، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾[2]. إذاً الآية صريحة في ذلك، أن تحديد نوع الجنين أمر لا نمتلك أسبابه بأيدينا. وإن كان هناك دعاوى وكلمات عند البعض، البعض يقول: إنه يستطيع أن يتحكم بالأسباب، البعض يقول: الصبغة التي تحدد نوع الجنين العلماء بدأوا الآن يوجهونها. يعني عادةً إذا ارتفعت نسبة الصبغة الفلانية على الصبغة الفلانية صار الجنين ذكراً؛ الواقع إن هذا الشخص لم يبتكر شيئاً جديداً في حد ذاته، وإنما حورَ نسبت المادة فقط، بمعنى أنه لم يخلق المادة، حتى بعد ذلك يقول بأنني كونت الذكر، وإنما استطاع أن يتحكم بالنسبة فقط، وهذا التحكم بالنسبة أيضاً بدون إرادة الله تعالى لا يمكن أن يتم، وذلك بمعنى أنه إذا لم يرد الله له أن يكون فقطعاً لا يكون. إذاً فالمسألة تخضع لإرادة الله تعالى، وليس للبشر فيها تدخل. نعود إلى أصل الحديث، إذاً من الأمور التي نحن مقهورون فيها هيه نوعية الجنين، حيث أننا لا نستطيع أن نتحكم فيه. أيضاً من الأشياء التي يكون الإنسان مقهور فيها هو تحديد العصر الذي يوجد فيه، مثلاً شخصٌ من الناس ولد في هذا العصر، وشخص ولد في عصر نبي الله إبراهيم، وشخص آخر ولد في عصر نبي الله نوح... وهكذا، فمكان الإنسان من خط الزمن ومن سير الزمن هو أمرٌ مقهور فيه.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الشورى، الآيتان: ٤٩ - ٥٠.

ولهذا يقول العلماء: إن الزمن بعدٌ من الأبعاد، بمعنى أن الجسم له ثلاثة أبعاد، فكل جسم له طول وعرضٌ وعمق، والزمن هو البعد الرابع، فكلُّ إنسانٍ مكانه من الزمن هو خارج عن إرادته، فالبعض من الناس أراد الله له أن يخلق في عصر النبي ﷺ ويحصل على بركة النبي، بينما البعض الآخر مقدر له أن يخلق في عصر الحجاج، وثالث مقدر له أن يخلق في عصر هارون الرشيد، وآخرون مقدر لهم أن يخلقوا في عصر التتر. كل ذلك لم يكن باختيار أي واحد منهم، فالإنسان ومكانه من الزمن مقهور فيه، كذلك الوقت الذي يموت فيه الإنسان لا يدريه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾(١).

حكاية: يقال أن نبي الله سليمان [على نبينا واله وعليه أفضل الصلاة والسلام] كان ذات يوم جالساً، إذ دخل عليه عزرائيل في صورة رجل، وكان إلى جانبه أحد الأشخاص، بمجرد أن دخل عليه، قال: ذلك الرجل لسليمان لقد اضطرب قلبي من هذا، - وأشار إلى ملك الموت - فأريد أن تنقلني إلى الهند، فقد بدت لي حاجة هناك، فأمر البساط بنقله إلى الهند، فعندما خرج، التفت ملك الموت إلى سليمان، وقال: إن هذا الذي خرج من عندك قد أمرتُ بقبض روحه، ولكن ليس في هذا المكان، وإنما أمرت بقض روحه في الهند، وأنت الآن أمرت البساط بنقله وسأتبعه لقبض روحه. البعض الآخر مقدر له أن يكون قبره في بطون الحيوانات، وهذا المعنى هو الذي عناه أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: (حتى إذا تصرمت الأمور، وتقضت الدهور، وأزف النشور، أخرجهم من ضرائح القبور، وأوكار الطيور، وأوجرة السباع، ومطارح المهالك)(٢) فالبعض من الناس يحشرون من بطون الطيور، والبعض الآخر يحشرون من بطون الحيوانات... وهكذا، الإنسان لا يعرف مماته بأي لون من الأوان يتم، ولا في أي بقعة من البقاع.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) نهج البلاغة: من الخطبة المسماة بـ(الغراء) ص ١١٣.

إذاً فالقهر في هذه الأشياء، أم الأشياء الاختيارية التي تقع تحت سلطاننا، والتي يترتب عليها السلوك اليومي، فنحن ندرك بالبداهة أن الله جعلنا فيها أحراراً، ولا يمكن أن يقهرنا بها. ولكنه تعالى قهرنا بالموت، فنحن نريد الحياة، ويأتي الموت فيقطع سبيل الحياة. وهذا هو القهر، وكفى به من قهر، ولهذا من المؤكد أنه لو لم يكن هذا القهر الذي يتجسد بالموت، لوجدت الإنسان يدعي الإلوهية، لأن الإنسان أتفه ما يكون، وذلك أنه مع الموت ادعى الإلوهية. يقول القرآن الكريم حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[1]. فلهذا لو قدر له البقاء لدعا الناس لعبادته، ذلك لأنه لا يوجد عظيماً من مخلوقات الله تعالى كالإنسان، كما أنه لا يوجد تافه من مخلوقات الله كالإنسان، فالإنسان عظيمٌ إذا وظف غرائزه تحت نطاق العقل والشرع، وهو تافه إذا أطلق لغرائزه العنان.

الغرض بعد أن أخذنا فكرةً موجزةً عن القهر - وهو المبحث الأول في الآية - يأتي المبحث الثاني وذلك في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

فما المراد بالفوقية؟ واقعاً إن عندنا مدرسة تفسر القرآن بالظاهر، ولكن إذا كان المعنى يصطدم بخط من خطوط الإسلام العريضة، فلا يمكن أن يحمل اللفظ بأجمعه على الظاهر، ومثال ذلك كما في هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ما المقصود بالفوقية هنا؟ هل المقصود بالفوقية الجهة؟ أي أن الله تعالى فوق الناس، وأن الناس تحته؟ واقعاً إن الفوقية والتحتية ليست لها موضوعية، نحن ندور في هذا الكوكب، فنسمي الذي في الأعلى فوقنا، ونسمي الذي في الأسفل تحتنا، فبالتالي تعتبر الفوقية من صفات الأجسام، أما بالنسبة لله تعالى فلا تنطبق عليه هذه الصفة، لأن الله ليس كمثله شيء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]. وقال سيد الموحدين في وصف الحق تبارك وتعالى: (من وصفه فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن عده فقد أبطل أزله، ومن قال: - كيف - فقد استوصفه، ومن

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الشورى مقطع من الآية: ١١.

قال: - أين - فقد حيزه. عالم إذ لا معلوم، وربٌّ إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور)[١]. إلى آخر خطبته عليه السلام وهذا ما تعتقد به أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام - إلا أنه - وللأسف الشديد - المدارس الأخرى قد تصوره بالجسم، ومن الغريب جداً أن يكون هذا التصور في التراث الإسلامي، وتحضرني هنا حادثة وهي أن بعض المفسرين عندما يصل إلى قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[٢]. قال: إن هؤلاء الثمانية، هم أربعة من الأولين، وأربعة من الآخرين، فالأربعة ألذين يعتقد أنهم من الأولين يذكرهم بأسمائهم. فلان، وفلان، وفلان وفلان، وكذلك من يعتقد أنهم من الآخرين يذكرهم بأسمائهم فلان و. . . .إلخ. ثم يقول هؤلاء هم الذين يحملون عرش الله عز وجل ، والواقع هذا هو التفكير السطحي الموجود عند البعض، الذين ليس له إلمام بالدين الإسلامي، لأن القرآن الكريم يُعتبر طاقة عظماء، فلهذا يجب أن لا تعطى إلى أذهان هؤلاء العاديين من الناس، لأنهم ليس لديهم إلمام بعمق القرآن الكريم. ولهذا يقول الشيخ الوائلي: إن القرآن الكريم يحتاج إلى تفسير يتناسب مع العصر، فإذا كان القرآن الكريم فَسروه من قبل مائة سنة بتفسير، ومن قبل ألف سنة بتفسير، فجزى الله العاملين على ذلك خير الجزاء. فإن فيهم العمالقة والمفكرين، ولكن يبقى القرآن الكريم أكبر من جهد الفرد الواحد، لأن القرآن دستور الدنيا بأسرها، والدنيا تحتاج في كل فن من فنونها إلى متخصص، القرآن كتاب العالم، كتاب الإنسانية على امتدادها، فلا يمكن أن يأتي شخص ليحل مشاكل الإنسانية بأجمعها، بمعنى أن القرآن يحتوي على جوانب تتعلق بالمجتمع، فتسمى جوانب اجتماعية. وأيضاً يحتوي على جوانب تسمى بيولوجية، ويحتوي على جوانب نفسية، جوانب اقتصادية، جوانب أخلاقية، إلى غير ذلك من العلوم، فكل علم من هذه العلوم يحتاج إلى تخصص، وكذلك يحتاج إلى مجموعة من المتخصصين، لا أن يعطى إلى شخص يقول:

---

(١) نهج البلاغة ص٢٤٤ خطبة (١٥٢).

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

إن الذين يحملون عرش الله هم فلان وفلان من العلماء، إن هذا الكلام لا يقبله العقل السليم بحال من الأحوال، لأنه لا يتناسب مع عظمة الله تبارك وتعالى، ومع عظمة القرآن الكريم.

إذاً المقصود بالفوقية أن أمره فوق أوامر الناس، إرادته فوق إرادة الناس، ولهذا يقول العلماء لا يُحمل اللفظ في الآية على المعنى الظاهر البتة، وإنما يحمل على المعنى الكنائي. أضف إلى ذلك أن الفوقية ليست وحدها هي دليل العظمة، وبالتالي أن التحتية هي دليل الانحطاط، ولهذا إذا قلنا هذا المعنى، فهذا يعتبر تفكير سطحي، والتفكير السطحي يجب أن لا نتناول به القرآن الكريم ونفسره، إنما المقصود بالفوقية أن إرادة الله غلبت إرادة الناس، ولهذا إذا تعارضت الإرادتان فإرادة الله عزَّ وجلَّ هي الغالبة، لأنه واهب الكون، فمن هو الإنسان وما هي قيمته حتى تكون إرادته تعارض إرادة الله عزَّ وجلَّ ؟ الإنسان أتفه ما يكون، ولهذا يجب أن ننتبه إلى وثبة القرآن الكريم، القرآن الكريم يثب وثبة عظيمة. يقول: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ لأن البعض من الناس يقول: إن لدي قدرة على أن أبرمج نفسي في الحياة، وذلك من خلال المهارات التي اكتسبتها في الحياة، بينما البعض الآخر وهم عباد الله المخلصين، يعرفون أن قدرة الله فوق قدرتهم، وإرادته فوق إرادتهم، فلهذا يقول أحدهم: لا طاقة لي ظاهرة أو باطنة، إلا ما أعطاني الله عزَّ وجلَّ ، فما من شيء عندي إلا من عند الله تعالى، ويردد كل شيء عندي متلاشٍ إزاء أوامر الله. فلهذا نجد عباد الله لا يعبدون إلا الله، وأوامرهم مقهورة لأمره تعالى، فلا تتحكم فيهم الغرائز أبداً، يأمرهم الباري عزَّ وجلَّ بالصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]. فيستيقظون صباحاً ممسكين لا يتناولون شيئاً إلى أن يأذن الله لهم بذلك، فإذا أذن لهم تقدموا وأخذوا ذلك من الحلال، إرادتهم في هذا الجانب مقهورة لإرادة الله تبارك وتعالى، يأمرهم الباري عزَّ وجلَّ أن يقيموا الصلاة : ﴿وَأَقِيمُواْ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[1]. فتراهم يستيقظون الصباح الباكر ويتركوا النومة اللذيذة ليؤدون ما أمرهم الله به، يقهرون إرادتهم بإرادة الله تعالى، كذلك تراهم يقهرون غريزة الجمع، يأمرهم الله عزّ وجلّ بالإنفاق في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[2]. فيخرجون من صوافي أموالهم أموالاً يوزعونها في سبيل الله تعالى، فكل هذا قهراً لأوامرهم تلبية لأمر الله تعالى. لكن البعض كما قدمنا يتصور أن إرادته حرة، تعمل في هذا الوجود ضمن اختياره وما يريد، وهكذا، فالناس على صنفين الآية تقول: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أوامره في هذا الكون هي فوق كل الأوامر.

المبحث الثالث: قالت الآية: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ فمن هم هؤلاء الحفظة، ولماذا تكون الحفظة؟ في حين أن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾[3]. كذلك أعمال العبد مهما تكون هي بعين الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[4]. لأنه لا شيئاً يضمحل ولا شيئاً يُنسى إطلاقاً، ذلك لأن الأعمال مصورة، من قيام، ومن قعود، ومن أصوات، ومن أفعال، ومن همسات، ومن، ومن... إلخ - فإذا كان الأمر كذلك فلماذا وجود الحفظة؟ - أما من هم الحفظة فهما الملكان، ملك على اليمين، وملك على الشمال، هؤلاء هم الحفظة؟ وأما لماذا وجود الحفظة؟ - يقول أحد العلماء -: لأن الله عزّ وجلّ أراد أن يخاطب عباده بمثل ما اعتادوا عليه في دار الدنيا، ذلك لأن البشر بالنسبة للأشياء المتأخرة تحفظ لديهم في ملفات، مثلاً إذا كانت معاملة بين اثنين أو أكثر، فلا بد وأن يُجرى عقد ويحفظ حينئذ بالكتابة، لهذا الله عزّ وجلّ خاطب عباده من هذا المنطلق، كأنما تقول الآية إن الذي لكم والذي عليكم محفوظاً بأيد الحفظة، وهذا المعنى فيه لطف للمكلفين، قال جل وعلا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣.
(٢) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤ - ٢٥.
(٣) سورة طه مقطع من، الآية: ٥٢.
(٤) سورة غافر، الآية: ١٩.

عَتِيدٌ﴾[١]. أما بالنسبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ فلا تغيب هذه الأمور وأمثالها عنه، فهي موجودة أمامه فلا يحتاج إلى تسجيلها، ولكن ذلك للعبد كي يطمئن، ولهذا قال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ وهؤلاء الحفظة مهمتهم الأساسية كتابة ما يصدر من الإنسان من قول وفعل وهمس و... .وإلخ. وهنا يأتي السؤال هل أن هؤلاء الحفظة هم الذين يتولون قبض الروح، أو أن هناك غيرهم؟ الواقع هناك رأيان، البعض من المفسرين قال: هم الذين يتولون قبض الروح، لأنهم يصبحون بمثابة الأعوان فإذا قبضوها يسلمونها إلى ملك الموت، لأن ملك الموت جسماً من الأجسام، وأحياناً مثلاً في الدقيقة الواحدة قد تكون مئة - حادثة - وفات، وذلك في بقاع الأرض المختلفة، والمسألة هي ليست مسألة معجزة، وملك الموت جسماً على كل حال، - وإن كان يختلف عن أجسامنا، ولكن الجسم لا يمكن أن يكون في مكانين في وقت واحد، الجسم له مكان واحد في وقت واحد، فلا يمكن أن يتوزع إلى أمكنه متعددة، والمسألة كما ذكرنا ليست معجزة، فإذا كان كذلك إذاً لا بد له من أعوان، فالأعوان هم الذين يتولون قبض الروح، وبالتالي ملك الموت يقبضها منهم ويسلمها لله تبارك وتعالى، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[٢]. ومن ناحية ثالثة قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٣]. إذاً فكيف يتم الجمع؟ الجمع أنه لا بد من أعوان لملك الموت يتولون قبض الأرواح، وفي نفس الوقت أيضاً الأعوان يسلمونها إلى ملك الموت، وملك الموت أيضاً يوكلها إلى كف القدرة، وهذا التسليم والتسلم كله معنوي - كم يقول العلماء - لأن الروح من المجردات، ولكن المقصود أن الملكان وهما الحفظة يقطعان اتصالها بالجسم، وفي نفس الوقت أنهما أوكلا الأمر إلى ملك الموت،

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١١.
(٣) سورة الزمر مقطع من الآية: ٤٢.

وملك الموت أوكل الأمر إلى الله عز وجل . والخلاصة هي أن الله عز وجل إذا أراد أن يقطع حبل حياةِ إنسان، يُؤشر لها وتنتهي، خصوصاً إذا كان ممن يحبهم، وإن كان أحياناً بعض المؤمنين يطول به النزع، فذلك قد يكون كفارةً لذنوبه، ولهذا في الدعاء نقول: (اللهم إني أسألك الراحة عند الموت والعفو عند الحساب)[1]. الراحة هي أن تخرج الروح براحة، لا تبقى، لأن الرواية تقول: فو الله ما خرجت من عرق إلا انقطع ولا من عضو إلا انصدع[2] لأن الروح لها تعلق شديد بالجسد، ففي حين ابتعادها عن الجسد يؤلم الأعضاء كلها، فالمحتضر تجده حينئذ في حالة كرب، تلك الحالة التي يقول عنها النبي صلى الله عليه وآله وذلك أنه نظر إلى جبرئيل في حال الاحتضار فقال: (عند الشدائد لا تخذلني)[3] فاللحظات التي تمر على الإنسان وقت الاحتضار تكون حرجة وشديدة، فإذا أراد الله عز وجل أن يريحه تكون القضية مستعجلة.

حكاية: يقال أن صخر أخو الخنساء - التي ملأت الدنيا عليه عويلاً، والتي رثته بعد موته بأبيات طويلة - هذا الرجل لما طال به النزع، سمع امرأة تسأل زوجته سُليمى، تقول لها: كيف أصبح صخر؟ قالت: أصبح لا هو حي فيرجى، ولا هو ميت فينسى، فأحس منها صخر بالضجر والألم، بينما أمه لم تكن كذلك، بل كانت إلى جانب السرير تمرضه قرابة حول، فلهذا أنشأ يقول:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ... وملت سُليمى مضجعي ومكاني

وأي امرئ ساوى بأم حليلةً ... فلا عاش إلا في شقىً وهوانِ

---

(١) هذه الفقرة من دعاء للإمام أبي عبد الله عليه السلام كان يقوله في آخر ليلة من شهر شعبان وأول ليلة من شهر رمضان [المصدر مصباح المتهجد - الشيخ الطوسي - ص ٨٥١]. وعن أبي جرير الرواشي قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام وهو يقول: (اللهم إني أسألك الراحة عند الموت والعفو بعد الحساب) [المصدر منتهى المطلب (ط.ق) - العلامة الحلي - ج١، ص ٣١٤].

(٢) العبارة وردت بالسند المتصل عن الأصبغ بن نباته، ذكر حديث طويل في تكلم الميت مع سلمان رضي الله عنه وقد وردت في عدة كتب وسائل ج ٢، ص ١٧٤، الفضائل - القمي - ص ٨٨، بحار الأنوار ج ٢٢، ص ٣٧٧ .

(٣) انظر روضة الواعظين - الفتال النيسابوري - ص ٧٥.

أهـم بـأمـر الـحـزم لـو أسـتـطـيـعـه   وقـد حـيـل بـيـن الـعـيـر والـنـزوانِ[1]

الغرض أن الروح كما ذكرنا، إذا قدر لها أن تخرج بسهولة، فقد تكون في راحة، حيث أن الأعوان يشيرون إلى انقطاعها، ثم يحصل التسليم من قبل هؤلاء، فلهذا البعض يقول هم - أي الحفظة - بينما كثير من المفسرين يقول غيرهم، كما أن هناك رأي للرازي يقول فيه، الملائكة أقسام؛ قسم منهم له علاقة بالأمور الروحية، أي بالثواب وإنزال الرحمة على العباد، وهؤلاء يُعبر عنهم بالروحانيين. وقسم منهم لمبادئ الهم والغم والكرب، ويعبر عن هؤلاء بالكروبيين، ومنهم ملك الموت، ولهذا يقول البعض: لماذا الله عزوجل سمّى بعض الملائكة بأسماء منكرة؟ مثلاً منكر ونكير وكروبيين، والمفروض أن الملك يجب أن يُكرم عن الاسم الممزوج والاسم القبيح؟ يقول: - أحد العلماء: - جواباً على الإشكال: أن الله عزوجل عندما قال عن ملائكة كروبيين وعبَّر عن آخر منكر وآخر نكير، كل ذلك يريد أن يشعر الناس بالرعب وهم في الدنيا، حتى يحتاطوا لأنفسهم عما هم قادمون عليه بعد الموت، ولهذا الله تبارك وتعالى وضع للرحمة أسماء وللعذاب أسماء، فعندما تتصفح سور القرآن الكريم تجد هذا المعنى، فبعض السور القرآنية يبث تعالى فيها الرعب والإرهاب، وبعض السور يجعلها مملوءة بالرحمة والمودة واللطف والحنان. مثلاً عندما يصف الجنة ومن فيها، يقول تعالى في سورة الدهر المعروفة بسورة الإنسان أيضاً: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾[2] إلى آخر تلك الآيات الكريمة؛ فمن خلال قرأت هذه الفقرات من السورة، تشعر بأن هناك صورة ممتعة، وصورة مشرقة مملوءةً بالغبطةِ والفرح. ولكن عندما نقرئ سورة ثانية نجد فيها صورةً أخرى، حيث أنها جاءت تصف للإنسان ما يخوفه ويرعبه، حتى يحتاط لنفسه وهو في دار الدنيا، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ

(١) السقيفة وفدك - الجواهري - ص ٢٥.
(٢) سورة الإنسان الآيات: ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦.

تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾[1].

الواقع إن هذا الهدف وهو بث الطمأنينة وبث الرعب استعمله القرآن الكريم في كثير من السور، لأن إنذار الإنسان بأمر من الأمور يجعله دائماً وأبداً في أعماقه، - ذلك في النفوس التي تتعقل - فلنفرض منكر ونكير وكذلك ملائكة كروبيين هذا من باب أن يشعر الإنسان بما يلاقي بعد الموت إذا لم يطبق ما أمر به، وإذا لم ينته عما نهي عنه. انتقلت الآية في بحثها الأخير فقالت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ذلك أنه إذا قدر لحياة الإنسان أن تختم، في ذلك الوقت، أولئك الرسل يتولون ختم تلك الحياة، وحينئذ تنتهي حصته من الوجود، لأن كل إنسانٍ في هذه الدنيا له حصة منها، فيأخذها مستوفيةً ثم يذهب، ويعطي لغيره مجالاً فيها، وهكذا تبقى الحياة البشرية مستمرة، إذاً فبناءً على القول الأول هم الحفظة، وعلى القول الثاني هم الكروبيين كما ذهب إلى ذلك الفخر الرازي. ولهذا العرب دأبت على هذه الصورة في التسمية، والقرآن الكريم يخاطبهم في كثير من الأحيان بلغتهم، فلقد كانوا يهيمون بالبطولة، فإذا أرادوا لشخص ما، أن يتصف بصفات البطولة، يجعلون في تسميته ما يوحي بذلك، وهذا ما حدث حتى في بيت عبد المطلب، فقد سمّى عبد المطلب أحد أبنائه بالعباس، كذلك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام [2] اختار هذا الاسم لأبي الفضل، لأنه أرد تجسيد البطولة

---

(١) سورة إبراهيم عليه السلام الآيات: ٤٨، ٥٠.

(٢) سمى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولده المبارك (بالعباس) وقد استشف من وراء الغيب أنه سيكون بطلاً من أبطال الإسلام، وسيكون عبوساً في وجه المنكر والباطل، ومنطلق البسمات في وجه الخير، وكان كما تنبأ فقد كان عبوساً في ميادين الحروب التي أثارتها القوى المعادية لأهل البيت عليهم السلام فقد دمر كتائبها وجندل أبطالها، وخيم الموت على جميع أفراد الجيش في يوم كربلاء؛ بهر الإمام محمد الحسين كاشف الغطاء (رحمه الله) بشجاعة أبي الفضل العباس فقال في قصيدته العصماء:

وتعبس من خوف وجوه أمية ... إذا كر عباس الوغى يتبسم

عليم بتأويل المنية سيفه ... نزول على من بالكريهة معلم =

لأبي الفضل حتى في التسمية، وذلك أنه أراد له أن يكون ناصراً لابنه الإمام الحسين عليه السلام بأرض كربلاء، ولهذا ورد أن اختيار أمه كان لهذا السبب، يذكر المؤرخون أن أمير المؤمنين عليه السلام قال لأخيه عقيل، - وكان نسابة عالماً بأنساب العرب وأخبارهم - انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوجها فتلد لي غلاماً فارساً، فقال له: أين أنت عن فاطمة بنت حزام الكلابية فإنه ليس في العرب أشجع من آبائها ولا أفرس، فتزوجها أمير المؤمنين عليه السلام [(١)] فلما أنجبت أول ولد سماه بالاسم الذي يوحي بالبطولة، لأنه أراد البطولة أن تتوفر له حتى في التسمية. ولهذا أديب ألطف يصور هذا المعنى:

عَبَست وجوه القوم خوف الموت ... والعباس فيهم ضاحك متبسم
قلب اليمين على الشمال وغاص في ... الأوساط يحصد في الرؤوس ويحطم
وثنا أبو الفضل الفوارس نكصاً ... فرأوا أشد ثباتهم أن يهزموا[(٢)]

إلى أن فرق الجيش يميناً وشمالاً ونزل إلى المشرعة، ومد يده وأخذ غرفة من الماء أدناها من فمه الشريف ثم قال: لا والله لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عطشانا، أبى له إباه ومواساته أن يتناول شيئاً من الماء وهناك أكباد عاطشة لعائلة أخيه الحسين، عند ذلك ملئ تلك القربة وحملها ليوصلها إليهم، فحال الموت بينه وبين ذلك، إلى أن سقط على الأرض منادياً: أخي يا أبا عبد الله أدركني، أقبل إليه الحسين ذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً وجلس عنده، أخذ رأسه وضعه في حجره وأخذ يمسح الدم والتراب عنه.

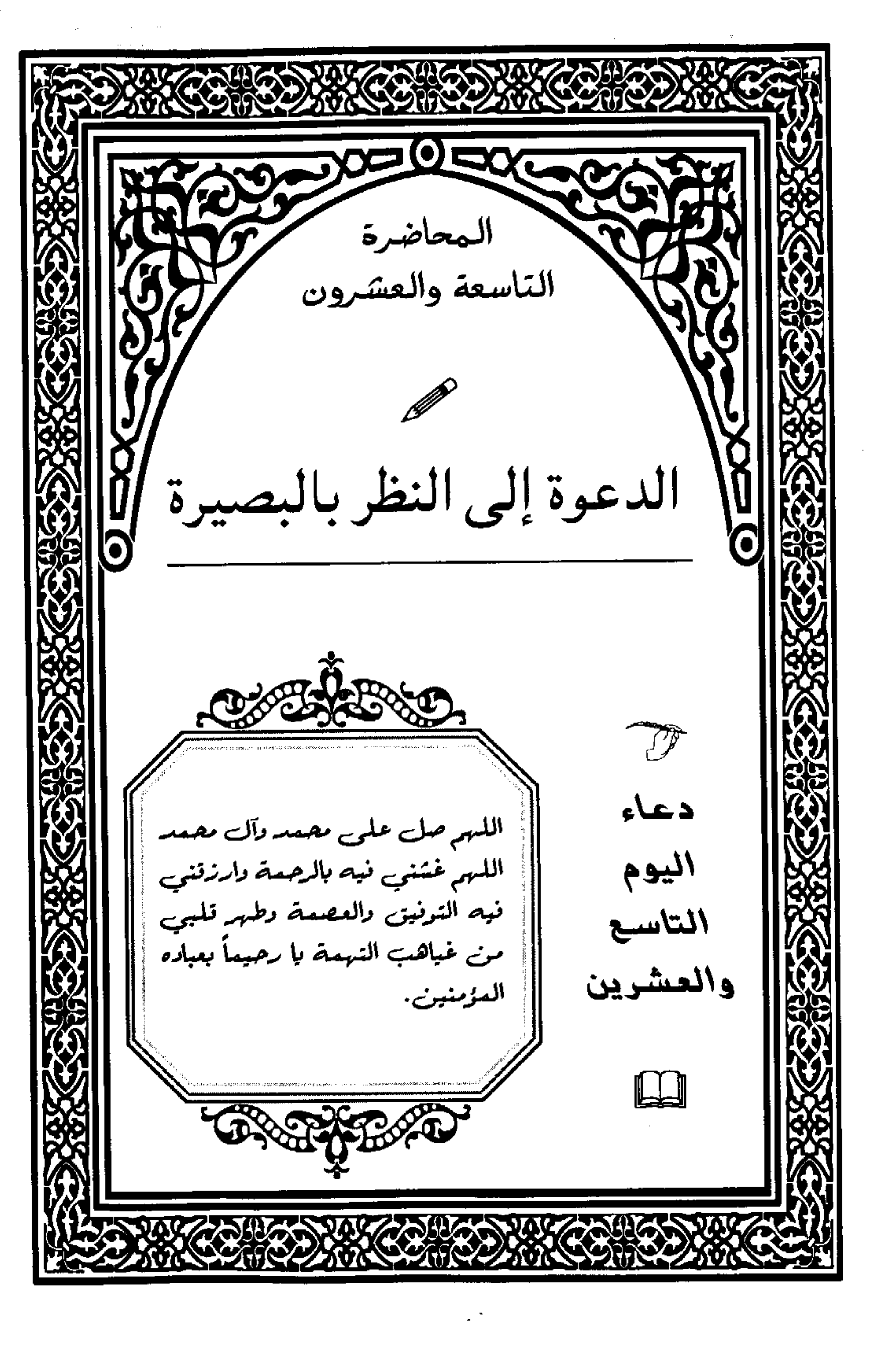
هونت يابن أبي مصارع فتيتي ... والجرح يسكنه الذي هو ألم
يامالكا صدر الشريعة انني ... لقليل عمري في بكاك متمم[(٣)]

= وإن عاد ليل الحرب بالنقع أليلاً ... فيوم عداه منه بالشر أليل

(١) عمدة الطالب ص ٣٥٧، أعيان الشيعة ج ٧، ص ٤٢٩، الأنوار العلوية ص ٤٤١.

(٢) رياض المدح والرثاء صفحة ١٧٤ من قصيدة طويلة للسيد جعفر الحلي «أحله الله دار كرامته».

(٣) المصدر السابق.



المحاضرة
التاسعة والعشرون

الدعوة إلى النظر بالبصيرة

دعاء
اليوم
التاسع
والعشرين

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم غشني فيه بالرحمة وارزقني
فيه التوفيق والعصمة وطهر قلبي
من غياهب التهمة يا رحيماً بعباده
المؤمنين.



٢٩

الدعوة إلى النظر بالبصيرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

※※※

الآية الكريمة ينطوي مضمونها على ثلاثة أبحاث:

المبحث الأول: في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

المبحث الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾.

المبحث الثالث: في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾. وقبل الدخول في هذه الأبحاث الثلاثة نتناول مقدمة تمهيداً لهذه الأبحاث.

القرآن الكريم يَحرصُ حرصاً بالغ الأهمية على أن يخرج الإنسان من القوقعة التي يعيش فيها، وهي قوقعة الطعام والشراب والجنس، والغرائز الأخرى، ذلك لأن الإنسان أسيرٌ لأمثال هذه الغرائز - إلا من استثني من البشر، وفي طليعتهم الأنبياء والأوصياء [عليهم أفضل الصلاة والسلام] - أما بقية أفراد المجتمع فإنهم أسرى إليها، ومن ثم ترى الكثير من الناس في هذه الحياة قد أوقف اهتمامه على تأمين راحة هذا الجسد، فلهذا تجده دائماً

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

يطلب الطعام الطيب، ويطلب اللباس الأنيق، ويطلب وسيلة النقل المحترمة، وإلى آخره من متع الحياة، والحال أن هذه الأمور لم يحرمها الإسلام، بل أنه أباحها قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]. ولكن بشرط أن لا تكون هي هم الإنسان الوحيد، لأنها إذا أصبحت همه الوحيد، فإنه قد يأتي عليه وقتٌ من الأوقات ينزلق فيه إلى معصية الله تعالى، فيخضع إلى مستنقع من المستنقعات، مثلاً يعامل بالربا، أو يأتي عليه وقتٌ من الأوقات يمدح فيه ظالم من الظالمين، أو... أو.... إلخ. وذلك لأجل أن يحصل على شيء من المال حتى يُشبع به أمثال هذه الغرائز، فعندها يقع في المحذور الشرعي، ولهذا جاءت الروايات تحث على الزهد في الدنيا، لأن الإنسان - في واقع الأمر - لم يكن فقط مجموعة من الغرائز. إنما هو عقل وروح بالإضافة إلى ذلك، فلهذا الله تبارك وتعالى أراد من خلال العقل الذي وهبه للإنسان، أن يصعد الإنسان عن هذا المستوى إلى مستوى أرفع وأكرم، وهو أن يُحكم غرائزه ضمن نطاق العقل والشرع، ذلك لأن الإنسان خليفة الله في الأرض، ومن الحقير جداً على خليفة الله في الأرض، أن يكون أسيراً لغرائزه فقط، ولهذا نجد أن الذي يحدد إنسانية الإنسان عند العقلاء، هي القفزات العقلية والمواقف الروحية، فلهذا لا يُقيّم الإنسان عند العقلاء باللباس الذي يلبسه، ولا بالبيت الذي يسكنه، ولا بالمال الذي يجمعه، ولا بالجاه الذي يكون لديه، إنما يقيم الإنسان بالقفزات الروحية، ومن هنا يأتي القرآن الكريم يريد من خلال هذه الآية أن يرفع بمستوى الإنسان، وذلك من خلال استعماله لعقله، لأن العقل موهبة كبرى لا توجد في الكائنات الأخرى، فالكائن الوحيد الذي كانت له القدرة على أن يتصرف في السموات والأرض هو الإنسان، وتصرفاته قد تمت بالعقل لا بالجسد. فلهذا قالت الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1] فكأنها بهذا التعبير تنبه الإنسان إلى هذا الملكوت الهائل في العظمة، لأن لفظة ملك، تختلف عن لفظت ملكوت، لفظة ملكوت صيغةُ تعظيم من الملك، كما يقول العلماء، أما لفظة الملك، فإنها تعطي معنى العلاقة بين الإنسان وبين الموجودات التي يتصرف بها، أو فيها، بينما لفظة الملكوت تعني صيغة مبالغة بالملك، بمعنى أنه ملك عظيم، ملك كبير، حدوده أكبر من الوصف، فلهذا القرآن الكريم يحث الناس على النظر في الملكوت. قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولكي نقرب المعنى إلى ذهن القارئ الكريم نطرح المثال التالي: يُذكر أنه في سنة ثلاث وثمانين بعد التسعمائة والألف، اكتشف عالم من علماء الفلك، مجرة من المجرات، وهذه المجرة تبعد عن هذه الأرض التي نعيش عليها، عشرة ملايين سنة ضوئية، وقد كان فيها ملايين من الكواكب. كما عقب على ذلك أيضاً مرصداً آخر في الولايات المتحدة، واعتبرت هذه أبعد مجرة اكتشفت

---

(١) انظر - التبيان - الشيخ الطوسي - ج٥، ص٤٤ في تفسيره لهذه الآية قال: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ﴾ ومعناه يتفكروا ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وعجيب صنعهما فينظروا فيهما نظر مستدل معتبر، فيعرفون بما يرون من إقامة السماوات والأرض مع عظم أجسامهما وثقلهما على غير عمد وتسكينهما من غير آلة فيستدلوا بذلك على أنه خالقها ومالكها وأنه لا يشبهها ولا تشبهه. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ يعني وينظروا فيما خلق الله تعالى من أصناف خلقه فيستدلوا بذلك على أنه تعالى خالق جميع الأجسام وأنه أولى بالإلهية من الأجسام المحدثة. وقوله تعالى: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ وهو أجل موتهم فيدعوهم ذلك إلى أن يحتاطوا لدينهم ولأنفسهم فيما يصيرون إليه بعد الموت من أمور الآخرة ويزهدهم في الدنيا وفيما يطلبونه من فخرها وعزها وشرفها فيدعوهم ذلك إلى النظر في الأمور التي أمرهم بالنظر فيها. وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ معناه بأي حديث بعد القرآن يؤمنون مع وضوح دلالته على أنه كلام الله إذ كان معجزاً لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، وسماه حديثاً لأنه محدث غير قديم لأن إثباته حديثاً ينافي كونه قديماً. وفي الآية دلالة على وجوب النظر وفساد التقليد، لأن النظر المراد به الفكر دون نظر العين، لأن البهائم أيضاً تنظر بالعين، وكذلك الأطفال والمجانين، والفكر موقوف على العقلاء.

آنذاك. أما في هذه السنين فقد اكتشفت مجرات أخرى(١). ولكن الأمر الذي نريده من وراء ذلك، هو إلى أي مدى يبلغ علم البشر، وهل أن هذه المجرات توجد فيها كائنات حية أو لا؟ ولهذا كنا نتصور ونسمع عن السماء بأنها الفضاء اللامتناهي، والقرآن الكريم أيضاً يؤيد هذا المعنى يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(٢). وهذا قد يعتبر تعبيراً صحيحاً، ولكن لا نهائي أو لا متناهي إلى أين؟ فعندما يتصور الإنسان هذا المعنى لا شك أنه سيضطرب العقل. ولهذا جاءت الرواية تقول عن أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام: (إياكم والتفكر في الله ولكن إذ أرتم أن تنظروا إلى عظمته، فانظروا إلى عظيم خلقه)(٣) لأن الإنسان من خلال تفكره في مخلوقات الله يصل إلى معرفة الله، فعلى الإنسان أن يعرف الله تعالى عن طريق مخلوقاته، فعندما يريد الإنسان أن يعرف الله - كما مر قبل قليل - ينظر كيف أن بيننا وبين إحدى المجرات هذا العدد الكبير وهو - عشر مليارات سنة ضوئية ، ولهذا لا ندري كم هناك من المجرات في هذا الوجود، وما هو مبلغ العلم الذي وصلنا إليه. فمن خلال هذا المعنى كم هو جميل بالإنسان، أن يدرس حقارته وأن يعرف ضعفه، ويعرف عظمة الله تبارك وتعالى وذلك عن طريق مخلوقاته، لهذا قالت الآية: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويراد هنا بالنظر في الآية الكريمة، النظر بالبصيرة لا بالبصر، لأن النظر بالبصر إذا لم يكن معه النظر بالبصيرة قد لا يغني شيء(٤)، قال الإمام أمير

---

(١) قد اكتشفوا مجرة مثل المجرة التي فيها مجموعتنا الشمسية، وتبعد عنا (١٢) ملياراً وثلاثمئة مليون سنة ضوئية، والسنة الضوئية مقياس ضخم قرابة الـ ٩,٤٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كم. فسرعة الضوء هي (٣٠٠) ألف كيلوا متر في الثانية، فكم هي المسافة التي بيننا وبين هذه ليعرف الإنسان قيمته وقدره الحقيقيين. وإذا قرأنا بعض الحقائق الكونية فإنها حتماً ستجرنا إلى الإذعان بوجود الله وبعظمته كخالق مبدع عظيم.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

(٣) أصول الكافي المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التفكر ح٣.

(٤) قال: الإمام علي عليه السلام (نظر البصر لا يجدي إذا عميت البصيرة)، (غرر الحكم). =

المؤمنين عليه السلام: (لا علم لمن لا بصيرة له)[1]. ومن ثم هناك آيات كثيرة تدعم هذا المعنى ومن جملتها هذه الآية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2]. آية أخرى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات التي تؤكد هذا المعنى، إذاً فالنظر بالبصيرة يُعرّف الإنسان بخالقه، وهذا ما دعت إليه الآية الكريمة، ولكن - للأسف الشديد - إن الكثير منا ينظر بالبصر فقط، ولهذا لا نجد تغييراً في مسيرة الإنسان، لا مع نفسه ولا مع مجتمعه، البعض يقف فينظر إلى السماء ويراها عامرة بالكواكب، ولكن هل هناك تفكير فيما ورائها من أبعاد؟ وهل هناك تفكير أن لها صلة بخالق؟ بينما هذا المعنى هو الذي يجب أن يتحقق في بصائر الناس وفي عقولهم، كي يصلون إلى الغاية التي خلقوا من أجلها، وهي معرفة الله تبارك وتعالى، لأنهم مدعوون إلى ذلك في الحديث القدسي: (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف)[4].

إذاً فالآية الكريمة تخاطب ذلك الإنسان الذي سخر كل طاقاته العقلية في نطاق الدار، وفي نطاق الثوب، وفي نطاق الرغيف، وفي نطاق اللذائذ الأخرى، وتبين له أنك أكبر من ذلك كله، لأنه روحٌ وعقل، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا كل هذه الاستهانة بهذه الروح، بحيث تتحول إلى غريزة قد تكون في بعض الأحيان أدنى من غريزة الحيوان، ذلك - كما قدمنا - إذا خضع الإنسان لمستنقع من المستنقعات. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

= وقال عليه السلام: (فاقد البصيرة سيء النظر)، (المصدر السابق). (ليست الرؤية مع الابصار، فقد تكذب العيون أهلها ولا يغش العقل من استنصحه)، (شرح النهج ج١٩، ص١٧٣).

(١) موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام - الشيخ هادي النجفي - ج ٢ ص ٥٤.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٤.

(٤) الغدير ج ١١، هامش ص ٣٨٣، بحار الأنوار ج ٨٤، ص ١٩٩.

(فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها، وتلهو عمّا يراد بها)[١]. من هنا يجب أن يكون هدف الإنسان في هذه الدنيا أن يحمل رسالة الخير إلى مجتمعه، ويحمل الشفقة والمودة إلى الناس، ويجعل طاعة الله تبارك وتعالى أمام عينيه.

وإن كان من الصحيح أن الإنسان في حاجة إلى الطعام، وفي حاجة إلى الدار، وفي حاجة إلى إلباس؛ لأنه بدون ذلك قد لا يستطيع أن يؤدي دوره العباد على الوجه الصحيح، إلا أنه يجب أن لا يكون همه الوحيد ذلك، وإنما تكون هناك موازنة في الأمر، والموازنة هي التي تجعل الإنسان يصل إلى طاعة الله، فيعطي الجسد من هذه الأشياء بمقدار ما يؤدي وضيفته، يأكل الإنسان ليعيش، لا يعيش ليأكل، ولهذا فإن الإنسان الذي ينظر بالبصيرة لا بالبصر فقط، تراه يأكل اللقمة البسيطة وهو أكبر منها، ويجلس في البيت العادي، وهو أكبر منه، ويلبس الثوب العادي وهو أكبر منه... و.، .و.، وهكذا. فبالتالي يصبح الطعام واللباس أداةٌ لحفظ ذلك الجسد الذي يحمل الكنز الثمين، وهو كنز العطاء الفكري، وكنز الخير والرحمة والشفقة والموقف، ... ... وإلخ، ولهذا نجد الإنسان الناظر بالبصيرة والبصر، في كل يومٍ من الأيام يمر عليه، يكتشف سراً من أسرار عظمة الله تعالى، لأن عظمة الله لا تقف عند حد أبداً. فكأن الله عزّ وجلّ أعطاء عباده كتابين[٢].
الكتاب الأول: هو العقل، فقد جعله الله تعالى موقعاً للثواب والعقاب، وقال:... (وإياك أثيب وإياك أعاقب)، وكما في رواية عن الأمام الباقر عليه السلام: (لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك إياك آمر وإياك

---

(١) نهج البلاغة/ الكتاب: ٤٥.
(٢) قال الإمام الكاظم عليه السلام: (إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة. فأما الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام: وأما الباطنة فالعقول). [البحار ج١، ص١٣٧].

أنهي، وإياك أثيب وإياك أعاقب)[١]. وأعطى عباده كتابٌ تدويني وهو القرآن الكريم، والقرآن كما قال النبي ﷺ: (لا يخلق على طول الرد ولا ينقضي عبره، ولا تفنى عجائبه)[٢]. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: (ولا يخلقه طول الرد ولا تفنى عجائبه من قال به اجر ومن خصم به فلح ومن قاتل به نصر ومن قام به هدي إلى صراط مستقيم)... الخ[٣]. ولهذا نجد المفسرين في كل زمن من الأزمان يأتون بتفسير يتناسب مع تطور العلم، لأن القرآن الكريم من شأنه أنه يواكب البشرية على امتدادها، فتبقى الإنسانية دائماً وأبداً تأخذ غدائها من القرآن الكريم، ومن ثَمَّ نجد المفسرين مثلاً، من جاء منهم قبل مائة سنه أعطى تفسيراً يتناسب مع ذلك العلم، ومن جاء منهم قبل ألف سنة أعطى تفسيراً كذلك، ومن جاء منهم اليوم يعطي تفسيراً آخر، فتفسير اليوم يختلف عن تفسير ما قبل مائة سنة، وتفسير ما قبل مائة سنة، يختلف عن ما جاء من قبل ألف سنة، وهكذا تبقى الإنسانية تأخذ غدائها من القرآن الكريم، والدليل على ذلك مثلاً كما في هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[٤]. فقد جاء بعض المفسرين من قبل كذا سنة، قال: أن المراد بالموزون في الآية الكريمة هو الشيء الذي يكال ويوزن، مثال ذلك الحنطة أو الشعير وأمثالهما، فكل شيء من شأنه أن يكال ويوزن هو الذي أشارت إليه الآية. فأدخل الآية في الآيات المختصة بالزكاة. ثم جاء آخر من المفسرين من قبل كذا مئة سنة مثلاً فاستنتج من قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾. أن المقصود بالموزون هو الشيء الذي يكون معتدلاً في الحلاوة والحموضة، بحيث لا تكون حموضته زائدة، ولا حلاوته زائدة، وإنما هو معتدل في الطعم، مثال ذلك كما يقول: البعض للبعض الآخر، إن فلاناً كلامه كلامٌ

---

(١) أصول الكافي ج١ ص٢٦.
(٢) بحار الأنوار ج ٨٩، ص ٢٧، تفسير العياشي ج ١، ص ٦.
(٣) مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) - الميرجاني - ج ٢، ص ١٠٤.
(٤) سورة الحجر، الآية: ١٩.

موزون، ذلك عندما يكون كلام ذلك الشخص متناسق ومُعبر، أيضاً المقصود هنا أن هناك تناسق في نسبة الحلاوة والحموضة والملوحة، بمعنى أنه لذيذ الطعم، ومقبول الطعم، هذا القول الثاني.

القول الثالث: عندما جاء العلم مؤخراً، كنا نفهم من كلمة موزون، أن لفظة - موزون - تعني معادلة[1]، بمعنى على افتراض شجرة الاترنج، أو الكمثرى، أو البرتقال، أو أي شجرة من الأشجار مثلاً، فإن كل شجرة تأخذ بنسبة معينه، وتأخذ بوزنٍ معين. مثال ذلك الصيدلاني عندما يركب الدواء، فإنه يضع مقدار من الوزن من هذا، ومقدار من الوزن من هذا، . . . . . . وهكذا، إلى أن يكون الدواء مناسباً وله مردوده الإيجابي في العلاج. الباري تبارك وتعالى يجعل للشجرة جذور في الأرض، وتأتي تلك الجذور إلى تلك العناصر الموجودة في الأرض وتأخذ حاجاتها بالكامل، تأخذ بمقدار معين، وتأخذ كسفر بمقدار معين، وهكذا، مثلاً من العناصر الأخرى الباقية؛ يعرفها المختصون في الزراعة، معنى ذلك أنها تأخذ بنسبة معينة، ولهذا - من المفترض - إذا اختلت تلك المعادلة تختل نوعية النبات، النبات يأخذ بمعادلة، ولكن نسأل من أين للنبات هذه العقلية الدقيقة؟ هل الفلاح علّم النبات أن يأخذ تلك المعادلة الدقيقة؟ وهل أن النبات فيه قابلية أو شبكة عصبية بأن يفهم ذلك؟ الواقع كلا. هذا الفهم غير متيسر بالنسبة للنبات، ولكن يبقى الشيء محكم، فما اتفق في يوم من الأيام مثلاً أن شجرة برتقال أخرجت قرع، أو العكس. فالنسبة تبقى عند الشجر محفوظة كما هي، فمن

---

(١) يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في ذيل تفسيره لهذه الآية: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ ما أجمل هذا التعبير وأبلغه! (موزون) من مادة (وزن) ويشير بذلك إلى الحساب الدقيق، النظام العجيب، والتناسق في التقدير في جميع شؤون النباتات، وكل أجزائها تخضع لحساب معين لا يقبل التخلخل من الساق، الغصن، الورق، الوردة، الحبة وحتى الثمرة. ثم قال: يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النبات، وكل تحمل خواصاً معينه ولها من الآثار ما يميزها عن غيرها، وهي بابُ معرفةٍ واسع وصولاً لمعرفة البارئ المصور جل شأنه، وكل ورقة منها كتاب ينطق بمعرفة الخالق. [تفسير الأمثل ج٨، ص ٤٧].

أين للنبات هذه القدرة؟ القرآن الكريم يخبرنا بذلك، يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1]. هذا هو الأمر الذي يأتي القرآن الكريم ويدفع أذهاننا إليه، حيث أنه يطلب من الإنسان أن لا يحبس عقله في قوقعة الطعام، والشراب، والجنس، ذلك لأن الإنسان واقعاً أكبر من ذلك كله. يقول: الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (أمقت العباد إلى الله من كان همه بطنه وفرجه)[2]. ويقول عليه السلام: من كانت همته ما يدخل بطنه كانت قيمته ما يخرج منه[3].

إذاً فلنرجع للآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ ليس هذا فقط، وإنما على الإنسان أن ينظر إلى الإبداع في الخلق بأكمله، فكل مخلوق من مخلوقات الله تنظر إليه، لا بد وأن تلمس فيه شيئاً كبيراً من الإبداع، فكل كائن من الكائنات تقع عليه عين الإنسان لا بد وأن يجد فيه إبداع الخالق، فبصمات الإبداع واضحة في كل كائن صغيراً كان أم كبيرا، فمثلاً عندما ننظر إلى الحيوانات البسيطة، وذلك ابتداءً من الحيوان، - الخلية الواحدة - وصاعداً إلى الحيوان المعقد، ومروراً بالنبات، - النبات البسيط ، إلى الدوح الكبير، وكذلك بالوصول إلى ما نسميه بالجماد، وإلى تركيب الجبال، وإلى التربة، وتركيب النباتات، وهكذا، ما من شيء خلقه الله تعالى إلا وأتقن خلقه، ووضع عليه - أو فيه - بصمة الإبداع، ورُسمت فيه عظمة الخالق الكريم. فلهذا الآية الكريمة قالت: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ بمعنى أن كل شيء خلقه الله تبارك وتعالى أحسن خلقه، على تعبير القرآن الكريم، فلم يكن في الوجود شيء لم يحسن الله خلقه، ويجب أن لا نتصور أن هناك شيئاً خلق الضرر، أو أن هناك شيئاً لم تكن فيه فائدة من خلقه، فنحنُ إذا كنا لا نعرف أسرار ذلك الشيء بالفعل، فسيأتي يوماً من الأيام تتضح لنا فيه تلك الفائدة.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٦٣ - ٦٤.
(٢) في عيون المواعظ: ١٢٤ .
(٣) ميزان الحكمة محمد الريشهري ج ٤ ص ٣٤٧٢.

حكاية: يقال أن أحد الجبابرة كان ذات يوم جالس ومعه مجموعة من وزرائه، فبينما هو كذلك، وإذا قد جاءت بالقرب منه الخنفساء، - أقبلت تجني إلى أن وصلة بالقرب منه -، فلما نظر إليها قال أبعدوها عني فإني أتقزز من النظر إليها، فأبعدوها عنه، إلا أنها جاءت مرة أخرى، - هي أو نظير لها، فالتفت إلى وزرائه وكانوا معه، قال: لماذا خلق الله الخنفساء، وما هو الهدف من خلقها؟ ثم عقب قائلاً: إني لا أرى لخلقها فائدة أبداً، فقالوا له: صحيح ما تقول أيها الملك. يقول المؤرخون: فلم تمضي إلا أياماً قليلة، وإذا قد ابتلي بخراج، - أي بداء عضال - فعرض نفسه على الأطباء فجهزوا له مجموعة من الأدوية التي يعتقدون من خلال دراساتهم في الطب أنها تفيده، إلا أنه لم يستفد بشيء منها إطلاقاً، فبقي بعدها يعاني من ذلك المرض، لأنه في كل يوم يزداد به، فدخل عليه أحد الأشخاص يعوده، وفي أثناء الحديث قال له: أولم تعرض نفسك على الأطباء؟ قال: بلا، ولكن الأطباء عجزوا عن معالجتي. فقال له ذلك الشخص: إني أشير عليك بدواء بسيط، وقد يكون في متناول يدك في كل وقت، قال: وما هو؟ قال: هو حشوا جوف الخنفساء. - الحشو الموجود في بطن الخنفساء، استخرجه وأحرقه وطلي به ذلك المكان. فلما سمع ذلك منه قال: أو جئت تستهزئ بي؟ قال: كلا، ولكن ما عليك أيه الملك إلا أن تستعمله وستشفى. تقول الرواية: فاستعمله مرتين فبرء، فأدرك أنه لماذا خلق الله الخنفساء[1].

فلا ندري أن هذا الأمر جاء بصورة مباشرة، أي أن علاجه كان حقيقةً في ذلك، أو أن الله تبارك وتعالى أراد أن يطلعه على خطئه، عندما قال ما قال. وقد تكون فيها أسرار وأسرار لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى، فالغرض إن في هذا الكون معادلة دقيقة، بمعنى أن البيئة بكل الخواص التي فيها، خلقها الله تعالى بتوازن، إلا أن الناس لا تعرف ذلك التوازن، وما هو نتيجته، ولكن

---

(١) قريب من هذا التعبير في شرح مئة كلمة (ابن ميثم): ٢٤١ - ٢٤٢، شرح نهج البلاغة ٧: ٢٧٩.

يجب علينا أن نعرف وأن ندرك أن الخالق مبدع، ولا شيء إلا وإبداع الله يتجلى فيه.

ثم انتقلت الآية في بحثها الثاني فقالت: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ وهنا يجب أن نتنبه إلى هذه النقلة الموجودة في الآية، فالقرآن الكريم، أولاً يريد أن يفتح عقول الناس، ويعلمهم عظمة الله تبارك وتعالى، ثم ينتقل رأساً فيخبرهم بأن ورائهم موت. فما هي الحاجة؟ الحقيقة أن فقرات الآية الكريمة فيها ترابط، وهذا الترابط محكم في حد ذاته. فكأن الآية الكريمة تنبه ذلك الإنسان، الذي لا يعرف في الحياة سوى الرغيف واللباس، والحاجات الجسدية، - إلى درجة أنه يبني القصر ويطلب منه أكبر قدر ممكن من البقاء، ويجمع أموالاً لو أنه عمر في الحياة آلاف السنين - وهو يصرف منها - لم تنقرض - بأن تقول له أن ورائك موت.

يقول المؤرخون: مر النبي ﷺ ذات يوم باسكافي يصلح الأحذية، وكان عنده أسامة بن زيد، وبيده حذاء يريد أن يصلحه له، حيث أنها كانت مقطوعة، وفي أثنا وقوفه مر به رجل فسلم عليه ثم قال له: يا أسامة إن عندي سلعة فهل لك أن تشتريها مني؟ فقال له: أسامة نعم؛ إلا أنه ليس لدي أموالٌ بالفعل، - أي أنه لا يوجد عندي نقد - ولكني أشتريها منك وأدفع لك ثمنها بعد شهر من هذا التأريخ، يقول المؤرخون: إن هذه الكلمات سمعها النبي ﷺ [1] فتبسم، فسألوه أصحابه عن ذلك؟ فقال عليه السلام: - إن أسامة لطويل الأمل. (والذي نفسي بيده، ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا اسيغها حتى أغص بها من الموت)[2]. واقعاً النبي ﷺ بكلامه

(١) كما روي أن أسامة بن زيد اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل . . . الخ) التحفة السنية) مخطوط) السيد عبد الله الجزائري ص ٧١.

(٢) جامع السعادات ج٣، ص ٣٦. وقال ﷺ: (يا بني آدم! إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده! أن ما توعدون لآت وما أنتم بعجزين) [المصدر السابق].

هذا ،لا يريد أن يُشل الحياة الاقتصادية، كيف ذلك وهو يعلم بأن الإسلام وضع عقوداً طويلة الأجل، ولكنه يريد أن ينبه الناس إلى تفاهة هذه الدنيا، وذلك بأن لا يغترون بملذاتها في يوم من الأيام، ولكنه يريد من المسلم أن يجعلَ هذه الحقيقة أمام عينيه، لأنه إذا جعلها أمام عينيه تهون عنده الحياة بجميع ما فيها، وبالتالي حرصه على الحياة يقل شيئاً فشيء، ويتوجه إلى عالم آخر. ، وإذا توجه إلى العالم الآخر، وهو عالم الآخرة، حسن سلوكه في هذا العالم، فكما أنه يريد أن يحرص على هذه الدنيا، عليه أن يتوجه إلى عالم الآخرة، ويضع له حساب، لأنه ماضٍ إليه شاء أم أبى، فلا يضحي بذلك العالم الكبير من أجل شيء يسير في هذا العالم، قال رسول الله ﷺ : (كن كأنك عابر سبيل، وعد نفسك في أصحاب القبور، عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، عجبت لمؤمل دنياً والموت يطلبه)[1] لكنه - للأسف الشديد - أن همة الإنسان تقتصر على الملذات الحاضرة، التي سرعان ما تزول. وإليك هذا المثل، يقال أن النبي ﷺ مر ذات يوم بالبادية، وقد كان هناك شخص من أهلها أحسن إليه، فأراد النبي ﷺ أن يقابله على إحسانه. فعندما أراد أن يفارقه قال له: ائتني المدينة. يقول المؤرخون: وما أن مضت إلا أياماً قلائل، وإذا قد بدت لذلك الرجل حاجة في المدينة، فدخلها فلما قضى حاجته، سأل عن النبي ﷺ فأوصلوه إليه، فلما أن وصل إلى النبي ﷺ قال له النبي: أيما أحب إليك ثمانون من الضأن أم أسأل الله أن يجعلك معي في الجنة؟ فقال: بل ثمانون من الضأن، فقال النبي ﷺ : أعطوه إياها. واقعاً إذا تأملنا في مجتمعنا، نجد أن هذا هو المنطق السائد عندنا، وهو المنطق الموجود فعلاً، بل أن المنطق السائد عند البعض منا، أنه يبيع آخرته بواحدة من الضأن، وليس بثمانين من ضأن، كما أن وضع الآخرة لم يكن سلعه، ولكننا نضعها مقابل ثمن، فنبيعها مثلاً بكلمة نابية، فنجلس في ندواتنا نستغيب الناس، ونعتدي على كراماتهم، آخرون يبيعونها بالغش وبالدجل، فبدلاً من أن

(١) مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ٢، ص ١٠٩.

يكون الرجل منا واقعي، يكون دجال، وهكذا، فلان يبيع آخرته بكلمة باطلة، فبدلاً من أن يقول الكلمة الطيبة، يقول الكلمة الباطلة.

الغرض نعود إلى صلب الموضوع، يقول المؤرخون: كان ذلك الرجل الأعرابي يقول: يا رسول الله إني أريد الضأن، لأنه نقد، ولا أريد ما تقول عنه في الجنة. وهذا بالفعل سلوك الكثير منا، فمثلاً لو كان هناك مسح لمشاعر الناس وقلوبهم، لوجدت الكثير منا يقول هذا القول. ولهذا يقول الحديث: (لو تكاشفتم لما تدافنتم)(١). تقول الرواة ثم قال: إن صاحبت موسى كانت أعقل منك، قالوا له أصحابه: يا رسول الله ومَنَ صاحبت موسى؟ قال: (وذلك أن عجوزاً دلته على عظام يوسف عليه السلام فقال لها موسى عليه السلام : أيما أحب إليك أن أسأل الله أن تكوني معي في الجنة أم مائة من الغنم؟ فقالت: بل الجنة)(٢). والواقع إن هذه النظرة هي أفضل من الرغبات المؤقتة، لأن الحياة أيام وتنتهي، مهما يتصور الإنسان بقائه فيها، ورحم الله أبو نواس إذ يقول:

يا بني النقص والغير — وبني الضعف والخور
وبين البعد بالطباع — على القرب بالصور
أين من كان قبلكم — من ذو البأس والخطر
سبقونا إلى الرحيل — وإنا لبالأثر
من مضى عبرة لنا — وغداً نحن معتبر
فكأني بكم غداً — في ثياب من المدر
قد نقلتم من القصور — إلى ظلمة الحفر
رحم الله مؤمناً — ذكر الموت فأذكر(٣)

إذاً فالآية الكريمة عندما قالت: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أنها

---

(١) شرح نهج البلاغة بن أبي الحديد ج ٢٠، ص ٢٩٢.
(٢) لسان العرب ابن منظور ج ١٣، ص ٨٢.
(٣) ديوان أبو نؤاس: ٣٤٧.

جاءت تبين للناس أنهم سينقلون إلى عالم آخر، وهو عالم الآخرة، فعليهم حينئذ أن يأخذوا اهبتهم له.

ثم انتقلت الآية في بحثها الثالث وهو الأخير قالت: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا المقطع من الآية الكريمة يحتوي على عمق، ولكن لا نريد الدخول في أعماقه، لأن الدخول في أعماقه قد يدخلنا في متاهات[1]، ولكن سنحاول أن نأخذ فكرةً عامة، وذلك عما دار من صراع في أيام العباسيين، خصوصاً في هذا المقطع من الآية؛ الصراع الذي حدث هو أن الإمامية وكذلك المعتزلة قالوا: أن القرآن الكريم مخلوق[2]، بينما جماعةٌ آخرون قالوا: إن القرآن قديم بقدم الخالق، ولكن هل أن هذا الاختلاف في الرأي لمفهوم الآية، يُسوغ أن تتحمل جماعة من الناس سجون وعذاب ومشاكل أخرى؟ لا شك إن ما حصل آنذاك - في واقع الأمر - هو من ضيق الأفق، وإلا فالاختلاف في الرأي من المفترض به أن لا يؤدي إلى قتل وقتال في الحقيقة، ولكن - للأسف الشديد - أن ما حصل هو عكس ما يرتجى، فمثلاً عندما نرجع إلى المأمون العباسي، المأمون العباسي عالم كما هو معرف، بل لم يأت له نظير عند العباسيين، حيث كانت له ثقافة واسعة، شهد له بها الكثير ممن عاصروه، فعلى هذا إذا كان هناك اختلاف يجب أن لا يؤدي هذا الاختلاف إلى نزاع وإلى قتل وقتال، فمثلاً فلان عنده رأي، وفلان آخر عنده رأي، والرأي الأول مخالف للرأي الثاني، فما الداعي إلى الصراع؟ مثلاً: الآن بعض علماء المسلمين يقول: لا يجوز للرجل المسلم أن يقارب زوجته بعد انتهاء العادة الشهرية إلا بعد أن تغتسل[3]. لماذا؟ لأنه فهم هذا المعنى

---

(١) فمن أراد الاطلاع على ذلك فعليه الرجوع إلى كتاب العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام للشيخ جعفر السبحاني من ص ٧٤ إلى ص ٧٨، وهو أحد الكتب التي تكفلت بهذا الجانب.

(٢) الانتصار - الشريف المرتضى - ص ٢٦.

(٣) قال الشافعي: لا يحل وطؤها إلا بعد أن تستبيح فعل الصلاة، إما بالغسل مع وجود الماء، أو التيمم عند عدمه، فأما قبل استباحة الصلاة فلا يجوز وطؤها على حال. وبه قال الحسن البصري، وسليمان بن يسار، والزهري، وربيعة ومالك، والليث بن سعيد=

من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾(١). بينما علماء آخرون قالوا: يجوز الوطء بعد النقاء [أي بعد انقطاع الدم وغسل الموضع] حتى لو لم تغتسل(٢) بناء على عبارة: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾(٣) فما هو الفرق؟ الفرق يقول التطهر تبعل، والتبعل يعني عمل محتمل، فيه جهد، وفيه تكليف، من قبيل احتمل، احتمل غير حمل، يعني احتمل حمل لمشقة، فمشقة تكليف الغسل. فلهذا استفاد منه أن المرأة لا بد وأن تغتسل قبل أن يقاربها زوجها، آخر قال: إذا أنقطع منها الدم وحصل النقاء واغتسلت موضعياً يجوز مقاربتها(٤)، فهل أن هذه المسألة تستوجب أن يُتعارك عليها؟ واقعاً إن هذا الأمر لا يستوجب العراك، ذلك إذا كان لدينا أناس أصحاء، لأن الاختلاف العلمي يوسع الأفق، ويوسع المدارك، ويعطينا ثروة من العلم عالية نختزنها للأجيال المقبلة، كما نستفيد منها أيضاً في حياتنا. ولكنه إذا بحثنا عن أسباب الإختلاف، نجد أنه المفجر لدملة، وتجد السياسة من ورائها، وهنا المشكلة.

الغرض أن الآية قالت: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ الواقع أن الحديث إنما سمي حديث لأنه محدث، ولأنه مأخوذ من الحداثة(٥)، فعندما نقول حديث

= والثوري [المصدر المحلي٢: ١٧٣، والمجموع٢: ٢٧٠، والمغني لابن قدامة١: ٣٣٨، وشرح النوري لصحيح مسلم ٢: ٣٣٦، ما ذكرناه في الهامش بواسطة كتاب الخلاف - الشيخ الطوسي - ج ١ ص ٢٢٨].

(١) سورة البقرة مقطع من الآية: ٢٢٢.

(٢) أنظر الخلاف - الشيخ الطوسي - ج ١ ص ٢٢٨ مسألة ١٩٦ إذا انقطع دم الحيض جاز لزوجها وطأها إذا غسلت فرجها، سواء كان ذلك في أقل الحيض، أو في أكثره، وإن لم تغتسل.

(٣) سورة البقرة مقطع من، الآية: ٢٢٢.

(٤) أنظر كتاب الخلاف - الشيخ الطوسي - ج ١ ص ٢٢٧ إلى ص ٢٢٩ ففي هذه الصفحات يستعرض الشيخ آراء بالتفصيل.

(٥) قال الشيخ الطوسي في التبيان: قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ معناه أي شيء من القرآن محدث بتنزيله سورة بعد سورة وآية بعد، الآية: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي كل ما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل - في قول الحسن وقتادة - وفي هذه الآية دلالة على أن القرآن محدث، لأنه تعالى أخبر أنه ليس يأتيهم ذكر من=

لأن الكلمة تقع من وراء كلمة، فلو كان قديماً لكان كله دفعة واحدة، فالحديث إنما سمي حديث لأنه يأتي بالتسلسل، مثال ذلك: (قم يا فلان وتعال إلى هنا) فأولاً تأتي لفظة قم، وبعدها تأتي يا فلان، وبعدها تأتي وتعال، وبعدها تأتي إلى، وبعدها تأتي هنا. فيأتي الكلام بالتسلسل واحدةً بعد واحدة، والمحدث مخلوق والمخلوق حديث، فلهذا استدل العلماء من هذا المقطع على أن القرآن الكريم مخلوق، وهذا دليل واضح، لأن الحديث إنما عبر عنه بأنه حديث، لأن ألفاظه تنزل واحدة من وراء واحده، محدثة ولما أن كانت محدثه، وعبر عنها القرآن بذلك، فهو محدث[1] فإذا كان هناك اختلاف في الرأي فليس فيه بأس، كلٌ له رأيه، وبعد ذلك فالصواب هو الذي يرجح، وذلك من أي فئة جاء. إلا أنه عندما جاء المتوكل العباسي نكل بكل من يذهب إلى هذا الرأي - المخلوق - ولهذا إذا كانت تصفية خصوم، فقد حدثت في زمن المتوكل - كما يقول أحد العلماء - فلهذا تجد أن المتوكل يمدح بشكل غريب، منها أنه محيي السنة ومميت البدعة وخليفة الله[2]. حتى جُند له الأدب ووقف أحد الشعراء يقول:

حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى ذاك الدجى وانجاب ذاك العنبر

= محدث من ربهم إلا استمعوه وهم لاعبون. والذكر: هو القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل ٤٤ يعني القرآن، ويقويه في هذه الآية قوله: ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ والاستماع لا يكون إلا في الكلام، وقد وصفه بأنه محدث، فيجب القول بحدوثه. . . . إلى آخر كلامه انظر التبيان ج ٧، ص ٢٢٧.

(١) وإذا أردت التعرف على فلسفة هذا المعنى فارجع إلى تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٤، من ص ٢٤٧ إلى ص ٢٥٠، ففي هذه الصفحات بحث ممتع يبعدك عن كل الإشكالات. على أن كل ما ذكروه يتلخص في أحاديث وردت عن أهل البيت عليهم السلام بهذه الصورة، منها عن زرارة قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن القرآن فقال لي: لا خالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله [المصدر بحار الأنوار ج ٨٩، ص ١٢٠] وسأل الإمام الصادق عليه السلام عن القرآن فقال: لا خالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله. [المصدر الخلاف ج٦، ص ١٢١].

(٢) ورد ذلك في أرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣ : ٢٣٩.

فافتنَّ فيك الناظرون فإصبع يومى إليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها من أنعم الله التي لا تكفر[١]

وهذا المعنى كله يأتي من بريق الأموال، التي أغدقت على رؤوس أولئك الشعراء، ولكن ما نقوله هنا، مَن هو الذي تكون رؤيته من أنعم الله؟ واقعاً هو من يتصف بالعبودية لله تعالى، أما إذا كان كهذا الرجل فلا؛ والدليل على ذلك أنه دخل إلى سامراء، وسامراء قد ملئت بالقصور الكبيرة والكثيرة، ويكفيه قصر من تلك القصور، التي قد بناها مَن جاء من قبله، إلا أنه لم يكتفي بتلك القصور كلها، حتى بنى الجوشق وبنا الجعفري، وكان تكلفة بناء كل واحد منهم، مئتي مليون درهم، - في وقت كانت قيمة الدرهم الشرائية عالية، وذلك أن الدرهم يُشغل مجموعة من الرجال في اليوم الواحد -، وكل ذلك كان يختلسه من بيت مال المسلمين، في الوقت الذي كان فيه علويات من ذرية رسول الله ﷺ حامل الإسلام، يبعن بعض التمر الذي كان من غرس رسول الله ﷺ، لكي يأكلن رغيفاً من الخبز؛ ولم يكتف بهذا، بل أنه أمر بإحضار سرية من الجواري وعددها أربعة آلاف جارية. يقول المؤرخون: حتى طاف عليهن بأجمعهن[٢]. هذي هي بعض تلك المصائب التي ذكرها لنا التأريخ، والآن يقدمه البعض نموذجاً يفتخر به، نعم يُقدم لأبنائنا الطلبة في التربية والتعليم، الم يكن هذا ظلم للإسلام والمسلمين؟ الم يكن هذا تعدي على سنة سيد المرسلين؟ أوليس عندنا محراب طاهر؟ أوليس عندنا قيادة وضعها الله تبارك وتعالى؟ فلماذا كل هذا التراجع في تأريخ المسلمين عن إبراز الحقيقة؟؟؟ وبعد ذلك تكون الخاتمة أن هذا الرجل ملازماً لكأس الخمر ليلاً ونهاراً، ومعه الفتح بن خاقان ويعبئا من الخمر وما يشبعا، ويخرج إلى الصلاة يؤم المسلمين، ولم تزل آثار الخمرة بفمه، يمسحها عن فمه من كان معه. وبعد ذلك يقف الرجل نفسه[٣] الذي كان يقول:

---

(١) الكنى والألقاب الشيخ عباس القمي ج ٢ ص ٦٦.
(٢) انظر تأريخ الخلفاء: ٢٧٩.
(٣) الشاعر البحتري.

يجدون رؤيتك التي فازوا بها ... من أنعم الله التي لا تكفر

يقف ليقول:

هكذا فلتكن منايا الكرام ... بين ناء ومزمر ومدام
بين كأسين أروتاه جميعاً ... كأس لذاته وكأس الحمام(١)

الغرض ويبقى هذا الرجل هكذا دأبه، وهكذا ديدنه، وبعد ذلك يرسل إلى الإمام الهادي ليلاً، يقول المؤرخون: وكان الإمام الهادي عليه السلام جالساً في بيته، فدخلوا عليه فوجدوه قد استقبل القبلة، ولم يكن عنده في البيت سوى مطهرة، وإناء للطعام، وسيف معلق حمائله متين، وسجادة للصلاة، وكان الإمام في ذلك الوقت جالس على تلك السجادة، وهو مستقبل القبلة، ودموعه جارية على خديه، يقول المؤرخون: فحملوه على الحالة التي هو فيها وأدخلوه على المتوكل، قالوا: فلما أدخل إليه وجده في قبة مزينة، في وسط بستان، وبيده كأس فيها خمر، فقربه وهم أن يناوله الكأس فامتنع الإمام عليه السلام ثم قال: (إنا أهل بيت ما خامرت لحومنا ودماءنا ساعة قط). فقال: إذاً فأنشدني شعراء، فأنشده الإمام:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تمنعهم القلل
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم ... فأسكنوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صائح من بعد دفنوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجبة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا(٢)

الواقع إن هذه هي الموعظة البالغة، وكفى بها من موعظة، ولكن لمن اتعظ. فمحاسن الإنسان إذا لم تتغير قبل أن توضع في التراب، لابد من أن

---

(١) هذان البيتان قالهما أحمد بن إبراهيم الأسدي أنظر بحار الأنوار ٥: ١٩٢ ١٩٤، ثمار القلوب (الثعلبي) ١: ١٩١ - ١٩٠.
(٢) كنز الفوائد أبو الفتح الكرخي ص ١٥٩.

يغيرها التراب، التراب يغيّر المحاسن، ولكن يقال: أن الأنبياء وأولاد الأنبياء لا يغير محاسنهم التراب، بل لا يغيرها شيئاً أبداً، وإلى هذا المعنى أشار الكعبي في قصيدته عندما مر بمصرع الحسين عليه السلام يقول:

ومجرح ما غيرت منه القنا حسناً وما أخلقن منه جديداً
قد كان بدراً فاغتدى شمس الضـ حى مذ ألبسته يد الدماء برودا
تحمي أشعتها العيون فكلما حاولن نهجاً خلنه مسدودا
وتظله شجر القنا حتى أبت إرسال هاجرة لديه بريدا[1]

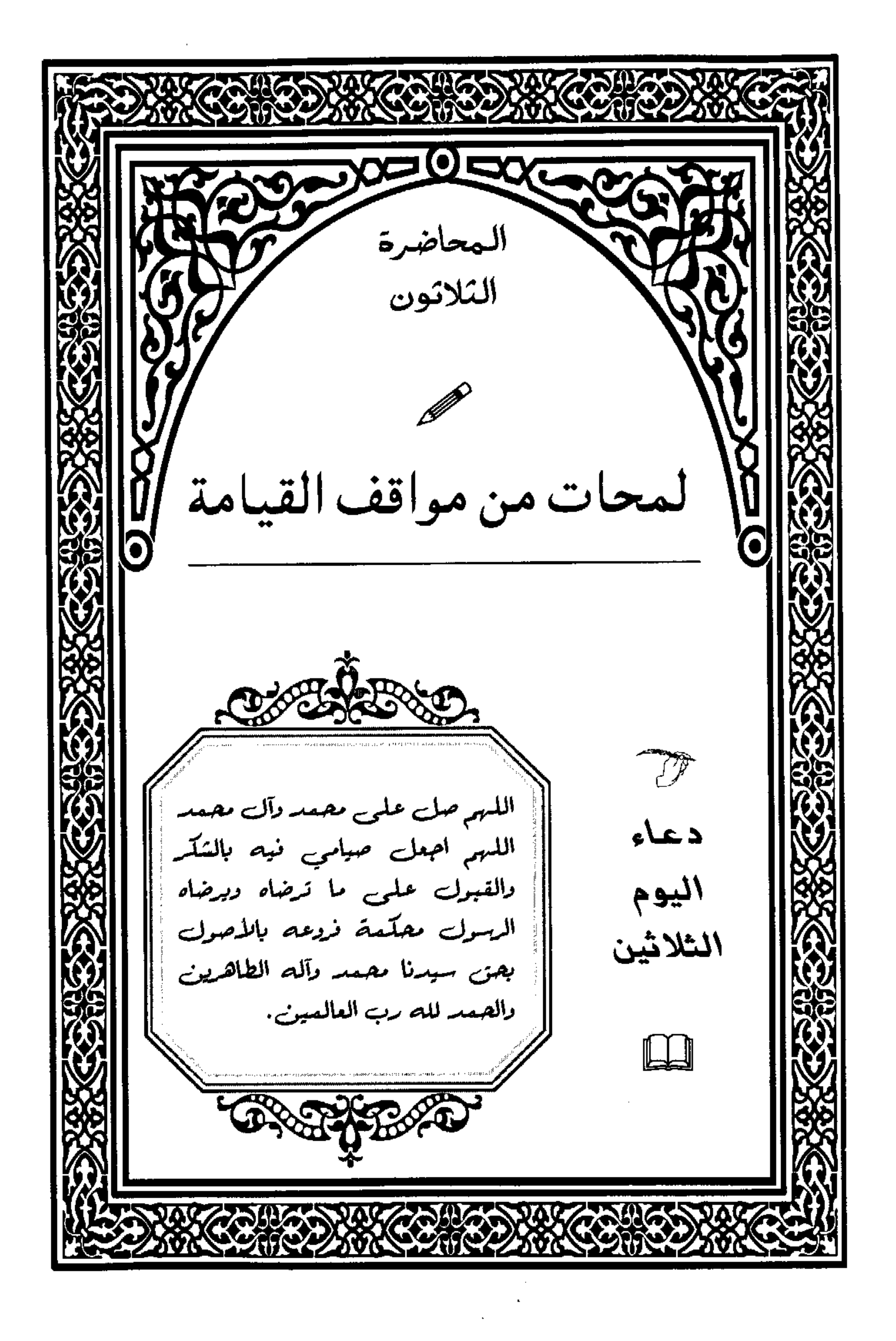
متى كل هذا؟ يقول المؤرخون: عندما نزلن إليه حرائر بيت الرسالة، وذلك بعد أن تناصف الليل، وبعد أن هدأت العيال والأطفال.

فغمرن النحور دماً ولو لم يكن قانياً غسلن فيه النحور
فدمعها لو لم يكن محرقاً عاد به وجه الثرى معشبا
كان للوافدين بحراً خضما وللدين النبي كم شاد رسما
إسهري ياجفون هاشم دوما واملئي العين يا أمية نوما
فحسين على الصعيد صريع

إنا لله وإنا إليه راجعون.



(١) أعيان الشيعة السيد محسن الأمين ج ١٠، ص ٢٣٨، حياة الإمام الحسين عليه السلام الشيخ باقر شريف القرشي ج ١، ص ٣٧.



المحاضرة
الثلاثون

لمحات من مواقف القيامة

دعاء
اليوم
الثلاثين

اللهم صل على محمد وآل محمد
اللهم اجعل صيامي فيه بالشكر
والقبول على ما ترضاه ويرضاه
الرسول محكمة فروعه بالأصول
بحق سيدنا محمد وآله الطاهرين
والحمد لله رب العالمين.

٣٠

لمحات من مواقف القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[١].

※※※

إن الآية الكريمة في مضامينها ترسم للبشرية مشهداً من مشاهد القيامة، الذي لا بد وأن يواجه كل فرد من أفراد البشر، وذلك عندما يحشر بين يدي الله تبارك وتعالى.

وأول فصل من فصول الآية الكريمة، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يقول: العلماء[٢] أن المراد بالكتاب في الآية الكريمة هو الجنس، - أي جنس الكتاب - فكل مخلوق من البشر، ذكراً كان أو أنثى، توضع بين يديه أوراق قد كتبت فيها أعماله، وفي ضمن هذا التعريف للكتاب - عند العلماء -، ينبثق السؤال الأول: كيف يكون هذا المعنى، والله تبارك وتعالى هو الذي يحاسب الخلائق، وهو يعلم بكل ما يختلج في ضمائرهم، قال جل وعلى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٣]. فبناءً على هذا المعنى، ما الموجب إلى وضع الكتاب؟

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) كما في قطر الندى وغيره من كتب النحات.

(٣) سورة ق، الآية: ١٦.

والجواب: هو أن الإنسان قد يتصور بأن لديه أعمال طيبة، قد جاء بها في دار الدنيا، إلا أنه لم يحصل على الأجر المكافئ لها، أو أنه يَعتبر أن الأجر كان ناقصاً؛ وكذلك عندما يؤتى به للعقاب، ربما يتصور أنه ظُلم، ولكن عندما يوضع الكتاب أمامه، كلٌّ شيءٍ بوقته وبتاريخه، بهذا لم يحصل له الإشكال أو الإنكار. وبعبارة أوضح، حتى لا يعتقد الإنسان في قرارة نفسه بأنه ظُلم، أو فاته أجر عمل جاء به في دار الدنيا وهو يرجو آنذاك الجزاء عليه، فلهذا ذكرت الآيتين السابعة والثامنة من سورة الزلزلة، أن كل عمل يعمله الإنسان، سواءً كان ذلك العمل خيراً أو شراً يرى نتائجه آنذاك، قال جل وعلا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[1]. فلهذا ورد أن كل نهمة من نهمات الإنسان في دار الدنيا تسجل، وأن كل فعل من الأفعال يقوم به في دار الدنيا يسجل[2].

السؤال الثاني: أيضاً بخصوص الكتاب الذي أشارت إليه الآية، ما هو حجم هذا الكتاب الذي يضم بين طياته أعمال الإنسان بأجمعها؟ - والإنسان في دار الدنيا تكون لديه أعمال كثيرة، فقد يكون البعض من الناس حتى وإن خرج من الدنيا تبعات الأعمال التي عملها في دار الدنيا تلاحقه، سواءً كانت خيراً أم شراً، - ولتوضيح هذا السؤال البعض يكرس حياته في خدمة الإسلام والمسلمين، ولهذا حتى وإن خرج من هذه الدنيا تبقى آثار تلك الخدمات التي

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ - ٨.

(٢) ورد عن النبي ﷺ: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبا: ١٨] يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً... فأما الذين بصورة القردة فالقتات من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت، وأما المنكّسون على رؤوسهم فآكلة الربا، والعمي الجائرون في الحكم، والصم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون بألسنتهم، فالعلماء والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم، الذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع من نار، فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين أشد نتناً من الجيف، فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله تعالى في أموالهم، والذين يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء. مجمع البيان ج١٠، ص٤٢٤.

أسداها؛ من قبيل مسألة فقهية يُعمل بها، أو نظرية علمية يعمل بها[١] أو. . ، أو. . . الخ.

وقد يكون البعض الآخر من الناس يقوم بعمل لا يرضي الله عزّوجلّ في هذه الدنيا، ويمكث ذلك العمل يُعمل به حتى بعد موته، وهذا وذاك تبعات أعمالهم تلاحقهم بعد رحيلهم من هذه الحياة، وهذا ما يقوله مضمون الحديث الشريف، عن أبي جعفر عليه السلام قال: (من علّم باب هدى فله أجر من عمل به ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً، ومن علّم باب ضلال كان عليه مثل أوزار من عمل به ولا ينقص من أوزارهم شيئاً)[٢]. فبهذا المعنى نعود إلى السؤال: ما هو حجم هذا الكتاب؟

والجواب: أن هذا الأمر لم يصبح مشكلة من المشاكل، تكون موضع إشكال، وذلك بعد أن علمنا أن بعض أجهزة التسجيل تحمل شريطاً لا يتعدى عقدة الإصبع، وذلك الشريط يمتد إلى عدد ساعات، فمن الممكن ضغط تلك الأعمال التي عملها الإنسان، قلت أو كثرت بجزء صغير من الكتاب، والله تبارك وتعالى أسرع الحاسبين، قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ﴾[٣].

إذاً هذه الحقيقة القرآنية يجب أن نتنبه إليها، وذلك في حياتنا الاجتماعية، وهي عملية التوثيق، أنه إذا كانت بين أفراد بني الإنسان مداينات، عليهم أن يوثقونها بالكتابة، لأن التوثيق بالكتابة يثبت الحقوق لأصحابها، قال جل وعلى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾[٤]. وهذا منهج من المناهج القرآنية، الذي

---

(١) عن النبي صلى الله عليه وآله قال: [أربعة تجري عليهم أجورهم بعد الموت، رجل مات مرابطاً في سبيل الله، ورجل علم علماً فأجره يجري عليه ما عمل به، ورجل أجرى صدقة فأجرها له ما جرت، ورجل ترك ولداً صالحاً يدعو له] (الترغيب والترهيب ج ١، ص١١٩).

(٢) الوافي ج١، ص ٤٢. عن الكافي.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

يصون المجتمع عن اختلاس الحقوق، وعن التنازع بين أفراد نوعه، بينما بدون الكتابة قد تحدث المشاحنات والمشاجرات والمنازعات، وبالتالي اختلاس الحقوق، وهذا الأمر لا يرضاه الله تبارك وتعالى لعباده، أي أنه تعالى لا يريد أن يظلم أحدٌ أحداً، فلهذا دأب النبي ﷺ ومعظم الصحابة على ذلك، بل وأثبتوه بحيث كان متعارفاً لديهم. وسننقل حادثة تاريخية كشاهد على ذلك، وهي أنه لما خرج النبي ﷺ من مكة المكرمة، بعد أن تآمرت قريش على قتله، وهبط عليه جبرائيل يحمل هذه الآية: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(١). وبعدها أمره بالهجرة إلى يثرب، عند ذلك وقف أبو جهل بجانب الكعبة المكرمة، ونادى إن من ضفر بمحمد وجاءنا به، أو جاءنا بخبر عنه فله مائتان ناقة، يقول الرواة: فسمع النداء سراقة بن مالك المدلج، فخرج يبحث عنه، كي يوصله إلى قريش، أو يُعرّفهم موضعه، ويحصل على الجعل الذي وضعوه، فلما توسط في الصحراء بين مكة والمدينة، نظر عن بعد فرأى سواده، فحقق النظر فيها فتبين له أنه النبي ﷺ، فأضمر في نفسه أن يصل إليه ويقتله، ويأتي إلى قريش ويأخذ ذلك العرض الذي وضعوه، فبينما هو كذلك إذ ارتكزت قوائم الفرس الذي كان راكبه في الأرض، فتراجع عن ما نوى - قائلاً في نفسه قد يكون هذا الأمر من رب محمد - فارتفعت قائم الفرس وكأن لم ترتكز، فعاوده الحنين إلى الطمع، فسار خلف النبي ﷺ فارتكزت قوائم الفرس في الأرض مرة ثانية، وهكذا ثلاث مرات، وفي كل مرة يرجع عن ما نوى، إلى أن تاب توبة صادقة، وأضمر في نفسه أنه يصل إلى النبي ويسلم على يديه، فواصل المسير إلى أن حاذاه، فلما حاذاه مسك بزمام دابته، قائلاً: أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله وأسلم على يديه، عند ذلك التفت إليه رسول الله ﷺ ونظر إلى ذراعيه واخبره بكل ما أضمره في نفسه، من وقت خروجه وما حصل له في الطريق، ثم بعد ذلك قال له النبي بالمعنى: يا سراقة أعطيك أثمن مما رغبت فيه من

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

أيدي قريش قال: وما هو؟ فقال ﷺ: كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟[1] تقول الرواية: فلما قال له رسول الله ﷺ ذلك. قال: متى وكيف؟ فأخبره رسول الله ﷺ: بالمعنى ستمر الليالي والأيام وستلبس سواري كسرى. عند ذلك قال سراقة: إذا كان الأمر كذلك فأكتب لي بهذا يا رسول الله، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يكتب له بذلك، وأمر عبد الله بن أبي وريقط - وكان دليلاً لهما - أن يشهد على ذلك، ودفع إليه الكتاب. فمضت الليالي والأيام وافتتحت المدائن وجيء بسواري كسرى، وكان ذلك في أيام خلافة عمر بن الخطاب، عندها أقبل سراقة وفي يده الكتاب قائلاً أصلح الله الخلفية إن هذان السواران لي. فقال له: وكيف يكونان لك؟ تقول الرواة فدفع إليه الكتاب، فلما قرأ الكتاب قال: نعم إنهما لك. ولهذا نسبت إليه أبيات من الشعر كان يخاطب فيها أبا جهل:

أبا حكم والله لو كنت شاهداً لأمر جواد إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً رسول ببرهان فمن ذا يقاربه
عليك بكف القوم عنه فإنني أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم بأن جميع الناس طراً يسالمه[2]

إذاً فالكتابة تثبت الحق لصاحبه، وهذا ما عرفه المسلمون في صدر الإسلام، تبعاً لما أمر الله تبارك وتعالى به في القرآن الكريم. ولكن الشيء الذي نسأل عنه دائماً، هل أن الأمة الإسلامية حفظت للنبي عهده الذي أعطوه إياه، عندما بلغهم قوله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وقد سألوه من هم قرابتك هؤلاء الذين أوصانا القرآن بمودتهم، فأخبرهم حينذاك وأعلمهم بأسمائهم، فأعطوه عهداً أنهم يحفظونه فيهم، إلا أن الواقع إن هذا المعنى لم نجد له تجسيداً في مواقفهم تجاه قرابة النبي ﷺ بل صدر منهم العكس تجاه قرابة النبي ﷺ بحيث أساؤوا إلى ذرية النبي... الخ فالآية

---

(١) قريب منه انظر أسد الغابة - ابن الأثير - ج٢، ص ٢٦٦، وكتب أخر باختلاف كثير في التعبير.

(٢) الاستيعاب - ابن عبد البر - ج ٢، ص ٥٨١.

الكريمة تبين للمسلمين هذا المعنى ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فكل فرد توضع أعماله بين يديه مكتوبة؛ ثم انتقلت الآية قالت: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ وهذا الأمر - في الحقيقة - من الطبيعي، بمعنى أنه إذا وجدت في دار الدنيا وسائل تقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً، ويقوى البعض على أن يشهد شهادة الزور، حينذاك لا يقوى عليها أحد؛ وذلك عندما يكون بين يدي الله عزّ وجلّ، فلا يستطيع أحد أن يقوم بذلك، لأن قلوبهم بين يديه، لأن الهمسات في داخل أنفسهم واضحة تمام الوضوح. إذاً المجرمين في واقع الأمر مشفقين مما سيلاقون، وهذه هي إحدى الصور التي ترسم لنا أن المجرم بعد أن وضحت أعماله، يكون مشفقاً - أي خائفاً - خائفٌ من إقامة العدل، لأن الله عزّ وجلّ لا يظلم أحداً، والمجرمون يعلمون ذلك، ولكنهم يخشون عدله، لأن الله عادلٌ ولابد من تطبيق العدل، فكل مجرم يكون خائفاً مما هو مكتوب في ذلك الكتاب، لأنه بين يدي الله عزّ وجلّ، وذلك لان كتابه شاهد عليه قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وذلك الخوف يأتي نتيجة المذاقة في الحساب، لأن ألمذاقة في الحساب شديدة، وذلك على حد تعبير بعض الفضلى: (إن الله عزّ وجلّ لا يظلم أحداً ولكن المذاقة في الحساب شديدة). ولهذا ورد عن أبي أمامة قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة) فقال رجلٌ: وإن كان يسيراً يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: (وإن كان قضيباً من أراك)(١). أي أنه لو تجرأ الإنسان ولو على أخذ هذه القطعة، كان يوم القيامة محاسب عليها، لأن الله عزّ وجلّ عادل ولا بد من تطبيق العدل. قال الإمام علي عليه السلام: (أعظم الخطايا اقتطاع مال امرئ مسلم بغير حق)(٢).

فإذاً كل شيء مكتوب بذلك الكتاب، وهنا قد يأتي السؤال عن صفة المجرمين الذين عبرت عنهم الآية الكريمة: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فمن هو المجرم في المصطلح القرآني؟ وما هو معنى الإجرام؟

---

(١) فلسفة الأخلاق الإسلامية ص ١٨٥ كفاية الأحكام المحقق السبزواري ج ٢، ص ٧٠٠.
(٢) تحف العقول ص١٥٤.

الواقع قبل أن نعرف المجرم في المصطلح القرآني نحتاج إلى مقدمة: واقعاً إن تعريف المجرم في المصطلح القرآني، وما يترتب على عقابه في الحكم الإسلامي، قد يختلف عما يتعارف عليه في المصطلح القانوني، فالقانون الوضعي يعتبر المجرم، هو الذي يقوم بعمل كبير، مثلاً كالقتل، أو القطع، أو السرقة، أو أمثال ذلك. بينما تعريف المجرم عند علماء الإسلام، هو مَن يخالف بنداً من بنود الشريعة الإسلامية. وأما معرفة - الجريمة - في الإسلام، فهي مخالفة الأوامر الإلهية، أي كانت تلك المخالفة، كذلك العقاب بالنسبة للمخالفة، فتطبيق الحكم في الإسلام هو الاجتثاث، القتل بالقتل، والجرح بالجرح، والسن بالسن، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]. فكل جريمة من الجرائم تُقترف فلها نوع خاص من العقاب.

أما ما هو سائد في القوانين الوضعية، فإن الجريمة هي مخالفة بند من بنود القانون، ويترتب على تلك المخالفة السجن في كثير من الأحيان، بأن المجرم يعاقب بالحبس؛ ولكن الحبس في كثير من الأحيان يلوث السجين، وكمثال على ذلك، لو فرضنا بأن الدولة وضعت تسعيرة لعلبة الصابون، مثلاً بأن تباع علبة الصابون بدرهم، أو بدرهمين، وجاء أحد الباعة وقد أخذه الطمع، فزاد على التسعيرة مبلغ رمزي، وهو عُشر الدرهم، فعملٌ من هذا النوع في حد ذاته جريمة، القانون يعاقب عليها، والعقاب هو الحبس، فيوضع من أخذه الطمع مع المسجونين، والمسجونين تختلف جرائمهم، فالبعض منهم قام بالسرقة، والبعض الآخر قام باقتناء المخدرات وتعاطيها وبيعها وترويجها، فيؤتى بمَن قام بذلك العمل البسيط، ويوضع إلى جانب هؤلاء، فلا شك أنه يخرج وهو

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

ملوث بأفكارهم، وأخلاقهم وطبائعهم..... الخ. وهذه مشكلة من مشاكل السجون التي لم يمارسها الإسلام، بل لم يقرها إطلاقاً، لأن العقاب من المفترض به أن يردع المجرم عما اقترفه من جرم، وعن جريمة أخرى، لا أن يدعه يرتكب جريمة أكبر؛ إذاً ما هو عقابه في الشريعة الإسلامية؟

قالوا: أن عقابه في الشريعة الإسلامية هو أن يترك للتعزير، والتعزير متروك للإمام، الإمام يرى ما هي الطريقة المناسبة في ذلك، هل أن تطبيق السجن عليه في ذلك الوقت صحيح أم لا؟ بمعنى أنه لا يتقيد بنص القانون، ذلك لأن لدينا تقيد بنص القانون، ولدينا تقيد بالملاك، أي بالمصلحة، بروح القانون، روح القانون في مثل هذه الحالة تقول أنه إذا سجن بالقرب من هؤلاء يخرج بعد ذلك متمرس بالإجرام، ولذلك القانون الجنائي الإسلامي خالٍ من هذه المفارقات. - وهذه جملة استطرادية ذكرناها - سنعود إلى الآية، الآية الكريمة قالت: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ اختلف العلماء في معنى الصغيرة والكبيرة، فبعضهم قال: بأن الكبائر سبعة، وبعضهم قال: بأنها تسعة[1]، والبعض الآخر قال: أنها أكثر من ذلك[2]، وآخرون قالوا: ليس لدينا كبيرةً ولا

---

(١) كما جاء في كتاب [حق اليقين] صفحة ٥٣٢ قال وفي كنز الفوائد للكراجكي قال: قال رسول الله ﷺ الكبائر تسع: أعظمها الإشراك بالله عزّ وجلّ، وقتل النفس المؤمنة. وأكل الربا، واستحلال البيت الحرام، والسحر. فمن لقي الله عزّ وجلّ وهو بريء منهن كان معي في جنة مصاريعها الذهب. ورواه الطبرسي في مجمع البيان إلا أنه قال سبع وترك الأخيرتين.

(٢) عن الأعمش عن الصادق عليه السلام في حديث شرائع الدين قال: والكبائر محرمة وهي: الشرك بالله، وقتل نفس التي حرم الله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا بعد البينة، وقذف المحصنات، وبعد ذلك الزنا واللواط والسرقة، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به من غير ضرورة، وأكل السحت، والبخس في الميزان والمكيال والميسر، وشهادة الزور، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، وترك معاونة المظلومين، والركون =

صغيرة، ذلك لأن كل ذنب بالقياس إلى ما هو أصغر منه يعتبر كبير، وبالقياس إلى ما هو أكبر منه يعتبر صغير، فليست صيغة محددة، ولهذا يقول النبي ﷺ: (لا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر لمن عصيت)(١). أي لا تتجرأ على فعل قد تعتقده بسيط، فقد تكون فيه معصية لله تعالى، لأنك بهذا الفعل أياً كان كبيراً أو صغيراً تواجه الله تبارك وتعالى، بمعنى أنك تقفُ وجهاً لوجه أمام الله تبارك وتعالى. إذاً كل فعل لا بد وأن ينظر إليه من هذه الناحية، ولا ينظر إليه بأنه فعلٌ أو قولٌ أو عمل بسيط. فإذاً الحقيقة أن الصغيرة والكبيرة قياسها بالنسبة إلى ما دونها من الجرائم وإلى ما هو أكبر منها، لذلك الإنسان ينبغي أن يجعل نصب عينيه، أن المخالفة هي مخالفة الله تعالى. فمَن هو العبد حتى يقوى بأن يقف أمام الله تبارك وتعالى ليبارزه بالمعصية؟ نحن في هذه الدنيا إذا كان البعض من البشر بين ظهرانينا له منصب اجتماعي نرتعد من مخالفته، فما رأيك بمن يخالف الله عزّ وجلّ جبار السماوات والأرض؟ ولهذا من يضع نفسه أمام الله وجهاً لوجه لمخالفته، وهو يحمل معاصيه يصبح في منتهى الغرور، ومن يقف أمام الله وجهاً لوجه بالمعصية، يُعتبر من المتكبرين والظالمين، والله تبارك وتعالى أعد للمتكبرين والظالمين نوعاً خاصاً من العذاب، وذلك أنهم يحشرون على هيئة الذر تطأهم الخلائق بأرجلها، يحشرون على هيئة النملة الصغيرة، وذلك مبالغة في عقابهم. ولكن هذا الأمر - للأسف الشديد - لدينا من أكثر الذنوب شيوعاً، وهي الاستهانة بما يسمى بالصغائر، فالكثير منا يستهين ببعض المعاصي، وهذه المعاصي إذا ضممناها إلى بعضها البعض، يكون التراكم في الخطايا، وينته الأمر بعد ذلك إلى أن يصبح الإنسان وهو غارقٌ في بحر من الخطايا بذنوبه، ومن ثَم ورد عن الإمام

= إلى الظالمين، واليمين الغموس، وحبس الحقوق من غير عسر، واستعمال التكبر والتجبر، والكذب والإسراف والتبذير والخيانة، والاستخفاف بالحج، والمحاربة لأولياء الله، والملاهي التي تصد عن ذكر الله مكروهةً كالغناء وضرب الأوتار والإصرار على صغائر الذنوب، والكراهة في آخره محمولة على التحريم، كما ورد في كثير من الأخبار. هكذا ورد في حق اليقين ص ٥٣٢.

(١) رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين ص ٦٠٦.

الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله نزل بأرض قرعاء فقال لأصحابه: ائتونا [ائتوا] بحطب... فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، فقال: ... فليأت كل إنسان بما قدر عليه...، فجاؤوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال صلى الله عليه وآله: ... هكذا تجتمع الذنوب... ثم قال: ... إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالباً ألا وإن طالبها يكتب: ﴿مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1]. وعن أبي بصير عن الباقر عليه السلام قال: (اتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالباً)[2]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (أشد الذنوب ما استهان به صاحبه)[3].

وقال عليه السلام: **(أشد الذنوب ما استخف به صاحبه)**[4]. كما أن الرواية الواردة عن الإمام الباقر تؤكد هذا المعنى قال عليه السلام: إن الله خبأ ثلاث في ثلاثة: خبأ رضاه في طاعته فلا تحقرن من الطاعة شيئاً فلعل رضاه فيه، وخبأ سخطه في معصيته فلا تحقرن من المعصية شيئاً فلعل سخطه فيه، وخبأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرن أحداً فلعله [ذلك] الولي[5]. وهنا لدينا وقفةٌ مع هذا النص الشريف، أولاً قال عليه السلام: (خبأ رضاه في طاعته فلا تحقرن من الطاعة شيئاً فلعل رضاه فيه) أي أن الإنسان أحياناً قد يستهين بعمل من الأعمال، بينما قد يكون في ذلك العمل رضا الله تعالى، فمثلاً قد يكون في إحدى الطرق العامة، الذي يمر عليه بعض فئات المسلمين زجاجة قد تبعثرت، فيمر البعض من الناس فلا يعتني بإبعادها، وذلك في تصوره أن ذلك العمل ليست له أهمية.

---

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين - السيد عبد الله شبر - ص ٥٣٤، والنص القرآني مقطع من، الآية: ١٢) من سورة يس.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نهج البلاغة ج ٤ ص ٨١، شرح اصول الكافي ج ١ ص١٩٦.

(٤) نهج البلاغة ج ٤، ص ١١٠، خصائص الأئمة الشريف الرضي ص ١٢٥، وسائل الشيعة ج ١٥، ص ٣١٢.

(٥) منهاج الصالحين الشيخ الوحيد الخراساني ج ١، ص ٣٨٤، بحار الأنوار ج ٧٥، ص ١٨٨، نزهة النظر وتنبيه الخاطر ص ٩٩، فهرست منتخب الدين ابن بابويه ص ٣٢٠، أعيان الشيعة ج ١، ص ٦٥٨.

بينما يأتي البعض وعندما يراها لا يتعدى ذلك المكان أبداً، بل يقف ويبعدها عن الطريق العام، ويضعها في المكان النائي، لئلّا تؤذي أحداً من الناس؛ فالشخص الأول قد اعتبر العمل ليس له قيمة، ولكن هذا العمل الذي اعتبره ليس له قيمة قد يكون رضا المولى فيه؛ ولهذا يروى عن أحد الصالحين أنه قال: (إن إماطة الأذى عن طريق المسلمين قسماً من أقسام العبادة).

ولنا أن نسأل إذا كان الأمر كذلك، إذاً ما بالك بإماطة الأذى عن أعراضهم؟ واقعاً إن إماطة الأذى عن أعراض المسلمين هو من العبادة الحقة، ذلك لأنه من المفترض أن يكون المسلم يحن على أخيه المسلم، في حال حضوره وغيابه، لا أن يسيء إليه بكلمة في حال حضوره وغيابه، ولهذا يقول الحديث المروي عن الصدوق بإسناده عن الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام عن آبائه في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: (ياعلي من اغتيب عنده أخوه المسلم فاستطاع نصره فلم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة)[1]. وعن عقاب الأعمال بسنده عن النبي صلى الله عليه وآله: (من رد عن أخيه غيبة سمعها في مجلس رد الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة فإن لم يرد عنه وأعجبه كان عليه كوزر من اغتاب)[2]. إذاً فالإنسان المسلم يجب أن لا يحتقر أي عمل من الأعمال، الذي قد يتصوره البعض أنه عمل بسيط، لأنه قد يكون رضا الله في ذلك العمل. وكذلك قال عليه السلام في معرض وصيته: (وخبأ سخطه في معصيته فلا تحقرن من المعصية شيئاً، فلعل سخطه فيه) فقد يرى البعض من الناس أن بعض الأعمال بسيطة في حد ذاتها، وليس فيها ما يغضب الله تعالى من أجله، بينما تكون تلك الأعمال البسيطة - في نظر البعض - لا يرضاها الله عزّ وجلّ، بل أن الله تبارك وتعالى يعاقب عليها العبد، ويغضب من أجلها، ولهذا أنظر لمن عصيت ولا تنظر إلى نمط المعصية، لأن نمط المعصية قد يكون قليل جداً، ولكن على الإنسان أن يعرف لمن يعص.

تتمة الحديث قال عليه السلام: (وخبأ أوليائه في خلقه فلا تحقرن أحداً فلعله

---

(١) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب ١٥٦ من أبواب أحكام العشرة.
(٢) المصدر السابق.

ذلك الولي) بمعنى أنه قد يكون شخصاً من الناس منظره لا يوحي بأنه شخص مهم، - في نظرنا - لأنه قد يكون ذلك الشخص عادٍ في منظره، وفي تعبيره، وفي سلوكه، فنحتقره. - ومع الأسف - أن الكثير منا لا تملؤ عيونهم سوى الأمور المادية؛ والأمور المعنوية قد لا يتنبهون إليها.

حكاية: يذكر المؤرخون أن المأمون العباسي، أراد في يوم من الأيام أن يبين فصاحته وبلاغته للناس، فصعد المنبر فخطب خطبةً أطالها، وكان في ذلك الوقت يختار الألفاظ البليغة، حتى يوحي للمستمعين بأنه بليغ، مع أن المعنى كان يفهم بأقل من ذلك بكثير، وقد كان من جملة المستمعين إليه رجل أعرابي، وكان ذلك الرجل واقف لم يجلس، وكلما أمروه بالجلوس أبىٰ. يقول المؤرخون: وكان ذلك الرجل عليه ملابس رثة، فأخذا المأمون يطيل النظر إلى ما عليه من ملابس، فلما رآه الأعرابي يطيل النظر إلى ملابسه التفت إليه، قائلاً له: أصلحك الله أيّها الخليفة، أنا الذي أكلمك ولا تكلمك ملابسي، تقول الرواية عند ذلك تنبه المأمون إليه، وعلم أنه رجل سريرته توحي بأنه شخصٌ مهم، فالتفت إليه قائلاً: لي إليك سؤال، قال: سل أيه الخليفة، قال: كيف تكون الفصاحة والبلاغة عندكم، بمعنى أن الإنسان متى يعبر عنه بأنه فصيح وبليغ؟ قال له الأعرابي: الإيجاز مع الإفادة. قال: وماذا تعدون العي والفهاهة، التي هي ضد الفصاحة؟ قال الأعرابي: نعد الفهاهة والعي مثل ما كنت فيه اليوم يرحمك الله. إن خطابك في هذا اليوم لم يكون سوى ألفاظ فارغة(١). - موضع الشاهد - أنه يجب أن لا يحتقر أحد أحداً من خلق الله، أياً كان منظره، لأن الشكل والملبس قد لا يكشفان عن اللب دائماً، ومن هنا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (المر مخبوءٌ تحت طي لسانه)(٢)، وزاد بعضهم أنه قال: لا طيلسانه(٣)، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: (رب

(١) البيان والتبيان ١: ٦٩، وهو في مجمع الأمثال٢: ٢٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن.
(٢) نهج البلاغة/ الحكمة ١٤٨، ٤٩٢، عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٢٠١.
(٣) تفسير الأوسي ج ١٦، ص ٢١٤.

ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره)[١]. وقال ﷺ: (رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره)[٢]. فالمسألة إذاً ليست مسألة مظاهر، أو أشكال ظاهرية، وإنما المهم هو المضمون، ولذلك تقول الرواية: (وخبأ أوليائه في خلقه، فلا تحقرن أحداً فلعله [ذلك] الولي).

الآية الكريمة قالت: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ بمعنى أن سجل العباد في دار الدنيا سجل حافل بالأعمال على أنواعها، ولكن البعض قد يتصور أن بعض الأعمال يتجاوز عنها، والحال ليس الأمر كذلك، لأنه كما ورد أن الهمسة تسجل، والحركة تسجل، والكلمة تسجل. وهنا قد يأتي السؤال وهو لماذا كل هذا الإدراك، والتدقيق مع هذا الإنسان، والإنسان كما هو معروف كائن ضعيف؟

والجواب: في ذلك أنه إذا تأملنا، نجد أن الإنسان ليس بكائن ضعيف كم يتصور البعض، والدليل على ذلك هو أن الإنسان في هذه الدنيا كم هناك من ضوابط تلاحقه، - وعلى هذا المدى الطويل - إلا أنها لم يكن بمقدورها السيطرة عليه.

الضابط الأول: من الضوابط زرعه الله في الإنسان - هو الضمير - الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان، وخلق في داخله ضمير، والضمير الذي في داخله يفرق به بين الخير والشر، وليس هناك من يعتقد بأن إنساناً ما يولد في هذه الدنيا لم يولد معه ضمير، وحتى المجرم لا بد وأن يولد في داخله ضمير، ولكن لكثرة استمراره في الجرائم يسحق ضميره بنفسه.

والضابط الثاني: هو الأسرة: الأسرة تقوم بتربية الولد وتنشئته، فلا يوجد أباً أو أماً لا يقولان لابنهما، مثلاً: يا بني لا تؤذي أحداً من خلق الله، مهما يكون، ولو كانا منحرفان في سلوكهما، إلا أنه لا بد وأن يقولان للطفل إن هناك خيراً وهناك شراً، فالابن يعرف الخير والشر من تعاليم أسرته.

---

(١) جامع السعادات ج٢، ص٣٧٧.
(٢) الأمالي الشيخ الصدوق ص ٤٧٠، روضة الواعظين الفتال النيسابوري ص ٢٩٦.

الضابط الثالث: هو المجتمع، فالابن عندما يكبر يلتقي بأفراد مجتمعه، والمجتمع كثيراً ما يكون مليئاً بالضوابط - لأن المجتمع إذا لم توجد فيه ضوابط يتحول إلى غابة، فلهذا المجتمعات مليئة بالضوابط، ففي الأسواق هناك ضوابط، وفي الأماكن العامة هناك ضوابط، وفي المنتزهات هناك ضوابط، وفي، وفي . . . الخ. فالضوابط تحيط بالإنسان في هذه الدنيا من جميع جهاته، ولكن مع ذلك لم يكن بمقدورها السيطرة عليه. إذاً فالإنسان بهذا المعنى لم يكن بكائن ضعيف، وذلك لأنه مع وجود هذه الضوابط هو في تعنت مستمر، فلهذا الله تبارك وتعالى له موقف يوم القيامة مع هؤلاء المجرمين. فإذا طرح الكتاب أمامهم ينادون نادمين على أنفسهم كما ذكرت الآية: ﴿يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا ٱلْكِتَبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَنهَاۚ﴾.

ثم بعد ذلك انتقلت الآية قالت: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وهنا يجب أن نتنبه إلى هذا الإعجاز القرآني، حتى نعرف كيف أن القرآن كتاب الإنسانية على امتدادها، ذلك عندما نقف مع هذه المقاطع التي تؤكد لنا ذلك، أي أن الإنسانية مهما تطورت هي في حاجة لأن تأخذ غذاءها من القرآن الكريم، بحيث يبقى القرآن يختزن رافد من الإعجاز الذي يواكب تطور الإنسانية على امتداد أجيالها.

ومثال ذلك هذا المقطع من الآية: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ معنى ذلك أن الأعمال التي قاموا بها في دار الدنيا وجدوها أمام أعينهم، وهذا الأمر ما كنا نعرفه من قبل، أما الآن وبعد أن جاء العلم وضعه بين أيدينا، فالعلم يؤكد لنا أن كل عمل يعمله الإنسان سواءً كان ذلك في الضوء أو في الظلام تُختزن صورته، لأن كل عمل من الأعمال تنبثق منه موجات حرارية، وتبقى تلك الموجات الحرارية تصور العمل، نفس العمل يصور في الفضاء، فإذا تتبعوا ذلك العمل بعد حدوثه بمقدار ساعتين أو ثلاث ساعات يمكن أن يصور بجهاز، وقد أخترع ذلك الجهاز، أما إذا مرت على ذلك العمل ساعات طويلة فلا يمكن أن يُصور، ولكن قد يكون في المستقبل عندما يتطور العلم يُصور؛ لأن العمل تبقى صورته محفوظة في الفضاء، كذلك صوت الإنسان،

عندما يخرج من الإنسان يتمدد في الفضاء، ولهذا نجد الآن أن الصوت المكهرب يأتي من أقصى العالم بذلك الجهاز، - الذي عرف بالمذياع - فهو ينقل الأصوات من أقصى العالم، وذلك عن طريق الموجات الصوتية المحفوظة في الفضاء، غاية ما في الأمر أن تلك الموجة تكون محصورة ضمن موجة معينة، وإلا فهي موجودةً في الفضاء كغيرها، لا تتلاشى ولا تتلف، وكلُّ الصور أيضاً لا تتلاشى، إذاً فكل عمل من الأعمال صورته تبقى في الفضاء محفوظة، فيمكن أن هذه الصورة تحضر بنفسها، فمثلاً عندما نستمع إلى صوت فلان بنفسه، أيضاً نرى صورته بنفسه. وهذا من معاجز القرآن الكريم، قال جل وعلا: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ أمام أعينهم تنعكس إليهم صور تلك الأعمال التي قاموا بها في دار الدنيا، فإذا قال أحدهم أنا لم أفعل هذا العمل بعينه، يقال له على رسلك، فتأتي الصورة أمام عينيه، فيرى كيف مد يده للسرقة، وكيف مد يده للمحرم، وكيف...، وكيف، كلها مصورةٌ شاخصة أمام عينيه، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (اعلموا عباد الله أن عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم، وعدد أنفاسكم، لا تستركم منهم ظلمة ليل داج، ولا يكنكم منهم باب ذو رتاج)[1]. ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾[2] وأخيراً قالت الآية: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وهذا أمر هو في غاية الوضوح، ذلك لأن الذي يظلم لماذا يظلم؟ الظالم عندما يظلم لا بد من أنه يريد منفعة، إما مادية، وإما معنوية، فلا يسرق فلانٌ فلاناً إلا لأنه يريد أن ينتفع بأمواله، ولا يقتل فلانٌ فلاناً إلا لأن لديه أنانية يريد أن يشبعها... وهكذا...... الخ. فدائماً الإنسان إنما يظلم إما لجلب منفعة، أو للتعويضِ عن نقيصة، وهذا المعنى لا يمكن أن يُتصور على الله تبارك وتعالى، الله عز وجل لا يستطيع أحد أن يقدم له إساءة، ولا يستطيع أحد أن يأخذ منه شيئاً، ما لم يكن أن يعطيه الله ذلك

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٥١.

(٢) وكما أن هناك أمر آخر تصوره لنا إحدى الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: ٦٥].

الشيء، فمَن هو العبد حتى يقوى على أن يقف أمام الله تعالى؟ الله تبارك وتعالى غنيٌّ عن عباده، بل العباد مفتقرون إليه في كل شيء، ولهذا أمير المؤمنين عليه السلام في مقطع من دعاء الصباح يبين هذا المعنى: (الهي إن لم تبتدئني الرحمة منك بحسن التوفيق فمن السالك بي إليك في واضح الطريق. . . . .). الخ[1]. كما أن الله تبارك وتعالى لا يفوته ظلم ظالم أبداً، بل أنه يحتفظ للظالم بالجزاء يوم القيامة، وجزاء الظالم من أشد أنواع الجزاء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2]. ومن هنا دعا الحسين عليه السلام على بعض قاتليه أن يحشره الله مع الظالمين، لأن من وقفوا لقتاله يوم الطف، وصلت نفوسهم إلى درجة من الإجرام كبيرة، بحيث نزعت الرحمة من قلوبهم، ذلك وهم يعلمون علماً يقينيّاً بأن الحسين عليه السلام سبط رسول الله، وقد كان العهد قريباً برسول الله، عهد النبي صلى الله عليه وآله لم يكن بعيداً عنهم، العهد جديد بين أيدهم، والحسين عليه السلام سيد شباب أهل الجنة، وسقط بين أيديهم، ولكن ماذا قاموا به تجاه الحسين عليه السلام؟ أولاً: خالفوا تلك الأعراف التي كانت عندهم، لأن الأعراف التي كانت سائدة عندهم، تستعيب أن تؤذي المرأة، فلا أحد يدنو إلى المرأة بسوء أبداً، ولذلك من يقترب إليها بسوء يحتقر أتم الاحتقار، كما أنه يحتقر في عقبه أيضاً، فالاعتداء على المرأة يعتبر جريمة تبقى في الأعراف. ثانياً: أن الإنسان عندما يسقط جريحاً في المعركة، من المعيب أن يكون الإجهاز عليه، لأنه عندئذ لا تبقى للبطولة مجال، فلهذا الجريح لا يجهز عليه. ولكن هؤلاء لم يلتزموا بأعراف، ولا التزموا بقانون قط، ولم ينبض فيهم عرق إنساني قط، ولا انشدوا إلى قاعدة دينية أبداً، سقط الحسين على الأرض وهم يعلمون أن الحسين سيد شباب أهل الجنة، وفي لحظاته الأخيرة، وكما هي عادة

---

(١) بحار الأنوار ج ٩١، ص ٢٤٣، ج ٨٤، ص ٣٣٩، نهج السعادة الشيخ المحمودي ج٦، ص ١٢٨.

(٢) سورة الكهف مقطع من الآية: ٢٩.

المحتضر، أنه في حال النزع أعز الأشياء عليه أن يطيل النظر إلى عائلته، بحيث يريد أن يشبع نظره من وجوه أهله وذويه، لأنه يريد أن يودع الحياة، فيخرج من الدنيا وقد أطبق عينيه على صورة لأهله، ليبقى محتفظاً بها في عينيه. في تلك اللحظات كان الحسين كذلك، سقط على الأرض فصنع له وسادة من الرمل، لأن النبال شكّت جسده الشريف، ولم يكن باستطاعته أن يضطجع على الرمال، دون أن يضع له وسادة من التراب، فوضع له وسادة من الرمل الحار، وأخذ يطيل النظر إلى المخيمات، لأن عائلته في المخيم، فأراد أن يخرج من الدنيا وقد تزود من أهله وعياله، بينما هو كذلك إذ أقبل إليه مالك بن اليسر الكندي، وهو في تلك اللحظات الأخيرة، شتم الحسين ورفع سيفه وضربه ضربة أطبق بها حاجبيه على عينه، فقال له الحسين عليه السلام: (لا أكلت بيمينك ولا شربت بها، وحشرك الله مع الظالمين)[1]. بهذا الفعل الشنيع حرم الحسين عليه السلام من النظر إلى عياله وأطفاله، وهو في اللحظات الأخيرة من حياته، وأخذه نزف الدم، عند ذلك أطبق جفنيه ولم يقدر على فتحهما وتناهى إليه صوت ينبعث من أعماق المخيمات: (يا ابن أمي يا حسين، يا حبيبي يا حسين، إن كنت حياً فأدركنا، فهذه الخيل قد هجمت علينا، وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلى الله)[2].

يقول المؤرخون: إن أول يد امتدت إلى المخيمات يد عمر بن سعد، كان بيده قبس يلتهب ناراً، طرحه في وسط احد المخيمات، ونادى: اشهدوا لي عند الأمير عبيد الله بن زياد، بأني أول من أوقد النار في مخيم الحسين. وأخذت النار تشتعل في المخيمات.. هذا وزينب في حيرة من أمرها لا تدري ماذا تصنع:

زينب احتارت يوم شبوا بالخيم نار
طلعت وياها الحريم الصغار وكبار

---

(١) مثير الأحزان بن نما ص ٥٥، الأرشاد الشيخ المفيد ج ٢، ص ١١٠، روضة الواعظين الفتال النيرسابوري ص ١٨٩.
(٢) ومن الحوار اكتشفت الحقيقة هشام آل قطيط ص ٥٨.

تصرخ إبعالي الصوت طايح وين يا حسين

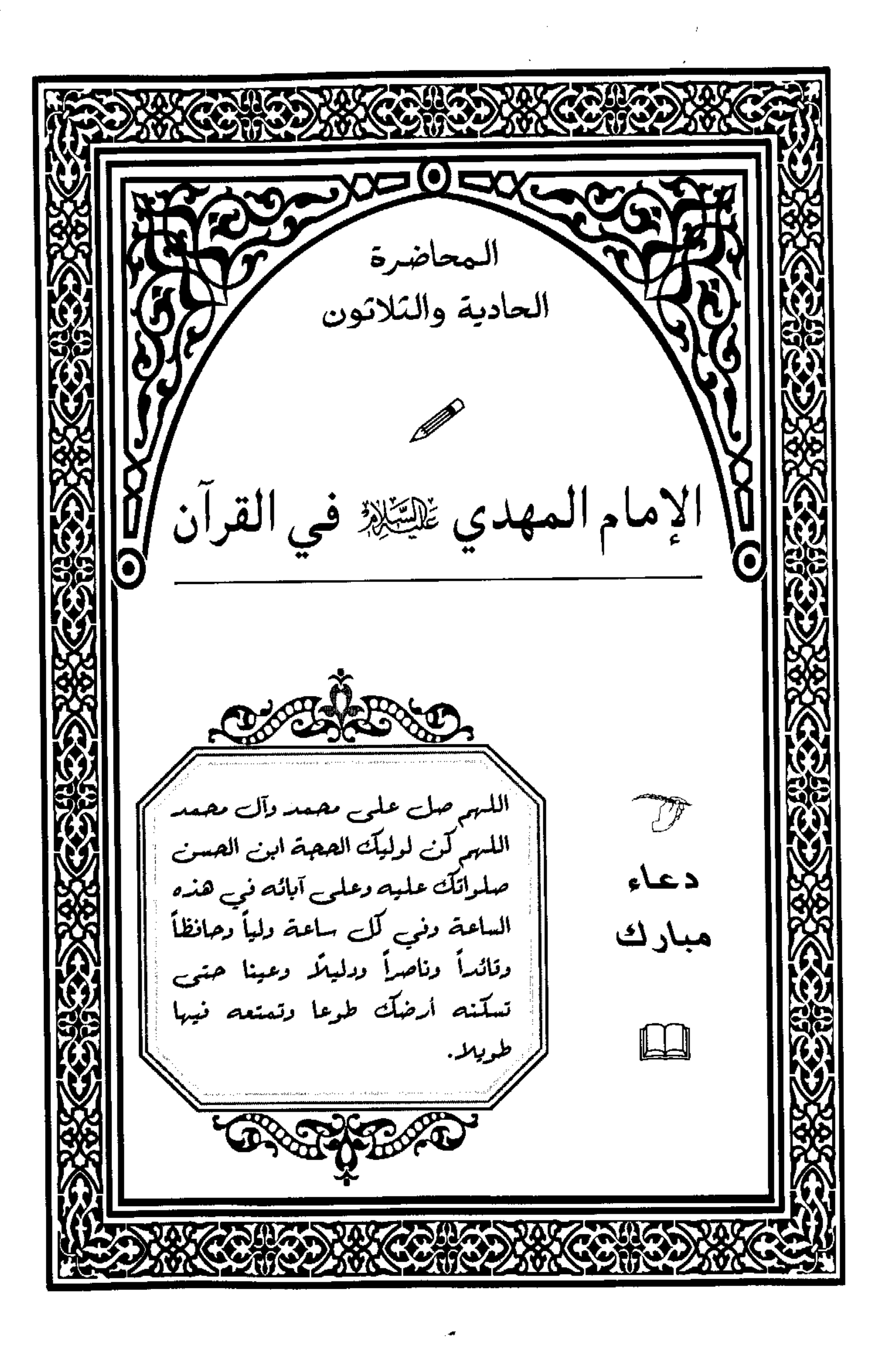
خدري انهتك وانت غياث المستغيثين

عجل أدركنا لا يهتكون النساوين

لمن سمع ضل يتقلب فوق الوعار[1]



(١) الجمرات الودية ج ١.



المحاضرة
الحادية والثلاثون
الإمام المهدي عليه السلام في القرآن
دعاء
مبارك
اللهم صل على محمد وآل محمد اللهم كن لوليك الحجة ابن الحسن صلواتك عليه وعلى آبائه في هذه الساعة وفي كل ساعة ولياً وحافظاً وقائداً وناصراً ودليلاً وعينا حتى تسكنه أرضك طوعا وتمتعه فيها طويلا.

٣١

الإمام المهدي عليه السلام في القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

* * *

هذه الآية الكريمة أول ما أشارت إلى الوعد، والوعد من الله تبارك وتعالى لا بد وأن يتحقق؛ بمعنى أن الله عز وجل إذا وعد بشيء لابد وأن يتحقق ذلك الشيء(٢). لأن الله تعالى لا يحول بينه وبين إرادته شيءٌ أبداً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٣). إن الله تبارك وتعالى

---

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) إن لفظ - وعد الله - جائت في القرآن الكريم في ٢٣، الآية: منها، الآية: ٩٥ و١٢٢ من سورة النساء، وآية ٩ من سورة المائدة، وآية ٦٨ و٧٢ من سورة التوبة، وآية ٤ و٥٥ من سورة يونس، وآية ٣١ من سورة الرعد، وآية ٢١ من سورة الكهف، وآية ٥٥ من سورة النور، وآية ١٣ من سورة القصص، وآية ٦ و٦٠ من سورة الروم، وآية ٩ و٣٣ من سورة لقمان، وآية ٢٠ من سورة الزمر، وآية ٥٥ و٧٧ من سورة غافر، وآية ٣٢ من سورة الجاثية، وآية ١٧ من سورة الاحقاف، وآية ٢٩ من سورة الفتح، وآية ١٠ من سورة الحديد.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٠.

وعد عباده فلا يمكن أن يخلف وعده، ومن هذا المنطلق علينا أن نعرف ما هي الأمور التي وعد بها في هذه الآية؟ وهل أنها تحققت أو لم تتحقق؟ ثم من هم هؤلاء الموعودون؟

وأقعاً: أما مَن هم هؤلاء الموعودون في هذه الآية فإن للمفسرين ثلاثة آراء:

الرأي الأول: هو أن بعض المفسرين يرى أنها نزلت تعد أصحاب النبي ﷺ، ومتعلق الوعد في الآية هو لهم، وأصحاب هذا الرأي يستدلون بأمر وهو أنهم قالوا: إن المسلمين عندما خرجوا من مكة المكرمة في بدء الإسلام، وجاؤوا إلى المدينة المنورة، جاؤوا إليها وهم على وجل وخوف، حيث لم تكن حياتهم مستقره، لأنهم - مبدئياً - كانوا جماعة قليلة، والإسلام بعد لم يزل في مهده، حيث لم تعتنقه - آنذاك - قبائل كثيرة، بالإضافة إلى ذلك أن الجماعة الذين اعتنقوه أكثرهم من البسطاء - الفقراء - الذين لم تكن لديهم إمكانيات دفاعية في العدةِ والعدد، كما وأن الأنصار أيضاً كذلك، فأصبحوا وكأنما الدنيا من حولهم تريد أن تأكلهم، ذلك لأن اليهود الموجودين في المدينة، كانت بينهم وبين المشركين في مكة معاهدات وخيوط متصلة، فأصبح المسلمون مهددين بالخطر، لا يدرون في أي لحظة يداهمهم المشركون، وأصبح الواحد منهم لا ينام إلا وسلاحه معه، أي أن السلاح مهيأ بجانبه، إلى درجة أن البعض منهم كان يخاطب الآخر، قائلاً: يا ترى هل يأتينا يوماً من الأيام ونحن قد نزعنا أسلحتنا، ونمنا نومة مستقرة هادئة؟ معنى ذلك مرت عليهم ظروف حرجة، قاسوا من خلالها مقاسات شديدة(١). حتى أن الخليفة الثاني لهذا السبب لم يساو بينهم في العطاء، فقد ميز مَن أسلم من قبل الفتح في العطاء، على مَن أسلم من بعد الفتح، أي أنه جعل لهم ميزة خاصة في العطاء، فلما سأله البعض عن السبب، قال: أنا لست مستعداً بأن أساوي في العطاء بين هؤلاء الذين أسلموا من بعد الفتح وبين من

---

(١) روى هذا المعنى كثير من المفسرين ومنهم السيوطي في أسباب النزول وسيد قطب في ظلال القرآن والقرطبي في تفسيره، مع بعض الاختلاف.

أسلم من قبل، لأن هؤلاء الذين أسلموا قبل الفتوحات لاقوا متاعب وأهوال شديدة، بينما هؤلاء لم يسلموا إلا بعد أن توسع الإسلام واعتنقته قبائل كثيرة. - إلا أن هذه النظرة لم تكن سليمة في حد ذاتها - ولهذا أمير المؤمنين عليه السلام عرف ذلك، بحيث بين له أن هذه القضايا لا تجازى بالأموال، وذلك لأن العمل الذي قاموا به أكبر من الأموال، فمن أعطى نفسه لله، وضحى من أجل رفع كلمة لا إله إلا الله، فإن الله تعالى قد يعطيه أجراً كثيراً في الآخرة، أما في الدنيا فإن الأموال تتبع الحاجة، الحاجة هي التي تحدد توزيع الأموال.

فالغرض أن أوائل المسلمين تعرضوا إلى الأذى بمختلف أنواعه، فكانوا يترجون الأمن والاستقرار والخلاص من ذلك، فنزلت الآية الكريمة تعدهم. هذا بناء على الرأي الأول الذي يراه البعض من المفسرين.

الرأي الثاني: أن الآية هي للمسلمين عامة، وليست هي لفئة خاصة؛ فكأن القرآن الكريم يخاطب المسلمين عامة في ربوع الأرض، يخبرهم بأنهم سيملكون الأرض، وبأن الإسلام سيدخل إلى كل بيت في الدنيا، إما بقهر قاهر، أو بعجز عاجز، يعني إما بإذعانٍ حقيقي أو بإذعانٍ مصطنع.

الرأي الثالث: أن الآية الكريمة جاءت تخاطب فئة خاصة من الناس، وبالتحديد هم أصحاب صاحب العصر والزمان عليه السلام. وأصحاب هذا الرأي يستدلون على ذلك بأمور:

الأمر الأول: قالوا إن الآية الكريمة قالت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولم تقل الذين أسلموا، وهناك فرق بين الإسلام والإيمان، فالإسلام هو شهادة أن لا الله إلا الله وأن محمد رسول الله، هذا هو الإسلام، من قال لا الله إلا الله محمد رسول الله حقن دمه وماله وعرضه، ولا يجوز لأحد أن يكفره، واعتبر حينئذ مسلماً لأنه أخذ كل الميزات التي تعطى للمسلم، بمعنى أنه لو أقترف أعمالاً لا يقرها الإسلام، فقد يقال له أنت فاسق، أو أنت عاصي، لا أن يقال له أنت كافر، لأن هذا الحق - في تسميته كافر - لا يمتلكه أحد بحال من الأحوال، وذلك بعد أن قال لا الله إلا الله محمد رسول الله، إلا إذا أنكر

ضرورية من الضروريات، كأن ينكر الصلاة مثلاً، أو ينكر التشريعات الأخرى، كأن ينكر المعاد مثلاً، أو أن ينكر قبلة المسلمين أنها الكعبة، أو ينكر أن كتاب المسلمين القرآن. أمثال هذه الضروريات إذا أنكر واحدة منها فحينئذٍ يقال له كافر، أما إذا لم ينكر واحدة منها، ويقر بالشهادتين فهو مسلم، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وإجماع أهل القبلة على ذلك، ومن يخرج عن هذا الخط ويكفر أحد المسلمين فهو الذي يطلق عليه كافراً (من كفر مسلماً فقد كفر)[1]. وقد ورد أيضاً (من كفر مسلماً فقد باء به أحدهما)[2].

إذاً فالمقطع الأول من الآية جاء ليفرق بين المؤمن والمسلم، فكأن المؤمن هو الملتزم بأحكام الإسلام وبآداب الإسلام، المؤمن هو من يأخذ الشريعة ككل، ليس إقرار باللسان فحسب، وإنما إقرار باللسان وعقيدة بالقلب، وكذلك تطبيقٌ للعمل، وهذا المعنى يؤكده القرآن الكريم: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]. في هذا المورد القرآن الكريم يفرق بين المسلم والمؤمن، لأن هذا المؤمن مطبق ملتزم، وذاك المسلم ليس عنده سوى العقيدة فقط، أم التطبيقات وأصل الإيمان فقد لا يكون لديه منها شيءٌ أبداً، فكأن القرآن بهذا المعنى جاء ليكلم فئةً خاصة من الناس.

ثانياً: تعبير (منكم) يستفاد منها التبعيض، لأن (من) كما يقول العلماء للتبعيض، يعني ليس كل المؤمنين، وإنما بعض المؤمنين مثال ذلك عندما أقول: تصدقت من أموالي، يعني بعض أموالي دفعتها صدقة، أو أن أقول: أعطيت من أملاكي، يعني جزءاً منها وليس كلها، - فمن - للتبعيض، وبهذا المعنى فإنه تعالى يكلم أو يخاطب فئة معينة، أولاً يصفهم بالإيمان، وثانياً

---

(١) الحقائق الإسلامية في الرد على المزاعم الوهابية ص ١٦.
(٢) أعيان الشيعة ج ٦ ص ٧١.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

يعتبرهم فئة قليلة، وثالثاً يَذكّرهم ببعض صفاتهم، منها أنهم يعملون الصالحات. إضافةً إلى ذلك من أن الآية هي لفئة خاصة وليست للصحابة ولا للمسلمين بصورة عامة، هو أن هذه الأشياء التي ذكرتها الآية والتي هي متعلق الوعد لم تتحقق، وإلى الآن بعدُ لم تتحقق؛ لأن أول متعلق في الآية بالوعد هو قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهل تم استخلاف المسلمين في الأرض في يوم من الأيام؟ كلا. واقعاً لم يمر على المسلمين يوماً من الأيام منذ أن كان الإسلام أنهم أُستُخلفوا في الأرض - أي حكموا الأرض ، وإلى الآن، وحتى من بعد الفتوحات الإسلامية، لم تكن للمسلمين السيطرة على كل الأرض، وإنما كانوا في رقعة منها، لأن الواقع أن الآية تقول: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا المعنى إلى الآن لم يتحقق. إذاً متى يتحقق؟ في المستقبل كما تنص الروايات وذلك عندما يسود الإسلام الأرض؛ أما الآن - ومع شديد الأسف - نجد المسلمين وإن كانوا قد أخذوا رقعةً كبيرةً من الأرض، إلا أنهم يعيشون على غيرهم، وذلك على المستوى الاقتصادي، وعلى المستوى السياسي، وعلى المستوى العلمي، وعلى جميع المستويات الأخرى، إذاً فالمسلمين الآن مُستهلكين، وليس لديهم حضارة منتجة، وخير شاهد ودليل على ذلك، أنهم إذا احتاجوا مثلاً في العلاج لإبرة يستوردونها من الخارج، فالمسلم لا يستطيع أن يوجد سلاحه بنفسه، ولا يستطيع أن يوجد طعامه، ولا يستطيع أن يوجد احتياجاته الأخرى، فمتى ما استطاع المسلمون ذلك، فهل استلموا الأرض، أما الآن فالفرد المسلم ينتظر ما تجود عليه - به - الحضارة الأوربية، فإذا أعطته قماشاً يلبس، وإذا أعطته طعاماً يأكل، وإذا. . ، وإذا. . . وهكذا، فإذاً المسألة من هذا القبيل، فمتى ما نكون بمستوى الاكتفاء الذاتي، ونتمكن، عند ذلك يطلق علينا مستخلفين في الأرض، ولذلك الشعوب الإسلامية منذ القدم وحتى الآن، تجاهد على أن تحصل بأن تشترك بإنتاج تقني لم تُعط، بل أنهم لا يطلعوها على التقنية أبداً، وإذا رأوا ذلك عند البعض من المسلمين اعتبروه حينذاك إرهابي يريد أن يزعزع الأمن في المنطقة، وليس أدل على ذلك من هذه الضجة القائمة عند الأوربيين تجاه ملف إيران النووي، كل ذلك

لكي لا يكون لبعض الدول الإسلامية نفوذ في الإنتاج التقني[١].

فعموماً عودة إلى سياق البحث، الآية قالت: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ثم انتقلت الآية قالت: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فما هو المراد من التمكين الذي تريده الآية الكريمة؟ هناك وجهان. **الوجه الأول**: يقول: العلماء التمكين هو عبارة عن اعتناق الدين مضموناً وتجسيداً؛ بمعنى أن يكون الإنسان محاسباً لنفسه، بحيث يجعل له خلوه مع نفسه، ويتحدث معها ويخاطبها بلطف أو بزجر، قبل أن توقف يوم القيامة وتخاطب بزجر أو بلطف، فليقل لها عليك حقوق واجبة ومستحبة، فهل أديتيها كما ينبغي، حقٌ لجارك، وحقٌ لذي رحمك، وحقٌ.. وحقٌ وحق...... وهكذا، وبهذا المعنى يكون الإسلام قد تمكن في القلوب؛ أما إذا كان الأمر غير ذلك، بل مجرد الدعاء، وهو الحاصل، فمجرد الإدعاء لا يغني عن التفعيل شيء أبداً، ولهذا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: (واعلموا رحمكم الله أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل، واللسان عن الصدق كليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان مصطلحون على الإدهان، فتاهم عارم وشابهم آثم، وعالمهم منافق، وقارئهم مماذق، لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم)[٢] إذاً من المفترض أن تكون أخلاق أهل البيت، وهي أخلاق الإسلام متجسدة في كل فرد منا، بعد ذلك قل حصل التمكين، لأن الحقيقة التمكين من الدين هو أن العقائد تؤخذ من منبعها الأصيل، وهم أهل البيت عليهم السلام ثم تجسد في الواقع العملي؛ بعد ذلك يحصل التمكين،على المستوي الفردي وعلى المستوى الاجتماعي،

---

(١) أكتب هذه السطور في وقت كانت فيه وسائل الإعلام في ضجة عالية تجاه ملف إيران النووي، وكل ما يريده الاستكبار العالمي هو أن يجعل المسلمين تحت سيطرته وسطوته، كما أن هذا المعنى لا يقتصر عليهم فقط، وإنما يطول حتى بعض حكام المسلمين فإنهم لا يريدون لأحد من المسلمين أن يكون منتجاً وأن تكون له القدرة على الإنتاج التقني، والاكتفاء الذاتي، وكأنما وجود ذلك يزعزع عروشهم.

(٢) نهج البلاغة ص٢٢٧، بحار الأنوار ج ٣٤ ص ٢٢٤.

بعبارة أخرى بأن تكون تعاليم أهل البيت هي التعاليم التي يعمل بها في الواقع العمل ليس الإدعاء فقط، كما هو الحال عند البعض.

الوجه الثاني: هو أنه سيأتي على الفرد المسلم وقت يستطيع أن يؤدي فيه طقوسه الدينية على الوجه المطلوب، وبدون مناوئ أو معارض له في ذلك، أما اليوم فإن الفرد المسلم ملاحق في عقيدته.

المتعلق الثالث للوعد قالت الآية: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ أي أنه من بعد الخوف يكون الأمن والاطمئنان، أما الآن فالعالم بأسره يعيش في خوف ورعب. وعلينا أن نتصور ما هو الخوف الذي يعيشه العالم حينئذ؟ إذا تصورنا نجد الخوف بمختلف أشكاله.

أولاً: الخوف من الأمراض، يفتح الإنسان عينيه فلا يدري أي مرض يتناوشه، ذلك كله من ظلم الإنسانية لبعضها البعض، حيث أنها بثت هذه الأوبئة المرعبة.

ثانياً: خوف السلاح، فلا يدري الإنسان في أي ساعة يحصل التفجير الهيدروجيني، فيجتاح الأرض بأسرها، لأنه في لحظات قد يقضي على من في الأرض.

ثالثاً: خوف البلايا والنكبات السماوية، التي قد تأتي من جراء ظلم البشرية لبعضها البعض، حيث أنك تجد ههنا بلد غريق، وذاك بلدٌ محروق، وهناك بلد مُدمر. . . . وهكذا.

رابعاً: خوف الفقر من جراء ظلم الإنسانية لبعضها البعض، كذلك الخوف من سفك الدم، وذلك بسبب سوء العلاقات، فالبشرية تعيش في ألوانٍ من الخوف.

الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ بمعنى أن الأرض كما تقول الرواية تظهر أفلاذ أكبادها، بحيث تصبح الأموال ليس لأحد فيها حاجة، ذلك لأن الرجل يجد ما يحتاج إليه من السلع، الدنيا تتغير. والحال أن هذا التفكير لا كما يتصوره البعض بأنه تفكير طوباوي أبداً، ومن ثَم نجد الآن بعض المذاهب الاجتماعية تواعد الناس بإمكانيتها البشرية، أما أتباع مدرسة

أهل البيت فإنهم يقول إذا أراد الله عزّ وجلّ أن يرحم الخلق بعطائه ولطفه، فلا يُتصور أن هذا الشيء مستبعد أبداً.

إذاً فالله عزّ وجلّ أعطى هذه المواعيد كلها، ولكن متى تتحقق؟ تتحقق إذا ظهر حجة آل محمد فإنه يتمكن من الاستيلاء على الأرض كلها، ولهذا كثيراً ندعو كما في دعاء الافتتاح: (**اللهم أظهر به دينك وملة نبيك حتى لا يستخفي بشيء من الحق مخافة أحد من الخلق**)(١)، فإذاً فكرة صاحب العصر والزمان هي من صميم القرآن الكريم، ومن صميم السنة الشريفة، فلهذا نص عليها القرآن ونصت عليها الروايات. ولنا أن نسأل ما هو الهدف منها في حياة البشرية؟ الواقع هناك عدة أهداف، ومن أبرز تلك الأهداف، أن الله عزّ وجلّ يريد أن يبرهن على أن هذا المجتمع، الذي ترونه متناحراً قد ترونه متفقاً في يومٍ من الأيام، بعبارة أخرى تقريب فكرة النظام العالمي للناس، لأن الناس لا يتصورون أنه يأتي نظام يشمل العالم كله، القرآن الكريم يقول إن هذا ممكن. كما حصلت محاولات بشرية كثيرة، مثلاً أفلاطون يحلم في كتابه الجمهورية بعالم متساوٍ، ويتصور أن هذا قريب من التطبيق، بأن يكون ذلك العالم خال من المآسي؛ كذلك ماركس أيضاً يصور أن الشيوعية في يوم من الأيام إذا انتظمت الدنيا فإنها قد تمتص كل المآسي، وتصبح الدنيا كلها مملوءة بإيجابيات وليس فيها سلبيات، المسلمون لديهم فكرة صاحب الزمان، وهذه الفكرة من أهم الأهداف فيها، هي تقريب وجهة النظر، بأن المجتمع يمكن أن تسوده حكومة عالمية كاملة، لأن البشر هم البشر في كل زمانٍ ومكان، ينشدون العدل، والرحمة، والكفاية، وقد تتوفر هذه الأمور ويصبح الناس كل الناس في نظام عالمي.

ثانياً: إن فكرة صاحب الزمان تشد الناس إلى العدل، ولهذا عندما نقرأ الروايات كما عن النبي صلى الله عليه وآله يقول: (لو لم يبقى من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من أهل بيتي يواطئ أسمه اسمي وكنيته

---

(١) مصباح المتهجد الشيخ الطوسي ص ٥٨١ .

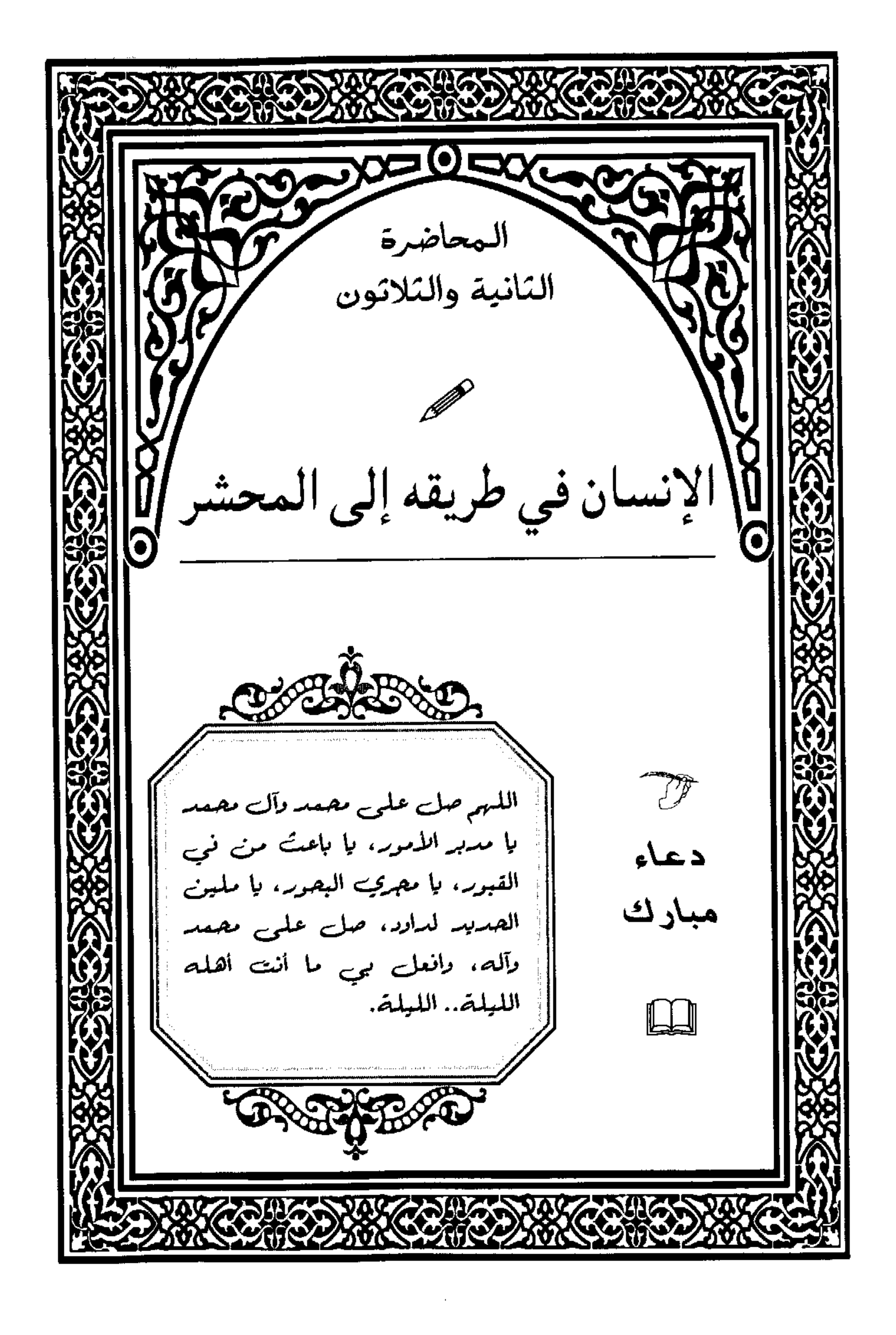
كنيتي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلما)[1]. أمثال هذا الحديث يجعل الإنسان دائماً وأبداً مشدوداً إلى فكرة العدل، وهنا قد يقول قائل: إن هذه الفكرة ليست صحيحة في حد ذاتها، لأنها تجعل الإنسان ينتظر بأن الله هو الذي يغير له الواقع، وهو لا يسعى في تغيير واقعه المؤلم؛ بينما الواقع هو العكس، حيث أن هذه الفكرة تشحذ عند الإنسان الشعور بفكرة العدل، والوقوف بوجه الباطل؛ فعموماً هناك أهداف كثيرة لفكرة ظهور صاحب الزمان، ومن هنا فالروايات تؤكد على أن خروجه سوف يكون من البلاد التي انطلقت منها الهداية، وهي مهبط الوحي، مكة المكرمة، ثم يخرج منها ويمر ببعض المآسي، حتى يصل إلى أرض كربلاء، وإذا وصل إلى أرض كربلاء، يقف على قبر جده الحسين، ثم يمد يده وأول ما يستخرج، يستخرج رضيع الحسين، يحمله أمام أصحابه وكأنه يقول لهم: أنظروا ما ذنب هذا الرضيع حتى يقتل؟ أنظروا إلى هذه النكسة التي وصلت إليها بنو أمية، ما ذنب هذا الرضيع حتى يقتل عطشاً، ولذلك السيد حيدر الحلي عندما يستنهض الإمام يقول سيدي:

ماذا يهيجك إن صبرت ... لوقعة الطف الفظيعة
أترى تجيء فجيعة ... بأمض من تلك الفجيعة
حيث الحسين على الثرى ... خيل العدى طحنت ضلوعه
ورضيعه بدم الوريد ... مخضب فطلب رضيعه[2]

---

(١) عصر الظهور للشيخ على الكوراني العاملي ص٣٨١، منهاج الصالحين الشيخ الوحيد الخرساني ج ١، ص ٤٧٤، روضة الواعظين ص ٢٦١. وقوله صلى الله عليه وآله: (لو لم يبق في الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي، اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلا وقسطاً كما ملأت ظلماً وجوراً) احتوى كتاب منتخب الأثر على مائة وثلاثة وعشرين حديثاً بهذا الصدد، من مصادر إسلامية مختلفة خاصة السنية منها. للاستزادة يراجع هذا الكتاب في صفحة ٢٤٧ وما يليها.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلي ج ١، ص ٣٧.



المحاضرة

الثانية والثلاثون

الإنسان في طريقه إلى المحشر

دعاء مبارك

اللهم صل على محمد وآل محمد يا مدبر الأمور، يا باعث من في القبور، يا مجري البحور، يا ملين الحديد لداود، صل على محمد وآله، وافعل بي ما أنت أهله الليلة.. الليلة.



الإنسان في طريقه إلى الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(١).

※※※

الآية الكريمة تناولت أبحاث متعددة وسنتعرض لها إن شاء الله تعالى على التوالي، وذلك بعد مقدمة.

اختلف المفسرون في مفهوم الآية الكريمة، في مَن هم المخاطبون فيها؟ هل أن المخاطبون فيها هم المشركون فقط؟ أو المخاطبون هم كافة الناس؟ لأن الآية الكريمة **أولاً**: تبين زعم أولئك الذين يدعون أن الأصنام شركاء فيهم، ويدعون أن الأصنام شفعاء أيضاً لهم، وهذا المعنى لا يوجد إلا عند المشركين، فيقتضي أن تكون الآية مخاطب بها المشركين، وهذا الخطاب يكون يوم القيامة، ومن المفترض أن الله تعالى لا يخاطب المشركين، لأن الآية الكريمة تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢). والمشركون هم ضمن من لا يكلمهم الله،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

لأن هذه الصفات التي ذكرتها الآية موجودة فيهم، لهذا بعض المفسرين يقول: يمكن الجمع بأن يكون الملائكة تكلمهم نيابةً عن الله تعالى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المخاطب فيها كافة الناس، أو أن المشركين يخاطبون بمقطع من الآية، وباقي الناس يخاطبون بمقطع آخر، معنى ذلك أن للآية تفصيلاً وسيتضح من خلال المرور بفقراتها. فلنأتي إلى مضامين الآية لنتعرف على المعنى المراد منها:

المبحث الأول: في الآية الكريمة قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾.

في هذا المقطع ثلاثة آراء عند المفسرين:

الرأي الأول: أن معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ هو أنكم تحشرون يوم القيامة فرداً فرداً، أي أنكم لا تحشرون على هيئة جماعات، وإنما على هيئة أفراد، واحداً بعد واحد. وهنا قد يأتي السؤال: ما هو السبب في ذلك؟ في واقع الأمر أن بعض المفسرين يقول: إن هذه الصورة من صور القيامة، يريد الله تبارك وتعالى أن يحشد فيها وسائل الرهبة، بمعنى أن الإنسان عندما يحشر فرد، يحشر بشيء من الرهبة، لكي يشعر الإنسان بجلال الربوبية، ويستشعر في قرارة نفسه كيف يكون الحساب؛ وكذلك يتوقع مفاجئات الحساب، ويصبح في مخيلته وراء ذلك الحساب، إما عقاب وإما ثواب، فعندما يأتي لوحده، تشتد عليه الوحشة أكثر فأكثر، بعكس الجماعات الذين يأتون؛ بحيث يأنس بعضهم ببعض، حتى وإن كان الفرد ماضٍ إلى رحيم، وكأن القرآن الكريم يعادل بين الخوف والرجاء، ولهذا حتى مَنَ يعلم أنه ماضٍ إلى الرحمة يكون كذلك، والله مصدر الرحمة، فشعور الإنسان بالطمأنينة، يقابله أيضاً شعور بالخوف والرهبة، من هنا يأتي لوحده. ولهذا نلاحظ حتى في الدنيا إذا أرادوا تشديد العقوبة، يجعلون الفرد المجرم في السجون الانفرادية، لأن الإنسان في السجون الجماعية، يتفاعل مع المجتمع، الإنسان إذا لم يتفاعل مع الغير يكون أيضاً في داخله سجن، لأنه لا يجد من يتكلم معه، أو مَن يشكو إليه آلامه، فهذه الأمور لا تحصل إلا

بوجود الإنسان إلى جانب الإنسان، ومن ثَم يقال أن الإنسان مدني بالطبع، بمعنى أنه لا يمكن أن يعيش لوحده، فلابد له من أن يعيش مع المجتمع، ولهذا بدأت النظرة الإنسانية تحمل على السجون الانفرادية، لأن الأصل في سجن الفرد المجرم هو تأديبه، حيث أنه اقترف الذنب، ومن المفترض أنه يُؤدب، لا أن ينتقم منه، وهذه هي الوجهة السائدة عند البشر.

بينما وجهة المشرع الإسلامي بالنسبة إلى الجرائم الكبيرة، فإنه لا يجعل السجن لها عقوبة رادعة، الجرائم الكبيرة عقوبتها الاجتثاث، معنى ذلك أن القاتل يقتل، والسارق تقطع يده، وذلك إذا انطبقت عليه الموازين التي وضعها الشارع المقدس، وقد ذكرت في كتب الفقه، فلهذا السجن يترك لحالات معينة، وإذا ترك لحالات معينة خاصة، وهي الحالات القابلة للمداواة، والقابلة للمعالجة، فالسجين فيها يعالج، لا أن ينتقم منه، فخلاف الإنسانية أن يوضع الفرد في السجن المنفرد، لأن الوضع في السجن المنفرد تدمير للنفس وللجسد.

فالبعض من المفسرين يحمل الآية الكريمة على المعنى الذي ذكرنا، بمعنى أن الله عز وجل بالنسبة إلى هؤلاء أنهم يحشرون فرادى، واحداً بعد واحد، مبالغة في الوحشة، وتشديداً للعقوبة، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ معنى ذلك فرداً بعد فرد، فلا مجال لأن يأنس بعضكم ببعض، أو أن يشكو بعضكم لبعض، أو أن يتألم بعضكم للبعض الآخر، وإنما تأتون تلفكم الوحشة والشعور بالخوف.

وهنا قد يقول قائل: إذا كانت الصورة بهذا المعنى، كيف نلاءم بين هذا المقطع والمقطع الذي يأتي بعد هذا المقطع: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنه قد تلد المرأة في آنٍ واحد اثنان أو أكثر؟ **الجواب**: هو أن الله عز وجل عندما خلق الإنسان خلقه فرداً، وإذا كان في بعض الأحيان يكون التوأم فهذه حالات شاذة، أو نادرة، أما القاعدة العامة هي أن الإنسان يولد فرداً، ثم بعد ذلك يتفاعل مع المجتمع، القرآن الكريم أراد تأكيد هذا الجانب، والغاية من ذلك التشديد في موضوع الوحشة، لأن البعض من الناس قد يطلق لنفسه العنان في

استباق الملذات، فلابد من أن تتعرض هذه النفس للونٍ من ألوان العقوبة، ولهذا كان الخطاب في الآية لجميع الناس. وهذا هو الرأي الأول.

الرأي الثاني: أن معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ هو أن البعث من بعد الموت بعث روحي، وليس بعث جسماني، هذا الرأي يذهب إليه البعض، وذلك أن لدينا مدرسة في الفكر الإسلامي تذهب إلى أن الإنسان يبعث روحاً لا جسداً، ومن هذا المنطلق أولاً: نريد أن نبين وجهة النظر التي يستدلون بها، وثانياً نريد أن نبين أن هذا القول هل هو مقبول أو أنه غير مقبول وما هو الدليل.

الحقيقة أنهم بهذا القول يرون أن المعدوم لا يعاد، ذلك لأن كل شيء من الأشياء له صورة، وهذه الصورة يأتي عليها وقت تنعدم فيه، فإذا انعدمت يستحيل إعادتها، نعم من الممكن أن يعاد مثلها، ذلك لأن المعدوم له زمانٌ خاص به، والزمان الخاص به لا يمكن أن يعاد، لأنه إذا أعدت الزمن يكون للزمن زمن وهذا باطل، وهنا لا نريد أن نتعرض إلى أدلتهم لأن فيها شيئاً من الدقة، فتحتاج إلى بحث مستقل، ولكن مجمل القول أن المعدوم مستحيل أن يعاد، فلهذا قالوا: إن الإنسان إذا مات ووضع جسده في القبر تحول وتلاشى وانعدم، والمعدوم مستحيل أن يعاد. - هذا من ناحية -.

ومن ناحية ثانية قالوا: إن الإنسان ليس إنساناً بجسده، إنما هو إنسانٌ بروحه، بمعنى أن الإنسان قد تمر عليه أدوار يتغير فيها، فدورٌ يمرض فيه فيضعف، فلا يستطيع القيام بأي عمل، ودورٌ مثلاً يتعافى فيه، وفي كلا الحالتين هو واحد. إذاً فأجزاء الجسم زادت أو نقصت ليس لها علاقة بالإنسان، لأنها مجرد آلة، فالجسد إذا نزعة منه الروح تحول إلى جماد، لأنه لا يتحرك إلا بواسطة الروح. ولهذا الأديب يقول: (فأنت بالروح لا بالجسم إنسان)[1] الواقع هكذا، ومن ثَم تجد أن الجسم يومياً في تغير مستمر،

---

(١) المصدر في ظلال التوحيد الشيخ جعفر السبحاني

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح فيما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

والدليل على ذلك كما يقول العلماء إن كل خلية في جسم الإنسان تحترق، وتأتي خلية أخرى عوضها، وذلك على مدى دقائق وأيام العمر[١]، أيضاً القرآن الكريم يبين هذه الحقيقة: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢]. دائماً يكون الجسم في تغير مستمر، تحترق خلايا وتولد خلايا أخرى، فلو كان الجسم هو الأساس يحشر مع الروح، فينبغي أن لا يتغير، ولهذا يؤكد العلماء أن الوحيد من خلايا الجسم التي لا تتغير هي خلايا الدماغ فقط، خلايا المخ لا تتغير أبداً، وهي: [ألف مليون خلية عصبية][٣]، فهي تولد مع الإنسان، وتنزل معه إلى القبر، وقد ثبت علمياً أنها ما تتعطل إلا بعد فترة من الزمن، بمعنى أنها تبقى عاملة حتى بعد موت الإنسان، ولذلك عندنا يستحب تلقينه الشهادتين، قال رسول الله ﷺ: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب)[٤] لأن الميت يسمع إلا أنه لا يقدر على الجواب، لأن الأعضاء قد تعطلت عن الحركة. الواقع إن هذا ليس هو موضع الإشكال، موضع الإشكال أن خلايا جسم الإنسان دائماً في تغير مستمر، فمعنى ذلك أنها لا تُؤلف هوية الإنسان، هوية الإنسان تحددها الروح، فإذا كان الإنسان بروحه، الروح هي التي تحشر، الجسم ليس له قيمة حشر أو لم يحشر.

الأمر الثالث: إن الذين يذهبون إلى أن الإنسان يحشر بروحه لا بجسده، هو أنهم قالوا: أي جسم يحشر مع الإنسان؟ الجسم الذي عند الإنسان قد أخذه من آلاف الأجسام، فمثلاً الفاكهة التي يأكلها الإنسان يومياً، أو اللحم الذي يأكله يومياً، أو الأطعمة الأخرى وهكذا، مثلاً الفاكهة أكلها من الشجرة، والشجرة قد غرست في الأرض، والأرض منذ أن وجدت إلى يومك هذا تحولت إلى أجسام، من كثرة مَن دفن فيها، فالإنسان لا يمشي على تراب، وإنما يمشي على عيون، وعلى وجوه، وعلى أيد، وعلى

---

(١) انظر كتاب: مع الطب في القرآن الكريم - عبد الحميد دياب، أحمد قرقوز ص ٤٠.
(٢) سورة ق مقطع من الآية: ١٥.
(٣) كتاب الإسلام يتحدى - وحيد الدين خان - ص ٦٠.
(٤) الدعوات - قطب الدين الراوندي ص ٢٥٢.

سواعد. فالتراب الذي يطأه الإنسان برجليه، هو ملايين البشر التي مرة بهذه الكرة الأرضية، ثم تحولت إلى تراب. يقول أبو الطيب المتنبي:

يدفن بعضنا بعضاً ويمشي أواخرنا على هام الأوالي
وكم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال[١]

فالواقع أن التراب الذي نمشي عليه هو وجوه كوجوهنا، وعيون كعيوننا، وأجساد كأجسادنا، وهكذا كل ذلك تحول إلى تراب. فنحن نغرس الشجرة في الأرض، والشجرة تمتص غذائها من التراب، والتراب هو عيون غيرنا، وسواعد غيرنا، ورؤوس غيرنا، وأجزاءً من أجزاء غيرنا، كلها تحولت إلى غذاء، حيث أنها أخذت دورتها الكيماوية وتحولت إلى غذاء، فإذا أكلناها أكلنا غيرنا، فيأكل بعضنا بعضاً. مثلاً السمك الذي نأكله نحن، قد سبق أن كان في البحر يأكل حيوانات أخرى، والحيوانات الأخرى أكلت أناساً من البشر قد غرقوا في البحر، فأكلناهم ضمن ما أكلنا من سمك، وهكذا، الخضرة، أو الفاكهة، أو الحنطة التي نأكلها، إنما يأكل بعضها جسم البعض الآخر، فإذا كان كذلك، بأي جسم يحشر الإنسان يوم القيامة؟ لأن هذا الجسم الذي فيه الإنسان ليس جسده فقط، وإنما هو جسم آلاف البشر، الذين سبقوه بالدخول إلى هذا الوجود، فكل واحد منا هو خلاصة ملايين من البشر، ولهذا يقول الأديب:

مات من مات والثريا الثريا والسماك السماك والنسر نسر
ونجوم السماء تضحك منا كيف تبقى من بعدنا ونمر[٢]

فلهذا قالوا: كيف يكون الحشر، وعلى أي جزء من أجزاء الجسم؟ الواقع إن هذا الإشكال واضح، ولكن أجزاء الجسم ليست فيها مشكلة حتى لو تغيرت، بعبارة أخرى الإشكال ليس عليها، الإشكال على الروح، فآخر جسم يموت به الإنسان هو الذي يحشر فيه، وسيأتي هذا المعنى خلال الحديث.

---

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ١١، ص ٣٣٩، ديوانه ٣: ١٨.
(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج ٩، ص ٢١١.

فإذاً الإشكال غير صحيح، إلا أن هؤلاء الذين يقولون أن الإنسان إنما يبعث روحاً لا جسماً يوردون هذه الإشكالات الثلاثة، التي مر ذكرها، ولكن كلها مرفوضة، صحيح أن الإنسان إنسان بروحه. لكن الله عزّوجلّ أوقف فعاليات الروح على توسط الأعضاء، معنى ذلك أن الإنسان لا يقدر أن ينطق إلا باللسان، ولا يقدر أن يمشي إلا بالرجلين، ولا يقدر أن يحمل شيئاً إلا باليد، فالآلة التي اقترفت مع روح الإنسان الجرم هي التي تحشر معه، هي بنفسها.

ثانياً: قالوا أن الإنسان بروحه، صحيح، وصحيح أنه أخذ أجزاءً من غيره، ولكن هذا لا يقدح، غيره أيضاً أخذ من التراب، ولكن المسؤولية لا تقع عليها، هي مجرد آلة، المسؤولية تقع على الروح، كما أنه حتى الألم إذا أصاب الجسم في دار الدنيا ليس بحد ذاته للجسم، ذلك لأن الجسم مجرد عضواً يوصل الألم إلى الروح، فإذا انجرح الإنسان مثلاً في جانب من جوانب جسده، يصبح الجسد بأكمله يحس، ذلك لأن الروح هي التي تحس، الجسد مجرد مادة، والمادة لا تحس. ولهذا العقلاء إذا أرادوا أن يمدحوا إنساناً أو يذموه، لا يوجهون المدح أو الذم لجسده، وإنما يوجهون ذلك لروحه، أيضاً مثال آخر لتوضيح المعنى، لو فرضنا إنسان سقط على حجارة، لا يقال له يا فلان أديت الحجارة، لأن الحجارة لا تحس، بمعنى ليس لديها إحساس، كذلك المادة خواصها مشتركة، الدم والحم مادة، خواصها مشتركة، ليس فيها إحساس، ولكنها مجرد وسيط، وهذا الوسيط بدوره ينقل اللذة أو الألم إلى الروح، وهو أشبه شيء بالسلك الكهرباء، الذي ينقل التيار، السلك ليس هو الكهرباء، وإنما هو مجرد وسيط ناقل، فإذاً الروح هي التي تحس، ولكن إحساسها متوقف على الآلة.

فالنتيجة هي أن هذا الرأي مرفوض وغير مقبول عند علماء المسلمين، لأن جمهور علماء المسلمين ينصون على أن الحشر يكون بالجسم وبالروح، الإنسان يعاد بجسده، ولهذا نجد المفسرين مثل القرطبي والطبرسي وغيرهما من المفسرين يذهبون إلى الحديث النبوي الشريف أن الإنسان يُعاد بكل

أجزائه كما خلق أول مرة، حتى القلفة تعاد إليه لتحشر معه، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[١]. إذاً فالمعاد معاد بالجسم وبالروح، وليس معاد بالروح فقط.

الرأي الثالث: في معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ أن المقصود من فرادى - أي فرادى مما لحقكم من ضروب التثنية في دار الدنيا، ولتوضيح هذه المسألة، نحن الآن في دار الدنيا عندما يولد الإنسان يولد فرداً، بكل ما للفردية من معنى، مثلاً يولد المولود عرياناً، ثم بعد ذلك يلف بخرقة أو بثوب، فيكون هو والثوب اثنان، الإنسان يولد فقيراً، لا يمتلك شيئاً من حطام الدنيا، ثم يعمل فيملك، فيصبح هو والمال اثنان، يولد الإنسان وليس عنده ولد، فيولد له الولد فيصبح أباً، من المتضايفين، لأن معنى الأب لا يتصور إلا بوجود الأبناء، يولد الإنسان ليس عنده علم ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[٢] بعد ذلك يتعلم، وعندما يتعلم، يصبح عنده تخصص، إما لقب طبيب، أو محقق، أو أديب، أو مهندس، أو غير ذلك، فيكون هو واللقب اثنان. القرآن الكريم يقول أنتم تحشرون غداً بين يدي الله عزوجل فرادى، من ضروب التثنية التي ذكرناها. فأنت أيها الإنسان دخلت إلى الحياة فلفتك خرقة، عبّر عنها قماط، وعندما تخرج تلفك خرقة، يعبر عنها بالكفن، يقول الأديب:

أنظر لمن ملك الدنيا بأجمعها   هل راح منها بغير القطن والكفن[٣]

الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: (**يقول ابن آدم مالي، مالي، وما لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت**)[٤] إذاً الإنسان بجميع ما لديه من ضروب التثنية يتخلى عنه، دخل إلى الدنيا عارياً وسيخرج

---

(١) سورة الكهف مقطع من الآية: ٤٨.
(٢) سورة النحل مقطع من الآية: ٧٨.
(٣) تفسير القرطبي ج١٣، ص ٣١٤.
(٤) التمهيد ابن عبد البرج ١٤ ص ٣٠٤، مجمع البيان الشيخ الطبرسي ج ١٠، ص ٤٣٢، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ الشيخ ناصر مكارم شيرازي ج ٢٠، ص ٤٢٤.

منها عارياً، فالأموال أكثر ما يأخذ منها الإنسان كفنه وذلك بمقدار الحاجة الضرورية، وما زاد فإنه منوط بإذن الورثة[١] ويترك تلك الأموال للوارث شاء أم أبى، يقول الشريف الرضي:

يا آمن الأيام بادر صرفها | واعلم بأن الطالبين حثاث
خذ من تراثك ما استطعت فإنما | شركاؤك الأيام والوراث[٢]

إذاً في الحقيقة أن الإنسان عندما يخرج من الدنيا يترك ما لديه من أموال للوارث، بل أنه إذا مرض مرض الموت تصبح ملكيته متزلزلة، كما ليس له من قبل مرضه أن يتصرف إلا بالثلث من ماله فقط، فإذا وضعه في أمور البر استفاد منه، وإلا فكل ذلك مفارقٌ له، دخل إلى الحياة بغير الولد، وسيخرج منها كذالك، بطبيعة الحال إن الأولاد كلما هنالك أنهم يوصلوه إلى القبر، وربما قد تكون هناك حالة، تسمى تلك الحالة بلحظات الوفاء، ثم تنتهي، فيدخلوه إلى القبر ويكروا عنه راجعين. يقال أن حاتم بن عبد الله الطائي له قطعة رائعة يخاطب بها زوجته ماوية يقول:

أماوي إن المال غادر ورائح | ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوي إن يصبح صداي بحفرة | من الأرض لا ماء لدي ولا خمر
أماوي ما يغني الثراء عن الفتى | إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
ترى ان ما أنفقت لم يك ضائري | وإن يدي مما بخلت به صفر
إذا أنا دلاني الذين أحبهم | لملحودة زلخ جوانبها غبر
وراحو سراعاً ينفضون أكفهم | يقولون قد أدمت أناملنا الحفر[٣]

---

(١) انظر منهاج الصالحين ج ١، ص ٨٥ (مسألة ٢٩٤): الزائد على المقدار الواجب من الكفن وسائر مؤن التجهيز، لا يجوز إخراجه من الأصل إلا مع رضا الورثة، وإذا كان فيهم صغير، أو غير رشيد، لا يجوز لوليه الاجازة في ذلك، فيتعين حينئذ إخراجه من حصة الكاملين برضاهم، وكذا الحال في قيمة القدر الواجب فإن الذي يخرج من الأصل ما هو أقلّ قيمة، ولا يجوز إخراج الأكثر منه إلا مع رضا الورثة الكاملين. .

(٢) ديوانه لوحة ١٢٣.

(٣) الأبيات في ديوانه ص ٥٠، وفي الأغاني ١٧/ ٢٨٤ - ٣٨٥. تاريخ مدينة دمشق لابن=

إن هذا هو الواقع، أن أكثر ما يحصل عليه الإنسان من الأولاد، ومن الأحبة، ومن الأعزة، هو أن يوصلوه إلى القبر، ويكروا عنه راجعين، ولكن الشيء الذي لا يفارقه هو عمله، فإنه يكون معه، يلحقه إلى القبر وما بعد القبر، وإلا فالأولاد مرحلتهم قد تكون إلى القبر وتنتهي، وحتى اللقب الذي يمكن أن يحصل عليه الإنسان في الحياة يخلعه، سواءً كان ذلك اللقب حقيقي أو غير حقيقي، لأن هناك ألقاب مسروقة في الواقع، منتزعة من الباطل والإثم، ألقاب ليست مأخوذةً بحق، وهناك ألقاب واقعية، فكلها سواءً كانت واقعية أو مسروقة يتركها الإنسان على التراب، يقول الشاعر:

سل الحجر الصوان والأثر العادي ... خليليَّ كم جيل قد احتضن الوادي
طلبت ابن عبادٍ فألفيت صخرة ... وقد رقشت هذا ضريح بن عباد
وكم كومة للترب من حول كومة ... معلمة هذا الزعيم وذلك الهادي
فذو الزهو خلَّ الزهو عنه وقد ثوى ... وضلت على الغبراء سيادة أسياد
أعقابك يا دنيا قميص وطمرة ... بحفرة أرض من خرابات زهاد[1]

ورحم الله سلمان المحمدي:

وفدتَ على الكريم بغير زاد ... من الحسنات والقلب السليم
وحمل الزاد أقبح كل شيء ... إذا كان الوفود على الكريم[2]

إذاً فهناك شيء يتبع الإنسان وهو الزاد من الحسنات، وإلا فكل التثنيات الموضوعة عليه في دار الدنيا تنتهي، الأولاد والألقاب بأجمعها يتركها الإنسان ويذهب عارياً، الجسد الذي أنتزع من الأرض، والتحق بالروح، ستنتزع منه الروح، ثم يعود جسداً مرة أخرى، ويعود إلى التراب، كما قال

= عساكر ج ١١، ص ٢٧٦، وفي الأمالي للسيد المرتضى - ج٤ - هامش ص٦٣، وهي من قصيدة طويلة وهنا قد يكون تقديم وتأخير فيها.

(١) مدينة النجف محمد علي جعفر التميمي ص ٧٧.

(٢) تعاليق مبسوطة الشيخ محمد إسحاق الفياض ج ٢، ص ٢٣٢، وفي العروة الوثقى للسيد اليزدي ج٢، ص٧٦، وفي مستمسك العروة للسيد محسن الحكيم ج ٤، ص١٨٢، كما وأن هذان البيتان اللذان كتبهما أمير المؤمنين عليه السلام على كفن سلمان المحمدي.

تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(١). الإنسان كما بدأ من التراب، يُعاد إلى التراب مرة ثانية، وحلقات البداية متصلات بحلقات النهاية، وهذه هي النتيجة الواقعية ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ - فهذا هو المبحث الأول -.

المبحث الثاني: في الآية الكريمة قالت: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وهنا ينبثق رأي التشريع الإسلامي في أن ملكية الإنسان في هذه الحياة ليست ملكية واقعية، وإنما هي تخويل، وهذا هو الفرق بين نظرية الاقتصاد الإسلامي، والنظريات الاقتصادية في المذاهب الاجتماعية المعاصرة، ولهذا فالمذاهب الاجتماعية المعاصرة، مهما تعددت تنقسم إلى صنفين، صنف منها يذهب إلى إلغاء الملكية الفردية، وصنف يذهب إلى السماح بالملكية الفردية، فالنتيجة هي أن المذاهب الاجتماعية المعاصرة تصنف صنفين، صنف يعتبر الإنسان يملك ملكية مطلقة، كمّاً وكيفاً، فله أن يتصرف في أمواله كيف ما أحب، فله الحق أن يضعها في البحر، أو يحرقها، أو يعطيها لمن يشاء، أو يضعها بأي شيء ولو فيه هلاك الإنسانية. وصنف يسلب منه الملكية الفردية نهائياً، فيفرض على الإنسان أن ليس له إلا حاجاته، والباقي يؤخذ منه للمجموع. بينما المشرع الإسلامي يختلف عن الصنفين، فلا يسلب منه الملكية سلباً نهائياً، ولا يبيحها له إباحة نهائية، إنما يوظفها توظيفاً، فيعطيه وظيفة التخويل، أيّها الإنسان أنت فرد لك أن تتصرف بحصة من الثروة الجماعية، شريطة أن تكون تصرفاتك ضمن القنوات الإسلامية، ومن جهة أخرى يضع قنوات ويلزم الفرد أن يتحرك ضمن تلك القنوات، هذا حلال، وهذا حرام، هذا صحيح، وهذا غير صحيح، هذا مسموح، وهذا ممنوع.

إذاً فالذي عندنا في الشريعة الإسلامية هو تخويلٌ فقط، وإلا لو كانت الملكية حقيقية، لكان بوسع البعض من الناس أن يقول هذه أموالي ولا أريد أن أعطيها لابني الفلاني، أو أن يقول أخص بها ابني الأصغر أو الأكبر، أو

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

أن أعطي هذا أكثر من هذا، باعتبار أنني أحبه أكثر، أو أنه يحبني أكثر،فهو غير مقبول لأن المشرع الإسلامي يقول: الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يقسمها، فيضع الحصص؛ يضع حصة للابن، ويضع حصة للبنت، ويضع حصة للمجتمع، وهكذا يقسم الحصص فيما لو كان ليس للمورث أبناء، كل ذلك تكفلت بتوضيحه كتب الفقه[1]، تبعاً لمفهوم الفقهاء للآيات والروايات الواردة بهذا الصدد.

إذاً فالإسلام لا يعطي حرية مطلقة في التصرف، فلو كانت الملكية ملكية واقعية، لكان الإنسان يملك الحرية في التصرف، ولكن ما عندنا هو تخويل في الأموال، وكذلك في الولد، الولد لا يملكه الوالد، نعم له حقوق الطاعة، ولكن ضمن حدود معينة، ولذلك تصرفات الوالد مع الولد تصرفات مخول فقط، وليست تصرفات مالك، ولهذا الله تبارك وتعالى سلب طاعة الولد لوالده إذا وجهه إلى وجهة محرمة، بأن يأمره مثلاً أن يسرق، أو أن يعتدي، أو أن يحمله على العقوق، - وهذا مع الأسف عند البعض من الآباء، لأن الآباء نوعان.

النوع الأول من الآباء: كأن تكون مهمته الوحيدة في الحياة أن يفرز أولاد، وتنتهي المهمة، يضع كماً هائلاً في المجتمع، بلا تربية، بلا ملاحقة، بلا توجيه، بلا مسائلة؛ بل أكثر من هذا فقد يمكنه من أسباب الفساد، فيوفر له طاقات من خلالها يدمر المجتمع.

النوع الثاني من الآباء: يتدخل في حرية الابن، ذلك التدخل الذي يجعله يكفر بالأبوة كلها؛ بينما التربية الإسلامية، وضعت لنا قواعد في معاملات الأسرة، ولكن مَن منا يرجع للتربية الإسلامية؟ فالبعض تجده مسلم بالجنسية فقط. حيث أنه لا يأخذ من وقته ساعة، يقرأ فيها بعض الكتب التربوية في الإسلام، ثم يجلس بعد ذلك مع أبنائه وبناته يلقنهم شيئاً منها، فتراه منكبٌّ على الدنيا من الصباح إلى المساء، بينما الإنسان عليه أن يجعل من وقته ولو

---

(١) انظر شرائع الإسلام - للمحقق الحلي - من صفحة ٤٦٦ إلى صفحة ٤٨٨.

نصف ساعة في اليوم يتعلم فيها بعض الأحكام، بعض النظريات عن دينه وعن حضارته. وهكذا كل الطبقات الإنسانية - للأسف الشديد - حتى العامل، مثلاً تراه يعمل ولكنه يضع جهده وعرقه في عمل محرم، بينما الله تبارك وتعالى فتح له أبواب الرزق بالطرق المشروعة، فهو لا يسعى في تحصيلها، ولكنه يطلب الرزق عن طريق الحرام، وقد يكون عاملاً من العوامل التي جعلته يكون كذلك هو عدم التثقف في مشروعية ذلك العمل.

إذاً نرجع إلى صلب الحديث، تقول الآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ هذا المعنى يعبر عنه بالبيان المتحرك، البيان الشاخص، الذي يرسم لنا صورة متحركة، فالإنسان عندما لم يشبع من شيء ويؤخذ منه بالجبر تراه يدير عنقه إليه، وينظره نظرة المتحسر[1]، هذه هي الصورة الشاخصة المتحركة ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

المبحث الثالث: قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ هذا بالنسبة للمشركين لأنهم كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاء يشفعون لنا، وإنهم يقولون: إن الأصنام شركاء في خلقنا، وهؤلاء صنفين: **الصنف الأول**: هم الذين عندهم طفولة عقلية، أو عندهم طفولة حضارية، فهؤلاء لا يناقشون، لأنهم ولدوا في حضارة لم يصل إليها الإرشاد، ولم يصل إليها التعلم، فأصبحوا يعيشون في حضارة بدائية، فكانوا يعبدون الأصنام، والشيء الذي كان يدفعهم لعبادة الأصنام هو أن الإنسان في داخله جوع للعقيدة، فكما أن لديه معدة تطلب الطعام، كذلك لديه روح تطلب العقيدة، فكما أن المعدة تضج على الإنسان، فيضطر الإنسان أن يأكل، وعندما يأكل، يأكل حسب ظروفه الخاصة، فتارة يأكل الطعام المحترم، وتارة يأكل الطعام الغير المحترم، كل هذا حسب الظروف المعيشية التي يعيشها، كذلك ذهن الإنسان فإنه يجوع للعقيدة، الروح تجوع للعقيدة، الروح تشعر لا

---

(١) والإنسان في الدنيا هكذا، مهما أوتي من متع الحيات فإنه لا يكتفي، بل يريد الزيادة، ولهذا جاء الحديث: (يشيب بن آدم ويشب فيه خصلتان الحرص وطول الأمل) [بحار الأنوار ج ٧٠ ص ٢٢].

بد من سبب لهذا الوجود، لأن هناك أشياء تولد فطرية مع الإنسان، قانون العليَّة يولد فطرياً مع الإنسان، ولذلك الطفل عندما يُؤتى إليه بحاجة، تراه يسأل من أين جيء بها، وكيف وجدت، ومن أوجدها، وذلك لأنه يربط بين السبب والمسبب، فهناك قانون يعبر عنه بقانون العلية، فحتماً النفس تسأل، فكل فرد من أفراد البشر لديه جوع للعقيدة، ولهذا فالبعض لم تكن لديه وسائل يتوصل بها إلى المعرفة الصحيحة، فماذا يتصور؟ يتصور أن الله عزّ وجلّ في جسم من الأجسام، وخصوصاً إذا كان في أسرة تعبد الأصنام، أو تعبد نوعاً من أنواع الكواكب، أو تعبد أنواع طبيعية، فهو أيضاً يتأثر بذلك المحيط، فيعبد كما تعبد الأسرة، لأنه يعيش تحت ذلك الضغط، ولكنه إذا حصل على مرشد فإنه قد يتغير، ولكن من الصعب تغييره في فترات وجيزة، لأن العقائد ليس من السهل اجتثاثها واقتلاعها.

فإذاً هؤلاء الذين يعتقدون أن الأصنام شفعاء لهم، هم على قسمين كما مر، قسم لديه طفولة حضارية، وهذا ما نسميه في لغة الشرع، أو في لغة المدرسة الفقهية، الجاهل القاصر، وهو الذي لم تتيسر له سبل المعرفة، مثلاً كأن يعيش في إحدى الغابات الإفريقية، فلا يعرف دين، ولا إسلام، ولا نبوة، يقال: أن هذا يحشر يوم القيامة مع البله، على الأعراف، فالله لا يعاقبه، لأن العقاب مشروط بوصول المعرفة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1]. ذلك لأن هذا الإنسان لم تصله الدعوة. بينما هناك جاهل مقصر، مثال ذلك بأن يعيش إنسان بهذه البلدان المتحضرة، التي تحتوي على مكتبات دينية، ومؤسسات علمية، إضافة إلى وجود النبي الداخلي وهو العقل، كل هذا موجود لديه، وهو يأتي لينحت له قطعة من الحديد ويسجد لها، أو يصلي لها، أو أنه يسجد لأحد الكواكب الملتهبة، أو غير الملتهبة، وهي كلها مخلوقة، والمخلوق يحتاج إلى خالق، ولهذا عبادة غير الله إجرام للعقل الإنساني، وأيضاً تلويث للفطرة، من هنا يقول القران الكريم: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاؤُا﴾ أي أين شفعائك الذين تدعي

---

(١) سورة الإسراء مقطع من الآية: ١٥.

بأنهم شركاء فيك، لماذا لم يأتوا معك؟ من المفترض أن الشفيع يأتي مع مَن يريد أن يشفع له، فلماذا خلفته وتركته وراء ظهرك؟ ذلك الصنم، أو ذلك الإنسان الذي تعتقد أنه يضر وينفع من دون الله، هل أنت الذي تركته، أو أنه هو الذي تركك؟ ولهذا مسألة الشفاعة تعالج عند الفقهاء بمنتهى الحذر، ذلك لأن النصوص فيها صريحة، النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام هم في طليعة الشفعاء، فلقد وردت روايات معتبرة في ذلك، كما أن المؤمن يشفع غداً بين يدي الله تعالى، لأن الله عزّ وجلّ كرم بعض الناس فأعطاهم هذه الميزة، والقرآن يصرح في إثباتها، وكذلك الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام [1] ولكن ليس هناك مَن ينفع أو يضر من دون الله تعالى، فالشفاعة تأتي ضمن نطاق معين، هذا النطاق رسمه القرآن الكريم، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[2]. الغرض كأن الله عزّ وجلّ يقول: لعُباد الأصنام أو عُباد القيم الاجتماعية، أين من ادعيتم أنهم شفعاء فيكم، لماذا لم يأتوا معكم إلى القبر وإلى هنا، أي في ذلك اليوم الذي يعبر عنه القرآن الكريم بأنه يوم الفصل ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾[3]. لأن في ذلك اليوم يفصل بين المظلوم والظالم، وبدون أي تأخير.

يقال أن أحد الأشخاص وقف إلى بعض الحكام وقال له: أحذرك يوم النداء، فبكى ثم سأل نديماً من ندمائه، ماذا يقصد بيوم النداء؟ قال: يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين، يقصد ذلك اليوم الذي يقول عنه القران الكريم بالنسبة إلى الظالمين: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[4] والظلم على أنواع كثيرة، ولفظاعة الظلم، دعاء الإمام الحسين عليه السلام على بعض قاتليه بأن يحشر مع القوم الظالمين. وذلك عندما سقط على الأرض؛

---

(١) انظر كتاب مفاهيم القرآن الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج ٤.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.
(٣) سورة النبأ، الآية: ١٧.
(٤) سورة الكهف مقطع من الآية: ٢٩.

الحسين بقي ثلاث ساعات من النهار مغميّ عليه، بعد أن سقط على الأرض، يقول المؤرخون: وضع له وسادة من الرمل، لأن الرماح التي وقعة في جسده الشريف، لم تمكنه من الإضطجاع على الأرض، حيث أنها شكت ذلك الجسد الشريف، فحاول أن يضجع على يمينه فلم يتمكن، وعلى شماله فلم يتمكن، عند ذلك صنع له وسادة من الرمل، واضطجع بأبي ونفسي عليها، وضع ذلك الوجه الكريم على حرارة ذلك الرمل، وهو يئن أنيناً يقطع القلوب، ولكنه بين آونة وأخرى يسمع أصوات أطفاله وعياله، يسمع أصوات الصبية تتعالى في المخيم، فأخذ تارة ينظر إلى المخيم، وأخرى ينظر إلى ذلك الجيش، عند ذلك جاء إليه مالك بن اليسر وقف على رأسه، يقول الرواة بعد ما وقف شتم الحسين، وضربه ضربة أطبق بها حاجبيه على عينيه، قال له الحسين عليه السلام: (لا أكلت بيمينك بها ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين)[1] وتناهى إليه صوت انبثق من المخيم: ياابن أمي يا حسين، يا حبيبي يا حسين، إن كنت حياً فأدركنا، فهذه الخيل قد هجمت علينا، وإن كنت ميّتاً فأمرنا وأمرك إلى الله[2].

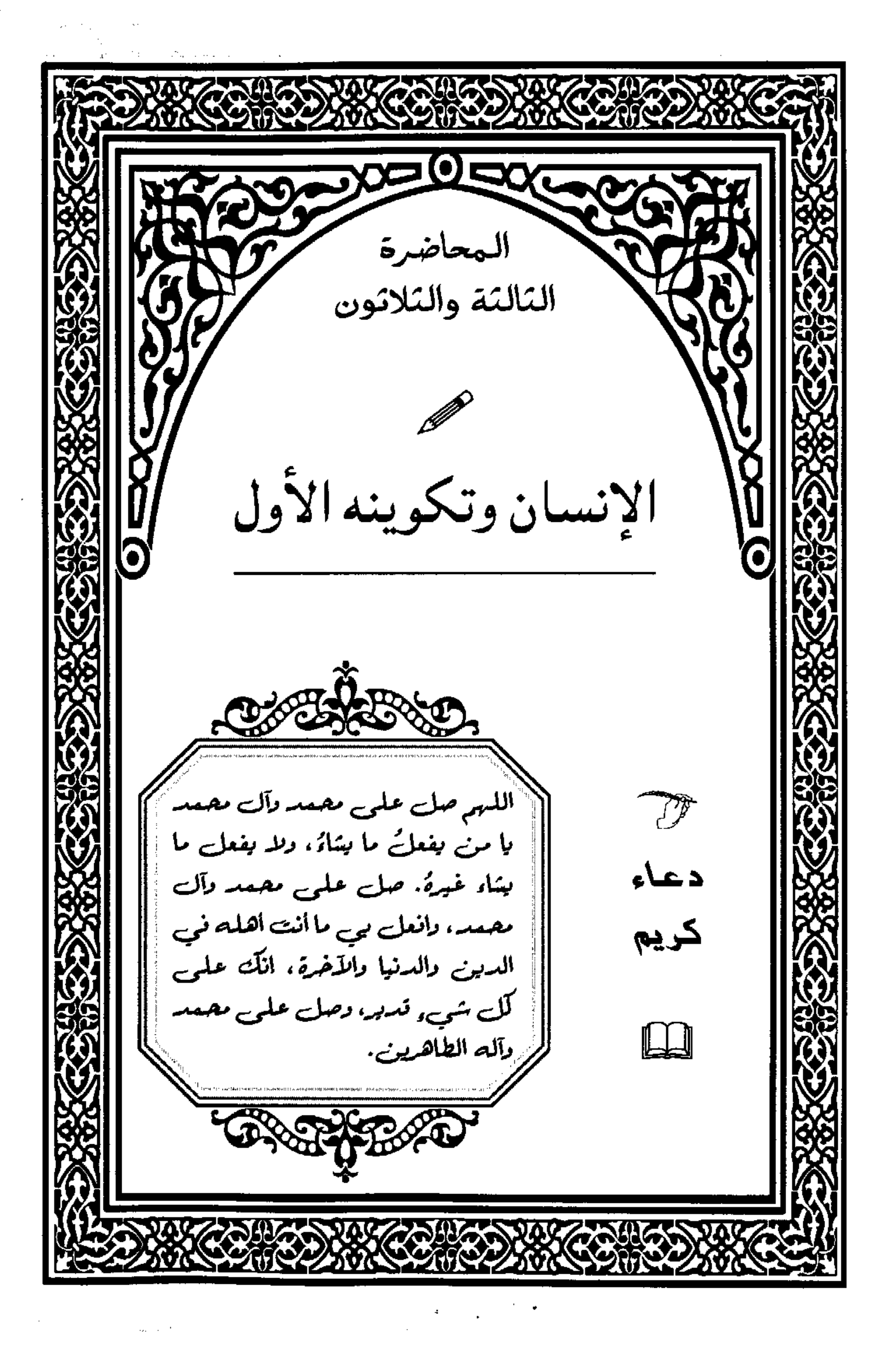
يأبىٰ العزيزُ بأنْ يكون مذَلّلا ... هيهات من ليث الثرى إذلالُهُ
فاختارَ موتَ العزِّ ما بين الظُبىٰ ... وسما إلى شرفٍ يعزُّ مناله
باع الدَنيّة بالمنيّةِ فاغتدتْ ... بين الورىٰ سننُ الإبا أفعاله[3]

※※※

فأبىٰ أن يموت إلّا شهيداً ... ميتةً فاقت الحياةَ مقاما
فكأنَّ الحِمامَ كان حياة ... وكأن الحياةَ كانت حِماما[4]

---

(١) مناقب آل أبي طالب بن شهرآشوب ج٣، ص ٢١٥، مدينة المعاجز السيد هاشم البحراني ج٣، ص ٤٨١، بحار الأنوار ج٤٥، ص ٥٣، وكتب أخرى كثيرة روت ذلك.
(٢) ومن الحوار اكتشفت الحقيقة - هشام آل قطيط ص ٥٨.
(٣) للسيد محسن الأمين العاملي رحمه الله/ الدر النضيد.
(٤) للمرحوم الشيخ صالح الكوّاز.



المحاضرة
الثالثة والثلاثون

الإنسان وتكوينه الأول

دعاء كريم

اللهم صل على محمد وآل محمد يا من يفعلُ ما يشاءُ، ولا يفعل ما يشاء غيرهُ. صل على محمد وآل محمد، وافعل بي ما أنت أهله في الدين والدنيا والآخرة، انك على كل شيء قدير، وصل على محمد وآله الطاهرين.

٣٣

الإنسان وتكوينه الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾(١).

※※※

الآية الكريمة تتعدد فيها آراء المفسرين(٢)، وأبرز تلك الآراء ثلاثة:

الرأي الأول: أن معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ هو أن الله تبارك وتعالى أنبت الإنسان من الأرض - نباتاً -، بمعنى أن منشأ الإنسان في النمو يبدأ أساساً من الأرض، فكما أن النبات أصله التراب، أنتم أيضاً ككائن حي أصلكم من التراب - وهذا الرأي يميل إليه كثيرٌ من المفسرين(٣) ومن هذا المنطلق كأنما القرآن الكريم، يخبرنا بأن

---

(١) سورة نوح، الآية: ١٧.

(٢) قال صاحب الميزان بعد ذكر الآية ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾أي أنبتكم إنبات النبات وذلك أن الإنسان تنتهي خلقته إلى عناصر أرضية تركبت تركيباً خاصاً به يغتذي وينمو ويولد المثل، وهذه حقيقة النبات، فالكلام مسوق سوق الحقيقة عن غير تشبيه واستعارة. [المصدر تفسير الميزان ج ٢٠، ص ٣٢].

(٣) انظر تفسير الأمثل ج ١٩، ص ٥٩، فإنه قال بعد ذكر الآية: جاء التعبير بالإنبات، في شأن الإنسان لأسباب، هي أولاً: خلق أول إنسان من التراب. ثانياً: أن المواد الغذائية التي يتناولها الإنسان وبها ينمو هي من الأرض، فهو إما يتناول الخضار والحبوب الغذائية والفواكه مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كلحوم الحيوانات. ثالثاً هناك تشابه كثير بين الإنسان والنبات، وهناك كثير من القوانين التي يسري حكمها على نمو وتغذية النباتات هي سارية أيضاً على الإنسان. . .إلخ.

أصلنا وأصل النبات واحد، لأننا من آدم، وآدم إنما سمي بآدم لأنه أخذ من أديم الأرض، والأديم هو الوجه[١]. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في صفة خلق آدم عليه السلام: (ثم جمع سبحانه من حَزن الأرض وسهلها، وعذبها وسبخها، تربةً سنها [سناها] بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلة حتى لزبت، فجبل منها صورةً ذات أحناءٍ ووصول، وأعضاءٍ وفصول؛ أجمدها حتى استمسكت، وأصلدها حتى صلصلت، لوقتٍ معدود، وأمدٍ [أجل] معلوم، ثم نفخ فيها من روحه فَمَثُلَت [فتمثلت] إنساناً ذا أذهانٍ يُجيلها، وفكرٍ يتصرف بها، وجوارح يختدمها، وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق والمشام، والألوان والأجناس؛ معجوناً بطينة الألوان المختلفة، والأشباه المؤتلفة [المتفقة]، والأضداد المتعادلة، والأخلاط المتباينة، من الحر والبرد والبلة والجمود)[٢]. . . . . إلى آخر الخطبة التي يبين فيها خلقة آدم عليه السلام كما أن الرواية التي يذكرها المؤرخون تؤيد هذا المعنى، وهي أن الله تبارك وتعالى لما أراد أن يخلق آدم عليه السلام هيّء له قابلية التكيف، فجعله في أي بقعة من بقاع الأرض يضعه مصيره فيها يناسبه البقاء، فإذا كان في البر يناسبه البقاء، وإذا كان في البحر كذلك، وإذا كان على الجبال أيضاً كذلك، كل هذه الأماكن يناسبه البقاء فيها، وذلك باعتبار أنه كائن حي.

كذلك جاءت الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن الله تبارك وتعالى بعث جبرائيل عليه السلام وأمره أن يأتيه من أديم الأرض بأربع طينات: طينة بيضاء. وطينة حمراء. وطينة غبراء. وطينة سوداء. وذلك من سهلها وجبلها. ثم أمره أن يأتيه بأربعة مياه: ماء عذب. وماء مالح. وماء مر. وماء نتن. ثم أمره أن يجعل الماء المالح في عينيه والماء العذب في الحلق ليسوغ له أكل الطعام والماء المالح في العين إبقاء على شحمة العين. ويحفظها من الذوبان. ويجعل الماء المر بالإذن، لئلا تهجم الهوام على الدماغ، ولذا ترى

---

(١) روى الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام أنه قال إنما سمي آدم عليه السلام لأنه من أديم الأرض.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة الأولى منه ص ١٨.

الهوام إذا دخلت الإذن ووصلت لما في الإذن من المرورة رجعت فوراً وطلبت الخروج فراراً من المرورة، ويجعل الماء النتن في الأنف. ثم أجرى في آدم النور . والنار. والريح. والماء. فالنور عقل وفهم. وبالنار أكل وشرب ولولا النار في المعدة لم تطحن المعدة الطعام ولولا الريح في جوف ابن آدم يطفئ حر المعدة لأحرقت النار جوف ابن آدم فجمع الله ذلك في آدم ولو علم إبليس ما جعل الله في آدم لما أفتخر عليه[1].

وهذا ما حدث بالفعل، حيث أنه اخذ من مختلف بقاع الأرض. يقول المؤرخون: ومكث بعد ذلك أربعين سنة مجرد هيكل، تسحقه الملائكة، إلى أن حلت فيه الحياة، ومن هذه المعنى نتساءل ما هي الحكمة من ذلك - أي من سحقه بالأرجل في هذه الفترة بالذات؟ بعض المحققين ومنهم الدكتور الشيخ أحمد الوائلي يقول: أولاً إن الذي نعتقده هو أن الإنسان كائن ضعيف، وثانياً هو كائنٌ مغرور، وغروره لا يقف عند حد أبداً، إلى درجة أنه ينكر الإلوهية، بل أنه يدعو الناس إلى عبادته وقد حكى القران الكريم هذا المعنى عن فرعون، قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾[2]. إذاً فالله عز وجل يريد أن يروض الإنسان عن غروره، بحيث يشعره أنه كان - مسبقاً - تحت الأرجل، وفي النهاية أيضاً كذلك، كل هذا لترويض غريزة الأنانية عند الإنسان، والتي في كثير من الأحيان قد يصبوا إليها البعض.

الرأي الثاني: أن معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أن الله عز وجل يريد أن يلفت عقول الناس إلى استثمار الأرض، وبالأخص في مجال الزراعة، فكما أن النبات يحتاج إلى أن يمتص غذاءه من التربة، كذلك الإنسان. فكأن الآية الكريمة - بعبارة أخرى - تأمر الإنسان أن يستغل الأرضَ بالنبات، وهذا المعنى يراد في الروايات التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام في الحث على امتهان الزراعة، روى سيابة أن رجلاً سأل الإمام

---

(١) ماذا في التاريخ ص ٢٩ الشيخ محمد حسن القبيسي العاملي رحمه الله .
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٩.

الصادق عليه السلام: أسمع قوماً يقولون إن الزراعة مكروهة، فقال: (ازرعوا واغرسوا، فلا والله ما عمل الناس عملاً أحل ولا أطيب منه، والله لنزرعن ولنغرسن[١] غرس النخل بعد خروج الدجال)[٢]. وسأل هارون بن يزيد الواسطي الباقر عليه السلام عن الفلاحين، فقال: (هم الزارعون كنوز الله في أرضه، وما في الأعمال شيء أحب إلى الله من الزراعة، وما بعث الله نبياً إلا زراعاً، إلا إدريس عليه السلام فإنه كان خياطاً)[٣] إذاً فالزراعة محثوث عليها في الإسلام، كما أن الإسلام له عناية خاصة بالزراعة، وقد كان ذلك في بدء الدعوة الإسلامية، وذلك في أرض الحجاز التي هي قليلة المياه، حيث كان النبي صلى الله عليه وآله يأمر أصحابه بأن يستنبطوا المياه من الآبار وقال: (من سقى طلحة أو شجرة فكأنما أحيى نفساً، ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعاً)[٤]. والطلح نوع من الشجر البري[٥]. وهذا أكبر دليل يبين لنا حرص الإسلام على العناية بالأرض والاهتمام بالزراعة وحث الناس عليها، ومن هنا نجد أن الإسلام ضرب أروع الأمثلة في استثمار الأرض، وذلك في تلك البقعة القاحلة، لأنه أراد أن يقهر الفقر في امنع حصونه، فأكد على الزراعة، ومن هنا أخذ الصحابة يتبارون في ذلك، فكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذا أصبح عليه الصباح خرج يتوكأ على مسحاته إلى ضيعة له يستصلحها، وهو على مكانته من القداسة، حيث أنه لم ير ذلك مخل لها، وهكذا بقية الأئمة؟. الإمام الباقر عليه السلام كان يخرج إلى ضيعته لإصلاحها وصيانتها في كثير من الأوقات، وحتى في وقت الظهيرة. وبهذه المناسبة يروى عن محمد ابن المكندر وهو من أقطاب الصوفية في عصر الأمام الباقر عليه السلام أنه قال: خرجت إلى ضواحي المدينة في يوم من أيام الصيف شديد الحرارة فرأيت

---

(١) وفي بعض الكتب ليزرعن. . .ليغرسن.
(٢) تذكرة الفقهاء - العلامة الحلاي ج ١٢، ص ١٨٩.
(٣) تذكرة الفقهاء ج ١٢، ص ١٨٩.
(٤) تفسير العياشي٢: ٨٢/ ٤٤، وسائل الشيعة١٧ : ٤٢.
(٥) ترتيب إصلاح المنطق: ٢٤٢ - الطلح.

محمد بن علي الباقر عليه السلام راجعاً من ضيعة له وقد أعياه التعب وهو يتصبب عرقاً ويتوكأ على كتف غلام له. فقلت في نفسي: يا سبحان الله شيخ من آل رسول الله خارج من بيته في هذا الوقت لطلب الدنيا وتحصيل المال لأمضين إليه ولأعظنه. ثم دنوت منه وسلمت عليه وقلت له: أصلحك الله يا أبا جعفر أيحسن من مثلك خارج من بيتك في طلب المال وحرصاً على الدنيا، فما تصنع وما تقول لو أدركك الموت في هذه الحال؟. قال فلما سمع أبو جعفر كلامي رفع يده عن كتف الغلام وأسند ظهره على جدار هناك وقال لي: يا أحمق لو أدركني الموت في هذه الحال لأدركني وأنا في طاعة الله، وفي عبادة من أفضل العبادات الله سبحانه، لأني خرجت لتحصيل المال فأصون به وجهي، وأوسع به على عيالي، وأقضي به حوائج إخواني، ويحك أوما بلغك قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ملعون من ألقى كله على الناس..[1].. فإذاً هذا الأمر الذي يقوم به الأئمة [عليهم أفضل الصلاة والسلام] يدل على مشروعية استثمار الأرض، فالله عز وجل أراد من الناس أن يستثمروا هذه الخيرات وهذه النعم التي أعطاهم إياها، وأخبرهم بأن هذه الأرض منها تخلقون ومنها تأكلون وبعد ذلك هي أمكم الحنون التي تضمكم بين أضلاعها. قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[2]. وأصبحت كرامة الإنسان من بعد موته أن يرجع إليها.

الرأي الثالث: أن معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ هي أن الآية الكريمة ترتبط ارتباطاً مباشراً بنظرية - النشوء والارتقاء - ومن ثم يقول العلماء: إن أول عصر مر على الأرض هو عصر الجماد، ثم عصر النبات، - كما وأن النبات ابتدأ بأول أشكاله البدائية ثم تطور إلى عشب ثم إلى أشجار مختلفة، - ثم جاء عصر الحيوان، - وتطور إلى أن وصل إلى أعقد الحيوانات، - ثم جاء عصر الإنسان. بعبارة أخرى أن الإنسان بدأ تراباً ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً، هذه هي ملخص النظرية التي يذكرها العلماء، ومن

---

(١) في رحاب محمد وأهل بيته ص ١٥٢.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٥.

جملة من ذكر ذلك هو المفكر القدير أحمد بن محمد بن مسكويه، هذا الرجل الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع، وقد كان عملاق من عمالقة الفكر، له كتاب تجارب الأمم، وله كتاب تهذيب الأخلاق، وله كتب أخرى، كما أنه كان رائداً من رواد علم الاجتماع، ورائداً من رواد علم النفس، قامت بترجمته دوائر المعارف، وإرشاد الأديب، وطبقات الأطباء، وكتب أخرى، فهذا الرجل يؤيد هذه النظرية ويجليها تجلية كاملة، ولدينا أيضاً من رواد الفكر الشيعي ملا محسن الفيض - المعروف بالفيض الكاشاني أو المحقق الكاشاني - وهو أيضاً قمة من قمم الفكر الإسلامي، له كتب كثيرة منها: علم اليقين - وحق اليقين - وصدق اليقين - ففي أحد هذه الأجزاء الثلاثة يشرح النظرية بالتفصيل، أن الإنسان ابتدأ هكذا، من تراب إلى نبات إلى حيوان إلى إنسان، وهذه النظرية كما يقول العلماء: لا تصطدم مع العقيدة بشيء اطلاقاً، وذلك إذا آمنا بأن الله تبارك وتعالى هو من وراء هذا التطور.

ولكن هذه النظرية إنما تصطدم بالدين، إذا قلنا بأن هذه أمور صارت عفوية، يعني خلية حيوانية تطورت لوحدها بشكل عشوائي، ثم انتقلت من شكل إلى شكل إلى أن صارت إنسان، بهذا الشكل تصطدم بالدين، أما إذا قلنا أن الله أراد لها هذا التطور فلا إشكال في ذلك، وذلك أنه تعالى كما أراد للخلية التي تكون في رحم المرأة بأن تتطور ذلك التطور المعروف، إلى أن تتحول إلى إنسان كامل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[1]. كما أنه - في الحقيقة - ليس لدينا رأي يفيد القطع بأن آدم عليه السلام قبل وصوله إلى هذه المرحلة هل هو الإنسان الأول، أم أن هناك إنسان آخر؟ الروايات متضاربة وكثيرة. فعلى أية حال على الإنسان أن يدعها في علم الله تبارك وتعالى، حيث أنها لم تكن مشكلة من المشاكل

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢، ١٤.

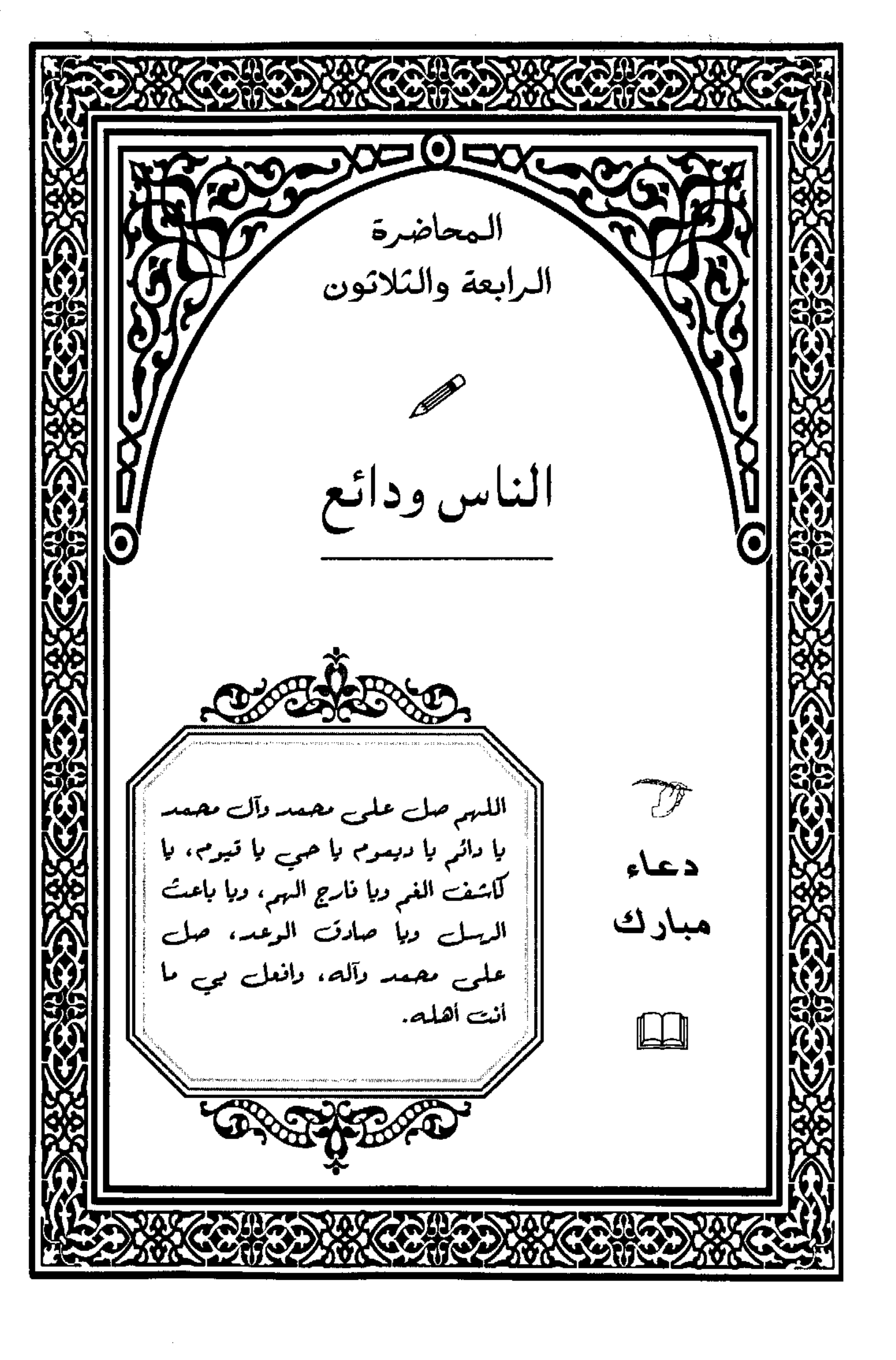
التي يجب أن نبحث عنها، إنما الذي يجب علينا أن نبحث عنه هو أن نتعرف على مصدر عقيدتنا، ومصدر فقهنا، ومصدر علاقاتنا الاجتماعية وغيرها.... وما هو الخط الذي يجب علينا أن ننتمي إليه؟ فعليه يجب أن نعرف ذلك بوضوح: وهو أن أول مصدر فقهنا وعقيدتنا القرآن الكريم، وذلك باعتبار أنه كتاب الله الذي أنزله على نبيه ﷺ، ثم النبي وأهل البيت [عليهم أفضل الصلاة والسلام]؛ لأنهم عدل القرآن الكريم، كما روي في الحديث المتواتر عن النبي ﷺ: **(إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تظلوا أبداً)**(١) - وهذا الأمر هو المهم لأننا نُسأل عن ذلك يوم القيامة، - فقد أكد النبي ﷺ على الرجوع إليهم، وذلك في مناسبات كثيرة، منها في غدير خم عندما رفع بضبع علي وقال: **(من كنت مولا فهذا علي مولاه)** إلا أن الأمة لم ترع لهما حقاً، فأما الكتاب فقد نبذوه وراء ظهورهم، وأما العترة فقد أبادوهم عن جديد الأرض سماً وقتلاً وتشريداً، وقد صدق الشاعر إذ يقول:

ما مات منهم سيد بفراشه   بل مات مقتولاً بسم نكال
إما بسيف أو بسم قاطع   والهفتاه لهم وعظم وبال(٢)



---

(١) مستدرك الوسائل ج ١، ١ ص ٣٧٤.
(٢) موسوعة المصطفى والعترة ﷺ المرحوم الحاج حسين الشاكري ج ١١، ص ٤٧٦/ وفيات الأئمة ص٢٧٤.



المحاضرة
الرابعة والثلاثون

الناس ودائع

دعاء مبارك

اللهم صل على محمد وآل محمد يا دائم يا ديموم يا حي يا قيوم، يا كاشف الغم ويا فارج الهم، ويا باعث الرسل ويا صادق الوعد، صل على محمد وآله، وافعل بي ما أنت أهله.

٣٤

الناس ودائع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾(١).

❋❋❋

إن الآية الكريمة تؤكد لنا أن الإنسان سيرجع إلى باطن الأرض بعد أن أخرج منها، وذلك لأنها جاءت تكمل الهدف الذي أشارت إليه الآية التي سبقتها، - كم مر في المجلس المتقدم - وهي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ فكأن الإنسان مكوثه فوق هذه الأرض بمثابة الوديعة، والوديعة لا بد وأن ترجع إلى صاحبها ومن ثم يقول أحد الأدباء:

وما المال والأهلون إلا ودائعٌ ولابد يوماً أن ترد الودائعُ(٢)

فحتماً الإنسان الذي أخرج من التراب لابد وأن يعود إلى التراب، ثم يخرج من التراب مرة أخرى، ولهذا نجد تعبيرات القرآن الكريم تشعرنا أحياناً بأن الدنيا ظلٌ زائل، والظل من عادته إذا مر على مكان ينحسر عن مكان آخر، كذلك وجود الإنسان في هذه الدنيا، هو بمثابة الظل الزائل، بينما هو موجودٌ على ظهر هذه الأرض إذ هو في بطنها. وهذه هي الحقيقة التي يجب أن يتنبه إليها كل فرد منا، لأنه صائر إليها شاء أم أبى. وهذه الحقيقة أكدها النبي ﷺ بقوله: (كفى بالموت واعظاً)(٣). فإذا تأمل الإنسان إلى من كان

---

(١) سورة نوح، الآية: ١٨.
(٢) مجمع البيان ٤: ١٢٠، لسان العرب ٤: ٦٠٢ - عمر.
(٣) جامع السعادات ج ٣، ص ٣١.

معه في دار الدنيا، - وخصوصاً من كان - يأنس إلى حديثه وصحبته، وفجأة إذ هو لم يجده، حيث قد أدركه الموت، فلا بد من أن فقده يُحزن مَن حوله، ويتأكد هذا المعنى مع مَن كان ذا علم وورع وتقوى، لأنه يحدث فراغاً في المجتمع، وهذا هو المعنى الذي أشار إليه أحد الشعراء بقوله:

ومن نوب الدنيا بقاؤك بعد من	إذا ذهب أبقوك دون مشابه
فوجه إذا ما غاب تبكيه ساعة	ووجه تمل العمر بعد غيابه
وتفقد فيه بالثرى أن دفنته	وجودك إن المرء بعض صحابه

فالآية الكريمة تقول: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي لابد وأن تُرجعون إليها، وهذه هي أكبر موعظة، ذلك إذا أخذها الإنسان بعين الاعتبار، وهو الأمر المفترض، ولهذا أمرنا دائماً أن نذكر الموت، حيث أن الرسول الأكرم ﷺ أمرنا بذلك، قال ﷺ: (أكثروا ذكر هادم اللذات) قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: (الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلا اتسعت عليه)[1]. وكذلك حثنا النبي الأكرم ﷺ بأن نقف على القبور وذلك لأمرين.

الأمر الأول: لأخذ العظة والعبرة، قال ﷺ: (زوروا القبور فإنها ترقق القلوب)[2]. وقال ﷺ: (إني كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة)[3].

الأمر الثاني: لأن المؤمن له حق على أخيه المؤمن أياً كان ذلك، من القريبين أو من البعيدين، يقول أنس قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إنا

---

(١) جامع السعادات ج ٣، ص ٣١.

(٢) سنن ابن ماجة١: ٥٠٠/ ١٥٦٩، المعجم الصغير٢: ٤٣ وغيرهما، وفيهما: فإنها تذكركم الآخرة، وفي تلخيص الجيد٥: ٢٤٧ ما نصه: كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ثم بدا لي أنها تُرق القلب وتُدمع العين وتذكر الآخرة؛ فزوروها، قال المناوي في فيض القدير شرح الجامع (الصغير ٤: ٨٨ - بعد أن نقل قوله ﷺ) زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة) - ما نصه: فزيارتها مندوبة للرجال بهذا القصد، والنهي منسوخ.

(٣) الفجر الصادق - جميل صدقي الزهاوي - ص ٦٦.

نتصدق عن موتانا ونحج عنهم وندعو لهم، فهل يصل ذلك إليهم؟ فقال: (نعم ليصل ذلك إليهم ويفرحون به كما يفرح أحدكم بالطبق إذا أهدي إليه)[١]. بمعنى أن الميت يشعر بأنه لم يُنسى، لأن روحه لم تمت، وإنما الذي مات جسده، فكما أن الأحياء يحبون أن يتمتعون بالذائذ في دار الدنيا، كذلك الأموات، ولكن لذائذهم تختلف عن لذائد أهل الدنيا، وهي إما سورة من القران الكريم تقرأ ويهدى ثوابها إليهم، أو صلاة تُصلى ويهدى ثوابها إليهم، أو أن تكون صدقة يهدى ثواب تلك الصدقة إليهم، أو غير ذلك من أنواع البر.

فبطبيعة الحال إن الميت يفرح إذا وقف أحد الأحياء على قبره، لهذا يكره الجلوس والاتكاء والمشي على القبر[٢]، وهو قول أكثر العلماء لأن النبي ﷺ نهى عن الجلوس على القبر وقال: (لئن أطأ على جمرة أو سيف أحب إلي من أطأ على قبر مسلم)[٣]. لأن الإنسان عندما يضع رجله على القبر، فكأنما يضعها على سواعد وعلى وجوه. ومن ثم يقول أبو العلى:

خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
رب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين من عهود الآباء والأجداد
صاح هذي قبورنا تملأ الأرض فأين القبور من عهد عاد[٤]

فالأضداد هي التي تختلف عن بعضها البعض، مثال ذلك رجل وامرأة، غني وفقير، قويٌّ وضعيف، فكلها تصبح على حد سوء، فلو نظر الإنسان إلى القبور، لما وجد فيها أي اختلاف أبداً.

---

(١) الغدير الشيخ الأميني ج ٥، ص ١٧٧.
(٢) نهاية الإحكام – العلامة الحلي – ج ٢، ص ٢٨٤.
(٣) مستند الشيعة المحقق النراقي ج ٣، ص ٢٨٣، جواهر الكلام الشيخ الجواهري ج ٤، ص٣٥١، تذكرة الفقهاء العلامة الحلي ج ٢، ص ١٠٧، كشف اللثام الفاضل الهندي ج١، ص١٣٩.
(٤) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج١١، ص ١٤٨.

وذلك لأن الشخص الذي له ميزات في دار الدنيا إذا جيء به إلى المقبرة لا يختلف عن ذلك الشخص الذي ليست له ميزات، وهذا المعنى الذي تنبه إليه أحد الأعراب فأمر أن يكتب على قبره هذه الأبيات:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحمام بكم علينا قادم
لا تستعزوا بالحياة فإنكم ... تبنون والموت المفرق هادم
ساوى الردى وما بيننا في حفرة ... حيث المخدم واحد والخادم

فإذا علم الإنسان أنه في هذه الدنيا أمانة، وجب عليه عندما ترد هذه الأمانة لا يكون لأحد فيها متعلق، لأن كل فرد منا لابد وأن يترك بصمات له في هذه الدنيا، وإذا كان الأمر كذلك، عليه أن يصحح تلك البصمات قبل خروجه منها، لكي لا تُرد تبعاتها عليه في الآخرة، لأن الإنسان علائقه في الحياة قد لا تنته، وذلك إما بموقف يَقفه، أو بكلمة يتفوه بها، أو بغير ذلك من الأمور. فلهذا يحاول الإنسان أن يفرغ ذمته من تبعات الآخرين، قبل خروجه من هذه الدنيا، وليعلم أنه لا يدري متى يؤذن له في الخروج، فعليه أن يكون دائماً وأبداً محتاطاً لذلك. ومن هذا المنطلق يجب أن نعرف أن الإنسان ليس له تمييز من بعد الموت إلا بالتقوى، وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

أما تتمة الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[2] فهذا المقطع من الآية يتعلق بمسألة البعث والنشور، وهو الأمر الذي لا يستطيع أحد أن يجهله أو يتجاهله، وذلك عندما يلاحظ الإنسان إلى بدء وجوده في هذه الدنيا، وهو

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) قال صاحب الميزان بعد ذكر الآية ثم يعيديكم فيها ويخرجكم إخراجاً، الإعادة فيها بالإماتة والإقبار، والإخراج للجزاء يوم القيامة فالآية والتي قبلها قريبتا المعنى من قوله تعالى فيها: ﴿تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] وفي قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ دون أن يقول: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ﴾ إما إلى أن الإعادة والإخراج كالصنع الواحد والإعادة مقدمة للإخراج، والإنسان في حالتي الإعادة والإخراج في دار الحق كما أنه في دار الدنيا في دار الغرور. [المصدر الميزان ج ٢٠، ص ٣٢].

من أي مصدر وجد؟ قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١﴾[1]. فالمسألة التي يستبعد البعض أنها تحدث هي من أبده البديهيات أنها ستحدث، روى الطبرسي في الاحتجاج عن هشام بن الحكم أنه قال الزنديق للصادق عليه السلام: أنى للروح بالبعث والبدن قد بلي والأعضاء قد تفرقت، فعضو في بلدة تأكله سباعها، وعضو بأخرى تمزقه هوامها، وعضو قد صار تراباً بني به مع الطين حائط. قال عليه السلام: (الذي أنشأه من غير شيء وصوره على غير مثال كان سبق إليه، قادر أن يعيده كما بدأه). قال: أوضح لي ذالك. قال: إن الروح مقيمة في مكانها، روح المحسن في ضياء وفسحة، وروح المسيء في ضيق وظلمة، والبدن يصير تراباً كما منه خلق، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها مما أكلته ومزقته، كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وإن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البحث مطرت الأرض فتربو أي تنمو الأرض ثم تمخض مخض السقاء فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مخض، فيجتمع تراب كل قالب فينقل بإذن الله تعالى إلى حيث الروح، فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها وتلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً[2]. ومن هنا تروى حادثة لنبي الله إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه خرج ذات يوم من الأيام إلى ساحل البحر، فرأى جيفة ملقاة على الأرض، فكان إذا جاء المد أدخلها إلى البحر، وإذا جاء الجزر ببقية على ساحل البحر، فعندما تكون في داخل البحر تأكل منها الحيوانات البحرية وعندما تبقى على ساحل البحر تأتي الحيوانات البرية فتأكل منها، فوقف نبي الله إبراهيم عليه السلام ينظر متأملاً في ذلك، حيث أنه رأى قسماً منها صار في بطون الحيوانات البحرية، والقسم الثاني منها صار في بطون الحيوانات

---

(١) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٠ - ٢١.

(٢) حق اليقين في معرفة أصول الدين العلامة المحقق الجليل السيد عبد الله شبر ص ٣٥٨. الاحتجاج الشيخ الطبرسي ج ٢، ص ٩٨.

البرية، والقسم الثالث قد ظل على التراب، فأخذ نبي الله إبراهيم متفكراً في ذلك، - أي أنه كيف تجمع هذه يوم القيامة -. ومن هذا المنطلق نشأة شبهة الأكل والمأكول عند الفلاسفة، وهي هل أن العذاب يقع على الروح أم على الجسد، فكانت لهم عدة آراء، إلا أن الذي ينسجم مع الروايات هو أن العذاب يقع على الروح وليس على الجسد، وإن كان الجسد يحشر بعينه، إلا أن الروح هي التي تسير الجسد حيث ما تريد، فوقف إبراهيم - كما مر سابقاً - يتفكر؛ فأوحى الله إليه أن خذ أربعة من الطير، فأخذ غراب، وطاووس، وحمام، وصقر، وقيل حيوان آخر على اختلاف الروايات، المهم أربعة من الطيور فقطعها قطعاً ووزعها على عشرة جبال، ثم ناداها فتداعت الأجزاء بعضها مع البعض الآخر، وعادت إليها أرواحها وطارت كلها، فكانت العملية بهذه الصورة[1]. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]. فإذاً الأعضاء كلها تُجمع مهما كانت أنواعها، من حيوان أو إنسان، وسواءً كان ذلك الإنسان صالحاً أم طالحاً، ولكن ليست الأعضاء هي التي تمثل الأهمية، إنما الذي يمثل الأهمية هو الموقف والعزيمة، وتحسس المسؤولية، ولهذا عندما نحلق بأفكارنا في أجواء الطف نرى هذه الصورة متجلية في أصحاب الإمام الحسين عليه السلام حيث أن أعضاءهم وزعت، ومع العلم أن أعضاءهم كلها كانت تمثل أوسمة الشرف، إلا أنهم أصبحوا

---

(١) قريب من هذا التعبير رواية يرويها أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في [حق اليقين] ص ٣٥٨. وهي عن معروف بن خربوذ قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن خذ أربعة من الطيور، عمد إبراهيم فأخذ النعامة والطاووس والوز والديك فنتف ريشهن بعد الذبح ثم جعلهن في مهراسة فهرسهن ثم فرقهن على جبال الأردن، وكانت يومئذ عشرة أجبال فوضع على كل جبل منهن جزءاً ثم دعاهن بأسمائهن فأقبلهن إليه سعياً، يعني مسرعات، فقال: إبراهيم عند ذلك أعلم إن الله على كل شيء قدير. (تفسير العياشي ج١، ص ١٤٣.).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

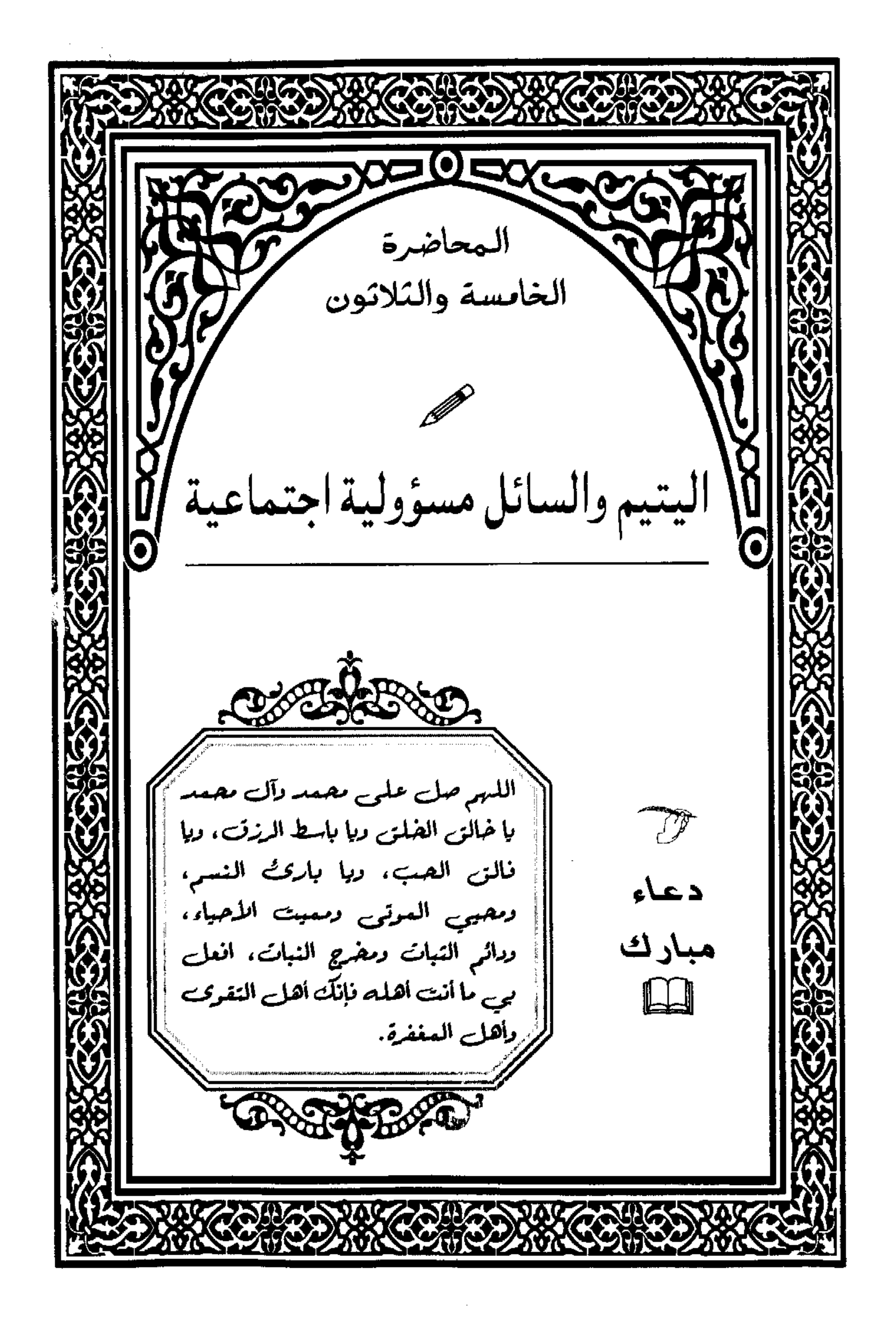
أنشودة الدهر بأرواحهم ومواقفهم وعزائمهم، لأنهم صمموا على الشهادة في سبيل الله، فلقد أذن لهم الإمام الحسين عليه السلام بأن ينصرفوا إلى أوطانهم، إلا أنهم أبوا ذلك، وقالوا له: يابن رسول الله بما نعتذر عند الله وجدك رسول الله يوم القيامة، بل نقاتل حتى نقتل بين يديك، فجزاهم الحسين خيراً. ولهذا يقال أن الحوراء زينب ليلة العاشر من المحرم اجتمعت بأخيها الحسين عليه السلام وقالت له: أبا عبد الله هل استعلمت من أصحابك نياتهم؟ فإني أخشى أن يسلموك عند الوثبة، فقال لها: (**والله لقد بلوتهم فما وجدت فيهم إلا الأشوس الأقعس، يستأنسون بالمنية دوني استئناس الطفل إلى محالب أمه**)[1]. قال نافع: فلما سمعت هذا منه بكيت وأتيت حبيب بن مضاهر وحكيت له ما سمعت من الإمام الحسين ومن أخته الحوراء زينب، وإذا بحبيب... الخ.

كأس المنية دار برض الغاضرية	تحت اللوى يحسين ما احلى المنية
ما يستوي انخلي أبو سكنة ونسلمه	ولله لخضب شيبتي في الغاضرية
اللحية ابيضت جاوز السبعين عمري	يا رب تجعل حفرتي في الغاضرية[2]



(١) ليلة عاشوراء في الحديث والأدب - عبد الله الحسن ص ٤٧.

(٢) من قصيدة الملا المرحوم مهدي الشهابي «النصرة المهدية للعترة المحمدية».



المحاضرة
الخامسة والثلاثون

اليتيم والسائل مسؤولية اجتماعية

دعاء مبارك

اللهم صل على محمد وآل محمد يا خالق الخلق ويا باسط الرزق، ويا فالق الحب، ويا بارئ النسم، ومحيي الموتى ومميت الأحياء، ودائم الثبات ومخرج النبات، افعل بي ما أنت أهله فإنك أهل التقوى وأهل المغفرة.





٣٥

اليتيم والسائل مسؤولية اجتماعية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾(١).

❋❋❋

إن هذه الآيات الكريمات تحدثت عن جوانب مهمة في الحياة الاجتماعية، وأول ما يلفت النظر فيها، هو أن الله تبارك وتعالى قدم حقاً من حقوق - بعض - الناس على حقه في الذكر. فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فكان حق اليتيم وحق السائل مقدم على حقه تعالى، فلماذا؟ في الحقيقة أن هناك أسباب:

السبب الأول: أن اليتيم والسائل - هما - من البشر، والله تبارك تعالى هو الغني على الإطلاق، فكأنه تعالى من خلال هذا المعنى يريد أن يرشد عباده إلى أمر مهم، وهو أن اليتيم والسائل في باب العطاء يقدمان على الغني، ذلك لأن اليتيم والسائل هما في موضع الحاجة، فلا بد من أن يقدمها، لهذا فإنه تعالى عندما قدم حق من يحتاج الرعاية، فإنه عين العدل الذي أمر به.

السبب الثاني: أنه بالنسبة إلى اليتيم أمر بأن لا يقهر، بمعنى يقدم له الفعل الذي من خلاله أن تطمئن إليه نفسه، والفعل الذي يجعله أن يطمئن، هو أن يعامل باللطف والشفقة.

---

(١) سورة الضحى، الآيات: ٩، ١١.

وأما بالنسبة إلى السائل فيقدم له العطاء والإحسان وما يحتاجه، بمقدار ما يستطيع ذلك المسؤول، سواءً كان ذلك مادياً أو معنوياً على اختلاف عند المفسرين، وسيأتي توضيح ذلك.

ولكن بالنسبة إلى الله عزوجل فيُحدّث بنعمته فقط؛ ذلك لأن الآية الكريمة قالت: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. كما أنه من خلال هذا المعنى يتضح أن اليتيم والسائل يقدم لهما الفعل. وأما بالنسبة إلى لله تعالى لم يكن فعل، وإنما هو التحدث بنعمته فقط، وذلك لأن الله تعالى غني عن الفعل، وغني عن العطاء، فالذي يحتاج إلى العطاء وإلى إسداء الخير هم العباد، فلهذا أمر الموسر من عباده بأن يدفع للمعسر منهم، كل ذلك لكي يجعل المجتمع في ترابط مستمر.

السبب الثالث: أن كل عمل يمكن أن يعمله الإنسان هو من الله عزوجل، فعندما يتصور الواحد منا أنه يريد أن يقدم لغيره إحساناً، فما هو هذا الإحسان الذي يمكن للإنسان أن يقدمه لغيره؟ وما هو الشيء الذي يملكه الإنسان حتى يقدمه للغير؟ فمثلاً لو أراد شخصٌ أن يطعم يتيماً من يتامى المسلمين، أو أن يكسوه لباساً، أو أن يعطيه شيئاً آخر من متع الحياة، فماذا يملك الفرد حتى يعطي؟ فالأموال، والطعام، واللباس، وكل شيء هو من عند الله تعالى، الله خالق كل شيء، ولهذا إذا لم يعط الفرد القدرة على الحركة وعلى التكسب، فالإنسان لوحده لا يستطيع أن يجلب لنفسه ذلك، فلهذا كل شيء منه وعائد إليه، قل أو كثر، بدايةً ونهاية، كذلك عندما يريد العالمُ منا أن يعلم الجاهل، فهذا العلم الذي يريد أن يقدمه العالمُ للجاهل من أين له ذلك، لولا أن الله عزوجل وفقه إليه، بمعنى أن الله تعالى بمقدوره أن يجعل هذا العقل، وهو عقل ذلك الإنسان العالم كبقية الحيوانات الأخرى، التي ليست لها القدرة على التقاط أي معلومة من المعلومات، ولكن الله عزوجل ميّز عقل الإنسان وجعله يستطيع ذلك تكريماً منه تعالى فقال: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(١). ومن خلال هذه المقدمة سنلج في مضامين

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

الآيات التي صدرنا بهم البحث.

قالت الآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (تقهر) من القهر - كما يقول الراغب - الغلبة مع التذليل، ولكن تستعمل في كل واحد من المعنيين، ومعنى التذليل هنا هو المناسب[1].

وهذا يدل على أن هناك مسألة أهم من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطف عليهم، وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفي، ولذا جاء في الحديث المعروف عن رسول الله أنه قال: (من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر على يده نور يوم القيامة)[2]. وكأن الله تعالى يخاطب نبيه: لقد كنت يتيماً أيضاً، وعانيت من آلام اليتم، والآن عليك أن تهتم بالأيتام، وأن تروي روحهم الظمأى بحبك وعطفك. ذلك لأن الإنسان في الحياة كما أن له معدة تريد الطعام والشراب، وكذلك له جسد يريد اللباس، أيضاً له روح تريد الاطمئنان والعطف، والمودة، والشفقة، فالطفل في أمسّ الحاجة إلى الشفقة، فلهذا لا بد من تحقيق التوازن النفسي عند الطفل، والتوازن النفسي لا يحصل إلا في ظل الشفقة، ولذلك نجد أن البيت الذي لا توجد فيه الشفقة والحنان، يخرج منه الولد وهو محطم الشخصية، فلا بد من وجود تبادل للمودة بين الأبوين. فتعبير الحديث النبوي الشريف (من مسح على رأس. . .) الخ هو في غاية الدقة، والآية الأولى في البحث ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أيضاً كذلك.

كما أن لدينا نظرية يبحثها علماء الاجتماع، تسمى - بنظرية الاستبطان الذاتي - وملخص هذه النظرية، مثلاً أنني تارةً أبين للفرد بأن الجوع آفة من الآفات التي تنخر المجتمع، وأُبين له مضاره، بحيث أذكر له ما فيه من مضار على النفس وعلى الجسد، منها أن أبين له أن الجوع يعرض الإنسان للانحراف، ويعرضه لبيع الكرامة، ويعرضه للمرض و. . . و. . . والخ. فأبين له آثاره السلبية بالقول فقط. ومرةً أخرى أمنع عنه الطعام والشراب

---

(١) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في كتابه الأمثل ص ٢٥٨ ج ٢٠.
(٢) مجمع البيان ج، ١٠، ص ٥٠٦.

مباشرةً، وأجعله يتلمس الجوع عملياً لا نظرياً فقط، ففي الحالة الأولى قد لا يكون تفهمه لمضار الفقر بمقدار ما يكون تفهمه إليه في الحالة الثانية، فإنه في الحالة الثانية لا شك يكون فهمه إلى مضار الجوع أكثر. وهذا المعنى هو الذي يعبر عنه بالاستبطان الذاتي، بأن الفرد يعيش الحالة تماماً بنفسه، فإذا عاشها بنفسه يكون لها أبلغ الأثر، وذلك في جميع سلوكياته، ولأجل ذلك أوجد الله النبي في هذه الدنيا يتيماً، وذلك أن أباه قد توفاه الله وهو جنينٌ في بطن أمه، وبعد ذلك توفيت أمه وله من العمر ستة أعوام فقط، وهيّء الله له حجر جده عبد المطلب، الذي بعد ذلك آواه، ثم من عنده انتقل إلى حجر عمه أبي طالب، فهيء له فراشاً وثيراً من الراحة. فكان في الفترات التي يمكن أن يكون فيها بين أبويين يرعيانه ويغدقان عليه الحنان أصبح بين هذين الحجرين الكريمين. فلهذا الآية الكريمة تخاطبه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾(١) فالنبي ﷺ عاش تلك الحالة وهي حالة اليتم، وذاق مرارة اليتم، ولوعة اليتم. معنى ذلك أنه لم تكن السماء فقط أمرته بذلك، وإنما عاش الحالة عملياً، وتحمل آلامها، والآية الكريمة كلما في الأمر أنها ذكّرته بذلك. فقالت: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

فما هو المقصود بالقهر هنا؟ البعض من المفسرين قال: أن المقصود بالقهر، يعني التقصير في الرعاية لحقوقه، لأن اليتيم إذا كان له مَن يرع حقوقه المادية، عليه أيضاً أن يرعى حقوقه المعنوية، وهو أن يوفر له العطف، ويوفر له الحنان.

البعض الآخر من المفسرين يقول: إن معنى ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ المراد بالقهر هو عدم تلبية رغبات اليتيم المشروعة، وهذا المعنى سيأتي خلال البحث إن شاء الله تعالى، ولكن بعد أن نبين منزلة اليتيم في الأحاديث القدسية، وفي الروايات الواردة عن النبي ﷺ وأهل البيت(٢).

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٦.

(٢) عن النبي ﷺ قال: (إن في الجنة داراً يقال لها الفرح لا يدخلها إلا من فرح يتامى المؤمنين). [كنز العمال خ ٦٠٠٨]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (ما من مؤمن ولا مؤمنة يضع يده على رأس يتيم إلا كتب الله له بكل شعرة مرت يده عليها حسنة) [البحار ج٧٥، ص٤].

عن النبي ﷺ قال: (إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن فيقول الله لملائكته يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غيب أبوه في التراب؟ فتقول الملائكة: أنت أعلم. فيقول الله تعالى: ياملائكتي، فإني أشهدكم أن لمن أسكنه وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة)(١) فتعبير الحديث الشريف أن لمن أسكنه وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة، بمعنى هي له السكن والاطمئنان النفسي، لأن الفرد إذا لم تُوفر له حاجاته الأساسية، يتحول - كما سبق هذا المعنى - إلى كيان ناقص، وبالتالي يمكن أن يتحول إلى مجرم مئة بالمائة؛ روي عنه ﷺ قال: (إذا بكى اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمن)(٢). وروي عنه ﷺ أنه قال: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة إذا اتقى الله عزوجل وأشار بالسبابة والوسطى)(٣) ولأهمية هذه المسألة قرنها أمير المؤمنين في وصيته المعروفة - بالصلاة والقرآن - حيث أنه قال في ضمن وصيته: (الله الله في الأيتام فلا تغبوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم)(٤). وعن أحد الصحابة قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فأتاه غلام فقال: غلام يتيم وأخت لي يتيمة، وأم أرملة، أطعمنا مما أطعمك الله، أعطاك الله مما عنده حتى ترضى. قال: (ما أحسن ما قلت ياغلام، اذهب يابلال فأتنا بما كان عندنا. فجاء بواحدة وعشرين تمرة، فقال: سبع لك وسبع لأختك وسبع لأمك). فقام إليه معاذ بن جبل فمسح رأسه وقال: جبر الله يُتمك وجعلك خلفاً من أبيك؛ وكان من أبناء المهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: (رأيتك يامعاذ وما صنعت). قال: رحمته. قال ﷺ: (لا يلي أحد منكم يتيماً فيحسن ولايته، ووضع يده على رأسه إلا كتب الله له بكل شعرة حسنة ومحا عنه بكل شعرة سيئة، ورفع له بكل شعرة درجة)(٥). إذاً فإن موضوع

---

(١) مجمع البيان، ج ١٠، ص٥٠٦.
(٢) تفسير الفخر الرازي ج٣١، ص٢١٩.
(٣) نور الثقلين ج٥، ص ٥٩٧ حديث ٢٣.
(٤) نهج البلاغة قسم الرسائل).
(٥) مجمع البيان، ج١٠، ص٥٠٦.

اليُتم له اهتمام في القرآن الكريم وفي السنة الشريفة، ومن ثم عبر القرآن الكريم عن مَن يأكلون أموال اليتامى بأنهم يأكلون في بطونهم ناراً. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾(١). كما وأنه أمر بأن ترد إليهم أموالهم، وأن لا تجعل مع أموال الغير. قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾(٢). يقول المؤرخون: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أخي هلك، وترك أيتاماً ولهم ماشية فما يحل لي منها؟ فقال رسول الله ﷺ: إن كنت تليط حوضها، وترد ناديتها، وتقوم على رعايتها، فاشرب من ألبانها غير مجتهد للحلب ولا ضار بالولد، والله يعلم المفسد من المصلح،(٣) وعن أبي عبد الله في قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فقال: ذاك رجل يحبس نفسه على أموال اليتامى فيقوم لهم عليها فقد شغل نفسه عن طلب المعيشة فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح أموالهم وإن كان المال قليل فلا يأكل منه شيئا(٤) وعن سماعة عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن قوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال: (بلى من كان يلي شيئاً لليتامى وهو محتاج وليس له شيء وهو يتقاضى أموالهم ويقوم في ضيعتهم فليأكل بقدر الحاجة ولا يسرف وإن كان ضيعتهم لا تشغله عما يعالج لنفسه فلا يرزأن من أموالهم شيئاً)(٥). إذاً رعاية أموال اليتيم مسألة يُعنى بها الإسلام، هذا إذا كان لليتيم أموال، أما إذا لم تكن لليتيم أموال فرعايته إما أن تكون من بيت المال وإما أن يتبرع بها أحد المسلمين، وهذا المعنى فيه رضا الله تعالى كما مر في الأحاديث الآنفة الذكر. فالغرض أن حالة اليتم حالة مؤثرة تأخذ أثرها من الإنسان شاء أم

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠

(٢) سورة النساء، الآية ٦.

(٣) مستدرك الوسائل - الميرزا النوري ج ١٣، ص ١٩٦.

(٤) مستدرك الوسائل - الميرزا النوري ج ١٣، ص١٩٥.

(٥) المصدر السابق.

أبىٰ، ولهذا وردت سورة في القرآن الكريم في ذم من آذى يتيماً، حتى أن المفسرين ومنهم - القرطبي - قالوا: أن أبا سفيان كان ينحر في كل أسبوع جزور ويوزعه، - والواقع أن هؤلاء ما كانت عندهم نيات خالصة، وإنما كانوا يتفاخرون بذلك، بأن يقال أن فلان كريم وعنده الجفنات، حتى قال شاعرهم:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما[1]

فكانوا يُحبون أن يقال: فلان سخي، يتبرع بالحم ويطعم الناس-. فلهذا أبا سفيان كان ينحر في كل أسبوع جزوراً ويوزعه، فأقبل إليه يتيماً وأراد منه قطعة من اللحم، فدفعه بالسيف بعد أن ركزه، فنزلت السورة المباركة: وهي سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾... الخ[2]. فلأنه دفع يتيماً عن تناول الطعام وهو بحاجة إلى الرعاية.

والحال أن رعاية اليتيم، بمقدار ما هي عامل إنساني هي أيضاً عاملٌ أخلاقي، لأن اليتيم إذا عُرض للضياع تحول إلى خطرعلى المجتمع، من هنا فإن رعاية اليتيم أيضاً فيها حماية للمجتمع، وفيها رعاية للإنسان، وفيها رضوان الله عزوجل، وذلك في كل وقت، ويتأكد ذلك في الأوقات التي يحتاج فيها اليتيم للرعاية. مثال ذلك غداً سيطل العيد، - ونسال الله تعالى أن لا يفجع أحداً بكافله ومُعيله، - سيطل العيد وعند المسلمين أيتاماً، واليتيم يفتح عينيه ينظر بهما إلى أبناء قريته، يميناً وشمالاً، فيراهم قد لبسوا الملابس الجديدة، وبأيديهم اللعب، والطعام موفر لديهم، وغير ذلك من شؤون الحياة، وهو قد يكون في أمس الحاجة، ليس عنده مَن يسد حاجته، أو أن يشبع جوعته، أو أن يجعله بمستوى الأطفال الآخرين، فلا شك أنه بطبيعة

---

(١) التبيان الشيخ الطوسي ج ٢، ص١٧٥، تفسير مجمع البيان الشيخ الطبرسي ج ٣، ٧٨ - ج٦، ص٣٩٤.

(٢) سورة الماعون، الآيات: ١، ٣.

الحال يتحول إلى دموع وإلى حسرات، وإلى آهات وآلام، فعندما يتصور الإنسان أنه قد طل العيد، وهناك يتيم بين ظهراني المسلمين وهم تاركوه، ألا يعتقد أن المحلة التي فيها يتيم من هذا النوع، أن الله يسلب رحمته عنهم؟ لأن رعاية اليتيم في هذه الفترة بالخصوص من أعظم المقربات إلى الله تعالى، ولهذا زكاة الفطرة إنما شرعت لهذا وأمثاله، فمن قبل يستطيع الإنسان أن يخرجها إلى المحتاج، وذلك بعنوان القرض[١]؛ ثم يحتسبها عليه فطرة، كما أنه لا يتقيد بالمبلغ المعين فقط، فكلما يُقدم كلما يُزاد في أجره وثوابه، بل أن في ذلك زيادة خلق، وزيادة أريحية، تحتمه التربية الإسلامية. فالله، الله بيتامى المسلمين، وبالبيوت الضعيفات، وبالمرأة الأرملة وبالعاجز. قال ﷺ: **(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)**[٢].

يقول بعض المفسرين: إن الله عز وجل إنما أبكىٰ يعقوب زمناً طويلاً على يوسف، لأنه أكل ذات يوم طعاماً وإلى جانبه جارٌ جائع، غفل عنه، وإلا حاشى نبي الله أنه يعلم به، بل أنه كان غير متنبه إلى وجوده. فكثير من الروايات تقول أنه عرض إلى هذا اللون من الابتلاء، لأنه حرم الجار الجائع - بدون قصد واقعاً - لأنه كما هو معروف حسنات المقربين سيئات الأبرار، فمن المفترض من مثله أن يسأل عن جاره، وهذه مرتبة من المراتب الخلقية التي يسجلها التاريخ لحاتم بن عبد الله الطائي في داليته، التي طالما كان الإمام أمير المؤمنين يتمثل بها يقول:

أيا بنت عبد الله وبنت مالك ويا بنت ذي الوردين والأسد الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلاً فإني لست آكله وحدي

---

(١) انظر منهاج الصالحين ج ١، ص ٣٢٧ (مسألة ١١٧٩): الظاهر جواز تقديمها في شهر رمضان، وإن كان الأحوط التقديم بعنوان القرض. إنتهى كلامه أما في كتاب شرائع الإسلام فإنه قال: (الثابت في وقتها وتجب بهلال شوال، ولا يجوز تقديمها قبله، إلا على سبيل القرض.

(٢) الرسالة السعدية - العلامة الحلي - ص ١٤٤، المجموع ج ١٥، ص ٣٦٧.

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد[1]

واقعاً لا يُتصور أن البيت الذي ليست فيه رحمة، تحل فيه من الله الرحمة أبداً، لأن الله تعالى ما خلق شيئاً أحب إليه من الرحمة، فهو الرحيم، وأحب من عباده أن يتخلقوا بأخلاقه، فإذاً نحن في هذه الليلة نكرر عبارة أمير المؤمنين : (الله، الله في يتامى المسلمين) إذا كان البلد أهله أغنياء، وليس فيه مصرف لهذه الأموال، - والأمر ليس كذلك - هناك بلدانٌ أخرى فيها يتامى للمسلمين يتعرضون للجوع والعرى، وذلك أن آبائهم ذهبوا بفعل الظالمين، ومكثوا جياعاً، هؤلاء الله، الله بهم، في كل قطر من أقطار الأمة الإسلامية، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

المبحث الثاني في الحديث في الآية الثانية، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ للمفسرين رأيان في معنى السائل.

الرأي الأول: أن المراد بالسائل هو السائل العلمي، فإذا جاء السائل العلمي يسأل العالم، يجب أن لا تكون أخلاق العالم معه ضيقة، فعليه أن يجيبه حتى يستوعب الجواب، وذلك بشرط أن يكون السؤال سؤالاً علمياً، لا أن يكون سؤال تعنت، لأن البعض قد يسأل العالم سؤال تعجيزي، حيث أنه يريد مثلاً أن يمتحن ذلك العالم، هل أنه يعرف تلك المسألة أولا، كما حصل ذلك بالنسبة إلى هشام بن عبد الملك ونافع مولى عمر بن الخطاب، حيث أنهما كانا ذات يوم في المسجد الحرام إذ أقبل الإمام الباقر وأخذ يتنفل بركعات عند مقام إبراهيم، فلما انتهى من الصلاة، التف حوله الناس يسألونه، فلما نظر هشام ساءه ذلك، - بمعنى أنه هل كيف يُحترم شخص آخر بحضرته . فقال نافع: لهشام من هذا الذي قد تداك عليه الناس؟ فقال له هشام: هذا نبي أهل العراق محمد بن علي بن الحسين فقال نافع: لأسألنه عن مسائل لا يجيب عنها إلا نبي أو وصي نبي. فقال هشام: اذهب وأسأله

---

(١) فقه للمغتربين السيد السيساني ص ٢٢٠، نهج البلاغة ج ٣، ص ٧٢. وفي الامالي السيد المرتضى ج ٤، ص ٧٠.

لعلك تخجله. فجاء نافع حتى اتكأ على الناس وأشرف على أبي جعفر وقال: يا محمد بن علي أخبرني كم بين عيسى وبين محمد ﷺ من السنين فرفع الباقر رأسه إليه وقال: (أما حسب قولي فخمسمائة سنة وأما حسب قولك فستمائة سنة). فقال: نافع أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ لنبيه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[1]. فمن الذي سأله محمد ﷺ من الرسل وقد كان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة. فقال: أبو جعفر: (إن ذلك كان ليلة المعراج) ثم تلا عليه قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]. فكان من الآيات التي أراها له أن حشر له النبيين والمرسلين من الأولين والآخرين فصلى بهم محمد ﷺ فلما انصرف من الصلاة قال لهم علامَ تشهدون وما كنتم تعبدون فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وانك رسول الله. قال نافع: صدقت يا أبا جعفر ثم قال: نافع أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[3]. فما معنى هذا الرتق والفتق؟ فقال الباقر عليه السلام: إن الله سبحانه لما أهبط آدم إلى الأرض كانت السماء رتقاً. أي لا تنزل المطر وكانت الأرض رتقاً أي لا تنبت شيئاً فلما تاب الله على آدم فتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات والزرع. فقال نافع: صدقت يا أبا جعفر. وأخيراً قال نافع: بقيت عندي مسألة فقال الباقر عليه السلام: وما هي؟ فقال نافع: أخبرني عن الله سبحانه متى كان؟ أي متى وجد؟ فقال الباقر عليه السلام: (ويلك متى لم يكن حتى أخبرك متى كان. إن الله أزلي أبدي لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يتخذ صاحبة ولم يكن له شريك ولا شبيه). ثم قال له الإمام الباقر عليه السلام: (يا نافع ما تقول في أهل النهروان قتلوا على حق أم على باطل؟ فإن قلت قتلوا على باطل فقد ارتددت

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١

(٣) سورة الأنبياء مقطع من الآية: ٣٠.

عن مذهبك وإن قلت قتلوا على حق فقد كفرت). فسكت نافع وانصرف عنه وهو يقول أنت والله أعلم الناس حقاً حقا. ثم أتى إلى هشام فقال له هشام: ماذا صنعت يا نافع؟ قال: دعني من كلامك، هذا والله أعلم الناس حقاً وهو ابن رسول الله ﷺ حقاً، ويحق لأصحابه أن يتخذوه نبياً[1]. موضع الشاهد أن الإمام أجاب ذلك الرجل مع علمه بأنه جاء ليختبره، وهذا هو درس يضعه الإمام للعلماء، بحيث لا يتضايق من له علم من أن يعلم من ليس له علم، لأن تعليم الجاهل صدقة. ولكن يجب أن يكون السؤال معقولاً، أما الأسئلة التي لا معنى لها فالقرآن الكريم ينهى المؤمنين عنها، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[2]. مثال ذلك أن يكون السؤال ليس محل ابتلاء، أو ليس فيه منفعة للسائل. إذاً فبناءً على الرأي الأول أن المراد بالسائل في الآية الكريمة هو السائل العلمي.

الرأي الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ هو سائل الطعام أو سائل المال، فإذا جاء السائل ووقف، وقال: أعطوني مما أعطاكم الله، يقول القرآن الكريم لا تنهروه، وفي هذه المناسبة ورد حديث مهم على حد تعبير المفسرين قال: ردوا السائل ولو بشق تمرة، وأعطوا السائل ولو جاء على فرس، ولا تردوا سائلاً ذكراً أو أنثى بليل، فإنه قد يسأل من ليس من الجن ولا من الإنس، ولكن ليزيدكم الله به خيراً[3] إن هذا الحديث يحتاج إلى تأمل وإمعان في مضامينه، لأن مضامينه كبيرة، فقوله - ليس من الجن ولا من الأنس - بمعنى أنه قد يكون ملكاً يبعثه الله ليختبر شكر عباده فيما خولهم، لأنه قد يكون شكر النعمة إسداؤها للغير، ولهذا إذا لم يكن عندك شيئاً تعطيه، عليك أن ترده رداً جميلاً، لأن الحرمان أقل من القليل، لهذا قالت الآية: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ يقول أحد الصلحاء: السائل بريد الآخرة، بمعنى أنه يعمل لك زاداً إلى يوم أنت فيه قد تكون في أمس الحاجة إليه.

---

(١) قريب منه في الاحتجاج - الشيخ الطبرسي ج ٢، ص ٥٩.
(٢) سورة المائدة مقطع من الآية: ١٠١.
(٣) دعائم الإسلام - القاضي النعمان المغربي - ج ١، ص ٢٤٣.

حكاية: يروى أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام اشتهى ذات يوم عنباً، فجيء به إليه، وإذا بسائل قد وقف على باب الدار، وقال: أعطوني مما أعطاكم الله تعالى، فأمر الإمام بأن يحمل إليه، فحملوه من بين يدي الإمام ودفعوه إليه، فلما أخذه وأراد أن ينصرف، كان أهل الإمام يعلمون أن الإمام قد اشتهى ذلك العنب، فأعطوه عوض ذلك العنب نقوداً وأخذوه منه، فوضعوه مرة أخرى بين يدي الإمام، فجاء ذلك السائل نفسه فسئل، فأعطياه إليه، وهكذا ثلاث مرات، كلما اشتروه منه يأتي ويسأل، عندها قالوا له: يا هذا أنت سائل أم تاجر - قد يكون القائل أحد الخدم فحاشى أن يصدر عن أهل البيت عليهم السلام - يقول المفسرون فلما سمع الإمام عليه السلام تألم لذلك، وتلى عليهم الآية: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ الغرض أن هناك من يسأل وهو في حاجة، فإذا سأل وهو في حاجة يجب إعطاؤه وعدم نهره.

ولكن البعض قد يحترف السؤال، بمعنى يكون ذلك له حرفة، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (من سأل الناس وعنده قوت ثلاثة أيام لقي الله يوم يلقاه وليس على وجهه لحم)[1] وقد ورد في الحديث: (من سأل الناس من غير فاقة نزلت به، أو عيال لا يطيقهم، يأتي يوم القيامة بوجه ليس عليه لحم)[2] وقال الصادق عليه السلام: (لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحد أحداً، ولو يعلم المسؤول ما عليه إذا منع ما منع أحد أحداً)[3]. لأن السؤال كما يقول الأديب:

ذل السؤال شجىً بالحلق معترضٌ ... من خلفه غصص من دونه جرب
ما مال كفك إن جادت وإن بخلت ... عن ماء وجهي إن أفسدته عوض[4]

فكأنما القرآن الكريم يقول إذا قدر لسائل أن يقف عليكم فلا تنهروه وأعطوه، وليكن العطاء حسب الاستطاعة.

---

(١) جامع السعادات ج٢ ص ٩٩، روى هذا الحديث عينه عن الإمام الصادق عليه السلام (الوسائل كتاب الزكاة أبواب الصدقة الباب ٣٢ الحديث ٥).
(٢) العهود المحمدية: ٧٠٦، كنز العمال ٦: ٥٠٦/ ١٦٧٤٣، الدر المنثور ١: ٣٥٩.
(٣) جامع السعادات ج٢ ص ١٠٠.
(٤) خزانة الأدب - البغدادي ج ١ ص ٤٠٨.

ثم انتقلت السورة الكريمة قالت: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وهنا رأيان:

الرأي الأول: في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، يعني أنك عندما تعطي السائل أو اليتيم، حدث بذلك أصدقاءك، وذلك إذا عرفت أنهم يقتدون بك في ذلك العمل الذي عملته، لأن البعض قد يشجعه على عمل الخير فعل الغير. أي ما يقوم به الآخرون، وفي هذا المعنى رواية عن الإمام الحسين عليه السلام قال: (إذا عملت خيراً فحدث إخوانك ليقتدوا بك)(١) كما أن هناك حديث آخر عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قال: حدث بما أعطاك الله، وفضلك، ورزقك، وأحسن إليك وهداك(٢). ولا شك من أن تبرع الإنسان بالخير، هي نعمة من نعم الله تعالى، فليكن الإنسان يتحدث بنعمه تعالى، ولكن بلحظ أن لا يداخل الإنسان الرياء، لأن الرياء مفسد للعمل.

الرأي الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ هو أن الله عز وجل إذا أنعم على الإنسان بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه)(٣). فكأنه هناك نوعان من الشكر للنعمة. **النوع الأول**: من الشكر على النعمة أن أقول: الحمد لله. **والنوع الثاني**: من الشكر على النعمة هو إظهار النعمة، وإظهارها تارةً يكون في مسكن، وتارةً يكون في مأكل، وتارةً يكون في ملبس، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرشد أصحابه إلى ذلك، يقول المؤرخون: دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم رجل من الأصحاب يعرف أبو الأحوص الجشمي، فلاحظ عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ملابس لا تليق بشأنه. فسأله: ألك مال؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: من أي المال؟ فأخذ يعدد له إلى أن قال: من كلها رزقني الله، - موضع الشاهد - فقال له النبي: فإذا آتاك الله

---

(١) تفسير الرازي للرازي، ج٣١، ص٢٢.
(٢) مجمع البيان ج١٠، ص ٥٠٧.
(٣) نهج الفصاحة، حديث ٦٨٣.

مالاً فلير أثر نعمته عليك وكرامته[1] بمعنى إذا كان الله عز وجل قد أعطاك هذه النعم، فلك أن توسع بها على نفسك وعيالك.

أما أئمة أهل البيت فلهم منهجهم الخاص في اللباس، وهو أنهم كانوا يلبسون اللباس الجيد، ولكنهم يتصدقون به على الناس الذين يعلمون أنهم لا يأخذون الأموال منهم، وهم في حاجة إليها، حتى أن الإمام زين العابدين كان يشتري العبيد لا لقصد أنه في حاجة إلى خدمتهم، وإنما لأهداف أخرى من جملتها أنه يغدق عليهم الطعام ويكسوهم، وإذا أذنب أحدهم لا يعاقبه على ذنبه، وإنما يسجل ذلك عليه، فإذا جاء شهر رمضان، وجاءت ليلة العيد يجلسهم ويجلس معهم ويذكرهم بذلك فقط، ثم يقول لهم: قد عفوت عنكم فهل عفوتم عني ومما كان مني إليكم من سوء ملكة؟ فإني مليك سوء لئيم ظالم مملوك لمليك كريم جواد عادل محسن متفضل. فيقولون قد عفونا عنك ياسيدنا، وما أسأت، فيقول لهم قولوا: اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا عنا وأعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرق فيقولون ذلك[2]، ثم يعتقهم ويعطيهم شيئاً من المال ويأمرهم بالعمل في طاعة الله تعالى. فهذه هي روحية أهل البيت عليهم السلام التحدث بنعم الله بالشكل الظاهري. وأما في الباطن فلهم مع الله حالات خاصة لا يجاريهم فيها أحد، وكانوا تجسيداً للآيات الكريمة التي مرت: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ وليس مغالاة أن نقول: كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يطبق هذه الآيات الثلاث، وكل آيات القرآن الكريم. ولكي نختم حديثنا نأتي بشاهد واحد يقول المؤرخون كان أمير المؤمنين عليه السلام: يجلس الأيتام في حجره ويلعقهم العسل المصفى بيده، وكان يتألم إذا أصاب أحدهم مكروه حتى كان يردد:

---

(١) فقه السنة ج ٣، ص ٤٧٥.

(٢) قريب منه انظر جامع أحاديث الشيعة السيد البروجردي ج ٩، ص ٢٧.

ما إن تأوهت من شيء رزيت به كما تأوهت للأطفال في الصغر
قد مات والدهم من كان كافلهم في النائبات وفي الأسفار والحضر(١)

وصلى الله على محمد وآل محمد



(١) الخرائج والجرائح - قطب الدين الراوندي ج٢، ص ٥٤٤، مدينة المعاجز - السيد هاشم البحراني ج٢، ص ٧٣، بحار الأنوار ج٣٣، ص ٤٧/ج٤١، ص ٢٢١. وفي كتب أخرى.

الفهرس

الموضوع | الصفحة



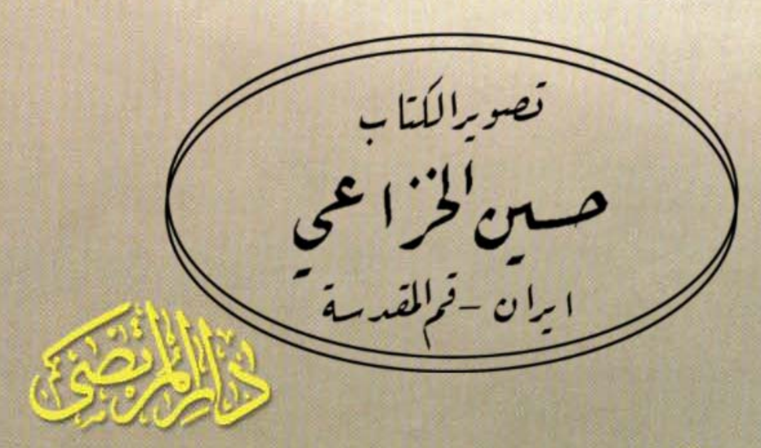
هذا الكتاب

يحتوي على ٣٥ محاضرة ومجلس عزاء حسيني ألقاها عميد المنبر الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، لليالي وأعياد الشهر الكريم.

وقد اعتنى بها وأعدها وعلّق عليها الشيخ الفاضل عبد الحسين ابن رضي بن عبد النبي شهاب الدرازي البحراني.

والله من وراء القصد

الناشر



دار المرتضى
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان ص.ب. ٢٥/١٥٥ - الغبيري
تلفاكس: ٨٤٠٣٩٢ ١ ٠٠٩٦١ - هاتف: ٩٥٠٤١٢ ٧٠ ٠٠٩٦١
E-mail:mortada14@hotmail.com